شارلوت برونتي

جين اير

مكتبة علي بن صالح الرقمية

شارلوت برونتي

جـــين آيير

روايــــة

ترجمة : "غير معروف"

1847

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مقدمة

لما كان وضع مقدمة للطبعة الأولى من «جين ايير Jane Eyre» أمراً غير ضروري فإني لم أصدرها بأيّة مقدمة. ولكن هذه الطبعة تحتاج إلى بضع كلمات فيها شكر وفيها ملاحظات مختلفات.

وإنّما يتعيَّن عليّ أن أوجِّه شكري إلى ثلاثة فرقاء:

إلى جمهور القرّاء للأذن الواعية التي أعاروها هذه القصة الساذجة التي لا تدّعي أشياء كثيرة.

وإلى الصحافة لما أفسحته من حيّز رحب، في صفحاتها، لناشئة مغمورة.

وإلى ناشر «جين ايير» الذي أسدى بحصافته، ونشاطيته، وروحه العملية، وتحرره الصريح، عونًا غير يسير إلى مؤلفة مجهولة لا تتمتع بأيما تزكية.

إنّ الصحافة والجمهور، ليسا عندي، غير تشخيصين غامضين، ومن أجل ذلك يتعيّن عليّ أن أزجي إليهما الشكر في صيغ غامضة. أمّا ناشر قصّتي هذه فهو كائن راهن محدد، وكذلك كان بعض نقّادي الأسخياء الذين شجّعوني كما يشجع الرجال ذوو القلوب الكبيرة والعقول الرفيعة، دون غيرهم من الناس، غريبة مناضلة، فإليهم، أعني إلى ناشري وناقدي قصتي المختارين، أقول في إخلاص: «أيّها السادة، إنّي أشكركم من قلبي».

حتّى إذا أدّيت واجب الشكر إلى أولئك الذين طوّقوا عنقي بعونهم وتزكيتهم، التفتُّ إلى أخرى، فئة صغيرة، على قدر ما أعلم ولكن هذا لا يدعو إلى إغفالها البتّة. أعني أولئك النفر القلائل المروعي الفؤاد أو المولعين بالتنقيب عن المزالق، الذين يرتابون في نزعة كل كتاب من مثل «جين ايير» والذين يبدو كلّ ما هو غير مألوف شيئاً غير صحيح في أعينهم، والذين تكشف آذانهم في كل احتجاج على

التعصّب – أبي الجريمة – إهانة للورع، الذي هو نائب الله على الأرض. إنّي أحب أنّ أنبّه أمثال هؤلاء المتشككين إلى بعض الفروق الواضحة – أحب أن أذكّرهم ببعض الحقائق البسيطة.

إنّ التقليدية شيء والأخلاقية شيء آخر، والرياء ليس هو الدين. ومهاجمة الأول لا تعني شنّ حملة على الآخر– إنّ نزع القناع عن وجه الفرّيسي لا يعني أنك ترفع يداً كافرة إلى «تاج الأشواك»[1].

(1) تقصد أن نزع الأقنعة عن وجوه المرائين لا يعني التطاول على مقام المسيح (المعرب).

إنّ هذه الأشياء والأعمال لَعَلَى طرفي نقيض. إنّها لتتمايز تمايز الرذيلة عن الفضيلة. ولكن كثيراً ما يخلطون بينها، وهو أمر يجب أن لا يحدث يجب أن لا نتوهّم المظهر حقيقة. والمذاهب البشرية الضيقة، تلك التي لا تنزع إلّا إلى تعظيم فئة قليلة وتبجيلها، يجب أن لا تستبدل بعقيدة المسيح الفادية للعالم كله. إنَّ ثمة – وأكرر ذلك – لفرقا. وإنه لعمل صالح، لا عمل طالح، أن نرسم في وضوح بالغ الخط الفاصل بينهما.

قد لا يرتاح الناس إلى رؤية هذه الآراء يُنزل بها الأذى، ذلك بأنّهم تعوّدوا أن يؤالفوا ما بينها، واجدين من المناسب أن يعتبروا المظهر الخارجي شيئاً أصيلاً ينطوي على قيمة حقيقية، وأن يدَعوا الجدران المطلية بالكلس تضمن الهياكل النظيفة. إنهم قد يكرهون ذلك الذي يجرؤ على فحص الأشياء والكشف عن حقيقتها، على إزالة القشرة الذهبية وإظهار ما تحتها من معدن خسيس، على اقتحام الضريح المقدس، وبعثرة ما بقي فيه من عظام. إلّا فليبغضوه ما شاءوا إنهم يظلون برغم ذلك مدينين له.

إن أخاب[1] لم يحب ميخا[2] لأنه لم يتنبّأ له في أيما يوم من الأيام بغير الشر، ولعلّه قد أحب ابن شنعان

المتملَق أكثر. ومع ذلك فقد كان في إمكان أخاب أن ينجو من موت دام لو أنه أوصد أذنيه دون الملق والتزلّف، وفتحهما للنصيحة المخلصة

(1) Ahab أحد ملوك التوراة (المعرب).

(2) Micaiahأحد أنبياء التوراة (المعرب).

إنّ في أيامنا هذه لرجلاً لم تُصَغْ كلماته لتدغدع الآذان الرقيقة، رجلاً يسمو في رأيي على أفذاذ المجتمع كما سما ابن أملح[3] على ملوك يهوذا وإسرائيل المتوّجين، وينطق بالحقّ عميقاً كما نطق به، قوياً وحيوياً على نحو نبوي - سيماء لا تقل عنه بسالة وجرأة. هل كان ساخر رواية «معرض الزهو» Vanity Fair موضع الإعجاب في الأوساط العالية؟ لست أدري ولكنني لا أستطيع إلا أن أتساءل: لو أن بعض أولئك الذين قذفهم بنار سخريته الإغريقية ورماهم بصواعق تشهيره أفادوا من تحذيراته في الوقت المناسب أما كان في ميسورهم، هم أو ذريتهم، أن يتجنّبوا مصيراً بالغ الشؤم؟

(3) كان أملح معلماً في مدرسة الأنبياء على عهد الملك آخاب وكان ابنه يتنبأ للملك بأحداث مشئومة (المعرب).

لماذا ألمعت إلى هذا الرجل[4]؟ لقد ألمعت إليه، أيها القارئ، لأني أحسب أني أرى فيه مفكراً أعمق وأكثر تفرّداً ممّا أقرّ به معاصروه. لأني أعتبره مجدد العصر الاجتماعي الأول - لأني أعتبره سيد تلك الكتيبة العاملة التي سوف توفق إلى ردّ نظام الأشياء الضال إلى الطريق القويم. لأني أعتقد أنه ما من معلق على كتاباته عثر حتى الآن على التشبيه الذي يلائمه، والتعابير التي تبرز مزايا موهبته على الوجه الصحيح. يقولون إنّه مثل فيلدينغ، ويتحدّثون عن ذكائه وظرفه ومقدرته الهزلية. إنه يشبه فيلدينغ كما يشبه عقاب نسراً: كان في إمكان فيلدينغ أن يحطّ على جثة، ولكن ثاكاري ما كان قادراً على مثل ذلك قط. إن ذكاءه لمشرق، وأن ظرفه لجذاب، ولكن كلا من ذكائه وظرفه يمت إلى عبقريته الجدية بمثل الصلة التي

تربط ما بين مجرد برق خافق يومض تحت حافة سحابة الصيف وبين شرارة الموت الكهربائية المخبوءة في رَحِمِه. وأخيراً لقد ألمعت إلى مستر ثاكاري لأني أهديت إليه - إذا ما قَبِلَ تقدمة فتاة غريبة عنه تماماً - هذه الطبعة من «جين ايير».

(4) تعني وليام ثاكاري صاحب «معرض الزهو» (المعرب).

شارلوت برونتي
21 ديسمبر 1847

[1]

كان من المتعذّر علينا أن نقوم، ذلك اليوم، بنزهة على الأقدام. والواقع أننا كنا قد سلخنا ساعة من ساعات الصباح في التطواف في مجتمع الشجيرات التي عُرِّيَتْ من أوراقها. ولكنّ ريح الشتاء الباردة كانت قد حملت معها منذ الغداء (ذلك أن مسز ريد كانت تتناول طعام الغداء باكراً حين لا يكون ثمة ضيوف) سحباً قاتمة جداً وأمطاراً غزيرة جداً حتّى لقد أصبح كلّ تفكير في القيام، آنذاك، بنزهة إضافية أمراً غير وارد.

وسرّني ذلك، فأنا لم أحب في أيما يوم من الأيام الانطلاق في نزهات طويلة على الأقدام، وبخاصة في الأصائل الباردة. وكنت أرهب العودة إلى البيت في الغسق الرطب، بأصابع خدّرها البرد الذي أضرّ بيدي وقدمي، وبقلب أحزنه تعنيف بيسي، الحاضنة، وتأنيبها، وأذلّة الشعور، بدونيتي البدنية إزاء اليزا، وجون، وجورجيانا ريد.

وكانت إليزا، وجون، وجورجيانا يتحلّقون الآن حول أمهم في حجرة القعود، وقد استلقت هي على أريكة قريبة من المستوقد، يحيط بها أولادها (غير آخذين، مؤقتاً، بأسباب الشجار والصياح) وبدت على وجهها أمارات السعادة كاملة غير منقوصة. أما أنا فكانت مسز ريد قد أعفتني من الانضمام إلى الحلقة قائلة إنها «تأسف لاضطرارها إلى إبقائي على مبعدة منها، وأنها سوف يتعيّن عليها حقاً (إلّا إذا سمعت من بيسي أو استطاعت أن تكتشف بملاحظتها هي أني أحاول في كثير من الجد أن أكتسب نزعات أليق بالطفولة وأدنى إلى المخالطة والعشرة وعادات أحفل بالجاذبية والمرح... شيئاً أكثر رقّة وصراحة وطبيعية) أن تحرمني الامتيازات التي جُعلت، لصغار الأطفال القانعين السعداء ليس غير»

وسألتها: «وما تقوله بيسي عني؟»

– «جين. أنا لا أحب المكابرين والمستجوبين، وإلى هذا، فإن من المقيت، حقاً أن تقاطع طفلة، من هو أكبر منها سناً، وتعمد إلى تصحيحها على هذا النحو. اقعدي في مكان ما. واعتصمي بالصمت إلى أن تؤانسي في نفسك القدرة على الكلام بطريقة مهذبة».

وكانت تحاذي حجرة القعود حجرة صغيرة مخصصة لتناول طعام الصباح. فانسللت إلى هناك، وكان في تلك الحجرة الصغيرة مكتبة ما لبثت أن اخترت منها مجلداً حرصت على أن يكون حافلاً بالرسوم. وارتقيت الأريكة المحاذية، وضممت إحدى رجلي إلى الأخرى وجلست متربّعة على الطريقة التركية، حتّى إذا جذبت الستارة الحمراء المزخرفة جذباً شبه كامل وجدت نفسي مصونة في عزلة مزدوجة.

كانت طيات من ستائر قرمزية تحجب الرؤية عن عيني، من ناحية اليمين. ومن ناحية الشمال كانت ألواح الزجاج الصافية تقيني من ذلك النهار القاتم الكئيب، من نهارات تشرين الثاني (نوفمبر) ولكن من غير أن تفصلني عنه. وفي ما بين الفينة والفينة رحت أستجلي – وأنا أقلب صفحات كتابي – طلعة ذلك الأصيل الشتوي. لقد تكشّف، في المدى البعيد، عن أفق شاحب من ضباب وسحاب. في حين وقعت عيناي، غير بعيد عني، على مرجة ندية وشجيرات أضرّت بها العاصفة، وعلى مطر موصول كانت هبات ريح طويلة تسوقه أمامها في وحشية.

ورجعت إلى كتابي: «تاريخ الطيور البريطانية» لمؤلفه بيويك. ولم أكن لأهتم، على الجملة، بالنصّ المطبوع إلاّ قليلاً، ومع ذلك فقد كانت ثمة صفحات تمهيدية لم يكن في وسعي – رغم حداثة سني – أن أمر بها مرور الكرام. كانت هي تلك الصفحات التي تتحدّث عن مساكن طيور البحر، وعن «الصخور المنعزلة ورؤوس الهضاب المندفعة نحو البحر» التي لا يأوي إليها غير تلك الطيور، وعن شاطئ

النرويج المرصّع بالجزر من أقصاه الجنوبي، المعروف باللنديينيس Landeness أو نايز Naze، إلى الرأس الشمالي North Cape.

«حيث المحيط الشمالي في دواماته الضخمة يغلي حول جزر «تول» القصية، الكئيبة، العارية، وحيث أمواج الأطلسي تتواثب بين جزائر «هبريد»[1] العاصفة».

(1) جزائر هبريد Heprides أو هبريد الغربية. وتقع غربي اسكتلندا (المعرب)

لا، ولم أستطع أن أمرّ مرور الكرام بوصفه للشطآن الباردة المفتوحة بوجه الرياح في لا بلاندا، وسيبيريا، وسبيتزبيرغن، ونوفا زامبلا، وآيسلندة، وغرينلاندة، وتصويره «لامتدادات منطقة القطب الشمالي المترامية، وتلك الأصقاع المهجورة ذات الأمداء الموحشة – مستودع الصقيع والثلج ذاك، حيث حقول الجليد الراسخة المتراكمة خلال قرون من فصول الشتاء، المتوهّجة في قمم البية[2] فوق قمم البية، تطوق القطب وتستقطب قساوات البرد القصوى المتضاعفة». ومن هذه الدنياوات التي يرين عليها بياض كبياض الموت كوّنت فكرة ذاتية: فكرة وهمية مثل جميع الفكرات نصف المفهومة التي تطفو على نحو ضبابي في عقول الأطفال ولكنها برغم ذلك تأخذ بمجامع القلوب على نحو عجيب. كانت الكلمات في تلك الصفحات التمهيدية تتعلّق بالرسوم الصغيرة التي تلت، وتضفي مغزى على الصخرة المنتصبة وحدها في بحر من الأمواج المتلاطمة ذات الرذاذ المتطاير، وعلى الزورق المحطم الذي جنح عند شاطئ مهجور، وعلى القمر البارد الرهيب الذي كان يختلس النظر عبر قضبان من السحب إلى حطام سفينة ما تزال تأخذ سبيلها إلى الغرق

(2) نسبة إلى جبال «الألب».

كانت عاطفة مستغلقة على فهمي تلف فناء الكنيسة المتوحد الساكن بشواهد قبوره المنقوشة، وقد أحاط ببابه وبشجرتيه الاثنتين وبأفقه الخفيض جدار متهدّم، ونهض الهلال الطالع منذ قريب دليلاً على هبوط الليل.

أما السفينتان اللتان أخلدتا إلى السكون فوق بحر هامد خدر فقد حسبتهما شبحين بحريين.

وأما الشيطان الذي كان يحمل على ظهره صرة لص فلم أقف عنده إلاّ قليلاً. لقد كان مشهداً مخيفاً.

وكذلك كان ذلك الشيء الأسود ذو القرنين. الجالس على انفراد فوق إحدى الصخور، المستغرق في مراقبة حشد قصي يحيط بمشنقة.

لقد روت كلّ صورة من صور الكتاب قصة، قصة كثيراً ما كانت مبهمة على مداركي الفجّة ومشاعري الناقصة، ولكنها برغم ذلك ماتعة كل الإمتاع، ماتعة كحكايات بيسي التي كانت تقصّها علينا أحياناً في ليالي الشتاء كلّما اتفق أن كانت هادئة النفس رائقة المزاج، وكلما أجازت لنا، بعد أن تدني منضدة الكيّ إلى مستوقد حجرة الأطفال، أن نتحلّق حولها، وراحت تغذي انتباهنا اللاهف – فيما هي تكوي أطواق مسز ريد الموشاة، وتجعد حواشي طاقية نومها – بمقاطع حب ومغامرة منتزعة من قصص الجن العتيقة والقصائد القصصية الشعبية الأشد عتقاً، أو من صفحات «باميلا» (كما اكتشفت في فترة متأخرة) و «هنري سيد مورلند».

واستشعرت آنذاك، وكتاب بيويك على ركبتي، أني سعيدة، سعيدة على طريقتي الخاصة على الأقل. كنت أخشى شيئاً واحداً ليس غير: أن يقطع تأمّلاتي طارىء ما. وما هي إلاّ لحظات حتّى كان ما خفت أن يكون. لقد فتح باب حجرة الفطور وصاح صوت جون ريد: «بوه! مدام موب!».

ثم إنّه توقف. لقد بدت له الحجرة خالية ليس فيها أحد. وبعد لحظة أضاف: «يا للشيطان! أين هي؟ ليزي! جورجي! (منادياً أختيه) جين ليست هنا. قولا لماما إنها فرّت تحت وابل المطر. البهيمة الشريرة» !.

وقلت في ذات نفسي: «حسناً فعلت عندما جذبت الستارة»! وتمّنيت في حرارة أن لا يهتدي إلى مخبأي. ولقد كان خليقاً به أن لا يهتدي إليه بنفسه، إذ كانت تعوزه

رشاقة البصر بقدر ما تعوزه رشاقة الإدراك، ولكن ليزا ما لبثت أن أقحمت رأسها من وراء الباب وقالت في الحال: «إنها جالسة، من غير شكّ، على المقعد المجاور للنافذة، يا جاك»!.

وغادرت مخبأي في الحال، فقد ارتعدت أوصالي حالما تصوّرت «جاك» ذاك يسحبني منه سحباً. وسألت في تهيّب أخرق: «ماذا تريد؟»

فكان الجواب: «قولي: ماذا تريد يا سيد ريد؟ أنا أريد منك أن تجيئي إلى هنا». وقعد على كرسي ذي ذراعين، وأومأ أليّ بما معناه أن عليّ أن أقترب وأمثل بين يديه.

كان جون ريد تلميذاً في الرابعة عشرة، أكبر منّي بأربع سنوات، إذ كانت سني لا تعدو العاشرة. كان ضخماً قوي البنية بالنسبة إلى سنّه، ذا بشرة قاتمة لا تؤذن بصحّة جيدة، وأسارير غليظة في وجه عريض، وأوصال ثقيلة، وأطراف كبيرة، وكان من دأبه أن يلتهم الطعام، على المائدة، التهاماً، حتى لقد أصبح صفراوياً ممروراً، وحتى لأصبح بصره أغبش راشحاً، ووجنتاه مترهلتين. كان خليقاً به أن يكون الآن في المدرسة ولكن أمّه كانت قد جاءت به إلى البيت ليقضي فيه شهراً أو شهرين «بسبب من صحّته الرقيقة». لقد أكّد مستر مايلز، ناظر المدرسة، إن صحة جون يمكن أن تتحسّن كثيراً إذا ما تلقى من البيت مقداراً أقل من الحلويات والسكاكر، ولكن قلب الأم أعرض عن هذا الرأي الموغل في القسوة ومال إلى فكرة أرق، فكرة تقول بأن شحوب جون ناشئ عن الإرهاق، وربما عن الحنين إلى البيت.

ولم يكن صدر جون لينطوي على حب كبير لأمه وأختيه. أما أنا فلم يكن يستشعر نحوي غير الكراهية. كان ينتهرني ويعاقبني، لا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، ولا مرة أو مرتين في اليوم، ولكن على نحو موصول. كان كلّ عصب من أعصابي يخافه، وكانت كل مضغة من مضغ اللّحم التي تكسو عظامي تتقبض إذا ما اقترب مني. ولقد أتت علي لحظات شدهت فيها بسبب من الذعر الذي كان

يوقعه في ذات نفسي، إذا لم يكن لي أي مفزع ألجأ إليه من تهديداته وعقوباته. فقد كان الخدم لا يحبُّون أن يغضبوا سيّدهم الفتى بالانتصار لي منه، وكانت مسز ريد صمّاء عمياء في هذا الموضوع: إنها لم تره في ايما يوم يضربني ولم تسمعه يشتمني، على الرغم من أنه كان لا يتورّع' بين الفينة والفينة، عن القيام بالفعلين في حضرتها هي. بيد أنه كان يقدم على ذلك، من وراء ظهرها في الأعمّ الأغلب.

وإذا كان من مألوف عادتي أن أذعن لأوامر جون فقد تقدّمت نحو كرسيه. لقد أنفق نحواً من ثلاث دقائق في إخراج لسانه في وجهي أقصى ما استطاع أن يخرجه. وكنت أعلم أنّه سوف يضربني وشيكاً، وفيما أنا أرتعد خوفاً من الضربة رحت أتأمل أي وجه كريه بشع كان وجه الفتى الذي سينهال بالضربة عليّ في الحال. وإني لأتساءل هل قرأ تلك الفكرة على وجهي، إذ إنه ما لبث أن ضربني، من غير أن ينطق بكلمة، ضرباً مفاجئاً ومبرحاً. وترنحت، حتى إذا استعدت توازني ارتددت مبتعدة عن كرسيه، خطوة أو خطوتين.

وقال: «هذا من أجل الوقاحة التي أظهرتها في الردّ على ماما منذ لحظات، ولأسلوبك الجبان في الاختباء خلف الستائر، وللنظرة التي التمعت في عينيك، أيتها الفأرة، منذ دقيقتين».

وإذ كنت قد ألفت سباب جون ريد فلم يخطر ببالي قط أن أردّ عليه. كان كلّ همّى أن أبحث عن طريقة تمكنني من احتمال الضربة التي ستعقب الإهانة من غير ريب.

وسأل: «ما الذي كنت تفعلينه خلف الستارة ؟»

– «كنت أقرأ»

– «أريني الكتاب!».

عندئذ انقلبت إلى النافذة لأجيئه به من هناك.

– «ليس من شأنك أن تأخذي كتبنا. ماما تقول إنّك عالة علينا. أنت لا تملكين مالاً، فأبوك لم يخلف لك منه شيئاً. كان خليقاً بك أن تشحذي، لا أن تعيشي هنا مع أمثالنا من أولاد السادة، ولا أن تُطْعَمي مآكلنا نفسها، وترتدي الثياب على نفقة ماما. والآن، سوف أعلمك كيف تعبثين برفوف مكتبتي، لأن هذه الكتب هي كتبي أنا. إن البيت كلّه ملكي، أو سيصبح ملكي بعد بضع سنوات. اذهبي وقفي قرب الباب، بعيداً عن المرآة والنوافذ».

وصدعتُ بما أمرتُ، غير مدركة بادئ الأمر ما الذي كان ينتويه. ولكني ما إن رأيته يرفع الكتاب يوازنه ويقف لكي يقذفني به حتى وثبت، بحكم الغريزة، جانباً مطلقة صيحة ذعر. بيد أن وثبتي لم تكن سريعة على نحو كاف. فقد قذف بالمجلد، فأصابني، فسقطت على الأرض، فارتطم رأسي بالباب، فجرح وسال الدم من الجرح، وكان الألم حاداً. حتى إذا تخطّى ذعري أوجه تعاقبت عليَّ مشاعر أخرى.

وقلت: «أي ولد شرير ووحشي أنت! أنت أشبه بقاتل... أنت أشبه بسائق العبيد... أنت مثل الأباطرة الرومان»!

كنت قد قرأت «تاريخ رومة» لغولد سميت وكونت فكرة خاصة عن نيرون، وكاليغولا إلخ.. بل لقد كنت، في ما بيني وبين نفسي، قد عقدت بعض التشبيهات والمقارنات ولكن من غير أن يخطر لي قط أني سوف أصرح بها، جهاراً، كما فعلت الآن.

فصاح: «ماذا؟ ماذا؟ هل قلت ذلك لي؟ هل سمعتها يا اليزا؟ هل سمعتها يا جورجيانا؟ سوف أخبر ماما بذلك، ولكن عليّ أولاً...».

واندفع نحوي: لقد أحسست به يمسك بشعري وبكتفي، وينقض عليّ في يأس. ورأيت فيه – حقاً – طاغية من الطغاة، قاتلاً من القتلة واستشعرت قطرة دم أو قطرتين تسيلان من رأسي وتتحدّران على رقبتي، وأحسست بآلام لاسعة. وهيمنت هذه الأحاسيس على ذعري، مؤقتاً، فرددت له الضربات على نحو مسعور. أنا لا

أدري جيداً ما الذي فعلته بيدي الاثنتين ولكنه صرخ «فأرة! فأرة»، وأنشأ يخور. وأسعفته النجدة في الحال: كانت اليزا وجورجيانا قد هرعتا إلى مسز ريد – وكانت قد صعدت إلى الدور العلوي – فأقبلت إلى ميدان المعركة تتبعها «بيسي» و «آبوت» وصيفتها. وفصلن أحدنا عن الآخر. وسمعت الكلمات التالية:

– «يا إلهي! يا إلهي! أي سعار هذا؟ أتهجمين على السيد جون؟»

– «هل قدر لأي امرئ أن يرى مثل هذا الانفعال من قبل؟»

ثم إنّ مسز ريد ألحقت هذه الكلمات بقولها:

– «أبعداها إلى الحجرة الحمراء، وأغلقا عليها بابها».

وفي الحال انقضت عليَّ أيد أربع، وحملت إلى الدور العلوي.

[2]

قاومت وقاومت طوال الطريق: شيء جديد بالنسبة إليّ، حدث غير مألوف قوّى إلى حدّ بعيد الفكرة السيئة التي كانت بيسي ومس آبوت ميّالتين إلى تكوينها عني. وفي الحق أنّي كنت مهتاجة بعض الشيء، أو خارجة عن طوري بعض الشيء كما يقول الفرنسيون. ذلك أني أدركت أن تمردي لحظة كان قد عرّضني لعقوبات غريبة، ومثل أي عبد ثائر استشعرت العزم، في يأسي البالغ، على المجازفة بكل شيء.

– «امسكي بذراعيها، يا مس آبوت. إنها مثل قطة مسعورة».

فصاحت وصيفة السيدة: «يا للعار! أي سلوك مخجل هذا الذي سوّغ لك، يا مس ايير، أن تضربي سيداً فتى، أن تضربي ابن ولية

نعمتك! سيّدك الصغير».

– «سيدي؟ ما الذي يجعله سيدي؟ هل أنا خادمة؟»

– «لا، أنت أقلّ من خادمة. لأنّك لا تأتين عملاً ما مقابل لقمة الخبز التي تقيم أودك. كفى، واجلسي وفكّري في خباثتك وسوء خلقك».

وكانتا قد انتهتا بي، الآن، إلى الحجرة التي أشارت إليها مسز ريد وقذفتا بي على كرسي خفيض لا ظهر له. ودفعني حافز غريزي إلى النهوض واثبة عن الكرسي مثل نابض أو زنبرك، فما كان من أيديهما الأربع إلاّ أن صدّتني، في الحال، عمّا كنت أحاوله.

وقالت بيسي: «إذا لم تلزمي مكانك في سكينة اضطررنا إلى أن نحكم وثاقك إلى الكرسي. مس آبوت، أعيريني رباط ساقك! فلو وثقتها برباط ساقي أنا لمزّقته في الحال».

واستدارت مس آبوت لتجرّد رجلها القوية من القيد الضروري. وكان في هذا الاستعداد لتقييدي وما يفيده من خزي إضافي ما ذهب ببعض اهتياجي.

وصحت: «لا تخلعيهما. أنا لن أتحرّك قيد شعرة»!

ولكي أثبت لهما ذلك سمّرت نفسي إلى مقعدي بيدي الاثنتين.

فقالت بيسي: «الويل لك إن تحرّكت»! وحين وثقت من أنني جنحت للسكينة حقاً أرخت قبضتها عني بعض الشيء. ثم إنها وقفت هي ومس آبوت متصلبتي الأذرع، ناظرتين إلى وجهي في عبوس وارتياب، وكأنّهما كانتا لا تصدقان أني سليمة العقل».

وأخيراً قالت بيسي ملتفتة إلى الوصيفة: «إنّها لم تفعل قط شيئاً مثل هذا من قبل».

فأجابتها الوصيفة: «ولكني كنت أتوقّعه دائماً منها. وكثيراً ما أنبأت سيدتي برأيي في الطفلة، فأقرّتني سيدتي عليه. إنّها مخلوقة صغيرة مرائية. أنا لم أر قط في حياتي فتاة في مثل سنها تنطوي على هذا المكر كلّه».

ولم تجب بيسي بشيء. بيد أنّها ما لبثت أن وجّهت الخطاب إليّ فقالت:«يجب أن تعي، أيتها الآنسة، أنّك مدينة لمسز ريد بشيء كثير. فهي تعيلك وتصونك، ولو قد خطر لها أن تطردك إذن لتعيّن عليك أن تذهبي إلى ملجأ المعوزين».

وما كان لدي ما أردّ به على هذه الكلمات. إنّها لم تكن جديدة علي، فذكريات وجودي الأولى نفسها اشتملت على الماعات من الضرب ذاته. وكان تعييري بأنني أحيا عالة على مسز ريد قد أمسى في أذني أغنية رتيبة غامضة، أغنية مؤلمة تسحق النفس سحقاً ولكنها نصف مفهومة.

وضمّت مس آبوت صوتها إلى صوت بيسي فقالت:«ويتعين عليك أن لا تتوهّمي نفسك مساوية للآنستين ريد وللسيد ريد لمجرد أن سيدتي تتلطّف وتجيز لك أن تنشئي معهم تحت سقف واحد. إنهم سوف ينعمون بمقدار ضخم من المال، في حين أنّك لن تنعمي بشيء من ذلك. إن وضعك هذا يجعل من واجبك أن تضعي وأن تحاولي أن تحببي نفسك إليهم».

وأضافت بيسي في صوت لا غلظة فيه: إنّ ما نقوله لك هو في صالحك. يجب أن تحاولي أن تكوني نافعة قريبة إلى النفس، فقد يساعدك ذلك على أن تجدي هنا مأوى تفيئين إليه. أما إذا غدوت ذات حدة وفظاظة، فعندئذ تعمد السيدة، وأنا واثقة من ذلك، إلى طردك».

فقالت مسز آبوت: «وإلى هذا، فإن الرب سوف يعاقبها، إنه قد يميتها في غمرة سورة غضب من سورات نفسها. وإلى أين سيكون مصيرها عندئذ؟ هيا، يا بيسي، فلنتركها وشأنها، أنا لا أرتضي أن يكون لي مثل مزاجها ولو أعطيت في ذلك ملك الأرض. ردّدي صلواتك، يا مس ايير، حين تخلين إلى نفسك، لأن شيئاً رديئاً قد يحصل، إذا لم تستغفري لذنبك، أن يهبط من المدخنة ويتخطّفك».

ثم إنهما خرجتا موصدتين الباب، محكمتين إغلاقه بالمزلاج.

كانت الحجرة الحمراء حجرة احتياطية، لا ينام فيها أحد إلا في النادر، وفي ميسوري أن أزعم، في الواقع، أن أحداً ما كان لينام فيها إلاّ إذا اتّفق لتدفّق الزائرين على قصر «غايتسهيد» أن جعل من الضروري أن يفيد القوم من كلّ زاوية من زواياه. ومع ذلك فقد كانت واحدة من أرحب حجرات القصر وأفخمها. كان سرير ذو دعائم ضخمة من خشب الماهوغاني أسدلت عليه ستائر من دمقس أحمر قاتم، ينتصب كالخباء في وسطها. وكانت النافذتان الكبيرتان، بمصاريعهما الموصودة على نحو موصول، نصف مكسوتين بحبال تزيينية صنعت من الدمقس نفسه. وكانت السجادة حمراء، والمنضدة القائمة عند قدم السرير مكسوة بغطاء قرمزي، والجدران ذات لون أصهب خفيف تشوبه مسحة وردية، وكانت خزانة

الثياب، ومنضدة الزينة، والكراسي مصنوعة كلها من حشب ما هوغاني قديم صقل بلون قاتم. ومن بين هذه الظلال الغامقة المطوّقة للحجرة من أقطارها ارتفعت حشايا السرير ووسائده المركومة، عالية بيضاء الوهج منشوراً فوقها لحاف ثلجي صنع من ذلك النسيج القطني القوي المعروف باسم «مرسيليا». ولم يكن ليقل عن هذه الحشايا والوسائد بروزاً كرسي ضخم وثير قائم قرب مقدّم السرير، وكان ذلك الكرسي أبيض أيضاً، وضع أمامه مسند للقدمين، فهو أشبه ما يكون، في ما بدا لي، بعرش شاحب.

كانت هذه الحجرة باردة، لأنها نادراً ما أوقدت النار فيها، وكانت صامتة بسبب من بعدها عن حجرة الأطفال وعن المطابخ، وكانت موحشة لأن أحداً لم يكن ليدخلها إلاّ في النادر. كانت الخادمة وحدها تقبل إليها مرة كل يوم سبت لتنفض عن الأثاث والمرايا ما استقرّ عليها، خلال أسبوع بكامله، من غبار كثيف. وكانت مسز ريد نفسها تزورها من حين إلى حين لتتفقد محتويات درج سرّي بعينه في خزانة الملابس، درج كانت تدّخر فيه وثائق مختلفة وعلبة حليها، ورسماً زيتياً مصغراً لزوجها المتوفى. وفي هذه الكلمات الأخيرة يكمن سرّ الحجرة الحمراء – الرقية التي أبقتها مهجورة إلى هذا الحدّ برغم فخامتها.

كان مستر ريد قد قضى نحبه منذ تسع سنوات، وكان قد لفظ أنفاسه الأخيرة في هذه الحجرة. هنا سجي في أبّهة، ومن هنا حمل رجال الدفّان نعشه. ومنذ ذلك اليوم ران على الحجرة حس قداسة رهيبة جعلها في مأمن من انتهاك الحرمة انتهاكاً مكروراً.

وكان المقعد الذي تركتني بيسي ومسز آبوت الوحشية مسمرة عليه متكئاً خفيضاً قائماً على مقربة من المستوقد الرخامي. وتجاهي كان ينتصب السرير، وإلى يميني كانت خزانة الملابس الداكنة الشامخة التي كانت انعكاساتها الواهنة المكسرة توقع شيئاً من التباين في لمعان ألواحها الخشبية. وإلى يساري كانت النافذتان الملفعتان بالسجف، وكانت مرآة كبيرة قائمة بينهما تنمّ عن مثل الفخامة

الحمقاء التي تطبع كلاّ من السرير والحجرة. ولم أكن أعلم علم اليقين هل أحكمتا إغلاق الباب بالمزلاج أم لم تحكماه، حتّى إذا آنست في نفسي الجرأة على الحركة نهضت ومضيت لأرى. وأسفاه! لقد اكتشفت أنهما لم تغفلا عن ذلك، وأن الناس لم تعرف قطّ سجناً أشدّ تحصيناً من سجني ذاك. حتّى إذا انقلبت إلى موضعي الأول تعيّن عليّ أن أجتاز بالمرآة، وعلى نحو غير إرادي راحت نظرتي الذاهلة تستطلع الأعماق التي كشفت عنها. إن كل شيء قد بدا في هذا الفراغ الشبحي أشدّ برودة وقتاماً ممّا هو في الواقع. ولقد أوقعت تلك الصورة الصغيرة الغريبة التي كانت تحدق هناك إليّ، بوجهها الشاحب حتّى البياض وذراعيها اللّتين بدتا وكأنّهما رقعة بيضاء وسط الدجنة وعينيها اللامعتين بالخوف المتحركتين حيث كل شيء كان ساكناً – أوقعت تلك الصورة في نفسي مثل الأثر الذي تحدثه روح حقيقية. لقد خيّل إليّ أنها أشبه شيء بتلك الأشباح الضئيلة، التي كان نصفها جنياً ونصفها عفريتياً، والتي صورتها حكايات بيسي المسائية وكأنها منبثقة من الأودية الموحشة يكسوها نبات الخنشار في الأراضي السبخة، وتنتصب أمام أعين المسافرين المتخلفين عن مواعيدهم. ورجعت إلى مقعدي.

كانت الخرافات تحيط بي آنذاك، لكن ساعة انتصارها عليّ انتصاراً كاملاً لم تكن قد حانت بعد كان دمي لا يزال حاراً، وكان مزاج العبد الرقيق الثائر لا يزال يمدّني بعزمه المرير. ولقد تعيّن عليّ أن أصدّ سيلاً عارما من ذكرياتي الماضية قبل أن أنكص في وجه الحاضر الأشأم الرهيب.

لقد برزت اضطهادات جون ريد العنيفة كلها، ولا مبالاة أختيه المتعجرفة كلها، ومقت أمه كله، وتعصب الخدم علي.. برزت جميعها على صفحة عقلي المضطرب كما تختلج الرواسب القاتمة في بئر عكرة. هل قُدر لي أن أتعذب على نحو موصول، وأن أكون مُهانَة أبداً، متهمة أبداً، مدانة أبداً؟ ما الذي يجعلني عاجزة دائماً عن إرضاء من حولي؟ لِمَ كان من العبث الذي لا طائل تحته أن أحاول كسب حظوة ما عند أحد؟ فأليزا العنيدة الأنانية، كانت موضع احترام. وجورجيانا، التي أفسدها الدلال والتي يغلب عليها الخبث اللاسع، والسلوك

المتشامخ كانت موضع تغاض وتسامح من القوم جميعاً. لقد بدا وكأن جمالها، ووجنتيها الورديتين، وخصل شعرها الجعداء كانت توقع البهجة في نفس كلّ من ينظر إليها، وتشتري لها عفواً عن كلّ غلطة من غلطاتها. وجون كان لا يجد من يتصدى لمعارضته بله لمعاقبته، برغم أنه كان يلوي أعناق الحمائم، ويقتل فراخ الطواويس الصغيرة، ويُثير الكلاب على الخراف، ويجرّد عرائش الدفيئات[1] من ثمارها، ويكسر براعم النباتات المختارة النادرة في المستنبت الزجاجي. وكان يدعو أمّه «الفتاة العجوز» أيضاً، ويعيِّرها أحياناً ببشرتها الداكنة التي تشبه بشرته هو، ويستخفّ برغباتها في غلظة، وكثيراً ما كان يمزّق ويتلف أرديتها الحريرية، ومع ذلك فقد ظلّ هو «حبيب قلبها». وكنت أنا لا أجرؤ على ارتكاب أيما خطأ، وكنت أحاول أن أؤدي واجباتي كلّها، ومع ذلك فقد كانوا ينبذونني من الصباح إلى الظهيرة ومن الظهيرة إلى المساء بقولهم إنّي شريرة، متعبة، نكدة، مزاجية.

(1) جمع دفينة Hothouse وهي بيت لتربية النباتات بالحرارة الصناعية.

وفي غضون ذلك، كان رأسي لا يزال يؤلمني من أثر الضربة والسقطة اللّتين أصابتاني، وكان الدم لا يزال يسيل منه إن أحداً لم يؤنّب جون لضربه إيّاى في نزق وطيش، على حين أنّهم أثقلوني بضروب الإهانات المخزية لا لشيء، إلاّ لأنّي تصدّيت للردّ عليه باللغة نفسها لأدرأ عني غائلة اندفاعه في مزيد من العنف المجنون.

– «ظلم!.. ظلم!..» كذلك قال عقلي لي وقد استثاره ذلك المنبّه الموجع حتّى التبريح وبعث فيه قوة نضجت قبل الأوان ولكنها سريعة الزوال. وحداني كلّ ما بي من عزم، وقد استثير هو الآخر على نحو مماثل، إلى أن التمس مختلف الذرائع الغريبة للنجاة من الاضطهاد الذي لا يطاق، كأن أولي فراراً، أو كأن أمتنع – إذا لم أوفّق إلى الفرار – عن الطعام والشراب حتى أموت جوعاً.

أي ذعر لفّ روحي في ذلك الأصيل الموحش! وأيّ جلبة اعتملت بدماغي كلّه، وأيّ ثورة عصفت بفؤادي! ومع ذلك ففي أيّة ظلمة وفي غمرة من أيّة جهالة

مطبقة دارت رحى تلك المعركة الذهنية! أنا لم أستطع أن أجيب عن السؤال الذي ما برح يضجّ في باطني: لماذا يتعيّن عليّ أن أقاسي هذا العذاب كلّه؟ أمّا الآن، وقد أصبحت تفصلني عن ذلك العهد سنوات لن أنصّ على عددها. فإنّ في ميسوري أن أفهم السبب أحسن الفهم.

لقد كنت في «قصر غايتسهيد» نغماً ناشزاً. كنت لا أشبه أحداً من نزلائه، ولم يكن ثمة أيما تناغم بيني وبين مسز ريد أو أولادها أو لفيف خدمها المختار. ولئن كانوا يضنون عليّ بحبهم لقد كنت أنا، في الواقع، قليلاً ما أضمر لهم شيئاً من حب. وما الذي كان يحتم عليهم أن ينظروا بعين الحنان إلى شيء لم يكن يجد أيما مشاركة وجدانية بينه وبين أحد منهم، شيء متنافر يختلف عنهم في المزاج، والموهبة، والميول، شيء حقير غير قادر على أن يخدم أغراضهم أو يزيد في متعتهم، شيء فاسد يغذّي في ذات نفسه جرثومة السخط على معاملتهم والازدراء لتفكيرهم. أنا أعلم أني لو كنت طفلة حادّة الطبع، ذكية الفؤاد، شديدة الإهمال، كثيرة المطالب، وسيمة، نزاعة إلى اللعب الصاخب إذن لاحتملت مسز ريد وجودي على نحو أفضل، وإذن لحاول أولادها أن يجدوا لي في نفوسهم قدراً من المودّة والصداقة أعظم، ولكان خليقاً بالخدم أن يكونوا أقلّ نزوعاً إلى جعلي «كبش فداء» حجرة الأطفال.

شرع ضياء النهار يهجر الحجرة الحمراء. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وكان الأصيل الغائم يجنح نحو غسق كئيب. وسمعت المطر وهو يقرع، ما يزال، نافذة السلم قرعاً موصولاً، والرياح تعوي في الغيضة القائمة خلف القصر. وشيئاً بعد شيء تمشّى البرد في مفاصلي حتّى لقد أصبحت وكأنني قطعة من حجارة، ومن ثم غارت شجاعتي. وإذا بمزاجي المألوف، مزاج الذلّ والشكّ في النفس والكآبة البائسة، يسقط سقوط الندى على جمرات غيظي الخامد. لقد زعموا كلّهم أنني شريرة، ومن يدري، فقد أكون شريرة حقاً! وإلاّ فما الذي جعلني لا أفكّر في شيء غير تجويع نفسي حتّى الموت؟ لقد كان ذلك التفكير جريمة من غير ريب، وإلى هذا، فهل كنت على استعداد للموت؟ وهل كان السرداب الممتد تحت مذبح

كنيسة غايتسهيد مصيراً مغرياً إلى هذا الحد؟ لقد قيل لي إنّ مستر ريد قد دفن في ذلك السرداب، وهذه الفكرة قادتني إلى استحضار صورته في ذهني، وأطلت التفكير في ذلك بذعر متعاظم. ولم أستطع أن أتذكّره، ولكني عرفت أنّه كان خالي – شقيق والدتي – وأنّه كان قد حملني وأنا طفلة يتيمة الأب والأم إلى بيته، وأنّه كان قد سأل مسز ريد، في لحظاته الأخيرة، أن تعده بأن تنشئني وتعيلني وكأني ولد من أولادها. وأغلب الظنّ أن مسز ريد اعتقدت أنها وفت بهذا العهد، وأني لأجرؤ على القول إنها قد وفت حقاً على قدر ما تجيز لها طبيعتها ذلك. ولكن أنى لها، في الحق، أن تحب مخلوقة دخيلة ليست من ذرّيتها، مخلوقة لا يربطها بها – بعد وفاة زوجها – رابط ما؟ ولا ريب في أنه كان ممًّا يضجرها ويرهقها إلى أبعد الحدود أن تجد نفسها ملزمة بعهد انتزع منها عنوة بأن تقوم مقام الأم من طفلة غريبة لم تستطع أن تحبّها، وأن ترى إلى هذه الفتاة الدخيلة ذات الطباع غير المؤتلفة مع طباعها تفرض إلى أبد الدهر على أسرتها الخاصّة.

والتمعت في ذهني فكرة فريدة. أنا لم أشكّ – لم أشك قط – في أنه لو كان مستر ريد حياً إذن لعاملني في إحسان. والآن، فيما كنت جالسة أنظر إلى السرير الأبيض والجدران التي رانت عليها الظلال – ملقية بين الفينة والفينة أيضاً نظرة ذاهلة نحو المرآة المومضة على نحو باهت – شرعت أستحضر في ذهني ما كنت قد سمعته عن الموتى الذين أقلقهم الخروج على رغباتهم الأخيرة واقض مضاجعهم في قبورهم فانقلبوا إلى الأرض لكي يعاقبوا الحانثين بالعهد ويثأروا للمظلومين والمضطهدين. وخطر لي أن روح مستر ريد، وقد غاظتها ضروب الظلم المنزلة بابنة أخته، قد تغادر مثواها، سواء أكان هذا المثوى في سرداب الكنيسة أو في عالم الراحلين المجهول، وتصب أمامي في هذه الغرفة. وكفكفت عبراتي، وكبحت تنهّداتي، خشية أن يكون في أيما إمارة من إمارات الأسى العنيف ما يحفز صوتاً غيبياً إلى مؤاساتي، أو ما يطلع من الدجنة وجهاً تحيط به هالة من نور فينحني نحوي في شفقة غريبة. واستشعرت أن هذه الفكرة – المواسية نظرياً – يمكن، إذا

ما تحقّقت، أن تكون رهيبة، فبذلت غاية جهدي لكي أخنقها.. بذلت غاية جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي. وبهزّة رددت بها الشعر عن عيني رفعت رأسي وحاولت أن أجيل طرفي، بكثير من الجرأة في أرجاء الحجرة المظلمة. وفي تلك اللحظة التمع ضوء على الجدار. وهل كان هذا الضوء – كذلك سألت نفسي – شعاعاً قمرياً تسلل من فرجة ما في مصراع النافذة؟ لا إن أشعة القمر ساكنة، وهذا الشعاع يضطرب. وفيما كنت أحدّق إلى الجدار أنساب إلى السقف وارتعش فوق رأسي. لقد أمسى في مسوري الآن أن أحدس، في غير تردّد، أن عرق الضياء ذاك كان في أغلب الظن ضوءاً منبعثاً من مصباح يحمله امرؤ يتّخذ سبيله في المرجة المحيطة بالقصر. ولكن عقلي كان مستعداً آنذاك للذعر وأعصابي كانت متوترة بالاهتياج فحسبت ذلك الشعاع المضطرب في رشاقة نذيراً برؤيا مقبلة من عالم آخر. ووجب قلبي وتسارعت، دقاته، واشتعل رأسي، وملأ صوت ما أذني، صوت توهّمته اندفاع أجنحة. وبدا لي وكأن على مقربة منّي شيئاً ما، وألمّ بي حصر في الصدر، وكدت أختنق: لقد انهارت قدرتي على الاحتمال، فاندفعت إلى الباب وهززت القفل في جهد يائس. وانطلقت عبر المجاز الخارجي خطى تعدو، ودار القفل، ودخلت بيسي وآبوت.

وقالت بيسي: «مس ايير أمرىضة أنت؟»

وهتفت آبوت: «أيّة ضجّة رهيبة ! لقد نفذت إلى أعماقي» !

فكانت صيحتي: «أخرجاني من هنا! اتركاني اذهب إلى حجرة الأطفال» !

فسألتني بيسي من جديد: «لماذا؟ هل أصبت بأي أذى؟ هل رأيت شيئاً؟»

– «أوه ! لقد رأيت ضوءاً، ولقد خيّل إليّ أن شبحاً سوف يبرزلي»

كنت الآن قد أمسكت بيد بيسي، فلم تنتزعها مني.

فأعلنت آبوت في شيء من التقزّز: «لقد صرخت لغرض في نفسها. وأية صرخة! ولو كانت تقاسي ألماً عظيماً إذن لكان في ميسور المرء أن يعذرها،

ولكنها لم تفعل ذلك إلاّ لكي تجشّمنا كلّنا عناء المجيء إلى هنا. أنا أعرف حيلها الشيطانية».

وهنا تساءل صوت آخر تساؤلاً حاسماً: «علام هذا الصياح كلّه؟» وأقبلت مسز ريد مجتازة الرواق، وقد أطارت الريح جنبات قبعتها، وسمع لردائها حفيف عاصف. «آبوت، بيسي، أعتقد أني أصدرت أمري بأن تترك جين ايير في الحجرة الحمراء حتّي أفد عليها أنا بنفسي».

فاعتذرت بيسي متضرّعة: «لقد أطلقت مس جين صراخاً شق عنان السماء، يا سيدتي».

فكان الجواب الوحيد: «أطلقي يدها. أطلقي يد بيسي، أيتها الطفلة. إنك لن توفّقي، بهذه الأساليب، إلى الخروج من هنا، كوني على ثقة. أنا أكره الاحتيال، وخاصة إذا قام به الأطفال. ومن واجبي أن أريك أن الحيل لا تفيد. عليك أن تبقي هنا ساعة إضافية، ولن أطلق سراحك عندئذ إلا إذا أظهرت خضوعاً وسكينة كاملين».

– أوه، يا امرأة خالي، ارحميني! اغفري لي! أنا لا أستطيع احتمال هذا.. دعيني أعاقب على نحو آخر! سوف يُقضى عليّ إذا...».

– «اخرسي! إن هذا العنف الذي تظهرينه شنيع تشمئز منه النفس» وليس من ريب في أنّها استشعرت ذلك حقاً. لقد كنت في عينيها ممثلة نبغت قبل الأوان. ولقد كانت تنظر إليّ، في خلوص نية، نظرتها إلى مزيج من أهواء مؤذية وروح وضيعة ونفاق خطر.

حتّي إذا انسحبت بيسي وآبوت وضاقت مسز ريد ذرعاً بأوجاعي المسعورة وتنهّداتي الضارية ردّتني إلى الوراء في غلظة بالغة، وأغلقت باب الحجرة عليّ، من غير أن تضيف إلى حديثها الفظ أيما كلمة جديدة. وسمعتها تمضي لسبيلها، وما

إن انقضت على ذلك لحظات حتى أصابني، في ما أحسب، ضرب من النوبة: لقد أسدلت الغيبوبة الستار على هذا المشهد.

[3]

وأول شيء أذكره بعد ذلك هو أني أفقت مستشعرة أن كابوساً رهيباً كان قد ألمّ بي، وإني رأيت أمامي وهجاً أحمر فظيعاً تعترضه قضبان سوداء غليظة. ولقد سمعت أيضاً، أصواتاً تتحدّث في جرس غائر، وكأنما يخمدها اندفاع ريح أو مياه: وتعاون الاهتياج، والشكّ، وشعور بالذعر عارم على تشويش ملكاتي كلّها. وما هي غير فترة يسيرة حتّى وعيت أن شخصاً ما كان يحرّكني بيديه، ويرفعني إلى أعلى ويساعدني على الجلوس، وكلّ ذلك على نحو أرقّ ممَّا قدِّر لي في أيما وقت من الأوقات. لقد أرحت رأسي على وسادة أو على ذراع، وغلب عليّ شعور بالراحة والطمأنينة.

وبعد خمس دقائق تبدّدت سحابة الانشداه: لقد عرفت معرفة اليقين أني كنت في فراشي، وأن الوهج الأحمر لم يكن غير النار المضرمة في المستوقد بحجرة الأطفال، كانت الدنيا ظلاماً، وكانت على المنضدة شمعة تحترق. كانت بيسي واقفة عند قدم السرير حاملة في يدها حوضاً، وكان أحد الرجال جالساً على كرسي قرب وسادتي وكان منحنياً فوقي.

واستشعرت طمأنينة تمتنع على الوصف وثقة مهدئة بأني في حفظ وأمان عندما عرفت أن في الحجرة رجلاً غريباً، فرداً لا يمتّ بصلة إلى قصر غايتسهيد ولا يشدّه إلى مسز ريد نسب ما حتى إذا أشحت بوجهي عن بيسي (على الرغم من أن وجودها كان أدعى إلى الارتياح وأقلّ إثارة للمقت من وجود آبوت لو اتّفق أن كانت محلها، مثلاً) أمعنت النظر في وجه الرجل، لقد عرفته. إنه مستر لويد، وهو صيدلاني يتعاطى الطبابة، كانت مسز ريد تدعوه إلى القصر أحياناً إذا ما لزم

بعض الخدم فراش المرض. أما إذا ألمّت بها هي أو بأحد أولادها علّة ما فعندئذ كانت تستعين بطبيب.

وسألني: «حسناً، من أنا؟»

ولفظت اسمه، باسطة يدي، في الوقت نفسه، نحوه. فأمسك بها مبتسماً وقال: «لن تنقضي غير فترة وجيزة حتّى تستعيدي صحّتك ونشاطك». ثم أضجعني على السرير ووجّه الخطاب إلى بيسي فكلّفها أن تحرص كل الحرص على تجنيبي خلال الليل كل ما يسبب الإزعاج. حتّى إذا زوّدها ببعض التوجيهات الإضافية وألمع إلى أنه سوف يعودني، من جديد، في اليوم التالي غادر الحجرة، مخلِّفا في نفسي شيئاً من حسرة. فقد أحسست طوال جلوسه على مقربة من وسادتي أني في نجوة من الأذى وأنّ جواً من الصداقة يكتنفني. وحين أوصد الباب خلفه رانت الظلمة على الحجرة كلها وغار قلبي كرة أخرى: لقد أثقله أسى يعجز البيان عن تصويره.

وسألتني بيسي في جرس هو إلى الرقة أقرب.. «هل تراودك رغبة في النوم، أيتها الآنسة؟»

ولم أجرؤ على الإجابة إلاّ قليلاً. فقد خشيت أن تكون الجملة التالية فظّة غليظة. وقلت: «سوف أحاول».

– «هل تحبّين أن تشربي أو تستطيعين أن تأكلي شيئاً؟»

– «لا، شكراً يا بيسي».

– «إذن فأحسب أني سآوي إلى فراشي، ذلك بأن الساعة تجاوزت الثانية عشرة، ولكن في إمكانك أن تناديني إذا ما احتجت إلى أيما شيء خلال الليل».

يا له من لطف رائع! لطف جرَّأني على أن أسألها هذا السؤال: «بيسي، ما الذي أصابني؟ أمريضة أنا ؟»

- «احسب أنك سقطت صريعة المرض لشدّة ما بكيت في الحجرة الحمراء. ولسوف تتحسّن حالك وشيكاً من غير ريب».

ومضت بيسي إلى حجرة الخادمة القائمة غير بعيد. وسمعتها تقول: «سارة، تعالي ونامي معي في حجرة الأطفال. أنا لا أجرؤ، حتّى ولو كلّفني ذلك حياتي، على أن أبقى وحدي مع تلك الفتاة المسكينة هذه الليلة. إنها قد تموت. وإنه لمن الغريب أن تصيبها تلك النوبة. ويخيّل إلىّ أنها رأت شيئاً. لقد كانت سيدتي شديدة القسوة عليها في ما أعتقد».

ورجعت سارة معها، وآوتا كلتاهما إلى الفراش. وظلّتا نصف ساعة تتبادلان حديثاً مهموساً قبل أن تستسلما للرقاد. ووفّقت إلى التقاط نتف من حديثهما استطعت أن أستنتج من خلالها، في وضوح كثير، موضوع الحديث الرئيسي.

- «لقد اجتاز بها شيء يجلله البياض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ثم اختفى».. «وكان وراءه كلب أسود ضخم».. «ثلاث طرقات صارخة على باب الحجرة» - «ضوء في باحة الكنيسة فوق ضريحه تماماً». الخ. الخ.

وأخيراً استسلمتا كلتاهما للرقاد. وخمدت النار في المستوقد، وذابت الشمعة. أما بالنسبة إليّ فقد تصرمت ساعات ذلك الليل الطويل في أرق رهيب. كانت أذناي وعيناي وعقلي كلّها متوترة بالرعب... بذلك الرعب الذي لا يستطيع أن يستشعره أحد غير الأطفال.

ولم يتل حادثة الحجرة الحمراء هذه مرض جسماني خطير أو متطاول: لقد أُصيبت أعصابي بصدمة ليس غير، صدمة ما زلت أستشعر ترجيعها حتّى يوم الناس هذا. أجل، أيّتها السيدة ريد، أنا مدينة لك ببعض غصص الألم العقلي الرهيبة. ولكن عليّ أن أغفر لك، ذلك لأنّك لم تعرفي ما الذي بدر منك: لقد خيّل إليك، وأنت تمزّقين نياط قلبي، أنّك تستأصلين ميولي الرديئة من جذورها ليس غير.

وفي اليوم التالي، حوالي الظهر، نهضت من فراشي وارتديت ثيابي، وجلست متدثّرة بشال على مقربة من مستوقد حجرة الأطفال. لقد استشعرت أني واهنة الجسم خائرة القوى، ولكن أسوأ آلامي انبعثت من كآبة تستعصي على الوصف، بؤس روحي ما فتئ يستلّ مني دموعاً صامتة، فلا أكاد أمسح عن وجنتي قطرة مالحة حتى تعقبها قطرة مالحة. ومع ذلك فقد خيّل إليّ أنّه كان خليقاً بي أن أكون سعيدة، إذ لم يكن ثمة أحد من آل «ريد». كانوا كلهم قد انطلقوا في العربة مع أمّهم. وآبوت أيضاً كانت تخيط في غرفة أخرى. أما بيسي فكانت تضطرب في أرجاء القصر، رافعة الدمى المطروحة هنا وهناك ومرتبة الأدراج، وكانت توجّه إليّ بين الفينة والفينة كلمة حنان غير مألوفة. وكنت أن أعتبر هذا الوضع جنّة أمن وسلام، إذ كنت قد تعوّدت من قبل حياة من التوبيخ الموصول والإرهاق المجحود. ولكن أعصابي المنهارة كانت الآن، في الواقع، في حال يعجز أيّما شيء عن تهدئتها ويتعذّر على أيما بهجة أن تدخلها.

وكانت بيسي قد هبطت إلى المطبخ ثم صعدت حاملة إليّ كعكة محشوة بالفاكهة على طبق من الخزف الصيني مزدان بصورة مشرقة تمثّل عصفوراً من عصافير الجنّة اتّخذ لنفسه من أوراق اللبلاب الملتفّة ومن براعم الورد عشًّاً، طبق كان من دأبه أن يثير فيّ إعجاباً حماسياً بالغاً جعلني ألتمس في كثير من الأحيان أن يُجاز لي تقليبه بين يديّ لكي أنعم النظر إليه عن كثب، ولكنهم اعتبروني دائماً غير جديرة بالتمتّع بهذا الامتياز.

هذا الطبق النفيس كان قد وضع الآن على ركبتي، وكنت قد دعيت في حرارة إلى التهام قرص الحلوى الرقيق ذاك الذي كان متربّعاً في وسطه. يا لها من منّة عابثة لا طائل تحتها! منّة أقبلت بعد فوات الأوان مثل معظم المنن الأخرى التي تتأخر كثيراً والتي كثيراً ما يتوق المرء إليها. فأنا لم أستطع أن آكل الكعكة، ولقد بدا ريش العصفور وألوان الزهور وكأن إشراقها قد خبا على نحو عجيب، فأقصيت كلاًّ من الطبق والكعكة عني. وسألتني بيسي: «هل آتيك بكتاب؟» فأحدثت لفظة «تاب» في نفسي مثل أثر المنبّه السريع الزوال، فرجوتها أن تجيئني من

المكتبة بـــ «رحلات جيلفر». وكنت قد قرأت هذا الكتاب مرة ومرة في ابتهاج، واعتبرته حكاية واقعية واكتشفت فيه عِرق متعة أقوى من ذلك الذي وجدته في قصص الجن. ذلك بأني كنت، قد التمست، الجنيات بين أوراق «كفّ الثعلب»[1] والأجراس، تحت نبات الفطر، وفي زوايا الجدران العتيقة التي تحجبها أوراق «عاشق الشجر»[2] حتى إذا ذهب بحثي كلّه أدراج الرياح استسلمت للواقع الأليم وهو أنها قد رحلت بقضّها وقضيضها عن إنكلترا متوجّهة إلى بلد من البلدان المتوحشة حيث الغابات أشدّ كثافة وأدعى إلى الفطرة الهمجية، وحيث الناس أقلَّ عددا. على حين أن «ليليبوت»[3] و«بروبد يغناغ»[4] كانتا، في اعتقادي، أجزاء فعلية من سطح الأرض، ولم أشكّ قط في أنّه قد يقدّر لي ذات يوم، من طريق القيام برحلة طويلة، أن أرى بعيني رأسي أقزام أحد هذين العالمين، وحقوله وبيوته وأشجاره الصغيرة، وأبقاره وأغنامه وطيوره، وأن أرى ثاني هذين العالمين بحقول قمحه السامقة كالغابات، وكلابه الجبّارة، وقططه العملاقة، ورجاله ونسائه الضخام كالأبراج. ومع ذلك، فحين وُضع هذا المجلّد الأثير لدي في يدي، وحين قلبت صفحاته والتمست في رسومه العجيبة ذلك السحر الذي ما زلت أقع عليه، حتّى الآن، في ثناياه تراءى لي كلّ شيء مفزعاً موحشاً، وتبدّى لي العمالقة غيلانا مهازل، والأقزام عفاريت صغيرة شريرة رهيبة، وجيلفر رحالة بائساً تائهاً في أحفل الأصقاع بالرعب والخطر. وأغلقت الكتاب، بعد أن أمسيت لا أجرؤ على قراءته، ووضعته على المنضدة إلى جانب الكعكة التي لم تُمَسَّ ولم تذَق.

(1) نوع من النبات

(2) نبات متسلّق سرمدي الخضرة ذو أوراق برّاقة.

(3) جزيرة خيالية تحدّث عنها سويفت في كتابه «رحلات» وسكّانها كلهم من الأقزام. (المعرب)

(4) جزيرة خيالية أيضا ورد ذكرها في «رحلات جيلفر» وسكّانها كلّهم من العمالقة (المعرب)

كانت بيسي قد فرغت الآن من ترتيب الحجرة ونفض الغبار عن أثاثها. حتّى إذا غسلت يديها فتحت درجاً صغيراً حافلاً بقطع نفسية من الحرير والأطلس وأنشأت تصنع طاقية جديدة لدمية جورجيانا. وفي غضون ذلك راحت تتغنّى بهذه الأغنية:

«في تلك الأيام التي مضىنا فيها نضرب في الأرض كالفجر وذلك منذ زمن بعيد».

لقد طالما سمعت هذه الأغنية من قبل، وسمعتها في ابتهاج غامر دائماً، فقد كان لبيسي صوت عذب – في ما كنت أحسب، على الأقل. أما الآن، وعلى الرغم من أن عذوبة صوتها لم تفارقه البتّة. فقد وجدت في أغنيتها حزناً يستعصي على الوصف. وكانت أحياناً تنشد، وقد استغرقت في عملها، «لازمة» الأغنية في أناة بالغة وتمهُّل مغالى فيه، فينطلق هذا البيت «وذلك منذ زمن بعيد» وكأنه الإيقاع الأحفل بالأسى من ترنيمة جنائزية. ثم إنها انتقلت إلى أغنية قصصية، وكانت أغنيتها هذه المرة حزينة حقاً:

«لقد تقرّحت قدماي ووهنت ساقاي، إن طريقي لطويلة، وإن الجبال لمقفرة ولسوف يطبق الغسق، عمّا قريب، كئيبا لا قمر فيه على دروب اليتيم الصغير البائس.

«لماذا بعثوا بي وحدي إلى مثل هذه المطارح النائية، هناك حيث تتبسط الأراضي السبخة وتكدّس الصخور الرمادية؟ إن الناس لغلاظ القلوب، والملائكة الكرام هم وحدهم الذين يرعون خطى اليتيم الصغير البائس.

«ومع ذلك فنسيم المساء يهبّ عليلاً نائياً، وقد خلت السماء من الحب وأرسلت النجوم الساطعة أشعّتها الرقيقة.

«إنّ الله، ذا الرحمة، لا يضنّ بالحماية والعزاء والأمل على اليتيم الصغير البائس.

«وحتّى ولو قدّر علي، في طريقي، أن أسقط فوق الجسر المحطّم، أو أتيه في المستنقعات وقد خدعتني أضواء كاذبة، فإن أبي الإلهي، سوف يضمّ إلى صدره، في بركة واحدة، اليتيم الصغير البائس.

«إنّ ثمة فكرة توقع في نفسي القوة: حتى ولو حرمت المأوى وذوي القربى معاً، فالسماء مثوى، مثوى لن تعوزني فيه الراحة. إنّ الله صديق لليتيم الصغير البائس».

وقالت بيسي حين ختمت أغنيتها: «لا، لا، يا مس ايير، لا تبكي»! ولو قد قالت للنار: «لا تضطرمي»! إذن لكان مطلبها أدنى إلى التحقيق. ولكن أنّى لها أن تكتشف بالحدس ذلك الألم السوداوي الذي كنت ضحيته؟ وفي الصباح، وفد مستر لويد عليّ كرة أخرى.

وقال وهو يدخل حجرة الأطفال: «ماذا؟ مستيقظة في هذه الساعة المبكرة؟! حسناً، أيتها الحاضنة، كيف حالها؟»

فأجابته بيسي قائلة إنّ صحّتي تتحسن تحسناً كبيراً.

– «إذن فقد كان ينبغي أن تبدو أكثر حبوراً. تعالي إلى هنا، مس جين. اسمك جين، أليس كذلك؟»

– «أجل، يا سيدي، جين ايير».

– «حسناً، لقد كنت منخرطة في البكاء يا مس جين ايير. فهل تستطيعين أن تنبئيني بالسبب الذي حملك على ذلك؟ هل تشكين ألماً ما؟»

– «لا، يا سيدي».

وهنا سارعت بيسي إلى القول: «أوه! في استطاعتي أن أقول إنّها تبكي لأنها لم تستطع أن ترافق سيدتي في العربة».

– «لست أظن ذلك البتة. فهي في سن تربأ بها عن مثل هذا النكد».

- «وكان هذا هو اعتقادي أنا أيضاً. وإذ جُرح احترامي الذاتي بهذه التهمة الباطلة فقد سارعت إلى الإجابة: «أنا لم أبكِ قط لشيء مثل هذا في حياتي كلها. أنا أكره التنزّه في العربة. إنني أبكي لأني فتاة بائسة».

فقالت بيسي: «أوه، تباً لك أيّتها الآنسة»!

وبدا الصيدلي الصالح مشدوهاً بعض الشيء. كنت واقفة أمامه. فركّز عينيه عليّ تركيزاً موصولاً، وكانت عيناه صغيرتين رماديتين، غير شديدتي البريق، ولكن في ميسوري أن أقول، لو رأيتهما الآن، إنّهما تمرران بالذكاء. وكان وجهه صارم الأسارير ولكنه مع ذلك راشح بدماثة الخلق. حتى إذا أنعم النظر في وجهي ملياً، قال: «ما الذي ألزمك فراش المرض أمس؟»

فقالت بيسي مقحمة نفسها، كرّة أخرى، في الحديث: «لقد وقعت على الأرض».

- «وقعت على الأرض؟ وهذا من شيم الأطفال أيضاً! أليست قادرة، وقد بلغت هذه السن، على المشي في اتّزان؟ لا ريب في أنها قد بلغت ربيعها الثامن أو التاسع».

وكان في هذه الطعنة الجديدة لغروري الذاتي ما أطلق لساني بهذا التفسير الفظّ: «لقد أوسعوني ضرباً حتّى سقطت مغشيّاً عليّ». ثم أضفت بينا كان مستر لويد يحشو أنفه بقبصة من سعوط: «ولكن ذلك لم يكن هو علّة مرضى».

وفيما كان يعيد العلبة إلى جيب صدرته قرع جرس صارخ يؤذن بأن موعد غداء الخدم قد حان. ولم يكن ذلك الجرس غريباً على مستر لويد، فقال: «هذا لك، أيتها الحاضنة. في استطاعتك أن تنزلى. سوف أعطي مس جين بعض العظات ريثما ترجعين».

ولو قد كان الأمر بيد بيسي إذن لآثرت البقاء، ولكنها كانت مضطرة إلى الانصراف لأن تناول وجبات الطعام في مواعيدها كان قاعدة تطبق في قصر

غايتسهيد تطبيقاً صارماً.

وأردف مستر لويد حين مضت بيسي لسبيلها: «إن الوقعة لم تكن هي علّة مرضك. حسناً، فما الذين ألزمك فراش المرض إذن؟»

– «لقد حجزوني في حجرة كان فيها شبح. حجزوني إلى ما بعد العتمة».

ورأيت مستر لويد يبتسم ويقطب في آن معاً. وقال: «شبح! ولكنك طفلة برغم كلّ شيء! أتخافين الأشباح وقد بلغت هذه السن؟»

– «أجل، أنا أخاف شبح مستر ريد، فقد توفي في تلك الحجرة، وسُجِّي هناك. وبيسي نفسها (وكل امرئ آخر) تخشى الدخول إليها ليلاً وتتمنى أن لا تضطر إلى ذلك أبد الدهر. ولقد كان حجزي هناك وحدي، ومن غير ما شمعة، عملاً وحشياً – وحشياً إلى درجة يُخيّل إليّ معها أني لن أنساه ما حييت».

– «هراء! أهذا ما يجعلك بائسة إلى هذا الحد؟ هل تستشعرين، الآن، خوفاً ما في وضح النهار؟»

– «لا، ولكن الليل سوف يهبط كرة أخرى، عمّا قريب، وإلى هذا، فإني غير سعيدة، غير سعيدة إلى حدّ بعيد، لأسباب أخرى».

– «ما هي هذه الأسباب الأخرى؟ هل لك أن تنبئيني ببعضها».

لشدّ ما تمنّيت لو أجيب عن هذا السؤال إجابة وافية! ولشدّ ما كان عسيراً عليّ أن أصوغ جواباً ما! إن في استطاعة الأطفال أن يحسّوا، ولكن ليس في استطاعتهم أن يحللوا أحاسيسهم. وحتّى لو وفّقوا إلى إجراء ذلك التحليل، في الذهن، أجراء جزئياً فإنهم يظلّون عاجزين عن التعبير عن نتيجة تلك العملية في كلمات. بيد أني خشيت أن أخسر هذه الفرصة الأولى والوحيدة للتنفيس عن كربتي وإفراغ بعض مما في صدري، فحاولت جاهدة، بعد شيء من الروية المضطربة، أن أصوغ جواباً هزيلاً ناقصاً، ولكنه برغم ذلك حقيقي.

لقد قلت: «أولاً، لأنه لا أب لي ولا أم، ولا إخوة ولا أخوات».

– «ولكن لك امرأة خال كريمة وأبناء خال كراماً».

وكبحت جماح نفسي كرة أخرى، لم أعلنت في ارتباك وخرق:

– «ولكن جون ريد أوسعني ضرباً حتى الإغماء، وامرأة خالي حجزتني في الحجرة الحمراء».

وكرة أخرى أخرج مستر لويد علبة السعوط من جيب صدرته. ثم سألني: «ألا تعتقدين أن قصر غايتسهيد موطن بارع الجمال؟ ألا تحمدين الله حمداً كثيراً على ما أتاح لك من نعمة العيش في مثل هذا البيت الرائع؟»

– «إنه ليس بيتي، يا سيدي. وآبوت تقول إنّ حقي في العيش هنا أقلّ من حق خادمة».

– «بوه! إنّك لا يمكن أن تكوني من السخف بحيث تتمنين مغادرة مثل هذا البيت البهي؟»

– «لو كان لي بيت آخر آوي إليه إذن لكان يمكن أن أبتهج بمغادرة هذا القصر. ولكني لن أوفّق إلى الرحيل عن غايتسهيد حتّى، أبلغ مبلغ النساء».

– «لعلّك أن توفّقي.. من يدري؟ ألك أنسباء آخرون غير مسز ريد ؟»

– «لست أظن ذلك، يا سيدي».

– «أليس لك عمومة أو أبناء عمومة ؟»

– «لست أدري. لقد سألت مسز ريد، مرة، فكان جوابها أن من الجائز أن يكون لي أنسباء فقراء حقيرون يدعون باسم «اايير» ولكنها لم تكن تعرف عنهم أي شيء».

– «لو صحّ أن لك مثل هؤلاء الأنسباء فهل تحدّثك نفسك في المضي إليهم؟»

ورحت أفكر. إنّ الفقر ليبدو في أعين الكبار كالح الوجه بشعاً، ولكنه في أعين الأطفال أشد كلوحاً وأعظم بشاعة: فالأطفال لا يفهمون ما قد ندعوه الفقر الكادح، العامل، ذا الظهر اللائق أو المقبول. إنهم لا يتصوّرون هذه الكلمة إلاّ مقرونة بالأسمال البالية، والطعام النزر، والمواقد التي لا نار فيها، والمسالك الشرسة، والرذائل التي تحطّ من قدر أصحابها. ومن هنا كان الفقر عندي مرادفاً للخزي.

وأجبت: «لا. أنا لا أحبّ، أن أحيا مع أناس فقراء».

– «حتى ولو عاملوك بلطف وإحسان؟»

فهززت برأسي. فلم يكن في وسعي أن أفهم كيف يستطيع الفقراء أن يصطنعوا اللطف والإحسان. وفوق هذا فالحياة مع الفقراء تقتضيني أن أتعوّد الكلام مثلهم، أن أقتبس عاداتهم، أن أحرم التربية والثقافة، أن أنشأ مثل واحدة من النسوة الفقيرات اللّواتي كنت أراهنَّ أحياناً يرضعن أطفالهن أو يغسلن ثيابهن لدى أبواب الأكواخ في قرية غايتسهيد. لا، أنا لا أملك من البطولة ما يجعلني أشتري الحرية بهذا الثمن الباهظ: الذلّ والهوان.

– «وهل هم فقراء إلى هذه الدرجة؟ هل ينتسبون إلى طبقة العمال؟»

– «لا أستطيع أن أجيب على وجه الضبط. إن امرأة خالي، «ريد»، تقول: إذا كان لي أنسباء فلا ريب في أنّهم جمهرة من الشحّاذين. ولست أحبّ أن أضرب في الأرض مستندية أكفّ المحسنين».

– «أتحبين أن تذهبي إلى المدرسة؟»

واستغرقت في التفكير كرة أخرى. كنت لا أكاد أعرف ما المدرسة. فقد كانت بيسي تتحدّث عنها في بعض الأحيان بوصفها مكاناً تجلس فيه السيدات الصغيرات على مقاعد شبيهة بالأدهاق(1)، ويحملن على ظهورهن ألواحاً خشبية صغيرة ابتغاء تقويم جلستهن، مكاناً يفترض في نزيلاته أن يكنَّ في غاية الأناقة والدِّقة. كان جون ريد يمقت مدرسته ويشتم أستاذه، ولكن ذوق جون ريد لم يكن عندي قاعدة واجبة

الاتّباع. وإذا كانت روايات بيسي عن النظام المدرسي القاسي (وهي روايات جمعتها من أفواه فتيات إحدى الأسر العريقة التي عملت في خدمتها قبل وفودها إلى غايتسهيد) أقول إذا كانت هذه الروايات مرعبة بعض الشيء، فقد بدا من ناحية ثانية أن أحاديثها عن البراعات التي اكتسبتها هاتيك الفتيات أنفسهنّ، وخاصة في حقل الحياة الاجتماعية، كانت مغرية على قدر متكافئ. كانت بيسي تظهر اعتزازها باللوحات الزيتية الجميلة التي رسمتها أناملهن، وهي لوحات تمثّل مشاهد طبيعية وأزهاراً، وبالأغاني التي كان في ميسورهنُّ أن يغنينها، والقطع الموسيقية التي كن قادرات على عزفها، والجزادين التي كان في إمكانهن أن يحبكنها، والكتب الفرنسية التي استطعن أن يترجمنها، حتى لقد أغريتُ فيما كنت أستمع إلى حديثها بأن أحاول منافستهن في ذلك. أضف إلى هذا أن المدرسة كان خليقاً بها أن تعني، النسبة إلي، تغييراً جذرياً: فقد كانت تنطوي على رحلة طويلة، وعلى انفصال كامل عن غايتسهيد، وعلى شروع في حياة جديدة.

(1) Stocks، جمع دهق، وهو كناية عن خشبتين يضيّق بهما على سيقان المذنبين.

وكانت النتيجة المسموعة لاستغراقي في التفكير قولي: «يخيّل إليّ، في الحق، إني أتمنى لو أذهب إلى المدرسة».

فقال مستر لويد وهو ينهض: «حسن، حسن، من ذا الذي يدري ما قد يحدث». لم أضاف مخاطباً نفسه: «إنّ الطفلة لفي حاجة إلى تغيير الهواء والبيئة. فأعصابها ليست في حالة جيدة».

ورجعت بيسي. وفي اللحظة نفسها سُمعت العربة تدرج على حصباء المجاز.

وسألها مستر لويد: «أهذه مولاتك، أيتها الحاضنة؟ إني لأحبّ، أن أتحدث إليها قبل أن أمضي لسبيلي».

ودعته بيسي إلى المضي نحو حجرة الفطور، وتقدّمته إليها. وفي المقابلة التي جرت بعد ذلك بينه وبين مسز ريد غامر الصيدلي – على ما بدا لي من بعض

أحداث الأيام التالية – فأوصى السيدة بإرسالي إلى المدرسة، فتقبّلت وصيته هذه قبولاً حسناً، من غير ريب، بدليل أني سمعت آبوت تقول، فيما كانت تتحدّث بيسي في هذا الموضوع بينا كانتا تخيطان في حجرة الأطفال، ذات ليلة، بعد أو أويت أنا إلى فراشي وخيّل إليهما أني مستغرقة في النوم: «لقد ابتهجت مولاتي ابتهاجاً غير يسير بهذه الفكرة، لما تتيحه لها من التخلّص من مثل تلك الطفلة المتعبة القليلة التهذيب، التي تبدو أبداً وكأنها تراقب الناس جميعاً، وتحوك المؤامرات في الخفاء». ويخيّل إليّ أن آبوت اعتبرتني، في وصفها هذا، نسخة طفلية عن «غاي فوكس»(1).

(1) Guy Fawkes متآمر انكليزي (1570 – 1606) وضع، مؤامرة لنسف الملك والبرلمان.

وفي تلك المناسبة نفسها عرفت، للمرة الأولى، ممّا أفضت به مس آبوت إلى بيسي، أن أبي كان قساً فقيراً، وأن أمي كانت قد تزوجت منه مخالفة في ذلك رغبات أصدقائها الذين اعتبروا أنها اختارت لنفسها زوجاً ليس لها كفؤ، وأن تمرّدها أثار غضب جدي إلى حد حمله على أن يحرمها في وصيته من وراثة شلن واحد، وأنه لم تكد تنقضي سنة واحدة على زواجها من ذلك القس، أبي، حتّى أصيب بالتيفوس بينما كان يقوم بزيارة الفقراء في مدينة صناعية كبرى كانت مقرّ كنيسته، مدينة كان ذلك الداء قد تفشّى آنذاك فيها، وأن أمي ما لبثت أن أصيبت هي الأخرى بالتيفوس، بعد أن انتقلت العدوى لها من أبي، وأنهما ماتا كلاهما آخر الأمر في موعدين متقاربين ليس يفصل ما بينهما غير شهر واحد.

وحين سمعت بيسي هذه القصة تنهدُّت وقالت: «مس جين المسكينة جديرة بأن يرثى لحالها، أيضاً، يا آبوت».

فأجابت آبوت: «لو كانت طفلة مهذّبة جميلة إذن لكان في يتمها ما يثير الشفقة في نفس المرء. ولكن المرء لا يستطيع، في الحق، أن يكلف بضفدعة صغيرة مثلها».

فأقرّتها بيسي على ذلك قائلة: «أجل، ليس في استطاعة المرء أن يكلّف بمثلها كثيراً. ذلك أمر لا ريب فيه. وعلى أيّة حال، فإن فتاة بارعة الجمال مثل مس جورجيانا خليق بها أن تكون أقدر على انتزاع العطف لو اكتنفتها ظروف مماثلة».

فصاحت آبوت الغيور: «أجل، أنا متيّمة بمس جورجيانا! جورجيانا الحبيبة الصغيرة، بشعرها الأجعد الطويل، وعينيها الزرقاوين، وذلك اللون العذب الذي تزهو به بشرتها. لكأنها لوحة رسمتها وريشة فنان! بيسي، أنا أشتهي أن أتعشّى الليلة أرنباً من أرانب ويلز».

– «وكذلك أنا. أرنباً مع بصل مشوي. هيا، فلننزل».

وغادرتا الحجرة.

[4]

من حديثي مع مستر لويد، ومن الحوار الذي دار بين بيسي وآبوت والذي أوردته في الفصل السابق انتزعت مقداراً من الأمل كافياً لحملي على تمنّي الشفاء والسعي بسبيله. لقد تراءى لي أنّ الأيام القريبة التالية سوف تجود عليّ بتغيّر محمود، فأخذني الشوق إلى ذلك ورحت أنتظره في صمت. بيد أنه تباطأ فقد تصرّمت أيام وأسابيع، واستعدت عافيتي، ولكن أيما تلميح جديد إلى الموضوع الذي كنت أطيل التفكير فيه لم يصدر عن أحد من سكان القصر. كانت مسز ريد تنعم النظر إليّ، في بعض الأحيان، بعين قاسية ولكنها نادراً ما كانت توجّه الخطاب إليّ. كانت منذ مرضي قد جعلت الخط الفاصل بيني وبين أولادها أعرض وأعمق منه في أيما وقت مضى. لقد أفردت لي حجرة ضيّقة أنام فيها متوحّدة وأصدرت حكمها عليّ بأن أتناول الطعام على انفراد، وأن أقضي وقتي كلّه في حجرة الأطفال، على حين كان أولاد خالي لا يكادون يفارقون حجرة الاستقبال. وأيّاً ما كان، فإنها لم تلمع ولو الماعة يسيرة إلى موضوع إرسالي إلى المدرسة. ومع ذلك فقد خامرني يقين غرزي أنها لن تحتمل بقائي معها، فترة طويلة، تحت سقف واحد. ذلك بأن نظراتها انتهت الآن إلى أن تصبح، كلما وجهت إليّ، حافلة بمقت لم تعرف مثله من قبل مناعة وعمق جذور.

وأخذت أليزا وجورجيانا تقتصدان في حديثهما معي، وكان واضحاً أنهما إنّما تلقّتا الأمر بذلك من أمهما. وراح جون يتهكّم عليّ كلّما رآني، ولقد حاول ذات مرة أن يعاقبني بالضرب، حتى إذا انقضضت عليه في الحال – يحدوني الغيظ العميق والتمرّد اليائس نفسهما اللّذان أثاراني من قبل – وجد أن من الخير له أن يحجم عن ذلك وأنشأ يعدو مطلقاً اللعنات، مقسماً إنني قد هشّمت أنفه. والحق

أنّي كنت قد سددت إلى أنفه البارز ذاك ضربة أفرغت لها كل ما في جمح كفي من قوة. وحين رأيت أن هذه الضربة، أو نظرتي الضاربة، قد أرعبته، مالت نفسي أعظم الميل إلى اللحاق به والإفادة إلى أبعد حدّ من الضعف الذي تكشَّف عنه، ولكنه كان قد أمسى الآن بين يديّ أمه. وسمعته وقد بدأ يقصّ عليها، في صوت ناشج، كيف وثبت «جين ايير القذرة» عليه مثل قطة مسعورة. ولكن أمه صدّته عن سبيله في شيء من القسوة: - «لا تتحدّث إليّ عنها يا جون. لقد قلت لك أن لا تدنو منها. إنها غير جديرة بأن يلتفت المرء إليها. أنا لا أريد أن أراك أو أن أرى شقيقتيك تعاشرونها».

عندئذ صحت فجأة، وقد اتّكأت على درابزون السلم، من غير أن أفكّر في كلماتي اقل تفكير:

- «إنّهم ليسوا أهلاً لمعاشرتي».

كانت مسز ريد امرأة ضخمة، هي إلى البدانة أقرب منها إلى الهزال، ولكنها ما إن سمعت هذا الإعلان الغريب الوقح حتّى راحت ترتقي السلم في خفّة، وجرفتني في عنف، وكأنها زوبعة، إلى حجرة الأطفال، ثم طرحتني على حافة سريري، وتحدّتني في صوت جازم أن أنهض من مكاني أو أنطق بكلمة بقية ساعات النهار بطولها.

- «أي شيء كان يمكن لخالي ريد أن يقوله لك لو كان حياً يرزق؟ ذلك كان سؤالي الذي انطلق من بين شفتيَّ على نحو كاد أن يكون غير إرادي. أقول: «كاد أن يكون غير إرادي» لأن لساني، في ما بدا لي، نطق بتلك الكلمات من غير أن توافق إرادتي على إرسالها. كانت قوّة ما، ليس لي عليها أي سلطان، هي التي اتّخذت من لساني وسيلة للتعبير.

وقالت مسز ريد في همس: «ماذا؟» وفجأة بدت عيناها الرماديتان وكأن شيئاً كالخوف قد عكّر عليهما هدوءهما واطمئنانهما المألوفين. وأفلتت ذراعي، وحدّقت إلي وكأنّها لم تدر، حقاً، أطفلة أنا أم عفريتة. ولكني كنت الآن قد تورّطت.

– «إن خالي ريد هو الآن في السماء، وأنه لقادر على أن يرى كلّ ما تفعلينه وتفكّرين فيه. وكذلك شأن أبي وأمي. إنهم يعرفون كيف حبستني طوال النهار، وكيف تتمنين لي الموت».

وسرعان ما استعادت مسز ريد شجاعتها، فهزّتني بعنف شديد، ولطمتني على أذني الاثنتين، ثم تركتني من غير أن تنبس ببنت شفة. فما كان من بيسي إلاّ أن ملأت ذلك الفراغ بموعظة طويلة استغرقت ساعة أثبتت فيها بما لا يحتمل الشكَّ، أني طفلة شريرة لم ترَ أردأ منها ولا أعرق في الفساد. وصدقتها بعض الشيء، لأني في الواقع لم أكن أحسّ بغير المشاعر الطالحة تصطخب في صدري.

مضى تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ونصف كانون الثاني (يناير). واحتُفِل بعيدي الميلاد ورأس السنة في قصر غايتسهيد بمثل الابتهاج الغامر الذي تعوّدت الأسرة أن تستقبل به هذين العيدين كلّ عام. وكانت الهدايا قد تبودلت، والموائد قد أقيمت، والسهرات قد أحييت. وكنت قد أقصيت، طبعاً، عن كل من تلك المباهج: إن نصيبي من الاستمتاع اقتصر على مشاهدة أليزا وجورجيانا تتّخذان زينتهما كلّ يوم، ورؤيتهما تهبطان إلى حجرة الاستقبال، رافلتين بفستانين حريريين رفيقين وزنارين قرمزيين، وقد عُقص شعرهما حلقاتٍ حلقاتٍ في عناية بالغة، ثم على الاستماع إلى البيانو أو القيثارة يُعزف في الدور الأرضي، وعلى تأمل الساقي والخادم وهما يذرعان المكان جيئة وذهاباً، وعلى الإصاخة إلى اصطفاف الآنية الزجاجية والخزفية عند تقديم المرطبات وإلى همهمة الحديث المتقطّعة كلّما فتحت أبواب حجرة الاستقبال وأوصدت. حتّى إذا مللت هذه المهمّة انسحبت من قمّة السلم إلى حجرة الأطفال المعزولة الصامتة، وهناك لم أكن أستشعر، رغم ما كان يلم بي من حزن طفيف، أني بائسة. والحقّ أنني ما كنت أهفو إلى الاختلاط بالقوم قط، إذ كان وجودي إلى جانبهم لا يلفت أنظارهم نحوي إلاّ نادراً. ولو كانت بيسي دمثه الخلق حلوة المعاشرة إذن لاعتبرت قضاء السهرة معها، في هدوء، متعة من المتع، ولآثرت ذلك على قضائها تحت ناظري مسز ريد الرهيبين في حجرة تغصّ بالسيدات والرجال. ولكن بيسي كانت لا تكاد تتمّ إلباس

سيدتيها الصغيرتين حتّى تهرع إلى المطبخ وإلى حجرة مدبّرة المنزل – وهما مكانان حافلان بالحيوية والنشاط – حاملة معها الشمعة عادة. وهكذا قعدت، عندئذ، ووضعت دميتي على ركبتي، حتّى أخذت نار الموقد في الخمود، مجيلة الطرف في ما حولي، بين الفينة والفينة، لكي أستيقن أن الحجرة المظلمة لا تنطوي على أحد غيري. وحين خبا وهج الجمرات خلعت ثيابي في سرعة، ناثرة العقد والخيوط كيفما اتّفق، وفزعت إلى سريري الصغير أتّقي فيه البرد والظلام. وإلى هذا السرير كنت أحمل دميتي دائماً، فالكائنات البشرية يجب أن تحبّ، شيئاً ما، وإذ لم أجد ما هو جدير بحبّي فقد بذلت غاية الجهد لكي أجد متعة ما في حب هذه اللعبة الناصلة، الوسخة مثل نطار(1) قزم. ويذهلني الآن أن أتذكّر بأي إخلاص سخيف تدلّهت بتلك الدمية الصغيرة متصوّرة، أو أكاد، أنها ذات حياة وقادرة على الإحساس. كانت عيناي لا تعرفان الغمض إلاّ إذا دثرتها بقميص نومي. حتّى إذا اضطجعت هناك آمنة دافئة استشعرت بعض السعادة، متوهّمة أنها سعيدة هي الأخرى.

(1) النطار: (بضم النون) الخيال المنصوب بين الزرع.

وبدت الساعة التي انتظرت، خلالها، انصراف الضيوف طويلة إلى أبعد الحدود، وأصغيت إلى وقع قدمي بيسي على السلم. فقد كانت أحياناً تصعد إلى الدور العلوي، أثناء فاصل ما، لكي تبحث عن كشتبانها أو عن مقصها، أو ربما لكي تحمل إليّ على سبيل العشاء – كعكة منطوية على فاكهة مجففة أو قطعة كاتو بالجبن – ثم تجلس على السرير ريثما آكلها. حتّى إذا فرغت من ذلك أحكمت تغطيتي بالبطانية وطبعت على جبيني قبلتين وقالت: «طابت ليلتك، يا مس جين». والحق أن بيسي كانت تبدو في عيني، كلّما اصطنعت اللطف على هذا النحو، خير المخلوقات كلها وأجملها وأكرمها نفساً. وكنت أتمنّى، في كثير من الحرارة، لو تأخذ دائماً بأسباب المودّة واللطف، ولو تقلع عن دفعي في قسوة وعنف، أو عن انتهاري أو عن توبيخي لغير ما سبب كما كان دأبها أن تفعل. ويخيّل إليّ أن «بيسي لي» كانت، من غير ريب، فتاة ذات مقدرة فطرية غير يسيرة، إذ كانت

تجيد كل ما تنهض به من عمل، وتتمتّع بموهبة رائعة في رواية الحكايات، أو هذا على الأقل ما استنتجته من الانطباعة التي خلَّفتها في نفسي حكاياتها في حجرة الأطفال. وكانت وسيمة أيضاً، إذا صحّت الصورة التي أفكر فيها الآن لوجهها وجسمها. شابة ممشوقة القوام ذات شعر أسود، وعينين داكنتين، وقسمات فاتنة، وبشرة رقيقة صافية. ولكنها كانت نزقة متقلّبة الأطوار سريعة الانفعال ذات آراء تنمّ عن اللامبالاة بكل ما يتّصل بالعدالة أو بالمبدأ. ومع ذلك فقد آثرتها، على علاّتها هذه، على أيما امرئ آخر في قصر غايتسهيد.

نحن الآن في اليوم الخامس عشر من كانون الثاني (يناير)، حوالي الساعة التاسعة صباحاً. كانت بيسي قد هبطت إلى الدور الأدنى لتناول طعام الصباح، وكان أولاد خالي قد دعوا للمثول بين يديّ أمّهم، وكانت، أليزا منهمكة في الاعتمار بطاقيتها وارتداء معطفها الثقيل، المخصّص لفترة العمل في الحديقة، لكي تلقي الـ حَبّ إلى ا لدجا ج، وهي مـ همة كانت بها مولعة. ولم يكن ولوعها هذا، على أيّة حال، بأعظم من ولوعها ببيع البيض لمدبّرة شؤون المنزل وادّخار المال الذي تكسبه على هذا النحو. كانت ذات ميل إلى المتاجرة، ونزوع خاص إلى التوفير والاقتصاد. ولم يتجلَّ ذلك ببيع البيض والدجاج فحسب بل بالمساومات المتطاولة التي تجريها مع الجنايني حول جذور الأزهار وبذورها وشتلاتها، بعد أن أصدرت مسز ريد أوامرها إلى هذا الخادم بأن يشتري من تلك السيدة الصغيرة كل ما رغبت في بيعه من نتاج حديقتها الصغيرة. ولقد كانت أليزا لا تجد غضاضة في بيع شعر رأسها إذا ما عاد عليها ذلك بربح حسن. أما أموالها فكانت في الأمر تخبئها في هذه الزاوية أو تلك، أو تلفها في خرفه بالية أو قصاصة عتيقة من الورق الخاص بعقص الشعر وتجعيده. حتّى إذا اكتشفت مدبرة المنزل هذه المدّخرات خشيت أليزا أن تخسر كنزها النفيس في يوم من الأيام، فوافقت على إيداعه خزانة أمها متقاضية على هذه الوديعة رباً فاحشاً – خمسين في المائة أو ستين في المائة – وهو ربا كانت تأخذه عنوة مرة كل ثلاثة أشهر، مدوّنة حساباتها في سجل صغير بدقّة لاهفة.

وكانت جورجيانا قاعدة على كرسي عال لا ظهر له تسرّح شعرها أمام المرآة، شابكة في خصلاته المعقوصة زهوراً صناعية وريشاً ناصلاً كانت قد عثرت على ذخيرة منه في درج من أدراج العلية. وكنت أنا أرتب سريري بعد أن تلقّيت من بيسي أوامر صارمة بإنجاز هذه المهمة قبل عودتها (ذلك بأن بيسي كانت قد شرعت الآن تستخدمني، بين الفينة والفينة، كحاضنة مساعدة، فتعهد إليّ تنظيف الغرفة وترتيبها ونفض الغبار عن الكراسي الخ). حتّى إذا بسطت اللحاف وطويت قميص نومي تقدّمت نحو المقعد المجاور للنافذة لأرتب بعض كتب الصور وأثاث منزل اللعبة المتناثر هناك. ولكن أمراً مفاجئاً من جورجيانا بأن أدع لعبها وشأنها (فقد كانت الكراسي والمرايا الصغيرة، والأطباق والكؤوس الجنية ملكاً لها) صدّني عمّا كنت بسبيله. وإذ لم تكن لدي أيّ مهمة أخرى أخذت أنفخ على «زهرات الصقيع» التي كانت تغطي النافذة، وبذلك جعلت جزءاً من زجاجها شفافاً أطلّ منه على حديقة القصر، حيث كان كلّ شيء ساكناً متحجّراً تحت وطأة صقيع قاس.

كانت هذه النافذة تطلّ على كوخ البواب وطريق العربات. ولم أكد أزيح جانباً من الحجاب الفضّي الأبيض المسدل على الألواح الزجاجية حتّى رأيت الباب يفتح على مصراعيه وعربة تدرج من خلاله. وفي المبالاة رحت أراقبها وهي تصعّد في المجاز. فقد كانت العربات كثيراً ما تفد على قصر غايتسهيد، ولكن أيّاً منها لم تحمل قط زائرين يمكن أن يثيروا اهتمامي. ووقفت العربة أزاء المنزل، ورنَّ جرس الباب رنيناً صارخاً، وأدخِل الوافد الجديد. وإذ لم يعن ذلك كله شيئاً عندي فإن انتباهي الخلي ما لبث، أن شدّه مشهد هزار (أو أبي حناء) صغير جائع أقبل يغرُّد على أفنان شجرة كرز عرّيت من أوراقها، شجرة كرز مسمَّرة إلى الجدار قرب النافذة. وكانت بقايا فطوري المؤلف من الخبز والحليب مطروحة على المائدة، حيث ذهبت ورحت أفتت كسرة من خبز. وفيما كنت أنتر مصراع النافذة الزجاجي لكي أضع الفتات على عتبة النافذة الخارجية صعدت بيسي السلّم وثباً

ودخلت على حجرة الأولاد قائلة: «مس جين، اخلعي مئزرك! ما الذي تفعلينه هناك؟ هل غسلت يديك ووجهك هذا الصباح؟»

ونترت المصراع نترة أخرى قبل أن أجيب، فقد أردت أن أرى الهزار وقد فاز بخبزه. وارتفع المصراع بعد لأي، ونثرت الفتات للهزار – بعضه على العتبة الحجرية وبعضه الآخر على غصن شجرة الكرز الرئيسي – لم أغلقت النافذة وأجبت: «لا، يا بيسي، لقد فرغت اللحظة من نفض الغبار».

– «أيّة فتاة متعبة مهملة أنت! ما الذي تفعلينه هنا؟ إنّ الدم ليشيع في وجهك وكأنّك على وشك أن تقترفي حماقة ما. لأي سبب كنت تفتحين النافذة؟»

وكُفيت مرونة الإجابة، ذلك بأن بيسي كانت عجلى على نحو بالغ لا يجيز لها الاستماع إلى أي تفسير. لقد جرّتني إلى المغسلة وراحت تفرك وجهي ويدي، على نحو لا يرحم ولكنه لحسن الطالع بسرعة، بالصابون والماء وبمنشفة خشنة. وسوّت شعري بفرشاة قاسية، وجرّدتني من مئزري، لم دفعتني أمامها إلى السلم، وأمرتني بأن أهبط في الحال، إذ ثمة من ينتظرني في حجرة الفطور.

وكنت أودّ أن أسأل من الذي ينتظرني؟ وأسأل هل كانت مسز ريد هناك؟ ولكن بيسى كانت قد انصرفت، وقد أوصدت باب حجرة الأولاد خلفي. وهبطت السلم في أناة. فمنذ ثلاثة أشهر تقريباً لم أُدعَ للمثول بين يدي مسز ريد. وكان في إقامتي الجبرية، فترة غير يسيرة، في حجرة الأطفال، ما جعل حجرة الفطور وحجرة الغداء وحجرة الاستقبال أماكن رهيبة عندي، أماكن يوقع الدخول إليها رعدة في أوصالي كلها.

وانتهيت إلى الرواق الخالي. كان باب حجرة الفطور تجاهي، ووقفت هناك مرتجفة مخلوعة الفؤاد. أيّ جبانة صغيرة بائسة كان الخوف – الناشئ عن العقوبة الظالمة – قد جعل مني في تلك الأيام! لقد خفت أن أرجع إلى حجرة الأولاد، وخفت أن أمضي قدماً إلى حجرة الاستقبال. وأنفقت عشر دقائق واقفة يتجاذبني

تردّد منفعل. ولكن رنين جرس غرفة الفطور العنيف وضع حداً لترددي: لقد تعيّن عليّ أن أدخل.

وسألت نفسي فيما كنت أدير بيديَّ مقبض الباب القاسي الذي قاوم جهودي ثانية أو ثانيتين:«من عساه يرغب في رؤيتي؟ ومن الذي سوف يقدَّر لي أن أراه، بالإضافة إلى امرأة خالي ريد، في الحجرة؟ أرجل هو أم امرأة؟» ودار المقبض، وانفتح الباب، ودخلت محيية بانحناءة مغالى فيها. ولم أكد أرفع رأسي حتى وقعت عيناي على... عمود أسود! هكذا على الأقل بدا لي ذلك الشكل المستقيم، الضيق، المتّشح بالسواد، المنتصب على السجادة. كان الوجه الكالح الذي في أعلى ذلك العمود أشبه بقناع منحوت، وضع هناك ليقوم منه مقام التاج.

كانت مسز ريد تشغل مقعدها المألوف إلى جانب نار المستوقد. وأومأت إليّ أن أدنو. ودنوت، فقدّمتني إلى الشكل الغريب الجامد كالتمثال: «هذه هي الفتاة الصغيرة التي طلبت مساعدتك بشأنها».

وأدار الرجل رأسه في أناة – فقد كان صاحب ذلك الشكل رجلاً – إلى حيث كنت واقفة، حتى إذا أمعن النظر فيَّ بعينيه الفضوليتين الرماديتين اللتين تألّقتا تحت حاجبين كثيفين قال في وقار بصوت خفيض: «إنها قصيرة القامة. ما عمرها؟»

– «عشر سنوات».

فكان الجواب المثقل بالشك: «عشر سنوات؟» وأطال تأمّله فيَّ بضع دقائق. وسرعان ما وجّه إليّ الخطاب التالي قائلاً: «ما اسمك أيتها الفتاة الصغيرة؟»

– «جين ايير، يا سيدي».

ورفعت بصري وأنا أنطق بهذه الكلمات. لقد بدا لي رجلاً فارع الطول، ولكن ينبغي أن لا ننسى أنني كنت آنذاك ضئيلة الجسم إلى حدّ بعيد. كانت قسمات وجهه ضخمة، وكانت هي وجميع خطوط جسمه قاسية ودقيقة.

– «حسناً، يا جين ايير، وهل أنت فتاة عاقلة؟»

وإذ كان من المتعذّر عليّ أن أجيب عن هذا السؤال بالإيجاب بسبب من أن عالمي الصغير كان له في ذلك رأي مخالف، - فقد اعتصمت بالصمت. وأجابت مسز ريد نيابة عني بهزّة من رأسها ذات مغزى لتضيف في الحال قائلة: «يخيّل إليّ أنّه كلّما اختصرنا في الكلام على هذا الموضوع كان ذلك أفضل، يا مسز بروكلهورست».

- «أنا آسف حقاً لسماع ذلك! ولكن من واجبي أن أتحدّث إليها حديثاً ما».

- «وانحنى عن خطه العمودي واستوي على الكرسي ذي الذراعين، قبالة مسز ريد، وقال لي: تعالي إلى هنا».

وخطوت عبر السجادة، فأوقفني أمامه وجهاً لوجه. ويا لذلك الوجه الذي كان له، بعد أن أمسى في مستوى بصري تقريباً! أي أنف ضخم! أي وجه! أية أسنان كبيرة ناتئة!

واستهلّ حديثه بالقول: «ليس ثمة مشهد أدعى إلى الحزن من طفل مشاغب ماكر، وبخاصة إذا كان هذا المشاغب الماكر بنتاً صغيرة. هل تعلمين إلى أين يذهب الأشرار بعد الموت؟»

فكان جوابي المباشر المنسجم مع المعتقد الديني: «إنّهم يذهبون إلى جهنم».

- «وما هي جهنم؟ هل تستطيعين أن تقولي لي ما هي؟»

- «هاوية ملئ بالنار».

- «وهل تحبين أن تسقطي في تلك الهاوية، وأن تحترقي هناك إلى الأبد؟»

- «لا، يا سيدي».

- «وما الذي يتعيّن عليك أن تفعليه لتلافي ذلك؟»

وفكرت لحظة. وكان جوابي، حين وفّقت إلى الإجابة، موضع اعتراض: «يجب أن أحتفظ بعافيتي وأن لا أموت».

– «ولكن أنّى لك أن تحتفظي بعافيتك؟ إنّ الموت يخطف كل يوم أطفالاً أصغر منك سناً. ولقد دفنت منذ يوم أو يومين ليس غير طفلاً صغيراً في الخامسة – طفلاً صغيراً صالحاً تقيم روحه الآن في السماء. والذي أخشاه أن لا يكون في مقدوري أن أقول الشيء نفسه عنك لو توفّاك الله إليه».

وإذ كنت في حال لا تساعدني على تبديد شكوكه فقد خفضت بصري إلى القدمين الضخمتين المسمّرتين إلى السجادة، وتنهّدت، متمنية لو كنت بعيدة عن ذلك المكان.

– «أرجو أن تكون زفرتك هذه صادرة من القلب، وأن تكوني قد ندمت على ما سبّبت لوليّة نعمتك الكريمة من إزعاج».

فقلت في ما بيني وبين نفسي: «وليّة نعمتي! وليّة نعمتي! إنّهم كلهم يدعون مسز ريد وليّة نعمتي. إذا صحّ ذلك فعندئذ تكون وليّة النعمة شيئاً مقيتاً».

فأردف مستجوبي قائلاً: «هل تردّدين صلواتك صباحاً ومساء؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «هل تقرئين الكتاب المقدس؟»

– «في بعض الأحيان».

– «بمتعة؟ هل أنت مولعة به؟»

– «أنا أحب سفر الرؤيا، وسفر دانيال، وسفر التكوين، وسفر صموئيل، وقليلاً من سفر الخروج، وبعض أقسام من سفر الملوك، وسفر الأخبار، وسفر أيوب، وسفر يونان».

– «والمزامير؟ أرجو أن تكوني تحبينها».

– «لا، يا سيدي».

– «لا ؟ ولكن هذا رهيب! إنّ لي ولداً صغيراً، أصغر منك، حفظ ستة من المزامير عن ظهر قلب. وإذا سأله المرء ماذا تفضّل: أن تلتهم قطعة من حلوى الزنجبيل مع البندق أو أن تحفظ بيتاً من أحد المزامير؟ أجاب: «أوه! أن أحفظ بيتاً من مزمور! الملائكة تتغنّى يالمزامير. وأنا أتمنى أن أكون ملاكاً صغيراً هنا على الأرض». وعندئذ يفوز بقطعتين من حلوى الزنجبيل جزاء تقواه الطفلية هذه».

فلاحظت: «المزامير غير ماتعة».

– «هذا يثبت أن لك قلباً شريراً، وأنّ عليك أن تصلّي داعية الله أن يغيّر قلبك هذا، أن يمنحك قلباً جديداً طاهراً، أن يجرُّدك من قلبك الذي قدَّ من صخر، ويهبك قلباً من لحم»!

وكنت على وشك أن أطرح سؤالاً يمسّ الطريقة التي كان مفروضاً في عملية تغيير قلبي هذه أن تتمّ بها، عندما أقحمت مسز ريد أنفها في الحوار طالبة إليّ أن أجلس. ثم أردفت ناهضة بنفسها بعبء الحديث:

– «أعتقد، يا مستر بروكلهورست، أنني ألمحت في الرسالة التي كتبتها إليك منذ ثلاثة أسابيع إلى أن هذه الفتاة الصغيرة لا تتمتّع بالخلق القويم والنزعة الصالحة اللذين كنت أتمناهما لها، فإذا ما ارتضيت أن تقبلها في مدرسة لو وود فثق أني أكون سعيدة إذا ما قامت المديرة والعلمات بمراقبتها مراقبة شديدة، وأن يحترسن قبل كل شيء من عيبها الأسوأ، أعني نزعتها إلى الخداع. أنا أذكر هذه الحقيقة على مسمع منك، يا جين، لكي لا تحاولي أن تحتالي على مستر بروكلهورست».

كان طبيعياً أن أرهب مسز ريد وأن لا أحبها. ذلك بأنها كانت مفطورة على جرحي في قسوة. فأنا لا أذكر أني سعدت في أيما يوم من الأيام في حضرتها.

كانت مهما حرصتُ، على طاعتها ومهما بذلت من جهد في سبيل إرضائها، تقابل محاولاتي هذه بالصدّ وتكافئها بجمل من مثل التي نقلتها في الفقرة السابقة. أمّا وقد نطقت الآن بهذا الاتهام أمام شخص غريب فقد استشعرت أن طعنتها نفذت إلى قلبي نفسه، وأدركت على نحو غامض أنها كانت تسعى حتّى في تلك اللحظة إلى جعل مرحلة الحياة الجديدة التي قدّرت لي هي نفسها أن أدخلها مرحلة يائسة لا يلوح فيها أيما أمل. وأحسست، برغم أني كنت أعجز من أن أعبّر عن ذلك الإحساس، بأنها كانت تنثر بذور المقت والقسوة في طريقي المقبلة. لقد رأيت نفسي وقد حوّلت تحت بصر مستر بروكلهورست إلى طفلة ماكرة بغيضة، وما الذي أستطيع أن أفعله لمحو الأثر السيئ الناشئ عن هذا الظلم؟.

وقلت في ذات نفسي، وأنا أناضل لكبت زفرة تريد أن تنطلق: «لا شيء! لا شيء!» وسارعت إلى كفكفة بضع عبرات كانت تعبيراً قوياً على الألم المبرح الذي عصف بي.

فقال مستر بروكلهورست: «الخداع، في الواقع، عيب مُخزٍ في الأطفال. إنّه صنو الكذب. وجميع الكذابين سوف ينالون جزاءهم في البحيرة الملتهبة بالنار والكبريت. بيد أنها سوف توضع تحت المراقبة، يا مسز ريد. سوف أحدث مسز تامبل والمعلمات في ذلك».

فواصلت وليّة نعمتي حديثها: «إني أتمنى أن تعمدوا إلى تربيتها على نحو يتلاءم مع مركزها ووضعها الاجتماعي، فتعلّموها كيف تجعل من نفسها عنصراً نافعاً وكيف، تلزم جادة التواضع. أما العطل المدرسية فأرى، بعد موافقتك طبعاً، أن تنفقها كلّها في لو وود».

فقال مستر روكلهورست: «إنّ قراراتك لتنطوي على حكمة بالغة. إنّ التواضع فضيلة مسيحية، وهي لائقة على نحو مخصوص بطالبات لو وود. من أجل ذلك أصدرت أوامري بضرورة بذل أقصى الجهد لتنشئتهنّ على هذه الفضيلة. ولقد درست أفضل السبل إلى إماتة عاطفة الغرور الدنيوية في نفوسهن، ولم أقع إلاّ منذ

أيام قائل على برهان سار يثبت نجاحي. فقد مضت ابنتي الثانية، أو غوستا، مع والدتها لزيارة المدرسة، حتى إذا رجعت من هناك هتفت: «أوه، يا أبي العزيز، كم تبدو فتيات لو وود كلّهن هادئات بسيطات. إنهن بشعرهنّ المرجَّل خلف آذانهنّ، وبمئازرهنّ الطويلة، وتلك الجيوب الهولندية الصغيرة التي في خارج جلابيبهنّ ليظهرن للرائي وكأنّهن بنات الفقراء»! ثم أضافت: «ولقد رحن ينظرن إلى فستاني وفستان ماما وكأنّهن لم يرين من قبل ثوباً حريرياً قط».

فقالت مسز ريد: «ذلك هو الوضع الذي أقرّه إقراراً كاملاً. ولو أني طوفت في طول إنكلترا وعرضها باحثة منقّبة إذن لما وجدت نظاماً تربوياً أكثر ملائمة لطفلة مثل جين ايير. الصرامة، أنا أوصي بالصرامة في كل شيء».

– «الصرامة، يا سيدتي، هي رأس الواجبات المسيحية، ولقد روعيت في كل تدبير متّصل بمؤسسة لو وود: طعام عادي، لباس بسيط، وتجهيزات غير معقّدة، وعادات قاسية ناشطة: تلك هي الحالة السائدة في المدرسة وبين نزيلاتها».

– «حسن جداً، يا سيدي. في استطاعتي أن أطمئن إذن إلى أن هذه الطفلة سوف تسجّل طالبة في لو وود، وأنها سوف تدرّب هناك تدريباً يتّفق ومركزها وما ينتظرها من مستقبل؟»

– «في استطاعتك أن تطمئني إلى ذلك، يا سيدتي. إنها سوف تدخل إلى تلك المدرسة التي لا تحضن إلاّ النباتات المختارة، وأنا واثق من أنها سوف تتكشف عن أعظم الشكر لاختيارنا إيّاها دون غيرها، وهو امتياز لا يقدّر بمال».

– «سوف أرسلها، إذن، على أسرع وجه ممكن يا مستر بروكلهورست. ذلك بأني أشعر، وفي استطاعتي أن أؤكد لك ذلك، بالتوق الشديد إلى التخفّف من تبعة أمست الآن مرهقة أكثر ممّا ينبغي».

– «من غير ريب، من غير ريب، يا سيدتي، والآن أتمنى لك نهاراً سعيداً. سوف أعود إلى «بروكلهورست هول» بعد أسبوع أو أسبوعين. إن صديقي

الطيب، رئيس الشمامسة، لن يجيز لي مفارقته قبل ذلك. ولسوف أبعث إلى مسز تامبل بمذكرة تحيطها علماً بأن فتاة جديدة سوف تفد على المدرسة عمّا قريب، حتى لا يكتنف استقبالها صعوبة ما. إلى اللقاء»!

– «إلى اللقاء، يا مستر بروكلهورست. احمل تحياتي إلى مسز ومس بروكلهورست، وإلى أوغوستا وتيودور، وإلى الأستاذ بروتون بروكلهورست».

– «سوف أفعل، يا سيدتي. أما أنت، أيتها الفتاة الصغيرة، فدونك هذا الكتاب الموسوم بـــــــــ «مرشد الطفل». اقرئيه مع الصلاة، ولا سيما ذلك القسم الذي يشتمل على «قصة وفاة مرتاج... الرهيبة المفاجئة»، ومارتا هذه طفلة شريرة انغمست في الكذب والخداع».

قال مستر بروكلهورست هذه الكلمات ووضع في يدي كرّاسة رقيقة ذات غلاف مخيّط، وغادر المكان بعد أن قرع الجرس مستدعياً عربته.

وخُلفت أنا ومسز ريد وحدنا. وتصرّمت بضع دقائق في صمت.

كانت مسز ريد تخيط، وكنت أنا أراقبها. ولعلها كانت آنذاك في السادسة والثلاثين من عمرها أو في السابعة والثلاثين. كانت امرأة قوية البنية، ذات كتفين مربعتين، وأوصال صلبة، غير طويلة القامة، وغير بدينة برغم ما يتّصف به جسمها من امتلاء. كانت ذات وجه عريض بعض الشيء، وكان فكّها الأعلى ضخماً جداً وصلباً جداً. وكانت ذات جبين منخفض، وذقن عريضة بارزة، وفم وأنف عاديين. وتحت حاجبيها الرقيقين التمعت عينان يعوزهما الحنان. كانت بشرتها داكنة معتمة، وكان شعرها ضارباً إلى الشقرة. أمّا جسمها فكان سليماً مثل جرس، ذلك بأن الأمراض لم تقترب منها في أي يوم من الأيام. وكانت مدبرة دقيقة بارعة، يخضع كل من في بيتها وجميع مستأجري مزرعتها لسيطرتها الكاملة. وكان أطفالها هم وحدهم الذين يتحدّون سلطتها في بعض الأحيان، ويسخرون منها. كانت حسنة البزة، وكانت سيماها ومشيتها تعززان أناقتها وتزيدانها وضوحاً.

وفيما كنت جالسة على كرسي منخفض لا ظهر له، على بضع ياردات من كرسيها ذي الذراعين، رحت أتأمل وجهها وأتصفح قسماته، وكنت أمسك في يدي تلك الكراسة الدينية المشتملة على حكاية موت الكاذبة الفجائي، وهي الحكاية التي لُفت نظري إليها كما يُلفت إلى إنذار ملائم. كان ما جرى منذ لحظة، وما قالته مسز ريد بصددي لمستر بروكلهورست، وكامل فحوى حديثهما، أقول كان كل ذلك لا يزال جديداً، طرياً، يلسع ذهني لسعاً. كت قد استشعرت كلّ كلمة في حدة لا تقلّ قوة عن الوضوح التي سمعتها به، فإذا بحنق شديد يعتمل في ذات نفسي.

ورفعت مسز ريد بصرها عن عملها، واستقرّت عينها على عيني، وفي الوقت نفسه كفّت أصابعها عن حركاتها الرشيقة.

وأصدرت إليّ أمرها: «اخرجي من الغرفة!» فلا ريب أن نظرتي أو شيئاً آخر كانت قد آذتها وأزعجتها، ذلك بأنها نطقت بتلك الكلمات في اهتياج بالغ، ولكنه مكظوم. فنهضت، ومضيت إلى الباب، ولكني ما لبثت أن عدت أدراجي: لقد مشيت عبر الحجرة إلى النافذة، ثم تقدّمت حتّى أصبحت على مقربة دانية من مسز ريد.

كان يتعين عليّ أن أتكلّم، فقد ديست كبريائي في قسوة، وكان يتعيّن علي أن أردّ، ولكن كيف؟ وأي قوة كانت لي حتى أثأر من عدوتي؟ وأخيراً حشدت قواي كلها، وقذفتها بها في هذه الجملة الفظّة:

– «أنا لست مخادعة. ولو قد كنت مخادعة إذن لقلت لك إني أحبك. ولكني أعلن أني لا أحبك: إني أكرهك أكثر مما أكره أيما امرئ في العالم باستثناء جون ريد. أما هذا الكتاب الذي يروي قصة «الكاذبة» ففي استطاعتك أن تقدّميه إلى ابنتك، جورجيانا، لأنها هي التي تطلق الأكاذيب، لا أنا»!

وظلّت يدا مسز ريد جامدتين فوق عملها، وظلّت عينها الجليدية مستقرّة على عيني استقراراً قارساً.

– «ما الذين تريدين أن تقوليه بعد؟» كذلك سألتني في نبرة هي أشبه بذلك الذي يصطنعه المرء حين يخاطب خصماً راشداً، لا في مخاطبة طفل من الأطفال.

والواقع أن عينها تلك، وصوتها ذاك، أثارا في نفسي كلّ ما انطوت عليه من بغض ونفور. وارتعدت من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وعصف بي اهتياج ممتنع على الكبح، فأردفت قائلة: «أنا سعيدة لأن أيّما قرابة لا تشدّني إليك، وأني لن أدعوك خالتي بعد اليوم ما دمت على قيد الحياة. أنا لن أعود، أبد الدهر، لرؤيتك عندما أشبّ، عن الطوق، وإذا ما سألني امرؤ هل أحبك وكيف كنت تعاملينني فلسوف أقول له إنّ مجرّد التفكير فيك يغريني بالتقيؤ، وأنّك عاملتني في قسوة تثير الرثاء».

– «وكيف تجرئين على توكيد ذلك، يا جين ايير؟»

– «كيف أجرؤ، يا مسز ريد؟ كيف أجرؤ؟ لأن هذه هي الحقيقة. أنت تحسبين أني مجرّدة من العواطف، وأن في استطاعتي أن أحيا من غير ذرّة من حب أو حنان. لا، إنني لا أستطيع أن أحيا على هذا النحو، وأن قلبك خلو من الرحمة. سوف أتذكر ما دام فيَّ عرق ينبض كيف دفعتني – كيف دفعتني في خشونة وغلظة – إلى الحجرة الحمراء، وحبستني هناك، على الرغم من الآلام المبرحة التي قاسيتها. وعلى الرغم من أني صحت متوسّلة إليك، وأنا أختنق بالكرب والضنك: «ارحميني! ارحميني أيّتها الخالة ريد»! سوف أتذكر تلك العقوبة التي أنزلتها بي لأن ولدك الشرير ضربني، لأنّه طرحني أرضاً لغير ما سبب جنيته. سوف أروي هذه القصة بحذافيرها على مسمع كل من يسألني عنك. إنّ الناس يحسبون أنّك امرأة صالحة، ولكنك رديئة، قاسية الفؤاد. أنت امرأة مخادعة»!

وقبل أن أنهي هذا الجواب انتعشت روحي وتهلّلت جذلة بأغرب إحساس بالحرية والنصر قدّر لي أن أعرفه، لقد بدا وكأن رباطاً غير منظور قد انفصم، وأني قد اندفعت في سبيلي إلى حرية لم أكن أتوقّع الفوز بها. وما كان ذلك لغير ما سبب: فقد بدت مسز ريد مذعورة مروعة، وكان القماش الذي خاطته قد زلّ عن

ركبتها، وكانت ترفع يديها، مترنّحة ذات اليمين وذات الشمال، بل كانت تغضن قسمات وجهها وكأنها على وشك أن تسفح العبرات.

وقالت: «جين، أنت مخطئة. ماذا دهاك؟ لماذا ترتعدين هذا الارتعاد العنيف كله؟ هل ترغبين في قليل من الماء؟»

– «لا، يا مسز ريد».

– «هل ثمة شيء آخر ترغبين فيه، يا جين؟ أؤكد لك أني أودّ أن أكون صديقة لك».

– «هذا غير صحيح. لقد قلت لمستر بروكلهورست إن خلقي رديء، وإني نزّاعة إلى الخداع. ولسوف أعلم كل من في لو وود بحقيقتك، وبالذي فعلته بي».

– «جين، أنت لا تفهمين هذه الأمور: إنّ علينا أن نعاقب الأطفال كلما ارتكبوا إثماً».

فصحت بصوت عال تغلب عليه الضراوة: «أنا لم أرتكب إثماً، والخداع ليس من خصالي».

– «ولكنك سريعة الانفعال، يا جين، وهذا شيء يجب أن تسلّمي به. والآن، ارجعي إلى حجرة الأطفال، يا عزيزتي، واضطجعي قليلاً». – «أنا لست عزيزتك. وليس في استطاعتي أن أضطجع عجّلي في إرسالي إلى المدرسة، يا مسز ريد، فأنا أكره أن أحيا هنا».

فغمغمت مسز ريد في همس: «سوف أرسلك إلى المدرسة على جناح السرعة. تأكّدي من ذلك».

ثم إنها لملمت أشغالها، وغادرت الحجرة على نحو مفاجئ.

وبقيت هناك وحدي، منتصرة في ميدان المعركة. كانت أعنف، معركة قدّر لي أن أخوضها، وكان أول نصر أحرزته: لقد وقفت برهة قصيرة على السجادة، حيث

سبق لمستر بروكلهورست أن وقف، ونعمت بعزلة الظافر. وبادئ الأمر، ابتسمت لنفسي، وأخذني الازدهاء والعجب، ولكن هذا الشعور الضاري ما لبث أن خمد في ذات نفسي بمثل السرعة التي هدأت فيها نبضات قلبي المتسارعة. فليس في ميسور الطفل أن يتشاحن مع أفراد أسرته الذين يكبرونه سناً – كما قد فعلت أنا – وليس في ميسوره أن يطلق العنان لأحاسيسه الهائجة – كما قد أطلقت أنا العنان لأحاسيسي – من غير أن يستشعر بعد ذلك غصّة الندم ورعشة وردّة الفعل. كان عقلي، عندما اتّهمت مسز ريد وهدّدتها، أشبه شيء بركام من الوقود مضطرم، متحفّز، يطلق الشرر، ويفغر فاه للالتهام. ولقد كان خليقاً بهذا الركام نفسه، الركام الذي غدا أسود خامداً بعد أن مات لهيبه، أن يمثل أحسن تمثيل حالتي التي تلت ذينك الاتهام والتهديد، عندما كشفت لي ثلاثون دقيقة من الصمت والتفكير عن حماقة سلوكي، وعن كآبة موقفي المكروه والكاره في آن معاً.

لقد ذقت، للمرة الأولى في حياتي، طعم الانتقام. ومثل الخمر الزكية بدا لي طعمه، حين تجرّعته، دافئاً حاد المذاق. حتى إذا انقضت على ذلك لحظات أمسى طعمه معدنياً صدئا أورثني إحساساً بأنني قد جرعت سماً. ولقد كان خليقاً بي الآن أن أمضي، من تلقاء نفسي، وألتمس صفح مسز ريد وعفوها، ولكني عرفت – من تجربتي السابقة وبالغريزة أيضاً – أن تلك كانت هي السبيل إلى حملها على صدّي في احتقار مزدوج، مثيرة بذلك من جديد كلّ لواعج طبيعتي الهائجة.

كان من الخير لي أن ألجأ إلى ملكة أفضل من ملكة الكلام الضاري، أن أعمد إلى تغذية عاطفة أقلّ شيطانية من عاطفة السخط القاتم. وهكذا تناولت كتاباً – كتاباً يشتمل على بعض الحكايات العربية، واستويت قاعدة، وحاولت أن أقرأ. ولكني لم أفهم من موضوع الكتاب شيئاً، فقد كانت أفكاري لا تفتأ تطفو مترددة ما بيني وبين الصفحة التي طالما وجدتها من قبل فاتنة آسرة. وفتحت الباب الزجاجي في حجرة الفطور، فإذا بشجيرات الخميلة ساكنة سكوناً تاماً: لقد كان الصقيع القاتم يغطي الأرض كلها، بعد أن عجزت الشمس والنسيم عن كسره. وغطّيت وجهي وذراعيّ بذيل فستاني، وخرجت ابتغاء المشي في جزء من الخميلة منعزل. ولكني لم أجد

أيّ متعة في مشهد الشجرات الصامتة، وأكواز الشربين الساقطة، وفي بقايا الخريف المنجمدة، تلك الأوراق الخمرية اللون، التي ركمتها الرياح السالفة أكواماً أكواماً ثم تصلّبت الآن بعضها فوق بعض. استندت إلى أحد الأبواب، وأجلت بصري في حقل خاوٍ لا أغنام ترعى فيه، فإذا العشب القصير ذاوٍ أذبله الصقيع. كان يوماً قاتماً جداً، وكانت السماء تتموّج فوق الثلج وكانت تغطي كلّ شيء بمظلّة معتمة إلى أبعد الحدود. ثم إن رقاقات الثلج راحت تسقط بين الفينة والفينة، لتستقر على المجاز المعبد، والمرج الأشيب، من غير أن تذوب. ووقفت، وهل كنت إلاّ طفلة غارقة في الشقاء، ورحت أهمس بيني وبين نفسي متسائلة مرة بعد مرة: «ما الذي سوف، أعمله؟.. ما الذي سوف أعمله؟»

وفجأة، سمعت صوتاً واضحاً ينادي: «مس جين! أين أنت؟ تعالي لنتناول طعام الغداء».

وعرفت جيداً أن بيسي كانت هي التي نادتني، ولكني لم آتِ بحركة، وسمعت وقع قدميها الرفيق وهي تجري في المجاز بخفّة ورشاقة.

وقالت: «يا لك من شقية صغيرة! لماذا لا تقبلين حين يناديك المرء؟»

إن وجود بيسي، بالقياس إلى الأفكار التي كانت تراودني، بدا لي شيئاً بهيجاً، برغم أنها كانت، كمألوف عادتها، نكدة بعض الشيء. فالواقع أني بعد نزاعي مع مسز ريد وانتصاري عليها كنت غير ميّالة إلى الاهتمام كثيراً بغضب الحاضنة المؤقت، لقد غلب عليّ النزوع إلى الاصطلاء بمرحها الفتي. فما كان مني إلاّ أن طوّقتها بذراعي وقلت: «تعالي، يا بيسي! لا تنتهريني»!

كانت بادرتي هذه أكثر صراحة وأشدّ جرأة ممّا جرت به عادتي. وسرّها ذلك بطريقة ما.

وقالت وهي تخفض بصرها نحوي: «أنت طفلة غريبة، يا مس جين، مخلوقة صغيرة هائمة على وجهها، متوحدة. ولسوف تذهبين إلى المدرسة، على ما أظن؟»

وهززت برأسي. فأضافت: «ولن يحزنك كثيراً أن تفارقي بيسي المسكينة؟»

– «وما الذي يحمل بيسي على الاهتمام بأمري، وهي التي لا تفتأ تعنّفي تعنيفاً موصولاً؟»

– «لأنّك مخلوقة صغيرة، غريبة، مروعة، خجول، إلى أبعد الحدود. يجب، أن تكوني أكثر جرأة».

– «ماذا؟ لكي أتلقّى صفعات وضربات إضافية؟»

– «هراء! ولكنك مضطهدة بعض الشيء، هذا أمر لا ريب فيه. ولقد قالت أمي، عندما وفدت لزيارتي في الأسبوع الماضي، إنها لا ترغب في أن ترى واحدة من صغيراتها في مكانك. والآن. تعالي، إن عندي نبأ ساراً يتّصل بك».

– «لست أظن أن عندك مثل هذا النبأ، يا بيسي».

– «أيتها الطفلة! ما تعنين؟ بأية عينين محزونتين تحدّقين إليّ؟ ولكن سيدتي والسيدات الصغيرات والسيد جون يعتزمون احتساء الشاي، هذا الأصيل، خارج القصر، ولسوف تحتسين الشاي معي. إني «سأطلب إلى الطاهية أن تخبز لك كعكة صغيرة، وبعد ذلك سوف تساعدينني في إلقاء نظرة على أدراجك، لأني سأُعدّ لك عمّا قريب حقيبة سفرك. إنّ سيدتي معتزمة أن تطلب إليك مغادرة غايتسهيد بعد يوم أو يومين، ولسوف تختارين من الدمى ما يحلو لك أن تأخذيه معك».

– «بيسي، يجب أن تعديني بأنك لن تنهريني بعد اليوم، حتّى أمضي لسبيلي».

– «حسن، أعدك بذلك. ولكن احرصي على أن تكوني فتاة طيبة جداً، ولا يساورك أي خوف مني. لا تجفلي إذا ما اتّفق لي أن كلّمتك في قليل من الحدّة».

– «لست أظن أني سوف أخافك بعد اليوم، بأية حال من الأحوال، يا بيسي لأني ألِفتُك، ولسوف أجد عمّا قريب مجموعة أخرى من الناس أخافها وأحسب لها حساباً».

– «إذا خفتهم أبغضوك».

– «كما تبغضينني أنت، يا بيسي؟»

– «أنا لا أبغضك أيتها الآنسة. أنا أعتقد أني أحبك أكثر ممّا يحبك أي شخص آخر».

– «ولكنك لا تظهرين ذلك».

– «يا لك من مخلوقة صغيرة لاذعة اللسان! يبدو أنك اكتسبت، طريقة في الكلام جديدة كل الجدّة. ما الذي يجعلك جسورة شديدة البأس إلى هذا الحد؟»

– ولكني سوف أفارقكم عمّا قريب،. وإلى هذا...» كنت على وشك أن أقول شيئاً عمّا جرى بيني وبين مسز ريد، ولكني وجدت من الخير لي، بعد شيء من الروية، أن أعتصم بالصمت في ما يتّصل بهذه المسألة.

– «وهكذا فأنت سعيدة بالابتعاد عني؟»

– «لا، على الإطلاق، يا بيسي. الواقع أني في هذه اللحظة أقرب إلى الأسى والحزن».

– «وفي هذه اللحظة! وأقرب إلى! وبأية برودة بالغة تنطق سيدتي الصغيرة بهذه الكلمات! في استطاعتي أن أقول الآن إنني لو سألتك قبلة لما جدت عليّ بها، ولقلت لي إنّك تؤثرين أن لا تفعلي».

– «أوه، لا. سوف أقبلك في سرور. أحني رأسك قليلاً».

فخفضت بيسي رأسها. وتعانقنا، وتبعتها إلى البيت وقد سُرّي عن نفسي. وانقضى ذلك الأصيل في سلام وتناغم. وفي المساء روت لي بيسى بعضاً من حكاياتها الأشد سحراً. وأنشدتني بعضاً من أغانيها الأكثر عذوبة. وحتّى بالنسبة إليّ كان للحياة، أحياناً، ومضاتها المضمّخة بضياء الشمس!

[5]

لم تكد دقات الساعة تعلن الخامسة صباحاً من اليوم التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) حتى حملت بيسي شمعة إلى مخدعي، فإذا بها تجدني وقد غادرت فراشي وفرغت، أو كدت، من ارتداء ملابسي. كنت قد أفقت قبل وفودها عليّ بنصف ساعة، وكنت قد غسلت وجهي وارتديت ثيابي منذ لحظة، على ضوء خافت لهلال تدفّقت أشعّته عبر نافدة ضيّقة قرب سريري ذي الحاجزين. كان علي أن أغادر غايتسهيد، ذلك اليوم، بمركبة تجتاز بكوخ البواب في الساعة السادسة صباحاً. وكانت بيسي هي الشخص الوحيد الذي استيقظ في تلك الآونة، وكانت، قد أضرمت ناراً في حجرة الأطفال، حيث راحت الآن تُعدّ لي فطوري. إن قليلاً من الأطفال ليقدرون على تناول الطعام حين تهيج نفوسهم خواطر السفر، وكذلك كان حالي أنا. وحثتني بيسي، ولكن عبثًا، على التهام بضع ملاعق من الحليب المغلي ومن الخبز اللذين كانت قد أعدّتهما لي، فلفَّت، بضع بسكويتات في ورقة ووضعتها في جرابي. ثم إنها ساعدتني على ارتداء معطفي والاعتمار بقبعتي الصغيرة، وتلفعت بشال وغادرت حجرة الأطفال معي. حتى إذا اجتزنا بحجرة نوم مسز ريد، قالت: «هلاّ دخلت وقلت لسيدتي كلمة وداع؟»

– «لا، يا بيسي. لقد أ قبلت إلى سريري، الليلة البارحة، عندما ذهبت أنت لتناول العشاء، وسألتني أن لا أزعجها في الصباح أو أزعج أبناء خالي أيضاً، لقد قالت لي إنّ عليّ أن أتذكر أنها كانت، دائماً، صديقتي الفضلى، وطلبت إليّ أن أتحدث عنها بروح الاعتراف بجميلها نحوي..».

– «وماذا قلت لها، أيتها الآنسة؟»

– «لا شيء. لقد حجبت رأسي بغطاء السرير، وأشحت بوجهي عنها مستقبلة الجدار».

– «لقد أسأت صنعاً، يا مس جين».

– «لقد أحسنت صنعاً. إنّ سيدتك لم تكن صديقتي. لقد كانت عدوّتي».

– «أوه، مس جين! لا تتكلمي هكذا»!

وصحت حين اجتزنا الرواق وانتهينا إلى الباب الأمامي: «وداعاً يا غايتسهيد»!

كان القمر قد أفل، وكان الظلام دامساً. وحملت بيسي فانوساً سفح ضياءه على درجات السلم الندية، وعلى حصباء الطريق المخضلة بثلج حديث العهد بالذوبان. كان الصباح الشتوي رطباً قارساً، ولقد اصطكت أسناني وأنا أندفع مسرعة في المجاز. وكان كوخ البواب مضاء، حتى إذا بلغناه وجدنا زوجة البواب، ما تزال تضرم نارها. وكانت حقيبة أمتعتي، التي حُملت إلى هناك الليلة البارحة، منتصبة عند الباب، موثقة بالحبال. كانت الساعة السادسة إلاّ بضع دقائق، وقبل أن تعلن الساعة تمام السادسة بقليل، أعلنت جلبة عجلات نائية أن المركبة قادمة. فمضيت إلى الباب، وراقبت مصابيحها تخترق الدجنة على جناح السرعة. تساءلت زوجة البواب: «أهي مرتحلة وحدها؟»

– «نعم».

– «وكم تبلغ المسافة التي ستجتازها؟»

– «خمسين ميلاً».

– «يا لها من رحلة طويلة! إنّي لأعجب كيف أجازت مسز ريد لفتاة مثلها أن تجتاز هذه المسافة الطويلة من غير رفيق؟ ألا تخشى أن يصيبها مكروه؟»

وتقدّمت المركبة، حتى انتهت بجيادها الأربعة إلى باب القصر. كان متنها مثقلاً بالمسافرين. ولم تكد تقف حتى صاح الحارس والحوذي طالبين إليَّ أن أسرع في امتطاء المركبة. فرفعت حقيبتي إليها، وانتزعتُ عن عنق بيسي انتزاعاً، وكنت قد تعلّقت بها ورحت أغمرها بقبلاتي.

وصاحت مخاطبة الحارس فيما كان يرفعني ويُلقي بي في داخل المركبة: «احرص على العناية البالغة بها».

فكان جوابه: «أجل! أجل!» وأوصد الباب، وهتف صوت: «حسن جداً». وانطلقت المركبة بنا. وهكذا فُصِلت عن بيسي وغايتسهيد، وهكذا حُمِلت نحو أصقاع مجهولة، نحو ما اعتبرته آنداك أصقاعاً نائية محاطة بالأسرار.

أنا لا أذكر الآن من تلك الرحلة غير النزر اليسير. كلّ ما أعرفه هو أنّ النهار بدا لي طويلاً إلى حد غير طبيعي، وأننا كنّا نطوي طريقاً تمتدّ مئات الأميال. لقد اجتزنا مدناً عديدة، وفي إحداها – وكانت مدينة كبيرة جداً، وقفت المركبة. وحُلّ وثاق الجياد، وترجّل المسافرون ليتناولوا طعام الغداء. واقتادوني إلى نزل صغير، حيث طلب إليّ الحارس أن أتناول شيئاً من غداء. ولكني لم أكن أجد أيما شهوة إلى الطعام، فخلفني في حجرة مترامية الأطراف، يقوم في كلّ زاوية من زواياها مستوقد، وتتدلّى من سقفها ثريا، وتنبثق من أحد جدرانها، على ارتفاع، شرفة حمراء صغيرة تغصّ بالآلات الموسيقية. وهنا رحت أذرع المكان جيئة وذهاباً، فترة غير قصيرة من الزمان، مستشعرة وحشة بالغة، موجسة خيفة، إلى حد مميت، من أن ينسل امرؤ ما ويختطفني، ذلك بأني كنت أؤمن بوجود المختطفين، بعد أن تمثلت مآثرهم على نحو متواتر، في حكايات بيسي التي كانت ترويها لي قرب المستوقد. وأخيراً، رجع الحارس، وكرة أخرى وُضِعت في موضعي من المركبة، واستوي حارسي على مقعده، ونفخ في بوقه ذي الصوت الغائر، فانطلقت بنا العربة مجلجلة في شارع «لـــ...» الحافل بالحجارة.

وأقبل الأصيل رطباً، مثقلاً بالضباب بعض الشيء. حتى إذا جنحت الشمس للمغيب، أنشأتُ أستشعر أننا كنا نمعن في الابتعاد، حقاً، عن «غايتسهيد». ما عدنا نمرّ بمدن، ولقد تغيّر وجه الريف، وانبثقت الكثبان الرمادية الضخمة حول الأفق. حتى إذا احلولك الظلام، هبطنا وادياً ملتفّ الأشجار على نحو قاتم، وبعد أن حجب الظلام مناظر الطبيعة، سمعت عزيف ريح صرصر تتدفع خلال الأشجار.

وهدهدتني الضجّة، فاستسلمت آخر الأمر للنوم، ولم أكد أنعم بالرقاد حتُّى أيقظني وقوف المركبة وقوفاً مفاجئاً، وفتِح باب المركبة، وانتصبت عنده امرأة تبدو عليها سيماء الخدم: لقد رأيت وجهها وفستانها على ضوء مصابيح المركبة.

وتساءلت تلك المرأة: «هل توجد هنا فتاة صغيرة اسمها جين ايير؟»

فأجبتها: «أجل»! وبعد ذلك حُملت إلى خارج المركبة، وأُنزِلت حقيبتي، وفي الحال انطلقت المركبة ماضية لسبيلها.

كانت أوصالي قد تصلّبت من أثر القعود المتطاول، وكانت جلبة المركبة وحركتها قد ذهبتا بصوابي. حتّى إذا جمعت شتات تفكيري أجلت البصر في ما حولي. كانت الريح، والمطر، والظلام تسدّ الأُفق، ومع ذلك فقد تبيّنت، على نحو ضبابي، جداراً منتصباً أمامي، وباباً ينفتح فيه. ومن خلال هذا الباب تقدّمت مع مرشدتي الجديدة. وأغلقت المرشدة الباب ثم قفلته خلفها. لقد بصرت الآن ببيت أو ببيوت عديدة – فقد كان البناء متطاولاً جداً، وكانت تتخلّله نوافذ كثيرة، تلتمع الأضواء في بعضها. وصعدنا في مجاز عريض مفروش بالحصى، حافل بالحفر الي يغمرها الماء، ودخلنا باباً فُتِح في وجهنا. ثم إنّ الخادمة قادتني عبر أحد الممرات إلى. حجرة تضطرم النار في مستوقدها، وخلفتني هناك وحدي.

ووقفت لحظة أُدفئ أصابعي الخدرة من أثر البرد، ثم أجلت الطرف في ما حولي. لم يكن ثمة شمعة، ولكن ضوء المدفأة القلق كشف لناظري، بين فينة وأخرى، عن جدران يكسوها الورق وعن بساط، وسجف، وأثاث مصنوع من

خشب الماهوغاني اللماع. كانت الحجرة قاعة استقبال ليست، على مثل اتّساع قاعة الاستقبال في «غايتسهيد» أو على مثل روعتها، ولكنها تنعم بقدر كاف من أسباب الرفه. وكنت أحاول فهم موضوع إحدى الصور المعلّقة على الحائط عندما فتح الباب، ودخل عليّ شخص يحمل شمعة، يتبعه على الأثر شخص آخر.

كان الشخص الأول سيدة فارعة الطول ذات شعر داكن، وعينين سوداوين، وجبين شاحب عريض. وكان شال يحجب وجه هذه السيدة، على نحو جزئي، وكانت سيماها صا رمة، وقامتها منتصبة.

قالت وهي تضع شمعتها على الطاولة: «الطفلة أصغر من أن ترسل إلى هنا من غير ما رفيق يصحبها».

ثم إنها راحت تمعن النظر إليّ، في انتباه بالغ، طوال دقيقة أو دقيقتين ثم أضافت قائلة: «كان من الخير أن تُقاد إلى فراشها مباشرة. إنها تبدو مرهقة».

وسألتني، واضعة يدها على كتفي: «هل أنت متعبة؟»

– «بعض الشيء، يا سيدتي».

– «وجائعة أيضا، من غير شكّ. آيتيها بشيء من طعام قبل أن تأوي إلى الفراش، يا مس ميلر. أهذه هي أول مرة تفارقين فيها والديك للمجيء إلى المدرسة، يا بنيتي؟»

وأوضحت لها أني يتيمة الأب والأم. فسألتني منذ متى كانت وفاتهما، وكم أبلغ من العمر، وما اسمي، وهل أعرف القراءة والكتابة وقليلاً من الخياطة. ثم مسّت وجنتي بسبّابتها مساً رفيقاً، ودعتني إلى الانصراف مع مس ميلر، راجية أن أكون بنتاً طيبة.

ولعلّ السيدة التي فارقتها كانت في نحو التاسعة والعشرين. أمّا تلك التي مضت معي فبدت أصغر منها ببضع سنوات. لقد راعني من الوهلة الأولى صوتها، وطلعتها، وسيماها. أما مس ميلر فكانت أكثر بساطة. كانت بشرتها متورّدة، برغم ما غلب على محياها من إمارات الهمّ والغم، وكانت رشيقة الخطى سريعة إلى العمل، شأن من يتعيّن عليه دائماً أداء مجموعة من المهام المتلاحقة. ولقد بدت، في الواقع – كما ظهر لي بعد فعلاً – معلمة ثانوية. وبقيادتها رحت أتقدّم منتقلة من جناح إلى جناح، ومن مجاز إلى مجاز، في مبنى ضخم غير قياسي، حتى خرجنا آخر الأمر من ذلك الصمت الكلي، الموحش بعض الشيء، الذي ساد ذلك القسم الذي اجتزناه من البيت، لتطرق آذاننا دندنة أصوات مختلطة، ولندخل في الحال حجرة طويلة رحبة حافلة بالطاولات، في كل ركن من أركان الحجرة طاولتان اثنتان، وعلى كل منهما شمعتان موقدتان، وقد جلست حولها جميعاً، على مقاعد خشبية، جمهرة من الفتيات من مختلف، الأعمار. فبعضهنّ في التاسعة، وبعضهنّ في العاشرة، وبعضهنّ في العشرين. وحين لمحتهن عيني، على ضوء الشموع الباهت، بدا لي وكأن عددهن ممتنع على الإحصاء، برغم أنّه لم يزد في الواقع على ثمانين. لقد كنّ يرتدين ملابس موحّدة قوامها ثوب أسمر غريب الزي، ومئزر هولندي طويل. كانت ساعة المذاكرة، وكانت الفتيات منهمكات في حفظ دروس الغد. وكانت الدندنة التي سمعتها هي الثمرة المشتركة لإعادتهن المهموسة.

وأومأت مس ميلر إليّ بالجلوس على مقعد قرب الباب. ثم إنها مضت إلى الطرف الآخر من الحجرة الطويلة، وصاحت «أيتها العريفات، اجمعن الكتب وضعنها جانباً»!

عندئذ نهضت من بعض الطاولات المختلفة أربع فتيات فارعات الطول، وطفن بالحجرة، فجمعن الكتب ووضعنها جانباً، ثم إن مس ميلر عادت فأصدرت أمرها من جديد:

– «أيتها العريفات، إيتين بصينيات العشاء»!

فانطلقت الفتيات الأربع الفارعات الطول ثم رجعن في الحال، وقد حملت كلٌّ منهن صينية نُضِّدت فوقها شرائح من شيء لم أدرِ ما هو، ووضع في وسط كلٍّ منها إبريق ماء وكوز. ووزّعت الشرائح على الفتيات، وكانت الراغبات في جرعة من الماء يتناولنها من الكوز المشترك. حتّى إذا حان دوري شربت، ذلك بأني كنت أشكو الظمأ، ولكني لم أمسّ الطعام بعد أن جعلني الاهتياج والتعب عاجزة عن الأكل. بيد أني رأيت الآن أن الشرائح كانت كناية عن كعكة رقيقة من الشوفان جُزّئت إلى قطع صغيرة.

حتّى إذا انتهت، فترة الطعام تلت مس ميلر الصلوات، وانتظمت طالبات كلّ صف من الصفوف اثنتين اثنتين، وارتقين السلم. وإذ غلب عليّ الإرهاق فإني لم ألاحظ، إلاّ بشقّ النفس، أي نوع من المكان كانت حجرة النوم: كل ما رأيته هو أنها كانت مثل حجرة المذاكرة طويلة جداً. وتلك الليلة كان علي أن أقاسم مس ميلر سريرها، ولقد ساعدتني في خلع ملابسي، حتى إذا اضطجعت ألقيت نظرة على صفوف الأسرَّة الطويلة، وقد سارعت فتاتان اثنتان إلى احتلال كلُّ سرير منها. وما هي غير دقائق عشر حتى أطفئ الضوء المفرد. وفي غمرة الصمت والظلام الكامل استسلمت للرقاد.

انقضى الليل في سرعة: لقد كنت من الإرهاق بحيث، تعذّر عليّ حتى أن أحلم. ولم أفق من نومي إلاّ مرة واحدة على صوت الريح تعصف في هبات مسعورة، والمطر يهطل مدراراً، واستشعرت أن مس ميلر كانت قد اتّخذت مكانها إلى جانبي. حتى إذا فتحت عيني من جديد، كان جرس يقرع في قوة: كانت الفتيات قد استيقظن من رقادهن وأخذن في ارتداء ملابسهن. لم يكن الضحى قد ارتفع بعد، وكانت شمعة أو اثنتان من الشموع المصنوعة من قش مغموس في الدهن تضيئان في الحجرة. نهضت أنا أيضاً على كره. كان البرد قارساً جداً، فارتديت ملابسي على أحسن ما أجاز لي الارتجاف أن أرتديها، وغسلت وجهي عندما شغر حوض

من الأحواض، وهو شيء لم يكن سهلاً، إذ لم يكن ثمة غير حوض واحد لكل ست بنات، وكانت هذه الأحواض تقوم على ركائز منصوبة في وسط الحجرة. وقُرع الجرس كرة أخرى، فاصطفت الفتيات اثنتين اثنتين، وبهذا النسق هبطن السلم ودخلن حجرة الدرس الباردة الباهتة الضوء. وهنا تلت مس ميلر الصلاة، لم صاحت بعد ذلك: «شكّلن صفوفكن».

وعقبت هذا جلبة، دامت بضع دقائق كانت مس ميلر تهتف خلالها على نحو متكرر: «الصمت»! و«النظام»! حتى إذا خمدت الجلبة رأيتهن جميعاً منتظمات في أربعة أنصاف دوائر، أمام أربعة كراسي وضعت، عند الطاولات الأربع. كُن كلهن يحملن بأيديهن كتباً، وكان كتاب ضخم، كأنه الكتاب المقدس، موضوعاً على كل طاولة، أمام المقعد الشاغر. وانقضت بضع ثوان من الراحة، أُفعِمت بدندنة خفيضة مبهمة كتلك التي تنبعث كلما اجتمعت أعداد كبيرة في مكان واحد. وراحت مس ميلر تنتقل من صف إلى صف، عاملة على إخماد هذه الضجة المبهمة.

رنْ جرس ناء، وفى الحال دخلت الحجرة سيدات ثلاث، تقدمت كل منهن نحو طاولة واستوت على كرسيها. أما مس ميلر فاحتلت المقعد الرابع الخالي، الذي كان أدناها إلى الباب، والذي تحلقت حوله أصغر البنات سناً. وبهذا الصف التمهيدي أُلحقت أنا، أُجلست في مؤخرته.

وبدأ العمل: لقد رُدِّدت صلاة الصباح، وتُليت آيات من الكتاب المقدس، ثم عقبت ذلك قراءة متطاولة لبعض فصول التوراة، استغرقت ساعة كاملة. ولم تكد هذه الرياضة الروحية تنتهي حتى كانت، الشمس قد غمرت الكون بضيائها. وقرع الجرس، الذي لا يكلّ، للمرة الرابعة. فاصطفّت الفتيات من جديد، وسرن إلى حجرة أخرى لتناول الفطور. وما كان أعظم ابتهاجي لأن ألمح خيال شيء من الطعام ألتهمه! فقد كنت أتضور جوعاً.

كانت قاعة الطعام رحبة، قاتمة، منخفضة السقف. وعلى مائدتين طويلتين كان البخار يتصاعد من آنية حَوَتْ شيئاً ساخناً ما، انبعث منه، على نحو أوقع في نفسي

الرعب، رائحة هي أبعد ما تكون عن إثارة الشهوة إلى الطعام. ولم تكد أبخرة ذلك الغذاء تصافح خياشيم أولئك الذين قدّر عليهن أن يزدردنه حتّى لمحت إمارات الاستياء الشامل على وجوههن. ومن مقدمة الموكب أطلقت بنات الصف الأول الفارعات الطول هذه الكلمات المهموسة: «يا للقرف! لقد احترق الثريد من جديد»!

– «صمت»! كذلك صاح صوت، لم يكن هذه المرة صوت مس ميلر، ولكن صوت واحدة من مدرّسات الطبقة الأولى: امرأة ضئيلة الجسم، سمراء البشرة، أنيقة البزّة، ولكنها ذات سيماء نكدة بعض الشيء، اتّخذت مقعدها عند رأس إحدى المائدتين الطويلتين، في حين ترأست سيدة، أكثر امتلاء، المائدة الثانية. ورحت، أبحث، ولكن على غير طائل، عن تلك السيدة التي كانت أول من رأيت، الليلة البارحة. إنها لم تكن هناك، لقد احتلت مس ميلر رأس المائدة التي جلست أنا إليها، في حين احتلّت المقعد المماثل عند رأس المائدة الأخرى سيدة عجوز ذات سيماء أجنبية غريبة، كانت هي مدرِّسة اللغة الفرنسية كما عرفت، في ما بعد. وتليت صلاة طويلة من صلوات المائدة. ورتلت ترنيمة، وبعد ذلك أقبلت خادمة تحمل شيئاً من الشاي إلى المعلمات، وشرعنا في تناول الطعام.

وإذ كان الجوع والدوار يعصفان بي فقد التهمت ملعقة أو ملعقتين من حصّتي من غير أن أفكر في مذاقها، ولكن ما إن انكسرت حدّة الجوع الأولى حتّى أدركت أن بين يدي أكلة تتقزّز النفس منها: فالثريد المحروق لا يكاد يقل رداءة عن البطاطا العفنة، والجوع نفسه سرعان ما يُصاب بالغثيان يسبب منها. وتحرّكت الملاعق في تؤدة: لقد رأيت أن كل فتاة تعمد إلى تذوّق حصتها من الطعام وتحاول أن تبتلعه، ولكن الكثرة الكبيرة من الفتيات ما لبثت أن تخلّت عن هذا الجهد العابث. وانتهى الوقت المخصص للفطور ولمّا تفطر أي منهن. حتى إذا رفعنا صلاة الشكر على شيء لم ننعم به، رتلنا ترنيمة أخرى، وغادرنا قاعة الطعام إلى حجرة الدرس. وكنت أنا بين اللواتي كُنّ آخر من غادر القاعة، وفيما كنت أجتاز بالمائدتين بصرت بإحدى المعلّمات تتناول وعاء من أوعية الثريد وتذوقه. ثم إنها

نظرت إلى زميلاتها. كانت إمارات الاستياء تبدو على وجوههن، وهمست، إحداهن – المعلمة ذات الجسم الممتلئ – قائلة:

«طعام كريه! يا للعار»!

وانقضت قبل أن تبدأ الدروس من جديد خمس عشرة دقيقة كانت حجرة الدرس خلالها مسرحاً لضوضاء عارمة. فقد بدا وكأنما أجيز للفتيات، طوال تلك الفترة، أن يتكلّمن بصوت عال وفي حرية أكثر، ولقد عرفن كيف يفدن من هذا الامتياز. والواقع أن الحديث كله دار حول الفطور. فكانت كلّ واحدة منهن تحمل عليه حملة شعواء وتنتقده في غير هوادة. يا للمخلوقات البائسات! كان ذلك هو عزاءهنّ الأوحد. وكانت مس ميلر هي المعلمة الوحيدة التي بقيت، الآن، في الحجرة، وقد تحلّقت حولها مجموعة من الفتيات الكبيرات كانت كل واحدة منهن تتحدث في انفعال وتشير بيديها إشارات جدّية مغضبة. وسمعت اسم مستر بروكلهورست على بعض الشفاه، ولمحت مس ميلر تهزّ برأسها، لدى سماعها هذا الاسم، هزّة استنكار، ولكنها لم تبذل جهداً كبيراً لكبح جماح النقمة العامة: كانت من غير ريب تشارك الفتيات نقمتهن هذه.

ودقَّت ساعة في حجرة الدرس معلنة التاسعة. فلم يكن من مس ميلر إلاّ أن غادرت حلقتها لتقف في وسط الحجرة وتصيح: «صمت! إلى مقاعدكن».

وهيمن الانضباط: فما هي غير خمس دقائق حتى أخلد الحشد المضطرب إلى النظام، وحتى أخمد الصمت النسبي صخب الألسن المختلط. وسرعان ما اتّخذت المدرّسات الرئيسيات مقاعدهنِّ، ومع ذلك بدا الجميع وكأنهنّ ينتظرن شيئاً. كانت الفتيات الثمانون مرصوفات على المقاعد الخشبية المحاذية لجدران الحجرة، وكن منتصبات الجلسة جامدات لا يأتين حراكاً. لقد بَدَوْن لعين الناظر مجموعة غريبة إلى أبعد الحدود. كن جميعاً ذوات شعر مُرسَل إلى الوراء فلست ترى فيه خصلة معقوصة البتة. وكن يرتدين ثياباً سمراء داكنة ذات قبة مرتفعة ويطوقنّ أعناقهن بياقات محكمة، ويحملن جيوباً هولندية صغيرة «تشبه أكياس الدراهم الاسكتلندية»

شُدت إلى مقدمات جلابيبهنّ، وأريد بها أن تؤدي وظيفة أكياس الشغل. وكن كلهن، أيضا، يلبسن جوارب صوفية وينتعلن أحذية ريفية الصنع مشدودة بأبازيم نحاسية. وكان بين هذه الفتيات المرتديات هذا الزى أكثر من عشرين فتاة كاملة النموّ، أو على الأصح أكثر من عشرين امرأة شابة. والواقع أن ذلك الزى لم يناسبهن البتة، وأنه خلع شيئاً من الغرابة حتى على أملحهن وجهاً.

وكنت لا أزال أتأملهنّ وأمعن النظر، بين الفينة والفينة، إلى المعلمات، ولكن أيًّا من هؤلاء المعلمات لم تنتزع إعجابي بالمعنى الدقيق للكلمة. فقد كانت البدينة فظة غليظة القلب بعض الشيء، وكانت ذات البشرة الداكنة ضارية إلى حدّ كبير، والأجنبية قاسية مضحكة، وكانت مس ميلر، ويا لها من مخلوقة بائسة، تبدو أرجوانية اللون، مسفوعة البشرة، مجهَدة - أقول كنت لا أزال أتأملهن وكانت عيني تطوف من وجه إلى وجه عندما انتصبت، المدرسة كلها واقفة في آن معاً، وكأنما حركها نابض مشترك.

ما الذي حدث؟ إن أيما أمر لم يطرق أذني. واستبدّ بي الذهول. وقبل أن أستردّ صوابي كانت الفتيات والمعلّمات قد اتّخذن مقاعدهن كرة أخرى، ولكن الأعين كلها كانت، مصوّبة الآن نحو نقطة واحدة، فاتّبعت عيناي هذا الاتجاه، فالتقتا الوجه الذي كان قد استقبلني الليلة البارحة. كانت واقفة في أقصى الحجرة الطويلة، قرب المستوقد، ذلك بأنه كان ثمّة نار موقدة في كلّ طرف من أطرافها، ولقد راقبت صفَّي البنات في صمت ووقار. وتقدّمت مس ميلر نحوها، وبدت وكأنها توجّه إليها سؤالاً، حتّى إذا تلقّت جوابه انقلبت إلى مكانها وقالت في صوت عال: «أحضري الكرات الأرضية يا عريفة الصف الأول»!

وفيما كانت العريفة تنفذّ الأمر الصادر إليها راحت السيدة التي استثيرت تخطو في الحجرة خطوات وئيدة. وأحسب أني أملك قدرة غير يسيرة على الاحترام، إذ لا أزال أذكر حتى اليوم بأي قدر من الرعب المشوب بالإعجاب تتبّعت خطواتها. حتى إذا تبدّت، الآن، لعيني،، في وضح النهار، ألفيتها فارعة

الطول، مليحة الوجه، رشيقة القوام. وكانت عينان داكنتان ذاتا بريق عذب وأهداب طويلة فاتنة تكشف عن بياض جبينها العريض. وعند كل صدغ من صدغيها كان شعرها الفاحم معقوصاً على شكل حلقات، وفقاً للزى الشائع في ذلك العصر، يوم لم تكن العصائب الناعمة وحلقات الشعر الطويلة شديدة الذيوع. وكان ثوبها، وفقاً لزى العصر أيضاً، مصنوعاً من قماش أرجواني، وكان يخفف، من رتابته ضرب من الزركشة الإسبانية بمخمل أسود. وكانت تلتمع في حزامها ساعة ذهبية، ولم تكن الساعات مألوفة كشأنها اليوم. وليضف القارئ إلى هذا، لاستكمال الصورة، قسمات وجه ناعمة، وبشرة نقية برغم شحوبها، وسيماء نبيلة، ومشية وقوراً، يكوّن، على الأقل، صورة دقيقة – إلى أقصى ما تستطيع الكلمات أن ترسم صورة ما وتوضحها – عن مظهر مس تامبل الخارجي.. مس ماريا تامبل، وهو اسمها الكامل كما رأيته في ما بعد مرقوماً على كتاب صلاة عُهِد إليَّ في أن أحمله إلى الكنيسة.

حتى إذا اتّخذت مديرة لو وود مقعدها (فقد كانت هذه السيدة هي مديرة المدرسة) أمام كرتين أرضيتين موضوعتين على إحدى الطاولات، دعت فتيات الصف الأول إلى التحلّق حولها وراحت تعطيهن درساً في الجغرافية. أما الصفوف الدنيا فنهضت المعلمات بعبء التدريس فيها، حيث استمرّ تسميع المستظهر من التاريخ والنحو وغيرهما ساعة كاملة. وتلا ذلك درس الخط ودرس الحساب، وأعطت مس تامبل دروساً في الموسيقى لبعض الفتيات الأكبر سناً. وكانت ساعة الحائط تحدّد المدى الزمني لكلّ درس. حتى إذا دقّت هذه الساعة معلنة الثانية عشرة نهضت المديرة وقالت: «لدي كلمة أودّ أن أوجهها إلى الطالبات».

وكانت جلبة الفراغ من الدروس قد شرعت تطلّ برأسها، ولكنها سرعان ما خمدت عندما سمعت الطالبات صوت المديرة.

وأضافت قائلة: «لقد قُدِّم إليكن هذا الصباح طعام لم تستطعن استساغته. ولا ريب أنكنَّ جائعات، من أجل ذلك أصدرت أمري بأن يقدّم إلى الجميع غداء مؤلّف

من خبز وجبن».

ونظرت المعلمات إليها في ضرب من الدهش – فأضافت في نبرة قصدت بها أن تشرح الموقف لهن: «وسيتمّ ذلك على مسؤوليتي». ثم غادرت الحجرة على التوّ.

وفي الحال جيء بالخبز والجبن، فوزّعا على الطالبات، فغمرت المدرسة كلها موجة من الابتهاج العارم. وعلى الأثر صدر إلينا الأمر: «إلى الحديقة»، فاعتمرت كلّ منا بقبّعة من قش غليظ ذات أشرطة نسيج قطني ملوَّن، وارتدت معطفاً من نسيج صوفي خشن رمادي اللون. وجهِّزت أنا أيضاً بمثل هذا الجهاز، واندفعت مع التيار متّخذة سبيلي إلى الهواء الطلق.

كانت الحديقة أرضاً رحبة تحيط بها أسوار شاهقة يتعذّر معها على العين أن تلمح أي مشهد من مشاهد الأرض القائمة خلفها. وكانت في ناحية من هذه الحديقة شرفة مظللة، وكانت، مجازات عريضة تطوق رقعة وسطى مقسومة إلى عشرات من المزاهر(?) الصغيرة، ولقد أفردت هذه المزاهر لتكون حدائق تزرعها الطالبات. وكان لكل مزهر مالكة تتعهّده بعنايتها. والواقع أن منظرها، إذ تحفل بالرياحين، كان رائعاً من غير شك. ولكنها كانت الآن، في الجزء الأخير من كانون الثاني (يناير)، مجرّد ذبول كئيب، وهزال أسمر.

(?) جمع مزهر، وهو جزء من الحديقة تزرع به الزهور

ارتعدت حين وقفت وأجلت الطرف في ما حولي: كان يوماً عاصفاً لا يصلح للرياضة في الهواء الطلق. لم يكن ماطراً بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكنه كان قاتماً يرنقه ضباب أصفر مرفق برذاذ يسير. كانت الأرض تحت أقدامنا لا تزال ندية من أثر السيول التي غمرتها بالأمس. وكانت أشد الفتيات بأساً يركضن ههنا وهناك مستغرقات في بعض الألعاب الناشطة، ولكن سائر الفتيات الشاحبات المهزولات استسربن(١) ملتمسات الدفء والوقاية من الرذاذ تحت سقف الشرفة. وبين هؤلاء

تناهى إلي مرة تلو مرة صدى سعال غائر كان يطرق سمعي كلّما نفذ الضباب إلى أجسامهن العجاف المرتعدة.

وكنت حتى تلك اللحظة لمّا أتحدث إلى أيّ منهن، ولم تكن أي منهن قد انتبهت إلى وجودي. لقد وقفت في معزل، ولكن الشعور بالعزلة كان أمراً تعوّدته وألفته فلم يوقع في نفسي كثيراً من الأسى. واستندت إلى عمود من أعمدة الشرفة، وأحكمت التدثّر بمعطفي الرمادي، وحاولت أن أتناسى البرد الذي كان يلذعني من خارج والجوع غير المشبّع الذي كان يقرضني من داخل، واستغرقت في المراقبة والتفكير. وكانت تأملاتي متقطّعة غير محدودة فليس فيها ما يستحق التدوين: كنت لا أزال أجهل، أو أكاد، أين أنا، ولقد بدا لي وكأن «غايتسهيد» وحياتي الماضية قد أمعنا في الطفو بعيداً وأن مسافة لا سبيل إلى قياسها تفصلني عنهما. وكان الحاضر غامضاً وغريباً، أما المستقبل فلم أستطع أن أكوّن عنه، من طريق التخمين؛ أيما صورة. وأجلت بصري في الحديقة، الشبيهة بحديقة دير، ثم رفعته نحو المنزل، فإذا هو بناء ضخم بدا نصفه مربداً عتيقاً، ونصفه الآخر بالغ الجدة. وكان القسم الجديد، المشتمل على حجرة الدرس وقاعة النوم، يستقبل أشعة الشمس من خلال نوافذ ذات حواجز مستطيلة ومستعرضة تخلع عليه مظهراً شبه كنسي. وعلى الباب كانت لوحة حجرية تحمل النقش التالي:

(ا) اجتمعن في سرب أو قطيع.

«معهد لو وود – هذا الجزء جُدّد بناءه عام... ب.م.م ناوومي بروكلهورست، من بروكلهورست في هذا الإقليم». «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات». (إنجيل متى16:5).

وقرأت هذه الكلمات مرة ومرة ومرة، وشعرت أنه لابد أن يكون لها تفسير لأني عجزت عن النفاذ إلى حقيقة معناها نفاذاً كاملاً. وكنت لا أزال أتفكّر في مدلول كلمة «معهد»، وأحاول أن أكتشف العلاقة بين الكلمات الأولى وبين الآية الإنجيلية عندما دعاني إلى الالتفات صوت سعال قريب انبعث من ورائي. فإذا

بعيني تقعان على بنت جالسة على مقعد حجري قريب. كانت منكبه على كتاب، وكانت تبدو مستغرقة كلّ الاستغراق في مطالعته. ومن موقعي ذاك كان في ميسوري أن ألمح العنوان: لقد كان هو «راسيلاس» Rasselas، وهو اسم وقع في نفسي أنه غريب وأنه بالتالي جذاب. واتفق للبنت أن رفعت بصرها، فيما هي تقلب صفحة من صفحات الكتاب، فسألتها مباشرة:

– «هل هو كتاب ممتع؟» وكنت قد عقدت النية على أن أطلب إليها إعارتي إيّاه ذات يوم.

فأجابتني بعد ثانية أو ثانيتين كانت خلالهما تتأملني: «إنّه يعجبني».

عندئذ سألتها، وأنا لا أكاد أدري أين وجدت الجرأة على استهلال محادثة مع شخص غريب: «وما موضوعه؟» فقد كانت هذه الخطوة مناقضة لطبيعتي وعاداتي، ولكنني أحسست أن انكبابها على الكتاب مسَّ وتراً من المشاركة الوجدانية في مكان ما من نفسي، فقد كنت أنا أيضاً أحب المطالعة، مهما تكن قراءاتي خفيفة طفولية. الواقع أنه ما كان في إمكاني أن أهضم أو أفهم الموضوعات الجدية أو الدسمة.

فأجابتني الفتاة وهي تقدّم الكتاب إلي: «في إمكانك أن تلقي نظرة عليه».

وفعلت ذلك. فأقنعني التصفّح السريع أن محتويات الكتاب كانت أقل إغراء وأسراً من عنوانه. لقد بدا «راسيلاس» في نظر ذوقي الهزيل، كتاباً تافهاً. فأنا لم أقع فيه على شيء يتّصل بالسعالى، لم أقع فيه على شيء يتَّصل بالجن، ولقد خلتْ صفحاته ذات السطور الملزوزة من أيما تنوّع مشرق. فأعدته إليها، فتلقّته في هدوء، ومن غير أن تقول شيئاً بدت وكأنها على وشك الاستغراق في المطالعة كرة أخرى. وهذه المرة أيضاً غامرت بصرفها عن الكتاب، وقلت: «هل تستطيعين أن تخبريني ما معنى الكلمات المنقوشة على ذلك الحجر الذي يبدو فوق الباب؟ ما هو معهد لو وود؟»

– «إنه البيت الذي أقبلتِ، للإقامة فيه».

– «ولماذا يدعونه «معهداً؟» هل يختلف بطريقة ما عن المدارس الأخرى؟»

– «إنّه، إلى حدّ ما، مدرسة خيرية. فأنت وأنا وسائر الطالبات هنا بنات الإحسان. ويخيّل إلي أنّك يتيمة: لقد مات أبوك أو ماتت أمك، أليس كذلك؟»

– «لقد ماتا كلاهما قبل أن تنطبع صورتهما في ذاكرتي».

– «حسناً! إنّ كلاًّ من رفيقاتنا هنا قد فقدت واحداً من أبويها، أو فقدتهما كليهما. وهذه المؤسسة تدعى «معهد لتعليم اليتيمات».

– «ألا ندفع أي رسم مالي؟ هل يعيلوننا بالمجان؟»

– «إن كل واحدة منا تدفع، أو يدفع عنها أصدقاؤها، خمسة عشر جنيها في العام».

– «وإذن فلماذا يدعوننا بنات الإحسان؟»

– «لأن الخمسة عشر جنيهاً لا تكفي لتغطية نفقات المنامة والطعام والتعليم، ولأن العجز المالي يغطّى بالتبرعات».

– «ومن الذي يتبرّع؟»

– «بعض السيدات والسادة من ذوي النفوس المطبوعة على الخير في هذا الإقليم وفي لندن».

– «ومن كانت ناوومي بروكلهورست؟»

– «السيدة التي شيّدت الجزء الجديد من هذا المبنى، كما تنص اللوحة الحجرية، والتي يشرف ابنها على كلّ شيء ويدير كل شيء هنا».

– «لماذا؟»

– «لأنه أمين صندوق المؤسسة ومديرها».

– «وإذن فهذا المبنى ليس ملكاً لتلك السيدة الفارعة الطول التي تحمل ساعة، والتي قالت إنها أصدرت أمرها بإعطائنا شيئاً من الخبز والجبن؟»

– «لمس تامبل؟ أوه، لا! ليته كان ملكاً لها! الواقع أنها مسئولة تجاه مستر بروكلهورست عن كل عمل من أعمالها.. إن مستر بروكلهورست يشتري كلّ ما نحتاج إليه من طعام وثياب».

– «وهل يقيم هنا؟»

– «لا، إنه يقيم على مبعدة ميلين، في قصر ضخم».

– «وهل هو رجلٌ طيب؟»

– «إنه رجل دين. ويقولون إنه فعّال للخير».

– «هل قلت إنّ السيدة الفارعة الطول تدعى مس تامبل؟»

– «أجل».

– «وما أسماء المدرسات الأخريات؟»

– «أما ذات الخدين المتوردين فتدعى مس سميث،. إنها تشرف، على أعمال الخياطة، وتفصِّل لنا ثياباً – ذلك بأننا نقوم بخياطتها بأنفسنا – كما تفصّل جلابيبنا وكل شيء. وأما. المعلمة ذات الجسم الضئيل والشعر الأسود فتدعى مس سكاتشيرد، وهي تدرّس مادتي التاريخ والنحو وتختبر طالبات الصف الثاني في دروسهن المستظهرة عن ظهر قلب. وأما ذات الشال وذات المنديل المثبت إلى جنبها بشريط أصفر فهي مدام بييرو. إنها من «ليل» من أعمال فرنسة، وهي تعلم اللغة الفرنسية».

– «وهل تحببن المعلمات؟»

– «أجل، أحبهن».

– «وهل تحبين المعلمة السمراء، ذات الجسم الضئيل ومدام..؟ أنا لا أستطيع أن ألفظ اسمها كما تلفظينه».

– «إن مس سكاتشيرد سريعة الانفعال. وينبغي أن تحاذري إغضابها. أما مدام بييرو فليست رديئة».

– «ولكن مس تامبل هي أفضلهنّ، أليس كذلك؟»

– «مس تامبل طيبة جداً، وبارعة جداً، إنها أعلاهنّ قدراً، لأن معرفتها تفوق معرفتهنّ بكثير».

– «وهل انقضى على وجودك هنا زمان طويل؟»

– «سنتان».

– «هل أنت يتيمة؟»

– «لقد مات أمي».

– «وهل أنت سعيدة هنا؟»

– «يخيل إليّ أنك تسألين أكثر مما ينبغي. ولقد قدّمت إليك من الأجوبة ما يكفي في الوقت الحاضر وإني أودّ الآن أن أنصرف إلى المطالعة».

ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة مؤذناً بموعد الغداء. فإذا بالطالبات كلهن يعاودن الدخول إلى الدار. إنّ الرائحة التي ملأت قاعة الطعام، الآن، لم تكن أكثر إغراء من تلك التي داعبت أنوفنا ساعة الفطور، إلاّ قليلاً: لقد جيء بالغداء في وعاءين ضخمين انبعث منهما بخار قوي عابق بريح دهن زنخ. واكتشفت أن الطعام كان يتألف من بطاطا تافهة مطهوة مع شرائح غريبة من لحم ناصل اللون. ومُلئ صحن كل من الطالبات بكمية غير يسيرة من هذا المزيج. وأكلت ما

استطعت أن آكله، وتساءلت في ما بيني وبين نفسي: ترى هل سيكون الطعام، كلّ يوم، على هذه الشاكلة؟

وبعد الغداء انتقلنا، في الحال، إلى حجرة الدرس. واستؤنفت الدروس، ولم تنته إلاّ في الساعة الخامسة.

كانت الحادثة الوحيدة البارزة التي لفتت نظري، ذلك الأصيل، هي إخراج مس سكاتشيرد للفتاة التي كنت تحدثت إليها في الشرفة، إخراجاً مخزياً، من صف التاريخ: لقد فرضت عليها أن تقف وسط حجرة الدرس الرحبة. والواقع أن هذه العقوبة بدت لي شائنة إلى أبعد الحدود، وبخاصة بالنسبة إلى فتاة في مثل هذه السن المتقدّمة، إذ تراءى لي أنها في الثالثة عشرة من العمر، أو أكثر قليلاً. وتوقّعت أن تتكشف الفتاة عن أمارات من الغمّ والخجل الشديدين. لكن كم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت أنها لم تذرف دمعة ولم تحمرّ خجلاً: لقد وقعت ثمة مكفهرة الوجه من غير ريب، ولكنها رابطة الجأش تتطلّع إليها الأعين كلها. وسألت نفسي: «كيف تأتّى لها أن تحتمل القصاص بمثل هذا الهدوء كله وهذه الرزانة كلها؟ لو أني كنت في مكانها إذن، لتمنيت، في ما يبدو لي، لو انشقت الأرض وابتلعتني. إنها تبدو وكأنها تفكر في شيء أبعد من عقوبتها... أبعد من وضعها، في شيء ليس حولها ولا أمامها. ولقد سبق لي أن سمعت بأحلام اليقظة.. فهل هي في حلم من أحلام اليقظة الآن؟ كانت عيناها مصوبتين إلى الأرض ولكني واثقة من أنهما لا تريانها – لقد بدا وكأن نظرها مرتدّ إلى باطنها. يحاول أن ينفذ إلى فؤادها: إنها تستعرض ما تستطيع أن تتذكّره، في ما أعتقد، لا ما يحيط بها فعلاً. أنا لا أقضي العجب من أمر هذه الفتاة وما أدري أهي بنت طيبة أم بنت خبيثة.

وبعيد الساعة الخامسة تناولنا وجبة أخرى تتألف من قدح صغير من القهوة ونصف شريحة من خبز أسمر. والتهمت شريحتي وشربت قهوتي في تلذذ بالغ، بيد أنه كان خليقاً بي أن أبتهج لو أصبت من ذلك قدراً أكبر.. فقد كنت لا أزال جائعة. وعقبت ذلك فترة من الاستجمام دامت نصف ساعة، ثم فترة المذاكرة، ثم كأس

الماء وقطعة حلوى الشوفان، فالصلوات، فالإيواء إلى الفراش. ذلك كان هو يومي الأول في لو وود.

[6]

وبدأ اليوم التالي كما بدأ اليوم الأول سواء بسواء: لقد نهضنا من فرشنا وارتدينا ملابسنا على ضوء شمعات القش المغموسة في الدهن. ولكننا اضطررنا، هذا الصباح، إلى التجاوز عن مراسيم الاغتسال: لقد كانت المياه متجمّدة في الأباريق. كان تطوّر قد طرأ على الأحوال الجوية في الليلة الماضية. وكانت ريح شمالية شرقية عاتية، صافرة طوال الليل من خلال الفجوات في نوافذ مخدعنا، قد جعلتنا نرتعد في فرشنا، وأحالت محتويات الجرار إلى جليد.

وقبل أن تنقضي فترة الصلوات وتلاوة الكتاب المقدس، وهي فترة طويلة استغرقت ساعة ونصف ساعة، استشعرت أني على وشك أن أقضي نجي من الزمهرير. ثم إن موعد الفطور حان، آخر الأمر، وهذه المرة لم يكن الثريد محروقاً. كان النوع سائغاً في الحلق وكانت الكمية صغيرة. ولشدَّ ما بدت حصتي ضئيلة! لقد تمنيت لو أنها ضوعفت.

وخلال النهار سجلت طالبة في الصف الرابع، وعُهد إلي القيام بمهام وأعمال نظامية. لقد كنت حتى ذلك الحين مجرد متفرجة أشهد مسرحية الحياة في لو وود، أما الآن فقد عدوت هذا الطور وأصبحت إحدى الممثلات المشتركات في تلك المسرحية. وإذ لم آلف من قبل عادة الحفظ عن ظهر قلب، إلاً قليلاً، فقد بدت الدروس لي، في بادئ الأمر، طويلة وعسيرة في آن معاً، وكان في الانتقال المتواتر من مهم إلى مهمة ما شوشني وأربكني، أيضاً، ومن أجل ذلك ابتهجت عندما دفعت إلي مس سميث، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، قطعة من الموسلين يبلغ طولها ياردتين، وإبرا وكشتباناً الخ وطلبت إلي أن أجلس في زاوية هادئة من حجرة الدرس وكلفتني أن أهذب تلك القطعة وفي تلك الساعة كانت الكثرة الكبيرة

من الفتيات منهمكات في عمل مماثل، ولكن طالبات أحد الصفوف كُنّ لا يزلن متحلّقات حول كرسي مس سكاتشيرد يقرأن، وإذ كان كل شيء هادئاً فقد كان في ميسور المرء أن يسمع موضوع دروسهنّ، وطريقة كلّ فتاة في الأداء، وتقبيح مس سكاتشيرد لهذا الأداء أو ثناءها عليه. كان درساً في التاريخ الإنكليزي، وبين القارئات لمحت وجه البنت التي كنت قد تعرّفت إليها في الشرفة. إن مكانها كان، عند بداية الدرس، في مقدمة الصف، ولكنها ما لبثت أن نقلت إلى مؤخرته لخطأ في النطق ارتكبته، أو لعدم انتباه إلى مواطن الوقف. وحتّى في موضعها المغمور ذاك، ظلّت مس سكاتشيرد تجعل منها موضوع ملاحظات موصولة: إنها لم تنقطع عن مخاطبتها بأمثال هذه العبارات:

– «بيرنز» (كان ذلك هو اسمها في ما يبدو، وكانت الفتيات هنا، ينادين بأسماء عائلاتهن، كما ينادى الفتيان في مكان آخر)، «بيرنز أنت تميلين رجليك إلى حرف حذائك، سارعي إلى اتّخاذ وضع سوي». «بيرنز، أنت تدفعين ذقنك إلى أمام على نحو ليس أشنع منه، ردّي ذقنك إلى الوراء»، «بيرنز، أنا أصرّ على ضرورة رفع رأسك عالياً، أنا لا أرضى أن تتّخذي أمامي مثل هذا الوضع». الخ. الخ.

حتى إذا تلي أحد الفصول مرتين متواليتين أغلقت الكتب وأخضعت الطالبات لامتحان. كان الدرس قد اشتمل على جزء من عهد الملك تشارلز الأول، وكانت، ثمة أسئلة مختلفة عن حمولة السفن بالأطنان وبالأرطال الإنكليزية والضرائب المفروضة في زمن الحرب على الموانئ البحرية، وهي أسئلة بدت أغلبية الطالبات عاجزة عن الإجابة عنها. ومع ذلك فقد كانت كل صعوبة صغيرة تحل مباشرة حين تنتهي إلى بيرنز: لقد بدت وكأن ذاكرتها قد استوعبت، مادة الدرس كله، ولقد كانت مستعدة أبداً للإجابة عن كل سؤال. وظللت أرتقب أن تعمد مس سكاتشيرد إلى إطراء حُسن انتباه بيرنز، ولكنها بدلاً من ذلك صاحت فجأة:

– «يا لك من بنت قذرة بغيضة! إنّك لم تنظفي أظافرك، البتة، هذا الصباح»!

ولم تحر بيرنز جواباً. وأدهشني صمتها.

وفكرت في ما بيني وبين نفسي: «ولكن لماذا لا توضح لها أنه لم يكن في وسعها أن تنظف أظافرها أو أن تغسل وجهها بسبب من تجمّد الماء؟»

وصرف، انتباهي عن ذلك عندما طلبت مس سميث إليّ أن أمسك، شلّة خيوط. وفيما هي تلف هذه الخيوط راحت تتحدث إليّ بين الفينة والفينة، سائلة إياي هل دخلت مدرسة ما من قبل، وهل أعرف الرسم واللفق والحبك الخ. ولم يكن في مستطاعي أن أواصل ملاحظتي حركات مس سكاتشيرد إلا بعد أن صرفتني مس سميث،. حتى إذا عدت إلى مقعدي كانت تلك السيدة تصدر أمراً من أوامرها لم أدرك مضمونه، ولكن بيرنز غادرت الصف في الحال، ومضت إلى حجرة داخلية صغيرة، حيث تُحفظ الكتب، لتعود أدراجها بعد نصف دقيقة وفي يدها حزمة من القضبان شُد بعضها إلى بعض عند واحد من طرفيها. وقدّمت بيرنز هذه الأداة المشئومة إلى مس سكاتشيرد في كياسة راشحة بالاحترام، ثم إنها حلّت مئزرها في هدوء، ومن غير أن يطلب إليها ذلك، فسارعت المعلمة إلى ضربها على العنق، بحزمة القضبان، ضرباً مبرحاً. إن دمعة واحدة لم تنفر إلى عيني بيرنز.

وكفّت أصابعي عن اللفق، بعد أن ارتعشت لهذا المشهد بغضب عاجز غير مجد. وفي خلال ذلك لم تغيّر أي من قسمات وجهها المستغرق في التفكير، تعبيرها العادي.

وصاحت مس سكاتشيرد: «فتاة عديمة الإحساس! ليس ثمة ما يستطيع أن يحملك على التخلّي عاداتك القذرة. أعيدي حزمة القضبان إلى موضعها».

وامتثلت بيرنز للأمر. وأمعنت النظر إليها فيما كانت تغادر حجرة الكتب: كانت في تلك اللحظة بالذات تعيد منديلها إلى جيبها، وكان يلتمع على خدها الناحل أثر دمعة.

كانت فترة الاستراحة الليلية هي، في ما خيل إلي، أجمل ساعات اليوم، في لو وود، وأكثرها إبهاجاً للنفس. ذلك بأن كسرة الخبز وجرعة القهوة اللتين التهمناها

في الساعة الخامسة كانتا قد أحيتا ذابل نشاطنا، إن لم تُسكتا جوعنا، وبأن كبح النهار الطويل قد تراخى، وبأن حجرة الدرس أمست أشد دفئاً مما كانت في الصباح، بعد أن أجيز لنيرانها أن تضطرم على نحو أكثر إشراقاً بعض الشيء، لكي يُستعاض بها عن الشموع التي لم تحمل إلى الحجرة إلاّ في ما بعد. كان في الشفق المتوهج، والهدير المباح، وتبلبل الأصوات ما أوقع في نفسي شعوراً بالحرية سائغاً.

وفي مساء اليوم الذي شهدت فيه مس سكاتشيرد تجلد تلميذتها، بيرنز، طوفت كمألوف عادتي بين المقاعد الخشبية الطويلة والطاولات والجماعات الضاحكة، متوحدة من غير رفيق، ومع ذلك فإني لم أشعر بشيء من الوحشة، وحين اجتزت بالنوافذ رحت أرفع بين الفينة والفينة مصراعاً من المصاريع وأطل منه. كان الثلج يتساقط متلاحقاً، وكانت كومة منه قد تشكّلت خلف ألواح النافذة الزجاجية الدنيا. حتى إذا أدنيت أذني من النافذة استطعت أن أميّز أنين الريح الكئيب في الخارج من الجلبة البهيجة في الداخل.

ولعله كان خليقاً بي – لو أني كنت قد فارقت منذ قريب بيتاً طيباً وأبوين كريمين – أن أجد تلك الساعة أدعى ما تكون إلى إثارة أسفي للبعاد. ولعله كان جديراً بالريح أن تُحزن فؤادي، وبهذا العماء المظلم أن يعكّر عليّ صفو طمأنينتي. أما وحالي كما عرف القارئ فقد استمددت منهما كليهما اهتياجاً غريباً. وإذ كنت طياشة عارمة النشاط فقد تمنيت لو تعوي الريح في ضراوة أشد، ولو تحلو لك الظلمة لتمسي ليلاً دامساً، ولو تستفحل البلبلة وتستحيل صخباً.

وشققت طريقي، واثبة فوق المقاعد الخشبية الطويلة زاحفة تحت الطاولات، إلى أحد المواقد. وهناك وجدت بيرنز، راكعة قرب حاجز النار الحديدي، مستغرقة، صامتة، منصرفة عن كلّ ما حولها برفقة كتاب كانت تطالعه على وهج الجمرات القاتم.

سألتها وأنا أقترب نحوها من الخلف: «ألا تزالين تطالعين كتاب راسيلاس؟»

فأجابت: «أجل، ولقد فرغت من مطالعته اللحظة».

وبعد خمس دقائق أغلقته. وسرّني ذلك وقلت في ذات نفسي:

«لعلّي أوفّق الآن إلى حملها على الكلام».

وقعدت بقربها على الأرض.

وسألتها: «ما اسمك الأول؟»

– «هيلين».

– «هل أنت من بلد يبعد كثيراً عن هذا المكان؟»

– «أنا من بلد شمالي ناء. إنه يقع على حدود اسكتلنده تماماً».

– «وهل سترجعين إلى هناك يوماً؟»

– «أرجو ذلك. ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف ماذا يخبّئ المستقل».

– «إنّك ترغبين في الرحيل عن لو وود، من غير شك؟»

– «لا، وما الذي يحملني على ذلك؟ لقد أُرسِلت إلى لو وود طلباً للعلم، ولن يكون ثمة جدوى في الرحيل إلاّ بعد أن أحقّق هذا الهدف»..

– «ولكن لماذا تعاملك تلك المعلمة، مس سكاتشيرد، هذه المعاملة الوحشية كلها؟»

– «تعاملني معاملة وحشية؟ لا، على الإطلاق! إنها صارمة، إنها تكره أخطائي».

– «لو كنت في مكانك إذن لكرهتها، إذن لقاومتها. ولو قد ضربتني يزلك القضيب إذن لانتزعته من يدها وكسرته على مرأى منها».

– «أغلب الظن أنك لن تفعلي شيئاً من مثل ذلك أما إذا فعلت فعندئذ يفصلك مستر بروكلهورست من المدرسة، وعندئذ يكون ذلك مبعث أسى عظيم لذويك. ولأن يحتمل المرء، في اصطبار، ألماً واخزاً لا يحسّ به غيره خير ألف مرةٌ من أن يقدِم على عمل طائش تمتدّ آثاره السيئة إلى كلّ من له صلة به. إلى هذا، فالكتاب المقدّس يأمرنا بأن نرد على العمل السيئ بعمل صالح».

– «ولكن من الخزي أن يجلد المرء، وأن يطلب إليه الوقوف وسط حجرة غاصة بالناس، خاصة وأنت، بنت كبيرة: أنا أصغر منك سناً، ولست، أقدر على احتمال ما احتملتِهِ».

– «ومع ذلك فإن من واجبك احتماله، إن لم توفقّي إلى اجتنابه. وأنه لمن الضعف والحماقة أن تقولي إنك «لا تقدرين على احتمال» ما قُدِّر عليك احتماله».

كنت أسمع هذا الكلام في دهشة: فأنا لم أستطع أن أفهم مذهب الاحتمال هذا، وكنت أقلّ فهماً لذلك التسامح نحو المرأة التي عاقبتها بالضرب وأقلّ تقديراً له. ومع ذلك فقد شعرت بأن هيلين بيرنز نظرت إلى الأشياء على ضوء محجوب عن عيني. وداخلني ظن بأنها قد تكون على حق وأن ما ذهبت إليه أنا باطل. ولكني لم أرغب في تعمّق هذه المسألة، مؤثرة، مثل فيلكس، أن أرجئ بحثها إلى فرصة أنسب.

وهكذا قلت: «تقولين، يا هيلين، إن لك أخطاء، فما هي؟ إنّك تبدين في عيني بنتا طيبة جداً».

– «إذن فتعلمي مني أن لا تحكمي على الأمور بمظاهرها. إني، كما قالت مس سكاتشيرد، فتاة قذرة. أنا لا أضع الأشياء في أماكنها إلاّ نادراً ولا أرتّبها البتّة. أنا فتاة مهملة. أنا أنسى النظم والقواعد. أنا أقرأ في اللحظة التي يتعيّن عليّ فيها أن أحفظ دروسي. وليس لي منهج أو طريقة. وفي بعض الأحيان أقول، كما تقولين، إني لا أطيق أن أكره على الخضوع للقانون. وهذا كله يثير مس سكاتشيرد إلى أبعد الحدود، مس سكاتشيرد التي هي بطبيعتها نظيفة، دقيقة، موسوسة».

فأضفت: «ونزقة، ووحشية»، ولكن هيلين رفضت الموافقة على ما أضفته. لقد اعتصمت بالصمت.

– «وهل تعاملك مس تامبل بمثل قسوة مس سكاتشيرد؟»

ولم أكد ألفظ اسم مس تامبل حتى رفت على محياها المكفهر ابتسامة عذبة وقالت: «مس تامبل زاخرة بالطيبة، وأنه ليوجعها أن تكون قاسية على أيما مخلوق، حتى على أسوأ طالبة في المدرسة. إنها ترى أخطائي وتنبِّهني إليها في تلطف. وإذا ما وفّقت إلى عمل جدير بالثناء أغدقت علي الثواب في سخاء. ومن الأدلّة القوية على طبيعتي المعتلّة إلى حدّ يبعث على الرثاء أن اعتراضاتها نفسها، وهي اعتراضات معتدلة ومنطقية إلى أبعد الحدود، تعجز عن شفائي من أخطائي. وحتّى ثناؤها، برغم أنّي أقدّره حق قدره، لا يستطيع أن يحفزني إلى التعلّق بأهداب العناية وتدبر العواقب».

فقلت: «غريب هذا. فمن أسهل الأمور على المرء أن يتعلّق بأهداب العناية».

– «لست أشكّ في أن ذلك سهل عليك أنت. لقد راقبتك في صفك هذا الصباح فرأيت أنك كنت شديدة الانتباه. إن أفكارك لم تشرد قط، في ما بدا لي، بينما كانت مس ميلر تشرح الدرس وتوجّه الأمثلة إليكنّ. أما أنا فموزعة النفس أبداً. فحين يتعيّن عليّ أن أصغي لمس سكاتشيرد وأن أحيط بكل ما تقوله في انتباه بالغ أجدني أغفل حتّى عن صوتها نفسه: إني أستغرق في شبه حلم. وفي بعض الأحيان يخيّل إليّ أني في نوثامبرلند، وأن الضجة التي أسمعها من حولي هي خرير جدول يجري عبر «ديبدن»، قرب بيتنا – حتى إذا جاء دوري في الإجابة احتجت إلى من يوقظني، وعندئذ لا يكون في متناولي أي جواب جاهز لأني لم أسمع شيئاً ممّا تلي، نتيجة لإصاختي إلى الجدول الخيالي».

– «ومع ذلك فقد أجبت أحسن ما تكون الإجابة، هذا «الأصيل».

- «كان هذا مصادفة محضة. فقد اتَّفق أن راق لي الموضوع الذي كنّا نقرأه. وبدلاً من أن أحلم، هذا الأصيل، بــ «ديبدن» كنت أفكر متعجبة كيف يستطيع رجل راغب في العمل الصالحِ أن يأتي أعمالاً موغلة في الظلم والخطر، كما فعل تشارلز الأول أحياناً. وقلت في ذات نفسي: كم هو مؤسف أن يعجز هذا الملك، برغم نزاهته وضميره الحيّ، عن النظر إلى ما هو أبعد من امتيازات التاج. ليته استطاع أن ينظر إلى بعيد، وأن يدرك اتجاه ما يسمّونه روح العصر...»!

كانت هيلين تتحدّث الآن وكأنها تخاطب نفسها: كانت قد نسيت أنه لم يكن في ميسوري أن أفهمها فهماً جيداً - أني كنت جاهلة، أو شبه جاهلة، للموضوع الذي عالجته. فسألتها، محاولة أن أردّها إلى مستوى فهمي: «وحين تعلمك مس تامبل هل تشرد أفكارك أيضاً؟»

- «لا، من غير ريب، وإذا شردت فإنها التشرد في معظم الأحوال. لأن لدى مس تامبل، عادة، ما تقوله، ولان ما تقوله أكثر جِدّة من خواطري. إن لغتها لتستهويني، والمعرفة التي تنقلها إلينا كثيراً ما تكون هي عين ما أرغب في اكتسابه».

- «وإذن فأنت في صف مس تامبل فتاة طيّبة؟»

- «نعم، بطريقة سلبية: أنا لا أبذل أي جهد، أنا أتبع نزوعاً يهديني سواء السبيل. وليس لي في مثل هذه الطيبة فضل ما».

- «على العكس، إن لك فضلاً كبيراً: أنت طيبة مع من يعاملك معاملة طيّبة. وهذا أقصى ما أطمع أنا فيه، أبد الدهر. ولو أن الناس تعلّقوا دائماً بأهداب اللطف مع من يعاملهم في وحشية، وظلم، ولو أنهم خضعوا دائماً لهم، إذن لمضى الأشرار على هواهم، وإذن لما استشعروا الخوف أبداً، ولمّا قدر لهم أن يغيّروا ما بأنفسهم: على العكس إن ذلك خليق يه أن يزيدهم إمعاناً في الغي والضلال. وحين نضرب لغير ما سبب يتعين علينا أن نردّ، في قوة وعنف، بضربة مماثلة. أنا واثقة من أنه

يتعين علينا ذلك – وفي قسوة كافية لتلقين من يضربنا درساً يجعله لا يعود إلى مثل ذلك كرة أخرى».

– «سوف تغيرين رأيك، في ما أرجو، يوم تبلغين سناً أعلى، ذلك بأنك لا تزالين فتاة غرة جاهلة».

– «ولكني أحسّ بهذا يا هيلين: يجب عليّ أن أبغض أولئك الذين يصرّون على إبغاضي مهما عملت، لإرضائهم، يجب عليّ أن أقاوم أولئك الذين يعاقبونني ظلماً وعدواناً. وهو موقف طبيعي بقدر ما هو طبيعي أن أحبّ، أولئك الذين يظهرون لي الودّ والحنان، وبقدر ما هو طبيعي أن أخضع للعقوبة حين أستشعر أني أستحقها».

– «إن القبائل الوثنية والوحشية هي التي تؤمن بهذه العقيدة، أما الشعوب المسيحية والمتمدّنة فتتكرها».

– «كيف؟لست أفهم».

– «إنّ العنف ليس خير ما يتغلّب على البغض، والثأر ليس خير بلسم لجراح الظلم والأذى».

– «وما هو ذلك البلسم إذن؟»

– «اقرئي العهد الجديد من الكتاب المقدس ولاحظي ما يقوله المسيح، وكيف يسلك. اتّخذي من كلامه قاعدة، ومن مسلكه مثلاً يحتذي».

– «وما ذا يقول؟»

– «أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم وظالميكم».

– «وإذن فيتعيّن عليّ أن أحب مسز ريد، وهذا عمل لا أستطيعه.

ويتعيّن عليّ أن أبارك ابنها جون، وهو شيء مستحيل».

وبدورها سألتني هيلين بيرنز أن أوضح ما قلته. فرحت أقصّ عليها، بطريقتي الخاصة، حكاية آلامي وأحقادي. وإذ كنت فريسة المرارة والشراسة، كدأبي كلّما استبدّ بي الهياج، فقد تحدّثت على نحو ما شعرت، في غير ما تحفظ ولا تلطيف.

وأصاخت هيلين إليّ، في صبر بالغ، حتّى النهاية. وتوقّعت أن تطلق عندئذ ملاحظة ما، ولكنها لم تنبس بكلمة.

وسألتها بفارغ صبر: «حسناً، أليست مسز ريد امرأة رديئة غليظة القلب؟»

– «لقد كانت قاسية عليك، من غير ريب، لأنها، كما ترين، تبغض نوع خُلقك كما تبغض مسز سكاتشيرد نوع خُلقي. ولكن ما أشدّ الدقّة التي تتذكرين بها كلّ ما فعلته بك وكلّ ما قالته لك! وأيّة انطباعه عميقة إلى حدّ فريد يبدو أن اضطهادها لك قد خلفها في فؤادك! إنّ مشاعري لم تعرف، مثل هذا الانطباع قطّ لأني لم أتعرّض لظلم مماثل. أليس خليقاً بك أن تكوني أكثر حظاً من السعادة لو حاولت أن تنسي قسوتها والعواطف المهتاجة التي أثارتها في ذات نفسك؟ إنّ الحياة تبدو لي أقصر من أن تنفق في إذكاء البغض أو تسجيل المظالم. إننا كلنا – ويجب أن نكون كذلك – مثقلون بالأخطاء في هذا العالم، ولكني واثقة من أننا سوف، نخلعها عمّا قريب لحظة نخلع أجسادنا القابلة للفساد، عندما ينفصل عنّا الغش والإثم بسقوط هيكل اللحم المربك هذا، فلا يبقى غير شرارة الروح – أصل الحياة والفكر وجوهرهما اللطيف الذي لا يدرك باللمس – نقية طاهرة كيوم فارقت الخالق لتحلّ في المخلوق. هذه الشرارة لابدّ عائدة من حيث، جاءت، ولعلها ستعود لتنفخ من جديد في كائن أسمى من الإنسان – وربما لكي ترقى في معارج المجد، من النفس البشرية الهزيلة إلى النفس الملائكية المتألقة! وليس من ريب في أنها لن يجاز لها الانحدار بحال من الأحوال، بالانتقال من إنسان إلى شيطان. لا، أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك: إني أؤمن بعقيدة أخرى، لم يلقّني إيّاها أحد البتة، عقيدة نادراً ما ألمع إليها، ولكني أجد فيها ابتهاجاً غامراً، فأنا حريصة على التعلّق بها، لأنها تبعث الأمل في نفوس الناس جميعاً، وتجعل الأبدية راحة – منزلاً رائعاً، لا هولاً ولا

هاوية. وإلى هذا، فإن هذه العقيدة تتيح لي أن أميّز في كثير من الوضوح، ما بين المجرم وجريمته، وتمكّنني من أن أغفر، في كثير من الإخلاص، للأول فيما أمقت الأخرى. وبفضل هذه العقيدة، يتعذّر على الانتقام أن يزعج فؤادي، ويستحيل على التحقير أن يثير اشمئزازي إثارة أعمق ممّا ينبغي، ويمتنع على الظلم أن يسحق روحي ويذلّها أشدّ الإذلال: إنّي أحيا في طمأنينة، متطلعة إلى اللحظة التي يجيء فيها أجلي».

والتوى رأس هيلين، المنحني أبداً، التواء إضافياً عندما أتمّت هذه الجملة. لقد لمحت من نظرتها أنها ما عادت راغبة في التحدّث إليَّ، وأنها تؤثر أن تتحدث إلى أفكارها الخاصة. ولكن فترة التأمل التي أتيحت لها لم تكن طويلة. فما هي إلاّ لحظات حتى أقبلت عريفة من العريفات، وهي فتاة كبيرة جلفة، وصاحت في نبرة كومبرلندية قوية:

– «هيلين بيرنز، إذا لم تذهبي وترتّبي درجك وتطوي أشغالك في هذه اللحظة فسوف، أسأل مس سكاتشيرد أن تأتي وترى كلّ ذلك بنفسها»!

وزفرت هيلين إذ رأت أن حلمها ينقطع، ونهضت من مكانها ممتثلة أمر العريفة في غير ما إبطاء.

[7]

لقد بدا فصلي الدرامي الأول، في لو وود، وكأنه عصر، بيد أنه لم يكن عصراً ذهبياً على أيّة حال. لقد انطوى على نضال مرير مع مصاعب اعترضت سبيل أخْذ نفسي بالخضوع لقواعد جديدة ومهام غير مألوفة. والواقع أن خوف الإخفَاق في ذلك كان أشدّ وطأة على نفسي من المصاعب المادية التي واجهتها، برغم أن هذه الأخيرة لم تكن هنات هينات.

وفي خلال كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وجزء من آذار (مارس) حال تراكم الثلج، وبعد ذوبانه حالت الطرق التي تعذر اجتيازها أو كاد، دون تجاوزنا أسوار الحديقة، إلاّ ابتغاء الذهاب إلى الكنيسة. ولكنه كان علينا أن نقضي، ضمن هذه الحدود، ساعة كل يوم في الهواء الطلق. وكانت ثيابنا أعجز من أن تقينا غائلة البرد القارس، ولم نكن ننتعل أحذية طويلة الساق فكان الثلج ينفذ إلى أحذيتنا ويذوب فيها. وكانت أكفّنا غير المقفَّزة تَنمَلُ وتَخْدَرُ، وكانت بشرتها تتشقّق وتتورّم من أثر البرد. والشيء نفسه كان يصيب أقدامنا. وأنا أذكر جيداً ذلك الالتهاب المزعج الذي كنت أحتمله من جرّاء هذا كلّ ليلة، عندما تتقرّح قدماي، وذلك العذاب الناشئ عن إقحام أصابع قدمي المتورمة، المقرورة، المتصلّبة، في حذائي كلّ صباح. ثم إن زادنا الهزيل من الطعام كان يوقع الأسى في النفس: فقد كنا، برغم ما استشعرناه من شهوة بالغة إلى الطعام يتميّز بها الأطفال في طور النمو، لا نكاد نفوز بما يكفي لإمساك الرمق على مريض موهون القوى. ولقد نشأ عن هذا النقص في التغذية مسلك جائر كان شديد الوطأة على التلميذات الأصغر سناً: كانت الفتيات الكبيرات المتضوّرات جوعاً لا يدعن فرصة سانحة إلاّ اغتنمنها للاستيلاء على حصص الصغيرات، بالمداهنة حيناً وبالتهديد حيناً. وما أكثر ما

اقتسمت، مع اثنتين من المغتصبات تلك القطعة النفسية من الخبز الأسمر الموزّع في ساعة الشاي، حتى إذا تخلّيت لمغتصبة ثالثة عن نصف ما اشتمل عليه فنجان قهوتي، تجرّعت البقية الباقية مصحوبة بعبرات صامتة لم ينتزعها من عيني غير الجوع الممضّ.

وكانت أيام الأحد أياماً كئيبة في فصل الشتاء ذاك. كان علينا أن نسير ميلين اثنين إلى كنيسة بروكلبريدج، حيث كان راعي المدرسة يقوم بالخدمة الدينية. كنا نمضي إلى الكنيسة مرتعدات من البرد، وكنا نبلغها ونحن أشدّ ارتعاداً، أما خلال الخدمة الدينية الصباحية فكان البرد يوقع الشلل في أوصالنا أو يكاد. وكانت الكنيسة من البعد بحيث، يتعذّر علينا العودة لتناول طعام الغداء، فكانت تقدّم إلينا بين الخدمتين الدينيتين أنصبة من الخبز واللحم البارد لا تقلّ ضآلة وهزالاً عن أنصبتنا في الوجبات العادية.

وبعد انقضاء خدمة الأصيل الدينية كنا نعود سالكات طريقاً مكشوفة وعرة حيث كانت ريح الشتاء القارسة تهبّ فوق سلسلة من قمم الجبال الشمالية المكسوة بالثلج فتكاد تسلخ جلد وجوهنا.

وأستطيع أن أتذكر مس تامبل وهي تمشي في خفّة وسرعة إلى جانب صفوفنا الخائرة، محكِمة التدثّر بعباءتها الصوفية التي عبثت بها الريح المثلجة، وتشجّعنا – من طريق الوعظ والأسوة العملية – على الاحتفاظ بمعنوياتنا العالية، والمضي قدماً، كما قالت، «كالجنود البواسل» أما المدرسات الأخريات – وما كان أبأسهنّ من مخلوقات! – فقد كنّ من خور النفس وفتور الهمّة بحيث تعذّر عليهنّ أن يحاولن تنشيط الأخريات وتشجيعهنّ.

ولا تسل كم كان توقنا عظيماً، لدى بلوغنا المدرسة، إلى الضياء والحرارة ينبعثان من نار موقدة! ولكن الصغيرات منّا، على الأقل، حرمن هذه النعمة: كان صف مزدوج من الفتيات الكبيرات يتحلّق، على حول كلّ مستوقد من المستوقدات

القائمة في حجرة الدرس، وخلفهنَّ كانت البنَيَّات يجثمن جماعات ويغطين أذرعهنّ المهزولة بأطراف مآزرهنّ.

وعند ساعة الشاي كنا ننعم بعزاء ضئيل يأتينا على شكل جراية من الخبز مضاعفة – شطيرة كاملة عوضاً عن نصف شطيرة – أُضيفت إليها مسحة من الزبدة رقيقة ولذيذة: كانت هي الوليمة الأسبوعية التي كنّا نرتقبها كلّنا في لهفة بالغة، من الأحد إلى الأحد. وكنت أوفّق، عادة، إلى الاحتفاظ بجزء من هذه الوليمة السخية لنفسي. أما سائرها فكنت، أضطر إلى التخلّي عنه في كلّ مرة.

وأمسية الأحد كنا نقضيها في ترديد «دروس التعليم المسيحي» عن ظهر قلب، وترديد الإصحاح الخامس والإصحاح السادس والإصحاح السابع من إنجيل متى، وفي الاستماع إلى عظة طويلة تتلوها علينا مس ميلر، التي كانت تثاؤباتها الممتنعة على الكبح تشهد على مبلغ ما أصابها من كلل وإرهاق. وكان من دأب عدد من البنيات، يبلغ نصف دزينة تقريباً، أن يقطعن تسلسل هذه الأعمال بتمثيلهنّ دور يوتيخوس، إذ كان يغلبهن النعاس فيسقطن لا من العلية الثالثة، مثل يوتيخوس، ولكن من على المقعد الرابع، ليُحملن بعدُ نصف ميتات. وكان العلاج يتلخّص في دفعهن إلى منتصف حجرة الدرس وإكراههن على الوقوف هناك حتى تُنْجَزَ العظة. وكانت أقدامهن تخونهن» في بعض الأحيان، فيتهاوين على الأرض متراكمات بعضهن فوق بعض. عندئذ كان يؤتى بكراسي العريفات العالية، التي لا ظهر لها، لكي تساعدهن على الوقوف وتقيهن شرّ السقوط.

أنا لمَّا ألمع بعد إلى زيارات مستر بروكلهورست، والواقع أنه كان غائبا عن المدرسة خلال الجزء الأكبر من أول شهر انقضى على التحاقي بها، ولعلّه أطال مقامه مع صديقه رئيس الشمامسة. ولقد أورثني غيابه شيئاً من الراحة والطمأنينة، وما أظن أني في حاجة إلى إعلان أسبابي الخاصة التي تدعوني إلى التوجّس خيفة من مقدمه. ولكنه قدم، برغم ذلك، آخر الأمر.

وذات أصيل (وكنت فد أمضيتِ ثلاثة أسابيع في لو وود)، بينما كنت جالسة وفي يدي لوح حجري أُجهد نفسي في أداء عمل من أعمال القسمة الطويلة، لمحت عيناي وقد شردتا نحو النافذة، شخصاً يجتاز بالمكان. وتبينت، على نحو غرزي تقريباً، هوية ذلك الطيف النحيل. حتى إذا وقف كلّ من في المدرسة، حتّى المعلّمات أنفسهنّ، بعد ذلك بدقيقتين، وقفة رجل واحد، لم أعد بحاجة إلى رفع ناظري لكي أستيقن حقيقة الوفد الذي عبَّرن عن ترحيبهن على ذلك النحو بمقدمه. لقد ذرعت حجرة الدرس وإذا بالعمود الأسود نفسه، الذي قطب في وجهي على نحو مشئوم إلى أبعد الحدود من فوق بساط المستوقد في غايتسهيد، يقف فجأة إلى جانب مس تامبل التي كانت قد نهضت هي أيضا مع الناهضات. عندئذ اختلست النظر، على نحو جانبي، إلى هذه «التحفة المعمارية». أجل، لقد كنت على صواب: كان هو مستر بروكلهورست، مرتدياً معطفاً مزرراً حتى العنق، وقد بدا في عيني أطول قامة، وأشدّ هزالاً، وأكثر تيبّساً من أيما وقت مضى.

وكانت لي أسبابي الخاصة التي تدعوني إلى الذعر من هذا الظهور الشبحي: فقد تذكّرت جيداً تلك الملاحظات الخاتلة التي قدّمتها مسز ريد. إليه في ما يتّصل بنزعاتي وميولي، والعهد الذي أخذه مستر بروكلهورست على نفسه بأن يلفت نظر مس تامبل وأنظار المعلمات إلى طبيعتي الخبيثة. والحق أني كنت طوال الوقت أخشى الوفاء بهذا العهد – كنت أنتظر يومياً وفود «الرجل القادم» الذي كان مقدّرا لمعلوماته عن حياتي الماضية وعن مسلكي أن تسمني إلى الأبد بسِمة «طفلة خبيثة».وها هو ذا الآن هناك. لقد وقف إلى جانب مس تامبل، كان يهمس في

أذنها: ولم يساورني ريب في أنّه كان يسرّ إليها بحديث دناءتي وخباثتي، وراقبت عينها في قلق موجع، متوقّعة كل لحظة أن أرى بؤبؤ عينها الأسود يحدجني بنظرة اشمئزاز واحتقار. وأرهفت السمع أيضاً، وإذ اتّفق أن كنت جالسة في مقدمة الحجرة تماماً فقد تلقّفت، معظم ما قاله، فسرَّى فحواه عني وحرّرني من خوفي المباشر.

– «أنا أحسب، يا مس تامبل، أن الخيط الذي اشتريته من لوتون مناسب. لقد وقع في نفسي أنّه هو الصنف الملائم كلّ الملائمة لقمصان الخام، ولقد صنّفت الإبر لتوافقه. وعن بك أن تعلمي مس سميث، أني نسيت، أن أضع مذكرة حول إبر الرفو، يتعيّن عليها أن لا تقدّم بأية حال أكثر من إبرة واحدة إلى كلّ طالبة. إننا إن أعطيناهنّ أكثر من ذلك نزعن إلى الإهمال وفرّطن في الإبر وأضعنها. آه، يا سيدتي! إني لأتمنى لو حظيت الجوارب الصوفية بعناية أكبر! فيوم جئت إلى هنا في المرة الأخيرة قصدت إلى فناء المطبخ وفحصت الملابس المنشورة على حبل الغسيل لتجفّ، كان ثمّة كمّية من الجوارب الطويلة السوداء في حال رديئة جداً: ومن حجم الثقوب التي تبدو فيها أيقنت أنها لم ترْتَقْ بين الفينة والفينة رتقاً حسناً».

وصمت لحظة فقالت مس تامبل: «إن أوامرك ستكون موضع الاحترام، يا سيدي».

فواصل كلامه قائلاً: «وإلى هذا، يا سيدتي، فقد أنبأتني الغسَّالة أن بعض الفتيات، يُعْطَيْن صُدَيريتَيْن نظيفتين كل أسبوع. هذا أكثر مما ينبغي. إن الأنظمة تقضي بإعطائهنّ صديرية واحدة ليس غير».

– «أحسب أن في استطاعتي أن أشرح الملابسات التي دعت إلى ذلك، يا سيدي، فقد دُعِيت أُغنيس وكاترين جونسون لتناول الشاي مع صديقات لهما في لوتون يوم الخميس الماضي، وقد أجزت لهما أن ترتديا، لهذه المناسبة الخاصة، صديريتين نظيفتين».

فهزّ مستر بروكلهورست رأسه ثم قال: «حسناً، في إمكاني أن أغضّ الطرف عن ذلك بعد أن أدركت أنه لم يحدث إلاّ مرة واحدة، ولكني أرجوك أن لا تجيزي لمثل هذه الملابسات أن تتكرّر كثيراً. وثمّة مسألة أخرى أدهشتني: لقد اكتشفت،، عند تسوية الحسابات مع مدبرة شؤون الدار، أن وجبة صباحية مؤلّفة من خبز وجبن قد قدمت إلى البنات مرتين اثنتين خلال الأسبوعين

الماضيين. فكيف جاز ذلك؟ لقد راجعت أنظمة المعهد فلم أجد فيها أي ذكر لمثل هذه الوجبة الإضافية. من الذي أحدث هذه البدعة؟ وما السلطة التي تخوّله ذلك؟»

فأجابت مس تامبل: «يجب أن تُلقَى تبعة ذلك عليَّ يا سيدي. لقد كان فطور الصباح مطهواً على نحو رديء جداً تعذَّر معه على الفتيات أن يزدَرِدْنه، ولم أجرؤ على تَرْكهنّ صائمات حتّى موعد الغداء».

– «اسمحي لي لحظة، يا سيدتي. أنت تعلمين أن خطّتي في تنشئة هذه الفتيات لا تهدف إلى تعويدهنِّ الترف ولينْ العيش يل تهدف إلى تعليمهنَّ الجرأة والجلد وإنكار الذات. فإذا اتّفق لشهوتهنّ إلى الطعام أن أصيبت بخيبة ضئيلة، بسبب من إفساد الطعام ومن إبقائه على النار أقلّ مما ينبغي أو أكثر مما ينبغي مثلاً، فليس يجوز أن يُمْحى ذلك الحادث بالتعويض عن الرفه الضائع بتقديم وجبة أفضل، وبذلك نرفِّه الجسد وننحرف عن الغرض الذي أنشئ هذا المعهد من أجله. إن علينا أن نفيد من تلك الخيبة ونتّخذها وسيلة لتهذيب الطالبات روحياً من طريق تشجيعهنّ على التجلُّد في حالات الحرمان المؤقت. ومن المناسب في أمثال هذه الحالات إلقاء كلمة صغيرة على الطلاّب ينتهزها المدرّس الحكيم فرصة سانحة للإشارة إلى آلام المسيحيين الأوّلين، وعذابات الشهداء، وإلى مواعظ السيد المسيح المبارك نفسهِ التي دعا فيها إلى حوارييه إلى أن يحملوا صلبانهم ويتبعوه، وإلى تحذيراته القائلة بأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ولكن بكلّ كلمة تنطلق من فم الله، وإلى تعزياته المقدسة: «طوبى لكم إذا قاسيتم الجوع والظمأ من أجلي». أوه، يا سيدتي، إنك حين تضعين خبزاً وجبناً، بدلاً من ثريد محترق، في أفواه هذه، البنيات قد تغذين من غير ريب أجسادهن الدنيئة ولكنك قلّما تفكرين إلى أيّ حد تجيعين نفوسهنّ غير الفانية»!

وأمسك مستر بروكلهورست عن الكلام، كرة أخرى – ولعلّه فعل ذلك تحت وطأة الأحاسيس التي هيمنت عليه. وكانت مس تامبل قد غضتّ من بصرها عندما استهلّ حديثه معهما، ولكنها حدَّقت، الآن إلى أمام تحديقاً مباشراً، فبدا وجهها –

الشاحب بطبيعته شحوب الرخام – وكأنه اكتسب برودة هذه المادة وثباتها أيضاً، وعلى الأخصّ ثغرها المطبق، وكأن فتحَهُ يحتاج إلى أزميل نحات، وجبينها الذي تغضن آخذاً سبيله تدريجياً نحو صرامةٍ متحجرة.

وفي غضون ذلك راح مستر بروكلهورست، وقد وقف قرب المستوقد شابكاً يديه خلف ظهره، يراقب المدرسة كلها في مهابة وجلال. وفجأة اختلجت عينه، وكأنما وقعت، على شي؟ بهره أو صدمه، فاستدار وقال في نبرات أشد تلاحقاً ممّا اصطنع حتى ذلك الحين:

– «مس تامبل، مس تامبل! من هي تلك الفتاة ذات الشعر المعقوص؟ شعر أحمر، يا سيدتي، معقوص – معقوص كله من أقصاه إلى أقصاه؟» قال ذلك ورفع عصاه مشيراً بها إلى الشيء الرهيب، وقد ارتجفت يده فيما هو يفعل ذلك.

فأجابت مس تامبل في سكينة بالغة: «إنها جوليا سيفرن».

– «جوليا سيفرن، يا سيدتي! ولماذا تعقص هي، أو تعقص أيّة فتاة أخرى، شعرها؟ لماذا تلتزم الزي الشائع التزاماً مكشوفاً إلى هذا الحدّ، جاعلة من شعرها كتلة من الحلقات المعقوصة، متحدّية بذلك جميع أنظمة هذه الدار ومبادئها؟ – وأين؟ في مؤسسة إنجيلية خيرية»!

فأجابته تامبل، في سكينة أشدّ حتّى من سكينتها الأولى: «إن شعر جوليا متجعّد بطبيعته».

– «بطبيعته؟ أجل، ولكن الواجب يقتضينا أن لا نذعن للطبيعة. أنا أريد أن تكون هذه الفتيات بنات الفضيلة المسيحية، وعلام هذا الترف كله؟ لقد أشرت مرة ومرة إلى أني أودّ أن تسرِّح البنات شعرهنَّ على نحو مرْسَل، وبسيط، غير متكلَّف. مس تامبل، إن شعر هذه الفتاة يجب أن يقص كله. ولسوف أبعث غداً بحلاق... واني لأرى فتيات أُخريات يلجأن أكثر ممّا ينبغي إلى «تصفيف» شعرهن

ورفعه إلى أعلى... وهذه الفتاة الطويلة – قولي لها أن تستدير قولي لجميع طالبات الصف الأول أن ينهضن ويوجِّهن وجوههن نحو الجدار».

وأمرَّت مس تامبل منديلها فوق شفتيها، وكأنما لتمحو الابتسامة غير الإرادية التي باعدت ما بينهما، ومع ذلك، فقد أصدرت أمرها بذلك. وحين وُفِّقت بنات الصف الأول إلى فهم ما طُلب إليهن فِعلُهُ امتثلن للأمر. ومن طريق الانحناء قليلاً إلى الوراء فوق مقعدي الخشبي الطويل استطعت أن ألمح مختلف النظرات وحركات الوجه الهازئة التي علَّقن بواسطتها على هذه «المناورة». ومن أسفٍ أن مستر بروكلهورست لم يستطع أن يراهنّ، كما رأيتهنَّ أنا. ولو قد استطاع ذلك إذن لكان من الجائز أن يدرك أنه مهما يفعلْ بظاهر الكأس والطبق فإن باطنهما يظل في نجوة من تدخّله، أكثر مما يظن أو يتخيّل.

واستعرض ظهورَ هذه «المداليات» الحيّة متفحصاً إيّاها نحواً من خمس دقائق، ثم لفظ حكمه. ولقد سقطت كلماته على رؤوسنا وكأنها النفخ في الصُّور:

– «جميع هذه الخُصَل العليا يجب أن تُجتَزّ»!

وبدت مس تامبل وكأنها تحتجّ.

وواصل مستر بروكلهورست كلامه: «سيدتي، إن لي سيداً أخدمه مملكتُه ليست في هذا العالم. ورسالتي هي أن أُمِيْتَ في هؤلاء البنات شهوات الجسد، أن أعلمهن الاحتشام والرصانة فلا يظهرن أبداً بشعر معقوص وحلَّة نفيسة. إن في رأس كلّ من الفتيات اللواتي أمامنا، هنا، خصلة من الشعر مجدولة، ولعلَّ يد الزهو هي التي جدلتها. أكرر القول إن هذه الجدائل يجب أن تجْتَزّ. فكِّري في الوقت المهدور وفي الـــ...».

لقد حِيلَ، هنا، بين مستر بروكلهورست وبين إكمال حديثه، بعد أن دخلت، الحجرة ثلاث زائرات – ثلاث سيدات. وكان يَحْسُن بهذه النسوة أن يفدن قبل ذلك

بقليل ليسمعن محاضرته عن الملابس، ذلك بأنهنّ كنَّ يَرفلن بالمخمل والحرير والفراء، على نحو باذخ. كانت الاثنتان الأصغر سناً بين الزائرات الثلاث (وهما فتاتان وسيمتان في السادسة عشرة ولسابعة عشرة) تعتمران بقبعتين رماديتين من جلد السمُّور – وكان هذا النوع من القبعات زياً شائعاً آنذاك – مظللتين بريش النعام. ومن تحت حافتيّ هاتين القبعتين البديعتين تدلَّت جمهرة من الذوائب الصغيرة المعقوصة عقصاً معقداً. وكانت السيدة الكهلة تتّشح بشال مخملي نفيس مقلَّم بفراء من الجلد الفاقم، وتزين جبينها بِحُلَيْقات من الشعر المستعار، على الطريقة الفرنسية.

واستقبلت مس تامبل هذه السيدات في حفاوة واحترام بوصفهنّ السيدة والآنستين بروكلهورست، و قادتهن إلى مقاعد الشرف في صدر الحجرة. ويبدو أنهن قد وفدن في المركبة مع نسيبهنّ المبجَّل» ومن ثم انصرفن إلى إجراء تفتيش دقيق لغرف الدور العلوي بينا انهمك هو في مناقشة مدبِّرة شؤون الدار الحساب، وفي استنطاق الغاسلة، وفي إلقاء محاضرة على مديرة المدرسة. ولم يكدن يبلغن مقاعدهن حتّى رحن يوجهن ملاحظات وتعنيفات مختلفة إلى مس سميث التي كان موكلاً إليها أمر العناية بالبياضات وتفتيش حجرات النوم. ولكني لم أجد متّسعاً من الوقت للإصغاء إلى ما قلنه، فقد صرفتني عنه شؤون أخرى استأثرت بانتباهي كلّه.

وبرغم انصرافي، حتى ذلك الحين، إلى تلقُّف ما دار بين مستر بروكلهورست ومس تامبل من حديث فإني لم أهمل، في الوقت نفسه اتّخاذ الاحتياطات التي تكفل سلامتي الشخصية، هذه السلامة التي اعتقدتُ أنها سوف تتعرّض للأذى إلاّ إذا وُفِّقتُ إلى البقاء في نجوة عن الأنظار. من أجل ذلك كنت قد نأيت بنفسي إلى مؤخرة الصف، ورحت أتظاهر بالانهماك في حلّ مسألتي الحسابية ممسكة بلوحي الحجري على نحو يحجب وجهي عن الأبصار. ولقد كان من الممكن أن أجتنب وقوع العين عليَّ لولم يزلَّ لوحي الغادر، من يدي، بطريقة ما، مُحدثاً قرقعة

متطفلة لفتت إليَّ جميع العيون في الحال. وأدركت الآن أن كلّ شيء قد انتهى، وبينما انحنيت لالتقاط قطعتيّ اللوح المكسور استجمعت قواي انتظاراً لما هو أسوأ.

وكان ما خفتُ أن يكون، فقال مستر بروكلهورست: «فتاة مهملة»! ثم أضاف بعد ذلك مباشرة: «إنها الطالبة الجديدة في ما أرى».

وقبل أن أوفَّق إلى أخذ نفَس، قال: «يجب أن لا أنسى أنّ لدي كلمة أودّ أن أقولها بشأنها» لم أردف بصوت عال، وما أشدّ ما بدا لي صوته ذاك عالياً! «إيتي بالطفلة إلي كسرت لوحها الحجري إلى هنا»!

ولم يكن في وسعي أن أتحرّك من تلقاء نفسي. كنت قد أصبت بالشلل، ولكن الفتاتين الكبيرتين اللتين جلستا إلى جانبيَّ أنهضتاني على قدميَّ ودفعتاني نحو القاضي الرهيب، ومن ثم أخذت مس تامبل بيدي في رفق وساعدتني على المثول بين يديه، فسمعتها تهمس في أُذني قائلة: – «لا تجزعي يا جين، لقد رأيت أن ذلك كان مجرَّد مصادفة. إنك لن تعاقبي».

ونفذت الهمسة الشفوق إلى فؤادي مثل خنجر.

وقلت، في ذات نفسي: «لن تنقضي دقيقة أخرى حتى تعتبرني فتاة مُرائية وتنظر إليَّ في ازدراء».

وعند هذه الإدانة غصف في عروقي غيظ عارم على رِيْد، وبروكلهورست، وشركائهما. فأنا لم أكن فتاة من طراز هيلين بيرنز.

وقال مستر بروكلهورست مشيراً إلى كرسي عال، لا ظهر له، كانت إحدى العريفات قد نهضت عنه منذ لحظة: «فلتأتني إحداكنَّ بهذا الكرسي».

وجيء بالكرسي، فقال مستر بروكلهورست: «ضعْن الطفلة فوقه»!

ووضِعتُ حيث أرادني أن أوضع، وما دريتُ من الذي وضعني هناك، فلم أكن في وضع يمكنني من ملاحظة التفاصيل. كل ما أدركته هو أني رُفعت إلى مستوى

أنف مستر بروكلهورست بحيث أمسى على مدى ياردة مني، وبحيث انبسط تحتي وتموَّج بحر من جلابيب حريرية أرجوانية وبرتقالية متغيّرة ألوانها كلّ لحظة، وسحابة من ريش فضي.

وتنحنح مستر بروكلهورست، وقال ملتفتاً إلى أسرته: «سيداتي، مس تامبل، أيّتها المدرسات والطالبات الصغيرات، هل ترين كلكن هذه الفتاة؟»

وقد رأينني من غير ريب. ذلك بأنني أحسست بأعينهنّ مصوبة على بشرتي المسفوعة وكأن تلك الأعين عدسات محرقة.

– «أنتن ترين أنها لا تزال صغيرة، أنتن تلاحظن أنها تتمتع بشكل الطفولة العادي. فقد أنعم الله عليها بالصورة التي وهبنا كلّنا إيّاها، وليس ثمة فيها عاهة ملحوظة تنبئ بأنها ذات شخصية تلفت النظر. من ذا الذي يستطيع أن يتصوّر أن الشرير» قد وجد فيها خادماً له واتّخذ منها أداة لتنفيذ مآربه؟ ومع ذلك، فيحزنني أن أقول لكنَّ أن هذا هو حالها».

وأمسك عن الكلام لحظة شرعتُ فيها أهدئ أعصابي الثائرة، وأشعر أني اجتزت مرحلة اللا رجوع، وأن من واجبي، بعد أن تعذّر علي الفرار من وجه المحنة، أن أحتملها في عزم وثبات.

واستأنف الكاهن الرخامي الأسود كلامه في نبرة تثير الشجون: «صغيراتي العزيزات، إنها لمناسبة محزنة كئيبة، فقد أصبح من واجبي أن أحذِّركن فأقول إن هذه الفتاة، التي قد تكون واحدة من خراف الرب، هي منبوذة صغيرة. إنها ليست عضواً من أعضاء القطِيع الصالح، بل دخيلة عليه وأجنبية عنه. إن عليكنِّ أن تأخذن حذركن منها، عليكن أن لا تنهجن نهجها: وإذا دعت الضرورة، فاجتنبن معاشرتها ومرافقتها، حظِّرن عليها الإسهام في ألعابكن، ولا تُجِزْن لها أن تشارك في أحاديثكن. أما أنتنّ، أيّتها المعلمات، فعليكن أن تراقبنها: سمِّرن أعينكن على حركاتها، ورُزْنَ كلماتها رَوزاً حسناً، وتحرَّين أعمالها، وعاقبن جسدها لكي تنقذن روحها، إذا كان مثل هذا الخلاص ممكناً، في الواقع، لأن هذه... (وإن لساني

ليتلعثم إذ أقول ذلك)، الفتاة، هذه الطفلة، هذه البنت المولودة في ديار مسيحية، والتي هي أردأ من كثير من الوثنيات الصغيرات اللواتي يرفعن صلواتهنَّ لبراهما ويسجدن لـــ «يغَرْنوط»[1]. هذه الفتاة هي: «كذابة»!

(1) Juggernaut أحد الآلهة الهندية. (المعرب)

وران الصمت بعد ذلك، عشر دقائق لاحظت خلالها (وكنت قد استعدت رباطة جأشي استعادة كاملة) جميع سيدات أسرة بروكلهورست يُخرجن مناديلهنّ من جيوبهنّ، ويغطين بها أعينهنّ، بينما راحت السيدة الكهلة تترنّح إلى أمام وإلى وراء، وأخذت الآنستان الشابتان تتهامسان: «يا للهول»!

واستأنف مستر بروكلهورست كلامه: «ذلك شيء عرفتُهُ من ولية نعمتها، من السيدة الورعة المحسنة التي نبنَّتها يوم كانت يتيمة وربّتها وكأنها ابنتها، والتي كان جواب الفتاة التعسة على حنانها وكرمها نكراناً للجميل بشعاً ورهيباً إلى حدَّ اضطرت معه راعيتُها الممتازة إلى فصلها عن صغارها خشية أن تسري عدوى سلوكها الشائن إلى طُهرهم. ولقد أرسلتها إلى هنا لكي تعالج، كما كان اليهود القدماء يرسلون مرضاهم إلى بركة بيثيسدا العكرة. أيّتها المعلمات، أيتها المديرة، أرجوكنّ لا تَدَعنَ المياه تركد من حولها».

حتى إذا لفظ مستر بروكلهورست هذه الخاتمة السَّنِيَّة، عدّل زرّ معطفه الأعلى وهمس في آذان أسرته بشيء ما، فنهضن وانحنين لمس تامبل. ومن ثم انسحبت الشخصيات البارزة كلها من الحِجرة، في أبّهة وجلال. حتّى إذا انتهى قاضيَّ إلى الباب استدار وقال:

– «فلتبق نصف ساعة أخرى فوق ذلك الكرسي الذي لا ظهر له، ولتمتنع كل منكن عن التحدّث إليها بقية ساعات اليوم».

وإذن فقد كنتُ ثمة منصوبةً مرفوعةً: أنا التي سبق لي أن أعلنت أني لن أقوى على احتمال عار الوقوف على قدمي الطبيعيتين في وسط الحجرة، كنت معروضة

لأنظار الجماعة كلها فوق قاعدة الخزي والشّنار. أما الأحاسيس التي غلبت عليَّ؟ ذلك ما تعجز أيما لغة عن وصفه. ولكن ما إن جاشت هذه الأحاسيس كلها خانقة أنفاسي عاصرة حنجرتي حتّى أقبلت إحدى الفتيات ومرّت بالقرب مني. لقد رفعت عينيها فيما كانت تجتاز بي. أي ضياء غريب كان يلتمع فيهما! أي إحساس استثنائي أوقعه ذلك الضياء في جوانحي! ويا للشجاعة التي أورثني إيّاها هذا الإحساس الجديد! لكان شهيداً من الشهداء أو بطلاً من الأبطال، قد اجتاز بعبد رقيق أو بضحية من الضحايا فنفخ فيه القوة والعزم. وتغلَّبتُ على الهستيريا الجائشة في ذات نفسي، ورفعت رأسي إلى أعلى، وأثبتُّ قدميّ فوق الكرسي الذي لا ظهر له. لقد وجهّت هيلين بيرنز إلى مس سميث، سؤالاً صغيراً حول مسألة متُّصلة بأشغالها اليدوية، فزجرتْ لتفاهة ذلك السؤال، وعندئذ انقلبت إلى مكانها وابتسمت لي لحظة اجتازت بي كرة ثانية. ويا لها من ابتسامة! إني لا أزال أتذكّرها حتّى في هذه الساعة، وأنا أعلم أنها كانت هي فيض العقل السامي والشجاعة الحق. لقد أضاءت أساريرها المتغضّنة، ووجهها الهزيل، وعينها الرمادية الغائرة، وكأنها انعكاس عن وجه ملاك. ومع ذلك، فقد كانت ذراع هيلين بيرنز مطوِّقة في تلك اللحظة بسمة تعلن أنها «عديمة الترتيب». فقبل ساعة أو أقل كنت سمعت مس سكاتشيرد تحكم عليها بأن يقتصر غذاؤها في غد على الخبز والماء، لأن بعض بقع الحبر لطّخت دفترها فيما كانت تنسخ عليه تمريناً ما. تلك هي طبيعة الإنسان التي يعوزها الكمال! إن أمثال هذه البقع لتبدو على صفحة أكثر الكواكب سطوعاً، ومع ذلك فإن عينين كعيني سكاتشيرد لا تريان غير هذه العيوب الطفيفة، وتعميان عن تألّق الكوكب الكلي.

[8]

وقبل أن تنقضي الدقائق الثلاثون دقَّت الساعة معلنة الخامسة. لقد علِّقت الدروس، وشخصت الجماعة كلها إلى حجرة الطعام لتناول الشاي.

عندئذ جازفت فنزلت عن الكرسي الذي لا ظهر له: كان الغسق حالكاً، فانتحيت زاوية وقعدت على الأرض. كانت الرُّقية التي مكَّنتني من احتمال الأذى حتّى تلك اللحظة قد شرعت تتبدّد، ليعاودني الانفعال والضيق. وسرعان ما استبدَّ بي أسى طاغ أوهى جَلَدي فسقطتُ مستقبلة الأرض بوجهي، وانخرطت في البكاء: إن هيلين بيرنز لم تكن هناك لتشد أزري. وإذ خُلِّفت وحدي فقد استسلمت لعواطفي، فإذا بعبراتي تروي أرضية الحجرة الخشبية. كنت قد عقدت العزم على أن أكون فتاة صالحة جداً، وعلى أن أحقق في لو وود أشياء كثيرة: أن أكسب أكبر عدد من الصديقات، وأن أفوز بالاحترام، وأنتزع المودّة والعطف. وكنت قد أحرزت، فعلاً، بعض التقدُّم المحسوس. ففي ذلك الصباح بالذات كنت فد وفّقت إلى احتلال المنزلة الأولى في صفي، وكانت مس ميلر قد أثنت عليَّ ثناء حاراً. كانت مس تامبل قد ابتسمت لي إيذاناً برضاها عني، وكانت قد وعدت بأن تعلّمني الرسم وبأن تجيز لي تعلُّم الفرنسية إذا ما واصلتُ إحراز تحسُّن مماثل طوال شهرين إضافيين. وإلى هذا، فقد تلقَّتني زميلاتي بقبول حسن، وعاملني أترابي معاملة الند للند، ولم تعمد أيما فتاة إلى مضايقتي. وها أنا ذا الآن ملقاة على الأرض، من جديد، مسحوقة مداسة بالأقدام، فهل يقدِّر لي أن أنهض كرة أخرى؟

وقلت في ذات نفسي: «لا، أبد الدهر». وتمّنيت، في حرارة بالغة، لو أموت. وفيما كنت أتنهَّد معبِّرة عن هذه الأمنية في نبرات مهشمة تقدم نحوي شخص ما، وأجفلتُ. كانت هيلين بيرنز على مقربة مني، هذه المرة أيضاً، وكانت الجمرات

الخامدة قد أرتني إيّاها تتقدم عبر الحجرة الطويلة الخالية: لقد حملت إليَّ شيئاً من القهوة والخبز.

ووجهت إليَّ الخطاب قائلة: «هيا، كلي شيئاً». ولكني نحَّيت كلاًّ من القهوة والخبز عني، شاعرة وكأن أيما نقطة أو كسرة منهما يمكن، في حالتي تلك، أن تخنقني خنقاً. وأمعنت هيلين النظر إليَّ، ولعلها فعلت ذلك في دَهَش: لقد عجزت الآن عن إخماد اهتياجي، برغم ما بذلت من جهد عنيف، ولقد واصلتُ البكاء في صوت عال. عندئذ قعدَتْ قربي على الأرض، مطوِّقة ركبتيها بذراعيها، وأسندت رأسها إليهما، واعتصَمتْ في وضعها ذاك بحبل الصمت، وكأنها مخلوقة من الهند. وكنت أنا أول من بدأ بالكلام:

– «هيلين، لماذا تلازمين فتاة يعتقد العالم كله أنّها كذابة؟»

– «العالم كله يا جين؟ عجباً، إن عدد الذين سمعوك تُنْعتين بهذا النعت لا يتجاوز الثمانين شخصاً، والعالم يحتوي مئات الملايين».

– «ولكن أي شأن لي بهذه الملايين؟ إنّ الثمانين شخصاً اللواتي أعرفهنّ لينظرن إليَّ في احتقار».

– «جين، أنت مخطئة: وأغلب الظنّ أنه ليس في المدرسة شخص واحد يحتقرك أو يكرهك. بل إني واثقة من أن كثيرات يتعاطفن معك إلى حدّ بعيد».

– «كيف يستطعن أن يتعاطفن معي بعد أن قال مستر بروكلهورست ما قاله؟»

– «مستر بروكلهورست ليس إلهاً، بل إنّه ليس برجل عظيم متمتع بإعجاب الناس. إنه لا ينعم هنا بأكثر من حب، ضئيل، ولا عجب، فهو لم يحاول في أيما يوم من الأيام أن يجعل من نفسه شخصاً محبوباً. ولو قد حاباك في المعاملة إذن لوجدت من حولك عدوَّات كُثُر، بعضهن يجاهرن بعداوتهن وبعضهن يخفينها. أما في حالتك الحاضرة فخليق بالكثرة العظمى من الفتيات أن يبسطن لك يد العطف إذا جَسَرنَ على ذلك. إن المعلمات والطالبات قد ينظرن إليك في برود، طوال يوم أو

يومين، ولكن قلوبهن تكنّ لك مشاعر ودّية. وإذا واظبت، على انتهاج السبيل الصالح فلن ينقضي وقت طويل حتى تقوى هذه المشاعر إلى درجة يتعذّر معها كَبْتُها كبتاً مؤقتاً. وإلى هذا، يا جين...».

وكفَّت عن الكلام، فقلت واضعة يدي على يدها: «ماذا تريدين أن تقولي يا هيلين؟»

ففركت أصابعي فركاً رفيقاً لكي تدفِّئها، ثم تابعت قائلة: «لو أن العالم كله أبغضك وأعتقد بأنك شريرة، وكان ضميرك مطمئناً إلى ما تعملين مبرِّئاً لك من التهمة، فلن تَعْدمي بعض الأصدقاء والصديقات».

- «لا، أنا أعلم أن من واجبي أن أحسن الظن بنفسي، ولكن هذا ليس كافياً: إذا ضنَّ عليَّ الآخرون بالحب فعندئذ أؤثر الموت على الحياة - أنا لا أحتمل رؤية نفسي منبوذة مكروهة، يا هيلين. اسمعي، إني لمستعدة، من أجل اكتساب، بعض المحبة الصادقة منك أو من مس تامبل أو من أيما شخص آخر أحبه حباً خالصاً، أن أُسلِّمَ عظم ذراعي للكسر، أو أن أجيز لأحد الثيران أن ينطحني، أو أن أقف وراء حصان رافس وأدعه يقذف صدري بحافره...»

- «هش، جين! أنتِ تفكرين أكثر مما ينبغي بحب الكائنات البشرية، أنت عاطفية أكثر مما ينبغي، مرهفة الحس أكثر ممّا ينبغي: إنّ اليد العليا التي خلقت جسدك ونفخت فيه الحياة قد زوّدتك بموارد أخرى غير نفسك الضعيفة أو غير المخلوقات الضعيفة مثلك. فبالإضافة إلى هذه الأرض وبالإضافة إلى الجنس البشري هناك عالم غير منظور ومملكة أرواح: إن ذلك العالم ليُحيط بنا من كل جانب، ذلك بأنه موجود في كل مكان، وإن تلك الأرواح لتراقبنا، ذلك بأنها مفوّضة بحراستنا. فإذا ما قضى علينا الوجع والخزي، وإذا ما طعننا الازدراء من كلّ جانب، وإذا ما سحقنا البغض سحقاً، رأت الملائكة عذاباتنا، وأدركت براءتنا (إذا كنا أبرياء حقاً: وأنا أعلم جيداً أنّك براء من هذه التهمة التي نقلها مستر بروكلهورست في ضعف وأبّهة عن لسان مسز ريد من غير أن

يتحقّق ذلك بنفسه، فقد لمحت آيات الفطرة المستقيمة في عينيك المتوقدتين وعلى جبينك الوضّاح)، وليس ينتظر الله غير انفصال الروح عن الجسد حتى يتوجّنا بثواب كامل. فما الذي يدعونا إذن إلى الرزوح تحت ثقل الغمّ والأسى، ما دام العمر سريع الانقضاء، وما دام الموت مَعْبَراً لا ريب فيه إلى السعادة – إلى المجد؟»

وبقيتُ صامتة: كانت هيلين قد أوقعت السكينة في نفسي، ولكن تلك السكينة كانت مشوبة بأسى يمتنع على الوصف. لقد ألمَّ بي، فيما كانت تتكلم، شعور بالغَمّ، بيد أني لم أوفّق إلى معرفة مصدره. حتّى إذا أمسكتْ عن الكلام وراحت تلهث لهاثاً خفيفاً، مطلقة سعالاً وجيزاً نسيتُ أحزاني على التوّ، واستبدّ بي قلق عليها غامض.

وأسندتُ رأسي إلى كتف هيلين، وطوّقتُ خصرها بذراعي. وجذبتني إليها. واسترخينا في صمت. ولم ينقض على اتخاذنا تلك الجلسة وقتاً طويلاً حتى أقبل شخص آخر. كانت سحب كثيفة، طردتها من السماء ريح عاصفة، قد خلَّفت القمر سافراً. فتدفّق ضياؤه من نافذة قريبة وغمرنا نحن الاثنتين وغمرَ الشبح المقترب الذي عرفنا فيه في الحال شخص مس تامبل.

قالت: «لقد جئت أبحث عنكِ، عامدة، يا جين ايير. أنا أريد منك أن تأتي إلى غرفتي، وإذ كانت هيلين بيرنز معك فلا بأس في أن تأتي هي أيضاً».

ومضينا، متّبعتين خطوات المديرة، مجتازتين أروقة معقَّدة، ثم ارتقينا سلماً قبل أن نبلغ حجرتها. كانت ثمة نار حسنة الضِّرام، ولقد بدا كل ما فيها بهيجاً. وطلبت مس تامبل إلى هيلين بيرنز أن تجلس على مقعد خفيض ذي ذراعين قائم إلى جانب من جانبي المستوقد، وأقتعدت هي كرسياً آخر. ومن ثم دعتني إلى الوقوف جنبها وسألتني، خافضة بصرها إلى وجهي: «هل انتهى كل شيء؟ هل أطفأتِ نار أساك بالدموع التي سفحتِها؟»

– «يخيّل إليّ أني لن أستطيع ذلك أبد الدهر».

– «لماذ؟»

– «لأني اتُّهمتُ ظلماً وعدواناً، ولأنك سوف تظنين الآن، يا سيدتي، وسوف يظن كلّ امرئ معك، أنني فتاة خبيثة».

– «إننا لن نحكم عليك إلاّ من خلال سلوكك، يا صغيرتي. واظبي على التصرّف كفتاة صالحة تفوزي برضانا».

– «أحقّ ما تقولين يا مس تامبل؟»

فقالت وهي تطوّقني بذراعيها: «من غير ريب. والآن قولي لي من هي السيدة التي دعاها مستر بروكلهورست وليّة نعمتك؟»

– «مسز ريد. زوجة خالي. لقد توفي خالي وخلَّفني في رعايتها».

– «وإذن فإنها لم تعمد إلى تبنيك بطوعها؟»

– «لا، يا سيدتي، لقد كرِهتْ القيام بهذه المهمة. ولكن خالي– وهذا ما سمعته من الخدم غير مرة – انتزع منها قُبيل وفاته وعداً بإبقائي في رعايتها».

– «حسن، يا جين. أنت تعلمين، أو أني على الأقل سوف، أُعلمِك أنه حين يُتُّهم مجرم بتهمة ما، يسمح له دائماً بالكلام دفاعاً عن نفسه. ولقد اتُّهِمتِ أنت بالكذب، فدافعي عن نفسك أمامي على أحسن وجه تستطيعينه. قولي كل ما تُشعرِك ذاكرتك أنه صحيح. ولكن لا تتزيَّدي البتّة ولا تعمدي إلى المبالغة على الإطلاق».

وعقدت العزم، في قراره نفسي، على اصطناع أقصى الاعتدال، وأقصى الدقُّة. حتى إذا فكرت بضع دقائق لكي أنظِّم، على نحو متماسك، ما كنت أريد أن أقوله، قصصتُ عليها حكاية طفولتي الحزينة بكاملها. وكان الانفعال قد استنفد قواي، ومن أجل ذلك جاءت لغتي مكبوحة أكثر من مألوف عادتها كلَّما تحدثت في هذا الموضوع. وإذ كنت لا أزال أذكر تحذيرات هيلين من الاستسلام للغيظ فقد أشْربتُ قصتي بقدر من الحنق والمرارة أقلّ من المعتاد بكثير. والواقع أن تلطيفها

وتبسيطها على هذا النحو جعلاها تبدو أجدر بالتصديق: لقد شعرت، وأنا أمضي في الرواية، أن مس تامبل صدّقت كل كلمة من كلماتي.

وكنت قد أشرت، في سياق الحكاية، إلى مستر لويد قائلة إنَّه وفدَ لزيارتي بعد النوبة، ذلك بأني لم أنس قط حادثة الحجرة الحمراء، تلك الحادثة الرهيبة بالنسبة لي. وكان لا بد لاهتياجي، وأنا أروي تفصيلات تلك الحادثة، من أن يتخطّى حدود الاعتدال، إلى حد ما. إذ لم يكن في مستطاع أيما شيء أن يلطِّف، في ذاكرتي، الآلام المبرحة التي اعتصرت فؤادي عندما رفضت في ازدراء توسلي الصارخ من أجل الغفران، وحبستني كرة أخرى في الحجرة المظلمة المسكونة.

حتى إذا انتهيت راحت مس تامبل تنظر إلي، بضع دقائق، في صمت، ثم قالت: «أنا أعرف شيئاً عن مستر لويد. ولسوف أكتب إليه. فإذا جاء جوابه منطبقاً على روايتك فعندئذ تُبَرَّئين - على ملأ من المعلمات والطالبات - من كلّ تهمة. أما أنا شخصياً فأعتبرك، منذ الآن، بريئة».

وقبَّلتني، مبقية إيَّاي إلى جانبها، حيث سعدت بالوقوف، إذ استمدَدْت متعة طفلية من إمعان النظر إلى وجهها، وفستانها، وحِلْيتها أو حليتيها الاثنتين، وجبينها الأبيض، وخُصَل شعرها المُعَنْقَدة الملتمعة، وعينيها السوداويين المشعتين. ثم إنها وجّهت الخطاب إلى هيلين بيرنز:

- «كيف حالك، الليلة، يا هيلين؟ هل سعلتِ كثيراً اليوم؟»

- «ليس كثيراً في ما أعتقد، يا سيدتي».

- «والألم في صدرك؟»

- «لقد خفّ بعض الشيء».

ونهضت مس تامبل، وأمسكت بيدها، وجسَّت نبضها. ثم إنها انقلبت إلى كرسيها. حتّى إذا بلغته سمعتها تطلق زفرة خفيضة. واستسلمت للتفكير بضع

دقائق، ثم انتزعت نفسها من غمرته وقالت في ابتهاج: «ولكنكما أنتما الاثنتان ضيفتاي الليلة. ويتعيّن عليّ أن أعاملكما معاملة الضيف».

ورنت جرساً ثم قالت للخادمة التي لبَّت نداءها: «بربارة، أنا لم أتناول الشاي حتى الآن. إيتي بالصينية، وضعي فنجانين لهاتين السيدتين الصغيرتين».

وفي الحال جيء بصينية. لشدَّ ما بدت الفناجين الخزفية جميلة في عيني، ولشد ما بدا إبريق الشاي براقاً، وقد وضعت على المائدة الصغيرة المستديرة قرب النار! ولا تسل كم كان بخار الشاي زكياً، وكذلك رائحة الخبز المحمص! ذلك الخبز الذي لم ألمح منه، ويا للذعر الذي انتابني، (ذلك بأن الجوع كان قد بدأ يشتد ّبي) غير قطعة صغيرة جداً ولاحظت مس تامبل صغر القطعة أيضاً فقالت: «بربارة، ألم يكن في مستطاعك أن تأتي بقدر من الخبز والزبدة أكثر قليلاً؟ إنّ ما أتيت به لا يكفي ثلاثة أشخاص».

وغادرت وبارة الحجرة ثم رجعت في غير إبطاء وقالت: «سيدتي، مسز هاردن تقول إنّها بعثت إليك بالكمية المألوفة».

ويحسن بالقارئ أن يعلم أن مسز هاردن كانت مدبرة شؤون الدار: امرأة من الضرب الذي يقرّه مستر بروكلهورست ويحلوله، إذ كانت مركَّبة من عظم فكّ الحوت ومن حديد، وبنسبة متعادلة.

فأجابت مس تامبل «أوه، حسن جداً! يبدو لي أن علينا أن نقنع بهذه الكمية، يا بربارة». حتى إذا انسحبت الخادمة، أضافت متبسِّمة: «من حسن الطالع أن في ميسوري أن أسدّ النقص هذه المرة».

حتى إذا دعتني وهيلين إلى الاقتراب من المائدة ووضعتْ أمام كل منّا فنجان شاي مع فلذة لذيذة، ولكنها رقيقة، من الخبز المحمص، نهضت من كرسيها، وفتحت أحد الأدراج وأخرجت منه رزمة ورقية، وأخرجت، على التوّ، كعكة كبيرة تحتوي على بذور ذكية الرائحة.

وقالت: «كنت أعتزم أن أعطي كلاّ منكما جزءاً من هذه الكعكة لتأخذه معها، ولكن لما كان مقدار الخبز المحمص أقلّ مما ينبغي فيجب أن تتناولا نصيبكما الآن». وشرعت تقطّع الكعكة شرائح، بيد سخية.

ونعِمنا بالطعام تلك الليلة كما كان خليقاً بنا أن ننعم لو كان ما قُدّم إلينا طعام الآلهة وشرابها. ولم تكن بسمة الارتياح التي تأمّلتنا مضيفتنا بها ونحن نشبع جوعنا بالطعام الرقيق الذي قدّمته إلينا في سخاء.. أقول لم تكن بسمة الارتياح هذه أقل مباهج تلك الوليمة. حتى إذا فرغنا من تناول الشاي، وأخرجت الصينية، دعتنا كرة ثانية إلى التقدّم نحو المستوقد. وجلست إحدانا إلى يمينها وجلست الأخرى إلى يسارها، وعندئذ دار بينها وبين هيلين حوار كان السماح لي بالاستماع إليه امتيازاً خُصصتُ به.

وكانت مس تامبل تتكشف دائماً عن شيء من الصفاء في طلعتها، وشيء من الوقار في مظهرها، وشيء من الأناقة المصقولة في لغتها، وكانت هذه كلها تحول بين من تتحدّث إليه وبين الاسترسال في الحماسة، والاهتياج، والانفعال. كانت تتكشف دائماً عن شيء يكبح ابتهاج من ينظر إليها ويصغي لها بشعور من الرهبة مُهيمن. ولقد كان ذلك هو إحساسي الآن. أما هيلين بيرنز فقد أوقعت في نفيس دهشاً بالغاً.

كانت الوجبة المنعشة، والنار الساطعة، ووجود معلمتها المحبوبة ولطفها، وربما أكثر من ذلك كله، فكرة راودت عقلها الفريد...كان كل أولئك قد حرّك فيها كامن قواها. لقد استيقظت تلك القوى الهاجعة، واضطرمت: لقد توهّجت بادي? الأمر في توقُّد وجنتيها المتوردتين، اللتين لم تقع عيناي منهما، حتّى تلك اللحظة، إلاّ على شحوب واصفرار. ثم تألقت في بريق عينيها الصافي الذي اكتسب فجأة جمالاً أغرب وأعجب من جمال مس تامبل – جمالاً لا يقوم على اللون البديع، والأهداب الطويلة، والحاجبين الرقيقين الممشوقين، ولكن يقوم على المعنى، على الحركة، على الإشراق. ثم جرى لسانها بما تكنُّه نفسها، وتدفقت لغتها من معين

لست أدري حقيقته. أيكون لفتاة في الرابعة عشرة قلب هو من الكِبَر وشدّة العزم بحيث يتّسع لهذا الينبوع الثَّرّ، ينبوع الفصاحة المتوقّدة، الكاملة، المحضة؟ تلك كانت الصفات التي اتّسمم بها حديث هيلين في تلك الليلة التي كانت، بالنسبة إليَّ، ليلة لا تُنسى. لقد بدت روحها وكأنها حريصة على أن تحيا، في فترة وجيزة جداً، بقدر ما يحيا كثير من الناس خلال عمر مديد.

لقد تحدثنا عن أشياء لم أسمع بها من قبل! عن أمم وعصور خالية، عن بلدان قصية، عن جمهرة من أسرار الطبيعة كُشف، النقاب عن بعضها ولا يزال بعضها موضوع حَدْسٍ. لقد تحدّثنا عن الكتب، وما أكثر ما طالعتا منها! أية ذخائر من المعرفة كانتا تملكان! ولقد بدا وكأنهما تعرفان الأسماء الفرنسية والكتَّاب الفرنسيين معرفتهما لنفسيهما. ولكن دهشي بلغ أوجه عندما سألت مس هيلين ما إذا كانت تختلس أحياناً بضع لحظات لتذكُّر ما كان أبوها قد علَّمها إيّاه من اللاتينية، وعندما تناولت من على أحد الرفوف كتاباً وطلبت إليها أن تقرأ وتفسر صفحة من «فرجيل»[1] وامتثلت هيلين الأمر، فكانت حاسة الإعجاب عندي تتعاظم مع كل بيت من الشعر قرأته. ولم تكد تبلغ آخر الصفحة حتّى قرع الجرس معلناً موعد الإيواء إلى المخادع. وما كان ثمة أي سبيل للتخلّف، فعانقتنا مس تامبل نحن الاثنتين، قائلة فيما كانت تشدّنا إلى فؤادها:

(1) كبير شعراء الرومان. (المعرب)

– «فليباركِكما الرب، يا بُنيَّتيَّ»!

وكان عناقها لهيلين أطول بعض الشيء من عناقها إيّاي، حتى إذا تركتْها تمضي فعلت ذلك على كره لم تُظهر ما يضارعه قوة عند انصرافي أنا. ليس هذا فحسب، بل لقد ركَّزت نظراتها عليها، من دوني، حتّى بلغت الباب، ومن أجلها هي بالذات أطلقت للمرة الثانية زفرة حزينة، ومن أجلها مسحت عبرة تدحرجت على وجنتها.

وحين انتهينا إلى حجرة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد: كانت تفحص الأدراج، وكانت قد فتحت منذ لحظة درج هيلين بيرنز. حتُّى إذا دخلنا استقبلت هيلين بتعنيف قاسٍ وأعلِمتْ أن نصف دزينة من الملابس الداخلية – تلك التي وُجدت في درجها مطوية طياً رديئاً – سوف تُعلَّق غداً بالدبابيس على ظهرها.

وغمغمت هيلين هامسة في أذني: «الواقع أن أشيائي كان يعوزها الترتيب إلى حد مخزٍ. وكنت قد عقدت النية على ترتيبها، ولكني نسيت».

وفي صباح اليوم التالي خطَّت مس سكاتشيرد على قطعة من الورق المقوى، بأحرف ضخمة، كلمة «قذرة» وعلقتها مثل تعويذة حول جبين هيلين العريض، الدمث، الذكي، الرقيق. ولقد حملتها حتى المساء، صابرة غير متشكِّية أو ممتعضة، معتبرة ذلك قصاصاً تستحقه. ولحظة انسحبت مس سكاتشيرد بعد دروس الأصيل، هرعتُ إلى هيلين، ونزعت قطعة الورق المقوى عن جبينها، وقذفت بها إلى النار: إنّ سورة الغضب التي امتنعت هيلين عليها كانت تضطرم في جوانحي طوال النهار، في حين كانت العبرات، حارة ضخمة، تحرق خديَّ على نحو موصول. ذلك بأن مشهد إذعانها المحزون أورث قلبي ألماً لا يطاق.

وبعد سبعة أيام انقضت على الأحداث التي رويْتُها في الفقرات السابقة تلقَّت مس تامبل جواباً من مستر لويد، وكانت قد كتبت إليه: لقد بدا أن ما قاله جاء مؤيداً روايتي. فما كان منها إلاّ أن جمعت المدرسة كلها، وأعلنت أن تحقيقاً قد أجْريَ بصدد التهم الموجهة إلى جين ايير، وأنها سعيدة أعظم السعادة بأن تُعلن أن جين بريئة براءة كاملة من كل ما وُجِّه إليها. عندئذ صافحتني المعلمات وقبلنني، وسرت في صفوف، رفيقاتي مهمهمة ابتهاجاً.

وإذا تحررتُ على هذا النحو من عبءٍ فاجع، فقد انصرفت منذ تلك لساعة إلى العمل، من جديد، عاقدةً العزم على شقّ طريقي برغم المصاعب كلها: لقد كدحت كدحاً عنيفاً، وكان نجاحي متكافئاً مع جهودي. فقد تحسَّنت ذاكرتي، ولم كن قوية بالفطرة، بفضل المران. وشحذَ التدريب عقلي، فما

انقضى غير أسابيع قليلة حتى رُفِعتُ، - إلى صف أعلى. وفي أقل من شهرين اثنين أُجيز لي أن أبدأ في تعلُّم الفرنسية والرسم. وتعلمت «الزمنينً» الأولين من فعل «الكون» etre وفي اليوم نفسه رسمت كوخي الأول (الذي فاقت جدرانه، بالمناسبة، برج - بيزا المائل من حيث الانحدار). وتلك الليلة نسيت، حين أويت إلى الفراش، أن أعِدَّ في خيالي ذلك العشاء الوهمي - المؤلف من بطاطا حارة محمَّصة أو من خبز أبيض ولبن طازج - الذي كنت متعوّدة أن ألْهي به أشراقي الباطنية. لقد متَّعت نفسي، بدلاً من ذلك، بمشهد الرسوم المثالية التي رأيتها في الظلام، وتخيُّلت أنها كلها من صنع يديَّ: كانت بيوتاً وأشجاراً رسمتها بالقلم الرصاصي يد رشيقة، وصخوراً وأطلالاً فاتنة، وقطعاناً من الماشية على طريقة «كوويب»، وصوراً عذبة لفراشات ترفرف فوق ورود لم تتفتح أكمامها بعد، ولطيور تنقد حبات كرز ناضجة، ولأعشاش طيور صغيرة من نوع الصَّفراغون تكتنف بيضاً أشبه باللآلئ، وتطوّقها أفنانُ لبلاب غض. ودرست أيضاً - في الخيال - إمكانية توفيقي في يوم من الأيام إلى القيام بترجمة سلسلة متدفقة لقصّة فرنسية صغيرة بعينها، قصة كانت مدام بييرو قد أطلعتني عليها، ذلك اليوم، ولكني استسلمت، للنوم العميق قبل أن أهتدي إلى حلّ هذه المسألة على وجه يرضيني.

ولقد أجاد سليمان حين قال: «إن غداء مؤلفاً من أعشاب في موطن يرفرف فيه الحب خير من ثور مسَمَّن في موطن يشيع البغض في جنباته».

ولقد كان خليقاً بي الآن أن لا أرتضي التخلّي عن «لووود»، برغم ما حفِلَ به من ضروب الحرمان، وأن أرفض أن أستبدل به «غايتسهيد» ومتارفه اليومية.

[9]

ولكن ضروب الحرمان، أو على الأصح ضروب المشاق، التي حفِلت بها «لو وود» أخذت في النقص والتضاؤل. واقترب الربيع، بل لقد أقبل فعلاً. كان صقيع الشتاء قد ولّى، وكانت ثلوجه قد ذابت، وكانت رياحه اللاّذعة قد اعتدلت. واتّخذت قدماي، اللتان كان هواء كانون الثاني (يناير) القارس قد قرَّحهما وورَّمهما حتى العَرَج - سبيلهما نحو الشفاء وانحسار الورم بفضل نسائم نيسان (أبريل) الرقيقة. ولم تعد الليالي والأصباح تجمِّد، ببردها الكندي الرهيب، الدماء نفسها في عروقنا.

ولقد أصبح في ميسورنا الآن أن نطيق ساعة اللعب في الحديقة. بل لقد بدأ الجو يميل، في بعض الأيام المشمسة، إلى العذوبة واللطف، ونَمَتْ في تلك المزاهر السمراء خضرة أوحت إلينا، بنضارتها المتعاظمة يوماً بعد يوم، بأن «الأمل» قد ألمَّ بساحتها ليلاً وأنه كان يخلِّف ثمة آثار قدميه، كل صباح، على نحو متنامي الإشراق. واختلست الرياحين النظر من خلال أوراق الشجر، وكان بين تلك الرياحين زهرات ثلج، وزعفران، وآذان دبّ، أرجوانية، وبنفسجات ثالوث ذهبية العيون. وفي أصيل كل يوم خميس (وكانت المدرسة تعطّل في ذلك النهار نصف يوم) شرعنا نقوم بنزهات على الأقدام، وكنا نقع في هذه النزهات على رياحين أحلى حتى من التي عدَّدتُها منذ لحظة، رياحين متفتحة عند جانبي الطريق، تحت الأسْيِجة المؤلفة من نباتات وأشجار.

واكتشفت أيضاً أنه كان ثمة، وراء جدران حديقتنا الشامخة المصونة بمسامير مؤبَّرة،[1]، متعة بالغة لا يحدّها غير الأفق. وكانت هذه المتعة تقوم على تسريح الطرف في القمم الرفيعة المحيطة بأحد الفِجاج العميقة، الغني بالخضرة والظلال، وإمتاعه بمشهد جدول برّاق مليء بالحجارة القاتمة والدرادير المومضة. لشدّ ما

كان هذا المشهد مختلفاً عن ذلك الذي بدا يوم رأيته مسجًّى تحت سماء الشتاء الحديدية، متصلِّباً بالصقيع. مكفَّناً بالثلج! – عندما راح ضباب بارد كالموت يهيم على وجهه كما شاءت له رياح الشرق أن يهيم، عبر تلك القمم الأرجوانية، لم يتدحرج بعد ذلك حتّى يمتزج بالضباب المتجمد فوق الجدول! لقد أمسى هذا الجدول نفسه، الآن، سيلاً موحلاً لا سبيل إلى كبحه، سيلاً اقتحم الغابة، وأطلق في الهواء هديراً محموماً كثيراً ما زاده المطر الوحشي والبَرد المدوِّم ضراوة إلى ضراوة. أما الغابة القائمة عند ضفّتيه فما عاد يبدو منها غير هياكل منضودة.

(1) ذات رؤوس كالإبر.

وانقضى نيسان (أبريل) وأقبل نوار (مايو). ولقد كان «نوار» مشرقاً رائقاً تبسَّم عن أيام ذات سماء زرقاء، وأشعة شمس وديعة، ونسائم غربية أو جنوبية ما تكف، عن الهبوب. وبلغت الخضرة غاية نضجها في قوة وعزم، ونفضت «لو وود» عنها غبار الجمود. لقد أصبحت خضراء كلها، زهراء كلها. ورُدَّت الروح إلى هياكل الدردار والزان والسنديان العظيمة فاستأنفت حياتها المهيبة. ونجمتْ نباتات الغابة بغزارة في فَجَواتها، وغطَّت دروب من الطحالب لا حصر لها أغوار الغابة، فأحالت ثروتها الكبيرة من نبات «آذان الدب «البرية إلى أشعة شمس أرضية عجيبة. لقد رأيت ذَهَبها الشاحب يلتمع في بقاع ظليلة أشبه شيء برقاع متناثرة من لمعان ليس أعذبَ ولا أحلى. كل ذلك استمتعت به في كثير من الأحيان استمتاعاً كاملاً حراً، غير مراقب، وعلى انفراد تقريباً. وكان ثمة سبب لهذه الحرية وتلك المتعة النادرتين، سبب أمسى من واجبي الآن أن أطلع القارئ عليه.

ألم أصوِّر «لو وود» موطناً بهيجاً يفيء إليه المرء عندما قلت إنها مُكتَنفة بالكثبان والغابات، وإنها تنبثق من حافة جدول؟ موطن بهيج من غير ريب، ولكن إلى أي حدّ كان موطناً صحياً؟

كان ذلك الوادي – الغابة الذي جثمت فيه «لو وود» مهداً للضباب وللوباء الذي يغذوه الضباب، والذي أغذّ الخطى مع الربيع المتعجّل، وتسلل إلى الميتم،

فنفث التيفوس في حجرتي الدرس والنوم المزدحمتين فيه، فأحال المدرسة، قبل حلول نوار (مايو) إلى مستشفى.

كانت المجاعة النصفية وحالات الزكام المهملة قد أعدَّت الطالبات لتلقّي العدوى، فإذا بها تصيب خمساً وأربعين من الثمانين فتاة في وقت معاً. وعُطّلت
الدروس، وتراخت قبضة الأنظمة. ومُنحت القلة اللواتي احتفظن بصحّتهن حرية شبه كاملة، لأن الطبيب المسئول أصرَّ على ضرورة قيامهن بين الفينة والفينة بتمارين رياضية تُبقي عليهن عافيتهنّ. ولو لم يقف الطبيب هذا الموقف إذن لما وجد أحد متّسعاً من الوقت لمرا قبتهنّ أو لكبح جماحهن. وانصرفت مس تامبل بكليتها إلى العناية بالمريضات: لقد أقامت في حجرتهن، فلم تكن لتغادرها إلاّ لتختلس سويعات من الراحة في موهن من الليل. وانهمكت المعلمات انهماكاً كاملاً في حزم أمتعة أولئك البنات اللواتي شاء حُسن طالعهن أن يكون لهن أصدقاء وأنسباء قادرون على إبعادهن عن
مقرُّ الوباء وراغبون في ذلك. ليس هذا فحسب، بل لقد كنّ منهمكات في اتخاذ الإجراءات الضرورية الأخرى لترحيل أولئك البنات. وكان الداء قد تمكّن من كثير من البنات فمضين إلى مساقط
رؤوسهنُّ ليلفظن أنفاسهن فيها. وقضى بعضهن نحبه في المدرسة، فوورين الثرى في هدوء وعجلة، لأن طبيعة المرض حظَّرت إرجاء ذلك.

وبينما ألقى الداء رحله في «لو وود» ليصبح من سكانها المقيمين، وبينما راح الموت يتردّد إليها بين الفينة والفينة، وبينما خيَّمت الكآبة والخوف داخل جدرانها، وبينما عبقت حجراتها وممراتها بروائح المستشفيات وقد كافحت العقاقير والأقراص على غير طائل من أجل التغلب على أبخرة الموت الكريهة، شعَّ «نوّار» المشرق ذاك، صافي السماء، فوق الكثبان الجسورة والغابات الجميلة خارج الجدران. وتألقت حديقة «لو وود» أيضاً بالرياحين: كانت الخباز الفرنجية قد نمت طويلة كالأشجار، وكانت الزنابق قد تفتحت أكمامها، وكانت الورود وضروب السوسن قد

نوَّرت، وكانت حوافي المزاهر الصغيرة بهيجة بأزهار قرنفلية وبأقاح قرمزية مزدوجة، وكان النسرين ينفث، صباح مساء، عبيره التوابلي التفاحي، وكانت هذه الكنوز العطرة عديمة الفائدة بالكلية للكثرة العظمى من نزيلات «لو وود»، لولا أنها كانت تزوَّدهن بين حين وآخر بباقة من أعشاء وأزهار وضعنها على تابوت.

أما أنا وسائر الفتيات اللواتي امتنعن على المرض فقد استمتعنا أكمل الاستمتاع بجمال الربيع وروعة المشاهد: لقد أجيز لنا أن نهيم على وجوهنا في الغابة كالغجريات، منذ منبلَج الصباح حتى مغرب الشمس، وكنا نفعل ما يحلو لنا، ونذهب حيث شئنا، ونحيا حياة أفضل أيضاً. إن مستر بروكلهورست وأفراد أسرته ما عادوا يطئون الآن، أرض «لو وود»، وشؤون الطعام وتدبير المنزل لم تعد خاضعة للتدقيق والتمحيص، فقد فارقتنا مدبرة شؤون الدار يحدوها إلى ذلك خوف العدوى. وكانت خليفتها، وقد تولّت قبل ذلك رئاسة مستوصف لوتون، تجهل الأساليب المتّبعة في مقرّ عملها الجديد، ومن هنا زوّدتنا بما نحتاج إليه في سخاء نسبي. وإلى هذا فقد قلَّ عدد الأفواه الواجب إطعامها، وإذ كانت صريعات الداء لا يستهلكن من الطعام غير نزر يسير، فقد أمست أطباق فطورنا الصباحي أحفل بالغذاء. وكلّما ضاق الوقت عن إعداد وجبة غداء نظامية – وهو أمر كان كثير الحدوث في تلك الفترة – كنّا نعطى قطعة كبيرة من فطير بارد محشو، أو شريحة غليظة من خبز وجبن، وكان من دأبنا أن نحمل أنصبتنا هذه إلى الغابة، حيث تختار كلّ منا البقعة التي كانت تفضِّلها، وتلتهم الطعام في رِفْهِ بالغٍ.

وكان مقعدي الأثير لديّ، حجراً أملس عريضاً كان ينتصب، أبيض جافاً، وسط الجدول، ولم أكن أستطيع بلوغه إلاّ بالتخويض في الماء، وهو صنيع كنت أقوم به حافية. وكان الحجر يتّسع لقعودي أنا وفتاة أخرى ليس غير، على نحو مريح، وكانت رفيقتي المختارة في تلك الآونة طالبة تدعى ماري آن ويلسون، وهي فتاة ذكية دقيقة الملاحظة، أنِستُ إليها ووجدت في مرافقتها متعة، لأنها كانت مليحة النكتة فذّة الشخصية، من ناحية، ولأنها كانت ذات مسلك يسرّي عن نفسي، من ناحية ثانية. وإذ كانت أكبر مني بسنوات معدودات فقد عرفت العالم أكثر مما

عرفته، وكان في ميسورها أن تحدّثني عن أشياء كثيرة كنت راغبة في سماعها. لقد أشبعت صحبة «ماري آن» فضولي، ولقد تقبّلت أخطائي بتسامح سخي، غير محاولة أن تخضع أيما شيء أقوله لأيما زمام مُلجِم. كانت هي نزّاعة إلى القصص، وكنت أنا نزّاعة إلى التحليل، كانت تحب أن تعلّم وكنت أحب أن أسأل، وهكذا تفاهمنا أحسن ما يكون التفاهم، مستمدّتين متعة بالغة، إن لم نستمد فائدة كبيرة، من تبادلنا الخواطر والآراء.

ولكن أين كانت هيلين بيرنز في غضون هذه الفترة؟ لمَ لمْ أقضِ أيام الحرية العذبة هذه معها؟ أكنت قد نسيتها؟ أم كنت من التفاهة بحيث بَرِمتُ بصحبتها الطاهرة؟ لا ريب في أن ماري آن ويلسون هذه التي أشرت إليها دون صديقتي الأولى شأنا: لم يكن لديها ما تقدّمه إليّ غير الحكايات المسلية، وغير اللغو الطلي اللاّذع الذي آثرت الانغماس فيه. على حين كانت هيلين – إذا صحّ تصويري لها – مؤهّلة لأن تمنح من قُدِّر له أن يحظى بالاستماع إلى حديثها تذوقاً أرفع بكثير، وأسمى بكثير.

أجل أيها القارئ، ولقد عرفتُ ذلك واستشعرته. وعلى الرغم من أني مخلوقة يعوزها الكمال، مخلوقة كثيرة الأخطاء قليلة الحسنات المكفِّرة عن تلك الأخطاء، فإني لم أملَّ هيلين بيرنز ولم أبْرَم بها ،ولم أكفّ قط عن الانجذاب نحوها بسائق مودّة لا أحسب أن شيئاً أقوى منها وأرقّ وأحفل بالاحترام قد غمَرَ فؤادي في أيما يوم من الأيام. وكيف يجوز أن يكون الوضع على خلاف ذلك بعد أن تكشّفت لي هيلين بيرنز دائماً وفي جميع الظروف والمناسبات عن صداقة هادئة مخلصة لم يعكّرها النكد قط ولم يكدّرها الانفعال في أيما وقت؟ ولكن هيلين كانت طريحة الفراش آنذاك: لقد أُبعِدت عن ناظري منذ أسابيع لتوضع في حجرة لم أعرفها على وجه الضبط من حجرات الطابق العلوي. إنها لم تكن، على ما قيل لي، في ذلك الجزء من البيت الذي حُوِّل إلى مستشفى لصريعات الحمى، لأنها كانت مصابة

بداء السل لا بداء التيفوس. ولعِظم جهلي، اعتقدت أن السل مرض غير خطير، مرض لا بدّ للزمن وحسن العناية من أن يخففا وطأته.

وإنّما رسَّخ هذه الفكرة في ذهني أنها هبطت السلم مرة أو مرتين، عندا الأصيل، في بعض الأيام المشمسة الشديدة الدفء، وأن مس تامبل رافقتها إلى الحديقة. بيد أني لم يُجَز لي، في تينك المناسبتين، أن أمضي إليها وأتحدّث معها. لقد رأيتها من نافذة حجرة الدرس ليس غير، وعلى نحو غير واضع أيضاً. ذلك بأنها كانت متلفِّعة بدُثر تكاد تحجبها وكانت تجلس على مسافة ما، تحت الشرفة.

وذات مساء، في مطلع حزيران (يونيو)، لبثت في الغابة، مع ماري آن حتى ساعة متأخرة جداً. كنّا قد اعتزلنا الأخريات، على مألوف عادتنا، وهمنا على وجهينا بعيداً عن المدرسة: بعيداً إلى درجة أننا ضللنا سبيلنا وتعيّن علينا أن نلتمس الهداية إليها عند كوخ متوحِّد، حيث، كان يقيم رجل وامرأة يرعيان قطيعاً من الخنازير نصف البرية يتغذي بثمار البلوط في الغابة.
حتُّى إذا رجعنا كان القمر قد طلع، وكان مهر صغير الجسم، عرفنا فيه مهْرَ الطبيب، واقفاً بباب الحديقة. وقالت ماري آن إنها متيقّنة من أن العلَّة قد ثقُلَت إلى درجة الخطر، من غير ريب، على شخص ما، بدليل استدعاء مستر بايتس في تلك الساعة من الليل. ومضت هي إلى الدار، أما أنا فتخلّفت بضع دقائق لأغرس في حديقتي بضعة جذور كنت قد اقتلعتها من الغابة وخشيت أن تذوي إذا ما أرجأت غرسها إلى الصباح. حتى إذا تمّ لي ذلك تريَّثت فترة إضافية: لقد تنفّست، الرياحين، فيما كان الندى يسقط، بعبير ليس أحلى ولا أذكى، وكانت الأمسية عذبة جداً، رائقة جداً، دافئة جداً، وكان الأفق الغربي، المتوهَّج ما يزال، يعِدْ بيوم جميل آخر تشرق أنواره في غد، ومن ناحية الشرق الوقور ارتفع القمر في جلال بالغ. وكنت أشهد هذه الأشياء كلها وأستمتع بها بقدر ما تستطيع طفلة أن تستمتع حين راودتني فكرة لم تخطر لي قط من قبل: «لشدَّ ما هو محزن أن ينطرح المرء، الآن، على فراش المرض، وأن يكون الموت قاب قوسين منه! إنّ هذا العالم

جميل... وإنه لمما يوقع الكآبة في النفس أن يدعى المرء إلى مغادرته، وأن يتعين عليه المضي إلى حيث لا أحد يدري».

عندئذ بذل عقلي أول جهد صادق قام به لفهم ما كان قد أشرِبَهُ من عقائد متصلة بموضوع الجنة والنار: ولأول مرة انقلب عقلي على عقبيه حائراً مذهولاً، ولأول مرة راح يلتفت خلفه، يمنة ويساراً، وأمامه، فإذا به يجد هاوية لا يُسبر غورها تحيط به من أقطاره جميعاً لقد أحسّ بالنقطة التي كان يقف عندها ليس غير: – الحاضر. أما سائر النقاط فكانت سحاباً لا شكل له وأعماقاً خاوية. ولقد ارتعد إذ تمثَّل نفسه مترنّحاً مخوِّضاً وسط ذلك العماء. وفيما كنت أتدبَّر هذه الفكرة الجديدة سمعت الباب الأمامي يُفتح. لقد خرج مستر بايتس، وخرجت معه ممرضة٠ حتى إذا بَصُرَتْ به يمتطي جواده ويمضي لسبيله عمدت إلى إغلاق الباب.٠ولكني هرعت إليها، متسائلة: «كيف حال هيلين بيرنز؟»

فكان جوابها: «سيئة جداً»

– «أمن أجلها هي استُدعي مستر بايتس؟»

– «نعم».

– «وما وجهة نظره في أمرها؟»

– «هو يقول إنّ مقامها بيننا لن يطول».

ولو قد طرقت هذه الجملة سمعي، أمس، إذن لما أفادتني غير معنى ترحيلها وشيكاً إلى نورثا مبرلند، مسقط رأسها. وإذن لما توهّمت أنها

تعني قرب انتقالها إلى العالم الآخر. ولكني أدركت الآن كل شيء، على التوّ. لقد انكشف لي أن هيلين بيرنز كانت تعدد أيامها الأخيرة في هذا العالم، وأنها على وشك أن تُحمَل إلى دار الأرواح، إذا كان لمثل هذه الدار وجود، وعَرَتني صدمة ذعر، لم رعدة غم عنيفة، ثم توق٠٠٠ بل حاجة ماسة إلى رؤيتها. وسألت في أية حجرة هي، فقالت الممرضة: «في حجرة مس تامبل».

– «أتأذنين لي في أن أصعد وأتحدث إليها؟»

– «أولاه، لا يا صغيرتي. هذا مستحيل وفوق هذا فقد آن لك أن تدخلي. إنَّك سوف تصابين بالحمى إذا بقيت خارج الدار أثناء سقوط الندى».

وأوصدت الممرضة الباب الأمامي، ودخلت من الباب الجانبي المفضي إلى حجرة الدرس، فبلغتها في الوقت المناسب: كانت الساعة التاسعة، وكانت مس ميلر تدعو الطالبات للإيواء إلى فُرشهن.

وبعد ساعتين من ذلك تقريباً – ولعل الساعة كانت الحادية عشرة – نهضت من فراشي في رفق، بعد أن استعصى علي الرقاد وبعد أن قدَّرْتُ، من الصمت الكامل الذي لفَّ حجرة النوم، أن رفيقاتي مستغرقات كلهن في نوم عميق، وارتديت فستاني فوق منامتي، وانسللت من الحجرة، ومضيت ميممة وجهي شطر حجرة مس تامبل. كانت تقوم في أقصى الطرف المقابل من الدار، ولكني كنت أعرف الطريق إليها ولقد مكَّنني ضياء القمر الصيفي غير المحجوب بالسحب، المتدفق هنا وهناك عبر نوافذ المجاز، من أن أهتدي إليها في غير ما عُسْر. ونبهتني رائحة كافور وخل محروق إلى أني أمسيت على مقربة من حجرة المصابات بحمى التيفوس، فتابعت سبيلي مبتعدة عن بابها في سرعة، خشية أن تسمعني الممرضة الساهرة هناك طوال الليل. كنت أوجس خيفة من أن يُكتشف أمري وأردَّ إلى فراشي، ذلك بأنه كان لا بد لي من أن أكحل الطرف برؤية هيلين. كان لا بد لي من أن أعانقها قبل أن تموت... ومن أن أطبع على جبينها قبلة أخيرة، وأن أتبادل معها بضع كلمات وداعية.

حتّى إذا هبطت سلماً، واجتزت جانباً من الدور الأرضي، ووُفِّقت إلى فتح بابين ثم إغلاقهما من غير إحداث ضجّة ما، انتهيت إلى جزء من السلَّم آخر، فارتقيت درجاته لأجد حجرة مس تامبل، بعد ذلك، قائمة أمامي مباشرة. كان ثمة نور ينبعث من خصاص الباب ومن تحته. وكان سكون عميق يلف الجوار. وتقدمت بضع خطوات، فألفيت الباب مفتوحاً على نحو جزئي، وفي غير ما

إسراف، وأغلب الظن أنه فتح على هذه الشاكلة لكي يتيح لبعض النسائم أن تنفذ إلى موطن المرض ذاك، ذي الهواء الفاسد. وإذ نفرتُ من التردد، وضجَّت في ذات نفسي حوافز نافذة الصبر - كانت روحي وحواسي ترتعد بضروب الغصص والكروب - فقد ردَدْت الباب إلى وراء وألقيت نظرة على الحجرة. كانت عيناي تبحثان عن هيلين، وكانتا تخشيان أن تقعا على الموت.

كان ثمة، على مقربة دانية من سرير مس تامبل، مَهْد صغير ذو حاجزين نصفُ مغطّى بستائره البيضاء. وتحت الأغطية بصُرْتُ بصورة جسد، ولكن الوجه كان محجوبًا عني بالستائر: كانت الممرضة التي سبق لي أن حدثتها في الحديقة جالسة على كرسي ذي ذراعين، مستسلمة للرقاد، وكانت شمعة لم يُنْزَع الجزء المحترق من فتيلتها تشتعل على الطاولة اشتعالاً قاتماً. ولم تقع عيناي على مس تامبل، ولقد عرفت في ما بعد أنها استُدعِيْت إلى حجرة المصابات بالحمى حيث استبدّ الهذيان بإحدى الفتيات. وتقدَّمتُ، ثم وقفت بجانب المهد الصغير: كانت يدي على الستارة، ولكني آثرت أن أتكلّم قبل أن أزيحها. كنت لا أزال أرتعد فَرَقاً من أن تنحسر الستارة عن جثة هامدة.

وهمست في رقة: «هيلين! هل أنت مستيقظة؟»

وتململت في فراشها، وردَّت الستارة، فرأيت وجهها شاحباً ذابلاً، ولكنه هادئ ساكن: كان التغيّر الذي ألمَّ بها - أو هكذا بدت - ضئيلاً إلى درجة بدَّدت خوفي في الحال.

وتساءلتْ في صوتها الرقيق: أممكن أن يكون من أرى هو أنت؟»

فقلت في نفسي: «أوه! إنها لن تموت، لقد خُدِعوا لو كانت مشرفة على الموت لما استطاعت أن تتكلّم بمثل هذا الهدوء، وأن تنظر بمثل هذه السكينة».

وانحنيت فوق مهدها وقبّلتُها. كان جبينها بارداً، وكانت وجنتها باردة ومهزولة في آن معاً، وكذلك كانت يدها ومعصمها. ولكنها ابتسمت كدأبها من قبل.

– «لماذا جئت إلى هنا يا جين؟ إن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة: لقد سمعتها تدقّ منذ بضع دقائق».

– «جئت لأراك يا هيلين. فقد سمعت أنّك جدّ مريضة، ولم يكن في طوقي أن أنام قبل التحدّث إليك».

– «لقد جئت لتقولي كلمة الوداع، إذن وأغلب الظن أنك جئت في اللحظة المناسبة».

– «أذاهبة انت إلى مكان ما، يا هيلين؟ أعائدة أنت إلى موطنك؟»

– «اجل، إلى موطني اسرمديّ... إلى موطني الأخير

– «لا، لا، يا هيلين»· وأمسكتُ عن الكلام، وقد غلب عليَّ الغمّ.

وفيما كنت أحاول أن أبتلع عبراتي استبدّت بهيلين نوبة سعال· بيد أن هذه النوبة لم توقظ الممرضة، على أيّة حال. حتّى إذا انحسرت، ظلّت هيلين ساكنة بضع دقائق، خائرة القوى. ثم إنها همست: «جين، قدماك الصغيرتان حافيتان. اضطجعي إلى جانبي، وغطّي نفسك بلحافي».

ونزلتُ، عند رغبتها: لقد احتوتني بذراعها فدنوت منها دُنوًّا كان أقرب إلى الالتصاق. وبعد صمت طويل استأنفت كلامها، في همس هذه المرة أيضاً: «أنا سعيدة جداً، يا جين. وحين يجيئك نعيي يتعيّن عليك أن تتجلّدي وأن لا تحزني، فليس ثمة ما يدعو إلى الحزن. إنّ الموت لا بد أن يدركنا كلّنا في يوم من الأيام، والداء الذي يقضي عليّ ليس أليماً. هو لطيف ومتمهِّل، وإن نفسي لمطمئنة. فأنا لا أخلِّف ورائي أي امرئ يأسى عليّ كثيراً· ليس لي غير أب، ولقد تزوج منذ فترة يسيرة، وهو لن يفتقدني. إن وفاتي غضَّة العود سوف تُنجيني من آلام عظيمة. فأنا لم أكن أملك كفاءات أو مواهب تمكنني من شق طريقي، بنجاح، في هذه الحياة، ولقد كان خليقاً بي أن أظل دائماً موضع لومٍ وتأنيب».

– «ولكن إلى أين أنتِ ذاهبة، يا هيلين؟

– «هل تستطيعين أن تَرَيْ؟ هل تعرفين؟»

– «أنا أؤمن. إنّ لدي إيماناً. أنا ملتحقة بالله»

– «ولكن أين الله؟ وما الله؟»

– «إنّه خالقي وخالقك، الذي لا يهدم أبداً ما خَلَق. إني لأفوّض أمري، في غير ما تردّد، إلى قدرته، وأثق كلّ الثقة بإحسانه. أنا أعدّ الساعات شوقاً إلى حلول تلك الساعة المهيبة التي تردُّني إليه، وتيسِّر لي اختلاء طلعته».

– «أنت واثقة إذن، يا هيلين، من وجود ما يدعونه جنة، وواثقة من أن أرواحنا تستطيع أن تفيء إليها حين نموت؟»

– «أنا واثقة من أن ثمّة حياة أخرى. وأؤمن بأن الله خيِّر. إن في ميسوري أن أتخلَّى له، من غير أن يساورني أي ريب، عن ذلك الجزء الخالد من وجودي. الله هو أبي. الله هو صديقي: أنا أحبه، أنا أؤمن بأنه يحبني».

– «وهل سيكون في ميسوري أن أراك، كرةً أخرى، حين أموت؟»

– «سوف تفدين إلى دار السعادة نفسها. ولسوف يستقبلك فيها الأب الكوني الجبّار نفسه. هذا شيء لا ريب فيه، يا عزيزتي جين».

وتساءلْتُ كرة أخرى، ولكن بيني وبين نفسي هذه المرة: «أين هي تلك الدار؟ أهي موجودة فعلاً؟» وأحكمتُ تطويق هيلين بذراعيَّ، فقد بدت أحبَّ، إلى قلبي منها في أيما عهدٍ سلف، وشعرت وكأنني لن أستطيع أن أدعها تمضي لسبيلها. وظللتُ مضطجعة إلى جانب هيلين، دافنة وجهي في جيدها. وسرعان ما قالت في نبرة ليس أحلى منها ولا أعذب:

– «لشَدَّ ما أشعر بالراحة! إنّ نوبة السعال الأخيرة قد أتعبتني بعض الشيء. وإني لأشعر الآن وكأن في ميسوري أن أنام. ولكن لا تفارقيني، يا جين. أنا أحبُّ أن أراك إلى جانبي».

– «سوف أبقى معك، يا عزيزتي هيلين. إن أحداً لن يُقصيني عنكِ».

– «هل تشعرين بالدفء، يا حبيبتي؟»

– «نعم».

– «طاب مساؤك، يا جين».

– «طاب مساؤك، يا هيلين».

وقبَّلتني و قبَّلتها. وسرعان ما استسلمنا كلانا لنوم هادئ عميق.

حتى إذا استيقظت كان الضحى قد ارتفع، وإنما انتزعتني من أحضان النوم حركة غير عادية. ورفعت طَرْفي فإذا بي أجد نفسي بين ذراعي شخص ما. كانت الممرضة تحملني عائدة بي، عَبْرَ المجاز، إلى حجرة النوم. ولم أعنَّف لمغادرتي سريري، فقد كانت الجماعة في شغل شاغل عن هذا. ولم يُقَدَّم آنذاك أيما تفسير لأسئلتي الكثيرة. ولكنني عرفت، بعد يوم أو يومين، أن مس تامبل كانت قد وجدتني، لَدُى عودتها إلى حجرتها عند الضحى، مضطجعة في مهد صغير، وقد مِلْتُ بوجهي على كتف هيلين بيرنز، وطوّقت، بذراعيَّ جيدها. كنتُ نائمة، وكنت هيلين...ميتة.

لقد دُفنت في فناء كنيسة بروكلبريدج. وطوال خمس عشرة سنة انقضت على وفاتها ظلّت ترقد تحت رابية صغيرة معشوشبة ليس غير. أما اليوم، فإن لوحة من رخام رمادي لتشير إلى مثواها الأخير، وقد نُقِش على هذه اللوحة اسمها، وهذه الكلمة الوحيدة [1]«Resurgam».

(1) كلمة لاتينية معناها: «سوف أقوم من جديد». (المعرب)

[10]

لقد دوَّنت حتى الآن، بكثير من التفصيل، أحداث وجودي التافه، مفردة لسنواتي العشر الأولى من حياتي فصولاً تكاد تَعْدلها عدداً. ولكني لا أقصد إلى أن أجعل من هذا الكتاب سيرة حياة ذاتية نظامية، ولن أفزع إلى ذاكرتي إلاّ عندما أعلم أن استجاباتها سوف تنطوي على قدر ما من الإمتاع. ومن أجل ذلك سأجتاز الآن، في صمت كامل تقريباً، مرحلة من عمري استغرقت ثماني سنوات، مكتفية ببضعة سطور أراها ضرورية للإبقاء على تسلسل الحوادث.

ما كادت حمى التيفوس تؤدي رسالتها التدميرية في لو وود حتى انسحبت من هناك على نحو تدريجي، ولكنها لم تفعل ذلك إلاّ بعد أن لفَتَ وبالها وعددُ ضحاياها أنظار الرأي العام. وأجرِي تحقيق حول منشأ الكارثة، وشيئاً بعد شيء تجلَّت حقائق ما لبثت أن أثارت السخط العام إلى حدٍّ بعيد. لقد اكتشِفت، طبيعة الموقع غير الصحية، وكمية طعام الأطفال ونوعيته، وما اصطُنع في إعداده من ماء كريه الرائحة ضارب طعمه إلى الملوحة، وهزال ملابس الطالبات ووسائل الراحة المهيَّأة لهنّ. ولقد أحدث اكتشاف هذه الأشياء كلها أثراً مُذلاًّ لمستر بروكلهورست. ولكنه نافع للمؤسسة.

واكتتب كثير من أبناء الإقليم الموسرين الخيرين بأموال سخية لإنشاء مبنىً أحسن في موقع أفضل. ووضعت أنظمة جديدة، وأدخلت على الغذاء والكساء بعض التحسينات، وعُهد بالإشراف على أوقاف المدرسة إلى لجنة خاصة. وإذ لم يكن في الإمكان إغفال مستر بروكلهورست، بسبب من ثروته وصِلاته العائلية. فقد ظل يحتفظ بأمانة الصندوق، ولكن بعد أن كُلِّف بمعاونته في أداء مهمته رجال ذوو عقول أوسع أفقاً ونفوس أكثر عطفاً. ولقد شاركه منصبه كمفتش، أيضاً، قوم عرفوا

كيف يمزجون العقل بالصرامة، والرفاهية بالاقتصاد، والحنان بالاستقامة. وهكذا أمست المدرسة، مع الأيام، وبفضل هذا التحسين، مؤسسة نافعة حقاً، نبيلة حقاً. وظللتُ أحيا بين جدرانها، في عهدها الجديد، ثماني سنوات، سلخت ستًّا منها بوصفي تلميذة واثنتين بوصفي معلمة. وإني لأشهد، كتلميذة وكمعلمة، أنها تمتعت بقيمة وشأن عظيمين.

وخلال هذه السنوات الثماني جرت حياتي على نمط واحد، ولكنها لم تكن غير سعيدة، لأنها كانت ناشطة. لقد وُضِعت في متناولي وسيلة الفوز بثقافة ممتازة، ولقد حثَّني على العمل شغفٌ ببعض دروسي، ورغبة في التفوّق فيها جميعاً، وابتهاج عظيم بإرضاء معلماتي، لا سيما أولئك اللواتي أحبَبْتهن. وأفدت أكمل ما تكون الإفادة من الفرص والامتيازات المتاحة لي. وأخيراً وفّقت إلى احتلال المرتبة الأولى بين طالبات الصف الأول، ثم كُلِّفت أن أشارك في التدريس، فنهضت بعبء هذه المهمة، في حماسة بالغة، طوال سنتين اثنتين. ولكني ما لبثتُ أن تغيُّرت، عند انقضاء هذه الفترة.

وتفصيل ذلك أن مس تامبل كانت قد احتفظت – خلال هذه التعديلات كلها – بمنصبها كمديرة للمدرسة. وإني لمدينة بخير ما اكتسبته من معرفة لحسن تعليمها وتوجيهها، ولقد وجدت في صداقتها وصحبتها عزاء لي موصولاً. وكانت قد قاست مني مقام الأم، والمربية، وفي ما بعد، مقام الرفيقة أيضاً. وفي هذه الفترة بالذات تزوجت، وارتحلت مع زوجها (وكان قساً، ورجلاً ممتازاً، جديراً – أو يكاد – بمثل هذه الزوجة) إلى إقليم ناءٍ، وهكذا خسِرْتُها.

ومنذ يوم رحيلها لم أعُدْ ما كنت. فقد ولّى معها كل شعور من مشاعري المطمئنة. وكل رباط من الروابط التي جعلت «لو وود»، إلى حدّ ما، موطناً لي. كنت قد تشربُّت منها شيئاً من طبيعتها وكثيراً من عاداتها، فإذا بعقلي يحفل بفكرات أقرب إلى التناغم والانسجام وإذا بنفسي تعمر بمشاعر بدت لي أوفر حظاً من الانضباط والتنظيم. وكنت قد دِنْتُ بالولاء للواجب والنظام. كنت هادئة، وأحسب

أني كنت سعيدة ولقد بدوتُ، في عيون الآخرين، وحتى في عينيَّ أنا في كثير من الأحيان، فتاة ذات شخصية حسنة الانضباط، سهلة الانقياد.

ولكن القَدر، ممثلاً في صورة القس المحترم، مستر ناسميث، فصل ما بيني وبين مس تامبل. لقد رأيتها في ثياب السفر تصعد، بُعَيْد زفافها، إلى مركبة من مراكب البريد، وراقبت المركبة وهي ترقى الهضبة وتتوارى خلف قمَّتها. ثم إنني انقلبت إلى حجرتي، حيث قضيت، في عزلة تامة، الجزء الأعظم من عطلة نصف نهارية مُنِحْناها احتفاء بتلك المناسبة.

لقد أنفقتُ معظم الوقت مطوِّفة في الحجرة. وخيّل إليّ أن ما بي لا يعدو الحزن لما حلّ بي من خسارة، والتفكير بوسيلة تعوِّضني منها. ولكن ما إن انتهت فكراتي إلى غايتها، ورفعت طرْفي فألفيْت أن الأصيل قد انقضى وأن الليل يتقدَّم بخطى واسعة حتى تبدَّى لي اكتشاف آخر، قوامه أني كنت خضعت خلال تلك الفترة اليسيرة لعملية تحوُّلٍ، وأن عقلي كان قد رمى بكل ما قد استعارة من مس تامبل – أو بالأحرى أن مس تامبل كانت قد أخذتْ معها ذلك الجو الرائق الذي كنت أحيا فيه في جوارها – وإني أسْلِمْتُ الآن لفطرتي الأولى، وأني بدأتُ، أستشعر ما غار من أحاسيسي القديمة. لم يكن الذي بدا لي شبيهاً بانتزاع سنٍّاد أو دعامة ما، ولكنه كان أشبه بضياع حافز ما:لم تكن القدرة على الاعتصام بالهدوء هي التي خذلتني، ولكن مبرّر وجود هذا الهدوء كان قد زال. كانت لو وود هي دنياي كلها طوال بضع سنوات، وكانت خبراتي مقصورة على قواعدها وأنظمتها. أما الآن فقد تذكرت أن الدنيا الحقيقية كانت واسعة، وأن حقولاً مختلفة من آمال ومخاوف وأحاسيس وانفعالات كانت تنتظر كل أولئك الذين أوْتوا الجرأة على اقتحام مداها اللانهائي، وعلى التماس معرفة الحياة الحقيقية في غمرة من مخاطرها.

مضيتُ إلى نافذتي، ففتحتُها، وأطللت منها. فوقعت عيناي على جناحَيْ المبنى، وعلى الحديقة، وعلى أطراف لو وود، وعلى أفق الهضاب. وتخطَّت عيني سائر

المشاهد لتستقر على أقصاها، على القمم الزرقاء. كانت هذه القمم هي ما تُقْتُ، إلى تسلقه، فقد بدا كل ما في نطاقها من صخر ومَرْج أشبه بفِناء سجن، أو تخوم منفى. وتتبعت بنظري الطريق البيضاء المتلوّية حول سفح أحد الجبال، والمتلاشية في وادٍ صغير بين جبلين. وما كان أشدَّ تَوْقي إلى اتّباعها إلى ما وراء ذلك! وتذكُّرت ذلك اليوم الذي اجتزت فيه تلك الطريق نفسها في عربة، وتذكرت كيف هبطت تلك الهضبة عند الغسق: لقد بدا وكأن قرناً من الزمن انقضى على اليوم الذي وفدت فيه أول مرة إلى لو وود، لكي لا أغادرها بعد ذلك قط. كنت قد أنفقت عُطَلي كلها في المدرسة. إن مسز ريد لم تَدْعني للعودة إلى غايتسهيد البتّة، ولم تفدْ لا هي ولا أحد من أفراد أسرتها لزيارتي قطّ. ولم يتمَّ بيني وبين العالم الخارجي أيما اتصال من طريق الرسائل الخطية أو الشفهية، فقد كانت الأنظمة المدرسية، والواجبات المدرسية، والعادات، والمعلومات، والأصوات، والوجوه، والجمل، والملابس، وضروب الإيثار والنفور المدرسية هي كل ما عرفتُهُ من الوجود. ولقد شعرت الآن أن هذه كلها لم تعد كافية، وسئمت نَمَطيَّة ثماني سنوات في مدى أصيل واحد. لقد تمنُّيت الحرية، وإلى الحرية ظمئت، وللحرية صلّيت، وبدا لي أن الريح التي هبَّت رخاء كانت تبددها وتذروها. وتخلَّيْت عن هذه الفكرة، وصُغْت ابتهالاً أشد تواضعاً. وصبوْت إلى التغيير، إلى حافزٍ يغريني بالحياة. ولكن هذه الصلاة تبدّدت هي الأخرى في الفضاء المبهم. فهتفت نصف يائسة: «إذن، هَبْ لي يا إلهي، عبودية جديدة، على الأقل»!

وهنا دعاني إلى هبوط السلم جرس رن معلناً حلول موعد العشاء.

ولم أوفَّق إلى استئناف تأمّلاتي، التي كان تسلسلها قد قُطِع علي، إلا حين أويت إلى الفراش. وحتى في تلك الفترة واصلتْ معلمةً كانت تشاطرني الحجرة نفسها صَرْفي – بدَفق موصولٍ من اللغْو التافه – عن الموضوع الذي تلهَّفت لاستئناف التفكير فيه. ولكم تمنيت لو يخرسها النوم! لقد بدا لي أني إذا ما وُفِّقْتُ للعودة إلى تلك الفكرة التي راودتني آخر الأمر وأنا مطلّة من النافذة، إذن لأومض في ذهني اقتراح مبتكر يوقع الارتياح في نفسي.

وأخيراً أخذت مس غرايس في الغطيط. كانت امرأة ويلزية بدينة ما كنت حتى الآن لأعتبر موسيقاها الأنفية المألوفة، إلاّ مصدراً من مصادر الإزعاج. أما الليلة، فقد رحَّبتُ بأولى نغماتها العميقة في رضا. إن شيئاً ما لن يقطع تأمّلاتي، بعد الآن. وسرعان ما بُعِثت فكرتي نصف الميتة من رقادها.

– «عبودية جديدة! إن ثمة شيئاً ذا وزن في هذه الفكرة»، كذلك رحت أناجي نفسي (عقلياً، من غير ريب. فأنا لم أتكلم بصوت عالٍ). «أنا أعرف أن فيها شيئاً ذا وزن، لأنها تبدو عذبة أكثر مما ينبغي. إنها ليست مثل هذه الكلمات: الحرية، الطرب، الهناءة، وكلها أصوات بهيجة حقاً، ولكنها ليست بالنسبة إليّ غير أصوات، أصوات جوفاء زائلة إلى درجة تجعل الاستماع إليها مضيعة للوقت. أما العبودية! أما العبودية فإنها حقيقة واقعة من غير ريب. إنّ كل امرئ منَّا قد يسْتعبد. ولقد استُعِبدتُ هنا ثماني سنوات». وكل ما أطلبه الآن هو أن أرزح تحت نير الاستعباد في مكان آخر. أليس في ميسوري أن أفوز بهذا المطلب اليسير بإرادتي أنا؟ أليس هذا المطلب ممكن التحقيق؟ – أجل... أجل... إن الغاية ليست بعيدة المنال إلى هذا الحدّ، شرط أن يكون لي ذهن ناشط إلى درجة تمكِّنه من اكتشاف الوسيلة إلى بلوغها».

واستويت قاعدة في سريري رجاة إيقاظ هذا الذهن وتنبيهه. كانت الليلة باردة، فطوَّقت كتفيَّ بشال، ثم تقدّمت إلى التفكير كرة أخرى، بكل ما أوتيت من قوة.

– «ما الذي أرغب فيه؟ عمل جديد، في بيت جديد، بين وجوه جديدة، وفي ظل أحوال جديدة: وإنّما أرغب في ذلك لأن من العبث، الذي لا طائل تحته أن أطمع في أيما شيء أفضل. ولكن كيف يجد الناس عملاً جديداً؟ إنهم يتّصلون بأصدقائهم التماساً لهذا العمل، في ما أحسب. وأنا فتاة لا أصدقاء لها. وأي بأس في ذلك، فهناك أشخاص كثيرون لا أصدقاء لهم، فهم مضطرون إلى حكّ جلدهم بظفرهم. ولكن ما هي وسيلتهم إلى ذلك؟»

ولم أوفّق إلى الإجابة، إن أيما جواب لم يخطر ببالي. عندئذ أمرت عقلي بالبحث، عن جواب، وبالاهتداء إليه في سرعة. فقدح زناد الفكر، وقدح على نحو أسرع حتى أحسست بالعروق تنبض في رأسي وصدغيَّ ولكن قدحه ذاك ظل، طوال ساعة تقريباً، ضرباً من التخبّط في عماء، فإذا بجهوده كلها لا تُسْفِر عن نتيجة ما. وأصابني هذا الجهد العابث يشبه حمًى فنهضت من فراشي، وخطوت في الحجرة بضع خطوات، ثم أزحت الستارة، وبَصُرتُ بنجم أو نجمين، وارتعدتْ أوصالي من البرد، فانسللتُ عائدة إلى الفراش.

ولا ريب في أن جنية كريمة كانت - خلال غيبتي - قد أسقطت فوق وسادتي ذلك الجواب المنشود. ذلك بأني فيما كنت أضطجع في سريري اتّخذ الجواب سبيله إلى عقلي، في سكينة بالغة وعلى نحو طبيعي: «إنّ أولئك الذين يطلبون وظائف يعلنون عن ذلك. إنّ عليك أن تعلني في صحيفة «...شاير هيرالد».

- «كيف؟ أنا لا أعرف شيئاً عن الإعلان؟»

وتدفقت الأجوبة، الآن، في يُسْر وسرعة:

- «إنَّ عليك أن تضعي نصّ الإعلان ونفقاته في ظرف موجَّه إلى محرر الـــ «هيرالد». وإنّ عليك أن تودعيه بريد لوتون في أول فرصة تتاح لك. ويحب أن توجّه الأجوبة إلى «ج.أ» في مكتب البريد هناك. وفي استطاعتك أن تشخصي إلى ذلك المكتب، بعد أسبوع من إيداعك الرسالة، وتسألي هل وردتك أجوبة أم لا، وتتصرّفي على ضوء من ذلك».

وقلَّبت هذه الخطة مثنى وثلاث، حتى اختمرت في ذهني، واتّخذتْ شكلاً عملياً واضحاً. وشعرت بالارتياح، واستسلمت للرقاد.

ولم يكد الصبح يتنفس حتى نهضت من فراشي وصُغتُ صيغة إعلاني ووضعته ضمن ظرف، وعَنْونته قبل أن يُقرع الجرس لإيقاظ المدرسة من الرقاد. وكان هذا نصّه:

«شابة متمرِّسة بالتدريس» (ألم أمض سنتين اثنتين في حقل التعليم)؟ «ترغب في الفوز بعمل في أسرة لا يتجاوز الأولاد فيها سنّ الرابعة عشرة» (لقد بدا لي أنّه لا يُحسن بي، وأنا لمَّا أبلغ الثامنة عشرة، أن أتولى تثقيف طلاّب تكاد أعمارهم تقارب سني). «وهي مؤهلة لتعليم الفروع المألوفة التي تشكل ثقافة إنكليزية جيدة، بالإضافة إلى الفرنسية، والرسم، والموسيقى» (في تلك الأيام كانت هذه المواد الدراسية التي تبدو محدودة الأفق، الآن، تُعتبر، أيها القارئ، ذات شمول غير يسير). «وجهوا الأجوبة إلى ج. أ. مكتب البريد، لوتون، إقليم..».

وبقيت هذه الوثيقة حبيسة درجي طوال النهار، وبعد الشاي استأذنت المديرة الجديدة في الذهاب إلى لوتون لإنجاز بضعة أعمال صغيرة بعضها خاص بي وبعضها خاص بزميلاتي المعلمات. فما كان منها إلاّ أن أذنت لي في ذلك، فمضيت. كانت لوتون تقع على مسيرة ميلين، وكانت الأمسية ندية، ولكن النهارات كانت لا تزال طويلة. وولجت دكاناً أو دكانين، ودسَسْت الرسالة في البريد، ثم انقلبت عائدة تحت زخّات مطر غزير: كانت ملابسي تقطر ماء، ولكن فؤادي كان قد تحرر من كربه.

وبدا الأسبوع الذي تلا، طويلاً جداً. بيد أنه انقضى آخر الأمر، كما تنقضي جميع الأشياء الدنيوية. وكرة أخرى ألفَيتُ نفسي - أصيل يوم رائق من أيام الخريف - أسعى على قدميَّ في الطريق منطلقة إلى لوتون. كانت الطريق، بالمناسبة، فاتنة، وكانت تمتدّ على طول الجدول وخلال مُنعَرجات الوهدة الأكثر بهاء. ولكني فكرت في ذلك اليوم بالرسائل، التي قد تكون أو قد لا تكون في انتظاري في الضيعة الصغيرة التي كنت متجهة نحوها، أكثر مما فكرت في سحر المرج والماء.

وإذ كانت الذريعة التي اصطنعتها للذهاب إلى لوتون هذه المرة هي أخذ قياس قدمي لصنع حذاء جديد فقد أنجزت هذه المهمة أولاً، ثم اتّخذت سبيلي عبر الشارع الصغير النظيف الهادئ من دكّان الحذَّاء إلى مكتب البريد. وكانت تديره سيدة

عجوز تضع على أنفها نظارتين مصنوعتين من مادة قرنية، وتطوق ذراعيها بقفّازين أسودين لا أصابع لهما.

وسألتها: «هل هناك أية رسالة موجّهة إلى ج. أ. ؟»

وحدّقت إليَّ من فوق نظارتيها، ثم فتحت درجاً وراحت تبحث بين محتوياته فترة من الزمان طويلة، طويلة إلى حدّ جعل آمالي تتداعى للسقوط. وأخيراً، وبعد أن قرَّبت إحدى الرسائل إلى نظارتيها متأملة إيَّاها نحواً من دقائق خمس دفعتْها إلي عبر المنضدة، مُرفقةً صنيعها هذا بنظرة استطلاعية أخرى حافلة بالشكّ والارتياب. كانت الرسالة موجّهة إلى ج. أ.

وسألتُها: «أليس هناك غير رسالة واحدة؟»

فقالت: «ليس عندي أية رسالة أخرى».

فدسَستُها في جيبي، واستدرت متّخذة سبيلي إلى المدرسة: لم يكن في ميسوري أن أفضَّها آنذاك، إذ كانت الأنظمة تفرض عليّ العودة قبل الثامنة، وكانت الساعة قد تجاوزت، في تلك الآونة، السابعة والنصف.

وكانت واجبات عديدة تنتظرني لدى وصولي: كان علي أن أجلس مع الطالبات خلال ساعة المذاكرة، وكان علي أن أتلو الصلوات بعد ذلك على مسامعهنّ - إذ كان الدور في تلك الليلة دوري - وأن أراقبهنّ أثناء إيوائهنّ إلى المضاجع. ثم إني تناولت طعام العشاء مع المعلمات الأخريات. وحتّى عندما أويت آخر الأمر إلى حجرة النوم ظلّت مس غرايس، التي لابدّ منها، تلازمني. ولم يكن لدينا في شمعداننا غير كعب شمعة قصير، ولقد خشيت أن تسترسل مس غرايس في لغوها حتّى تلفظ الشمعة أنفاسها الأخيرة، بيد أن العشاء الثقيل الذي التهمته ما لبث - لحسن طالعي - أن أغراها بالنوم، فاستسلمت للغطيط قبل أن أتمّ خلع ملابسي. كان قد بقي من الشمعة إنشٌ واحد، فأخرجت الرسالة من جيبي، فإذا بخاتمها يحمل حرف «ف». وفضَضْتُها، فإذا بها تنطوي على هذه السطور الموجزة:

– «إذا كانت ج. أ. التي أعلنتْ – في عدد «... شاير هيرالد» الصادر يوم الخميس الماضي تتمتع بالثقافة المشار إليها، وإذا كان في استطاعتها أن تقدم شهادات مُرضية تزكّي خلْقها وكفاءتها فعندئذ يكون في الإمكان أن يُعرض عليها عمل في منزل ليس فيه غير طالبة واحدة، فتاة صغيرة لمَّا تبلغ العاشرة، وبراتب مقداره ثلاثون جنيهاً في العام. فالرجاء من ج. أ. أن تبعث بشهاداتها المزكِّية، وباسمها، وعنوانها، وبمختلف التفاصيل إلى العنوان التالي:

مسز فيرفاكس، ثورنفيلد، قرب ميلكوت، إقليم...».

وأمعنت النظر في الرسالة، برهة طويلة. كان الخط عتيق الطراز، مضطرباً بعض الشيء، فكأنه خط سيدة عجوز. وكان في هذه الواقعة ما طمأنني. ذلك بأن خوفاً باطنياً كان قد استبدَّ بي وأوقع في نفسي أني، وقد خطوت هذه الخطوة من تلقاء ذاتي ومن غير ما إرشاد من أحد، غامرت مغامرة قد تُوقعني في ورطة ما، وكنت قد تمنيت قبل كل شيء أن تجئ ثمرة جهودي كريمةً، لا غبار عليها. فإذا بي أشعر الآن أن في وجود هذه السيدة العجوز في المنزل الذي سأعمل فيه عنصراً صالحاً يدعو إلى الارتياح. مسز فيرفاكس! لقد تخيلتها ترتدي ثوباً أسود وتعتمر بقبعة من قبعات الأرامل. إنها قد تكون جافية، ولكنها لن تكون قليلة الكياسة، بل سوف تكون نموذجاً للوقار الإنكليزي العريق. ثورنفيلد! لا ريب في أن هذا كان اسم بيتها، وهو موطن نظيف يسوده النظام. كنت واثقة من ذلك، وإن عجزتُ برغم جهودي كلها عن تخيُّل صورة واضحة للمكان. «ميلكوت، إقليم...»! ورحتُ أنقب في ذاكرتي التماساً لما علق فيها من جغرافية إنكلترا. أجل، لقد بصُرْت بهما. بصرت بالإقليم وبالمدينة جميعاً. كان الإقليم... أقرب إلى لندن من الإقليم القصي الذي كنت أقيم فيه الآن، بسبعين ميلاً. ولقد كان في ذلك بعض الخير لي. فقد تُقْتُ إلى المضي إلى حيث توجد حياةٌ وحركة، وكانت ميلكوت مدينة صناعية كبيرة قائمة على ضفّتي نهر آ... كانت مكاناً يمور بالنشاط، من غير ريب. وهل أطمع في شيء أفضل؟ سوف يمكّنني ذلك من تغيير وجه حياتي على الأقل. وقلت في ذات نفسي: «ليس معنى هذا أن خيالي كان أسير فكرة المداخن

الطويلة وسحائب الدخان، ولكن ثورنفيلد سوف يكون في أغلب الظن على مسافة كبيرة من المدينة».

وهنا لفظت الشمعة آخر أنفاسها، وانطفأ فتيلها.

وفي اليوم التالي كان علي أن أقوم بخطوات جديدة. لم يكن في إمكاني أن أبقي خططي مكنونةً في صدري، لقد تعيَّن عليّ أن أبوح بها لكي أكفل لها النجاح. وهكذا سعيت لمقابلة المديرة، خلال فرصة الظهيرة، حتى إذا تمَّ لي ذلك أنبأتها بأني قد أُوفق إلى الفوز بوظيفة جديدة تُتيح لي الحصول على ضِعف الراتب الذي كنت آخذُهُ حالياً (ذلك بأن راتبي في لو وود لم يكن يتجاوز خمسة عشر جنيهاً في العام)، وسألتها أن تُفاتح مستر بروكلهورست، أو أي عضو آخر من أعضاء اللجنة، بالمسألة، بالنيابة عني، وتستيقن هل يوافق على تزكيتي لدى المرجع الذي كان من المنتظر أن أعمل في خدمته، أم لا. فوافقت على القيام بمهمة الوساطة في هذه المسألة عن رضا وطيب خاطر. وفي اليوم التالي بَسَطت القضية لمستر بروكلهورست، فقال إنّ الموقف يوجب الكتابة إلى مسز ريد، بوصفها الوصيَّة الطبيعية علي. وهكذا وُجِّهت مذكرة إلى تلك السيدة، فكان جوابها «بأن في ميسوري أن أفعل ما أشاء، فقد أحجمت منذ عهد طويل عن أدنى التدخل في شؤوني». وعرضت هذه الرسالة على أعضاء اللجنة واحداً أثر واحد، وأخيراً، وبعد فترة خُيِّل إليّ أنها انطوت على تأخير ليس أدعى منه إلى الإملال مُنِحْتُ إذناً رسمياً بأن أحسِّن وضعي العام إذا استطعت، وأكدَّ لي أنني سوف أعطى تزكيةً لخُلْقي وكفاءتي، موقّعة من مفتشي معهد «لو وود»، تقديراً منهم لتمسُّكي الدائم – سواء بوصفي معلمة أو بوصفي طالبة – بأهداب النظام وحسن السلوك في تلك المؤسسة.

والواقع أني تلقيتُ هذه التزكية بعد شهر تقريباً، فقدَّمت نسخة منها إلى مسز فيرفاكس، وتلقيت جواب تلك السيدة وكان ينص على أنها ارتاحت لبياناتي، وأمهلتني أسبوعين لتولّي أعباء منصبي كمربية في بيتها.

عندئذ انصرفت بكلَيتي إلى إعداد العدّة للرحيل. وتقضّى الأسبوعان في سرعة. أنا لم أكن أملك مجموعة من الثياب ضخمة جداً، على الرغم من أن ما امتلكته منها كان وافياً بحاجتي، فإذا باليوم الأخير يتّسع لتوضيبها في حقيبتي – وهي الحقيبة نفسها التي كنت قد حملتها من غايتسهيد منذ سنوات ثمان.

وطُوِّقت الحقيبة بحبل، وثُبِّتَتْ على ظاهرها بطاقة تحمل اسمي، وكان مقرِّراً أن يفدَ الحمال بعد نصف ساعة لنقلها إلى لوتون، وأن أمضي أنا إلى هناك في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي للقاء المركبة. وكنت قد أعملت الفرشاة في ثوب سفري المخيط من قماش أسود، وأعدَدْتُ قبعتي وقفّازي وفروتي الخاصة بتدفئة الذراعين، وعاودتُ فتح أدراجي كلها لكي أستيقن من أنني لم أنس أيما شيء فيها. حتى إذا لم يبق لدي أيما عمل إضافي أقوم به جلست، وحاولت أن أنام، ولكني لم أستطع، أجل لم أستطع أن أنام لحظة واحدة، على الرغم من أني قضيت ذلك النهار كلّه واقفة على قدمي أو ساعية عليهما، فقد كنت منفعلة أكثر ممّا ينبغي. كانت صفحة من حياتي على وشك أن تخْتَم تلك الليلة، وكانت صفحة جديدة منها على وشك أن تفتح غداً، فمن المتعذّر عليّ أن أعرف النوم في الفترة الممتدة بينهما. إن عليّ أن أرقب، على نحو محموم، اكتمال ذلك التغيّر الذي كان يتّخذ سبيله إلى حياتي.

وقالت خادمة التقطني في المجاز حيث كنت أذرع المكان جيئة وذهاباً مثل روح قلقة: «في الدول الأسفل رجل يريد أن يراك، أيتها الآنسة».

وقلت في ذات نفسي: «إنّه الحمال، من غير ريب». ورحت أهبط السلّم على عجل، من غير أن أطرح أيما سؤال. وكنت أجتاز القاعة الخلفية – أو حجرة جلوس المعلمات، التي كان بابها نصف مفتوح – في طريقي إلى المطبخ، عندما انطلقت منه امرأة اعترضت سبيلي، وأمسكت بيدي، صائحة:

– «إنها هي، أنا واثقة من ذلك. لقد كان في إمكاني أن أعرفها حيثما وجدتها».

وأنعمتُ النظر إليها، فرأيت امرأة في زى خادمة حسنة البزّة. كانت ملابسها تلك جديرة بكهلة في خريف العمر، ومع ذلك فقد كانت ما تزال في ربيعه. وكانت وسيمة جداً، ذات شعر فاحم وعينين سوداوين، وبشرة ناضرة.

وتساءلتْ، في نبرة وبسمة عرفتهما نصف معرفة: «حسناً، من أنا؟ إنكِ لم تنسيني تماماً، في ما أعتقد، يا مس جين؟»

– «وما هي إلا ثانيةً أخرى حتى كنت أعانقها وأقبّلها في ابتهاج غامر: «بيسي! بيسي! بيسي!».

كان ذلك كلُّ ما قلتهُ، فما كان منها إلاّ أن أطلقت نصف ضحكة، وبكت نصف بكاء، ومضينا معاً إلى القاعة الخلفية. وهناك كان يقف إلى جانب المدفأة غلام صغير لا يتجاوز عمره الثالثة، وكان يرتدي بلوزة وبنطلوناً من نسيج صوفي مخطط.

وقالت بيسي على نحو مباشر: «هذا هو ولدي الصغير».

– «وإذن فقد تزوجتِ، يا بيسي؟»

– «أجل، منذ خمس سنوات تقريباً. وزوجي هو روبرت ليفن، سائق العربة. ولقد رُزِقت، بالإضافة إلى «بوبي» هذا بنتاً صغيرة دَعَوْتها جين».

– «وأنت لا تقيمين في غايتسهيد؟»

– «أنا أقيم في كوخ البواب. إنّ البواب القديم قد رحل».

– «حسن. وكيف حالهم كلهم؟ أخبريني كل شيء عنهم يا بيسي. ولكن اجلسي أولاً. وأنت يا بوبي، تعال واجلس على ركبتي، ما رأيك؟» ولكن بوبي فضَّل الانسلال نحو أمّه والالتصاق بها.

وتابعت مسز ليفن حديثها: «إنّك لم تبلغي من الطول مبلغاً عظيماً، يا جين، ولم يعرف جسمك مقداراً كافياً من البدانة. وإني لأجرؤ على الزعم أنهم لم يُعْنوا

بأمرك في المدرسة، عناية حسنة. إن كتفي مس ريد تبلغان مستوى رأسك، وإن جسم مس جورجيانا يبلغ عرضه ضِعف عرضك».

– «جورجيانا بهية الطلعة، في ما أحسب، أليس كذلك يا بيسي؟»

– «جداً. لقد ذهبت إلى لندن في فصل الشتاء الماضي مع أمها، وهناك كانت موضع إعجاب القوم كلهم. ولقد تدلَّه يحبها لورد غضّ الأهاب، ولكن أهله، عارضوا زواجه منها، فهل تدرين ماذا فعلا؟ لقد عقد هو ومس جورجيانا العزم على الهرب، ولكن أمرهما سرعان ما اكتشف، وبذلك حيل بينهما وبين الفرار. ولقد كانت مس أليزا هي التي اكتشفت الخطّة. وأنا أعتقد أنها فعلت ذلك بدافع من الغيرة والحسد. وهي الآن تحيا مع أختها وكأنّهما هرّ وكلب: إنهما تنفقان الوقت في شجار مستمر».

– «حسناً، وجون ريد؟»

– «أوه، إنه يسلك سلوكاً لا يتّفق مع ما تتمناه له أمه. لقد ذهب إلى كلية من الكليات، وهناك رسب – هذا هو التعبير الذي يستعملونه، أليس كذلك ؟ – في الامتحانات. ثم إن أخواله أرادوا له أن يصبح محامياً، وأن يدرس الحقوق. ولكنه فتى داعر إلى أبعد الحدود، وأحسب أنهم لن يُوفّقوا في أيما يوم من الأيام إلى جعله رجلاً ذا شأن».

– «وهيئته العامة، كيف هي؟»

– «إنه فارع الطول. وبعض الناس يعتبرونه شاباً وسيماً. ولكن شفتيه غليظتان جداً».

– «ومسز ريد؟»

– «إنّ السيدة تبدو بدينة، صحيحة الجسم. ولكني أحسب، أنها غير مرتاحة نفسيًّا. إن سلوك مستر جون لا يعجبها... إنه يبذّر المال تبذيراً».

– «أهي التي سألتك المجيء إلى هنا، يا بيسي؟»

– «أوه، لا، ولكن الشوق كان قد برّح بي إلى لقائك، وحين سمعت أن السيدة تلقت رسالة منك، وأنّك تعتزمين الرحيل إلى جزء آخر من البلاد خطر لي أن من الخير أن أنطلق لأكحل طرفي برؤيتك قبل أن تصبحي وراء متناولي تماماً».

– «أرجو أن لا تكون رؤيتي قد خيّبت ظنونك، يا بيسي»، قلت ذلك مستضحكة. فقد لاحظت أن نظرة بيسي كانت، برغم ما انطوت عليه من احترام، خلواً من أقل الإعجاب وأضأله.

– «لا، يا مس جين. ليس على وجه الضبط. إنك رفيعة التهذيب، وإن سيمات السيدات الكاملات لتبدو على وجهك. وهذا كل ما كنت أتوقعه لك دائماً. فأنت لم تكوني مليحة الوجه في عهد الطفولة».

وتقبّلت جواب بيسي الصريح بابتسامة: لقد شعرت بأنه كان صحيحاً، ولكني أقرُّ بأني لم أتلقّ مضمونه في لا مبالاة كاملة. ففي سن الثامنة عشرة ترغب الكثرة الكاثرة من الفتيات في انتزاع إعجاب الناس، وإقناعهنّ بأنهنّ لا يملكن مظهراً خارجياً متكافئاً مع هذه الرغبة يمكن أن يُوقع في نفوسهن كل المشاعر ما خلا الرضا والارتياح.

وتابعت بيسي، على سبيل التعزية: «في استطاعتي أن أقول، مع ذلك، إنّك بارعة. أي شيء تحسنين؟ هل تعرفين العزف على البيانو؟»

– «قليلاً».

وكان في الحجرة بيانو. فمضت بيسي وفتحته، ثم سألتني أن أستوي على كرسيه وأُسمعها لحناً. فعزفتُ فالساً أو فالسَيْن، فُتِنت بهما بيسي، فقالت متهلِّلة: «إن مس جورجيانا ومس أليزا تحسنان العزف إحسانك إيّاه! لقد قلت دائماً إنّك سوف تتفوّقين عليهما في ميدان العلم والثقافة. وهل تحسنين الرسم؟»

– «هي ذي لوحة من لوحاتي معلقة فوق المدفأة». كانت لوحة مائية تمثّل مشهداً من مشاهد الريف، لوحة كنت قد أهديتها إلى المديرة تقديراً مني لما تفضّلتْ به من التوسط لي عند لجنة المعهد. وكانت المديرة قد زجَّجتها وأحاطتها بإطار.

– «أوه، إنها لوحة رائعة، يا مس جين! إنّها لا تقل روعة عن أيّة لوحة من لوحات الأستاذ الذي يُعلّم مس ريد فن الرسم، فما بالك بلوحات الآنستين نفسيهما، تلك اللوحات التى تقصِّر عن مضاهاتها، وهل تعلَّمت الفرنسية؟»

– «أجل، يا بيسي، أنا أحسن قراءتها والتكلم بها».

– «وهل تحسنين الوشي على الموسلين والكانفا؟»

– «نعم».

– «إذن فأنت سيدة بكل ما في الكلمة من معنى، يا مس جين. ولقد كنتُ واثقة من أنك هكذا ستصبحين، ومن أنك سوف توفُّقين إلى النجاح سواء عنِي بك أهلك أم لم يُعْنَوا بك. وعلى أية حال، فهناك شيء كنت أريد أن أسألك عنه. هل قدِّر لك أن تسمعي أيما نبأ عن أسرة أبيك، آل ايير؟»

– «لم يقدّر لي ذلك في أي يوم من أيام حياتي».

– «حسن. إنك تعلمين أن سيدتي كانت دائماً تقول إنّهم قوم فقراء، وإنّهم حقيرون إلى أبعد الحدود. ومن الجائز أن يكونوا فقراء. ولكنني أعتقد أنهم لا يقلّون وجاهة عن آل ريد. ذلك بأن رجلاً يدعى مستر ايير وفد ذات يوم – وكان ذلك منذ سبع سنوات تقريباً – على غايتسهيد وطلب الاجتماع بك، فقالت له سيدتي إنَّك تتلقين العلم في مدرسة على مبْعدة خمسين ميلاً. فبدت على وجهه علائم الاستياء البالغ، إذ لم يكن بقادر على البقاء في الوطن، فقد كان يعتزم السفر إلى بلد أجنبي، وكان من المقرر أن تُقلع السفينة من لندن خلال يوم أو يومين. كان مظهره مظهر سيد من كرام القوم، وأنا أعتقد أنه كان عمك أخا أبيك».

– «إلى أي بلد أجنبي كان مسافراً، يا بيسي؟»

– «إلى جزيرة نائية تقع على مبعدة آلاف الأميال، حيث يصنعون الخمر، كما أخبرني كبير الخدم».

فقلت: «لعلها ماديرا»!

– «أجل، ماديرا – هذه هي الكلمة بعينها».

– «وإذن فقد ارتحل؟»

– «أجل. لم يمكث، في البيت غير دقائق معدودات. فقد استقبلته سيدتي استقبالاً جافاً راشحاً بالتعالي والتكبُّر، ولقد نعتته بعد ذلك بـــ «التاجر الخسيس». ويعتقد زوجي روبرت أنه كان تاجر خمر».

فقلت: «محتمل جداً. ولعله موظف عند تاجر خمر أو وكيل من وكلاء أحد المتاجرين بالخمر».

وتحدثت أنا وبيسي، ساعة إضافية، عن الأيام الخالية، ثم اضطرت إلى مفارقتي. ولقد رأيتها مرة أخرى، طوال بضع دقائق، صباح اليوم التالي في لوتون، فيما كنت أنتظر المركبة. وقد افترقنا نهائياً عند باب نُزُل «أسلحة بروكلهورست» هناك، فمضت هي لسبيلها ومضيتُ أنا لسبيلي. لقد اتجهتْ إلى أعلى هضبة لو وود لكي تستقلّ العربة القاصدة إلى غايتسهيد. وامتطيت أنا متن المركبة التي كان مفروضاً فيها أن تقودني إلى واجبات جديدة وإلى حياة جديدة في ضواحي ميلكوت المجهولة.

[11]

إنّ كل فصل جديد في رواية ما هو أشبه شيء بمشهد جديد في مسرحية من المسرحيات. وحين أرفع الستارة هذه المرة، أيها القارئ، يتعيّن عليك أن تتخيُّل حجرة في نزل جورج في ميلكوت مزدانة الجدران بذلك الورق المصوّر الذي تغطّى به جدران الفنادق عادة، وأن تتخيل أن في تلك الحجرة سجادة، وأثاثاً، وبعض أسباب الزينة الموضوعة على المدفأة، ورسوماً فنية في جملتها لوحة لجورج الثالث وأخرى للبرنس أوف ويلز وصورة تمثل وفاة وولف. وكل ذلك إنّما يتجلّى لناظريك على ضوء مصباح زيتي متدلٍّ من السقف، وضوء نار حسنة الضِّرام جلست أنا في جوارها مرتدية معطفي ومعتمرة بقبعتي. كانت مظلتي وفروة ذراعيَّ مُلقاتين على الطاولة، وكنت أحاول أن أتغلّب على الخدر والقشعريرة اللذين استبدّا بي إثر تعرُّضي ست عشرة ساعة لرطوبة ذلك اليوم الأكتوبري وبرده القارس. لقد غادرت لوتون في الساعة الرابعة صباحاً، وكانت ساعة مدينة ميلكوت تدق الآن معلنةً الثامنة مساء.

صحيح أني كنت، أيها القارئ، محاطةً بأسباب الرفْه كلها ولكن نفسي لم تكن تنعم بكثير من الطمأنينة. فقد حسبت حين وقفت العربة هنا أن امرئ ما سوف يستقبلني، فرحت أجيل الطرف في ما حولي، في كثير من اللهفة والقلق، بينا كنت أهبط الدرجات الخشبية التي وضعها خادم الفندق لتمكيني من الترجُّل في غير انزعاج، متوقعة أن أسمع صوتاً يناديني باسمي وأن ألمح عربة ما، تنتظرني لتقلّني إلى ثورنفيلد. ولكني لم أوفّق إلى أيما شيء من ذلك، وعندما سألت أحد النُدال هل سأل أحد عن فتاة تدعى الآنسة ايير، أجابني بالنفي. وهكذا لم يعد لي مناص من أن

أطلب إلى النادل أن يقودني إلى حجرة خاصة، وها أنا ذي أنتظر، فيما تعصف بأفكاري ضروب الشكوك والمخاوف على اختلافها.

إنه لإحساسٌ غريب جداً، بالنسبة إلى فتاة غرَّة ساذجة أن تستشعر أنها وحيدة في هذا العالم، معزولةً عن أفراد أسرتها جميعاً، غير متأكدة من أنها سوف توفّق إلى بلوغ الموطن الذي قصدت إليه، وغير قادرة بسبب من عوائق كثيرة على العودة إلى الموطن الذي فارقته. إن سحر المغامرة ليجعل ذلك الإحساس عذباً سائغاً، وإنَّ وهج الكبرياء ليوقع الدفء فيه. ولكن رعدة الخوف يمكن أن تكدِّره، وكان الخوف قد غلب آنذاك علي، بعد أن تصرَّمت ثلاثون دقيقة وأنا لا أزال وحيدة. وأخيراً وطنت العزم على قرع الجرس.

وسألت النادل الذي لبّى ندائي: «هل يوجد في ضواحي هذه المدينة مكان يدعى ثورنفيلد؟»

– «ثورنفيلد؟ لست أدري، يا سيدتي. سوف أسأل المكلَّف المَشْرَب».

قال ذلك ثم توارى عن ناظري، ولكنه ما لبث أن عاد إلى الظهور في الحال وسألني: «هل اسمك ايير، أيتها الآنسة؟»

– «نعم».

– «إن ثمة شخصاً ينتظرك عندنا».

ووثبتُ، وتناولت فروة ذراعيَّ ومظلّتي، وهرعت إلى رواق الفندق. فألفيت رجلاً واقفاً على مقربة من الباب المفتوح، وعلى ضوء مصباح الشارع لمحت عربة ذات جواد واحد.

وحين بَصُرَ بي ذلك الرجل قال في شيء من الخشونة وهو يشير إلى حقيبتي التي كانت في الرواق: «هذه هي أمتعتك، في ما أحسب؟»

– «أجل».

وحمل الرجل الحقيبة ووضعها في العربة، التي كانت ضرباً من المركبات ذوات العجلتين. وبعد ذلك امتطيت أنا متنها. وقبل أن يُوصد الباب خلفي سألته كم تبعد ثورنفيلد عن ذلك المكان؟

- «نحواً من ستة أميال».

- «وكم ساعة تستغرق رحلتنا إلى هناك؟»

- «ساعة ونصف، تقريباً».

وأغلق باب العربة، وصعد متخذاً مقعده الخارجي، وانطلقنا. لقد مضت بنا العربة في تؤدة، متيحةً لي فرصة واسعة للتفكير. لقد أبهجني أن تشرف رحلتي آخر الأمر، على نهايتها. وفيما كنت مسترخيةً في العربة المريحة، برغم بُعْدها عن الأناقة، أطلقت العنان لتأمّلاتي.

لقد قلت في ذات نفسي: «يخيّل إليّ، على أساس من بساطة الخادم والعربة، أن مسز فيرفاكس ليست امرأة مسرفة في الإنفاق، وذلك أفضل على كل حال، فأنا لم أعش إلاَّ مرة واحدة مع قوم أغنياء، ولقد كنت شديدة التعاسة بين ظهرانيْهم. تُرى هل تحيا هي وتلك الفتاة الصغيرة منفردتين؟ وإذا كان ذلك كذلك وإذا كانت قريبة إلى النفس بعض الشيء فلا ريب في أني سوف أوفّق إلى الانسجام معها. إني سوف أبذل غاية جهدي، وأنه لمن المحزن أن لا يؤدِّي بذل المرء غاية جهده إلى ثمرة ما، في كثير من الأحيان. لقد اتّخذت، في لو وود، مثل هذا القرار، والتزمته التزاماً دقيقاً، فوفقت إلى انتزاع رضا الجماعة وإعجابها. أما مع مسز ريد فأنا أذكر أن جهودي كانت تقابل بالازدراء على نحو موصول. وإني لأضرع إلى الله أن لا تتكشف مسز فيرفاكس عن مسز ريد جديدة. أما إذا فعلَت فعندئذ لن يكون ثمة ما يكرهني على البقاء في خدمتها. ليحدُثْ أسوأ ما يمكن أن يحدث، ففي ميسوري في مثل هذه الحال أن أنشر إعلاناً جديداً. تُرى، ما المسافة التي اجتزناها حتى الآن؟»

وأنزلتُ زجاج النافذة، وأطللت منها: كانت ميلكوت وراءنا. ومن عدد المصابيح استنتجتُ أنها مدينة مترامية الأطراف، مدينة أكبر من لوتون بكثير. كنا الآن، بقدْر ما استطعت أن أرى، نجتاز حديقة عامة، ولكن كانت ثمة بيوت متناثرة في أرجاء البقعة كلها. لقد استشعرت أننا كنا في منطقة مختلفة عن لو وود. منطقة أكثر اكتظاظاً بالسكان ولكنها أقلّ جمالاً، وأكثر حيوية ولكنها أقل رومانتيكية.

كانت الطرق وعرة، وكان الليل مثقلاً بالضباب. وترك الحوذي جواده يمشي الهُوَينا، فإذا بالساعة ونصف الساعة يتطاولان ليصبحا – في ما أعتقد – ساعتين اثنتين. وأخيراً استدار من على مقعده وقال:

– «أنت غير بعيدة، الآن، عن ثورنفيلد».

وأطللت من النافذة، كرة أخرى. كنا نجتاز الآن كنيسة، ولقد رأيت برجها المنخفض العريض بارزاً في السماء، وسمعت ساعتها تدق دقّة الرُّبع. ورأيت إلى ذلك «مَجرّة» ضيقة من الأضواء، فوق سفح هضبة، فعلمت أن ثمة قرية أو دسكرة. وبعد عشر دقائق ترجَّل الحوذي وفتح مصراعي باب، حتى إذا اجتزناهما سمعناهما يصطفان من ورائنا. وصعَّدنا الآن تصعيداً وانياً في أحد الممرات، حتى انتهينا إلى بيت ذي واجهة طويلة. كان ضوء شمعة يرشح من قمْرية مسدلة الستارة، على حين كان الظلام يرين على سائر المكان. ووقفت العربة عند الباب الأمامي. وفتحت خادمةٌ ذلك الباب، فترجلتُ ودخلت.

وقالت الفتاة: «هل لك أن تسيري من هنا، يا سيدتي؟» وتبعتُها عبر ردهة مربّعة تطوقها جدران عالية، ثم أدخلتني إلى حجرة بهرت بصري بادئ الأمر بضيائها المزدوج المنبعث من نار وشموع، وهو ضياء متغاير كل التغاير مع الظلمة التي أَلِفَتْها عيناي طوال ساعتين من الرحلة. حتى إذا استعاد ناظراي قدرتهما على الإبصار تبدّى لي مشهد أنيق مستساغ.

لقد رأيت حجرة صغيرة حسنة الترتيب، ومائدة مستديرة على مقربة من نار بهيجة، وكرسياً ذا ذراعين عالي الظهر عتيق الطراز استوت عليه عجوز ضئيلة

الجسم يعجز الخيال عن تصوّر امرأة أكثر منها نظافة. وكانت هذه العجوز تعتمر بقبعة من قبعات الأرامل، وترتدي ثوباً حريرياً أسود ومئزراً من الموصلين ثلجيّ البياض، وكانت على وجه الضبط أشبه بالصورة التي تمثلتها بخيالي لمسز فير فاكس، إلا أنها أقل جلالاً وأكثر وداعة. كانت منهمكة في الحبك، وكانت هرة ضخمة تجلس عند قدمها في رصانة. وبكلمة موجزة، لم يكن يعوز تلك الحجرة شيء تكتمل به هذه اللوحة التي تصور المثل الأعلى في الرّفه المنزلي. وأحسب أنه ليس في الإمكان تخيُّل مقدَّمة توقع الطمأنينة في نفس أيما مربية جديدة أكثر من هذه المقدمة: لم يكن ثمة فخامة تُذْهل، ولا أبُّهة ترْبك. وإلى هذا، فإني ما كدت أدخل حتى نهضت السيدة العجوز، وتقدّمت لاستقبالي في لهفة ولطف.

– «كيف حالك، يا عزيزتي؟ إني أخشى أن تكون الرحلة إلى هنا قد أضجرتك، ذلك أن جون يقود عربته في بطء شديد. ولا ريب في أنك مقرورة، فاقتربي من نار المدفأة».

فقلت: «مسز فيرفاكس، في ما أحسب؟»

– «نعم. لست مخطئة. اجلسي».

وقادتني إلى كرسيها، لم شرعتْ تنزع عني شالي وتحلّ أشرطة قبعتي. ورجوتها أن لا تكلّف نفسها هذا العناء كله فقالت: «أوه، ليس هذا بعناء. إني لأجرؤ على القول إنّ يديك خدرتان من شدّة البرد. أعدّي، يا ليبا، قليلاً من شراب النيغوس الحار وشطيرة أو شطيرتين. دونكِ مفاتيح مخزن الأطعمة».

قالت ذلك وأخرجت من جيبها مجموعة من مفاتيح ليس ثمة ما هو أليق منها بربة بيت نموذجية، وقدّمتها إلى الخادمة.

ثم أنها إستأنفت حديثها: «والآن، اقتربي من النار أكثر مما فعلت. لقد اصطحبت أمتعتك، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

– «نعم، يا سيدتي». وغادرت الغرفة في خفّة ونشاط.

وقلت في ذات نفسي: «إنها تعاملني معاملة الزائرة. والواقع أني لم أكن أتوقع مثل هذا الاستقبال، إلاّ قليلاً. لقد توقعتُ برودة وخشونة ليس غير. إنّ هذه المعاملة لا تشبه ما كنت قد سمعته عن معاملة الناس للمربيات. ولكن يتعيّن علي أن لا أبتهج بأسرع مما ينبغي».

ثم إنها عادت. وبيديها الاثنتين رفعت عن المائدة أدوات حبكها وكتاباً أو كتابين لكي تفسح مجالاً للصينية التي جاءت بها «ليبا» في أعقابها، ثم قدّمت إلي الشراب والطعام بنفسها. وارتبكت بعض الشيء إذ وجدت نفسي موضع رعاية لم يسبق لي أن أُحِطْتُ بمثلها من قبل، ومن جانب من؟ من جانب مستخدمتي ورئيستي. ولكن لما كانت هي نفسها لا تعتبر، في ما بدا لي، أنها تقوم بأيام عمل استثنائي فقد رأيت من الخير أن أتقبّل مجاملاتها هذه في هدوء.

وسألتها بعد أن تناولت شيئاً ممّا قدّمته إلي: «هل سيقدّر لي أن أسعد برؤية مس فيرفاكس الليلة؟»

فأجابتني السيدة الطيبة وهي تقرِّب أذنها من فمي: «ماذا قلتِ، يا عزيزتي؟ إني أشكو بعض الصمم».

فكررت السؤال على نحو أشد وضوحاً، فقالت: «مس فيرفاكس؟ أوه، أنت تعنين مس فاريتز! فاريتز هو اسم طالبتك المقبلة».

– «حقاً! وإذن فإنها ليست بنتك؟»

– «لا، فليس لي أولاد.

وكان الطبيعي أن أُتبع سؤالي الأول بالسؤال عن صلة النسب بينها وبين مس فاريتز، ولكني تذكّرت أنّه ليس من الكياسة أن أسرف في طرح الأسئلة. وإلى هذا، فقد كنت واثقة من أنني سوف أعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً.

وتابعت تقول وهي تجلس قبالتي واضعة الهرّة على ركبتها: «أنا سعيدة جداً، سعيدة جداً بمجيئك. إنّ الحياة سوف تطيب لي هنا، منذ اليوم، مع رفيق مؤنس.

إنها ولا ريب طيبة في كل آن، ذلك بأن ثورنفيلد قصر عتيق رائع، قد يكون أَهمل في السنوات الأخيرة ولكنه لا يزال موطناً محترماً. ومع ذلك فأنت تعلمين أن الوحدة، حتّى في أفخم القصور، توقع في نفس المرء بعض الوحشة خلال شهور الشتاء. أقول الوحدة – إن «ليبيا» فتاة لطيفة من غير ريب، وجون وزوجته قوم لا غبار عليهم، ولكنهم كما ترين مجرد خدم، وليس في ميسور المرء أن يتحدّث إليهم على قدم المساواة: إنّ عليه أن يبقيهم على مسافة كافية خشية أن يفقد هيبته وسلطانه. وأستطيع أن أقول في كثير من الثقة إنّه في الشتاء المنصرم (لقد كان شتاء قاسياً جداً، إذا كنت تذكرين، لم ينقطع ثلجه – أو يكد – عن السقوط، حتى إذا اتفق أن انقطع يوماً، هطل المطر وهبَّت الرياح) لم يفد على القصر أيما مخلوق غير الجزار وساعي البريد، من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى شباط (فبراير)، ولقد غلبت عليّ الكآبة حقاً إذ رأيت إلى نفسي أسلخ الليلة تلو الليلة منفردة وحيدة. كنت أسأل «ليبيا» أن تقرأ لي في بعض الأحيان، ولكني لا أحسب أن تلك الفتاة المسكينة أحبّت هذه المهمة كثيراً. لقد وجدتْ فيها معنى الحبس وتقييد الحرية. أما الربيع والصيف فالحياة فيهما أدعى إلى الإمتاع: إن أشعة الشمس والأنهار الطويلة لتُشْعِرك بأن تغيّراً كبيراً قد حدث. وإلى هذا، ففي مطلع هذا الخريف بالذات وفدت آديلا فارينز الصغيرة وحاضنتها. إنّ الأطفال ليبعثون الحياة في البيت، فجأة، أما وقد أقبلتِ أنت أيضاً فلا ريب عندي في أن البهجة سوف تغمر فؤادي».

والحق أن قلبي أنِس إلى السيدة الجليلة حين سمعتها تتحدّث. وأدنيت كرسي منها، بعض الشيء، وعبَّرت عن رغبتي الصادقة في أن تجد صحبتي سائغة كما توقَّعَتْ.

وقالت: «ولكني لن أبقيكِ ساهرة، الليلة، حتى وقت متأخر. ها هي ذي الساعة تدق معلنة الثانية عشرة، ولقد سلختِ النهار كله في سفر طويل، ولا ريب أنّك متعبة. فإذا كانت قدماك قد عرفتا الآن قدراً كافياً من الدفء فسوف أقودك إلى حجرة نومك. لقد سألتهم أن يعدّوا لك الحجرة الملاصقة لحجرتي. صحيح أنها غرفة صغيرة، ولكني أُعتقدت أنك ستفضلها على الحجرات الأمامية الرحيبة. لا

ريب في أن أثاثها أغنى، ولكنها موحشة جداً، منعزلة جداً، إلى درجة جعلتني أنا نفسي لا أنام فيها البتة».

فشكرتها على اختيارها الحصيف، وإذ كنت أستشعر الإرهاق، فعلاً، بعد رحلتي الطويلة، فقد عبَّرتُ عن استعدادي للإيواء إلى الفراش. فما كان منها إلاّ أن حملت شمعتها وغادرت الحجرة، وأنا أمضي في أثرها. لقد ذهبت أولاً لتستيقن من أن باب الردهة مغلق بالمزلاج. حتى إذا نزعت المفتاح من القفل ارتقت السلم أمامي. كانت الدرجات والدرابزين من خشب السنديان، وكانت نافذة السلَّم عالية ذات شَعْرية. وكانت هذه النافذة والشرفة الطويلة المفضية إلى أبواب حجرات النوم تبدوان أليَقَ بكنيسة منهما ببيت. كان هواء بارد جداً شبيه بهواء السراديب يتخلَّل السلم والشرفة، ويوحي بمعانٍ من الاتساع والعزلة بغيضة. وابتهجت آخر الأمر عندما اكتشفت، وقد أُدْخِلْتُ إلى حجرتي، أنها غير مترامية الأطراف، وأنها ذات أثاث عصري عادي.

حتى إذا تمنَّت لي مسز فيرفاكس ليلة طيبة، وأحكمتُ أنا إغلاق باب غرفتي، أجلت بصري في ما حولي في سكينة وهدوء. كان مشهد غرفتي الصغيرة الأكثر إبهاجاً قد محا، إلى حد ما، الانطباعة المرعبة التي أوقعتها في نفسي تلك الردهة الرحيبة، وتلك السلم العريضة المظلمة، وتلك الشرفة الطويلة الباردة، وتذكُّرت أنني، بعد يوم كامل من التعب الجسدي والقلق النفسي، قد أويت آخر الأمر إلى مَفْزِع آمن. وفاض فؤادي بعرفان الجميل، فركعت على مقبة من السرير، ورفعت آيات الشكر إلى مَن هو حقيقٌ بالشكر، غير ناسية، قبل أن أنهض، أن أسأله العون على اجتياز سبيلي المقبلة، والقدرة على إثبات أهليتي للفضل الذي أغدق عليّ قبل أن آتي أي عمل يجعلني جديرة به. ولم يكن مضجعي حافلاً بالأشواك هذه الليلة، ولم تعرف المخاوف سبيلاً إلى غرفتي الصغيرة المنعزلة. وإذ كنت متعبة ومستبشرة في آن معاً، فسرعان ما استسلمت لنوم عميق. حتّى إذا استيقظت كان النهار قد ارتفع.

وبدت الغرفة في ناظري – عندما تألقت الشمس من بين ستائر النافذة المخيطة من شيت ملوِّن أزرق زاه، كاشفة عن جدران مغطاة بالورق المصوّر، وعن أرض مفروشة بالسجاد... أقول بدت الغرفة في ناظري موطناً صغيراً بالغ الإشراق، مختلفاً كل الاختلاف عن أرضية لو وود الخشبية العارية وخصها المتّسخ. وابتهجت نفسي بهذا المشهد. والواقع أن للمظاهر الخارجية أثراً عظيماً في نفوس الصغار، وهكذا تراءى لي أن عهداً جميلاً من عهود حياتي قد أهلّ، فترة كان مقدّراً لها أن تكون زاخرة بالرياحين والمسرّات، وبالأشواك وضروب الكدح في آن معاً. وبدت مَلَكاتي متوفرة كلها، بعد أن أثارها تغيُّر المنظر وهذا الحقل الجديد الزاخر بالأمل. وليس في ميسوري أن أعيِّن على وجه الضبط ما الذي توقَّعَتْهُ، ولكنه كان شيئاً ساراً قد لا يتمّ اليوم أو بعد شهر، إلا أنّه لا بد أن يتم في فترة غير محددة من المستقبل.

نهضت، وارتديت ملابسي في عناية. صحيح أني كنت مضطرة إلى اصطناع البساطة، إذ لم أكن أملك غير ملابس مَخِيطة بأقصى قدر من السذاجة، ولكني كنت بالفطرة شديدة الحرص على الظهور بمظهر أنيق. أنا لم أتعود في يوم من الأيام عدم المبالاة بمظهري، أو بالانطباعة التي أُخلِّفها في نفوس الناس. على العكس، كنت أرغب دائماً في أن أبدو على أحسن وجه أستطيعه، وفي أن أنتزع إعجاب معارفي بقَدْر ما يجيز لي افتقاري إلى الجمال. وكان الأسى يستبدّ بي في بعض الأحيان لأني لم أكن أكثر وسامة: لقد تمنيت أحياناً لو تكون لي وجنتان متوردتان، وأنف مستقيم، وفم صغير أحمر كحبة كرز. لقد تمنيت لو كنت فارعة الطول، مهيبة، ذات جسد متناسق النمو. واستشعرت أن من سوء الطالع أني كنت ضئيلة الجسم شاحبة الوجه إلى أبعد الحدود، وقَسماتي غريبة جداً، صارخة جداً. ولكن علام اعتلت في وجداني هذه التطلُّعات والتحسُّرات كلها؟ من العسير عليَّ أن أعلل ذلك: لقد عجزت آنذاك عن تعليله لنفسي على نحو واضح، ومع ذلك فقد كان لدي مبرر. ولقد كان هذا المبرر طبيعياً ومنطقياً أيضاً. بيد أني ما إن سرحت شعري تسريحاً جعله شديد الصّقال، وارتديت ثوبي الأسود – الذي كان

برغم شبهه بملابس الكويكريين يمتاز على الأقل بأنه منسجم مع تقاطيع جسمي – ولبست صُدَيريتي النظيفة البيضاء، حتى وقع في نفسي أن مظهري لائق إلى درجة تمكنني من المثول بين يدي مسز فيرفاكس، وأن تلميذتي الجديدة لن تنفر مني، على الأقل، حين تقع عيناها عليَّ، وبعد أن فتحت نافذة غرفتي، وألقيت نظرة خاطفة استيقنت بها أن كلّ ما على منضدة الزينة مرتّب ونظيف، استجمعت شجاعتي وغادرت الغرفة.

حتى إذا اجتزتُ الشرفة الطويلة المفروشة أرضها بالحُصُر هبطت درجات السلم السنديانية الزلقة، ثم مضيتُ إلى الردهة، حيث تريَّثت دقيقةً لكي أنظر إلى بعض الصور المعلقة على الجدران (كانت إحداها في ما أذكر تمثّل رجلاً كالح الوجه لابساً درعاً، وتمثّل الأخرى سيدة ذات شعر منضوح بالذرور وعقد من لؤلؤ)، وإلى مصباح برونزي متدلٍ من السقف، وإلى ساعة جدار ضخمة صُنع صندوقها من خشب سنديان حُفِرت عليه نقوش غريبة وأحال الزمن وتكرارُ الصقل لونه إلى أسود أبنوسي. لقد بدا لي كل شيء جليلاً جداً يوقع المهابة في النفس، ولكني كنت آنذاك بعيدة كلّ البعد عن تعوُّد الفخامة. كان باب الردهة، نصف الزجاجي، مُشرعاً فتخطيت عتبه. وكان ذلك اليوم يوماً خريفياً جميلاً، وكانت شمس الصباح ترسل أشعتها الرائعة على الغياض المسمَّرة والحقول الرافلة، ما تزال، بكسائها الأخضر. وسرت بضع خطوات فوق الأرض الخضرة، لم رفعت بصري وسرَّحته في واجهة القصر. كان مؤلفاً من أدوار ثلاثة غير بالغة الضخامة وإن تكن على شيء من الاتساع: كان أشبه ببيت ريفي لسيد ماجد منه بمقر نبيل من النبلاء، وكانت الشرفات التي تطوق ذروته تخلع عليه ثوباً من الحسن. وكانت واجهته الرمادية تشمخ أمام خلفية من خمائل راحت زيغانها[1] الناعبة تحلّق الآن في الفضاء: لقد طارت فوق الأرض الخضِرة والبقاع المجاورة لتحطّ بعد ذلك فوق مرجة واسعة مطوّقة بسياج خفيض. وعلى مقربة من هذا السياج نهض صفّ من أشجار جبارة عتيقة شائكة، تتميز بالقوة وبكثرة العقد، وتشبه في ضخامتها شجرات السنديان. وقد كشفت لي هذه الأشجار الشائكة، لأول وهلة، عن أصل الاسم الذي

خلع على القصر[2] وأبعد بعض الشيء، ارتفعت هضاب لم تكن شامخة شموخ تلك المحيطة بلو وود، ولا حافلة مثلها بالصخور الخشنة الناتئة، أو شبيهة بحواجز عالية تفصلك عن عالم الأحياء، ومع ذلك فقد كانت هضاباً وادعة متوحّدة، ولقد بدت وكأنها تكتنف ثورنفيلد بعزلة ما كنت أتوقع أن أجدها على مثل هذه المقربة الدانية من مدينة ميلكوت الزاخرة بالنشاط والحياة. وعلى سفح إحدى هذه الهضاب ظهرت دسكرة صغيرة تمازجت سطوحها بالأشجار. وكانت كنيسة المنطقة أقرب إلى ثورنفيلد منها إلى الدسكرة. وكان برجها العتيق يقوم خلْفَ رابية بين القصر وبوابته الخارجية.

(1) الزاغ غراب صغير ريش ظهره وبطنه أبيض.

(2) تقصد أن القصر سمي ثورنفيلد Thrnfield لكثرة الأشجار الشائكة Thorn-trees النامية في جواره. (المعرب)

كنت لا أزال أستمتع بالمشهد الساجي والهواء العليل، وأصغي في ابتهاج إلى نعيب الزيغان، وأسرِّح طرفي في واجهة القصر الشائبة، وأفكر قائلة في ذات نفسي إن هذا المكان أضخم بكثير من أن تقطنه سيدة ضئيلة الجسم متوحدة مثل مسز فيرفاكس، عندما. برزت تلك السيدة لدى الباب وقالت: «ماذا! أفي الخارج والصباح لمَّا يتنفَّس بعد؟ يبدو لي أنك ممن يبكرون النهوض من الفراش».

وتقدّمت نحوها، فاستقبلتني بقبلة بشوش، وصافحتني متسائلة:

«كيف وجدت ثورنفيلد؟»

فأجبتها قائلة: «إني معجبة به أعظم الإعجاب».

فقالت: «أجل، إنه موطن ظريف، ولكني أخشى أن يضطرب أمره عمّا قريب. والواقع أن حال القصر لن تستقيم إلاّ إذا وطّن مستر روتشيستر العزم على المجيء والاستقرار فيه، أو على الأقل إلاً إذا أكثر من الاختلاف إليه بين فترة وأخرى. إن البيوت الكبيرة وما ينبسط أمامها من أراضٍ فاتنة لتتطلبُ إقامة مالكها فيها».

فهتفت: «مستر روتشيستر! من هو مستر روتشيستر؟»

فأجابت في سكينة: «مالِك ثورنفيلد. أما كنتِ تعلمين أنه يُدعى روتشيستر؟»

ولم أكن أعلم، طبعاً، فأنا لم أسمع به قط من قبل. ولكن السيدة العجوز بدت وكأنها تعتبر أن وجوده حقيقة يعرفها الخاص والعام، ويتعيَّن على كلّ امرئ أن يدركها بالغريزة.

وأردفت: «لقد حسبتُ أن قصر ثورنفيلد مِلْكك».

– «ملكي أنا؟ فليباركك الله يا صغيرتي! أيّة فكرة غريبة! ملكي أنا؟

أنا لست أكثر من مدبرة لشؤون القصر، لست غير المرأة المكلّفة بإدارته. ولا ريب في أن صلة قربى بعيدة تجمعني، من جهة أمي، بآل روتشيستر، أو تجمع زوجي بهم على الأقل. لقد كان قسيساً، كان راعي «هاي» – تلك القرية الصغيرة القائمة هناك فوق الهضبة – وكانت هذه الكنيسة القريبة من بوابة القصر الخارجية هي كنيسته. لقد كانت أمُّ روتشيستر الحالي من آل فيرفاكس، وكانت بنت عمّ زوجي كلالةً(1). ولكنني لا أحاول استغلال هذه القرابة البتّة، والواقع أنها ليست عندي بشيء. أنا أعتبر نفسي مجرّد مدبرة منزل عادية. إنّ مستخدمي ليعاملني دائماً في كياسة ولطف، وأنا لا أتوقع أكثر من ذلك على الإطلاق».

(1) أي من الدرجة الثانيةsecond cousin. (المعرب)

– «والفتاة الصغيرة... تلميذتي؟»

– «إنها يتيمة قاصرة تحت وصاية مستر روتشيستر، ولقد عهد إليَّ في البحث عن مربية لها. وهو يعتزم أن ينشئها هنا، في إقليم... على ما أعتقد. ها هي ذي مقبلة، خادمتها bonne كما تسمي حاضنتها».

عندئذ انحلّ اللغز: إن هذه الأرملة الضئيلة الجسم، البشوشة، الكريمة، لم تكن سيدة أرستقراطية، بل امرأة مستخدمة مثلي. ولم ينقص حبي لها، بسبب من ذلك.

على العكس، لقد استشعرت الرضا يُداخلني أكثر من أيما وقت مضى. كانت المساواة بيني وبينها حقيقة، ولم تكن ثمرة تلطُّف أو تنازل من جانبها. وهذا خير وأبقى، لأن موقفي أمسى الآن أكثر تحرراً.

وفيما كنت أتأمل هذا الاكتشاف، أقبلتْ فتاةً صغيرة تعدو فوق الأرض الخضِرة، تتبعها حاضنتها. وألقيتُ نظرة على تلميذتي التي بدا أنها لم تقطن بادئ الأمر لوجودي. كانت طفلة صغيرة حقاً، ربما في السابعة أو الثامنة من العمر، نحيلة البنية، ذات وجه شاحب صغير القسمات، وشعر أثيث يتدلّى حلقات حتى خصرها.

وقالت مسز فيرفاكس: «طاب صباحك، يا مس آديلا. تعالي وتحدّثي إلى السيدة التي ستنهض بمهمة تعليمك وجعْلِكِ امرأة بارعة في يوم من الأيام».

واقتربت الطفلة، وقالت بالفرنسية، مشيرة إلي، مخاطبة حاضنتها:

«أهذه هي مربيتي؟»

فأجابتها الحاضنة، بالفرنسية أيضاً: «نعم، من غير ريب».

وتساءلتُ أنا، وقد ذهلت لدى سماعي اللغة الفرنسية: «أهما أجنبيتان؟»

– «الحاضنة أجنبية، وآديلا وُلِدت في أوروبا القاريَّة. وأحسب أنها لم تفارق تلك الديار إلاّ منذ أشهر ستة. ولم تكن، يوم وفدت أول ما وفدت إلى هنا، بقادرة على الكلام بالإنكليزية، أما الآن فقد أمسى في استطاعتها أن تحتال على النطق بها، بعض الشيء. أنا لا أفهم ما تقول، إنها تمزجه بكثير من الألفاظ الفرنسية، ولكنك سوف تقدرين على فهم ما ترمي إليه فهماً حسناً، كما يُخيّل إليّ».

وكان من حسن حظي أن الأقدار شاءت أن أتعلّم اللغة الفرنسية على سيدة فرنسية. وإذ كنت قد حرصت، دائماً، أشد الحرص على التحدث إلى مدام بييرو، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وإذ كنت فوق هذا قد أخذت على نفسي، خلال السنوات السبع الأخيرة، بأن أحفظ كل يوم نصاً فرنسياً – باذلةً قصارى جهدي لتقويم

نبرتي، ومحاكيةَ أقصى ما تكون المحاكاةُ طريقة معلمتي في النطق – فقد انتهت معرفتي بهذه اللغة إلى درجة من الطلاقة والصحة جعلتني خليقةً بأن لا أستشعر كبير ارتباك عند التحدّث إلى الآنسة آديلا. وتقدمتْ وصافحتني عندما علمت أني مربِّيتها. حتى إذا قُدْتها لتناول الفطور وجهت إليها بضع جمل في لغتها الأم. ولقد أجابت في اقتضاب بادئ الأمر، ولكن ما إن جلسنا إلى المائدة، وأنفقتْ نحو عشر دقائق وهي تتأملني بعينيها الكبيرتين الشبيه لونهما بلون البندق، حتى شرعت تلغو في طلاقة.

لقد صاحت بالفرنسية: «آه، أنت تتكلمين لغتي بمثل براعة مستر روتشيستر في النطق بها. ولسوف يكون في استطاعتي أن أتحدث إليك كما أتحدث إليه، وسيكون في استطاعة «صوفي» أن تفعل ذلك أيضاً. إن هذا سوف يُسعدها. إن أحداً هنا لا يفهم ما تقول، فمدام فيرفاكس إنكليزية خالصة. و «صوفي» هي حاضنتي. لقد عبرت البحر معي على متن سفينة كبيرة ذات مدخنة تنفث دخاناً – يا له من دخان كثيف! – ولقد ألمَّ بي دوار البحر، كما ألمَّ بصوفي، وبمستر روتشيستر. ولقد انطرح مستر روتشيستر على أريكة في حجرة جميلة تدعى الصالون، في حين تمدَّدتُ أنا وتمدَّدت «صوفي» على سريرين صغيرين في مكان آخر. ولقد كدت أسقط عن سريري، فقد كان أشبه برف من الرفوف. آه، مدموازيل... ما اسمك؟»

– «أيير... جين أيير».

– «أيير؟ أوه! أنا لا أستطيع أن ألفظه. حسناً، لقد ألقت سفينتنا مراسيها، في الصباح، قبل أن يغمر الضياء الكون، في مدينة كبيرة – مدينة هائلة، ذات بيوت داكنة يتصاعد الدخان منها كلها. مدينة لا تشبه على الإطلاق تلك المدينة الحلوة النظيفة التي وُلِدْت فيها، وحملني مستر روتشيستر بين ذراعيه، فوق لوح خشبي، إلى اليابسة، وتبعتنا صوفي، ثم امتطينا كلنا متن عربة أقلَّتنا إلى بيت ضخم جميل، أضخم من هذا وأبدع، يَدعونه فندقاً. وهناك مكثنا أسبوعاً، تقريباً، فكان من عادتي

وعادة صوفي أن نتمشى كلّ يوم في أرض خضراء كبيرة ملئ بالأشجار يدعونها «الحديقة العامة»، وفي هذه الحديقة كان كثير من الأطفال – بالإضافة إلي – وبركة فيها طيور جميلة كنت ألقي إليها بفُتات الخبز».

وسألتني مسز فيرفاكس: «هل تستطيعين أن تفهمي ما تقول عندما تتحدث بمثل هذه السرعة كلها؟»

الحق أني فهمت ما قالت فهماً حسناً جداً، فقد كنت متعودةً على الاستماع إلى مدام بييرو تتدفّق في الحديث بلسان ذري.

وتابعت السيدة الطيبة قائلة: «حبذا لو سألتِها سؤالاً أو اثنين عن أبويها. ليت شعري هل تتذكرهما؟»

فسألتها: «آديل، مع من عشتِ عندما كنت في تلك المدينة الحلوة النظيفة التي أشرتِ إليها؟»

– «لقد عشت منذ زمن بعيد مع ماما، ولكنها ذهبت إلى السيدة العذراء. كانت ماما تعلمني الرقص والغناء، وإنشاد الشعر. وكان كثير من الرجال والنساء يأتون لزيارة ماما، فكنت أرقص أمامهم، أو أجلس على رُكَبهم، وأغني لهم. لقد أحببت ذلك. هل ترغبين في الاستماع إليَّ الآن، وأنا أغني؟»

كانت قد أتمَّت تناول فطورها، ومن أجل ذلك أجزت لها أن تقدِّم إليّ نموذجاً من براعتها الفنية. فنزلت عن كرسيها، وأقبلتْ وجلست على ركبتي. ثم إنها صلبت ذراعيها الصغيرتين، أمامها في رزانة، ونثرت رأسَها رادَّة حلقات شعرها الصغيرة إلى الوراء، ورفعت عينيها إلى السقف، وطفقت تنشد أغنية منتزعة من «أوبرا» بعَيْنها. كانت لحناً يصوِّر سيدة هجرها حبيبها، فهي بعد أن تنتحب ملتاعةً لغدر هذا الحبيب وخيانته تدعو الكبرياء إلى نجدتها، وتكلُّف وصيفتها أن تلْبسها أنفس فساتينها وتزيِّنها بأبهى جواهرها، وتعقد العزم على الاجتماع بفتاها الخائن،

تلك الليلة، في حفلة راقصة، وتثِبت له، بما تتكلّف من ابتهاج مصنوع، أن هجره إيَّاها لم يحْزِنْها البتة.

لقد بدا لي أن في اختيار هذا الموضوع لمغنِّية طفلة شيئاً من الغرابة. ولكني أحسب أن عنصر الطرافة في تلقينها هذا اللحن كان يتمثّل قبل كلُّ شيء في الرغبة في سماع نغمات الحب والغيرة يغنَّى بها بلثغة الطفولة. ولكنها طرافة تنمُّ عن ذوق سقيم. أو هذا ما حسبتُه، على الأقل.

وكان أداء آديل هذه الأغنية الخفيفة حسناً على الجملة: لقد أنشدتْها على نحو مطرب، وبسذاجة تتلاءم وصِغر سنها. حتى إذا تمَّ لها ذلك وثبت من على ركبتي وقالت: «والآن، أيتها الآنسة، سوف أسمعك شيئاً من الشعر».

واتّخذت وضعاً إلقائياً، واستهلّت قائلة بالفرنسية: «مؤتمر الفيران، حكاية على لسان الحيوان من شعر لافونتين». ثم إنها ألقت المقطوعة الشعرية، مراعيةً مواطن الوقف والابتداء، وتفخيم اللفظ، ومرونة الصوت، وموافقة الإيماءات لمقتضى الحال. وهي ظاهرة مستغربة جداً، في مثل سنِّها، ظاهرةً تنهض دليلاً على أنها دُرِّبت في عناية بالغة.

وسألتها: «هل كانت أمك هي التي لَقَّنَتْك هذه المقطوعة؟»

– «نعم، وكان من دأبها أن تقولها بهذه الطريقة (وهنا أعادت آديل أداء أحد الأبيات، بأصله الفرنسي: «ما بالكم، قالت فأرة من هذه الفيران، تكلموا!»). وكانت تطلب إليّ أن أرفع يدي – هكذا – لكي تذكِّرني برفع صوتي عند هذا السؤال. والآن، هل أريك رقصي؟»

– «لا. هذا كافٍ. ولكن بعد أن ذهبت أمك إلى السيدة العذراء كما تقولين، مع من عشتِ؟»

– «مع مدام فريدريك وزوجها. لقد عُنِيتْ بي، ولكنها لا تمتّ إليّ بنسب. وأحسب أنها فقيرة الحال، إذ لم يكن عندها بيت جميل كبيت ماما. ولم تطل إقامتي

هناك، فقد سألني مستر روتشيستر ما إذا كنت أودُّ الذهاب إلى إنكلترا والعيش معه فيها فقلت نعم. ذلك لأني عرفت مستر روتشستر قبل أن أعرف مدام فريدريك، ولقد كان لطيفاً معي دائماً. لقد أعطاني ملابس ودمى جميلة، ولكنه لم يبرَّ بوعده، كما ترين، فقد جاء إلى إنكلترا ثم غادرها وحده، فلم أره منذ ذلك الحين على الإطلاق».

وبعد الفطور، انسحبتُ أنا وآديل إلى حجرة المكتبة، وكان مستر روتشيستر قد أصدر أمره – في ما يبدو – بجعلها حجرة تدريس. كانت الكثرة الكبيرة من الكتب مصوُّنة خلف أبواب زجاجية مقفلة، ولكن إحدى الخزائن تركت مفتوحة، وكانت تشتمل على كل ما قد تمسُّ الحاجة إليه من كتب ابتدائية، وعلى عدد غير قليل من الكتب الخفيفة في الأدب، والشعر، والسيرة، والرحلة، بالإضافة إلى بضع روايات الخ. وأحسب أنَّه اعتقد أن هذه الذخيرة هي كلّ ما قد تحتاج إليه المربية لأغراضها الخاصة. والواقع أني سررت بها، مؤقتاً، سروراً عظيماً. فقد بدا لي أن في استطاعتها، إذا ما قورنت بمجموعة الكتب الهزلية التي وُفقت بين الفينة والفينة إلى التقاطها في لو وود، أن تزوِّدني بحصاد خصب من التسلية والثقافة. وفي تلك الحجرة، أيضاً، كان بيانو صغير، بالغ الجدَّة، وكُرتان أرضيتان.

ووجدتُ تلميذتي سهلة القياد إلى حدّ غير يسير، وإن تكن غير نزَّاعة إلى تركيز الفكر والدأب على الدرس، فهي لم تألف قط من قبل القيام بالمهام النظامية، أيًّا ما كان نوعها. وشعرتُ أنه ليس من حسن الرأي أن أقيِّد حريتها أكثر مما ينبغي، بادئ الأمر، وهكذا ما إن تحدثتُ إليها طويلاً ولقَّنتُها قليلاً وما إن انتصف النهار أو كاد حتى أجزتُ لها أن تعود إلى حاضنتها. ثم إني صحَّ عزمي على الانصراف، حتى موعد الغداء، إلى تحضير بعض الرسوم الإعدادية الصغيرة لكي تستعملها هي وتفيد منها.

وفيما كنت أرتقي السلم التماساً لأقلامي ومحفظتي الخاصة بالرسم نادتني مسز فيرفاكس قائلة: «لقد انتهت ساعاتك التعليمية الصباحية الآن، ذي ما أظن». كانت

في حجرة فُتِح بابها على مصراعيه، فلم أكد أسمع نداءها حتى دخلت عليها تلك الحجرة. كانت غرفة رحيبة فخمة ذات كراسي وستائر أرجوانية، وسجادة شرقية، وجدران مغطاة بألواح من خشب الجوز، ونافذة عريضة واحدة غنيَّة بالزجاج الملون، وسقف سامق مزدان بنقوش رائعة. وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض الزهريات البلورية الأرجوانية النفيسة المرصوفة على نضد المائدة (بوفيه).

وهتفتُ وأنا أُجيل طرفي في ما حولي، ذلك بأني لم أر من قبل حجرة تتمتّع بنصف هذا المقدار من الجلال: «يا لها من غرفة جميلة»!

– «أجل، هذه هي حجرة الطعام. لقد فتحتُ النافذة منذ لحظة، لكي يدخلها قليلٌ من الهواء وأشعة الشمس، لأن كل شيء يتشبَّع بالرطوبة في الحجرات التي لا يختلف إليها المرء إلاّ قليلاً. إنّ الداخل إلى حجرة الاستقبال هناك ليستشعر وكأنه في قبو».

وأشارت إلى قنطرة عريضة مقابلة للنافذة، وعليها مثلها ستارة أرجوانية اللون كانت الآن مرفوعة. وارتقيتُ إليها درجتين عريضتين وألقيتُ من خلالها نظرة، فحسِبْتُني ألمح موطناً من مواطن الجن... إلى هذا الحد بدا المشهد رائعاً في عيني الغِرَّتين! ومع ذلك لم يكن غير مشهد حجرة استقبال رائعة، اشتملت في جانب منها على بهو للزينة. كانت أرض الحجرة والبهو كليهما مفروشة بسجاد أبيض يبدو لعيني الناظر وكأن أكاليلَ زهر مشرقة قد نُضِّدتْ فوقه. وكان سقفا الحجرة والبهو كلاهما أيضاً مزدانين بنقوش تمثل عناقيد عنب ناصع البياض وأوراق كرمة خضراء، توهّجت تحتها – في تغاير غنيٌّ – متَّكئات وآرائك قرمزية. في حين كانت التحف المنضودة على رفّ المدفأة الرخامي الشاحب كلها من زجاج بوهيمي متألق، وبين النوافذ انتصبت مرايا ضخمة تعكس هذا المزيج من ثلج ونار!

وقلت: «أية أناقة رائعة تهيمن، بفضل عنايتك البالغة، على تلك الحجرات يا مسز فيرفاكس! لا غبار، ولا أغطية من خيش. ولولا أن الهواء بارد إذن لحسب

المرء أنها آهلةَ على نحو موصول».

– «ولكن يا مس ايير، لا تنسي أنه إذا كانت زيارات مستر روتشيستر للقصر نادرة فإنها تتمّ دائماً على نحو مفاجئ غير متوقّع. وإذ كنت قد لاحظت أن رؤية الأثاث مغلّفاً محزوماً وأن جلبة الترتيب العاجل لدى وصوله تثيران غضبه فقد بدا لي أن من الخير الاحتفاظ بالحجرات مرتبة أنيقة وعلى استعداد دائم لاستقباله».

– «هل تعتبرين مستر روتشيستر رجلاً كثير المطالب صعب الإرضاء؟»

– «ليس على نحو مغال. ولكن له أهواء السادة الأمجاد وعاداتهم، وهو يتوقع أن يجد كل شيء مرتباً وفقاً لهذه الأهواء والعادات».

– «وهل تحبينه؟ أهو محبوب بصورة عامة؟»

– «أوه، أجل. لقد أمتعت الأسرة دائماً باحترام القوم، في هذه الديار. فمعظم الأرض التي تنبسط أمامك، على مدِّ البصر، في جوارنا، كانت منذ أقدم العهود ولا تزال ملكاً لآل روتشيستر».

– «حسن. ولكن، بصرف النظر عن مسألة الأراضي هذه، هل تحبِّينه؟ أهو محبوب لِذاته؟»

– «ليس لديَّ أيما سبب يدعوني إلى الشعور نحوه بغير الحب. وأنا أعتقد أن الفلاحين المستأجرين أرضَهُ يعتبرونه مالكاً عادلاً متحرراً. ولكنه لم يُطِل الإقامة بين ظهرانيهم في ايما يوم من الأيام».

– «ولكن أليست له خصالٌ خاصة؟ وبكلمة مختصرة، حدثيني عن شخصيته».

– «أوه، إن شخصيته لا شائبة فيها، على ما أحسب. ولعله أن يكون غريب الطبع بعض الشيء. لقد قام برحلات عديدة، ورأى بلداناً كثيرة، من غير ريب. في ميسوري القول إنَّه ذكي. ولكني لم أحظ في أيما يوم من الأيام بالتحدّث إليه مطولاً».

– «وعلى أي نحو تتجلّى غرابة طبعه؟»

– «لست أدري. من العسير عليّ أن أعبر عن ذلك. ليس هناك شيء صارخ، ولكنك تستشعرينه عندما يتحدث إليك. فأنت لا تستطيعين دائماً أن تتأكدي أهو يهزل أم يجِدّ، أهو راض أم ساخط. وبكلمة واحدة، إنك لا تقدرين على فهمه والنفاذ إلى غوره. أو أني على الأقل لا أقوى على ذلك. ولكن هذا لا يقدّم ولا يؤخر، إنّه سيد طيب جداً».

وكان هذا كل ما استطعت انتزاعه من مسز فيرفاكس عن مستخدِمها ومستخدِمي. فهناك أناس ليست لديهم، في ما يبدو، أيّة فكرة عن رسم الأخلاق والشخصيات، أو عن ملاحظة الصفات البارزة، سواء أكان ذلك في الأشخاص أم في الأشياء. وواضح أن السيدة الصالحة كانت من هذه الطبقة. لقد حيَّرتها أسئلتي، ولكنها لم تستطع أن تحملها على الإفاضة في الوصف. لقد كان مستر روتشيستر في عينيها هو مستر روتشيستر: سيد ماجد، وصاحب أراض واسعة – ولا شيء أكثر من هذا. إنها لم تتحرَّ ولم تتقصَّ ما وراء ذلك، وليس من ريب في أنها عجِبَتْ لرغبتي في الفوز بفكرة أدقّ عن شخصيته.

حين غادرنا حجرة الطعام، اقترحَتْ عليّ أن نقوم بجولة تطلعني فيها على سائر أقسام البيت. فتبعتها صاعدة السلم حيناً هابطة حيناً، مبدية إعجابي بكلّ ما أرى، إذ كان كلّ شيء جميلاً حسن الترتيب. لقد وجدتُ الحجرات الأمامية الواسعة فخمة إلى حدٍّ استثنائي، كما وجدت بعض غرف الدور الثالث، برغم ظلامها وانخفاضها، ممتعة بما ران عليها من جو العِتْق والقِدَم. كانت ضروب الأثاث التي لاءمت الحجرات السفلى، في وقت ما، قد نُقِلت إلى هنا، شيئاً بعد شيء، كلّما تغير الزى. فإذا بالضوء الباهت المتسرِّب من نوافذها الضيقة يكشف عن سُرُر يبلغ عمرها مئة عام، وعن خزائن منخفضة من خشب السنديان أو الجوز، بدت، بنقوشها الغريبة التي تمثل سعَف النخل ورؤوس صغار الملائكة، أشبه ما تكون بضروب من توابيت العهد العبرانية، وعن صفوف من كراسي أثرية عريضة

عالية الظهور، وكراسي خفيضة لا ظهر لها - وكانت أكثر إمعاناً في القِدَم - لا تزال ترى فوق ذروتها المنجَّدة آثار وشي نصف مَمحو أبدعته أنامل استحالت منذ جيلين اثنين إلى هباء. لقد خلعت هذه المخلّفات الأثرية كلها. على الدور الثالث من قصر ثورنفيلد، مظهر بيت من بيوت الماضي البعيد، مظهر حَرم للذكريات. ولقد أحببتُ السكينة، والظلمة، والغرابة التي رانت على هذه المواطن المعزولة، في ساعات النهار، ولكني لم أشتهِ بأية حال أن أضطجع ليلة من الليالي في واحد من هذه السُّرر العريضة، الثقيلة التي أغْلِقت على بعضها أبواب من خشب السنديان. والتي ظُلِّل بعضها بستائر إنكليزية عتيقة مكسوَّة بوشيٍ غليظ يمثّل رياحين عجيبة وطيوراً عجب، وكائنات بشرية أدعى من هذه وتلك إلى إثارة العجب، فقد كان خليقاً بهذا كله أن يتّخذ، في ضوء القمر الشاحب، مظهراً غريباً إلى أبعد الحدود.

وسألتها: «وهل ينام الخدم في هذه الغرف؟»

- «لا. إنّهم يحتلّون مجموعة غرف أصغر حجماً في مؤخرة القصر. إن أحداً لا ينام هنا البتة، إذ إن المرء ليُغْري بالقول إنه لو كان في قصر ثورنفيلد شبح إذن لاتَّخذ من هذا المكان مثوى له».

- «ذلك هو رأيي أيضاً. وإذن فليس لديكم هنا شبحٌ ما؟»

فأجابت مسز فيرفاكس متبسِّمة: «أنا لم أسمع بوجود شيء من ذلك عندنا».

- «وليس ثمة أحاديث تُرْوى عن شبح ما؟ أليس ثمة خرافات أو حكايات تزعم أن أشباحاً سكنت القصر في عهد من العهود؟»

- «لست أظن ذلك. ومع هذا، فيتحدّث الناس بأن آل روتشيستر كانوا في زمانهم قوماً أقرب إلى العنف منهم إلى الهدوء. ولعلّ هذا هو السبب الذي من أجله يرقدون الآن في قبورهم في سكينة».

فغمغمت: «أجل، إنهم - كما جاء في القول المأثور - «بعد حمَّى الحياة المتشنجة يرقدون في سلام». إلى أين ستذهبين الآن، يا مسز فيرفاكس؟» ذلك بأني

رأيتها تتحرّك للمضي في سبيلها.

– «إلى السطوح. هل لك أن تجيئي وترَيْ المشهد من هناك؟»

ورحت أتبعها هذه المرة أيضاً. ارتقينا سلّماً نقّالة ضيِّقة جداً أبلغتنا «العلِّية»، ومن ثم اجتزنا «باباً مسحوراً» فإذا بنا نجد نفسَيْنا فوق سطح القصر. لقد كنت الآن على مستوى ارتفاع مستعمرة الغربان، وكان في ميسوري أن أرى أعشاشها. واتكأتُ على الشرفات، وأطللت منها مجيلة طرفي في الأراضي المنبسطة أمامي مثل خريطة جغرافية: كان المرج المخملي المشرق يطوق قاعدة القصر الرمادية تطويقاً محكماً، وكان الحقل، العريض مثل حديقة عامّة، منقَّطاً بالأدواح العريقة، وكانت الغابة داكنة ذابلة يخترقها ممرَّ تكسوه طحالب نامية على نحو مرْئي، وكان هذا الممرّ أشدَّ اخضراراً، بطحالبه، ممّا كانت الأشجار بأوراقها، وكانت الكنيسة القائمة عند السياج، والطريقُ، والهضابُ، الهادئة كلها هاجعة تحت أشعة شمس الخريف، وكانت سماءً صافية لازَورْدية مرصَّعةٌ ببياض لؤلؤي تَحُدُّ الأُفق. أيما مجلىً من مجالي ذلك المشهد لم يكن استثنائياً، ولكن كل شيء كان ساراً. حتى إذا استدرْتُ واجتزت «الباب المسحور» من جديد لم أكد أرى سبيلي وأنا أهبط السلَّم النقَّالة. لقد بدت «العلِّية» سوداء مثل قبو، بالقياس إلى ذلك القوس الأزرق الذي كنت أُجيل طرْفي فيه، وبالقياس إلى مشهد الغَيْضة والمرج والهضبة الخضراء السابحة في نور الشمس، ذلك المشهد الذي شكَّل القصر واسطة عقدِه، والذي كنتُ أحدق إليه في ابتهاج.

وتخلَّفت مسز فيرفاكس لحظة لكي تُحكم إيصاد «الباب المسحور». وتلمستُ طريقي تلمساً حتى اهتديت إلى مخرج «العلية»، ورحت أهبط السلم الضيقة. وتمهلت في المجاز الضيق الذي أفضَتِ السلَّم إليه، والذي فصَل غرف الدور الثالث الأمامية عن غرفه الخلفية. وكان ذلك المجاز الضيق، الخفيض، القاتم، المضاء بنافذة صغيرة واحدة ليس غير عند طرفِهِ الأقصى، يشبه – بِصَفَّيْ أبوابه الصغيرة السوداء، الموصدة كلِّها – رواقاً في قصر من قصور «صاحب اللحية الزرقاء»(١)،

وفيما كنت أخطو، ثمة، في رفق، طرق أذني آخر صوت كنت أتوقع أن أسمعه في بقعة غارقة في السكون كهذه البقعة. ولم يكن ذلك الصوت غير ضحكة... ضحكة غريبة، واضحة، غير طبيعية، وغير بهيجة. ووقفتُ، فانقطع الصوت طوال لحظة ليس غير. لم انطلق على نحو أشد وأقوى. ذلك بأنه كان في المرة الأولى، على الرغم من وضوحه، خفيضاً جداً. ثم إنّه تلاشى في جلجلة صخَّابة بدتْ وكأنها أيقظت صدىً في كل حجرة من الحجرات المهجورة، برغم أن ذلك الصوت انبعث من حجرة واحدة ليس غير، وأنه كان في ميسوري أن أشير إلى الباب الذي انبعث منه.

(1) Bluebeard في الأدب الشعبي، أو الفولكلور، لقب غلب على الفارس «راوول» الذي دخلت زوجته السابعة ذات يوم إلى إحدى الغرف المحرّمة، في قصره، فوجدت فيها جثث زوجاته الستّ السابقات. (المعرب).

وصحت: «مسز فيرفاكس»! ذلك بأني سمعتها الآن تهبط السلَّم الكبيرة. «هل سمعت الضحكة المدوية؟ ضحكة مَن هي؟»

فأجابت: «أغلب الظن أنها ضحكة إحدى الخادمات. ولعلّها ضحكة غرايس بول».

وسألتها من جديد: «هل سمِعْتِها؟»

– «أجل، وبوضوح، إني كثيراً ما أسمعها. فهي تخيط في واحدة من هذه الغرف. وفي بعض الأحيان تكون «ليا» معها، وكثيراً ما يرتفع صوتاهما عندما تلتقيان».

وتكررت الضحكة، خفيضة هذه المرة، واضحة المقاطع، وانتهت بهمهمة غريبة.

وهتفت مسز فيرفاكس: «غرايس»!

والواقع أني لم أكن أتوقع أن تجيب نداءَها أيما «غرايس»، لأن الضحكة كانت ضحكة لم أسمع قط من قبل أكثر منها تراجيدية وخروجاً على الطبيعة. ولولا أنها انطلقت والشمس في كبد السماء، ولولا أن جلجلة الضحك لم ترافقها أيما حادثة مخوفةٍ، ولولا أن أياً من المكان والزمان لم يكن ليغري بالخوف، إذن لكان خليقاً بي أن أستشعر مثل تلك المخاوف التي توقعها الخرافات في النفوس. وأيًّا ما كان، فإن الحادثة التي تلت أظهرت لي أن مجرّد الدهش الذي استبدَّ بي كان ضرباً من الحماقة.

وتفصيل ذلك أن الباب الأقرب إليَّ ما لبث أن فتِح، وخرجت منه خادمة – امرأة يتراوح عمرها ما بين الثلاثين والأربعين، هيكل رزين شبه مربَّع، ذو شعر أحمر، ووجه صارم بشع. كانت صورة لا يكاد المرء يتصوَّر شيئاً أقل رومانتيكية وأقل شَبحيةً منها.

وقالت مسز فيرفاكس: «ما هذه الضجة الصاخبة، يا غرايس؟ تذكري الأوامر»!

فانحنت غرايس احتراماً، من غير أن تنطق بكلمة، وعاودت الدخول إلى الغرفة.

وتابعت الأرملة كلامها: «هذه امرأة عهدْنا إليها بأن تخيط وتساعد «ليبيا» في مهامها كخادمة. إنها ليست فوق النقد في بعض النقاط، ولكن سلوكها حسن على العموم. وبالمناسبة، كيف سارت الأمور مع تلميذتك الجديدة، هذا الصباح؟»

وهكذا استمرَّ الحديث بيني وبينها، وقد أمست آديل هي موضوعهُ، حتى وصلنا إلى المنطقة المنيرة البهيجة في الدور الأرضي. وهرعت آديل للقائنا في الردهة، هاتفة بالفرنسية: «سيدتيَّ لقد سُكِب طعامكما»! ثم أضافت: «لقد استبدَّ بي الجوع»!

ووجدنا طعام الغداء حاضراً ينتظرنا في حجرة مسز فيرفاكس.

[12]

إنّ الشعور الذي وقع في نفسي، بسبب من هدوء الاستقبال الذي لقيته لدى وفودي على قصر ثورنفيلد، والذي بدا وكأنه يَعِدني بمهمة يسيرة غير شاقّة، لم يخيِّبْهُ تطاولُ الاتصال بالمكان ونُزلاته. فقد تكشَّفت مسز فيرفاكس، كما كانت قد بدت لي أوّل وهلة، عن امرأة رضيَّة النفس دمثة الأخلاق، ذات ثقافة حسنة وذكاء متوسط. وكانت تلميذتي طفلة تمور بالحياة، دُلِّعت وأفسِدتْ، ومن هنا كانت عنيدة في بعض الأحيان. ولكن لما كان أمر العناية بها موكولاً كلُّهُ إليّ، ولما كان أيما تدخل غير حكيم من أيَّة جهة لم يعُقْ تنفيذ الخطط التي وضعتها لتقويمها، فسرعان ما نسيت نزواتها الصبيانية وغدَتْ مطواعة قابلة للتعليم. إنّما لم تكن تنعم بمواهب ضخمة، أو بصفات خلقية بارزة، أو أيما نموّ خاص في الإحساس أو الذوق يرفعها أنشأ واحداً فوق مستوى الطفولة العادي. ولكنها، من ناحية ثانية، لم يَعِبْها أي نقص أو رذيلة يهبطان بها عن ذلك المستوى. لقد أحرزت تقدماً معقولاً وأضمَرتْ لي حباً، قد لا يكون عميقاً جداً، ولكنه بهيج نابضٌ بالحياة. وببساطتها ولَغْوها المرح وما بذلته من محاولات لإرضائي أثارت في نفسي أنا درجة من التعلّق بها كافية لأن تجعل كلاًّ منّا راضية بمرافقة الأخرى.

وهنا يحسن أن أقول، بين هلالين، إن الأشخاص الذين يؤمنون بالأفكار الوقورة عن طبيعة الأطفال الملائكية، وبأن من واجب المكلّفين بتربيتهم وتعليمهم أن يضمروا لهم حباً يكاد يبلغ مرتبة العبادة... أقول إن هؤلاء قد يعتبرون السطور السابقة لغة جريئة حتى الوقاحة. ولكنى لا أكتب ما أكتبه لكي أتملَّق أنانية الآباء، أو رياءً وتصنّعاً، أو غشاً وخداعاً. إني أقول الحقيقة ليس غير. لقد استشعرت قلقاً مخلصاً على مصلحة آديل ورغبة قوية في مساعدتها على التقدّم وحباً هادئاً لنفسها

الغرَّة، تماماً كما أضمرتُ لمسز فيرفاكس عاطفة شُكْران للطفها وكرمها، ووجدتُ ابتهاجاً في معاشرتها يتكافأ مع الاهتمام الهادئ الذي أحاطتني به ومع رجاحة عقلها واعتدال خُلقها.

ولْيَلُمني من شاء حين أُضيف إلى ذلك أني كنت بين الفينة والفينة عندما أتمشّى بمفردي في أراضي القصر، أو أمضي بعيداً حتى البوابة الخارجية وأتطلع من خلالها إلى الطريق، أو أرتقي فيما تكون آديل تلعب مع حاضنتها، ومسز فيرفاكس تصنع ضروب الحلوى الهلامية في حجرات المؤن – السلالم – الثلاث، وأرفع باب «العلِّيه» المسحور، وأبلغ سطح القصر، وأطل من بعيد على الحقل والهضبة المعزولَيْن وعلى الأفق القاتم... أقول ليلمني من شاء حين أضيف أني كنت في هذه الأحوال كلِّها أتمنى لو كانت لي قوة إبصار قادرة على تخطي ذلك الختم، وعلى بلوغ العالم الناشط والمدن والمناطق الزاخرة بالحياة والتي كنت قد سمعتُ بها ولكني لم أرها قط، وأتمنى لو كان لي من الخبرة العملية فوق ما كنت أملك، ولو أُتيح لي من الاختلاط ببنات جنسي والتعرّف إلى ضروب متفاوتة من الشخصيات والأخلاق أكثر ممَّا أتيح لي هنا في قصر ثورنفيلد. لقد قدرْتُ كلّ خير انطوت عليه نفس مسز فيرفاكس حقّ قدره، وكلّ خير انطوت عليه نفس آديل حقّ قدره، ولكني آمنت بوجود صنوف أخرى من الخير أكثر حيوية، ولقد كان من دأبي أن أتوق إلى رؤية أيما شيء أؤمن بوجوده.

من يُنحي عليّ باللائمة؟ طائفة من الناس كبيرة، من غير ريب. ولسوف يزعم هؤلاء اللائمون أن القناعة تعوزني. والواقع أني لم أكن لأتمالك عن ذلك، فقد كان القلق في دمي، ولقد هاجني هذا القلق حتّى الألم، في بعض الأحيان. عندئذ كانت سلوايَ الوحيدة أن أتمشَّى في رواق الدور الثالث، جيئة وذهاباً، مستشعرة الأمن في سكينة المكان وانعزاله، وأن أدع عَيْن عقلي تطيل التحديق إلى أيما رؤى مشرقة تتبدَّى لها – ولقد كانت تلك الرؤى وافرة متألقة، من غير ريب – وأن أدع قلبي يختلج بالحركة المُنْتَشِية التي وسَّعت – بالحياة – نطاقةُ، وأثقلت – بالهمِّ – جَناحهُ، وأن أفتح أذني الباطنية – وكانت هذه السلوى خيراً من سابقتيها – لحكاية لا انتهاء

لها أبد الدهر، حكاية ابتدعها خيالي، وبعث فيها النشاط العارم بما ضمَّنها إيّاه من أحداث، وحياة، وحرارة، وأحاسيس كنت أتمناها كلها ولكني لا أجدها في وجودي الواقعي.

إنّه لمن البعث الذي لا طائل تحته القول إنّ على الكائنات البشرية أن ترضى بالسكينة: إنهم في حاجة ماسة إلى الحركة، ولسوف يخلقونها إن لم يعثروا عليها. والواقع أن ثمّة ملايين قدِّر عليهم أن يعيشوا حياة كثر سكينة من حياتي، وأن ملايين من الناس هم في ثورة صامتة على قَدرِهم. وليس يدري أحدٌ كم من ثورة تختمر، إلى جانب الثورات السياسية، في نفوس الجماهير. ويفترض الناس أن النسوة هنّ، على الجملة، هادئات جداً. ولكن النسوة يستشعرن ما يستشعره ا لرجال على وجه الضبط. إنهن في حاجة إلى تدريب يهذِّب مَلكاتهن، وإلى حقل يبذلن فيه جهودهن بقَدْر حاجة إخوتهنَّ إلى ذلك. وهن يقاسين عنتاً كثيراً من جرّاء التقييد القاسي إلى أبعد الحدود، والركود المطلق إلى أبعد الحدود شأن الرجال لو تعرَّضوا لمثل هذا التقييد وذلك الركود، سواء بسواء. وإنه لضيق في أفق التفكير عند إخوتهن في الإنسانية، إخوتهن الأكثر تمتّعاً بضروب الامتياز، أن يقولوا إنَّ عليهن أن يقْصُرُن نشاطهن على صنع الحلوى وحبك الجوارب، والعزف على البيانو، تَوْشِيَة الحقائب. وإنه لحمق أن نذمهُنَّ وأن تسخر منهن إذا حاولن أن يعمَلن أو يتعلَّمن أكثر ممَّا نص العرفْ على ضرورته لهن.

ولم يكن نادراً أن أسمع، حين أخلو إلى نفسي على هذا النحو، ضحكة غرايس بول: عَيْنَ تلك الجلجلة المدوية وعيْنَ تلك الــ «ها! ها!» الخفيضة البطيئة التي روَّعتني يوم سمعتها أول مرة. وكنت أسمع أيضاً غمغماتها الشاذة، وكانت أشدّ غرابة من ضحكتها. كان ثمة أيام اعتصمت غرايس بول خلالها بالصمت المطلق، ولكن كانت ثمة أيام أخرى كنت أعجزُ فيها عن تعليل الأصوات التي أطلَقَتْها. ولقد رأيتها في بعض الأحيان: كانت تغادر غرفتها وفي يدها حوض أو طبق أو صينية، وتهبط إلى المطبخ لترجع سريعاً،.حاملةً في كثرة الأحوال (أوه، اعذُرْني أيها القارئ الرومانتيكي، إذا قلت الحقيقة الخالصة) وعاءً مليئاً بجَعَةٍ من صنف دُوْن.

ولقد كان في ظهورها ما يوهن، دائماً، من عزيمة الفضول الذي تثيره غرائبها الصوتية في ذات نفسي: كانت صارمة الأسارير، رابطة الجأش، فليس فيها أيما شيء خليق بأن يجذب اهتمام المرء وشوقه. وقمت ببضع محاولات لاستدراجها إلى الحديث، ولكنها بَدَتْ لي مخلوقة نَزْرة الكلام. كان من دأبها أن تقطع الطريق على كلَّ جهد مبذول في هذه السبيل بجواب وحيد المقْطع.

وكان سائر نزلاء القصر، أعني جون وزوجته، و«ليا» الخادمة، وصوفي الحاضنة الفرنسية، قوماً صالحين، ولكنهم لم يكونوا ممتازين في أيما ناحية من النواحي. وكان من دأبي أن أصطنع الفرنسية في حديثي مع صوفي، وكنت في بعض الأحيان أوجه إليها أسئلة عن وطنها، ولكنها لم تكن نزاعة لا إلى الوصف ولا إلى القَصَص، وكانت لا تفتأ تجيبني بأجوبة تافهة مضطربة مقصود بها إلى صدّ الفضول بدلاً من تشجيعه.

وتصرم تشرين الأول (أكتوبر)، وتشرين الثاني (نوفمبر)، وكانون الأول (ديسمبر). وذات أصيل من كانون الثاني (يناير) سألتني مسز فيرفاكس أن أمنح آديل عطلة لأنها مصابة بزكام، ولما كانت آديل قد ثنَّتْ على هذا الطلب في حماسة ذكَّرتني كم كانت العطَل العَرَضية ذات شأن عندي في صدر طفولتي فقد منحتُها إيَّاها. حاسبة أني أحسن صنعاً في إظهار شيء من المرونة في هذه المسألة. كان يوماً جميلاً هادئاً، برغم برده القارس. وكنت قد مللت القعود في سكينة، في حجرة المكتبة، طوال ساعات الصباح. وكانت مسز فيرفاكس قد فرغت منذ لحظات من كتابة رسالة تنتظر من يحملها إلى البريد، وهكذا اعتمرت بقبعتي الصغيرة وارتديت معطفي، وتطوّعت لنقلها إلى «هاي». وكانت المسافة التي تفصل «هاي» عن قصر ثورنفيلد - ومقدارها ميلان اثنان - خليقة بأن تتيح لي نزهة مستساغة أقوم بها على قدمي في ذلك الأصيل الشتوي. وبعد أن اطمأنَنْتُ إلى أن آديل قد استوت، في كثير من الرفه في كرسيها الصغير على مقربة من نار المستوقد في حجرة مسز فيرفاكس، وبعد أن أعطيتها أفضل دمية من دماها الشمعية (التي كان من عادتي أن أبقيها مغلَّفة بورق فضي في أحد الأدراج) لكي تلعب بها وكتاباً

قصصياً تتسلّى به إذا سئمت العبث بالدمية، وبعد أن أجبت على قولها لي «ارجعي في سرعة، يا صديقتي الطيبة، يا عزيزتي الآنسة جانيت» بقبلة طبعتُها على خدها، انطلقتُ ماضية لسبيلي.

كانت الأرض قاسية، وكانت الريح ساكنة، وكانت طريقي موحشة. ورحتُ أغِذُّ السير حتّى شاع الدفء في جسمي، ثم مشيت في تؤدة لكي أستمتع بالمباهج التي طالعني بها الزمان والمكان وأحلّل أنواعها. كانت الساعة الثالثة، وقُرع ناقوس الكنيسة فيما كنت أمرُّ تحت بُرجِه، وكان سحر تلك اللحظات كامناً في عتمتها ا لزاحفة، وفي الشمس المنزلقَة خفيضة عند الأفق، المرسلة أشعة واهنة شاحبة. وكنت قد أمسيت على مَبْعدة ميل من ثورنفيلد، وانتهيت إلى درب معروف في الصيف بوروده البرية، وفي الخريف بثمار جوزه وعُلّيقه، درب كان حتّى في تلك الساعة مزداناً ببضع كنوز مرجانية تتألق في وروده البرية وفي زعروره، ولكن خير مباهجه الشتوية كانت كامنة في توحُّده المطلق، وهدأته العارية من ورق الشجر. كان النسيم إذا هبَّ لم يُحدث هناك أيما صوت، ذلك بأنه لم يكن ثمة شُرَّابة راع [١] ولا نبتة دائمة الخضرة حتى يُسمع لها حفيف، وكانت آجام الزعرور البري والبندق المجردة من أوراقها ساكنة سكون الحجارة البيضاء البالية التي عُبِّد بها وسَطُ الدرب. وعلى مبعدة مترامية، إلى يمين الدرب ويساره، لم يكن غير حقول خَلَت الآن من ماشية ترعى في رحابها. وكانت الطيور الصغيرة السمراء المصفقة بأجنحتها بين الفينة والفينة عند السياج، تبدو وكأنها أوراق خمرية نسيت أن تسقط عن أغصانها.

(ا) نوع من النبات.

كان هذا الدرب يمتدّ مصعِّداً طوال الطريق إلى «هاي». حتى إذا بلغتُ منتصفه قعدتُ على درجة سلُّم صغير يفضي إلى حقل. وأحكمت التدثّر بمعطفي، وخبأت يدي في فروتهما فلم أستشعر البرد برغم الصقيع الشديد الذي نهضتْ دليلاً عليه طبقة من جليد غطَّت الطريق المعبّد، حيث كان جدول صغير متجمّد الآن قد

فاض عِقب ذوبان جليد مفاجئ حدث منذ بضعة أيام. ومن مقعدي ذاك كان في ميسوري أن أشرف على ثورنفيلد: كان القصر الرمادي ذو الشرفات العالية هو الشيء الرئيسي الذي تجلَّى لناظري في الوهدة الغائرة تحتي، وكانت غاباته ومسارح غربانه ترتفع نحو الغرب. وتريّثت حتّى هبطت الشمس بين الأشجار، ثم غابت قرمزية صافية خلفها. وعندئذ استدرتُ صوب الشرق.

كان القمر الطالع متربعاً فوق قمة الهضبة المشرفة على المكان الذي اتخذتُ منه مقعداً. وكان لا يزال شاحباً مثل سحابة، ولكن إشراقه كان يتعاظم لحظة بعد لحظة. لقد أطلَّ على «هاي» التي راحت ترْسل، نصفَ ضائعة بين الأشجار، دخاناً أزرق من مداخنها القليلة. كانت لا تزال على مبعدة ميل، ولكني استطعت، في غمرة السكون المطلق، أن أسمع نبضات الحياة الواهنة. وتبيَّنت أذناي أيضاً تدفّق جداول لم أدر في أيّة أودية ووهاد كانت تجري. ولكن كان ثمة هضاب كثيرة وراء «هاي»، ولا ريب في أن غُدْراناً كثيرة كانت تتلوَّى شاقة طريقها عبْرها. لقد نمَّ هدوء ذلك المساء عن خرير أقرب الجداول، وعن غمغمة أبعدها على حد سواء.

وفجأة قاطَعَ هذا الخرير وذاك الهمس الساحرين – اللذين كانا نائيَيْن جداً وواضحين جداً في آنٍ معاً – ضجة عنيفة: وقع حوافر صارخ. ثم إن صليلاً معدنياً انبعث فحجَبَ خرير الماء، كما تحجب كتلة من الصخر الصلد – في لوحة فنية – أو كما يحجب جذعُ صفصافة ضخمة مرسرم بألوان داكنة قوية في خلفيَّة الصورة.

كانت الضجة تنبعث من جانب الجزء المعبَّد من الطريق: لقد أقبل جواد، جواد كانت تعرُّجات الطريق لا تزال تحجبه عن ناظري، ولكنه كان يقترب. وكنت على وشك أن أغادر درجة السلَّم الصغير، ولكني عدت، بسبب من ضيق الطريق، فآثرت التزام مكاني ذاك لكي أمكِّن الفارس من المضي في سبيله. وإنّما كنت في تلك الأيام فتاة طرية العود، وكانت ضروب الصور على اختلافها، من مشرقة و قاتمة، تملأ ذهني، وكانت ذكريات الحكايات التي رُويت على مسمعي في عهد الطفولة، والتي كانت كلّما تمثّلتْ في مخيَّلتي أضاف إليها الصبا الناضج قوّة

وحيوية. وهكذا بينما كان الجواد يدنو، وبينما كنت أترقّب بروزه من خلال الغسق، تذكُّرت حكاية من حكايات بيسي عن روح كانت تظهر في شمالي إنكلترا تدعى «جيتراش»، وكانت تسكن الطرق الموحشة متّخذة شكل حصان أو بغل أو كلب كبير، وتبرز في بعض الأحيان للمسافرين المتأخرين، كما كان هذا الجواد على وشك أن يبرز لي الآن.

وكان قد أمسى على مقربة مني، ولكنه لا يزال محجوباً عن ناظري، عندما سمعت بالإضافة إلى وقع الحوافر حركة اندفاعية تحت السياج، وإذا بكلب ينسل على مقربة من جذوع أشجار البندق، كلب ضخم كان في سواد لونه وبياضه ما ظهَّره على نحو بارز بين الأشجار. لقد كان على وجه الضبط واحداً من الأشكال التي تعوَّد «جيتراش» بيسي أن يتخذها: كان مخلوقاً شبيهاً بالأسد ذا شعر طويل ورأس ضخم، بيد أنه مرَّ بي في كثير من الهدوء، غير متمهّل حتى يتطلّع بعينين كلبيَّتين غريبتين، إلى وجهي، كما توقعتُ نصف توقع. وبعد ذلك أقبل الحصان: كان جواداً فارغ الطول، وكان على متنه فارس. وبدَّد الرجل، الكائن البشري، السحر في الحال. ذلك بأن أحداً لم يَمْتَطِ صهوة «جيتراش» قط، لقد كان متوحّداً بشكل دائم. صحيح أن العفاريت كانت في بعض الأحيان تحل في جثث البهائم العجماوات، ولكنها كانت نادراً ما تشتهي الحلول - إذا صحَّت معلوماتي - في صورة بشرية عادية. وإذن فلم يكن ذلك الجواد هو «جيتراش»، لقد كان مجرد مسافر يسلك إلى «ميلكوت» طريقاً مختصرة. واجتاز بي، ومضيتُ أنا في سبيلي. ولم أكد أمشي بضع خطوات، حتى استدرت. لقد استبدّ بانتباهي صوت انزلاق، وهتافُ «يا للشيطان! ما الذي سأفعله الآن؟» وكبوة مُقَعْقِعة. كان الرجل والجواد طريحَيْ الأرض، فقد انزلق الجواد فوق صفحة الجليد التي غطّت الجزء المعبَّد من الطريق. ورجع الكلب واثباً، حتى إذا رأى صاحبهُ في مأزق حرج، وسمع أنين الجواد، أنشأ ينبح حتّى رددت هضاب المساء نباحه الذي كان خفيضاً بالنسبة إلى حجمه الضخم. لقد استروح الجسدين المنطرحين على الأرض، ثم انطلق نحوي، كان ذلك كلَّ ما استطاع أن يفعله، فلم يكن هناك من يفْزَعُ إليه

غيري. ولبّيت دعوته، ومضيت نحو المسافر، وكان في تلك الأثناء قد شرع يناضل للتحرر من جواده. وكانت جهوده هذه من القوة والعنف بحيث اعتقدتُ أن من غير المعقول أن يكون قد أصيب بكبير أذى. ومع ذلك فقد طرحت عليه السؤال:

– «هل أصبت بأذى، يا سيدي؟»

وأحسب أنه كان يجدف، ولكني غير واثقة من ذلك. وعلى أيّة حال، فقد كان يغمغم بكلام ما، حال بينه وبين الإجابة عن سؤالي على التوّ. فسألته من جديد: «هل أستطيع أن أقدِّم إليك مساعدة ما؟»

– «ليس عليك إلا أن تقفي جانباً». كذلك أجابني وهو ينهض واقفاً، على ركبتيه أولاً، ثم على قدميه بعد ذلك. ونزلت عند رغبته، وعندئذ بدأت عمليةُ انتفاض ورفس وصلصله يُرافقُها نباح وعواء ردِّاني في الحال بضْعَ ياردات إلى الوراء، ولكن ما كنتُ لأرضى بأن أُقْصَى عن المكان إقصاء كاملاً إلا بعد أن أشهد الحادثة. وما لبثت هذه أن انتهت نهاية سعيدة: لقد نهض الجواد على قوائمه، وأُسْكِت الكلب لدى سماعه هذه الكلمات: «أخفض صوتك، يا بايلوت»! وهنا انحنى المسافر، وراح يتحسَّس قدمه وساقهُ، وكأنما كان يحاول أن يرى هل هما سليمتان أم لا. ويبدو أن شيئاً كان يُوْجِعهما، ذلك بأنه توقَّف عند درجات السلم الصغير، التي كنت قد نهضت عنها منذ لحظات، وقعَد على إحداها.

وأحسب أني كنت آنذاك في وضع نفسي يغريني بأن أكون ذات نفع، أو بأن أكون فضولية، على الأقل. ذلك بأني ما لبثت أن عاودت الاقتراب من الرجل كرّة أخرى.

– «إذا كنت مصاباً بأيما أذى، راغباً في مساعدة ما، ففي استطاعتي، يا سيدي، أن أذهب إمَّا إلى قصر ثورنفيلد أو إلى «هاي» وأجيئك بمن يسْدي إليك بعض العون».

– «شكراً. ليس ثمة ضرورة لذلك. إنَّ أياً من عظامي لم تكسَر، إنها رضَّة ليس غير». ونهض من جديد، وجرَّب أن يسير على قدمه، ولكن نتيجة التجربة انتزعت منه آهة لا إرادية.

كانت ثمة بقية متخلفة من ضياء النهار، وكان القمر يزداد تألُّقاً لحظة بعد لحظة: وهكذا كان في ميسوري أن أنظر إلى الرجل في وضوح. كان متدثراً بمعطف من معاطف الفرسان، ذي ياقة من فرو، ومشابك من نحاس. إن سماته التفصيلية لم تكن ظاهرة، ولكني لاحظت بعض خطوطه الكبرى: كان ربعة في الطول، عريض الصدر إلى حدّ بعيد. وكان ذا وجه أسمر، وأسارير متجهمة، وجبين عريض وكانت عيناه وحاجباه المقطَّبان تنطق في تلك اللحظة بمعاني الحنق والخيبة. كان قد تخطَّى صدر الشباب، ولكنه لمّا يبلغ سن الكهولة، ولعله كان في الخامسة والثلاثين. ولم أوجسْ منه خيفة، ولكني استشعرت بعض الحياء منه. ولو قد كان سيداً وسيماً غضَّ الأهاب بطوليَّ السمات إذن لما جرؤت على الوقوف مثل موقفي ذاك أوجّه إليه الأسئلة على غير رغبة منه، وأعرض عليه خدماتي من غير أن يلتمسها. فحتى ذلك الحين لم أكن قد رأيت – إلاّ نادراً – أيما شاب وسيم، ولم أكن قد تحدّثت في حياتي قطّ إلى أيما شاب وسيم. كان يغْمر نفسي إجلال وتوقير نظريان للجمال والأناقة، والكياسة، والفتنة، ولكن لو قدِّر لي أن ألقى هذه الصفات مجسَّدة في شكل رَجُل، إذن لكان خليقاً بي أن أدرك إدراكاً غَريزياً أن ليس بينها وبين أي شيء فيَّ، ولا يمكن أن يكون، أيّة مشاركة وجدانية، وإذن لكان خليقاً بي أن أجتنبها كما يجتنب المرء النار، والبرق، وكلّ ما هو ساطع ولكنه بغيض إلى النفس.

وحتى لو تبسَّم هذا الغريب وبشَّ في وجهي عندما خاطبتُهُ، ولو رفض ما عرضتُهُ عليه من المساعدة في مرح مقرون بالشكر إذن لكان خليقاً بي أن أمضي لسبيلي وأن لا أستشعر أيما رغبة في إلحاحي عليه بالسؤال. ولكن عبوس المسافر وجلافته أوقعا الطمأنينة في نفسي، فلزمت مكاني عندما دعاني إلى الانصراف، بإشارة من يده، وقلت له: «أنا لا أستطيع أن أفكر في تركك، يا سيدي، في مثل

هذه الساعة المتأخرة، وفي مثل هذا الدرب الموحش، إلا ّ بعد أن أستيقن من أنّك صرْت قادراً على امتطاء جوادك».

ونظر إليَّ لدى قولي هذه الكلمات، ولم يكن قد وجَّه عينيه نحوي قبل ذلك إلاّ قليلاً. وقال: «يخيَّل إليَّ أن من حقك أنت أن تكوني قد بلغتِ الآن بيتك، إن كان لك بيت في هذا الجوار. أين تسكنين؟»

– «في هذا الوادي القريب. ولستُ أجد أي خوف من التأخر في العودة حين يكون القمر طالعاً. إني سوف أعدو إلى «هاي» من أجلك، وفي سرور، إذا رغبت في ذلك. والواقع أني ذاهبة إلى هناك لكي أضع رسالة في صندوق البريد».

– «أنت تسكنين في هذه الوادي... هل تعنين أنّك تسكنين في ذلك البيت ذي الشرفات؟» قال ذلك مشيراً إلى قصر ثورنفيلد الذي كان القمر يصوِّب إليه شعاعاً مبيضاً من بين أشجار الغابة التي بدت، الآن، كتلة من ظلام.

– «نعم، يا سيدي».

– «بيت مَن هو؟»

– «بيت مستر روتشيستر».

– «هل تعرفين مستر روتشيستر؟»

– «لا. أنا لم أره قطّ في حياتي».

– «هو إذن لا يقيم هنا؟»

– «لا».

– «هل تستطيعين أن تقولي لي أين هو؟»

– «لا»

- «أنت لست خادمة في القصر، طبعاً. أنت...» وكفَّ عن الكلام، وألقى نظرة على ملابسي، التي كانت - على مألوف عادتي - بسيطة جداً: معطف أسود من صوف غنم المرينوس، وقبعة صغيرة سوداء من جلد السَّمُّور. ولم يكن أيّ منهما ليليق، ولو إلى حدٍّ جزئي، بوصيفة من وصائف السيدات. ومن هنا بدا مذهولا لا يستطيع أن يقطع في صفتي برأي.

وساعدته على الخروج من حيرته فقلت: «أنا المربية».

فكرر: «آه، المربية! فليأخذني الشيطان إن لم أكن قد نسيت! المربية»! وكرة أخرى أُخضِعَتْ ملابسي لامتحان. وما هي غير دقيقتين اثنتين حتى نهض عن درجة السلم الصغير، وقد نطق وجهه بالألم عندما حاول أن يمشي.

وقال: «أنا لا أستطيع أن أكلّفك الذهاب لكي تأتيني بمن يساعدني. ولكن في استطاعتك أن تسدي إليَّ أنت نفسُك مساعدة صغيرة، إذا تلطَّفْت».

- «إني على استعداد، يا سيدي».

- «أليس عندك مظلة أستطيع أن أتّخذ منها عصاً أتوكأ عليها؟»

- «لا».

- «حاولي أن تمسكي بعنان جوادي وأن تقوديه إليَّ. أنت لست خائفة، أليس كذلك؟»

كان يمكن أن أخاف لمس جواد ما، لو كنت وحدي، أما عندما طَلَب إليَّ ذلك فقد أطعتهُ في غير تردد. لقد نزعت فروة ذراعي وألقيتها على درجات السلم الصغير، ومضيتُ نحو الجواد الفارع الطول. لقد حاولت أن أمسك بعنانه، ولكنه كان مخلوقاً عصبياً، فلم يُجِزْ لي أن أدنو من رأسه. وبذلت جهداً أثر جهد، ولكن على غير طائل، وفي الوقت نفسه استبدّ بي خوف قاتل من قائمتيه الأماميتين الرافستين. وانتظر المسافر مراقباً الموقف فترة يسيرة، وأخيراً انفجر ضاحكاً.

وقال: «يخيَّل إليَّ لا سبيل إلى سَوْق الجبل إلى النبيِّ، وهكذا فإن أقصى ما نستطيع فعله هو مساعدة النبيِّ على المضيِّ إلى الجبل. هل لي أن ألتمس منك المجيء إلى هنا؟»

وتقدّمت نحوه.

وتابع قائلاً: «أرجو عفوك. إن الضرورة تكرهني على التماس العون منك». وألقى على منكبي يداً ثقيلة، وأنشأ يعرج متّخذاً سبيله، إلى الجواد، متكئاً عليَّ في غير ما ضغط بالغ. حتى إذا وفِّق إلى الإمساك بعنان الجواد، سيطر عليه في الحال، ووثب إلى سرجه، مكشّراً وجهه فيما كان يبذل ذلك الجهد الذي لوي رجله المرضوضة.

وقال مخرّراً شفته السفلى من عضة موجعة: «والآن ناوليني سوطي. إنّه هناك تحت السياج».

وبحثت عنه فوجدته.

- «شكراً لك. والآن عجّلي في نقل رسالتك إلى «هاي»، ثم ارجعي على أسرع وجه تستطيعينه».

ولمس جواده بعَقِبِه ذي المهماز، فأجفل وشبَّ بادئ الأمر، ثم وثب إلى أمام. واندفع الكلب في أثره، وتوارى الثلاثة عن ناظري:

«مثل نبات الخلنج في المجاهل

وقد عصفت به الريح النكباء».

عندئذ رفعت فروة ذراعي من على درجة السلم الصغير، ومضيت لسبيلي. كانت الحادثة قد أصبحت منتهية بالنسبة إليّ: لقد كانت بمعنى من المعاني حادثة خلواً من الأهمية، خلواً من الرومانسية، خلواً من الإمتاع. ومع ذلك فقد أدخلت شيئاً من التغيير على ساعة موحشة من حياتي الرتيبة. لقد احتاج رجل إلى

معونتي، وطالب بها. ولقد أسديت إليه هذه المعونة، وكنت سعيدة بأن أوفّق إلى عمل شيء. صحيح أن ذلك العمل كان تافهاً قصير النَّفَس، ولكنه كان برغم ذلك شيئاً فعّالاً، وكنت قد مللت وجوداً كل ما فيه سلبي. وكان الوجه الجديد، أيضاً، أشبه بصورة جديدة تُحْمَلُ إلى معرض الذكريات، ولقد كانت هذه الصورة مختلفة عن جميع اللوحات المعلَّقة على جدران ذلك المعرض. أولاً، لأنها كانت صورة رجل، وثانياً لأنها كانت قاتمة، قوية، ومتجهمة. وكانت لا تزال ماثلة أمامي عندما دخلت «هاي»، وألقيت بالرسالة في موضعها من مكتب البريد. ثم عدت أهبط الهضبة، مسرعة في طريق عودتي إلى القصر. وحين بلغت درجات السلم الصغير، تريّثت دقيقة وأجلت الطرف في ما حولي وأصغيت، لقد بدا لي أن حوافر جواد سوف تخبُّ من جديد فوق الجزء المعبَّد من الطريق، وأن راكباً متدثراً بمعطف وكلباً من كلاب نيوفاوندلاند شبيهاً بـــ «جيتراش» الأسطورة قد يظهران كرة أخرى. ولكن نظري لم يقع إلاّ على السياج، إلاّ على شجرة صفصاف مشذَّبة الأغصان تشق السماء، في سكون واستقامة، لتصافح شعاع القمر، ولم أسمع غير عزف ريح ليس ثمة ما هو أوهن منه، ريح هائمة على وجهها بين الأشجار المحيطة بقصر ثورنفيلد، على مبعدة ميل واحد. وحين التفتُّ صوب تلك الهمهمة لمحت عيني، وهي تتخطّى واجهة القصر، ضوءاً منبعثاً من إحدى النوافذ. وكان في هذا ما ذكّرني بأني قد تأخرت، فرحت أغذ السير.

كنت غير راغبة في دخول قصر ثورنفيلد من جديد. كان تخطي عتبته يعني العودة إلى الركود. وكان اجتياز ردهته الصامتة، وارتقاء سلّمه المظلمة، والشخوص إلى حجرتي الصغيرة المتوحِّدة، ثم الاجتماع إلى مسز فيرفاكس الهادئة، وقضاء السهرة الشتوية الطويلة معها، ومعها وحدها... كان ذلك كله خليقاً به أن يُطفئ ذلك الانفعال الواهن الذي أثارته النزهة في ذات نفسي، وأن يقيد ملكاتي، مرّة أخرى، بأغلال غير منظورة تتمثَّل في رتابة أكثر مما ينبغي، رتابة بدأت أصبح عاجزة حتى عن تقدير ميزتيْها نفسيْهما، الأمن والرِّفه. ما كان أحوجني في تلك الآونة إلى ما يُطوِّح بي في خضم

حياة مناضلة قلقة. وإلى ما يعلَمني بالتجربة القاسية المريرة أن أتوق إلى الهدوء الذي تبرَّمتُ الآن به! أجل، بقَدْر حاجة رجل سئم الجلوس على «كرسي مريح أكثر مما ينبغي» إلى القيام بنزهة طويلة على القدمين. فقد كانت رغبتي في الحركة طبيعية مثل رغبته سواء بسواء.

وتلكأتُ عند بوابة القصر الخارجية، وتلكأتُ عند المرج. وأنشأت أذرع الرصيف جيئة وذهاباً: كان مصراعا الباب الزجاجي موصدين، فلم يكن في ميسوري أن ألقي نظرة على داخل القصر. وبدا لي وكأن عيني وروحي كانت تصرف صرفاً عن ذلك المثوى المظلم – عن ذلك الغار المليء بالحجيرات التي لا تعرف الضياء، كما تراءى لي القصر في تلك اللحظة – لترنو إلى تلك السماء الممتدة أمامي مثل بحر أزرق لا يشوبه أيما سحاب. وكان القمر يصعِّد في السماء بجلال بالغ، وقد بدا قرصُهُ وكأنه ينظر إلى أعلى، بينا كان يفارق قمم الهضاب التي طلع من ورائها والتي أمست الآن تحته، ويسمو إلى السِّمت الحالك السواد بعمقه الذي يسير غوره وبُعْده اللانهائي. وإذ وقعت عيني على النجوم، ارتعد فؤادي وأضرمت النار في عروقي. إن بعض الأشياء التافهة لتعيدنا إلى الأرض. فلم تكد الساعة تدق في الردهة حتى صُرِفت عن القمر وعن النجوم، وفتحت باباً جانبياً، ودخلت.

لم تكن الردهة مظلمة. لا، ولم تكن مضاءة بغير مصباح برونزي متدلٍّ من السقف على نحوٍ بالغ الارتفاع. كان وهج دافئ يغمر الردهة ودرجات السلّم السنديانية السفلى. وكان هذا الضياء المتورّد ينبعث من حجرة الطعام الكبيرة، التي كان بابها مشرعاً على مصراعيه، تبدو منه نار بهيجة تضطرم في الموقد، منيرة برقع المصطلى الرخامي وأدواته النحاسية. ليس هذا فحسب، بل كشفت تلك النار أيضاً عن جماعة متحلّقة حول المصطلى. ولم أكد ألمح هذه الجماعة، وأفطن إلى تمازج أصوات بهيج، بدا لي أنّي ميَّزت من بينها جرس آديل، حتى أغلق الباب.

وأسرعت إلى حجرة مسز فيرفاكس. كان ثمة نار أيضاً، ولكن لم يكن ثمة لا شمعة ولا مسز فيرفاكس. لقد رأيت بدلاً منها كلباً ضخماً ذا شعر طويل أسود وأبيض شبيهاً كل الشبه ب «جيتراش» الطريق، مستوياً وحده على السجادة، محدقاً في رصانة إلى النار المضطرمة. كان الشبه بينه وبين «جيتراش» ذاك قوياً إلى درجة جعلتني أهتف: «بايلوت»!

عندئذ نهض الحيوان، وأقبل نحوي، وأخذ يستروحني. فلاطفته، فبصبص بذنبه الطويل. ولكنه بدا لي مخلوقاً مرعباً لا قبل لي بالانفراد به تحت سقف واحد. ولم أدرِ من أين أقبل. فقرعت الجرس، إذ كنت أريد الحصول على شمعة، وكنت أريد بالإضافة إلى ذلك أن أعرف الأخبار. ودخلت ليبا، فسألتها: «من أين أقبل هذا الكلب؟»

– «لقد أقبل مع سيدي».

– «مع من؟»

– «مع سيدي... مستر روتشيستر... لقد وصل منذ لحظات».

– «حقاً؟ ومسز فيرفاكس... أهي معه؟»

– «نعم. ومس آديل. إنّهم في حجرة الطعام، ولقد ذهب جون ليستدعي طبيباً جرّاحاً. ذلك بأن حادثاً قد ألمّ بسيدي. لقد كبا به الجواد. فأصيب كاحله برضوض».

– «وهل كبا الجواد في طريق هاي؟»

– «نعم. فيما كان يهبط الهضبة. لقد انزلق فوق الجليد».

– «آه! إيتيني بشمعة، يا ليبا، أرجوك».

وجاءتني «ليبا» بها. ودخلت عليَّ الحجرة تتبعها مسز فيرفاكس، التي كرّرت النبأ نفسه، مضيفة أن مستر كرايتر، الجرّاح، قد وصل، وأنه كان في تلك اللحظة

يعاين مستر رونتشيستر. ثم غادرت الحجرة مسرعة لكي تصدر أمرها بإعداد الشاي، وارتقيت أنا السلم لكي أخلع ملابسي.

[13]

أوى مستر روتشيستر إلى فراشه في ساعة مبكرة تلك الليلة – وكان ذلك بأمر من الطبيب في ما يبدو – ولم يغادر صباح اليوم التالي إلاّ في ساعة متأخرة أيضاً. حتى إذا هبط الطابق الأسفل انصرف إلى العناية بأعماله: كان وكيله وبعض من مستأجري أراضيه قد وفدوا إلى القصر، وكانوا ينتظرون أن يلقَوْه ويتحدثوا إليه.

وكان على آديل وعليّ، الآن، أن نجلو عن حجرة المكتبة، ذلك بأن الضرورة قضت باستخدامها، منذ اليوم، حجرة لاستقبال الزائرين. وهكذا أضرمت نارٌ في إحدى حجرات الطابق العلوي، فحملتُ إليها كُتُبنا، وأعددتها لتكون هي حجرة الدرس في المستقبل. ولاحظت خلال ساعات الصباح أن قصر ثورنفيلد قد خُلِق خلقاً آخر: إنه لم يعد صامتاً ككنيسة، ولقد ردّد كل ساعة أو ساعتين صدى طرق على الباب، أو رنين جرس من الأجراس. ليس هذا فحسب، بل لقد أخذت الأقدام تجتاز ردهته أيضاً، بين فينة وأخرى، وتكلّمت أصوات جديدة، ذات نغمات مختلفات، في الطابق الأرضي منه. كان جدول من العالم الخارجي يجري خلاله. لقد أمسى ذا ربٍّ، ولقد سعدتُ أنا بذلك.

ولم يكن من ايسير تدريس آديل، في ذلك اليوم. لقد عجزت عن التركيز والمواظبة على الدرس، فهي لا تفتأ تهرع إلى الباب وتطلّ من فوق الدرابزين محاولة أن تلمح مستر روتشيستر ولو مجرّد لمح. ثم إنها شرعت تختلق الذرائع للهبوط إلى الطابق الأرضي. حتى إذا عصف بي بعض الغضب وأكرهتُها على التزام مقعد التدريس في سكينة واصلتِ التحدث، في غير انقطاع، عن صديقها مسيو إدوار فيرفاكس دو روتشيستر»، كما كانت تلقِّبه (ولم أكن قد سمعت حتى ذلك الحين باسمه الصغير)، وأخذت تحدس في الهدايا التي حملها إليها. إذ يبدو أنه

كان قد ألمع، الليلة البارحة، إلى أنها سوف تجد في أمتعته، حين تصِلْ من ميلكوت، صندوقاً صغيراً يشتمل على شيء يهمُّها.

وقالت، بالفرنسية: «وهذا يعني من غريب أنه سيكون في ذلك الصندوق هدية لي، وربما لكِ أنت أيضاً، أيتها ا لآنسة. إن السيد قد تحدَّث عنك: لقد سألني ما اسم مربيتي، وهل هي فتاة ضئيلة الجسم، شديدة النحول، شاحبة بعض الشيء. فاجبته أن نعم. إذ إن هذا صحيح، أليس كذلك، أيتها الآنسة؟»

وجرياً على مألوف عادتنا، تناولت أنا وتلميذتي طعام الغداء في حجرة مسز فيرفاكس. وكان الأصيل عاصفاً كثير الثلج، فقضيناه في حجرة الدرس. وعند الغسق أجزت لآديل أن تغلق الكتب، وأن تهبط السلم إلى الطابق الأرضي، ذلك بأني حزرت، من السكون النسبي الذي هيمن عليه ومن توقف جرس القصر عن الرنين، أن مستر روتشستر قد تحرّر الآن من مشاغله. حتى إذا وجدت نفسي وحيدة تقدّمت نحو النافذة، ولكن عيني لم تقع من ورائها على شيء. كان الغسق ورقاقات الثلج قد كثَّفت الهواء، وحجبت شجيرات المرج. فأسدلت الستارة، وانقلبت إلى جانب المستوقد.

وكنت أحاول أن أستجمع في ذاكرتي – على وهج الجمرات المتّقدة – خطوط لوحة تمثّل قصر هايد لبيرغ على الراين كنت قد رأيتها من قبل، عندما دخلت عليَّ مسزس فيرفاكس، مفسدة بدخولها تلك الفسيفساء النارية التي رحت ألملمها وأُعيد التأليف ما بين أجزائها، ومبدّدة في الوقت نفسه بعض الخواطر الثقيلة البغيضة التي كانت قد شرعت تغزو وحدتي.

وقالت: «سوف يكون مستر روتشيستر سعيداً إذا تناولت أنت وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال، هذه الليلة. لقد كان طوال النهار في شُغل شاغل لم يتح له أن يطلب الاجتماع بك قبل الآن».

فسألتها: «وفي أية ساعة يتناول الشاي؟»

– «أوه، في الساعة السادسة. إنّه يؤثر، كلما أقام في الريف، أن يجعل مواعيده مبكرة. ومن الخير لك الآن أن تغيري فستانك. ولسوف أمضي معك لأساعدك في ذلك. إليك شمعة».

– «أمن الضروري أن أغيّرفستاني؟»

– «أجل، ذلك أفضل. إنّي ألبس ثياب السهرة، كلّ مساء، حين يكون مستر روتشيستر هنا».

لقد بدا لي أن الاحتفال الإضافي بالمظهر الخارجي ينطوي على شيء من التكلّف والأُبَّهة. ومع ذلك فقد شخصت إلى حجرتي حيث نزعت بمساعدة مسز فيرفاكس، ثوبي ألقماشي الأسود، وارتديت بدلاً منه فستاناً أسود حريرياً كان هو الفستان الإضافي الأجود الذي أملكه، باستثناء فستان رمادي فاتح اعتبرته، بالنسبة إلى ما لُقِّنته في لو وود من قواعد الزينة، فستاناً نفيساً لا يحسن ارتداؤه إلاّ في المناسبات الاستثنائية.

وقالت مسز فيرفاكس: «أنت في حاجة إلى دبوس صدر». وكان لديَّ دبوس لؤلؤي صغير قدمته مس تامبل إلي، يوم ودّعتها، على سبيل الذكرى. فزينت به صدري، ثم هبطنا السلم إلى الطابق الأرضي. وإذ كنت غير متعوّدة أن ألقى أحداً من الغرباء، فقد كان استدعائي للمثول في حضرة مستر روتشيستر، على هذا النحو الرسمي، ضرباً من المحنة القاسية. وهكذا تركت مسز فيرفاكس تتقدّمني إلى حجرة الطعام، وبقيت مستظلة بها فيما كنا نعبر تلك الحجرة. حتى إذا اجتزنا بالقنطرة، التي كانت في تلك اللحظة مسدلة الستارة، دخلنا الحجرة القائمة هناك.

كانت على المائدة شمعتان مضاءتان، وكان على رف المدفأة اثنتان أخريان. وكان الكلب «بايلوت» يصطلي بحرارة النار العامرة وضيائها. وقد ركعت آديل على مقربة منه. وبدا مستر روتشيستر نصف مضطجع على أريكة، مسنداً قدمه إلى الوسادة. كان يرنو إلى آديل وإلى الكلب، وكانت النار تنير وجهه على نحو مشرق. كان هو المسافر الذي لقيته في الطريق؛ بحاجبيه الكثيفين الفاحمين، وجبينه

العريض، وقد زاده عرضاً انسدال شعره الأسود المسرَّح على نحو أفقي. لقد تبينتُ فيه أنفه الصارم، الذي يلفت النظر بما ينمّ عنه من قوة الشخصية أكثر مما يلفت النظر بجماله، ومنخريه اللذين نمَّا، في ما خيّل إلىّ، عن مزاج صفراوي غضوب. وتبيّنت فمه وذقنه وفكّه الكوالح، أجل لقد كانت ثلاثتها كالحة جداً، لا ريب في ذلك البتة. كان جسمه، كما بدا لي الآن وقد جرِّد من معطفه، منسجماً مع وجهه العريض، واحسب أنه كان جسماً حسناً بالمعنى الرياضي للكلمة: جسماً ذا صدر عريض وخصر نحيل، وإن لم يكن لا فارع الطول ولا رشيق القدّ.

وكان خليقاً بمستر روتشيستر أن يفطن لدخولي ودخول مسز فيرفاكس، ولكنه لم يكن – على ما بدا لي – في وضع نفسي يمكنه من رؤيتنا، ذلك بأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه.

وقالت مسز فيرفاكس، على طريقتها الهادئة: «هي ذي مس ايير، يا سيدي».

فانحنى تحية لي، ولكنه ظل مسمِّراً عينيه على الكلب والطفة. وقال: «دعي مس ايير تجلس».

كان ثمة في تلك الانحناءة المتصلّبة المتكلّفة، وفي النبرة النافدة الصبر برغم رسميَّتها شيء إضافي بدا وكأنه يقول: «وهل يعنيني، وحق الشيطان، أن تكون مس ايير هنا أو أن لا تكون هنا؟ أنا غير مستعد في هذه اللحظة للترحيب بها».

وجلست في غير اضطراب أو ارتباك. ولو قد تلقّاني مستر روتشيستر بلطف مصقول إذن لكان في ذلك، في أغلب الظن، ما يُربكني، إذ لم يكن في ميسوري أن أردّ على ذلك اللطف بكياسة ورشاقة. ولكن الجلافة التي تكشَّف عنها جعلتني في حلٍّ من هذا كله. والواقع أن الصمت المحتشم، الذي فرضه على مسلكه الشاذ، كان في صالحي. وإلى هذا، فقد كانت غرابة تصرُّفه مثيرة: لقد استشعرت أني مشوقة إلى معرفة ما سوف يتكشَّف عنه بعد ذلك.

لقد تكشف عن شبه تمثال، يعني أنه لم يتكلم ولم يتحرك، وبدا وكأن مسز فيرفاكس اعتقدت أن الواجب يقضي بأن يؤانس الجو واحدً منا، فشرعت تتحدّث. ولقد تحدثت، كمألوف عادتها، في لطف – ولكن كمألوف عادتها أيضاً في ابتذال – عن الأعمال الكثيرة التي تعيَّن عليه أن يصرِّفها طوال النهار، وعن الإزعاج الذي أورثته إياه، من غير ريب، رضة قدمه المؤلمة. ثم إنها أطرت صبره على ذلك كله واحتماله له.

– «سيدتي، إني راغب في احتساء شيء من الشاي»، ذلك كان هو الجواب الوحيد الذي فازت به. فسارعت إلى قرع الجرس، حتى إذا جيء بالصينية شرعت ترتّب الفناجين والملاعق وما إليها في رشاقة ناصبة. ومضيت أنا وآديل إلى المائدة، ولكن رب القصر لم يغادر أر يكته.

ووجهت مسز فيرفاكس الخطاب إليَّ قائلة: «هل لك أن تقدمي فنجان مستر روتشيستر إليه؟ إن آديل قد تريقه».

ونزلت عند رغبتها، وفيما كان يتناول الفنجان من يدي صاحت آديل بالفرنسية، حاسبة أن اللحظة مواتية للتقدم إليه، لمصلحتي أنا، بهذا الالتماس: «أليس صحيحا أن ثمّة،يا سيدي، هدية لمدموازيل ايير، في صندوق أمتعتك الصغير؟»

فقال في فظاظة: «من الذي يتحدّث عن الهدايا؟ هل كنت تتوقعين هدية، يا مسر ايير؟ هل أنت مولعة بالهدايا؟»

وشرع يمعن النظر إلى وجهي بعينين بدتا لي قاتمتين حانقتين ثاقبتين، فقلت: «لست أدري، يا سيدي. فليس لي في مسألة الهدايا غير خبرة ضئيلة. لكنها تُعْتبر، عادة، أشياء مستحبة».

– «تُعتبر عادة؟ ولكني أريد أن أسمع رأيك أنتِ؟»

- «أنا مضطرة إلى شيء من الروية قبل أن أوفق إلى إعطائك جواباً جديراً بأن يحظى بقبولك. إن للهدية وجوهاً متعددة، أليس كذلك؟ ويتعيَّن على المرء أن يعرف وجوهها كلها قبل أن يبدي رأياً في طبيعتها».

- «مس ايير، أنت لست ساذجة مثل آديل. إنها تطلب مني «هدية» حالما تقع عيناها عليَّ، وتطلبها في طبل وزمر. أما أنت فتحومين حول الموضوع مجرد حوم».

- «لأني أقلّ ثقة من آديل بأهليتي للهدية. إن لها عندك شافعاً من عشرة قديمة، ومن حق العادة أيضاً. ذلك بأنها تقول إنّك عوَّدتها أن تحمل إليها، دائماً، ضروباً من الألعاب والدمى. في حين أني لو حاولت أن ألتمس لنفسي حقاً يُجيز لي طلب الهدية منك لما وجدت، لأني غريبة، ولأني لم آت أيما عمل يجعلني جديرة بتقديرك».

- «أوه، لا تتهربي من الجواب مستعينة بالمبالغة في التواضع. لقد اختبرت آديل، فوجدت أنك بذلت في تلقينها جهداً عظيماً. إنها ليست ألمعية، وهي محرومة من المواهب. ومع ذلك فقد حققت، خلال فترة قصيرة، تقدماً غير يسير».

- «سيدي، لقد تدّمت إلي الآن «هديتي». وإني لأزجي إليك خالص شكري. إن خير مكافأة يطمع فيها المعلمون، أكثر ما يطمعون، هي تحدُّث المرء عمّا أحرزه طلابهم من تقدم».

فقال مستر روتشيستر «همممم!» وراح يحشي الشاي في صمت.

حتى إذا رُفعت الصينية، وانتحت مسز فيرفاكس زاوية انصرفت فيها إلى حبكها، وبينا كانت آديل تطوف بي حول الحجرة، ممسكة بيدي، مُطْلِعة إيّاي على المكتب والتحف الجميلة الموضوعة على الموائد الصغيرة المرتكزة إلى الحائط وعلى الخزائن الخاصة بالمناديل والمطرزات وما إليها، قال رب القصر: «اقتربا

من نار المستوقد!»، ففعلنا ما أمرنا به، كما يقتضينا الواجب. وأرادت آديل أن تتَّخذ من ركبتي مقعداً لها، ولكنها أمرت بأن تتسلّى بمداعبة بايلوت وملاعبته.

– «لقد أمضيت حتى الآن ثلاثة شهور في منزلي هذا؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «ولقد وفدت من...».

– «من مدرسة لووود، في إقليم...».

– «آه ! مؤسسة خيرية. كم سنة قضيت هناك؟»

– «ثماني سنوات».

– «ثماني سنوات! لا ريب في أنّك متعلقة بأهداب الحياة. لقد حسبت أن قضاء نصف هذه المدة في مكان مثل ذلك المكان كفيل بأن يرهق أقوى الأجساد! فلا عجب إن بدت على وجهك سيماء الوافدين من عالم آخر. لقد تساءلت من أين لك هذا الوجه. وحين التقيتك الليلة البارحة في طريق «هاي» لم أتما لك عن التفكير في الحكايات الخرافية، ونازعتني نفسي إلى سؤالك ما إذا كنت قد سحرت جوادي. وعلى أية حال، فأنا لا أزال في ريب من هذا الأمر. حدثيني عن أبويك».

– «ليس لي أبوان».

– «ولم يكن لك أبوان في أيما وقت من الأوقات، كما يخيل إليَّ.

ألا تتذكرينهما؟»

– «لا».

– «ذلك ما قدَّرته. وهكذا فقد كنت تنتظرين قرمك عندما جلست على درجة تلك السلم؟»

– «أنتظر من، يا سيدي؟»

- «تنتظرين الرجال ذوي الثياب الخضر: كانت الليلة قمرا، ولا ريب في أنها كانت تلاءم ظهورهم. هل تخطيت حلقة من حلقاتكم حتى نثرتِ ذلك الجليد الملعون فوق الجزء المعبّد من الطريق؟»

وهززت رأسي وقلت مصطنعة الجدَّ كما قد فعل: «إن الرجال ذوي الثياب الخضر كلهم قد هجروا إنكلترا منذ مئة عام. ولن تستطيع أن تجد أيما أثر لهم حتى في طريق «هاي» أو في الحقول المحيطة به. ولست أحسب أن قمر الصيف أو قمر الحصاد أو قمر الشتاء سوف يشرق على أعيادهم الراقصة، أبد الدهر».

وألقتْ مسز فيرفاكس حبكها جانباً، ورفعت حاجبيها وكأنها كانت تتساءل أيُّ حديث كان حديثنا ذاك.

وأردف مستر روتشيستر قائلاً: «حسناً، إذا كنت تنكرين أبويك فلا بدَّ أن يكون لك ضرب من الأهل: أعمام وعمات، مثلاً؟»

- «لا. أنا لم أرفي حياتي أعماماً لي وعمّات».

- «وبيتك؟»

- «ليس لي بيت».

- «أين يقطن إخوتك وأخواتك؟»

- «ليس لي أخوة ولا أخوات».

- «من الذي زكّاك لتولّي مهام عملك هنا؟»

- «لقد أعلنت، ولقد استجابت مسزفيرفاكس لإعلاني».

فقالت السيدة الصالحة، التي عرفت الآن عن أي شيء كنّا نتحدث: «أجل، وأنا أحمد الله كل يوم على حُسن الاختيار الذي هدتني العناية الإلهية إليه. فقد كانت

مسز أيير وما تزال رفيقة لي لا أستطيع أن أقدّرها حق قدرها، ومعلمة لآ ديل شديدة الإشفاق عليها، بالغة العناية بها».

فكان جواب مستر روتشيستر على هذه الملاحظات قوله: «لا تكلِّفي نفسك عناء تحليل شخصيتها. إن المدائح لا سلطان لها عليَّ. ولسوف أكوّن رأيي فيها بنفسي: لقد استهلّت عملها بأن صرعت جوادي وطرحته أرضاً».

فقالت مسز فيرفاكس: «ماذا تقول يا سيدي؟»

– «يتعيّن علي أن أشكر لها هذه الرضة التي أصابت قدمي».

وبدت على وجه الأرملة إمارات الانشداه.

– «مس ايير، هل عشت ذات يوم في مدينة من المدن؟»

– «لا، يا سيدي».

– «وهل تدّر لك أن تختلطي كثيراً بطبقات المجتمع العليا؟»

– «أنا لم أختلط إلاّ بطالبات مدرسة لو وود ومعلماتها، وإلا بنزلاء قصر ثورنفيلد في الفترة الأخيرة».

– «هل طالعت كثيراً؟»

– «لم أطالع إلاّ تلك الكتب التي وقعت عليها مصادفة. وهي كتب كثيرة، ولا تنطوي على ثقافة رفيعة».

– «لقد عشت حياة الراهبات. ولا ريب في أنك قد تلقّيت ثقافة دينية عميقة. إن بروكلهورست – الذي يدير معهد لووود – في ما أعلم – هو راعي كنيسة، أليس كذلك؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «ولعلك كنت أنت وزميلاتك تقدسنه، كما تقدس الراهبات – في دير من الأديار – مرشدهنّ».

– «أوه، لا».

– «أنت جريئة أكثر مما ينبغي. كيف؟ راهبة غير مثبتة ولا تقدّس كاهنها؟ يخيّل إلي أن هذا ضرب من التجديف».

– «كنت أبغض مستر بروكلهورست. ولم يكن ذلك هو شعوري وحدي. إنه رجلٌ غليظ القلب: رجل كثير التباهي والتطفّل في آن واحد. ولقد اشترى لنا، رغبة في الاقتصاد، أبراً وخيوطاً رديئة كنا لا نقدر على الخياطة بها إلاّ بشق الأنفس».

فلاحظت مسز فيرفاكس التي أدركت الآن، كرة أخرى، فحوى الحوار: «لقد كان ذلك اقتصاداً زائفاً جداً».

وتساءل مستر روتشيستر: «وهل كان هذا هو كل ما أثار حنقكنّ عليه؟»

– «لقد جوّعنا عندما كان هو المشرف الأوحد على دائرة التموين، قبل أن تعيَّن اللجنة، ولقد أضجرنا بمحاضراته الطويلة مرة كل أسبوع، وبقراءات مسائية من كتب من وضعه هو، تدور على موضوع الموت المفاجئ ويوم الحساب. وكانت هذه الكتب تجعلنا نخشى الإيواء إلى فُرشنا».

– «كم كانت سنك عندما ذهبت إلى لووود؟»

– «العاشرة تقريباً».

– «ولقد لبثت هناك ثماني سنوات، فأنتِ الآن إذن في الثامنة عشرة؟»

فأجبته أن نعم. فقال: «الحساب، كما ترين، مفيد. فلولاه لما كان في ميسوري أن أحزر مبلغ سنك. إنّ من العسير على المرء أن يقطع برأي حين يكون التنافر عظيماً بين أسارير الوجه وتعبيراته كما هي الحال بالنسبة إليك. والآن، ما الذي تعلمتِهِ في لورود؟ هل تحسنين العزف؟»

- «قليلاً».

- «طبعاً، فهذا هو الجواب التقليدي. اذهبي إلى المكتبة - أعني، أرجوكِ أن تذهبي إلى هناك - (اغفري لي لهجة الأمر التي استخدمتها، فأنا متعوّد أن أقول «افعل كذا» فيصدع المخاطب بما آمره به. وليس في ميسوري أن أغيِّر مألوف عاداتي إكراماً لوافدة واحدة حلّت بين ظهرانينا منذ قريب). اذهبي، إذن، إلى المكتبة، خذي معك شمعة، دعي الباب مفتوحاً، اجلسي إلى البيانو، واعزفي لحناً».

ومضيتُ إلى المكتبة، مطيعة أوامره.

وبعد بضع دقائق صاح قائلاً: «كفى، يبدو لي أنّك تحسنين العزف قليلاً، مثل أيّة طالبة إنكليزية أخرى. وربما أفضل من بعض أولئك الطالبات، ولكنك لا تجيدين العزف».

فأغلقت البيانو، ورجعت. فتابع مستر روتشيستر حديثه: «لقد أطلعتني آديل على بضعة رسوم إعدادية قالت إنّها من عملك. والواقع أني لا أدري هل رسمتها كلها ريشتك أنتِ أم لا؟ أغلب الظن أن أستاذاً قد عاونك؟»

فاعترضت قائلة: «أوه، لا».

- «آه، هذا يجرح كبرياءك. حسناً. ائتيني بمحفظة رسومك، إذا كنت تستطيعين أن تقيمي الدليل على أن محتوياتها هي بريشتك أنت. ولكن حذار أن تقولي قولاً إلاّ إذا كنت على يقين. إن الرسوم المرقعة لا تخفى عليَّ».

- «إذن فلن أقول شيئاً. إني أترك لك أن تحكم بنفسك، يا سيدي». وجئت بمحفظة رسومي من المكتبة، فقال: «قرّبي المائدة»، فدفعتها على عجلاتها نحو أريكته. ودنت آديل ومسز فيرفاكس لكي تريا إلى الرسوم.

عندئذ قال مستر روتشيستر. «لا أريد تجمهراً. كلّما فرغت من رسم خذاه من يدي. ولكن لا تلصقا وجهيكما بوجهي».

وشرع يدرس كلّ رسم إعدادي وكلّ لوحة في كثير من الروية. ثم إنه وضع ثلاثة منها جانباً، أما سائر الرسوم واللوحات فقد نبذها بعد أن فرغ من تأملها، وقال: «احملي هذه إلى المائدة الأخرى، يا مسز فيرفاكس، وألقي عليها نظرة مع آديل. أما أنتِ (وهنا التفت إليّ) فعاودي الجلوس في مقعدك وأجيبي عن أسئلتي. إني أرى أن هذه اللوحات الثلاث رسمتها يد واحدة. فهل كانت تلك اليد يدك؟»

– «نعم».

– «ومتى وجدت متّسعاً من الوقت لرسمها؟ لقد استغرق رسمها زمناً طويلاً، واحتاج إلى شيء من التفكير».

– «لقد رسمتها خلال العطلتين الأخيرتين اللتين قضيتهما في لو وود، حين لم يكن لدي أي عمل آخر».

– «ومن أين اقتبست موضوعاتها؟»

– «من رأسي».

– «هذا الرأس الذي أراه الآن بين كتفيك؟»

– «أجل، يا سيدي».

– «وهل هو عامر بموضوعات أخرى من النوع نفسه؟»

– «يخيّل إليّ أنه كذلك. بل إني أرجو أن يكون عامراً بما هو أفضل».

ونشر اللوحات أمامه، وأنشأ يدرسها من جديد، واحدة بعد أخرى. ويُحسن بي، أيها القارئ، أن أغتنم فرصة انشغاله بها لأحدّثك عمَّا كانت تمثّله. ولكن عليّ أن أقدِّم لذلك بالقول إنها ليست شيئاً رائعاً. والواقع إن موضوعاتها نجمت، أول ما نجمت، في مخيلتي على نحو زاخر بالقوة والحيوية. لقد كانت، كما تصورتها، قبل أن أحاول تجسيدها على الورق، فاتنة تأخذ بمجامع القلوب. ولكن يدي أبت أن

تُسعِف خيالي، فإذا بها لا تطلع في كل مرة إلاّ صورة شاحبة لما كنت قد تمثّلته في ذهني.

كانت تلك اللوحات مرسومة بألوان مائية. لقد مثلت الأولى سحباً خفيضة ضاربة إلى الزرقة تجري فوق بحر يعبّ عبابه. كان أقصى اللوحة كلّه قاتماً جداً، وكذلك كان صدرها، أو على الأصحّ أقرب أمواجها العارمة، إذ لم يكن ثمة يابسة. وأبرزت ومضة خاطفة صاري سفينة نصف مغمور بالماء جثم فوقه غراب بحر داكن ضخم رقش الزبد جناحيه. كان منقاره ممسكاً بسوار ذهبي مرصَّع بجواهر أخرجتها بأزهى ما استطاعت لوحة ألواني أن تجود به من أصباغ، وبأسطع ما استطاعت ريشتي أن تضفيه من وضوح. وتحت الطائر والصاري، التمعت من خلال المياه الخضراء جثة غريقٍ. كانت ذراع جميلة هي العضو الأوحد البادي على نحو واضح، وكانت تلك الذراع هي التي تقاذف الموج سوارها، أو التي انتُزع منها ذلك السوار انتزاعاً.

أما اللوحة الثانية فلم يمثّل صدرها غير قمّة كثيب قاتمة مالت أعشابها وبعض أوراقها وكأنما بفعل الريح. وفوق ذلك ووراءه امتدّت سماء مترامية، زرقاء داكنة كما تكون السماء عند الغسق. وقد ارتفعت نحو تلك السماء امرأة لا يُرى منها غير رأسها وصدرها، وقد رُسِمت بأقصى ما استطعت مزجه من ألوان رقيقة داكنة. لقد تُوِّج جبينها القاتم بنجم، وتحت هذا النجم بدت الأسارير وكأنها تُرى من خلال سحابة بخار. ولقد التمعت العينان سوداوين ضاريتين، وترقرقت خُصَل الشعر مثل ظل من الظلال، مثل سحابة داكنة مزّقتها الريح أو بدّدتها الكهرباء السماوية. وعلى جيد تلك المرأة تبدّى ضياء حب مثل ضوء القمر، ولقد مسَّ البريق الباهت نفسهُ موكب السحائب الرقيقة التي انبثق منها مشهد «نجمة المساء» هذا.

أما اللوحة الثالثة فمثلت قمّة جبل جليدي عائم تناطح سماء قطبية في فصل الشتاء، وعند الأُفق، كان حشد من الأضواء الشمالية يرمي بسالة الشاحبة إلى المدى البعيد

فيتكسَّر بعضها على بعض. وفي صدر اللوحة ارتفع رأس، رأس هائل منحن نحو جبل الجليد ومستند إليه. وتحت الجبين يدان نحيلتان متشابكتان تسنده وتنشر أمام الجزء الأدنى من الوجه حجاباً أسود، فليس يُرى منه غير ذلك الجبين البالغ الشحوب، الأبيض كالعظام، وغير عين غائرة جامدة خلوٍ من كل معنى إلاّ زجاجية اليأس. وفوق الصدغين، وسط طيات متشابكة من قماش أسود مكوّرة على صورة عمامة، غامضة في صفتها وتركيبها مثل سحابة، أومضت حلقة من لهب أبيض مرصّعة بشرارات صغيرة أشدّ توهّجاً. كان ذلك الهلال الشاحب هو «صورة تاج ملكي»، وكان ما يُكلِّله هو«الشكل الذي لا شكل له».

وسألني مستر روتشيستر فجأة: «هل كنت سعيدة عندما رسمت هذه اللوحات؟»

– «كنت مندمجة بها، وكنت سعيدة. وبكلمة، فإن رسمها كان يتيح لي التمتّع بمسرّة من أقوى المسرات التي عرفتها في حياتي».

– «ولكن هذا لا ينطوي، عند التحقيق، على كبير معنى. فقد كانت مسراتك، باعترافك أنت، قليلة نادرة. ولكني أستطيع القول إنِّك، في الواقع، عشت في جنة من أحلام – كتلك التي يحيا فيها الفنان – عندما مزجت هذه الألوان الغريبة وزاوجت ما بينها. هل كنت تفرغين لهذا الصنيع فترة طويلة كل يوم؟»

– «لم يكن لدي شيء آخر أعمله، فقد كنا في عطلة، ولقد فرغت للوحاتي هذه منذ طلوع الشمس حتى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى الغروب. وكان طول النهارات في غمرة الصيف يسأعدني على الانكباب والمثابرة».

– «ولقد استشعرتِ ارتياحاً ذاتياً لثمرة جهودك الجاهدة؟»

– «لــيس ثمة ما هو أبعد عن الواقع من هذا. فقد روّعتني وآلمتني تلك المفارقة بين أفكاري ونتاج يدي: ففي كل مرة كنت أجدني قد تخيّلت شيئاً عجزت كلّ العجز عن تحقيقه،».

– «ليس هذا صحيحاً على وجه الضبط. لقد وُفِّقت إلى تسـجيل ظلّ فـكرتك، لا أكثر من ذلك في أرجح الظن. فلم تكن لديك براعة الفنان وعلمه لكي تنفخي فيها كينونة كاملة. ومع ذلك، فهذه الرسوم هي، بالنسبة إلى طالبة صغيرة، عمل فذ. أما الأفكار فهي جنية. وهاتان العينان اللتان في لوحة «نجمة ا لمساء» لا بد أنّك رأيتهما في حلم. كيف تسنَّى لك أن تجعليهما تبدوان في مثل هذا الصفاء كله من غير أن تكونا على شيء من الالتماع البتة؟ وأي فكرة هي هذه التي في عمقها المهيب؟ ومن ذا الذي علمك أن ترسمي الريح؟ إنّ ثمة عاصفة هوجاء في تلك السماء، وعلى قمّة هذه الهضبة. أين رأيت لا تمرس؟ لأن هذه هي لاتموس. حسناً، ضعي الرسوم جانباً».

ولم أكد أعقد خيوط محفظة الرسم حتّى قال، على نحو مفاجئ، وهو ينظر إلى ساعته: «أمست الساعة التاسعة! ما الذي ترمين إليه من إبقاء آديل ساهرة حتّى هذه اللحظة، يا مس ايير؟ امضي بها إلى سريرها».

وتقدّمت آديل لتطبع على جبينه قبلة، قبل أن تغادر الحجرة. فاحتمل ملاطفتها ولكنه بدا وكأنه لم يستسغها بأكثر مما كان يمكن للكلب «بايلوت» أن يستسيغها، بل وكأنه لم يستسغها بقدر ما كان يمكن لــ «بايلوت» أن يفعل.

وقال مشيراً إلى الباب، وكأنه يريد أن يفهمنا أنه سئم رفقتنا ورغب في صرفنا: «أتمنى لكما ليلة سعيدة». فطوت مسز فيرفاكس حبكها، وحملت أنا محفظة رسومي، وودّعناه في أدب فردّ علينا بانحناءة باردة، وانسحبنا من الحجرة.

قلت مخاطبة مسز فيرفاكس عندما لحقت بها إلى حجرتها بعد أن قدت آديل إلى السرير: «لقد قلت لي إن مستر روتشيستر ليس غريب الأطوار إلى حدّ كبير».

– «حسناً»، وهل وجدته غريب الأطوار؟»

– «أظن ذلك. إنه سريع التقلّب، شديد الفظاظة».

- «صحيح. إنه قد يبدو هكذا لعين الغريب، من غير شك. ولكني قد ألفت عاداته إلى درجة تجعلني لا أفكر فيها البتة. وإلى هذا، فإن من واجبنا - إن يكن على شيء من شذوذ الطبع - أن نتسامح معه».

- «لـــماذا؟»

- «أولاً لأن هذه هي طبيعته التي فُطر عليها، وليس في مستطاع أي منّا أن يغير طبيعته، وثانياً لأنه من غير - ريب ضحية أفكار أليمة - أفكار تضايقه وتُوقع الاضطراب في مزاجه».

- «حول ماذا؟»

- «حول بعض المتاعب العائلية، في الدرجة الأولى».

- «ولكنه ليس بربّ، عائلة».

- «إنّه لم يعد اليوم رب عائلة. ولكنه كان في يوم من الأيام... أو كان له، على الأقل، بعض الأنسباء. لقد فقدَ أخاه الأكبر منذ بضع سنوات».

- «أخاه الأكبر؟»

- «أجل، إن هذه الممتلكات لم تنتقل إلى مســتر روتشيتر، الحالي منذ عهد بعيد. لقد انتقلت إليه منذ تســع سنوات تقريباً، ليس غير».

- «إن سنوات تسعاً لهي فترة طويلة حقاً. هل كان مولعاً بأخيه إلى حدّ يجعله عاجزاً، حتى اليوم، عن التأسّي والسلوان؟»

- «أوه، لا. لست أظن ذلك. والذي اعتقده أنه كان ثمة شيء من سوء التفاهم بينهما. إن مستر راولاند لم ينصف مستر إدوارد، ولعله أن يكون قد أوغر صدر أبيه عليه. فقد كان السيد العجوز محباً للمال، حريصاً على أن تظل ممتلكات الأسرة في يديّ وريث واحد. فهو لم يرد أن يفتِّتها من طريق القسمة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على أن يكون لمسترد إدوارد أيضاً بعض الثروة، حفاظاً على شرف

الأسرة واسمها. فلم يكد مستر ادوارد يبلغ سن الرشد حتى اتّخذت بضع خطوات لم تكن منصفة كل الإنصاف، خطوات أنزلت به أذى كبيراً. ولقد تعاون مستر روتشيستر العجوز ومستر راولاند، ابتغاء إغناء مستر إدوارد، على وضعه في مركز اعتبره هو أليماً. أما طبيعة ذلك المركز على وجه الضبط فذلك ما لم أعرفه قطّ معرفة واضحة، ولكن نفسه لم تطق صبراً على الآلام التي فُرضت عليه. وإلى هذا، فإنه ليس بالرجل الذي ينزع إلى الصفح، فاختصم مع أسرته، وأخذ يحيا منذ سنوات عديدة – وما يزال – ضربًا من الحياة غير المستقرة. ولست أحسب أنه قضى في ثورنفيلد، في أيما يوم من الأيام، أسبوعين متواصلين، لأن موت أخيه من غير وصية جعله سيّد القصر الأوحد. والواقع أن اجتنابه مثواه القديم ليس بالأمر الغريب».

– «وما الذي يحمله على اجتنابه؟»

– «لعلّه يجده موطناً كئيباً».

كان الجواب مراوغاً، ولقد كان خليقاً بي أن أرغب في شيء أوضح. ولكن مسز فيرفاكس لم تستطع، أو لم ترد، أن تعطيني بيانات أصرح وأكمل عن أصل المحن التي عاناها مستر روتشيستر وطبيعتها. لقد أعلنت أن ذلك كله كان لغزاً بالنسبة إليها، وأن ما عرفته كان ثمرة الحدس التخمين في المقام الأول. وعلى أيّة حال فقد كان واضحاً أنها وُدت لو أغير الموضوع، وهو ما فعلته نزولاً عند رغبتها.

[14]

مرّت بضعة أيام لم أجتمع فيها بمستر روتشيستر إلا قليلاً. ففي ساعات الصباح كان يبدو في شغل شاغل بأعماله ومصالحه، وفي الأصيل كان رجال من ميلكوت أو من الجوار يفدون لزيارته، وكانوا يلبثون في بعض الأحيان لتناول طعام العشاء معه. حتى إذا بلغت قدمه المرضوضة غاية من التحسّن تمكّنه من امتطاء جواده، أسرف في مغادرة القصر على صهوته، ولعله إنّما فعل ذلك لكي يردّ هذه الزيارات، إذ لم يكن لينقلب راجعاً إلى القصر، عادة، إلاّ في ساعة من الليل متأخرة.

وفي هذه الفترة، كانت آديل نفسها نادراً ما تدعى للمثول في حضرته، واقتصرت صلاتي به على لقاء عابر في الردهة، أو على السلم، أو في الشرفة، حين كان يمرّ بـــي، في بعض الأحيان، بترفّع وبرود، مشعرا إيَّاي بأنه قد رآني بمجرد هزة رأس نائية، أو نظرة فاترة، وأحيانا بانحناءة وابتسامة زاخرتين بلطف يذكر بلطف السادة الأمجاد. والحق أن تقلُّب مزاجه لم يُسْخطني لأني رأيت أنه لا شأن لي بتعديل ذلك المزاج، لقد كان مدُّه وجزره مُرتهنين بأسباب لا صلة لي بها البتّة.

وذات يوم تناول بعضهم طعام العشاء على مائدته، فرغب مستر روتشيستر إليَّ في أن أبعث إليه بمحفظة رسومي، لكي يطلع ضيفه، من غير ريب، على محتوياتها. وانصرف الضيوف مبكرين، ليشهدوا اجتماعاً عام في ميلكوت، على ما أعلمتني مسز فيرفاكس، ولكن مستر روتشيستر لم يرافقهم بسبب من أن الليلة كانت ماطرة قارسة البرد. فما إن انصرفوا حتى رن الجرس، وحتى تلقيت رسالة تقول بأن علي أنا وآديل أن نهبط إلى الطابق الأرضي. فسرَّحت شعر آديل وعنيت

بإظهارها في مظهر أنيق. وبعد أن استيقنت أني كنت في هندامي الكويكري[1]المألوف، حيث لا يحتاج شي ء إلى تسوية أو صلاح – وحيث كان كل شئ، حتى جدائل الشعر، رصيناً بسيطاً لا متّسع فيه لتشوُّش أو اضطراب – هبطنا الدرج، وآديل تتسا ءل تُري هل وصل صندوق الأمتعة الصغير بعد طول الانتظار، ذلك بأن وصوله كان قد
تأخَّر حتى ذلك الحين بسبب من غلطة ما. وكان حدْسها في محلّه، فقد كانت الهدية هناك، عندما دخلنا حجرة الطعام: علبة صغيرة من كرتون موضوعة على المائدة. لقد بدا وكأنها عرفتها بالغريزة.

(1):نسبة إلى جماعة الكويكرز. أو الأصدقاء. وهم فرقة دينية نصرانية متزمتة. والمراد بالهندام الكويكري الهندام المحتشم إلى أبعد حدود الاحتشام. (المعرب)

وصاحت بالفرنسية وهي تعدو نحوها: «علبتي! علبتي!»

– «أجل، هي ذي علبتك، آخر الأمر. امضي بها إلى زاوية من الزوايا، أنت يا ابنة باريس الأصيلة،
وتسلَّي بانتزاع أحشائها»، كذلك قال صوت مستر روتشيستر العميق الساخر، منبعثاً من أعماق كرسي ضخم ذي ذراعين على مقربة من نار المستوقد، ثم أضاف: «وحذار أن تزعجيني بأية تفاصيل متّصلة بعملية التشريح، أو أية ملاحظة عن حالة الأحشاء: قومي بعمليتك الجراحية في صمت، والزمي الهدوء، أيتها الطفلة، هل فهمتِ؟»

ويبدو أن آديل لم تكن في حاجة كبيرة إلى مثل هذا التحذير. ذلك بأنها كانت قد انسحبت بكنزها إلى إحدى الأرائك، وانهمكت في حلّ عقدة الخيط الذي صان غطاء ذلك الكنز. حتى إذا نزعت ذلك الحاجز، ورفعت بعض رقاقات فضية من ورق الزخرفة الشفاف اكتفت بمجرّد الهتاف، باللغة الفرنسية: «أيتها السماء! ما أجملها!» ثم استغرقت في تأمل نشوان.

وهنا تساءل رب القصر، نصف ناهض من مقعده ليلتفت نحو الباب، حيث كنت واقفة ما أزال: «هل مس ايير هنا؟»

حتى إذا رآني سحب أحد الكراسي إلى مقربة من كرسيه وأضاف: «آه، حسناً. تقدمي، اجلسي هنا. أنا لست مولعاً بثرثرة الأطفال، إذ ليس لي – بوصفي أعزب عتيقاً – أية ذكريات عذبة متصلة بلثغتهم. والواقع أني لا أطيق صبراً على قضاء سهرة كاملة، وجهاً لوجه مع طفل من الأطفال. لا تبعدي هذه الكرسي، يا مس ايير، أبقيه حيث وضعته تماماً واجلسي – أعني إذا سمحت. لعن الله هذه ا لمجاملات! إني أنساها دائماً. لا، ولست مولعاً، بخاصة، بالعجائز الساذجات. وبالمناسبة، يتعيّن عليّ أن لا أنسى عجوزي، فليس من الخير أن أغفلها. إنها من آل فير فاكس، أو على الأقل ذات بعل من آل فيرفاكس، والدم كما يقولون أكثف من الماء».

ورن جرساً ووجَّه دعوة إلى مسز فيرفاكص. وما هي إلاّ لحظات حتى أقبلت وفي يدها سلة حبكها.

وقال مخاطباً إياها: «مساء الخير، يا سيدتي. لقد أرسلت في طلبك لغرض خيري: لقد حظرت على آديل أن تحدثني عن هداياها، وليس من ريب في أنها مفعمة بضروب الخواطر الحبيسة التي تُوشك أن تنفجر، فتلطَّفي بمساعدتها كمستمعة وكمحدِّثة. إن ذلك خيق به أن يكون عملاً من أعظم أعمال الخير التي قُدر لك أن تؤديها».

والحق أن آديل لم تكد ترى ممسز فيرفاكس حتى دعتها إلى أريكتها، وهناك سارعت إلى ملء حضنها بما اشتملت عليه علبتها من محتويات خزفية وعاجية وشمعية، وأخذت تغمرها في الوقت نفسه بضروب الشروح وتعلن لها عن صنوف الابتهاج بقدر ما أسعفتها إنكليزيتها المهشّمة.

ثم إن مستر روتشيستر أضاف موجهاً الخطاب إلي: «أما وقد أديت دور المضيف الطيب وأتحت لضيفتيّ مجال الاستمتاع المتبادل فيتعين عليّ أن أستشعر

الحرية في التفرّغ لمتعتي الخاصة. مس ايير، قرِّبي كرسيك إلى الأمام، أكثر بعض الشيء: إنّك لا تزالين أبعد ممّا ينبغي، وليس في استطاعتي أن أراك من غير أن أفسد جلستي في هذا الكرسي المريح، وذلك شيء لا أنوي أن أقوم به».

وفعلتُ ما أُمرِتُ، برغم أني كنت أؤثر مئة مرة أن أظل بعيدة بعض الشيء، ولكن مستر روتشيستر كانت له في إصدار الأوامر طريقة مباشرة إلى درجة تجعل الانصياع العاجل لإرادته أمراً مفروغاً منه.

كنا، كما ذكرت من قبل، في حجرة الطعام. كانت الثريا، التي أُنيرت بمناسبة العشاء، تغمر الحجرة بفيض من النور الاحتفالي البهيج، وكانت نار المستوقد العامرة حمراء متوهجة إلى حدِّ بالغ، وكانت السجف الأرجوانية تتدلّى جليلة رحيبة أمام النافذة العالية، والقنطرة الأشدُّ علوّاً. كان كل شيء ساكناً، فليس يسْمَعير لغو آديل المكبوح (إنها لم تجرؤ على التحدِّث بصوت عال)، وغير نقر الأمطار الشتوية على زجاج النوافذ

وبدا مستر روتشيستر، فيما كان مستوياً على كرسيه المكسو بالدمقس، على غير ما بدا لي من قبل. كان أقلّ تجهماً – وكان أقلِّ كآبة بكثير. كانت تطفو على شفتيه ابتسامة، وكانت عيناه تلتمعان ببريق لم أدر أكان بريق الخمر أم لا، ولكني أحسب أن ذلك محتمل جدًا. كان على الجملة في مزاجه المسائي، وهو مزاج كان أكثر انبساطاً وابتهاجاً، وأكثر انسياقاً مع هوى النفس أيضاً، من مزاجه الصباحي البارد الجافي. ومع ذلك، فقد بدا مخيفاً، وقد أسند رأسه الضخم إلى ظهر كرسيه المنتفخ وانعكس وهج النار على أساريره الصوانية وفي عينيه الواسعتين السوداويين، ذلك بأنه كانت له عينان واسعتان، سوداوان، عينان جميلتان جداً أيضاً، لم تخلُوَا في بعض الأحيان من بعض التغير في أعماقهما، بعض التغير الذي لا يُعتبر رقّةً ولطفا، ولكنه يُذكِّرك، على الأقل، بالرقّة واللطف.

وكان قد أمضى دقيقتين وهو يرنو إلى النار، وكنتُ قد أمضيت مثل ذلك الوقت وأنا أرنو إليه عندما التفت فجأة فلمح عينّي مركزتين على محياه.

وقال: «أنت تتفرّسين فيِّ، يا مس ايير. هل ترينني فتيً وسيمًا؟»

وكان خليقًا بي، لو اصطنعت الروية، أن أجيب عن هذا السؤال بكلام تقليدي، كلام ينطوي على إبهام وكياسة. ولكن الجواب زلَّ عن لساني بطريقة ما، قبل أن أعي ذلك فقلت: «لا، يا سيدي».

فقال: «آه، يا الهي! إنَّ فيك لشيئاً فذاً حقا. إنك لتذكرين المرء براهبة صغيرة. فأنت غريبة، هادئة، رزينة، ساذجة. انك لتجلسين باسطة ذراعيك أمامك، منكِّسة عينيك في الأعم الأغلب على السجادة (اللَّهم إلاّ حين تصوَّبان تصويبا ثاقباً إلى وجهي، كما كانتا في هذه اللحظة، مثلاً). وحين يوجّه إليك المرء سؤالاً أو يبدي ملاحظة تجدين نفسك مضطرة إلى الإجابة عنها فعندئذ تطلقين جواباً صريحاً إنّ لم يكن فظاً فإنّه على الأقل خشن جاف. ماذا تعنين بهذا؟»

– «سيدي، لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغي لي. إني ألتمس عفوك. لقد كان عليّ أن أجيب بقولي إنّه ليس من اليسير إعطاء جواب مرتجل عن سؤال يتّصل بالمظهر الجسماني، وإن الأذواق تختلف، وإن الجمال أمرٌ ثانوي أو شيء من هذا القبيل».

– «لا، ما كان يحسن بك أن تجيبيني بمثل هذا الكلام. الجمال أمر ثانوي. هل هذا صحيح؟ وهكذا فإنك – تحت ستار تلطيف الإساءة السابقة، وستار ملاطفتي حتى أستعيد هدوئي–تطعنينني بمدية ماكرة خبيثة تحت أذني! تابعي كلامك: أيّة علّة تجدينها فيّ، بربِّك؟ أنا أحسب أن لي أوصالاً كاملة وقسمات وجه مثل أي رجل آخر؟»

– «مستر روتشيستر، اسمح لي أن أبرأ من جوابي الأول. فالواقع أني لم أكن أقصد إعطاءك جواباً لاذعاً. لقد كان ذلك مني مجرد خطأ أحمق».

– «تماماً. ذلك ما اعتقده أنا أيضاً. ولسوف تُحاسَبين عليه. انتقديني: هل تجدين في جبيني شيئاً لا يعجبك؟»

قال ذلك ورفع خصل الشعر السوداء التي كانت تنوي على جبينه، كاشفاً عن جبهة عريضة ذكية، ولكنها خلو من أيما إمارة من إمارات الطيبة.

ثم أضاف: «والآن، يا سيدتي، هل تجدينني رجلاً أبله؟»

– «معاذ الله، يا سيدي. ومن يدري، فلعلّك يا سيدي تحسبني مخلوقة فظة إذا سألتك بدوْري هل أنت مُحسْن محبِّ للخير؟»

– «ها قد عدنا! وها هي ذي طعنة أخرى من تلك المدية نفسها توجهها إليّ فيما هي تربت على رأسي، وما ذلك إلاّ لأنني قلت إني لا أحب معاشرة الأطفال والنسوة والعجائز (إن من الخير لي أن أخفض صوتي بهذه الكلمات!) لا، يا سيدتي الصغيرة، أنا لست محسنًا محبًّا للخير، بالمعنى العام للتعبير. ولكني رجل ذو ضمير» وأشار إلى النتوء الذي يُقال إنّه ينمُّ عن هذه المــَلَكَة، والذي كان لحسن طالعه واضحاً على نحو كافٍ فهو يضفي على الجزء الأعلى من رأسه سعة ملحوظة، ثم أردف: «وإلى هذا، فقد غلب عليّ في يوم من الأيام ضرب من رقة القلب فيه قسوة وغلظة. فحين كنت في مثل سنّك كنت فتى مرهف الإحساس، عطوفاً على الصغار، وعلى المستضعفين الذين لا نصير لهم، وعلى البؤساء الذين خانهم الحظ. ولكن الدهر وجَّه إليَّ ضرباته القاضية منذ ذلك الحين، بل لقد عركني بيديْه القويتين، وها أنا ذا الآن أتباهى بأنني قاسٍ صلب مثل كرة من مطاط، كرة مساميَّة ينفذ إليها الماء، من طريق شِقٍّ أو شِقين، ولكن ليس في وسط كتلتها غير نقطة حسَّاسة واحدة. فهل قد بقي لي، بعد ذلك، شيء من الأمل؟»

– «الأمل في أي شيء، يا سيدي؟»

– »في تحوُّلي، مرّة أخرى، من مطاط إلى لحم؟»

فقلت في ذات نفسي: «لا ريب في أنه قد أسرف في الشراب». ولم أدرِ بأي شيء يجب أن أجيب عن سؤاله العجيب ومن أين لي أن أتكهّن هل سيكون في ميسوره أن يتحول من جديد، أم لا؟

«أراك مرتبكة جداً، يا مس ايير. وعلى الرغم من أن ما تتمتعين به من جمال لا يزيد على ما أتمتع به من وسامة فإن سيماء الارتباك تناسبك وتليق بك. وإلى هذا، فإنها تلائمني أنا أيضاً، لأنها تقصي عينيك المتحرِّيتين عن محيَّاي، وتشغلهما بالتحديق في البساط الصوفية. وهكذا استمري في ارتباكك. إني نزَّاع، يا سيدتي الصغيرة، إلى أن أكون الليلة اجتماعياً راغباً في معاشرة الناس».

قال هذا ونهض من كرسيه، ووقف مسنداً ذراعه إلى رفّ المستوقد الرخاميّ. وتبدَّى قوامه، وهو في ذلك الوضع، بمثل الوضوح الذي تبدَّى فيه وجهه، كما تبدى اتساع صدره الاستثنائي الذي كاد يكون غير متناسب طول أطرافه. وأنا واثقة من أن كثرة الناس الكثيرة خليق بهم أن يعتبروه رجلاً دميماً، ومع ذلك فقد كان في هيئته اعتدادٌ لا شعوري بالغ، وكان في مسلكه ثقة بالنفس قوية، وفي سِيماه لا مبالاة كاملة بمظهره الخارجي واعتمادٌ متغطرس على قوة صفاته الأخرى، فطرية كانت أم مكتسبة، وكان في هذا كله ما يعوّضه عن فقدان الجاذبية الشخصية، بحيث أن الناظر إليه لا يستطيع إلا أن يشاركه تلك اللامبالاة، وأن يشاركه – على نحو أعمى – تلك الثقة بالنفس.

وكرّر قائلاً: «إني نزاع إلى أن أكون، الليلة، اجتماعياً راغباً في معاشرة الناس. وهذا هو السبب الذي من أجله دعوتك للمجيء إلى هنا: إني لم أجد في النار والثريا ما يُشبع نزعتي الاجتماعية هذه، كما أنه ليس في ميسور «بايلوت» أن يشبعها، لأن أيًّا منها لا يستطيع الكلام. إن آديل هي فوق النار والثريا و «بايلوت» درجة، من غير ريب، ولكنها مع ذلك تظل دون المستوى المطلوب بكثير. والشيء نفسه يصحّ في مسز فيرفاكس أيضاً. أما أنت فإني على يقين من أن في إمكانك أن تلائميني إذا شئت. لقد أذهلتِني في الليلة الأولى التي دعوتك فيها إلى

هنا، وكنت نسيتك – أو كدت – منذ ذلك الحين، فقد صرفتني عن التفكير فيك أفكار أخرى استبدّت برأسي. ولكني قد عقدت العزم، الليلة، على الإخلاد للراحة، فأطرح كل ما يزعج، وأستحضر كل ما يوقع الرضا في النفس. وإنه ليرضيني الآن أن أغريك بالكلام... أن أزداد معرفة بك. هيا، إذن، تكلمي».

ولكني، بدلاً من أن أتكلّم، تبسَّمت، ولم تكن ابتسامتي مستبشرة جداً أو مذعنة جداً أيضاً.

فألح قائلاً: «تكلمي!»

– « عمّ، يا سيدي؟»

«عن أيما شيء يروق لك. إني أترك لك كامل الحرية في اختيار الموضوع وفي طريقة معالجته».

وهكذا قعدت واعتصمت بالصمت. لقد قلت في ذات نفسي: «إذا كان يتوقّع مني أن أتحدّث لمجرّد التحدُّث والتفاخر فلسوف يكتشف أنه لم يوجه خطابه إلى الشخص المناسب».

– « أراك بكماء، يا مس ايير».

ولزمت الصمت، فحني رأسه نحوي بعض الشيء، وبنظرةٍ مفردة خاطفة بدا وكأنه يغوص في عينيّ غوصاً.

وقال: «عنيدة ؟ ومتبرِّمة. هذا طبيعي، ذلك أني أفرغت طلبي في صيغة سخيفة، صيغة تكاد تكون وقحة. مس ايير، إني ألتمس عفوك. الواقع هو، وأنا أقول ذلك مرة وإلى الأبد، إني لا أريد أن أعاملك كما أعامل من هم دوني مقاماً، أعني (وقد حاول بهذا التفسير أن يصحّح نفسه) إنني لا أدّعي لنفسي إلا ذلك التفوّق الذي تفرضه عشرون سنة هي فرق ما بين سنّي وسنك، ويفرضه قرن من الزمان كامل، هو فرق ما بيني وبينك في حقل الخبرة والتجربة. وهذا حقّ من حقوقي المشروعة، وإني لأتشبث به، كما تعبر آديل بلغتها الفرنسية. وبحكم هذا التفوّق،

وبحكمه وحده، أرغب إليك أن تتلطفي فتحدثيني الآن بعض الشيء. وأن تنقذيني من أفكاري التي يثيرها التركيز على نقطة واحدة، والي أراها تتآكل مثل مسمار صدئ».

كان قد تنازل فقدّم تفسيراً، بل شبه اعتذار. ولكني لم أستشعر أيما تحجّر تجاه تلطفه، ولقد أردت أن أشعره بذلك، فقلت: «إني راغبة في تسليتك إذا استطعت، يا سيدي، جد راغبة، ولكني لا أقوى على اختيار الموضوع، إذ من أين لي أن أعرف ما الذي يروق لك؟ وجّه إليّ أسئلة، ولسوف أبذل غاية جهدي للإجابة عنها».

– «إذن فهل تقرّينني، في المقام الأول، على أنّ لي حقاً في أن أكون مستبداً بعض الشيء، فظاً بعض الشيء، وربما كثير المطالب، في بعض الأحيان، للاعتبارات التي ذكرتها، أعني أني بلغت من السن مبلغاً يجعلني في مقام والدك، وأني خضت غمار تجارب متباينة، مع كثير من الناس وكثير من الأمم، وطوّفت في البلاد فزرت أكثر من نصف الكرة الأرضية، في حين أنّك عشت عيشاً مطمئناً هادئاً مع مجموعة من الناس لا تتغير، في بيت واحد لا يتغير؟»

– «افعل ما يحلو لك، يا سيدي».

– « هذا ليس بجواب. أو أنه على الأصح يثير الأعصاب إلى حدّ بعيد، لأنه ينطوي على كثير من التهرّب. أجيبيني في وضوح».

– « أنا لا أحسب، يا سيدي، أن لك حقاً في فرض إرادتك عليّ لمجرّد أنّك أعلى مني سناً، أو لمجرّد أنك عرفت من بلدان الأرض أكثر ممّا عرفت أنا. إن دعواك في التفوُّق تقوم على مدى ما وفِّقْت إليه من حُسن الإفادة من وقتك وخبراتك».

– « همممم! هو ذا جواب مرتجل. ولكني لا أسلِّم بأنك على صواب، لأن هذا لا يدعم قضيتي البتة. ذلك أنني استخدمت كلاًّ من وقتي وخبرتي استخداماً غير مبالٍ، إن لم أقل سيئاً. وحتّى لو أسقطنا مسألة التفوّق هذه من حسابنا، يتعيّن عليك

أن توافقي على تلقّي أوامري بين الفينة والفينة، من غير أن تثيرك لهجة الأمر أو تؤذيك. فما رأيك؟»

وتبسمت وقلت في ذات نفسي: «إن مستر روتشيستر غريب الأطوار حقاً، إنه يبدو وكأنه قد نسي أنه يدفع إليّ ثلاثين جنيهاً في العام أجراً على تلقّي أوامره».

وقال، مدركاً – في الحال – انطباعاتي العابرة: «هذه الابتسامة حسنة جداً، ولكنْ أردفي الابتسام بالكلام».

– «كنت أفكر يا سيدي كم هو قليل عدد الرؤساء الذين يكلّفون أنفسهم عناء السؤال عمّا إذا كانت أوامرهم تثير مرؤوسيهم المأجورين وتؤذيهم أم لا».

– «مرؤوسيهم المأجورين! ماذا؟ أنت مرؤوستي المأجورة؟ أوه، أجل، لقد نسيت الراتب! حسن إذن، هل تجيزين لي، على هذا الأساس الارتزاقي، أن أنأكدك وأن أروّعك بعض الشيء؟»

– « لا، يا سيدي، ليس على هذا الأساس. أما على أساس أنّك نسيت ذلك، وأنك حريص على أن يكون تابعك مرتاحاً إلى تابعيته لك، فإني أجيزه من صميم الفؤاد».

– «وهل توافقين على الاستغناء عن جمهرة كبيرة من الصيغ والعبارات التقليدية من غير أن يخطر لك أن إغفالها ناشئ عن شيء من الازدراء؟»

– « أنا واثقة يا سيدي من أني لن أخطئ فأتوهّم التجاوز عن الشكليات المألوفة احتقاراً. والواقع أني أميل إلى أول هذين الأمرين بعض الشيء، أما ثانيهما فما أحسب أن أي ابن حرة يرضى به، ولو لقاء راتب يُجْرى عليه».

– «هراء! إنّ معظم أبناء الحرائر على استعداد لأن يرتضوا القيام بأيما شيء لقاء الراتب. من أجل ذلك، دعي الناس وشأنهم، ولا تغامري بإطلاق الأحكام التعميمية في موضوعات تجهلينها جهلاً مطبقاً. وعلى أية حال، فإني أصافحك، عقلياً، مهنئاً إيّاك على جوابك، برغم افتقاره إلى الدقّة. أجل إني أهنئك على ذلك

الجواب، سواء من حيث الطريقة التي قيل بها أو من حيث مادة الكلام: لقد كانت الطريقة صريحة ومخلصة. وليس يقع المرء دائماً على مثل هذه الطريقة في الإجابة. على العكس، إنّ التصنُّع أو البرود، أو سوء الفهم الأحمق الغليظ. العقل للمعنى الذي قصده المرء هي المكافآت المعتادة التي تلقاها الصراحة. ولا أحسب أن ثمة ثلاث مربّيات، من بين ثلاثة آلاف مربية، كان يمكن أن يجبنني كما أجبت أنتِ اللحظة. ولكني لا أقصد إلى إطرائك. إنكِ إذا كنت تختلفين عن الكثرة الكبيرة من بنات جنسك فليس الفضل في هذا لك. إنه من عمل الطبيعة. ثم إنني، بعد هذا كله أتعجل إطلاق الأحكام. أنا لا أكاد أعرف عنك شيئاً. ومن يدري، فقد لا تكونين خيراً من الأخريات، وقد تكون فيك علل لا تُحتمل تعادل حسناتك القليلة وتطمس عليها».

فقلت في نفسي: «وكذلك قد تكون أنت!». والتقت عينيّ عينه لحظة خطرت لي الفكرة: لقد بدا وكأنه قرأ ما كان يجول في خلدي، إذ أجاب وكأن فحوى ذلك لم يكن مجرّد طائف في الذهن بل كلاماً ملفوظاً أيضاً.

قال:«أجل، أجل، أنتِ على حق. أنا مُثقل بالعلل والعيوب. ذلك شيء أعرفه، ولست أريد أن أبرّره وألتمس له المعاذير، أؤكد لك. إنّ الله يعلم أني لست في حاجة إلى أن أكون قاسياً في أحكامي على الآخرين، لأن لي ماضياً ثقيلاً، وسلسلة أفعال ولوناً من الحياة يتعيّن عليّ أن أتأملها في ذات نفسي، وكلها قد ترد سخرياتي وانتقاداتي نفسها إلى نحري. لقد اندفعت، أو على الأصح (ذلك بأني، مثل سائر الآثمين، أميل إلى إلقاء نصف الملامة على الحظ العاثر والظروف المعاكسة) قد دُفعت في طريق الضلال وأنا في الحادية والعشرين، ولمّا اهتدِ إلى السبيل القويم منذ ذلك الحين، ولكنه كان من الجائز أن أكون شيئاً مختلفاً جداً. لقد كان من الجائز أن أكون صالحاً مثلك، وأعظم حكمة منك، وربما في مثل طهارتك. أنا أغبطك على ما تتمتعين به من بال مطمئن، وضمير نقي، وذاكرة غير مدنسة. أيتها الفتاة الصغيرة، إن الذاكرة غير المشوبة بأيما لطخة أو دنس هي كنزٌ نفيس من غير ريب – معينٌ من الإنعاش لا ينضب، أليس هذا صحيحاً؟»

– «كيف كانت ذاكرتك يوم كنت في الثامنة عشرة، يا سيدي؟»

ما–«كانت حسنة آنذاك، كانت صافية، صحية، ولم يكن أيما ماء دافق أو راكد قد أحالها إلى مستنقع آسن. كنت صِنْوكِ وأنا في الثامنة عشرة، صنوك تماماً. لقد قصدت الطبيعة إلى أن تجعل مني رجلاً صالحاً، على الجملة، يا مس ايير، رجلاً من الطراز الأفضل، وإنك لترين أني لستُ كذلك. قد تقولين إنّك لا تَريْنهُ، فاسمحي لي أن أطري نفسي فأقول إني أقرأ هذا في عينيك (وانتبهي، بالمناسبة، فإن ما تعبّرين عنه بذلك العضو أترجمه أنا عن لغته على جناح السرعة). والآن، صدقيني إذا قلت لك إني لست وغداً لئيماً فليس لك أن تحسبيني كذلك، أن تنسبي إليَّ مثل هذه السمعة الرديئة. ولكن بسبب ظروف بعينها – وأنا أقول ذلك صادقاً – وبسبب من ميل فطري عندي، أمسيت آثما تافهاً متبذلاً، منغمساً في جميع الملذات الصغيرة الحقيرة التي يحاول الأثرياء والتافهون أن يوشحوا بها حياتهم. أتعجبين لاعترافي لك بهذا كله؟ ألا فاعلمي أنك كثيراً ما ستجدين نفسك، في مقبلات أيامك، وعلى الرغم منك، موضع ثقة معارفك ومستودع أسرارهم. ذلك بأن الناس سوف يكتشفون، على نحو غريزي، كما اكتشفت أنا، أن موهبتك لا تقوم على التحدّث عن نفسك بل تقوم على الاستماع بينما يتحدث الآخرون عن أنفسهم. إنهم سوف يستشعرون أيضاً أنك لا تستمعين إليهم بروح ضائعة من الازدراء لحماقتهم وتهوُّرهم، ولكنْ بضرب فطري من المشاركة الوجدانية لا يقلِّل من قيمته الترفيهية والتشجيعية كونُ مظاهره خلواً من الفضول والتطفّل».

«ومن أين تعرف؟... كيف تستطيع أن تحذر هذا كله، يا سيدي؟»

«أنا أعرف ذلك جيداً، من أجل ذلك أتابع حديثي في حرية وكأنني أدوّن خواطري في يوميات. قد تقولين إنّه كان عليّ أن أسمو فوق الظروف. أجل، كان من واجبي أن أفعل ذلك.. كان من واجبي أن أفعل ذلك، ولكني كما ترين لم أفعل. فحين ظلمني القدر لم أكن من الحكمة بحيث أعتصم بالهدوء: لقد غلب عليّ اليأس أولاً، ثم انحدرت في مزالق الانحلال والتفسّخ. والآن إذا أثار تقززي أيما أحمق

أثيم ببذاءته الحقيرة أجدني لا أستطيع أن أطري نفسي بالقول إنّي خير منه. إني مضطر إلى الإقرار بأنني وإيّاه على مستوى واحد. لشدّ ما تمنيت لو أصمد... الله يعلم أنني تمنيت! حاذري الندم، يا مس ايير، حين تسوِّل لك نفسك أن تزلِّي، فالندم سمُّ الحياة».

– «يقولون إنّ التوبة هي علاجها، يا سيدي».

– «إنها ليست علاجها. إن إصلاح المرء نفسه قد يكون هو علاجها الناجع. ولقد كان في إمكاني أن أصلح نفسي – أنا لا أزال أملك القدرة على ذلك – إذاً... ولكن أيّة فائدة ترتجى من التفكير في ذلك، والعوائق والأعباء واللعنات تحيط بي من أقطاري جميعاً؟ وإلى هذا، فما دامت الأيام تنكر عليّ السعادة إنكاراً قاطعاً فإن من حقي أن أنتهب من الحياة لذّتها. ولسوف أنتهبها من غير ريب، مهما كان الثمن».

– «وإذن فلن تزداد إلاّ انحداراً في مزالق الانحلال والتفسُّخ، يا سيدي».

– «ربما. ومع ذلك فلماذا يتعيّن عليّ أن أواصل الانحدار في تلك المزالق إذا كان في ميسوري أن أفوز بمتعة عذبة نضرة؟ وقد أفوز بها في مثل عذوبة العسل الطبيعي الذي تجنيه النحل من الأرض السبخة وفي مثل نضارته؟»

– «إنها سوف تلسعك... إن عسلها سوف يكون مرَّ المذاق، يا سيدي».

– «كيف تعرفين؟ إنكِ لم تجربيها قط. لشدَّ ما تبدو عليك إمارات الجد البالغ، والوقار المسرف، وإنك لتجهلين المسألة بقدر ما يجهلها هذا التمثال الصدفي ذو النقوش» (وتناوله من على رفّ المدفأة). «أنت لا حق لك في تقديم المواعظ إلي، أيتها المبتدئة، التي لمّا تتخطَّ عتبة الحياة بعد، والتي لا تعرف من أسرارها شيئاً البتة».

– «أنا أذكِّرك بكلماتك نفسها، ليس غير، يا سيدي. لقد قلت إنَّ الخطأ يفضي إلى الندم، ثم أعلنت أن الندم هو سمّ الوجود».

-«ومن الذي يتحدّث الآن عن الخطأ؟ أنا لا أظن أن الفكرة التي خطرت في ذهني كانت خطأ. على العكس، إني أعتقد بأنها كانت وحياً أكثر منها إغراء: كانت أنيسة ومهدِّئة – أنا واثق من ذلك. وها هي ذي تخطر لي مرّة أخرى! إنّها ليست شيطاناً، أؤكد لك. فإذا كانت شيطاناً فلا ريب في أنها قد اتشحت بأثواب ملاك من ملائكة النور. ويخيّل إليّ أن من واجبي أن أرحب بمثل هذه الضيفة الحسناء حين تلتمس الدخول إلى فؤادي».

– «خذ حذرك منها، يا سيدي. إنها ليست ملاكاً حقيقياً ».

– «ومرِّة أخرى أسألك، كيف تعرفين ذلك؟ بأية غريزة تزعمين أنك قادرة على التمييز بين ملاك زلَّ فأمسى من نزلاء الجحيم وبين رسول من رسل العرش الأزلي. بين هادٍ ومغوٍ؟»

– «لقد أعطيت حكمي استناداً إلى سيماك، يا سيدي، التي كانت قلقة عندما قلت إنّ الفكرة خطرت لك مرّة أخرى. وإنِّي لعلى يقين من أنها سوف تورِثك شقاء إضافياً إذا رضَخْتَ إليها».

– « لا، على الإطلاق. إنها تحمل أكرم رسالة في العالم. وإلى هذا، فأنت لست الوصية على ضميري، فلا داعي لقلقك. هيا، ادخلي، أيتها التائهة الوسيمة».

قال ذلك وكأنه يتحدث إلى طيف لا تراه أيما عين غير عينه. ثم إنه طوى ذراعيه – اللتين كان قد بسطهما نصف بَسْط – على صدره، فبدا وكأنه يعانق بهما ذاك الكائن اللامنظور.

وأضاف معاوداً توجيه الخطاب إلي: « لقد استقبلتُ التائهة – إنها آلهة متنكرة، في ما أعتقد من غير ريب. ولقد أحسنت إليَّ في الحال: لقد كان قلبي ضرباً من مقبرة، ولسوف يغدو الآن مزاراً».

– »أقول لك الحقيقة يا سيدي؟ أنا لا أفهمك البتة. أنا لا أستطيع أن أتابع تطوّر الحديث، فقد أمسى أعمق من أن أفهمه. أنا لا أعرف غير أنك لم تكن صالحاً بقدر

ما كان يتعيّن عليك أن تكون، وأنك نادم على مواطن نقصك الذاتية. وإن في استطاعتي أن أفهم شيئاً واحداً ليس غير، وهو أنك ألمعت إلى أن الذاكرة المدنَّسة نقمة سرمدية. والذي يبدو لي أنك إذا بذلت جهداً صادقاً فقد تجد، مع مرور الأيام، أن من الممكن لك أن تصبح ما ترغب أنت في أن تصبحه. وإنّك إذا ما شرعت، منذ اليوم، بعزم وطيد، في إصلاح أفكارك وأفعالك فلن تنقضي غير بضع سنوات حتى تتم لك ذخيرة من الذكريات جديدة طاهرة، يكون في ميسورك ان تَفْزَع إليها في سرور».

– «فكرة صائبة، ولقد عبّرت عنها فأحسنت التعبير، يا مس ايير. وفي هذه اللحظة أراني أعبِّد الجحيم في قوة وعزم».

– «سيدي؟»

– «إني لأتّخذ قرارات طيّبة أعتقد أنها في مثل قسوة الصوان. وليس من شكّ في أن رفاقي سوف يصبحون غير ما كانوا وأن مطالبي سوف تصبح غير ما كانت».

– «وأفضل ممّا كانوا وكانت؟»

– «أجل، وأفضل... بقَدر ما يَفْضُل الذهب الخالص صدأ المعادن الخبيث. يخيَّل إلي أنك ترتابين بي، أما أنا فلا أرتا ب في نفسي. أنا أعرف ما هو هدفي، وما هي دوافعي، وإني لأسنُّ في هذه اللحظة قانوناً لا سبيل إلى تغييره، قانوناً كقوانين الميديين والفرس، يقول بأن هذا الهدف وتلك الدوافع هي صالحة».

– «ليس في إمكانها أن تكون صالحة، يا سيدي، إذا احتاجت إلى قانون جديد يضفي عليها صفة شرعية».

– «بل إنها صالحة، يا مس ايير، رغم حاجتها الماسة إلى قانون جديد. إنّ الأحوال والملابسات الجديدة التي لم يُسمع بمثلها من قبل لتتطلب قواعد جديدة لم يسْمع بمثلها من قبل».

« ذلك مبدأ خطر، في ما يبدو لي، يا سيدي. لأن في ميسور المرء أن يرى، لأول وهلة، أنه عرضة للتعسُّف وإساءة الاستعمال».

« إنها حكمة موجزة كإيجاز الأمثال. هذا صحيح، ولكني أقسم بآلهة أسرتي أني لن أسيء استعمالها».

– « أنت بشر، وغير معصوم».

« إني كما تقولين. وكذلك أنتِ... ثم ماذا؟»

« إن البشر وغير المعصومين يجب أن لا ينتحلوا سلطة ليس يمكن أن تُمْنح – من غير ما خوف أو تعسّف – إلاّ للآلهة والكاملين من الناس فحسب».

– «أية سلطة؟»

– «سلطة تبرير أي مسلك غريب محرّم بالقول: «ليكن هذا هو السبيل القويم»!

– «ليكن هذا هو السبيل القويم!» ذلك ما ينبغي أن يقال بالحرف. ولقد قلتِه أنت نفسك».

– «أسأل الله أن يكون هو السبيل القويم إذن!» قلت ذلك، وأنا أنهض من مقعدي، معتبرة أن من العبث، الذي لا طائل تحته أن أواصل حديثاً كان كله ظلاماً بالنسبة إليّ، مدركة بالإضافة إلى ذلك أن شخصية مخاطبي كانت ممتنعة على فهمي، في اللحظة الحاضرة على الأقل، وشاعرة بالحيرة وبحسّ اللا أمن الغامض اللذين يلازمان اقتناع المرء بأنه جاهل.

– «إلى أين أنت ذاهبة؟»

– «لكي أضع آديل في سريرها. لقد آن موعد نومها منذ فترة».

– «أنت خائفة مني لأني أتكلَّم مثل أبي هوْل».

– «إنَّ لغتك ملّغَزة، يا سيدي. ولكني – برغم انشداهي – غير خائفة البتة».

– «بل أنت خائفة – إنّ أنانيتك تخشى أن ترتكب خطأ فاضحاً».

– «أنا، بهذا المعنى، خائفة حقاً. إني لا أستشعر أيّة رغبة في اللغو وفضول الكلام».

– «لو أنك نطقتِ بشيء من الهراء إذن لفعلت ذلك على نحو رصين هادئ إلى درجة أتوهم معها أنك تقولين كلاماً منطقياً. ألا تعرفين الضحك أبداً، يا مس ايير؟ لا تكلّفي نفسك عناء الإجابة، فأنا ألاحظ أنّك نادراً ما تضحكين. ولكن في استطاعتك أن تضحكي. في مرح بالغ: صدقيني، أنت لست عبوساً بالفطرة بأكثر ممّا أنا أثيم بالفطرة. إن الكبت الذي فرض عليك في لو وود لا يزال متعلّقاً بأهدابك، فهو يسيطر على أساريرك، ويخنق صوتك، ويشلّ أوصالك، وإنك لتخافين – في حضرة رجل وأخ، أو أب أو سيد، أو ما شئت فقولي – أن تبتسمي في كثير من المرح، أو تتحدثي في كثير من الحرية، أو تتحركي في كثير من السرعة. ولكني أحسب أنّك سوف تتعلمين، مع كرّ الأيام، كيف تجرين معي على سجيتك،. تماماً كما أجد من المتعذّر عليّ أن أكون تقليدياً من متمسكاً بأهداب العرف حين أتحدّث إليك، وعندئذ تمرر نظراتك وحركاتك برشاقة وتنوُّع لا تجرئين اليوم على التكشف عنهما. وإني لألمح بين فترة وأخرى، سيماء طائر غريب، من خلال قضبان متراصّة: إنّ في ذلك القفص أسيراً ناشطاً، قلقاً، راسخ العزيمة. ولو كان هذا الأسير حراً إذن لحلّق فناطح السحاب. ألا تزالين مصممة على الانصراف؟»

– « لقد دقّت الساعة التاسعة، يا سيدي».

– «لا بأس. انتظري دقيقة. إنّ آديل لم تنجز استعدادها للإيواء إلى سريرها بعد. ذلك بأن وضعي، يا مس ايير، وقد وليت النار ظهري ووجهت وجهي إلى الحجرة، يساعد على الملاحظة. ولقد وفقت، فيما كنت أتحدّث معك، إلى مراقبة آديل أيضاً بين الفينة والفينة. (ولديّ أسباب خاصة تدعوني إلى الاعتقاد بأنها ظاهرة غريبة تستحق الدرس – أسباب قد أُفضي بها إليك في يوم من الأيام، لا بل

سأفضي بها إليك من غير ريب). لقد استلّت من صندوقها، قبل عشر دقائق تقريباً، ثوباً حريرياً قرنفلياً صغيراً. فأضاء الابتهاج الغامر وجهها عندما نشرته أمامها، ولا عجب فالغنج يجري في دمها، ويختلط بدماغها، ويمازج مخ عظامها. ولقد صاحت، بلغتها الفرنسية: «يجب أن أجربه! وفي هذه اللحظة بالذات!» واندفعت مغادرة الحجرة. إنها الآن مع «صوفي»، وإن صوفي هذه لتساعدها في هذه اللحظة في ارتداء الثوب. ولسوف تنقلب آديل إلى هنا، بعد بضع دقائق، وأنا أعرف ما الذي ستقع عليه عيناي – صورة مصغرة عن «سيلين فارينز» كما كانت تبدو على المسرح عند استهلال... ولكن ما لنا ولهذا. وأياً ما كان فإن أرقّ مشاعري على وشك أن تصاب بصدمة. بهذا يحدّثني قلبي. امكثي الآن، لتري هل يتحقّق دلك أم لا؟»

وما هي غير دقائق معدودات حتى سُمِعت قدما آديل تخطران في رشاقة عبر الردهة. لقد دخلت الحجرة، كما توقَّع ولي أمرها، وقد استحالت مخلوقاً آخر. كان ثوب من الأطلس الوردي اللون، بالغ القصر، رحيب التنورة إلى أقصى حدود الرحابة قد حلّ محل الفستان الأسمر الذي كانت ترتدي من قبل، وكان إكليل من أكمام الزهور يتوّج جبينها، أما قدماها فكانتا تزهوان بجورب حريري ونعلين صغيرين من أطلس أبيض.

وصاحت، بالفرنسية، وهي تثب إلى أمام: «كيف تجدان ثوبي؟ أهو لائق بي؟ ونعلاي؟ وجوربي؟ انتبها، أنا أعتقد أني سوف أرقص».

ونشرت تنورتها، وأنشأت ترقص عبر الحجرة، حتى إذا انتهت إلى مستر روتشيستر دارت أمامه – في رشاقة – على رؤوس أصابعها، ثم ركعت عند قدميه، على ركبة واحدة، هاتفة بالفرنسية: «سيدي، أشكرك ألف، مرة على كرمك وطيبتك». ثم أضافت وهي تنهض: «إن ماما كانت تفعل مثل هذا، أليس كذلك، يا سيدي؟»

فجاءها الجواب: «على وجه الضبط! أجل، وعلى هذا النحو استطاعت أن تستلَّ دنانيري الذهبية الإنكليزية من جيب بنطلوني البريطاني! لقد كنت أنا أيضاً فتى ناضراً، يا مس ايير، أجل ناضراً كالعشب الأخضر: وثقي أن ما يمور به شبابك الآن من غدارة ليس يعدو البتة ما كان يمور به شبابي آنذاك. وأيًّا كان، فقد ولّى ربيعي الآن، ولكنه ترك في يديَّ هذه الزهَيْرة الفرنسية، التي أتوق في بعض لحظات كآبتي، إلى التخلّص منها. وإذ كنت، الآن، لا أحترم الجذر الذي انبثقت منه، بعد أن وجدت أنه من ضرب لا يصلح غير غبار الذهب سماداً له، فإني لا أكنُّ للريحانة غير حب جزئي، وبخاصة عندما تغلب عليها سيماء التصنّع، كشأنها في هذه اللحظات. والواقع أني أعيلها وأربيها عملاً بالمبدأ الكاثوليكي الروماني في المقام الأول، ذلك المبدأ الذي يقول بالتكفير عن جمهرة من الآثام، الكبيرة والصغيرة، من طريق القيام بعمل صالح مفرد. ولسوف أشرح لك هذا كله في يوم من الأيام. طاب مساؤك».

[15]

ولقد شرح مستر روتشيستر ذلك لي، في مناسبة لاحقة. وكان ذلك ذات أصيل، عندما اتّفق له أن لقيني وآديل في ناحية من حديقة القصر. وفيما كانت هي تلعب مع «بايلوت» ومع شتكها(ا)، سألني أن أذرع معه، جيئة وذهاباً. ممراً طويلاً تكتنفه أشجار الزان، على مرأى منها.

ثم إنه قال إنها كانت ابنة مغنية أوبرا فرنسية، هي سيلين فارينز التي كان يشعر نحوها، في يوم من الأيام، بما سمّاه «حباً عارماً». وكانت سيلين قد تظاهرت بمبادلة هذا الحب بحب مثله، بل أشدّ منه اتقاداً. لقد حسب نفسه معبودها، على الرغم من بشاعته، ولقد اعتقد – على حدّ قوله – بأنها آثرت «قوامه الرياضي» على رشاقة أبولو بيلفيدير.

– «أجل، يا مس ايير، ولقد ازداهاني هذا الإيثار الذي صدرت عنه الحورية الفرنسية للقزم البريطاني القيِّم على كنوز باطن الأرض، وكان هذا الازدهاء من القوة بحيث أنزلتها في فندق، وأحطتها بجمهرة من الخدم، وبعربة، وشالات من الكشمير، وماسات، ومخرمات من الدانتيل، و باختصار، استهللتُ عملية تفليس ذاتي، من طريق حياتي المترفة الجديدة، ككل مغرم ساذج ضعيف العقل. ويبدو أني لم أكن أملك من الأصالة ما يجعلني أشقّ لنفسي طريقاً جديدة إلى العار والخراب، فسلكت السبيل العتيقة، في دقّة بلهاء، مجتنباً الانحراف إنشاً واحداً عن وسطه المعبّد. ومن هنا انتهيت – وكنت أستحق ذلك – إلى مصير كمصير سائر الحمقى من المغرمين. وذات مساء اتّفق لي أن وفدت على سيلين على غير ترقّب منها لزيارتي، فلم أجدها. ولكن الليلة كانت يقظة، وكنت مرهقاً من أثر الطواف في شوارع باريس، وهكذا قعدت في مقصورتها، سعيداً بأن أستنشق الهواء الذي كان

وجودها، قبل ذلك بدقائق معدودات، قد أضفى عليه صفة مقدّسة. لا، إني أغالي، فأنا لم أفكّر في أي يوم أن لها القدرة على إضفاء أيما صفة مقدسة على أيما شيء. كان ذلك مجرّد ضرب من عطر «كرات البخور» كانت قد تركته هناك، كان عبير مسك وعنبر، لا أريج القداسة. وكنت قد شرعت أحس بالاختناق من روائح أزاهير المستنبتات الزجاجية، والعطور التي نُضِح بها الهواء، عندما حدّثتني نفسي بأن أفتح النافذة وأخرج إلى الشرفة. كانت الليلة مقمرة، وكانت مصابيح الغاز مضاءة أيضاً، وكان الجو ساكناً جداً، رائقاً جداً. وعلى الشرفة كان كرسي أو كرسيان، فجلست، وأخرجت من جيبي سيكاراً – إني سوف آخذ الآن واحداً، إذا أجزت لي ذلك»

(١) الشتك shuttlecock، لعبة من لعب الأطفال. (المعرب)

وتمهّل ريثما أخرج سيكاراً وأشعله. حتى إذا وضعه بين شفتيه ونفث في هواء ذلك اليوم المثلوج، الذي لم يشهد الشمس، سحابة من دخان هافانا الذكي، استأنف حديثه قائلاً:

– «وكنت في تلك الأيام أحب ضروب الحلوى المغلّفة بالسكر أيضاً، يا مس ايير، وكنت أقرقش (واغفري لي هذا الابتذال في التعبير)... أجل كنت أقرقش حبات الشوكولا حيناً وأدخن حيناً، مراقباً في الوقت نفسه سيل العربات التي كانت تدرج على طول الشوارع الأنيقة نحو دار الأوبرا المجاورة، عندما تبيّنت عربة أنيقة مقفلة يجرّها جوادان إنكليزيان رائعان،.عرفت فيها – بفضل أضواء المدينة الساطعة – تلك العربة التي كنت قد قدّمتها إلى «سيلين». كانت عائدة إلى الفندق. وراح فؤادي يخفق، بحكم الطبع، خفقاناً شديداً فارغ الصبر، على حديد الدرابزون الذي اتّكأت عليه. ووقفت العربة، كما كنت قد توقّعت، عند باب الفندق. وترجّلت شعلتي (وهذه هي الكلمة الدقيقة اللائقة بمحبوبة من راقصات الأوبرا) وعرفتها في الحال، على الرغم من أنها كانت تستتر بمعطفها – وهو، بالمناسبة، حمل ثقيل لا داعي للتدثّر به في أمسية حزيرانية قائظة إلى ذلك الحدّ... أقول عرفتها في الحال

من قدمها الصغيرة التي لاحت من وراء تنورتها وهي تثب من عتبة العربة. وكدت أغمغم – وأنا أطلُّ من على الشرفة – بهاتين الكلمتين، «يا ملاكي!»، بصوت كان ينبغي أن لا تسمعه غير أُذن الحب وحدها طبعاً، عندما وثب خلفها، من العربة، شخص آخر متدثّر هو أيضاً بمعطف. ولكن ما سمعته الآن يدوي فوق الرصيف لم يكن غير عقب ذات مهماز: لقد بصرت برأس معتمر بقبعة يمرّ تحت باب الفندق المقنطر الخاص بالعربات.

«أنت لم تستشعري الغيرة، في يوم من الأيام، يا مس ايير؟ لا. بالطبع: وليس ثمة أيما حاجة لطرح هذا السؤال عليك، فأنت لم تعرفي الحب قط. ولسوف تستشعرين هاتين العاطفتين في مقبلات الأيام. إن روحك هاجعة الآن، ولا بد أن تصابي ذات يوم بالصدمة التي ستوقظها. إنك تحسبين أن الوجود كله يجري في مدٍّ هادئ كذلك الذي هدهد شبابك حتى هذه الساعة. إنّك تعومين مغمضة العينين مسدودة الأُذنين، فلست ترين لا الصخور التي تطلع رؤوسها غير بعيد في مجرى المدّ، ولا تسمعين الأمواج العارمة التي تجيش في قعرها. ولكني أقول لك – ومن الخير لك أن تنتبهي جيداً لما أقول – إنّك سوف تنتهين يوماً إلى مأزق وصخب، وزبد وجلبة. فإمَّا أن تتكسري ذرات فوق الصخور الشامخة، أو تحملي على كتف موجة عارمة إلى تيار أكثر هدوءاً... كمثل حالي أنا الآن.

«أنا أحب هذا اليوم: أحب تلك السماء الفولاذية، أحب تجهُّم العالم وسكينته تحت هذا الصقيع، أحب ثورنفيلد، أحب عتقه، وتوحُّده، وأشجاره القديمة التي تعشعش فيها الغربان، وأشجاره ذات الأشواك، وواجهته الشائبة، وصفوف النوافذ القاتمة التي تعكس تلك السماء المعدنية.. ومع ذلك فما أطول ما أبغضت، مجرّد التفكير فيه، وما أكثر ما اجتنبته كما يجتنب المرء موطناً من مواطن الطاعون! وما أشدّ ما أكره حتّى الآن...»

وصرف بأسنانه واعتصم بالصمت. وكفّ عن السير، وضرب الأرض الصلبة بعقب حذائه ذي الساق الطويلة. لقد بدا وكأن فكرة بغيضة ما قد كبَّلته تكبيلاً جعله

عاجزاً عن أن يتقدّم خطوة واحدة إلى أمام.

وكنا نصعد في الممر الذي تكتنفه الأشجار عندما توقّف على هذا النحو. كان القصر أمامنا، فرفع عينيه إلى شرفاته، ورشقها بنظرة لم أشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد. لقد بدا وكأن الألم والخزي والغيظ - نفاد الصبر، والاشمئزاز، والمقت - تصطرع كلّ لحظة اصطراعاً مرتعشاً في بؤبؤ عينه الكبير المفسح تحت حاجبه الأبنوسي. وضارياً كان ذلك الصراع الذي اتّسم بالحسم من غير ريب، ولكن شعوراً آخر ما لبث أن برز وانتصر: شيء قاس وساخر، شيء عنيد وحازم. لقد أخمد انفعاله وحجَّر قسمات وجهه، فمضى يقول:

- «وخلال اللحظة التي اعتصمت فيها بالصمت، يا مس ايير، صفيت المسألة مع قدري. لقد وقفت هي هناك، على مقربة من جذع شجرة الزان هذه - عرَّافة مثل هاتيك العرّافات اللائي برزن لماكبث في مرج «فور». لقد سألتني، رافعة إصبعها: «أتحب ثورنفيلد؟» ثم خطت في الهواء، تحذيراً تجلَّى في أحرف هيروغليفية كالحة على طول واجهة القصر، بين صف النوافذ الأعلى وصف النوافذ الأدنى: «أحِبَّه إذا استطعت!» «أحِبَّهُ إذا جرؤت!» فقلت: «سوف أحبه! سوف أجرؤ على حبه!» (وهنا استدرك في نكد وكآبة) «سوف أبرُّ بوعدي، سوف أذلل العقبات التي تعترض سبيلي إلى السعادة، إلى الطيبة - أجل، الطيبة، إني أريد أن أكون رجلاً خيراً مما كنت، خيراً مما أنا، كما حطّم حوت أيوب الحربة والنبلة والصدرة المزرَّدة. ولن أرى في ما يعتبره الناس عقبات من حديد ونحاس إلاّ هشيماً وخشباً نخراً».

وهنا راحت آديل تعدو أمامه هي ولعبتها فصاح في فظاظة: «اغربي عني! العبي في مكان بعيد، أيتها الطفلة، أو امضي إلى «صوفي» في داخل القصر». حتّى إذا واصل سيره في صمت غامرت محاولة إعادته إلى النقطة التي كان حديثه قد انحرف عندها على نحو مفاجئ، فسألته: «وهل غادرت الشرفة، يا سيدي، عندما دخلت الآنسة فارينز؟»

وتوقعت، أو كدت، أن ألقى – جزاء هذا السؤال الذي طرح في ظرف غير ملائم البتة – صداً قاسياً. ولكنه، على العكس، استيقظ من شروده الذهني المتجهم، وأدار عينيه نحوي، وقال وقد شرع الاكفهرار يزال جبينه: «أوه، لقد نسيت سيلين! حسناً، سوف أستأنف الحديث. عندما رأيت فاتنتي تدخل على هذا النحو برفقة فارس من الفرسان، بدا لي وكأني سمعت حسيساً، وإذا بأفعوان الغيرة الأخضر ذي الجسم المتموِّج الملتف يطلع رأسه من الشرفة التي سفح القمر عليها ضياءه، ويتسلّل إلى صدري. ثم إنه راح ينهش لحمي شاقاً طريقه، في دقيقتين اثنتين، إلى سويداء فؤادي». وهنا هتف، مفارقاً عمود القصة كرة أخرى مفارقة مفاجئة: «عجباً! عجباً لي كيف اخترتك لأشكو إليك هذا كله، أيتها السيدة الفتية. وأعجب من ذلك أن تنصتي إليّ في سكون، وكأن انصراف رجل مثلي إلى رواية القصص عن خليلته راقصة الأوبرا على مسمعي فتاة غريبة غرة مثلك أمرٌ مألوف أكثر من أيما شيء آخر في هذا العالم! ولكن الغرابة الأخيرة تفسر الغرابة الأولى، كما ألمعتُ ذات مرة: إنك، برصانتك وحذرك، وحُسن تقديرك لمشاعر الآخرين، قد خلِقت لتكوني الصدر الذي يستقبل الأسرار. وإلى هذا، فأنا أعرف أي ضرب من العقل حاولت أن أصل ما بينه وبين عقلي: أنا أعلم أنه ليس عقلاً قابلاً للعدوى. إنه عقل غريب، عقل فذّ. ولست أقصد لحسن الطالع إلى إيذائه، وحتى لو قصدت إذن لما استطعت إلى ذلك سبيلاً. إني كلّما أخذت معك بأطراف الأحاديث كان خيراً وأبقى. لأن في ميسورك أن تنعشيني بينما أعجز أنا عن أذوائك».

وبعد هذا الاستطراد عاد إلى قصته يكملها: «لقد بقيت في الشرفة، قائلاً في ذات نفسي: «لا ريب في أنهما سوف يفدان إلى مقصورتها. فلأنصب لهما شركاً». وهكذا مددت يدي خلال النافذة المفتوحة فأسدلت الستارة عليها، تاركاً مجرّد فجوة أستطيع بواسطتها أن أراقب كلّ شيء. ثم أغلقت النافذة تاركاً أيضاً مجرّد شق كاف لأن تتسرب منه وعود العاشقين وعهودهم المهموسة. ثم انسللت منقلباً إلى كرسيي. ولم أكد أستوي عليه حتّى دخلا. وفي الحال رحت أختلس النظر من شق النافذة. لقد دخلت الخادمة المسئولة عن غرفة سيلين، فأضاءت مصباحاً ووضعته

على المائدة، وانسحبت. وهكذا كان في ميسوري أن أرى سيلين وفارسها في وضوح: لقد خلعا معطفيهما، فبدت «لا فارينز» لي متألقة في ثوبها الحريري وفي جواهرها، وهي من هداياي طبعاً، وبدا رفيقها في بزة ضابط، فعرفت فيه «فيكونتا» داعراً – فتىً أحمق أثيماً كنت قد التقيته ذات يوم في دنيا المجتمع، ولم يخطر ببالي قطّ أن أبغضه لأني احتقرته احتقاراً كلياً. ولم أكد أتبيُّنه حتى انكسرت ناب الأفعوان – الغيرة – في الحال، لأن حبي لسيلين خمد في اللحظة نفسها. فالمرأة التي استطاعت أن تخونني من أجل منافس كهذا لا تستحق أن أناضل في سبيل الاحتفاظ بها. إنها تستحق الاحتقار ليس غير، ولكن أقلَّ مما أستحقه أنا، أنا الذي هو عاشقها المخدوع.

وشرعا يتحدثان. وسرَّى حديثهما عنِّي تسرية كاملة: كان حديثاً مستهتراً، ارتزاقياً، فاتراً، فارغاً، فكأنما قصِد به أن يُسئم السامع لا أن يسْخطه ويثير غضبه. وكانت على المائدة بطاقة تحمل اسمي، وإذ وقع بصرهما عليها أخذا يتحدثان عني. إنّ أيًّا منهما لم يكن يملك القوة أو الظرف الكافيين للسخرية بي على نحو حصيف، ولكنهما أهاناني بأبشع ما مكّنتهما طريقتهما الرخيصة من ذلك، وبخاصة سيلين التي تكشفت عن شيء من الذكاء في الكلام على نقائصي الشخصية – وقد أطلقت عليها لفظ«عاهات» – وهي التي كان من دأبها أن تتدفق في إظهار الإعجاب المتّقد بما دعته «جمالي الرجولي». إنها في هذا تختلف اختلافاً كلياً عنك، أنت التي قلت لي،بصراحة بالغة، عند لقائنا الثاني، إنّك لا تجدينني وسيماً. ولقد راعتني هذه المغايرة، في حينها، و... ».

وهنا أقبلت آديل تعدو كرة أخرى، وقالت: «سيدي، اللحظة جاء جون ليقول إنّ وكيل أعمالك قد وفد وإنه يرجو مقابلتك».

– « آه! في هذه الحال، سأوجز. لقد فتحت النافذة، ودخلت المقصورة عليهما. فحرّرت سيلين من حمايتي، وسرَّحتها من الفندق مقدماً إليها بعض المال تستعين به على حاجاتها العاجلة. لقد تصاممت عن صيحاتها، ونوباتها الهستيرية، وتوسّلاتها،

واحتجاجاتها، وتشنّجاتها، وتواعدت مع الفيكونت على اللقاء في غابة بولونيا. وفي صباح اليوم التالي سعدت بمقاتلته مخلفاً رصاصة في إحدى ذراعيه السقيمتين المهرولتين الواهنتين مثل جناح دجاجة مصابة بالخانق. وعندئذ اعتقدت أني تخلّصت منهما جميعاً. ولكن «لافيرنز» كانت، لسوء الطالع، قد حملت إلي، قبل ستة أشهر آديل الصغيرة هذه مؤكّدة أنها ابنتي. ومن يدري، فقد تكون ابنتي، برغم أني لا أرى في سيماها أيما دليل ينهض على مثل هذه الأبوة الكالحة. إنّ الكلب «بايلوت» ليشبهني أكثر ممّا تشبهني هي. وبعد بضع سنوات انقضت على خصامي مع الأم، تخلّت عن طفلتها وفرّت إلى إيطاليا مع موسيقي أو مغنٍّ. ولم أعترف لآديل بأي حق طبيعي يلزمني بإعالتها، لا، ولست أعترف لها الآن بمثل هذا الحقّ، لأني لست أباها. بيد أني سمعت أن الطفلة المسكينة كانت في حال من العوز الكلّي، فانتشلتها من حمأ باريس ووحلها، وجئت بها إلى هنا لتترعرع في تربة صحية في حديقة من حدائق الريف الإنكليزي. ولقد اكتشفتك مسز فيرفاكس وعهدت إليك في تثقيفها. أما وقد عرفت الآن أنها بنت غير شرعية من مغنية أوبرا فرنسية فلعلّك أن تنظري إلى وظيفتك وإلى تلميذتك نظرة مختلفة. ومن يدري، فقد تأتين إليّ في يوم من الأيام لتحيطيني علماً بأنّك وجدت عملاً آخر - ولتتوسلي إليّ أن أبحث عن مربية جديدة، إلخ - إيه؟»

- «لا، آديل غير مسئولة لا عن أخطاء أمها ولا عن أخطائك. إني أحترمها. والآن وقد عرفت أنها، بمعنى من المعاني، يتيمة الأبوين (بعد أن تخلّت عنها أمها وبعد أن أنكرتها أنت، يا سيدي) فلسوف أتعلّق بها أكثر من ذي قبل. وكيف أؤثر ابنة مدللة من أبناء الأسر الثرية، ابنة تكره مربيتها كشيء مزعج ضار، على يتيمة قاصرة متوحدة تميل إليَّ كما يميل المرء إلى صديقه؟»

- «أوه، أتنظرين إلى المسألة على هذا الضوء؟ حسن. يتعيّن عليَّ الآن أن أنصرف. وكذلك يتعيّن عليك أنت أيضاً. فقد جنحت الشمس إلى المغيب».

ولكني لبثت في الحديقة بضع دقائق أخرى مع آديل وبايلوت – لقد سابقتُها في العدْو ولعبت معها لعبة الشتك والمضرب[1] وعندما دخلنا القصر وساعدتها على نزع قبعتها الصغيرة ومعطفها جلست وأجلستها على ركبتي، وأبقيتها ثمة ساعة، مجيزة لها أن تلغو كما شاء لها اللغو، غير مؤنّبة

إيّاها حتى على بعض مسالكها المألوفة وهناتها الصغيرة التي كانت ميالة إلى الانزلاق نحوها حين تعلم أنها موقع ملاحظة ومراقبة، والتي كانت تنمُّ عن ضحالة في الشخصية لعلها موروثة عن أمها، ضحالة لا تكاد تتناسب والعقل الإنكليزي البتّة. ومع ذلك، فقد كانت لها فضائلها. وكنت أنا نزاعة إلى الإعجاب بكل ما فيها من عناصر الخير إلى أبعد حدّ مستطاع. لقد التمست في محياها وقسماتها وجه شبه بينه وبين مستر روتشيستر، ولكني لم أفز من ذلك بشيء. فلم يكن ثمة أيما سمة أو ملامح تؤذن بنسب يشدّها إليه. وكان ذلك مؤسفاً، إذ لو كان في الإمكان إقامة الدليل على أنها تشبهه إذن لكان خليقاً به أن يوليها مزيداً من تفكيره واهتمامه.

(1) Battledore and shuttlecock

ولم أفرغ للتفكير في الحكاية التي قصّها عليّ مستر روتشيستر إلاّ بعد أن شخصت إلى حجرتي وأويت للرقاد. ولعله لم يكن ثمة، كما كان قد قال لي، أيما شيء استثنائي البتّة في مادة الحكاية نفسها: فقد كان هيام الأثرياء الإنكليز بالراقصات الفرنسيات ثم خيانة هذه الراقصات لعهودهم أمرين مألوفين، من غير ريب، في دنيا المجتمع. بيد أنّه كان ثمة شيء غريب على نحو لا لبس فيه في نوبة الانفعال التي عصفت به فجأة عندما راح يعبر عن ارتياحه الحالي إلى مزاجه، ولوعه المنبعث حديثاً بالقصر العتيق وكل ما يحيط به. وتأملت في هذه الحادثة بكثير من الدهشة ولكني ما لبثت أن صرفت تفكيري عنها، شيئاً بعد شيء، إذ وجدتُها ممتنعة على التفسير – مؤقتاً على الأقل – وانتقلت إلى التأمّل في مسلك مستر روتشيستر معي. لقد رأيت في الثقة التي شاء أن يوليني إيّاها إطراء لحصافتي: بهذا النوع من النظر فهمتها وارتضيتها. كان سلوكه نحوي، خلال

الأسابيع الأخيرة، أشد استواء واطراداً مما كان في البدء. لقد بدا وكأني لم أعد أُضايقه البتة. لقد كفّ عن النظر إليّ في ترفُّع مثلوج: كان إذا لقيني على غير توقُّع بدا لي وكأنه قد سعد بهذا اللقاء. كانت لديه دائماً كلمة رقيقة يقولها لي وأحياناً ابتسامة يحييني بها. وكان إذا دعاني رسمياً إلى الاجتماع به أكرمني بحُسن وفادة كانت تشعرني بأني أملك فعلاً القوة على تسليته، وبأن هذه الاجتماعات الليلية كانت تُلْتمس لمسرَّته هو، ولفائدتي أنا، على حدّ سواء.

والواقع أني كنت أقتصد، نسبياً، في الكلام، ولكني كنت أصغي إليه في حبور. كان إفصاحا[1] بفطرته: لقد أحبّ أن يكشف لأحد العقول الجاهلة بالحياة عن ومضات من مشاهدها وأساليبها (ولست أعني مشاهدها الفاسدة وأساليبها الخبيئة، ولكن تلك المشاهد والأساليب التي وتستمدُّ متعتها من المسرح الضخم الذي مثلت على خشيته ومن الجدة الغريبة التي اتّسمت بها). ولقد كنت أستشعر ابتهاجاً عميقاً في تلقّي الفكرات الجديدة التي أبداها، وفي تخيُّل الصور الجديدة إلي رسمها، أو كنت أسايره بفكري – مرافقة – إيَّاه إلى المناطق الجديدة التي كشف النقاب عنها، غير مجْفلة أو متضايقة البتّة من أيما تلميح مؤذ.

(1) أي محباً للإفصاح عن نفسه، وهي تقابل لفظة communicative في الأصل الإنكليزي.

وكان في انطلاقية تصرُّفه ما حرّرني من كبح أليم، وكان في صراحته الودّية التي كانت مستقيمة بقدر ما كانت قلبية والتي عاملني بها ما جذبني إليه. لقد استشعرت في بعض الأحيان أنه نسيبي لا سيدي، ومع ذلك فقد كان يتكشف أحياناً عن نزعة استبدادية، ولكني لم أجد في ذلك كبير بأس: لقد أدركت أن هذه هي طريقته. وكنت من السعادة والابتهاج بهذا الشوق الجديد الطارئ على حياتي بحيث أقلعت عن التوق إلى أن تكون لي أسرة وأنسباء. لقد بدا أن قدري الهلالي الرقيق قد أخذ في النموّ، وأن فراغ وجودي قد شرع في الامتلاء. لقد نحسّنت صحتي لجسديه، وازداد وزني، وتعاظمت قوّتي.

هل كان مستر روتشيستر دميماً في عيني الآن؟ لا، أيها القارئ: إن عرفان الجميل وضروب المعاني المتداعية، وكلها سائغ بهيج، قد جعلت وجهه أحب ما أتطلَّع إلى تكحيل العين به، فإذا بوجوده في حجرة من الحجرات يوقع في نفسي إبهاجاً أعظم من ذلك الذي تُوقعه أشد النيران توهجاً. ومع ذلك فإني لم أنس عيوبه. والواقع أن ذلك لم يكن في طاقتي، إذ كان من دأبه أن يعرضها على ناظري بين الفينة والفينة. كان متكبراً، متهكماً، قاسياً على الدونية بمختلف أشكالها. وكنت أعرف، في قراره نفسي، أن لطفه العظيم نحوي كانت تقابله قسوة ظالمة على كثير من الناس. وكان إلى ذلك نكد المزاج، لغير ما سبب يستطيع المرء إدراكه. وأكثر من مرة، حين كان يستدعيني لأقرأ له، وجدته جالساً وحده في حجرة مكتبته، منكس الرأس فوق ذراعيه المتصلبتين. حتى إذا رفع بصره نحوي لمحت تجهماً نكداً، تجهماً يكاد يكون ضارياً، يلفّ محياه. ولكني اعتقدت أن كآبته وقسوته وعيوبه الأخلاقية السابقة (أقول «السابقة» إذ بدا لي وكأنّه فد تخلّص منها) كان مردّها إلى محنة قاسية من محن القدر. لقد اعتقدت أنه كان بفطرته رجلاً ذا نزعات أفضل، ومبادئ أسمى، وأذواق أصفى مما استطاعت ظروفه أن تنمّيه، وثقافته أن تغرسه، وأقداره أن تشجّع عليه. لقد خيل إليّ أن في برديه مواد ممتازة، وإن تكن في اللحظة الحاضرة مشوهة، مشوّشة، مضطربة. وليس في ميسوري أن أنكر أني أسيت لأساه، أيًّا كان ذلك الأسى، وأني كنت على الاستعداد لأن أضحّي بشيء كثير من أجل التسرية عنه.

ومع أني أطفأت الآن شمعتي واضطجعت في سريري فإني لم أستطع أن أنام: كنت أبدأ أفكر في الانطباعة التي غلبت على وجهه عندما كفّ عن السير في الممر الذي اكتنفته الأشجار وراح يقصُّ كيف برز له قَدره وتحدّاه أن يجرؤ على التمتّع بالسعادة في ثورنفيلد.

وسألت نفسي: «لم لا؟ ما الذي ينفِّره من القصر؟ هل يعتزم مغادرته كرة أخرى، عمّا قريب؟ لقد قالت مسز فيرفاكس إنه نادراً ما لبث فيه أكثر من أسبوعين على نحو متّصل، وها قد أمضى الآن فيه ثمانية أسابيع متعاقبات. ولو قد غادره

إذن لكان التغيّر محزناً. ولنفرض أن غيبته عنه استغرقت شهور الربيع والصيف والخريف كلها. إن أشعة الشمس والأيام المشرقة خليق بها عندئذ أن تبدو كئيبة إلى أبعد الحدود!»

ولست أدري على وجه التحقيق هل وُفّقت إلى جواب على هذه التأمّلات أم لا؟ وعلى أية حال فقد استيقظت مجفلة لدى سماعي غمغمة مبهمة، همهمة غريبة مأتمية، انبعثت – في ما بدا لي – من فوقي مباشرة. وتمنيت، لو لم أطفئ شمعتي: فقد كان الليل حالكاً على نحو موحش، وكنت منقبضة النفس كاسفة البال. فاستويت جالسة في سريري، وأنشأت أصغي. كان الصوت قد خُنِق.

وحاولت أن أستسلم للرقاد كرة أخرى. ولكن فؤادي راح يخفق خفقاناً يمور بالقلق والحصر النفسي: كان سكوني الباطني قد تحطّم. وبعيداً في ردهة الدور الأسفل دقّت ساعة الحائط الثانية بعد نصف الليل. وفي تلك اللحظة بدا لي وكأن شيئاً قد مسَّ باب حجرتي... وكأن أصابع قد لامست الواحة وهي تتحسس سبيلها في الرواق المظلم. وقلت: «من هناك؟» فلم يجبني أحد. وسرت في أوصالي رعدة من خوف.

وفجأة تذكرت أنه قد يكون بايلوت الذي كان من دأبه أن يتّخذ سبيله إلى عتبة حجرة مستر روتشيستر كلّما شاءت المصادفة أن يترك باب المطبخ مفتوحاً. وكنت قد رأيته بعيني رأسي، غير مرة، مضطجعاً هناك حتّى الصباح. وهدَّأت هذه الفكرة من روعي، بعض الشيء، فعاودت الاضطجاع. إن الصمت يريح الأعصاب، فما إن هيمنت على القصر كله، كرة أخرى، سكينة لا يعكّر صفوها شيء، حتى شرع النعاس يداعب جفوني. بيد أنه كان مقدَّراً عليّ أن لا أعرف النوم في تلك الليلة، فلم يكد يلمُّ بي حلم من الأحلام حتى فرّ من بين يدي مذعوراً، وقد روعته حادثة يجمد لها مخ العظم.

لقد انطلقت في تلك اللحظة ضحكة مجنونة – ضحكة خفيضة مكظومة عميقة، بدا لي وكأنها أرسلت عند نقب باب حجرتي نفسه. وكان مقدَّم سريري على مقربة

من الباب، فخيِّل إليّ بادئ الأمر أن الضاحك. العفريت واقف إلى جانب سريري، أو على الأصح رابض عند وسادتي. ولكني نهضت من فراشي، وأجلت الطرف في ما حولي، فلم أستطع أن أرى شيئاً. وفيما كنت أحدّق في الظلام تكرّر الصوت الغريب، ولقد عرفت أنه انبعث من وراء الباب. فكان أول ما خطر لي أن أفعله هو النهوض لأحكم إيصاد الباب بالمزلاج، ولأصيح بعد ذلك كرة أخرى:« مَن هناك؟»

وغمغم شيء ما، وأن. وما هي إلا لحظات حتى سمعت أقداماً تتكفئ مرتدة على الرواق، ماضية نحو سلم الدور الثالث. وكان القوم قد جعلوا لهذه السلم منذ فترة يسيرة باباً جديداً، فسمعت هذا الباب يُفتح ثم يُوصد، ليعود السكون بعد ذلك فيهيمن على كل شيء.

وقلت في ذات نفسي: «أهي غرايس بول هذه المرة أيضاً؟ وهل ركبها شيطان؟»

ولم يعد في ميسوري البقاء وحدي لحظة أخرى: إن عليّ أن أفزع إلى مسز فيرفاكس. وسارعت إلى ارتداء فستاني، واتّشحت بشال، ورفعت رتاج الباب بيد مرتعشة. كانت ثمة شمعة تحترق عند باب حجرتي مباشرة، فوق بساط الرواق. وأدهشتني هذه الواقعة، ولكن الذي أذهلني أكثر أني وجدت الهواء كدراً وكأنما ملئ دخاناً. وفيما كنت أنظر يمنة ويسرة، لأكتشف مصدر هذه السحائب الزرق، استروحت رائحة حريق قوية.

وصرَّ شيء ما: لقد فُتِح باب نصف فتحة. وكان ذلك الباب هو باب حجرة مستر روتشيستر، ومن هناك انبعث الدخان مثل سحابة كثيفة. ولم أعد أفكّر لا في مسز فيرفاكس، ولا في غرايس بول، ولا في الضحكة. وما هي إلاّ لحظة حتى أمسيت داخل الحجرة: كانت ألسنة من اللهب تندلع حول السرير، وكانت السجف تشتعل. وفي وسط اللهب والدخان اضطجع مستر روتشيستر، في غير ما حراك، مستغرقاً في نوم عميق.

وصحت: «أفق! أفق!» ورحت أهزّه، ولكنه لم يزد على أن غمغم وانقلب على جنبه الآخر. كان الدخان قد خدّره. ولم يكن في الإمكان إضاعة دقيقة واحدة: كانت أغطية الفراش نفسها تحترق. واندفعت إلى حوض مستر روتشيستر وإبريقه. وكان أحدهما – لحسن الطالع – واسعاً، وكان الآخر عميقاً، وكان كلٌّ منهما مليئاً ماء. ورفعتهما عالياً، وغمرت السرير والمضطجع فيه بمحتوياتهما، وانطلقت راجعة إلى حجرتي، فجئت بإبريقي، فنضحت الفراش بالماء كرة أخرى، ووفقت بعون من الله إلى إخماد اللهب الذي كان يلتهمه.

وكان في حسيس النار المخمدة، وانكسار إبريق كنت قد طرحته على الأرض بعد أن أفرغته من الماء، وبخاصة رشاش المسحاح (الدش) الذي أغدقته عليه في سخاء بالغ، أقول كان في ذلك كله ما أيقظ مستر روتشيستر آخر الأمر. وعلى الرغم من الظلام الذي ساد الحجرة من جديد عرفتُ أنه قد أفاق، إذ سمعته يُرْعِدُ بلعنات غريبة بعد أن وجد نفسه غارقاً في بركة ماء.

وصاح: «أهناك فيضان؟»

– «فأجبته: «لا، يا سيدي. ولكن كان هناك حريق. انهض من فراشك، انهض، فأنت الآن مُغْرَق. سوف آتيك بشمعة».

وسألني: «باسم جميع جنيَّات العالم المسيحي قولي لي: هل أنت جين ايير؟ ما الذي فعلته بي أيتها العرَّافة، أيتها الساحرة؟ مَنْ في غرفتي هذه غيرك؟ هل ائتمرت مع أحد على إغراقي؟»

– «سوف آتيك بشمعة، يا سيدي. ولكن انهض، باسم السماء. لقد ائتمر بك شخص ما. وليس في مستطاعك أن تكتشف من الذي بيَّت هذه المكيدة وما حقيقتها قبل أن يرتدّ إليك طرفك».

– «ها أنا ذا قد نهضت. ولكن إتيانك بالشمعة قد يعرّضك للخطر. انتظري دقيقتين ريثما أجد بعض الملابس الجافة، إن كان لا يزال ثمّة ملابس جافة – أجل

هو ذا مبذلي[1] اركضي الآن!»

(1) dressing-gown أو robe de chambre.

وركضت فعلاً. وجئته بالشمعة التي كانت ما تزال في الرواق. فتلقّاها من يدي، ورفعها إلى أعلى، وراح يتأمل الفراش. وقد أمسى كله أسود مسفوعاً – وأغطيته وقد ابتلّت، والبساط وقد سبح في الماء.

وتساءل: «ما هذا؟ ومن الذي أقدم على ذلك؟»

فقصصت عليه، في إيجاز، ما عرفتُهُ عن المسألة: الضحكة الغريبة التي سمعتها تدوي في الرواق، والخطى المصعِّدة إلى الدور الثالث، والدخان – ورائحة الحريق التي ساقتني إلى حجرته، وفي أية حالة وجدتها آنذاك، وكيف أغرقته بكل ما كان في متناولي من الماء.

وأصغى في رزانة بالغة. وعبّرت انطباعات وجهه وأنا ماضية في الرواية، عن القلق بأكثر مما عبَّرت عن الدهشة. حتّى إذا بلغت خاتمة قصتي لم يبادر إلى الكلام مؤثراً الاعتصام بالصمت.

فسألته: «هل أدعو مسز فيرفاكس».

– «مسز فيرفاكس؟ لا. ولم تريدين أن تدعيها، بحق الشيطان؟ ما الذي تستطيع أن تفعله؟ دعيها ترقد في سلام».

– «إذن فسوف أدعو «ليبيا» وأوقظ جون وزوجته».

– «لا. أبداً. كلّ ما عليك أن تفعليه هو التزام الهدوء. هل تتّشحين بشال؟ إذا كنت لا تستشعرين الدفء على نحو كاف ففي ميسورك أن تأخذي معطفي الذي هناك، وأن تترملي به، وتستوي على الكرسي ذي الذراعين. سوف ألبسك إيّاه بنفسي، والآن ضعي قدميك على الكرسي الخفيض لكي تقصيهما عن الماء. ولسوف أفارقك بضع دقائق. سوف آخذ الشمعة. فابقي حيث أنت ريثما أعود،

ألزمي الهدوء مثل فأرة. إنّ عليّ أن أقوم بزيارة إلى الدور الثالث. لا تنسي أن من واجبك أن لا تتحركي، وأن لا تنادي أحداً».

ومضى لسبيله، وراقبت ضوء الشمعة وهو يبتعد. لقد اجتاز الرواق في رفق بالغ، وفتح باب السلم محدثاً أقل ضجة ممكنة، ثم أوصده خلفه، وعندئذ تلاشى آخر شعاع من أشعة الشمعة. لقد غودرت الآن في ظلام كلّي. وأصغيت التماساً لصوت ما، ولكني لم أسمع أي شيء. وانقضت فترة طويلة. وشرع السأم يستبدُّ بي وأحسست لبرد، على الرغم من المعطف الذي
تدثُّرت به. وإلى هذا فإني لم إلى أي فائدة ترتجى من البقاء بعد أن حظِّر عليّ إيقاظ أحد من أهل القصر. وكنت، على وشك أن أخاطر فأغضب مستر روتشيستر، من طريق التمرّد على أوامره، عندما بصرت بالضوء يومض على جدار الرواق كرة أخرى، وسمعت قدميه الحافيتين تطآن البساط. فقلت في ذات نفسي:« أرجو أن يكون هو، لا شيئاً أسوأ».

ودخل الحجرة، شاحب الوجه شديد الاكتئاب، وقال واضعاً شمعته على المغسلة الخشبية: «لقد اكتشفت الأمر كله. إنّه كما قدَّرتُ تماماً».

– «كيف ذلك، يا سيدي؟»

فلم ينبس بجواب، بل وقف متصالب الذراعين، محدقاً إلى الأرض. حتى إذا انقضت دقائق معدودات سألني بصوت هو إلى الغرابة أميل: «أريد أن أسألك... هل قلت لي إنّك رأيت شيئاً ما عندما فتحت باب حجرتك؟»

– «لا، يا سيدي. أنا لم إلى إلاّ الشمعة على الأرض».

– «ولكنك سمعت ضحكة غريبة؟ ولقد سمعت هذه الضحكة نفسها من قبل ما يخيّل إليّ، أو شيئاً مثل ذلك؟»

– «أجل، يا سيدي. إنّ ثمة امرأة تخيط هنا، تدعى غرايس بول...

وهي تضحك على هذا النحو. إنها امرأة غريبة الأطوار».

– «تماماً. إنها غرايس بول.. لقد صدق حدسك. وهي كما تقولين، غريبة الأطوار... غريبة الأطوار إلى حدّ بعيد. حسناً، سوف أفكر في المسألة. وفي غضون ذلك يسعدني أن تكوني الشخص الوحيد – بالإضافة إليّ – المطَّلع على التفاصيل الدقيقة لما حدث الليلة. وأنت لست مهذارة بلهاء، فلا تقولي أيما كلمة عن ذلك. ولسوف أشرح لك بنفسي كيف حدث هذا» (وأشار إلى السرير): «والآن ارجعي إلى حجرتك. ولسوف أرقد بقية الليل – في غير انزعاج.– على الأريكة التي في حجرة المكتبة. كادت الساعة أن تصبح الرابعة... وبعد ساعتين يستيقظ الخدم».

فقلت وأنا أغادر الحجرة: « طاب ليلتك إذن، يا سيدي».

فبدت عليه إمارات الدهشة – وكان في ذلك انقلاب مفاجئ، لأنه كان قد طلب إليّ، منذ لحظة، أن أنصرف.

وهتف: « ماذا؟ أتتركينني في الحال، وعلى هذا النحو؟»

– «ولكنك أنت قلت لي إن في استطاعتي أن أذهب، يا سيدي».

– «أجل، ولكن ليس من غير استئذان، ليس من غير كلمة أو كلمتين أوجههما إليك عرفاناً للجميل وتعبيراً عن الإخلاص والمودّة. وبكلمة موجزة، ليس بهذه الطريقة الجافة. كيف؟ لقد أنقذت حياتي!... انتشلتني من موت مبرِّح رهيب! ومع ذلك فأنت تمرّين بي وكأننا غريبان! صافحيني على الأقل».

وبسط يده إليّ، فبسطت يدي بدوري. فتلقّاها بادئ الأمر بإحدى يديه، ثم بالاثنتين معاً، وقال: «لقد أنقذت حياتي. وإني لسعيد بأن أكون مديناً لك بهذا الدين العظيم. أنا لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا. وما كنت لأطيق أن يطوِّق عنقي أيما شخص أخر في العالم كلّه بمثل هذه المنَّه. ولكن الأمر يختلف حين تكونين أنت صاحبة اليد علي. أن فضلك هذا ليس بالعبء الذي يُنْقض ظهري، يا جين».

وصمت، وأنشأ يحدّق إلي. ورأيت، أوكدت، بضع كلمات ترتعش على شفتيه، ولكن صوته خانه فلم ينطق بها.

– «طابت ليلتك، يا سيدي. ليس ثمة أي دين، أو منّة، أو فضل، أو عبء في هذه المسألة».

وتابع يقول: «كنت واثقاً أنّك سوف تسدين إلي يداً، على نحو ما، وفي زمن ما. لقد قرأت ذلك في عينيك عندما رأيتك أوّل مرة. والواقع أن انطباعتهما وابتسامتهما لم توقعا (وهنا كفَّ عن الكلام) أقول لم توقعا (ثم استأنف حديثه في سرعة) مثل هذه البهجة كلها في صميم فؤادي عبثاً ولغير ما غرض. إن الناس يتحدثون عن التعاطف الطبيعي، ولقد سمعت أشياء كثيرة عن «الجنِّي الصالح» وصدقيني إذا قلت إنّ ثمة بذور صدق في أغرب الأساطير والأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوانات. طابت ليلتك يا منقذتي العزيزة!».

كان في صوته طاقة غريبة، وكان في محيَّاه نارٌ عجيبة.

وقلت: «أنا سعيدة بأن تشاء المصادفة أن أكون مستيقظة عندما حدث ذلك». ثم هممت بالانصراف.

فقال: «ماذا؟ أتعتزمين الذهاب حقاً؟»

– «إني أحسّ بالبرد، يا سيدي».

– « البرد؟ أجل، وتقفين في بركة! اذهبي، إذن، يا جين، اذهبي!»

ولكنه ظلّ متشبثاً بيدي، فلم يكن في ميسوري تحريرها. وخطر لي أن أتذرع بحجّة ما، فقلت:

– «يخيّل إليّ أني أسمع مسز فيرفاكس تتحرّك، يا سيدي».

فأرخى أصابعه وقال: «حسناً اذهبي! انا فمضيت لسبيلي.

وبلغت سريري، ولكني لم أفكر في النوم قط. لقد تقاذفني، حتى مطلع الفجر، بحرٌ تطفو الأجسام فيه، ولكنه هائج – بحرٌ تلاطمت فيه أمواج القلق العظام تحت مشاعر البهجة. وخيّل إليّ في بعض الأحيان أني لمحت وراء مياهه الثائرة شاطئاً، جميلاً كهضاب فلسطين. وبين الفينة والفينة كانت ريح منعشة توقظ أملي وتحمل روحي، على نحو مظفَّر، في اتجاه الساحل. ولكني لم أُوفق إلى بلوغه، حتّى في الخيال: فقد هبّت من ناحية اليابسة ريح معاكسة فهي تردني إلى الوراء. كان العقل يقاوم الهذيان، وكانت الحكمة تكبح الهوى. وإذ غلبت عليّ هذه الحال المحمومة التي أقصت النوم عن عيني فقد رأيت أن أنهض من فراشي مع انبلاج الصباح.

[16]

وفي اليوم الذي تلا هذه الليلة الأرقة تمنيت أن أرى مستر روتشيستر وخشيت أن أراه في آن معاً. لقد تقت إلى أن أسمح صوته مرّة أخرى، ومع ذلك فقد خفت أن ألتقي عينه. وخلال ساعات الصباح الأولى كنت أتوقّع مجيئه في كل لحظة. صحيح أنه لم يكن من دأبه أن يزور حجرة الدرس، ولكنه كان على أيّة حال يمرّ بها أحياناً ليقضي معنا بضع دقائق. ولقد حدّثني قلبي بأنه لا بدّ سيعرِّج عليها ذلك اليوم.

ولكن الصباح تقضَّى كما يتقضَّى كلّ يوم، ولم يحدث أيما شيء يقطع على دروس آديل سياقها الهادئ. ولكني سمعت، بعد فطور الصباح مباشرة، جلبة ما في جوار حجرة مستر روتشيستر: سمعت صوت مسز فيرفاكس، وصوت ليا، وصوت الطاهية – أعني زوجة جون – بل وصوت جون الأجش نفسه. لقد هتف بعضهم بقوله: «أيّة رحمة سماوية أنقذت سيدنا من الموت احتراقاً في فراشه!» وهتف بعضهم الآخر بقوله: «إنَّه لمن الخطر دائماً أن يبقى المرء شمعة مضاءة طوال الليل» أو «أليس من توفيق العناية الإلهية أن يكون من حضور البديهة بحيث يفكِّر في إبريق الماء!» أو «الذي يدهشني أنه لم يوقظ أحداً!» أو «نرجو أن لا يُصاب بالزكام نتيجة لنومه على أريكة حجرة المكتبة!» الخ.

ولقد عقب هذا الحديث الصاخب صوت تنظيف وترتيب. حتى إذا مررت بالحجرة، في طريقي لتناول طعام الغداء في الدور الأسفل، رأيت من خلال الباب المفتوح أنَّ كل شيء قد أعيد إلى وضعه النظامي الكامل. كان السرير وحده لا يزال عارياً عن ستائره، وكانت ليا منتصبة فوق «مقعد النافذة» تمسح الألواح الزجاجية التي غشاها الدخان. وكنت على وشك أن أخاطبها، لأني كنت تواقّة إلى

معرفة التفسير الذي أعطاه مستر روتشيستر للحادث، ولكني رأيت، وأنا أتقدم بضع خطوات، شخصاً أخر في الغرفة امرأة جالسة على كرسي قرب السرير، تتجز خياطة بعض الستائر الجديدة وتزوّدها بحلقات، وكانت تلك المرأة هي غرايس بول بالذات.

لقد جلست هناك، هادئة مقتصدة في الكلام، كمألوف، عادتها، مرتدية ثوبها الأسمر، ومئزرها ذا المربعات، ومنديلها الأبيض، وقبعتها الصغيرة. كانت منكبّة على عملها الذي بدا وكأنه استحوذ على تفكيرها كله. ولم يكن على جبينها القاسي وفي قسمات وجهها العادية لا شحوب ولا قنوط كاللذين يتو
قّ
ع
ا
لـ
م
ر
ء
أ
ن
يـ
ر
ا
ه
م
ا
غ

البين على محيا امرأة حاولت الق

مكتبة علي بن صالح الرقمية

يام بجريمة قتل، امرأة لحق بهامَ

نْ أ رادته أ ن يـ كون ضـ حيتها حـ تِّى وجارها و اتّهمها (كما خـ يّل إليَّ) بالجريمة التي شاءت أن ترتكبها. فدهشت، ووقف كالمأخوذة. لقد رفعت رأسها فيما كنت لا أزال أحدق إليها: إن أيما إجفال أو تضرّج أو شحوب مفاجئين لم ينمّ عن انفعال، أو عن شعور بالإثم، أو خوف من الانفضاح. لقد قالت لي: «صباح الخير، أيتها الآنسة» بطريقتها المألوفة، الموجزة، الفاترة. ثم إنها تناولت حلقة جديدة ومقداراً من الشريط إضافياً وواصلت خياطتها.

وقلت في نفسي: «سوف أخضعها لاختبار ما. إن مثل هذا الاستغلاق المطلق ليمتع على الفهم».

فقلت: «صباح الخير، يا غرايس. هل حدث هنا شيء؟ يخيّل إليّ أني سمعت الخدم كلهم يتذاكرون منذ لحظات».

– «كل ما في الأمر أن سيدا كان يطالع وهو مضطجع في فراشه الليلة البارحة، فاستكم للرقاد وشمعته مضاءة، فاضطرمت النار في الستائر. ولكنه استيقظ – لحسن الطالع – قبل أن تمتدّ إلى أغطية الفراش أو إلى الباب والنوافذ وما إليها من أشياء خشبية، وكافح لإخماد النار بالماء الذي كان في الإبريق».

فقلت في صوت خفيض: «مسألة غريبة حقاً!» ثم حدَّقت إليها وأضفت: «ألم يوقظ مستر روتشيستر أحداً؟ ألم يسمع أحد الضجة؟»

فرفعت عينيها إليّ كرة أخرى، وهذه المرة كان فيهما شيء من الوعي. لقد بدت وكأنها تتفرّس بي في حذر، ثم أجابت قائلة: «الخدم ينامون في مكان بعيد جداً، كما تعلمين، يا مس ايير، فليس من المحتمل أن يسمعوا. والواقع أن غرفة مسز فير فاكس وغرفتك هما أقرب الغرف إلى حجرة سيدنا، ولكن مسز فيرفاكس قالت إنها لم تسمع شيئاً. إن الناس حين تتقدّم بهم السن يصبح نومهم ثقيلاً في أكثر الأحيان». وكفَّت عن الكلام ثم أضافت في ضرب من اللامبالاة المصطنعة ولكن في جَرْس واضح ذي مغزى: «ولكنك فتاة في الصبا، يا آنسة، ومن واجبي أن أقول إنّك من أصحاب النوم الخفيف، فلعلِّك أن تكوني قد سمعت ضجة ما؟»

فقلت خافضة صوتي لكي يتعذّر سماعه على «ليبا» التي كانت لا تزال تصلق زجاج النوافذ: «بلى، قد سمعت، ولقد ظننت بادئ الأمر أن مصدر الضجة هو بايلوت. ولكن بايلوت لا يستطيع أن يضحك، وأنا واثقة من أني قد سمعت ضحكة... ضحكة غريبة أيضاً».

فتناولت خيطاً جديداً، وأمرَّته في عناية فرق قطعة من شمع، ثم أدخلته في سَمّ الإبرة بيد غير مرتعشة، ثم قالت في رباطة جأش كاملة: «من غير المحتمل، في ما يخيّل إليّ، أن يضحك سيدنا، يا آنسة، حين يجد نفسه في مثل ذلك الوضع الخطر. لا ريب في أنّك كنت تحلمين».

فقلت في شيء من الحرارة ونفاذ الصبر، ذلك بأن برودها النحاسي كان قد أثارني: «أنا لم أكن أحلم».

فنظرت إليّ من جديد، وبنفس تلك العين الواعية المتحرِّية. ثم سألتني: «هل أعلمت سيدنا أنّك سمعت ضحكة؟»

– «لم تتح لي فرصة التحدّث إليه هذا الصباح».

فسألتني كرة أخرى: «ألم يخطر لك أن تفتحي باب حجرتك وأن تلقي نظرة على الرواق؟»

لقد بدت وكأنها تستنطقني، محاولة أن تنتزع مني بعض المعلومات من غير أن أدري. وخطر لي أنها إذا اكتشفت أني عرفت جريمتها أو ارتبت في أمرها فقد تنتقم مني ببعض مكائدها الخبيثة. من أجل ذلك وجدت من حسن الرأي أن آخذ حذري. فقلت: «على العكس. لقد أوصدت باب حجرتي بالرتاج».

– «وإذن فليس من دأبك أن توصدي باب حجرتك بالرتاج، كل ليلة، قبل أن تأوي إلى سريرك؟»

فقلت في ذات نفسي: «يا للشيطان! إنها تريد أن تستطلع عاداتي لكي يكون في ميسورها أن تضع خططها وفْقَها!» وتغلب الحنق على الحكمة، كرة أخرى، فأجبتها

في حدة: «كنت حتّى الآن كثيراً ما لا أوصد باب حجرتي بالرتاج إذ لم أكن لأظن أن ذلك ضروري. كنت خالية الذهن من وجود أيما خطر أو إزعاج يتعيّن على المرء أن يخشاه في قصر ثورنفيلد. أما في المستقبل (وهنا وضعت توكيداً واضحاً على كل كلمة) فسوف أعنى عناية بالغة بالأخذ بأسباب السلامة والأمن قبل أن أغامر وآوي إلى الفراش».

فكان جوابها: «هذا عمل حكيم. إن هذه البقعة هي أشدّ البقاع التي أعرفها سكينة وهدوءاً، ولم أسمع قط أن اللصوص حاولوا اقتحام القصر منذ أن نزلته الأسرة، على الرغم من أن خزانة الأطباق تشتمل على آنية تساوي مئات الجنيهات، كما يعلم الناس جميعاً. ثم إنك ترين أن هذا البيت الكبير لا يضمّ غير عدد من الخدم يسير جداً، لأن سيدنا لم يطل في أيما يوم من الأيام إقامته في هذه الربوع. وحتى لو جاء ذات يوم فإنه لا يحتاج إلى كبير خدمة، لأنه أعزب. ولكنني من القائلين دائماً بوجوب الأخذ بالأحْوَط. فليس إيصاد الباب بالرتاج بالأمر العسير، ومن الخير أن يقيم المرء حاجزاً من حديد بينه وبين أيما شرّ قد يحيط به. إن كثيراً من الناس، يا آنسة، يتّكلون على العناية الإلهية في كل شيء، ولكنني أقول إن العناية الإلهية لا تمنع المرء من واجب العمل واستخدام مختلف الوسائل، وإنها كثيراً ما تباركها حين تُسْتخدم في حكمة». وهنا ختمت خطبتها، وكانت خطبة مسهبة بالنسبة إليها، وهي المرأة المؤثرة للصمت، ولقد ألقتها بمثل رصانة سيدة من طائفة «الكويكرز» المتزمتة.

وكنت لا أزال واقفة وقد استبدّ بي الانشداه لما بدا لي أنه رباطة جأش أعجوبية من جانبها ورياء ممتنع على التفسير عندما دخلت الطاهية وقالت موجهة كلامها إلى غرايس: «زمسز بول، إن غداء الخدم سوف يصبح جاهزاً بعد لحظات، فهل لك أن تهبطي إلى الطابق الأسفل؟»

– «لا. ليس عليك إلا أن تضعي كأساً من الجعة وقطعة من الحلوى على صينية ولسوف أحملها إلى الطابق الأعلى».

– «ألا تريدين شيئاً من لحم؟»

– «حسبي قطعة صغيرة ليس غير، وقليل من الجبن».

– «والساغ[1]؟»

(1) Sago مادة غذائية نشوية مستمدة من لباب أنواع النخيل المعروفة في جزر الملايو وغيرها وهي تُستعمل في تحضير الحلوى. (المعرب)

– «فى الإمكان صرف النظر عن هذا مؤقتاً. ولسوف أهبط إلى الطابق الأرضي قبل موعد الشاي، وعندئذٍ أُعِدَّه بنفسي».

وهنا التفتت الطاهية إليّ، قائلة إن مسز فيرفاكس كانت تنتظرني. وهكذا انصرفت.

وخلال تناول الغداء لم أكد أسمع شيئاً من رواية مسز فيرفاكس عن احتراق الستارة، فقد كنت في شُغْل شاغل عن ذلك أحاول أن أحلل شخصية غرايس بول الملغَزة وأحلُّ معمياتها، وكنت في شغل أشْغل أحاول أن أنفذ إلى حقيقة مركزها المبهم في ثورنفيلد، وأتساءل لماذا لم يُزجَّ بها في السجن ذلك الصباح، أو على الأقل لماذا لم تسرَّح من خدمة سيدها؟ لقد أعلن، أو كاد، في الليلة البارحة، إيمانه بأنها هي التي ارتكبت تلك الجريمة، فلأي سبب خفي أمسَك عن اتهامها؟ ولماذا أوصاني أنا أيضاً بالكتمان؟ لقد كان ذلك أمراً عجباً: سيد جريء حقود متعال يبدو خاضعاً بطريقة ما لسلطان واحدة من أحقر خدمه، خاضعاً لسلطانها إلى درجة جعلته، حتّى عندما رفعت يدها لتورده موارد الهلاك، لا يجرؤ على اتهامها صراحة بالقيام بمثل هذه المحاولة، بَلْه معاقبتها من أجل ذلك.

ولو قد كانت غرايس ناضرة العود بهية الطلعة إذن لأغريْتُ بالاعتقاد بأن مشاعر أرق، من الحكمة أو الخوف قد راودت مستر روتشيستر وشفعت لها عنده. ولكن مثل هذه الفكرة ما كانت لتجد قبولاً لديّ لما أعرفه من بشاعة وجهها ومن تقدمها نحو الكهولة. وقلت في ذات نفسي: «ومع ذلك فقد كانت غضّة الأهاب في

يوم من الأيام، ولا ريب في أن شبابها قد عاصر شباب سيدها. ولقد أخبرتني مسز فيرفاكس مرة أنها تقيم هنا، في القصر، منذ سنوات عديدة. أنا لا أحسب أنه كان في ميسورها في أيما يوم أن تكون جميلة، ولكني أعلم على أية حال أنها ربما ملكت من الأصالة وقوة الشخصية ما عوَّضها عن الجمال. ومستر روتشيستر من هواة أولي الحزم وأصحاب الأطوار الغريبة، وغرايس غريبة الأطوار، على الأقل. أليس جائزاً أن تكون إحدى النزوات السالفة (وهو شيء غير مستبعد البتة على طبيعة تتَّسم بالفجائية والعناد) قد أسلمته إلى نفوذها، فهي تتمتع الآن بسلطان على أعماله خفي – نتيجة لطيشه هو – لا قِبَل له زعزعته ولا يجسر على إغفاله؟ – ولكن ما إن بلغتُ من الحدس هذه النقطة بالذات حتّى تمثّل لي شخص مسز بول المربَّع الذي تعوزه الحيوية، ووجهها البشع الجاف الجلف تمثلاً واضحاً إلى درجة جعلتني أقول في ذات نفسي: «لا. مستحيل. إن افتراضي لا يمكن أن يكون صحيحاً. ومع ذلك،» (هكذا حدثني الصوت الخفي الذي يخاطبنا في أفئدتنا) «فأنت أيضاً غير جميلة، ومن يدري فلعل مستر روتشيستر يستلطفك، وعلى أية حال فقد استشعرت في كثير من الأحيان أنه يفعل ذلك فعلاً. والليلة البارحة.. تذكري كلماته: تذكري نظرته.. تذكري صوته!».

وتذكرت ذلك كله في وضوح، وفي الحال انبعثت لغته وصوته في ذهني انبعاثاً يمور بالحياة. وكنت الآن في حجرة الدرس، وكانت آديل ترسم. فانحنيتُ فوقها ورحت أسدِّد خطى قلمها، فرفعت نظرها إليّ في ضرب من الإجفال. وقالت بالفرنسية: «ما بالك، يا آنسة؟ إن أصابعك ترتعش كالورقة، وإن خديك أحمران.. ولكنهما أحمران مثل حبات كرز!»

فقلت: «إني محرورة، يا آديل، بسبب انحنائي فوقك!» فمضت هي في رسمها ومضيت أنا في تفكيري.

وسارعت إلى تحرير ذهني من الفكرة البغضية التي تكوّنت لديّ في ما يـ

تّ
ص
ل
ب
غ
ر
ا
ي
س
ب
و
ل
:
ل
ق
د
أ
ث
ا
ر
ت
ت
ل
ك
ا

ل
ف
ك
ر
ة
ا
ش
م
ئ
ز
ا
ز
ي
.
و
ق
ا
ر
ن
ت
م
ا
ب
ي
ن

ي
و
ب
د
ن
ه
ا
،
ف
و
ج
د
تُ

أننا مختلفتان. كانت بيسي ليفن قد قالت إني سيدة بكل ما في الكلمة من معنى. ولقد نطقَتْ بالصدق: كنت سيدة حقاً. وإني لأبدو الآن خيراً مما كنت حين رأتني بيسي بكثير. كنت أشدّ تورُّداً وأكثر بضاضة، وكنت أحفل بالحياة وبالحيوية، إذ كانت آمالي أعظم إشراقاً وكانت مباهجي أبعد عمقاً.

وقلت لنفسي، فيما كنت أتطلع نحو النافذة: «هر ذا المساء يدنو، ولمَّا أسمَعْ صوت مستر روتشيستر أو وقع قدميه في القصر، اليوم. ولكني سوف أراه، من غير ريب، قبل أن يهبط الليل: لقد خشيت لقاءه صباحاً، وها أنا أتوق إلى ذلك، لأن تطاول الخيبة وتكررها أحالا التوقّع إلى نفاد صبر».

وحين ران الغسق فعلاً، وحين فارقتني آديل لتذهب وتلعب في حجرة الأطفال مع «صوفي» تلهّفت إلى ذلك اللقاء أقصى ما يكون التلهُّف. لقد أرهفت أذني لكي أسمع الجرس يرن في الدور الأسفل، وأرهفتها لكي أسمع وقع خطى «ليبيا» مقبلة نحوي ابتغاء دعوتي إلى النزول، وتخيّلت، أحياناً، أني سمعت وقع خطى مستر

روتشيستر نفسه فكنت ألتفت إلى الباب متوقّعة أن يفْتح مُدْخلاً إيّاه عليّ. ولكن الباب ظل موصداً: إن الظلمة وحدها هي التي دخلت من خلال النافذة. ومع ذلك فإن الأوان لم يكن قدفات. فكثيراً ما أرسل في طلبي في الساعة السابعة أو الثامنة، وكانت الساعة الآن لا تعدو السادسة. وليس من ريب في أن آماليّ لن تخيب على نحو كلّي في هذه الليلة التي تزخر فيها جعبتي بأشياء كثيرة أريد أن أقولها له! لقد أردت أيضاً أن أثير موضوع غرايس بول، وان أسمع إلى رأيه فيه. أردت أن أسأله في صراحة أيؤمن حقاً بأنها هي التي قامت بمحاولة البارحة الشنيعة، وإذا كان ذلك كذلك فلماذا أبقى خباثتها سراً من الأسرار. ولم أجد كبير بأس في أن يؤدي فضولي هذا إلى إثارته، إذ كنت أعرف متعة إغضابه واسترضائه على التوالي، وكانت تلك المتعة مصدر ابتهاجي الأعظم، ولقد كانت تعصمني، دائماً، من الذهاب في ذلك إلى أبعد ممّا ينبغي غريزة واثقة من نفسها. أنا لم أغامر قط بتخطّي حدّ الإثارة، وكان يطيب لي كثيراً أن أختبر براعتي عند شفيرها الأقصى. والواقع أنه كان من دأبي أن أراعي في مثل هذه المواقف أدقّ مظاهر الاحترام، وضروب اللباقات التي يفرضها عليٍّ مركزي، وبذلك استطعت، في غير ما خوف من كبح فلِق، أن أقارعه الحجة بالحجّة. وكان هذا يلائمه ويلائمني في وقت معاً.

وصرَّت خطى، على السلم، آخر الأمر. وبرزت «ليبا»، ولكن لتجتزئ بالقول إنّ الشاي جاهز في حجرة مسز فيرفاكس. فقصدت إلى هناك، سعيدة على الأقل بالنزول إلى الدور الأرضي. ذلك بأن هذا كان يجعلني، في ما خُيِّل لي، أقرب إلى شخص مستر روتشيستر.

وقالت السيدة الصالحة عندما دخلت عليها: «لا ريب في أنك بحاجة ماسة إلى تناول الشاي، فأنت لم تأكلي عند الغداء إلاّ قليلاً». وصمتت لحظة ثم أضافت: «أنا أخشى أن تكون وعكةٌ ما قد ألمّت بك: إني أراكِ محمومة يشيح الدم في وجهك».

– «أوه، أنا في صحة جيدة! بل إنّ صحتي لم تكن في أيما وقت مثلها اليوم».

– «يتعيّن عليك إذن أن تثبتي ذلك بالتكشف عن شهوة قوية إلى الطعام. فهل لك أن تملأي وعاء الشاي ريثما أنجز حبكي؟»

حتى إذا أنجزته نهضت لتنزل مصراع النافذة الذي كانت قد رفعته من قبل لكي تفيد، في ما أحسب، أكثر ما تكون الإفادة من ضوء النهار، على الرغم من أن الغسق كان يغذّ الخطى، الآن. نحو الظلمة الكاملة.

وقالت ناظرةً من خلال زجاج النافذة: الجو جميل الليلة، على الرغم من أن السماء خالية من النجوم وعلى الجملة فقد واتى الحظ مستر روتشيستر بيوم ملائم لرحلته».

– «رحلة!... هل ذهب مستر روتشيستر إلى مكان ما؟ أنا ما كنت أعلم أنه قد غادر القصر؟»

– «أوه، لقد انطلق بُعَيْد طعام الصجاح مباشرة! لقد ذهب إلى «ليييس»، حيث يقوم قصر مستر ايشتون، على مبعدة عشرة أميال من جانب ميلكوت الآخر. وأحسب أن ثمة اجتماعاً حاشداً سيلتقي فيه اللورد اينغرام، والسير جورج لين، والكولونيل دينت وغيرهم...».

– «وهل تتوقعين أن يعود الليلة؟»

– «لا. حتى ولا غداً أيضاً. والذي اعتقده أنه سوف يلبث هناك، في أغلب الظن، أسبوعاً أو أكثر. ذلك بأن هؤلاء القوم البارين المترفين إذا اجتمع شملهم وجدوا أنفسهم محاطين بكلّ ما هو أنيق بهيج، مزودين بكل ما يرضي ويسلّي إلى درجة تجعلهم لا يتعجّلون تشتُّت الشمل. وكثيراً ما يُلتمس حضور الرجال، بصفة خاصة، في هذه المناسبات، ومستر روتشيستر يتكشف في دنيا المجتمع عن موهبة بارعة وحيوية زاخرة تجعلانه، في ما أعتقد، موضع الإيثار العام. إنّ السيدات جد مولعات به، وإن لم يكن في مظهره ما يوحي بأنه مؤهّل لانتزاع إعجابهنّ على

نحو مخصوص. ولكني أحسب أن ثقافته وكفاءاته، وربما ثروته وشرف نسبه، تعوِّضه عن أيما هنَةٍ يسيرة في المظهر».

– «وهل في لييبس سيدات؟»

– «هناك مسز ايشتون وبناتها الثلاث. وهنّ في الحق فتيات أنيقات جداً. وهناك النبيلتان بلا نش وماري اينغرام وهما في ما أعتقد على جمال لا يُضارَع. والواقع أني رأيت بلانش، منذ ست سنوات أو سبع، يوم كانت فتاة في الثامنة عشرة. لقد وفدت إلى هنا لتشهد حفلة راقصة من حفلات عيد الميلاد أقامها مستر روتشيستر. وكم كنت أتمنى لو رأيت حجرة الطعام ذلك اليوم، إذن لشهدت مبلغ غنى زخارفها ومدى تألق أضوائها! ويخيّل إليّ أن خمسين سيدة ورجلاً اجتمعوا هناك تلك الليلة – وكلهم من كبريات الأسر في الإقليم، ولقد اعتُبرت مسز اينغرام نجم السهرة».

– «تقولين، يا مسز فيرفاكس، إنّك رأيتها. فهل لك أن تصفيها لي؟»

– «أجل، لقد رأيتها. كانت أبواب حجرة الطعام مشرّعة على مصاريعها. وإذ كنا نحتفل بعيد الميلاد فقد أُجيز للخدم أن يجتمعوا في الردهة لكي يسمعوا إلى بعض السيدات يتغنَّيْن ويعزفن. ورغب إلي مستر روتشيستر أن أدخل، فانتحيت زاوية هادئة وقعدت أراقبهن. أنا لم أشهد، عمري كله، مشهداً أفخم وأتنى: كانت السيدات يرفلن بأروع الحلل، ولقد بدت كثرتهن الكثيرة – أو كثرة ذوات الشباب النضر منهن – وسيماتٍ بهيَّات الطلعة. ولكن مس اينغرام كانت نجم السهرة من غير ريب».

– «ولكنك لم تصفيها لي؟»

– «كانت فارعة الطول، جميلة الصدر، منحدرة المنكبين. وكان لها جيدٌ طويل رشيق، وبشرة زيتونية سمراء صافية، وأسارير ترشح نبلاً، وعينان أشبه ما تكونان بعينَيْ مستر روتشيستر. فهما واسعتان سوداوان متألقتان تألق جواهرها.

وكان لها شعر فاتن أسود كلون الغراب أليق تسريح وأبدعه، فهو يتدلّى خلفها تاجاً من غدائر أثيثة، وهو ينسدل أمامها خصَلاً متجعدة لم إلى في حياتي قط أطول منها ولا أشد صِقالاً. كانت ترفل في حلة بيضاء ناصعة، وقد ألقت على كتفها وعبر صدرها وشاحاً كهرماني اللون، عُقِد عند خصرها لتتدلى منه أطراف طويلة مُهَدَّبة إلى ما تحت ركبتها. وكانت تزيّن شعرها أيضاً بزهرة كهرمانية اللون، فهي تتغاير تغايراً رائعاً مع خصل شعرها الفاحمة».

– «ولقد حظيت، طبعاً، بإعجاب من القوم عظيم؟»

– «أجل، من غير ريب. ولم يكن ذلك بحكم جمالها فحسب، بل بحكم مواهبها أيضاً. كانت إحدى السيدات اللواتي أنشدن، ولقد صاحبها على البيانو سيدٌ من المدعوين. ولقد شاركها مستر روبشيستر نفسه في أداء إحدى الأغنيات الثنائية أيضاً».

– «مستر روتشيستر؟ أنا لم أكن أعرف أنه يجيد الغناء».

– «أوه، إن له صوتاً جهيراً رائعاً، وذائقة موسيقية ممتازة».

– «ومس اينغرام، من أي ضرب من الأصوات صرتها؟»

– «إنه صوت غنيٌّ جداً، قوي جداً. لقد غنّت على نحو فاتن، وكان الإصغاء إليها متعة من المتع. ثم إنها راحت تعزف على البيانو، بعد ذلك. أنا لا أحسن الحكم على الأداء الموسيقي، ولكن مستر روتشيستر يُحسن ذلك. ولقد سمعتُهُ يقول إنّ أداءها كان رائعاً».

– «وهذه السيدة الجميلة الرفيعة الثقافة لمّا تتزوج بعد؟» –

– «يبدو أنها لم تفعل. ويُخيّل إليّ أنها وأختها لا تملكان ثروة كبيرة. فقد جعلت ممتلكات اللورد اينغرام الكبير وقفاً على وريث واحد، هو ولده البكر الذي فاز بالثروة كلها تقريباً».

– «ولكني أتساءل، في كثير من العجب، لماذا لم يولع بها أيما نبيل ثريٍّ، أو أيما سيد ماجد غني... مستر روتشيستر مثلاً، إنه رجل موسر، أليس كذلك؟»

– «أوه، طبعاً، ولكن ثمة، كما ترين، فارقاً في العمر كبيراً. إن مستر روتشيستر يكاد يبلغ الأربعين، في حين أنها لا تعدو الخامسة والعشرين».

– «وأي بأس في ذلك؟ إن زيجات تتفاوت فيها أعمار العروسين تفاوتاً أعظم لتُعقَد كلّ يوم».

– «هذا صحيح. ومع ذلك، فأنا لا أستطيع أن أتخيّل، إلاّ بشقّ النفس، أن مستر رويشيستر يمكن أن تراوده فكرة كهذه. ولكنك لم تأكلي شيئاً، ولم يكد فمك يذوق طعم الشطائر، منذ أن جلست إلى مائدة الشاي».

– «لا، أنا أشد ظمأ من أن أرغب في شيء من طعام. فهل تسمحين لي بكوب آخر؟»

وكنت على وشك العودة إلى احتمال زواج مستر روتشيستر من بلانش الحسناء، ولكن آديل دخلت علينا في تلك اللحظة، فحُوِّل الحديث إلى وجهة أخرى.

حتى إذا خلوت إلى نفسي من جديد راجعت المعلومات التي كانت قد تمَّت لي، ونظرت إلى قلبي، فدرست أحاسيسه، وحاولت أن ألجُم، بيدٍ صارمة، ما شرد منها في فيافي الخيال اللّا محدودة واللامطروقة، وأردّه إلى حظيرة العقل السليم الآمنة.

ودعوت نفسي إلى محكمة أقمتها بنفسي، فأدلت الذاكرة بشهادتها متحدثة عن الآمال والرغبات والعواطف التي راودتني منذ الليلة البارحة، وعن الحالة الذهنية العامة التي غلبت منذ أسبوعين اثنين تقريباً. وتقدَّم العقل فقصّ بطريقته الهادئة حكاية بسيطة غير مزوقة تظهر كيف رفضت الواقعي والتهمت المثل الأعلى في سرعة. وعندئذ أصدرت حكمي بما معناه:

– إن سطح الأرض لم يعرف قط مخلوقاً أعظم حماقة من جين ايير، وإن أياً من الحمقى ذوي المزاج الشاذ لم يُتْهم نفسه قط بالأكاذيب العذبة أكثر مما أتهمتْ

نفسها، ولم يتجرّع السم وكأنه شراب الآلهة أكثر مما تجرعَتْ.

قلت مخاطبة نفسي: «أتزعمين أنك أنت، أجل أنتِ، أثيرة عند مستر روتشيستر؟ أتحسبين أنك قد وُهِبت القدرة على إرضائه؟ أتتوهمين أنك ذات أهمية لديه على نحو من الأنحاء؟ اغربي عن وجهي! إن حماقتك تثير اشمئزازي. ولقد استمددت البهجة من إمارات إيثارٍ عَرضية - إمارات مبهمة يبديها سيدٌ شريف النَسب، رجل واسع الخبرة بالحياة والناس، لمرؤوسة من مرؤوسيه، لفتاة غِرة. كيف جرؤت على هذا؟ يا لك من مخدوعة بلهاء مسكينة! ألم تستطع حتى مصلحتك الذاتية أن تجعلك أكثر تعقّلاً وحكمة؟ لقد تمثلت في مخيلتك، هذا الصباح، مشهد البارحة الموجز؟ - فاحجبي وجهك واحمري خجلاً! لقد قال كلاماً أطرى به عينيك، أليس كذلك؟ يا لك من مغرورة عمياء! افتحي جفونك المغمَّضة، وانظري إلى حماقتك الملعونة! فغير مُجدٍ لأية امرأة أن يطريها سيدها أو رئيسها، الذي لا يستطيع أن ينتوي الزواج منها بأية حال. وإنه لجنون من جانب النساء جميعاً أن يُجزن للحب الخفي أن يضطرم في جوانحهن، لأنه إنْ لم يقابل بمثله أو ظل مجهولاً فلابد أن يفترس الحياة التي تَغْذوه، وإن اكتُشِف وحظيَ باستجابة ما فلابدّ أن يفضي، مثل الوهج الأجَميَّ[1] إلى مفازات موحلة لا سبيل إلى النجاة منها.

(1) ignis–fatuus: ضوء مضلل يتراءى فوق الأجمات في أثناء الليل.

«اسمعي، إذن، يا جين ايير إلى الحكم الصادر في حقك: غداً ضعي المرأة أمامك، وارسمي صورتك بالطباشير في دقة بالغة - من غير أن تلطِّفي أيما عيب، أو تحذفي أي سِرارٍ قاس من أساريرك، أو تخففي أي عِوَجٍ مكدِّر - واكتبي تحتها: «رسم مربية، متنافرة، فقيرة، بشعة».

«وبعد ذلك خُذي قطعة من عاج ناعم - إن لديك واحدة مُحْضَرة في علبة الرسم - واخرجي لوحة ألوانك، وامزجي أنضر الأصباغ وأروعها وأزهاها، واختاري أدقّ ريشة مصنوعة من وبر الإبل، وارسمي في عناية الخطوط الكبرى لأجمل وجه تستطعين أن تتخيليه، ثم اصطنعي أرقَّ ألوانك وأعذب أصباغك، وفقاً

لوصف مسز فيرفاكس لبلانش اينغرام: تذكّري حُلَيْقات الشعر الفاحمة، والعينين الشرقيتين. ماذا؟ أتفكرين بأن تتّخذي من مستر روتشيستر نموذجاً؟! الزمي النظام! لا تشرقي بالبكاء! اطرحي العاطفة! اطرحي الأسف! أنا لن أرتضي غير العقل الراجح والعزيمة الصادقة. تذكَّري الأسارير المبهمة، ولكن المتناغمة، وتذكري عنق تمثال إغريقي وصدره. اظهري الذراعين الملفوفتين اللتين تبهران البصر، واليدين الناعمتين، ولا تغفلي الخاتم الماسي والسوار الذهبي. وصوِّري الثوب بدقّة وصدق، والتخريم الأثيري اللطيف، والأطلس اللامع، والوشاح الظريف، والوردة الذهبية. ثم سمِّي هذه الصورة: «بلانش، سيدة كاملة نبيلة».

«وكلما اتفق لك في المستقبل أن تتخيلي أن لمستر روتشيستر رأياً حسناً فيك أخرجي هاتين الصورتين واعقدي مقارنة بينهما. قولي لنفسك: «يستطيع مستر روتشيستر، في أغلب الظن، أن يظفر بحب هذه السيدة النبيلة إذا شاء السعي بسبيله، فهل من المحتمل أن يضيع ذرة من تفكير جديٍّ على هذه المرأة العامية المعوزة التافهة؟»

فعقدت العزم قائلة: «سوف أفعل!» حتّى إذا اتُّخذت هذا القرار، اطمأنت نفسي فاستسلمت للرقاد.

وأوفيتُ بالوعد. ولم أحتج إلى غير ساعة أو ساعتين لكي أنجز رسم صورة لي بالطباشير. وفي أقل من أسبوعين كنت قد أتممت عمل صورة عاجية مصغَّرة لبلانش اينغرام خيالية. لقد بدت بهية الطلعة حقاً، حتى إذا قارنتُها بوجهي المرسوم بالطباشير ألفَيت الفرق عظيماً بقدر ما يحْسُنُ بضبط النفس أن يشتهي. وأفادتني هذه الهمة: كانت قد شغلت رأسي ويديَّ، وكانت قد أشفَتْ قوة وثباتاً على الانطباعات الجديدة التي أردْتُ أن أمهر بها فؤادي على نحو ليس يُمْحَى.

ولم ينقض طويل وقت حتى أمسى في مستطاعي أن أهنئ نفسي على الانضباط السليم الذي أكرهتُ مشاعري على الخضوع له. وبفضل هذا الانضباط

وُفِّقت إلى مواجهة الأحداث التالية في هدوء غير يسير، وهي أحداث كان خليقاً بي، لو أنها فاجأتني على غير استعداد لها، أن أعجز عن احتمالها ولو ظاهرياً.

[17]

وتصرّمت سبعة أيام ولم يصلنا أي نبأ عن مستر روتشيستر. وأمست الأيام السبعة أياماً عشرة ولمّا يَعُدْ إلى ثورنفيلد. وقالت مسز فيرفاكس إنها لن تدهش إذا ما شخص من «لييبس» إلى لندن مباشرة، ومن ثم إلى أوروبا القارية، وإذا لم يعد إلى ثورنفيلد إلاّ بعد انقضاء عامل كامل، فكثيراً ما كان يتّفق له أن يغادر القصر على هذا النحو المفاجئ غير المتوقّع. حتى إذا سمعت هذا الكلام شرعت أستشعر رعشة غريبة وأحس بأن قلبي قد غار. كنت في الواقع أُجيز لنفسي أن تتجرع مرارة شعور بالخيبة يثير فيها تقززاً واشمئزازاً. ولكني سرعان ما حشدتُ حواسي المشتتة، واستحضرتُ مبادئي، وبذلك سيطرت على مشاعري. ولقد كانت رائعة حقاً تلك الغلبة التي تمّت لي على الخطأ الفاضح الذي أوهمني أن تنقّلات مستر روتشيستر مسألة من حقي أن أوليها اهتماماً حيوياً. وليس معنى ذلك أني جرحت كبريائي الذاتية من طريق الشعور بالدونيَّة التي تساور نفوس الأرقاء والعبيد. لا، لقد اجتزأت – على عكس ذلك – بالقول:

– «ليس لكِ أي شأن بسيد ثورنفيلد يزيد عن تلقِّيك الراتب الذي يقدّمه إليك مقابل تعليم البنت التي كفلها، ويتجاوز شكره على أيّة معاملة كريمة محترمة قد يكون من حقك أن تتوقعيها منه إذا ما أدّيت واجبك أداء حسناً. وثقي أن هذه هي الرابطة الوحيدة التي يعترف هو جدّياً بأنها تشدّه إليك. وهكذا يتعيّن عليك أن لا تجعليه موضوع مشاعرك الرقيقة. وموضوع أفراحك وأتراحك وما إليها. إنه من طبقة غير طبقتك. فالزمي حدود طائفتك الاجتماعية. وليكن لديك من احترام الذات ما يعصمك من إغداق الحب الذي يغذوه القلب كله والروح كلها والقوة كلها على امرئ ليس يرغب في مثل هذه الهِبَة، ولا يقابلها بشيء غير الاحتقار».

وواصلت أداء مهمتي اليومية في سكينة وهدوء، ولكن أفكار مبهمة ظلت تراودني بين فينة وأخرى وتوحي إليّ بضروب من الأسباب التي تبرِّر مغادرتي قصر ثورنفيلد. وعلى نحو غير إرادي، رحت أتخيّل أشكالاً من الإعلانات، وأستغرق في تخمينات متفاوتة حول وظائف جديدة قد تُسْنَد لي في المستقبل. ولم إلى أن واجبي يقتضيني كبح هذه الأفكار. فقد تفرُّخ وتنمو، وقد يكون في ميسورها أن تؤتي أكلَها.

وكان قد انقضى على غياب مستر روتشيستر أكثر من أسبوعين عندما حمل البريد رسالة إلى مسز فيرفاكس.

وقالت لي وهي تنظر إلى العنوان: «إنها من سيدنا. يخيَّل إليّ أننا سوف نعرف الآن ما إذا كان لنا أن نتوقّع عودته أم لا».

وفيما كانت تفضُّ الختم وتقرأ الرسالة في روية واهتمام مضيت في احتساء قهوتي (فقد كنا نتناول طعام الصباح). كانت حارة، ولقد عزوت إلى هذه الواقعة توهجاً نارياً شاع في وجهي على نحو مفاجئ. أما ارتعاش يدي، وإهراقي على نحو غير إرادي نصف - محتويات فنجاني في صحنه الصغير فكانا شيئين لم أحاول أن أبحث لهما عن تفسير.

وقالت مسز فيرفاكس وهي لا تزال ممسكة بالرسالة أمام نظارتيها: «حسناً، يتراءى لي في بعض الأحيان أن الهدوء يكتنف حياتنا أكثر ممّا ينبغي، ولكني أحسب أننا سوف نجد أنفسنا الآن في شغل شاغل، طوال فترة قصيرة على الأقل».

وقبل أن أُجيز لنفسي أن أسألها إيضاحاً عقدتُ رباط مئزر آديل الذي كان محلولاً آنذاك. حتى إذا قدمتُ إليها كعكة أخرى، وملأت كوبها بالحليب كرة ثانية، قلت في فتور: «ليس من المحتمل أن يعود مستر روتشيستر عمّا قريب، في ما أحسب؟»

– «بل سيعود... سيعود بعد ثلاثة أيام، كما يقول. يعني يوم الخميس القادم. ولن يكون وحده أيضاً. أنا لا أدري عدد نبلاء «ليبيس» الذين سيفدون معه. إنه يصدر أوامره بإعداد حجرات النوم الفضلى جميعاً، وترتيب حجرة المكتبة وحجرات الاستقبال. ويطلب إلي أن أستعين بخدم إضافيين من «فندق جورج» في ميلكوت ومن أيما مكان آخر قد أجدهم فيه. ولسوف تصطَحبُ السيدات خادماتهن، ويصطحب الرجال خدمهم، وهكذا لن يبقى في القصر مقعد شاغر».

قالت مسز فيرفاكس ذلك وازدردت فطور الصباح ازدراداً وغادرت الحجرة مسرعة لتشرع في القيام بهذه العمليات.

كانت الأيام الثلاثة، كما تنبأت مسز فيرفاكس، غاصّة بضروب الأعمال. وكنت قد حسبت أن حجرات ثورنفيلد كلها نظيفة حسنة الترتيب، ولكن يظهر أني كنت مخطئة. فقد استعانت مسز فيرفاكس بثلاث نسوة إضافيات وعندئذ بدأت عملية فركٍ ومسح، ونفض للغبار، وغسل للأجزاء المدهونة من الحجرات، وطَرْق للسجاد، ونزع للوحات الفنية ثم تعليقها من جديد، وصقل للمرايا والثريات، وإضرام للنار في حجرات النوم، وتهوية لأغطية السُّرُر ولحشايا الريش على مقربة من المواقد، لم أشهد لها نظيراً لا من قبل ولا من بعد. وجُنَّت آديل فرحاً، وسط ذلك كله، فكان الاستعداد لاستقبال الضيوف ووشْكَ وصولهم قد. أهاجا في ذات نفسها نشوة روحية. كانت تطلب إلى «صوفي» أن تفحص «زينتها» toilettes كلها، كما كانت تدعو فساتينها، وأن تجدِّد نضرة العتيق منها، وتهوِّي وترتِّب الجديد. أما هي فلم تأت أي عمل غير الوثب في الحجرات الأمامية، والقفز إلى الأسرة وعنها، والاضطجاع على الحشايا وعلى المخدات والوسائد المركومة أمام النيران الضخمة التي كانت تئز في المواقد. لقد أُحِلَّتْ من واجباتها المدرسية، بعد أن طلبت إليَّ مسز فيرفاكس، في إلحاحٍ كثير، أن أضع نفسي بتصرفها، فكنت أنفق ساعات النهار كلها في مخزن المؤن أُساعدها وأساعد الطاهية (أو أعوقهما)، متعلمةً كيف أصنع ضروب القَسْدَر[1] وفطائر الجبن والمعجنات الفرنسية، وأكتِّف الطيور قبل شويها، وأزخرف أطباق الحلوى وما إليها.

(1) custard حلوى من السكر والبيض واللبن. (المعرب)

وكان وصول القوم متوقعاً أصيل يوم الخميس في موعد العشاء، أي في الساعة السادسة. وخلال الفترة التي فصلت ما بين وصول الرسالة ووصولهم لم أجد متّسعاً من الوقت للاستغراق في الأوهام والآمال الباطلة، وأحسب أني لم أكن أقلّ نشاطاً وابتهاجاً من أيما امرئ آخر – ما خلا آديل. ومع ذلك فقد كان مَرَحي يُكبح بين الفينة واللفينة كبحاً يُضعِف من زخمه، فأجد نفسي، على الرغم مني، وقد رُدِدْتُ إلى دنيا الشكوك والنُذُر والظنون القاتمة. وإنما ألمَّ بي ذلك عندما اتّفق لي أن رأيت باب السلم المؤدّي إلى الدور الثالث (الذي كان موصداً، في الفترة الأخيرة على نحو دائم) يُفْتح في تؤدة ويبرز منه شخص غرايس بول بقبعتها الصغيرة البالغة النظافة، ومئزرها الأبيض، ومنديلها، وعندما رأيتها تنساب في الرواق في خطى هادئة خنقت المشاية القماشية وقعها، وعندما رأيتها تُلقي نظرة على حجرات النوم الضاجة المقلوبة رأساً على عقب لكي تقول لإحدى الخادمات العاملات بأجر يومي كلمة عن الطريقة الصحيحة في صَقْل موقد من المواقد، أو تنظيف رف مدفأة رخامي، أو إزالة البقع عن الجدران المغطاة بالورق المصور، لتمضي بعد ذلك في سبيلها. كانت تهبط إلى المطبخ مرة كل يوم، وتتناول طعام عشائها، وتدخّن «بيبة» صغيرة على مقربة من المستوقد، وتنقلب بعد ذلك، حاملة كأس جعتها الدون، إلى حجرتها العلوية المظلمة حيث تنعم بالعزاء والسلوان. وكانت تقضي ساعة واحدة من ساعات اليوم الأربع والعشرين مع زميلاتها، في الدور الأرضي، أما سائر وقتها فكانت تنفقه في حجرة سنديانية خفيضة السقف في الدور الثالث: هناك كانت تجلس وتخيط – ولعلها كانت تضحك بينها وبين نفسها ضحكتها الكئيبة الرهيبة – متوحِّدة كالسجين في زنزانته.

وكان أعجب ما في الأمر كله أن أيما امرئ سواي من أهل القصر لم يلاحظ عاداتها ولم يبدُ وكأن هذه العادات كانت تثير دهشة. إن أحداً منهم لم يتساءل عن مركزها أو وظيفتها، وإن أحداً لم يرْثِ لتوحدها وعزلتها. وقد اتّفق لي ذات مرة أن سمعت على غير قصد مني طرَفاً من حوار دار بين «ليبا»

وإحدى الخادمات العاملات بأجر يومي، حوار كانت غرايس هي موضوعه. كانت «ليبيا» تقول شيئاً لم أوفَّق إلى سماعه، فعلقت الخادمة قائلة:

– «إنها تنال راتباً حسناً، في ما أحسب؟»

فقالت «ليبيا»: «أجل، وإني لأتمنى لو كان لي مثل راتبها. وليس يعني هذا أن راتبي ضئيل وأنني أشكو من هذه الضآلة. لا، فليس في ثورنفيلد شحٌّ البتة. ولكنه لا يبلغ خمس المبلغ الذي تناله مسز بول. وهي تدّخر منه جزءاً كبيراً. إنها تذهب كل ثلاثة أشهر إلى المصرف، في ميلكوت. ولن أعجب إذا ما علمت أنها ادّخرت من المال مقداراً يمكنها من إعالة نفسها إذا ما آثرت التخلِّي عن وظيفتها. ولكني أعتقد أنها ألفَت هذا العمل، وإلى هذا فهي لمّا تبلغ الأربعين، وهي قوية البنية قادرة على كل شيء. فلم يَئِنْ لها بعدُ أن تخلد إلى الراحة وتطرح الوظيفة».

فقالت الخادمة العاملة بأجر يومي: «يُخيّل إليّ أنها تؤدي عملها في براعة».

فقالت «ليبيا» بلهجة ذات مغزى: آه، إنها تفهم ما يتعيّن عليها أن تعمله... وتؤدّي هذا العمل على نحو لا يضارَع. إن أحداً لا يستطيع أن يسدّ مسدها، ولو تقاضى كامل الأجر الذي تفوز به».

فكان الجواب: «آه، من غير ريب. وإني لأتساءل ما إذا كان رب القصر...».

كانت الخادمة اليومية ماضيةً في حديثها، ولكن «ليبيا» التفتت في تلك اللحظة فلمحتني. فما كان منها إلاّ أن نكزت رفيقتها بمرفقها داعية إيّاها إلى الحذر.

وهنا سمعت المرأة تهمس: «أتجهل ذلك؟»

فهزَّت «ليبيا» رأسها، وقطِع الحديث طبعاً. وكانت حصيلتي منه لا تعدو ما يلي: إن في ثورنفيلد سراً غامضاً، وإني أُقْصِيت، على نحو متعمّد، عن النفاذ إلى حقيقته.

وأخيراً جاء يوم الخميس. كان العمل كله قد أَنجز في الليلة السابقة: لقد فُرِشت البُسط، ووشِّحت سُجف السُّرر بضروب الزخارف، ومدت ألحِفَة بيضاء تبهر البصر، ونسِّقت موائد الزينة، وصُقل الرياش، وملئت الزهريات بالرياحين، وبدت الحجرات والأبهاء ناضرة مشرقة إلى أقصى حد تستطيع الأيدي البشرية أن تبدعه. وبولغ في تنظيف الردهة أيضاً، وصُقِلت ساعة الحائط الضخمة المزدانة بالنقوش، ودرجات السلم ودرابزينه، صقلاً جعلها في مثل لمعان المرايا. وفي حجرة الطعام كان «البوفيه» يُومض متألقاً بأدوات المائدة الفضية والذهبية، وفي المقصورة وقاعة الاستقبال أشرقت في كل ناحية كؤوس حافلة بضروب الزهور الدخيلة.

وأقبل الأصيل، فارتدت مسز فيرفاكس خير أثوابها، وكان مخيطاً من أطلس أسود، وقفازها، وساعتها، فقد كانت هي المكلّفة باستقبال الضيوف الوافدين، وبمرافقة السيدات إلى حجراتهن، الخ. وأرادت آديل أيضاً أن تأخذ زينتها، مع أني اعتقدت بأن إمكانية دعوتها للاجتماع بالضيوف كانت ضئيلة في ذلك اليوم على الأقل. وأياً ما كان، فلكي أدخل السرور على قلبها أجزت – «صوفي» أن تلبسها أحد فساتينها القصيرة المصنوعة من موسلين. أما أنا فلم أكن في حاجة إلى إجراء أي تغيير في زينتي، ذلك بأني لن أدعى إلى مغادرة حجرة الدرس أو على الأصح مغادرة «مَقْدِسي» – لأن تلك الغرفة كانت قد أصبحت بمثابة المقدس بالنسبة إليّ – «ملاذ بهيج إلى أبعد الحدود في زمن الشدّة».

كان يوماً ربيعياً معتدلاً رائقاً، وكان واحداً من الأيام التي تشرق على الأرض– في أواخر آذار(مارس) وأوائل نيسان (أبريل) – لتبشّر بقرب قدوم الصيف. وجنحت الشمس إلى الغروب، ولكن المساء كان حاراً، فرحت أعمل في حجرة الدرس بعد أن تركت النافذة مفتوحة.

وسرعان ما دخلت عليّ مسز فيرفاكس، وقد أحدث ثوبها الحريري حفيفاً، وقالت: «لقد تأخروا. ومن دواعي سروري أني أصدرت الأمر بأن يكون العشاء مُعداً بعد ساعة كاملة من الميقات الذي عيّنه مستر روتشيستر، لأن الساعة

تجاوزت السادسة الآن. ولقد طلبت إلى جون أن يهبط إلى بوابة القصر الخارجية ليرى هل في الطريق أحد. إن في استطاعة المرء أن يرى من هناك إلى مسافة بعيدة فى اتجاه ميلكوت». وهنا مضت إلى النافذة وقالت: «حسناً، جون» (وأطلَّت منها) «ما وراءك؟»

فكان الجواب: «إنهم قادمون يا سيدتي. ولسوف يصلون بعد عشر دقائق».

وطارت آديل إلى النافذة. وتبعتُها في كثير من الحذر، محاولة أن أبقى محجوبة خلف الستارة، بحيث أرى من غير أن أُرى.

وبدت دقائق جون العشر طويلة جداً. ولكننا سمعنا آخر الأمر دوران عجلات: لقد انطلق في طريق العربات فرسان أربعة، وعلى أثرهم أقبلت عربتان مكشوفتان. كانت الخُمُر المرفوفة والريش المتموج تملأ العربتين، وكان اثنان من الفرسان سيدين ماجدين في ميعة الصبا تبدو على وجهيهما إمارات الجراءة والإقدام، وكان الثالث هو مستر روتشيستر ممتطياً صهوة جواده الأسود «مسرور»، وكان كلبه «بايلوت» يتواثب أمامه. وإلى جانب مستر روتشيستر كانت سيدة على جواد، وكان هو وهي في طليعة الركب. كان ثوبها ألركوبي الأرجواني يكاد يمس الأرض، وكان خمارها الطويل يتماوج مع النسيم.. وكانت تمتزج بثنايا هذا الخمار الشفافة، وتلتمع من خلالها، حلقات شعر فاحمة.

وهتفت مسز فيرفاكس «مس اينغرام!» ثم هرعت إلى الدور الأسفل لتقف موقف الاستقبال والترحيب.

واستدار الركب، مُتَّبعاً انحراف الطريق، عند زاوية القصر، ليغيب بعد ذلك عن ناظري. والتمست آديل مني أن أُجيز لها الهبوط إلى الدور الأرضي، ولكني أجلتها على ركبتي، وأفهمتها أن تنزع عن ذهنها كل فكرة قد تغريها بالظهور على مرأى من السيدات، الآن أو في أيما وقت آخر، إلا إذا طُلِب إليها ذلك على نحو لا لبس فيه، وإن كلَّ مخالفة لهذه التوصية يمكن أن تغضب مستر روتشيستر إغضاباً

شديداً، الخ. وسفحت آديل بعض العبرات العفوية عندما قلتُ لها ذلك، حتى إذا بدت على محياي إمارات الجد البالغ وافقت آخر الأمر على كفكفتها.

وضجَّت الآن في الردهة، جلبة بهيجة مسموعة. لقد تمازجت أصوات الرجال الخفيضة بنبرات السيدات الفضية تمازجاً متناغماً، وقد تميّز من بينها كلها، وإن لم يكن مرتفعاً، صوت سيد ثورنفيلد الجهوري وهو يرحّب تحت سقف داره بضيفه من

ن
س
و
ة
ح
س
ا
ن
و
ر
ج
ا
ل
أ
و
ل
ي
ش
ه
ا
م
ة
و
إ
ق

مكتبة علي بن صالح الرقمية

د

ا

م

.

ث

م

إ

ن

خ

ط

ىً

خفيفة صعدت السلم، وتردد في الرواق وقع أقدام رشيقة، وضحكات رقيقة مرِحة، وأصداء أبواب تُفتح وتغلق. وبعد ذلك ساد الصمت فترة قصيرة.

وقالت آديل بالفرنسية، وهي التي كانت تصيخ إلى ذلك في انتباه بالغ وتتابع كل حركة: «إنهن يغيرن ثيابهن» وأطلقتْ زفرة.

ثم إنها أضافت: «كان من دأبي – كلّما وفد على ماما في بيتها بعض الضيوف – أن أتبعهم حيثما كانوا، إلى الصالون وإلى حجراتهم، وكثيراً ما كنت أرى الوصائف يسرحّن شعر السيدات يلبسهن فساتينهن. ولقد. كان ذلك مسلياً جداً، ومفيداً جدا».

– «ألا تشعرين بالجوع، يا آديل؟»

– «أجل، أيتها الآنسة. فقد انقضت خمس ساعات أو ست لم نَطْعم خلالها شيئاً».

– «حسناً، إذن. سوف أحاول، ما دامت السيدات في حجراتهن أن أهبط إلى الدور الأرضي وآتيك بشيء تأكلينه».

قلت ذلك وغادرت مَفْزعي في حذر، واتّجهت نحو سلم خلفي يفضي إلى المطبخ مباشرة. كان كل ما في تلك البقعة ناراً وهرجاً ومرجاً. كان إعداد الحساء والسمك على وشك الاكتمال، وكانت الطاهية منحنية فوق قدورها في وضع ذهني وجسدي يُنذر بانفجار تلقائي. وفي حجرة الخدم وقف حوذيّان وثلاثة مرافقين حول النار أو قعدوا على مقربة منها. أما «الإماء» فكنّ، على ما خيّل إليّ، في الطابق الأعلى مع سيداتهن. وأما الخدم الجدد الذين استؤجروا من ميلكوت فكانوا يروحون ويجيئون، بهمة وصخب، في كل مكان. ورحت أشقّ طريقي وسط هذا العماء، فانتهيت آخر الأمر إلى خزانة حفظ المأكولات. وهناك أخذت دجاجة باردة، ورغيفاً، وبعض الأقراص المعجّنة، وصحناً أو صحنين، وشوكة وسكيناً، ثم انسحبت على عجل حاملة هذه الغنيمة. وكنت قد وصلت إلى الرواق وهممت بأن أوصد الباب الخلفي ورائي عندما أنذرتني همهمة متسارعة بأن السيدات يوشكن أن يغادرن حجراتهن. ولم يكن في ميسوري أن أتابع سبيلي إلى حجرة الدرس من غير أن أجتاز ببعض أبوابهنّ، ومن غير أن أعرِّض نفسي للافتضاح بجرم الاستيلاء على حمولتي من الأطعمة. وهكذا وقفت من غير حراك في أقصى الرواق الذي كان مظلماً لخلوّه من النوافذ، والذي زاده الآن ظلمة غياب الشمس وهبوط الليل.

وسرعان ما غادرت النزيلات الحسان حجراتهن، واحدة إثر واحدة، لقد خرجت كلٌّ منهن في ابتهاج ومرح، رافلة بثوب ملتمع في الغسق. ولقد وقفن لحظة، مجتمعات عند الطرف الآخر من الرواق، ورحن يتحدّثن بصوت مفعم بحيوية عذبة مكبوحة. ثم إنهن هبطن درجات السلم غير محدثات، أو يكدن، أي صوت، كما يهبط الضباب المشرق هضبة من الهضاب. والواقع أن ظهورهن الجماعي كان قد خلَّف في نفسي انطباعة من الأناقة الكريمة المحتد لم أعرف نظيراً لها من قبل قط.

وألْفَيت آديل تختلس النظر من خلال باب حجرة الدرس بعد أن فتحته على نحو جزئي. وصاحت بالإنكليزية: «ما أجملهن من سيدات! أوه، لشدّ ما أتمنى لو

أستطيع الالتحاق بهن! أتعتقدين أن مستر روتشيستر سوف يُرسل في طلبنا، عمّا قريب، بعد طعام العشاء؟»

– «لا، لست أظن ذلك في الواقع. إن لدى مستر روتشبستر أشياء أخرى يتعيّن عليه التفكير فيها. لا تشغلي بالك بالسيدات، الليلة. لعلّك تريهنّ غداً. هو ذا عشاؤك».

كانت جائعة حقاً. وهكذا ساعدت الدجاجة والأقراص المعجّنة على صرف انتباهها عن هذه المسألة، فترة من الزمن. وحسناً فعلت بإتياني بهذا «العلف»، وإلاّ لكان من الجائز أن تحرم هي، وأحرم أنا و«صوفي» – التي قدمت إليها بعض طعامنا – من العشاء، إذ كان كل من الدور الأسفل في شغل شاغل يحول بينه وبين التفكير فينا. ولم يؤت بضروب الحلوى والفاكهة إلاّ بعد الساعة التاسعة، وفي العاشرة كان النذُل لا يزالون يروحون ويجيئون حاملين الصينيات وفناجين القهوة. وأجزت لآديل أن تسهر تلك الليلة إلى ما بعد ميقات نومها المألوف، ذلك بأنها أعلنت أن من المتعذّر عليها أن تستسلم للرقاد ما بقيت الأبواب تفتح وتغلق في الدور الأسفل، وما دام القوم يهرولون في جلبة ونشاط. ثم أضافت قائلة: وإلى هذا فقد يُرسل مستر روتشيستر في طلبها بعد أن تكون قد خلعت ثيابها، ويا لها عندئذ من خسارة عظيمة!

وحكيت لها القصص ما وسِعها الاستماع إليها، ثم انتقلت بها إلى جو آخر فاصطحبتها إلى الرواق. كان مصباح الردهة مُضاءً الآن، ولقد سلاها أن تطل من وراء الدرابزين وتراقب الخدم يروحون ويجيئون. حتى إذا أوغل الليل في التقدّم انبعثت من حجرة الاستقبال نغمات موسيقية، وكانت البيانو قد نقلت إلى هناك. وقعدت أنا وآديل على الدرجة العليا من السلم ابتغاء الإصغاء. وسرعان ما تساوق مع نغمات البيانو الغنية صوت سيدة تغنّي، ولقد كان تغريدها بالغ العذوبة حقاً. حتى إذا انتهى الغناء المنفرد، انطلق في أعقابه غناء ثنائي، ثم غناء اشتركت في أدائه أصوات ثلاثة أو أكثر. وكانت بعض الأحاديث المرحة تملأ الفترات الفاصلة.

وأصغيت فأطلت الإصغاء، وفجأة اكتشفت أن أذني كانت عاكفة على تحليل الأصوات المتمازجة، وأنها كانت تحاول أن تميّز من خلال خليطها نبرات مستر روتشيستر. حتى إذا أدركَتْها، وسرعان ما فعلْت، واجهت مهمة جديدة هي إعادة صوغ الكلمات التي كان بُعد الشقة قد جعلها غير واضحة.

ودقّت الساعة الحادية عشرة. والتفتُّ إلى آذيل التي كان رأسها مستنداً إلى كتفي. كان النعاس قد أخذ بمعاقد أجفانها، فحملتها بين ذراعي ومضيت بها إلى فراشها. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة عندما آوى السادة والسيدات إلى حجراتهم.

وكان اليوم التالي جميلاً كسابقه. ولقد كرسته الجماعة لرحلة إلى موقع بعينه في الجوار. وقد انطلقوا في صدر النهار، بعضهم على صهوات الجياد وبعضهم على متون العربات. ولقد شهدتُ ذهابهم وإيابهم على حدّ سواء. كانت مس انغرام، كشأنها من قبل، هي الفارسة الوحيدة بين السيدات، وكان مستر روتشيستر يندفع على صهوة جواده إلى جانبها كشأنه في المرة السالفة. لقد تقدَّما الجماعة بعض الشيء. ولفتُّ نظر مسز فيرفاكس، التي كانت واقفة معي عند النافذة، إلى هذه الواقعة فقلت:

– «لقد قلتِ إن من غير المحتمل أن يفكرا في الزواج. وها أنت ترين رأي العين أنه يؤثرها على سائر السيدات».

– «أجل، يُخيّل إليّ من غير ريب أنه معجب بها».

فأصفت أنا: «وأنها معجبة به. انظري كيف تميل برأسها نحوه وكأنها تُسرُّ في أذنه حديثاً. ليتني أستطيع أن أرى وجهها، فأنا لم ألمحه حتى الآن مجرد لمح».

فأجابتني مسز فيرفاكس: «سوف ترينها هذا المساء. فقد اتُّفق لي أن حدثت مستر روتشيستر عن رغبة آديل العارمة في الاجتماع إلى السيدات فقال: «أوه! دعيها تفد اليوم، بعد العشاء، إلى حجرة الاستقبال. واسألي مس ايير أن ترافقها».

فأجبت: «أجل، لقد قال ذلك بدافع من اللياقة ليس غير. ولست أجد داعياً للذهاب البتّة».

– «حسناً، لقد قلتُ له إنّك غير متعوّدة الاختلاط بالناس، وأني لا أحسب أنّك ترغبين في الاجتماع إلى مثل هذه الجماعة الموغلة في المرح والمؤلفة كلها من أُناس غرباء. فأجابني بطريقته الحاسمة: «هراء! قولي لها، إذا اعترضت، إن هذه هي رغبتي الخاصة. فإذا أصرّت على الاعتراض فقولي إنّي سوف أجيء بنفسي وأسوقها، في حال تمردّها، سوقاً».

فأجبت قائلة: «لن أكلّفه هذا العناء. سوف أذهب، إن لم يكن من الذهاب بدّ. ولكني لست مرتاحة إلى ذلك. هل ستكونين أنت هناك، يا مسز فيرفاكس؟»

– «لا، لقد التمست منه أن يعفيني من ذلك، ولقد أقر التماسي. وعلى أيّة حال، فسوف أعلمك كيف تتجنبين الارتباك الذي يستشعره المرء حين يدخل على قوم غرباء في مناسبة رسمية، وهو الجانب الأبغض إلى النفس في المسألة كلها. إن عليك أن تدخلي حجرة الاستقبال وهي خالية، أي قبل أن تغادر السيدات مائدة العشاء، وتختاري لنفسك مقعداً في أيما زاوية هادئة تروق لك. ولستِ في حاجة إلى أن تلبثي طويلاً بعد توافد الرجال على الحجرة، إلا إذا أنسَتْ نفسك إلى ذلك. كل ما يتعيَّن عليك فعله هو أن تشعري مستر روتشيستر أنّك موجودة هناك. حتى إذا تمّ لك ذلك كان في إمكانك أن تتسللي عائدة إلى حجرتك.. إن أحداً لن يراك».

– «وهل تعتقدين أن هؤلاء القوم سوف يطيلون الإقامة هنا؟»

– «ربما أقاموا أسبوعين أو ثلاثة. ولكنهم لن يقيموا مدة أطول، من غير ريب. فبعد عطلة الفصح سيتعيّن على السير جورج لين، الذي اختير في الفترة الأخيرة ممثلاً لميلكوبت، أن يشخص إلى المدينة ويحتل مقعده. وأستطيع القول إن مستر روتشيستر سوف يرافقه. والواقع إن مُقامه المتطاول حتى الآن في ثورنفيلد يثير دهشتي».

وفي شيء من الارتعاد ترقّبْتُ حلول الساعة التي تعيّن عليّ فيها أن أشخص مع تلميذتي إلى حجرة الاستقبال. كانت آديل في حال من الجذل العارم استبدّت بها طوال النهار بعد أن سمعت أنها سوف تقدَّم عند المساء إلى السيدات، ولم تصحُ إلاّ عندما شرعت «صوفي» في إلباسها ثيابها. لقد هدأت خطورة هذه العملية من اهتياجها الجذلان. حتى إذا سُرِّحت خُصل شعرها عناقيد ملساء منسدلة، وأُلبِسَتْ فستانها المخيط من أطلس أزهر، وعُقد وشاحها الطويل وعُدِّل وضع قفازها المخرّم الذي لا أصابع له بدت رصينة مهيبة مثل أي قاض من القضاة. ولم تكن ثمة حاجة إلى تنبيهها بالمحافظة على حُسن هندامها، إذ ما كادت تستكمل اتّخاذ زينتها حتى جلست في كرسيها الصغير بكثير من الرزانة، رافعة تنورتها الحريرية لكي لا تتغضّن، وأكّدت لي أنها لن تتحرّك من مقعدها ذاك حتى أفرغ من ارتداء ملابسي. ولقد أنجزتُ ذلك في سرعة، مرتدية أفضل فستان عندي، وهو الفستان ذو اللون الفضي الرمادي الذي اشتُري لمناسبة زفاف مس تامبل، والذي لم يُلبَس منذ ذلك الحين قطّ. ثم إني سرّحت شعري على عجل، وتزّينت بحليتي الوحيدة، وهي الدبوس الماسي المرصّع باللؤلؤ. وبعد ذلك هبطنا السلمإلى الدور الأرضي.

ومن حسن الطالع أنه كان لحجرة الاستقبال مدخل آخر لا يحتاجمعه المرء إلى المرور بحجرة الطعام حيث كان القوم كلهم جالسين إلى المائدة. لقد ألفينا القاعة خالية، ووجدنا ناراً ضخمة تضطرم في صمت فى المستوقد الرخامي، وشموعاً كثيرة تتألّق فى عزلة مشرقة، وسط الورود الفاتنة التي زيِّنت بها المرائد. وتدلّت الستارة القرمزية أمام القنطرة. وعلى الرغم من أن هذه الستارة لم تفصل القوم عن حجرة الاستقبال إلا فصلاً رقيقاً فقد كان صوتهم خفيضاً إلى درجة جعلتنا لا نتبين من كلامهم غير غمغمة مخدِّرة.

وكانت آديل لا تزال في ما يبدو خاضعة لسلطان انطباعة ليس أشد منها تهيُّباً، ولقد جلستْ، من غير أن تنطق بكلمة، على متَّكأ القدَم الذي دللتُها عليه. أما أنا فاعتزلت في مقعد قرب النافذة، وتناولت كتاباً عن مائدة مجاورة، وحاولت أن أقرأ.

ثم إن آديل حملت كرسيها الخفيض وأقبلت لتجلس عند قدميَّ. ولم تنقض غير فترة يسيرة حتى لمستْ ركبتي، فسألتها: «ما بك يا آديل؟»

فأجابتني بالفرنسية: «أليس في استطاعتي أن آخذ زهرة واحدة فحسب من هذه الزهور الرائعة، أيتها الآنسة؟ لا لشيء، إلاّ لأكمل بها زينتي».

فقلت: «أنت تفكرين بزينتك أكثر ممّا ينبغي يا آديل، ومع ذلك ففي ميسورك أن تأخذي زهرة».

وأخرجتُ واحدة من إحدى الزهريات، وثبَّتُها في وشاحها.

فأطلقت تنهّدة تنمُّ عن ارتياح ممتنع على الوصف، فكأن كأس سعادتها أمست الآن مترعة. وأشحت بوجهي عنها لكي أخفي ابتسامة لم أوفّق إلى كبحها. فقد كان في حرص هذه الباريسية الصغيرة الصادق الفطري على أسباب الزينة شيء مضحك ومؤلم في آن معا.

وتناهى إلينا الآن صوت رقيق كذلك الذي يُسمع عند نهوض الناس عن مائدة الطعام. وردَّت الستارة عن القنطرة، فبدت لناظري حجرة الطعام وقد سكبت ثرياها المضاءة نوراً على مجموعة بديعة من أطباق الفاكهة والحلوى الفضية والبلورية كانت تغطي مائدة طويلة بكاملها. وتحت القنطرة مباشرة وقف سرب من السدات، حتى إذا دخلن إلى حجرة الاستقبال انسدلت الستارة خلفهنّ.

كنّ ثماني سيدات ليس غير. ومع ذلك فقد أوقعن في نفسي، عندما تدفقن على حجرة الاستقبال، انطباعه تؤذن بأن عددهن أكبر بكثير. كان بعضهن فارعات الطول، وكان كثير منهن يرفلن في ثياب بيضاء، وكنَّ جميعاً مرتديات ملابس فضفاضة بدت وكأنها تضخُم أجسامهن كما يضخِّم الغمام القمر. ونهضت من مقعدي وانحنيت تحية لهن. فحنت واحدة أو اثنتان منهن رأسيهما رداً على تحيتي، أما سائرهن فاكتفين بالتحديق إليّ.

ثم إنهن انتثرن في الحجرة فذكّرنني بخفة حركاتهن ورشاقتها بسرب من الطيور البيضاء الوافرة الريش. وانطرح بعضهن في أوضاع نصف مضطجعة على الأرائك والمتكآت، وانحنى بعضهن على الموائد وأخذن يتأملن الورود ويتصفحن الكتب، في حين تحلّق سائرهن حول النار. لقد تحدثن كلهن بصوت خفيض ولكنه واضح، صوت بدا لي أنه مألوف لديهن. ولقد عرفت أسماءهن في ما بعد، ففي استطاعتي أن أذكرها منذ الآن.

كان ثمة أولاً، مسز ايشتون وابنتاها. وكان واضحاً أن هذه السيدة تمتّعت في صباها بقسط من الجمال لا تزال محتفظة به حتى اليوم. أمّا ابنتها الكبرى، آيمي، فكانت ضئيلة الجسم بعض الشيء، ساذجة، جذابة، تغلب على وجهها وتصرفاتها سمات الطفولة، وكان ثوبها الموسليني الأبيض ووشاحها الأزرق لائقين بها إلى حد غير يسير. أما الثانية، لويزا، فكانت أطول من أختها قامة وأكثر أناقة، وكانت ذات وجه بهي جداً من ذلك النوع الذي يدعوه الفرنسيون «ظريف محزون». وكانت كلتا الأختين بيضاء البشرة كالزنبقة.

وكانت اللايدي لين سيدة ضخمة قوية في نحو الأربعين، ذات قامة منتصبة إلى حد بالغ، وشموخ مغالى فيه، وكانت ترتدي ثوباً غنياً مخيطاً من أطلس ذي بريق متموّج متحوّل، وكان شعرها الأسود يشعٍّ على نحو صقيل في ظل ريشة لازوردية، وضمن نطاق طوق من الجواهر.

أما مسز دينت، زوجة الكولونيل دينت، فكانت أقل بهاء ولفتاً للنظر، ولكنها كانت، في ما خيَّل
إلـ
يّ
،
أ
ر

ق
ش
م
ا
ئ
ل
و
أ
د
ن
ى
إ
ل
ى
ص
ف
ة
ا
ل
س
ي
د
ة
ا
ل

كاملة. كانت نحيلة القوام، رقي

ق

ة

ا

لـ

و

جـ

ه

شـ

ا

حـ

بـ

تَ

ه، شقراء الشعر. والواقع أن ثوبها المخيط من أطلس أسود، ووشاحها المصنوع من مخرمات أجنبية غنية، وحُلاها اللؤلؤية راقت لي أكثر من إشعاع السيدة النبيلة[1] ذي الألوان القُزَحية.

[1] تقصد اللايدي لين.

ولكن السيدات الثلاث اللواتي سطعن أكثر ما يكون السطوع - ولعلّ مرد ذلك، جزئياً، إلى طولهنّ الفارع الذي لم تزْدَهِ بمثله أية سيدة أخرى بين السيدات الثمان - كنّ الأرملة النبيلة اللايدي انغرام وابنتيها بلانش وماري. كانت كل من هذه السيدات الثلاث ذات قوام لم تعرف امرأة نظيره رشاقة ورفعة. ولعلّ سن الأرملة كانت تراوح ما بين الأربعين والخمسين، وكانت لا تزال على بقية من جمال. وكان شعرها (كما بدا على ضوء الشموع على الأقل) لا يزال فاحماً، وكانت أسنانها لا تزال، ظاهرياً، في أحسن حال. وخليق بالكثرة الكاثرة من الذين تقع أعينهم عليها أن يحكموا بأنها سيدة باهرة بالنسبة إلى سنها، ولقد كانت كذلك، من

غير ريب، من وجهة النظر الجسمانية. ولكن محياها كان ينطق عن تشامخ لا يكادُ يحتمل. كانت رومانية السِّمات، ذات ذقن إضافية تنتهي عند رقبة أشبه بعمود من الأعمدة. والحق أن هذه القسات لم تبد لي منتفخة قاتمة فحسب، بل لقد بدت مغضّنة بالكبر والغرور أيضاً. وكانت ذقنها معزّزة بالمبدأ نفسه، فهي أبداً في وضع منتصب إلى حد يكاد يكون خارقاً. وكان لها أيضاً عينان ضاريتان قاسيتان ذكَّرتاني بعيني مسر ريد كانت تشدّق في الكلام، وكان صوتها خفيضاً، وكانت نبراتها مغرقة في التفاخر، موغلة في الغطرسة، وبكلمة موجزة: بغيضة إلى حدٍّ لا يطاق. وكان لها من ثوبها المخملي القرمزي ومن الشال الذي اعتمرت به – وكان مصنوعاً من نسيج هندي تتخلله خيوط ذهبية – ما أضفى عليها (أو هكذا اعتقدت هي، في ما أظن) سيما ملكية حقيقية.

وكانت بلانش وماري متكافئتين من حيث القوام، وكانتا منتصبتين فارعتي الطول مثل شجرتي حوْر. كانت ماري بالغة الهزال بالنسبة إلى طولها، ولكن بلانش كانت مفرغة على صورة ديانا.[1] ولقد رنوْتُ إليها، طبعاً، في اهتمام خاص. لقد أردت، أولاً، أن أرى أينطبق مظهرها على وصف مسز فيرفاكس لها أم لا. وأردت، ثانياً، أن أرى أتشبه بأية حال من الأحوال تلك الصورة الخيالية المصغّرة التي رسمتها أنا لها. وأردت ثالثاً، وهي حقيقة لن تخفى على القارئ، ان أرى إلى أي مدى يمكن لها، في اعتقادي الشخصي، أن تعجب مستر روتشيستر.

[1] آلهة القمر والصيد وحامية النساء في الميتولوجيا الرومانية. وبها تشبَّه الحسان ذوات الجمال الجسماني الخارق. (المعرب)

والواقع أنها أشبهت، من وجهة النظر الجسمانية، كلاًّ من صورتي ووصف مسز فيرفاكس شبهاً كاملاً. فالصدر النبيل، والمنكبان المنحدران، والجيد البديع، والعينان السوداويان، وجدائل الشعر الفاحم كانت كلها هناك. أما الوجه؟.. أما الوجه فكان كوجه أمها، كان صورة طبق الأصل عنه، مع فارق وحيد هو أن وجه البنت ناضر الشباب خلو من التجاعيد. أما الجبين الخفيض، والسمات المتغطرسة،

والغرور الصارخ فكانت هي هي. بيد أن غرور بلانش لم يكن شديد العبوس كغرور أمها: كانت تضحك دائماً، وكان ضحكها ساخراً، وكذلك كانت الانطباعة الغالبة على شفتها المقوّسة المتعجرفة.

يقولون إن العبقري معجب بنفسه: أنا لا أستطيع أن أقرر هل كانت مس اينغرام عبقرية أم لا، ولكنها كانت معجبة بنفسها، ومعجبة بهذه النفس إلى حدّ يلفت النظر حقاً. كانت قددخلت في نقاش حول علم النبات مع مسز دينت الدمثة، الرقيقة. ويبدو أن مسز دينت لم يقدّر لها أن تدرس هذا العلم، على الرغم من أنها، كما قالت، أحبّت الأزهار، «والبرية منها بخاصة». أما مس اينغرام فكانت قد درسته، فهي تُجري مصطلحاته على لسانها كالسيل، مزهوة بذلك على نحوٍ واضح. وسرعان ما لاحظتُ أنها كانت (كما يقال في اللغة العامية) «تنتفع» بجهل مسز دينت وتفيد منه. وجائز أن يكون «انتفاعها» ذاك بارعاً، ولكنه لم يكن لطيفاً أو ودّياً، من غير ريب. لقد عزفت على البيانو، فكان عزفها رائعاً. ولقد غنّت، فكان صوتها رخيماً. ولقد تحدثت بالفرنسية إلى والدتها، فأجادت الحديث في فصاحة وفي نبرة حسنة.

وكانت ماري ذات محيًّا ألطف وأكثر طلاقة من محيًّا بلانش. وكانت ذات أسارير أرقّ أيضاً، وبشرة أنصع بعض الشيء (كانت مس اينغرام سمراء مثل بنات إسبانيا) ولكن ماري كانت تعوزها الحيوية، وكان وجهها يعوزه التعبير، وكانت عيناها يعوزهما البريق. لم يكن لديها شيء تقوله، فما إن اتّخذت مقعدها حتّى ظلّت مسمَّرة فيه كتمثال في محرابه. وكانت الأختان ترتديان ملابس بيضاء نقية لا عيب فيها.

أما وقد أنعمت النظر إلى مس اينغرام فهل أستطيع القول إنها كانت هي المرأة التي يُحتمل أن يختارها مستر روتشيستر لنفسه؟ الواقع أني لم أستطع أن أجيب، إذ ما كنت أعرف ذوقه في الجمال الأنثوي. فإذا كان يؤثر كلّ ما هو جليل فليس من ريب في أنها كانت هي نموذج الجلال عينه. وإلى هذا، فقد كانت رفيعة الثقافة

طروباً. وخليق بالكثرة الكاثرة من الرجال أن تُعجب بها، في ما تراءى لي. أما أن يكون هو قد أُعجب بها حقاً فذلك ما بدا لي أني أصبحت أملك الدليل عليه. ولم يبق علي، لكي أزيل آخر ظلّ من الشكّ، إلاّ أن أراهما مجتمعين.

وليس ينبغي لك أن تحسب، أيها القارئ، أن آديل كانت طوال هذا الوقت جالسة في كرسيها الخفيض، عند قدمي، غير مبدية حراكاً البتة. لا، إذ ما إن دخلت السيدات إلى حجرة الاستقبال حتى نهضت، وتقدّمت للقائهنّ، وحنت رأسها بتحيتهن على نحو فخيم، ثم قالت في وقار:

– «بونجور، يا سيداتي».

ونظرت إليها مس اينغرام نظرة ساخرة وقالت: «أوه، يا لها من دمية صغيرة!»

ولاحظت اللايدي لين قائلة: «إنها الطفلة التي ينهض مستر روتشيستر بعبء الوصاية عليها، في ما أظن. – الفتاة الفرنسية الصغيرة التي كان يتحدّث عنها».

وأخذت مسز دينت بيدها في حنان، وطبعت عليها قبلة. أما آيمي ولويزا ايشتون فصاحتا في آن معاً:

– «يا لها من طفلة فاتنة!»

ثم إنهما دعتاها إلى إحدى الأرائك حيث جلست آمنة مطمئنة بينهما، تثرثر بالفرنسية حيناً، وبإنكليزية مهشّمة حيناً، مستأثرة لا بانتباه السيدتين الشابتين فحسب، بل بانتباه مسز ايشتون واللايدي لين أيضاً، مسترسلة في دلاعتها ما طاب لها الاسترسال.

وجيء بالقهوة، آخر الأمر، ودُعي الرجال الأماجد إلى الدخول. وقعدت في«الظل» – إن كان في تلك القاعة المتألقة بالأنوار ظلّ ما، وقد حجبتني ستارة النافذة نصف حجب. وتثاءبت القنطرة كرة أخرى، ودخل القوم. وكان دخولهم الجماعي، كدخول السيدات الجماعي، مهيباً جداً. كانوا كلهم يرتدون بذلات سوداء،

وكان معظمهم فارعي الطول، – وكان بعضهم في ميعة الصبا. والواقع أن هنري وفريديريك لين كانا غزِلين جسورين إلى أبعد الحدود. وكان الكولونيل دينت مثال الرجل العسكري الجليل. كان شعره أشيب كله، وكان السواد لا يزال غالباً على حاجبيه وشاربيه، مما أضفى عليه شيئاً من مظهر «الأب النبيل» كما يصوِّر عادة على خشبة المسرح. أما اللورد اينغرام فكان، مثل شقيقتيه، فارع الطول، وكان مثلهما أيضاً وسيم الوجه. ولكنه يشارك ماري طَلعتها الفاترة المتوانية. لقد بدا وكأنه يملك من طول الأطراف أكثر مما يملك من الحيوية او نشاط الذهن.

ولكن أين مستر روتشيستر؟

هوذا قد أقبل آخر الأمر. أنا لم أنظر إلى القنطرة، ومع ذلك فقد رأيته يدخل، وحاولت أن أركِّز انتباهي على إبرتيْ الحبك وعلى العيون المؤلِّفة شبكة كيس النقود الذي كنت أصنعه، محاولة أن أحصر تفكيري في العمل الذي بين يديّ، وأن لا أرى غير الخرزات الفضية والخيوط الحريرية المنثورة في حِجري: ولكني برغم هذا كله رأيت وجهه في وضوح، ولم أستطع إلاَّ أن أتذكر تلك اللحظة التي نعمت فيها برؤيته آخر مرة، بعد دقائق معدودات انقضت على إسدائي إليه ما اعتبره خدمة أساسية، وقد أمسك هو بيدي، وأنشأ ينظر إلى وجهي، ويتأملني بعينين تنمَّان عن فؤاد طافح يتوق إلى أن يفيض، فؤاد كان لي في انفعالاته نصيب. إلا ما كان أدنى ما اقتربت منه في تلك اللحظة! فهل كان ما حدث، منذ ذلك الحين، من أشياء مقصوداً به تغيير وضعه بالنسبة إليّ ووضعي بالنسبة إليه؟ ومع ذلك فما أشدّ ما يبدو أحدنا الآن بعيداً عن الآخر غريباً عنه! غريباً إلى درجة أني لم اتوقع من مستر روتشيستر أن يُقبل ويتحدّث إليّ. ولم يخامرني العجب عندما اتّخذ، من غير أن ينظر إليّ، مقعداً في الجانب الآخر من الحجرة، وشرع يتحدّث مع بعض. السيدات.

ولم أكد أرى أن انتباهه قد سُمِّر عليهنَّ، وأن في ميسوري أن أرنو إليه من غير أن يلحظني أحد حتى جذِبت

عيناي، على نحو لا إرادي، إلى وجهه. أنا لا أستطيع السيطرة على جفنيهما: كانا يرتفعان دائماً فتستقر مقلتاي عليه. لقد رنوت إليه، ووجدت متعة حادة في النظر – متعة نفسية ولكنها موجعة، لكأنها حلية من الذهب الخالص في طرفها رأس فولاذي يُورث المرء آلاماً مبرحة: متعة أشبه ما تكون بتلك التي يستشعرها الرجل الذي يكاد يموت من الظمأ والذي يعرف أن البئر التي زحف إليها مسمومة، ومع ذلك فهو ينحني فوقها ويطفئ ظمأه بجرعات كأنها شراب الآلهة!

ما أصدق المثل الذي يقول: «الجمال في عين الناظر إليه». فوجه سيدي الشاحب ولونه الزيتوني، وجبينه المربَّع الضخم، وحاجبا الكثيفان الفاحمان، وعيناه الغائرتان، وقسماته المتجهمة، وفمه الكالح القاسي – وكلها راشح بالقوة والعزم والإرادة – لم تكن، في منطق القاعدة والمقاييس، على شيء من الجمال، ولكنها كانت في نظري أنا أكثر من جميلة: كانت مفعمة بشوق ونفوذ هيمنا علي هيمنة كاملة، وأخرجا مشاعري عن دائرة سلطاني ليخضعاها لسلطانه هو. أنا لم أعتزم أن أهيم بحبه قط، والقارئ يعرف أني بذلت جهداً كبيراً لكي أستأصل من قلبي بذور الحب التي اكتشفتُها هناك، وها هي ذي الآن عند أول اجتماع يُتاح لي فيه أن أراه من جديد – تنبعث، على نحو تلقائي، نضرة شديدة البأس! لقد جعلني أحبّه من غير أن ينظر إليّ.

لقد قارنت ما بينه وبين ضيوفه. فإذا بلطف شمائل هنري وفريدريك «لين» وحسن تودُّدهما للنساء، وأناقة اللورد اينغرام الفاترة المتوانية، وحتى جلال الكولونيل دينت العسكري، تبدو في عيني هزيلة تافهة بالقياس إلى حيويته الفطرية ونشاطيته الأصيلة. أنا لم أستشعر أيما مَيْل إلى مظاهرهم الخارجية وملامح وجوههم، ومع ذلك فقد خُيّل إليّ أن الكثرة الكبيرة ممّن يرى إليهم خليق بها أن تعدَّهم ذوي جاذبية ووسامة ومهابة، في حين تحكم بأن مستر روتشيستر قاسي الأسارير كئيب الطلعة في آن معاً. لقد رأيتهم يبتسمون، ورأيتهم يضحكون، فوجدت الفراغ في ابتسامهم وضحكهم: كان في ضوء الشموع من الروح بقَدْر ما في بسماتهم، وكان في رنين الصوت من المعنى بقَدْر ما في ضحكاتهم. ورأيت

مستر روتشيستر يبتسم فرأيت أساريره المتجهمة ترقُّ، ورأيت عينيه تموران بالبريق واللطف معاً، وشعاعهما ينضح بالحدّة والعذوبة في آن واحد. كان يتحدّث، في تلك اللحظة، إلى لويزا وآيمي ايشتون. فعجبت إذ رأيتهما تتلقّيان في هدوء بالغ تلك النظرة التي بدت لي ثاقبة إلى أبعد الحدود: لقد توقّعت أن تغضّ هاتان السيدتان من طرْفيهما، وأن تتضرَّج وجناتهما بالدم تحت سهامها. ومع ذلك فقد سرّني أني وجدتهما غير متأثرتين بنظراته تلك، البتة. وقلت في ما بيني وبين نفسي: «إنه لا يحتلّ في قلبيهما مثل المنزلة التي يحتلّها في قلبي. إنه ليس من معدنهما. لا، أنا أعتقد أنه من معدني، بل إني لمتأكدة أنه كذلك... أنا أحسُّ أنّ بيني وبينه نسباً... أنا أفهم لغة ملامحه وحركاته. وعلى الرغم من أن الوضع الاجتماعي والثروة يباعدان ما بيننا كثيراً فإن في دماغي وقلبي، في دمي وأعصابي، شيئاً يجعلني شبيهة به ذهنياً. هل قلت، منذ أيام معدودات، أن لا شأن لي به يزيد عن تناولي الراتب من يده؟ هل حرَّمت على نفسي أن أفكر فيه إلاّ بوصفه سيداً يدفع إلي أجري؟ يا للتجديف على الطبيعة!

إنَّ كل ما يجيش في صدري من مشاعر صالحة، صادقة، عارمة، لتدور – على نحو غير إرادي – حول محوره. أنا أدري أن عليّ أن أكتم عواطفي، أن عليّ أن أخنق الأمل، أنّ عليّ أن أتذكَّر أنه لا يستطيع أن يبالي بي كثيراً. ذلك بأني حين أقول إنّي من معدنه فلست أعني أن لي مثل قوّته على التأثير، ومثل قدرته السحرية على الجذب. كل ما أعنيه هو أني أشاركه بعض الأذواق والمشاعر. وإذن فيتعيّن عليّ أن أكرر أننا سوف نظل منفصلين إلى الأبد... ومع ذلك فيتعيَّن عليَّ أن أحبه ما بقيت قادرة على التنفس والتفكير».

وقدِّمت القهوة. وكانت الحيوية قد دبَّت إلى نفوس السيدات، منذ أن وفد الرجال على الحجرة، فهنَّ – أشبه بالقبَّرات مرحاً وخفّة. وغدا الحديث ناشطاً طروباً. وشرع الكولونيل دينت ومستر ايشتون يتجادلان في بعض القضايا السياسية، على حين أصغت زوجتاهما إليهما. وتسامرت الأرملتان المتكبرتان، اللايدي لين واللايدي اينغرام. ووقف السير جورج – الذي نسيت، بالمناسبة، أن أصفه، والذي

كان رجلا من سراةأهل الريف، ضخم الجسم ناضر البشرة إلى حد بعيد – على مقربة من أريكتهما، وفنجان قهوته في يده، فهو يشاركهما الحديث بين الفينة والفينة ببضع كلمات ينطق بها. وكان مستر فريدريك لين قد استوي في كرسي محاذٍ لماري اينغرام، فهو يريها بعض الرسوم المنشورة في مجلّد فخم. وكانت هي تنظر، وتبتسم بين الفينة والفينة، ولكنها لا تتكلّم، في ما يبدو إلاّ قليلاً. أما اللورد اينغرام، الفارع الطول الفاتر الهمة، فقد اتكأ متصالب الذراعين على ظهر كرسي آيمي ايشتون الضئيلة الجسم المبتهجة النفس. وكانت هي ترفع بصرها إليه وتثرثر مثل الصَفْراغون(1) الغرِد: كانت تستلطفه أكثر مما تستلطف مستر روتشيستر. وكان هنري لين قد احتلّ متكأ خفيضاً عند قدمي لويزا، وكانت آديل تقاسمه ذلك المتكأ. وكان هو يحاول أن يتحدّث معها بالفرنسية، فتضحك لويزا لأخطائه الفاضحة. وبلانش اينغرام... مع من كانت تتجاذب أطراف الحديث؟ لقد وقفت وحدها إلى المائدة، منحنية في رشاقة فوق «ألبوم» من ألبومات الصور، فكأنها كانت تنتظر أن يسعى إليها ساع. بيد أن انتظارها لم يطل كثيراً، لقد اختارت هي بنفسها الرفيق المؤانس.

(1) طائر غريد.

ذلك بأن مستر روتشيستر وقف، بعد أن فارق لويزا وآيمي ايشتون، على مقربة من المستوقد وحيداً كوحدة بلانش على مقربة من المائدة. كانت واقفة تجاهه، متّخذة موقعها عند الجانب الآخر من رف المستوقد.

وقالت له مستهلة الحديث: «مستر روتشيستر، لقد حسبتُ أنك غير مولع بالأطفال؟»

– «لستِ مخطئة، على كل حال».

– «وإذن، فما الذي أغراك بأن تكفل مثل هذه الدمية الصغيرة؟» (وأشارت إلى آديل). «من أين التقطتَّها».

– «أنا لم ألتقطها التقاطاً، لقد تُرِكت في كنفي».

– «كان عليك أن تبعث بها إلى المدرسة».

– «لم يكن لي قِبَلٌ بذلك. المدارس ثقيلة النفقات».

– «ولكني أحسب أنك قد عهدت بتعليمها إلى إحدى المربيات: لقد رأيت إلى جانبها، في هذه اللحظة، مخلوقة ما... هل ذهبَتْ؟ أوه، لا! ها هي ذي واقفة، ما تزال، خلف ستارة النافذة. أنت تدفع إليها راتباً، طبعاً. ويخيّل إليّ أن ذلك يكلّفك نفقات لا تقلّ عن نفقات المدرسة، إن لم أقل أكثر. إذ يتعيّن عليك، فوق الذي تدفعه، أن تعيل التلميذة والمعلّمة أيضاً».

وخشيت – ومن يدري، فلعلّي رجوْت؟ أن يكون في تلك الإشارة إلى ما يدعو مستر روتشيستر إلى الالتفات نحوي. فازددت انكماشاً في الظل، على نحو غير إرادي: ولكنه لم يحوِّل عينيه صوبي، البتة.

وقال في لامبالاة ناظراً أمامه مباشرة: «أنا لم أفكر في هذه المسألة قط».

– «لا. أنتم الرجال لا تراعون جانب الاقتصاد والعقل السليم. وعليك أن تستمع إلى ماما تحدثك حديث المربيات. ويخيّل إليّ أن دزينة منهن على الأقل تعاقبت عليّ وعلى أختي ماري في زماننا. كان نصفهن بغيضات إلى النفس، وكان نصفهن الآخر مضحكات، وكنّ كلهن كوابيس – ألم يكن كذلك، يا ماما؟»

– «هل وجِّهت الخطاب إلي، يا ثروتي؟»

فلم يكن من السيدة، التي اعتبِرت، على هذا النحو، من ممتلكات الأرملة الخاصة، إلا أن كرّرت سؤالها مع شيء من التوضيح. فقالت الأرملة:

– «لا تذكري المربيات على مسمعٍ مني، يا أعزّ الناس! إن الكلمة نفسها تثير أعصابي. لقد قاسيت حتى الاستشهاد من شذوذهنّ وعدم كفاءتهن. وإني لأحمد الله على أنّي قد تخلصت الآن منهن!»

وهنا مالت السيدة دينت على اللايدي الورعة، وأسرَّت في أذنها كلاماً. وأحسب، على ضوء الجواب الذي اقتضاه كلامها ذاك، أنها قصدت إلى تذكيرها بأن واحدة من أفراد تلك الزمرة المغضوب عليها موجودة في الحجرة.

فقالت اللايدي: «لأمها الهَبَل! وإني لأرجو أن يعود عليها هذا ببعض الفائدة!» ثم إنها أضافت، في نبرة أشدّ انخفاضاً ولكنها كافية لأتمكن من سماعها: «لقد تأملتها. أنا بارعة في علم الفراسة، وإني لأقرأ في وجهها جميع عيوب جماعتها».

فسألها مستر روتشيستر، في صوت عالٍ: «وما هي تلك العيوب، يا سيدتي؟»

فأجابت وهي تهزّ «عمامتها» ثلاث هزات ذات مغزى استثنائي: «سوف اهمس بها في أُذنك، في ما بعد».

– «ولكن شهرة فضولي قد تخمد عندئذ، إنها جائعة إلى القوت الآن».

– «اسأل بلانش، فهي أقرب إليك مني».

– «أوه، لا تحيليه عليّ، يا ماما! فأنا لا أملك غير كلمة أقولها في أفراد تلك القبيلة كلها، هي أنهنَّ بلاء. وليس معنى هذا أني قاسيت منهن كثيراً، في أيما وقت من الأوقات، لا، فقد كنت أعرف كيف أنتزع منهن زمام المبادرة. وما كان أكثر المكائد التي كنت أنا وتيودور ندبّرها لمس ويلسون، ومسز غرايز، ومدام جوبير! أما ماري فكانت أبلد من أن تشارك في أي من هذه المكائد في حيوية وحماسة. ولكننا خصصنا مدام جوبير بأبرع أحابيلنا وادعاها إلى التسلية. والواقع أن مس ويلسون كانت مخلوقة بائسة، معتلّة الصحة، بكاءه، فاترة الهمّة، وبكلمة موجزة، إنها لم تكن تستحق منا عناء السعي إلى قهرها والتغلّب عليها. وكانت مسز غرايز غليظة، فاقدة الحسّ، لا تؤثر فيها اللطمات. في حين كانت مدام جوبير مكينة حقاً! أنا لا أزال قادرة الآن على رؤيتها وقد ثارت ثائرتها، بعد أن أحرجناها فأخرجناها: لقد أهرقنا شاينا، وفتّتنا شطائرنا المدهونة بالزبدة، وقذفنا بكتبنا إلى

السقف، وأحيينا حفلة موسيقية تصمُّ الآذان كانت آلاتها هي المسطرة والمنضدة، وحاجز نار الموقد، وأدوات المدفأة. أتذكر تلك الأيام المرحة البهيجة، يا تيودور؟»

فقال اللورد اينغرام وهو يمطّ كلماته متشدِّقاً: «أجل. أنا أذكرها من غير ريب. ولقد كان من دأب العجوز البليدة الخرقاء أن تصيح: «أوه، يا لكما من طفلين نذلين!» وبعد ذلك كنّا نقدم إليها المواعظ مستغربين أن تتصدّر، وهي المغرقة في الجهل، لتعليم ولدين وقحين بارعين مثلنا».

– «أجل، هذا ما كنُّا نفعله. وكثيراً ما كنت، يا تيدو (1) أساعدك في محاكمة (أو في تعذيب) (2) مهذبك، مستر فايننغ، ذي الوجه الماصل، أو الخوري المصاب بخانوق الدجاج كما تعودنا أن ندعوه. لقد أجاز لنفسه أن يقع في غرام مس ويلسون، وأجازت هذه لنفسها أن تقع في غرامه – أو هكذا حسبتُ أنا و «تيدو» على الأقلّ. فكثيراً ما فاجأناهما وهما يتبادلان النظرات ويطلقان زفرات اعتبرناها نحن إمارات على «العاطفة الحلوة». وأؤكد لك أن القوم سرعان ما عرفوا باكتشافنا ذاك. ولقد اتّخذنا نحن منه مخلاً لاقتلاع عبثينا الثقيلين من البيت. وما إن سمعت ماما العزيزة بمجرّد تلميح إلى المسألة حتى وجدت أنها نزعة لا أخلاقية. أليس هذا صحيحاً، يا أمي النبيلة؟»

(1) تصغير تيودور، للتحبب. (المعرب)

(2) بين لفظ المحاكمة prosecutin ولفظ التعذيب persecuting في الإنكليزية جناس شبه تام يضفي على العبارة في أصلها، جمالاً خاصاً. (المعرب)

– «من غير ريب، يا خير الناس. ولقد أصبت في ما فعلتُ غاية الإصابة. ألا فتأكدي أن هناك ألف سبب يجعل التزاوج بين المربيات والمهذبين أمراً لا يجوز التسامح به لحظة في أيما بيت من البيوت الحسنة التنظيم. أولاً...».

– »أوه، يا أمي الكريمة! نحن كلنا نعرفها: خطر القدوة السيئة على براءة الطفولة والتهاء العروسين عن واجبهما وتقصيرهما من ثم في أدائه، والتحالف

المتبادل والاتّكال المتبادل، والثقة الناشئة عن ذلك، وما يرافق هذا من وقاحة وقلّة حياء، والتمرّد والانفجار. فهل أنا على حق، أيتها البارونة اينغرام، بارونة اينغرام بارك؟»

– «أنت على حق، الآن، كشأنك دائماً، يا زنبقتي البيضاء!

– «إذن فلا داعي إلى مزيد من الكلام على هذه المسألة، فلنغيِّر الموضوع».

وببدو أن آيمي ايشتون لم تسمع هذا القول الفصل أو لم تحفل به، فضمّت صوتها إلى صوت الجماعة، وقالت في نبرتها الناعمة الطفلية: «لقد كان من دأبي ودأب لويزا أن نسخر من مربيتنا أيضاً. ولكنها كانت من الطيبة بحيث تحتمل كلّ شيء. إن ايما شيء لم يكن قادراً على إثارتها، والواقع أنها لم تغضب منّا قط. ألست أقول الحقيقة، يا لويزا؟»

– «من غير ريب. إنا كنا نفعل ما يحلو لنا. كنا نسطو على مكتبها وعلى صندوق أشغالها، وكنا نقلب أدراجها رأساً على عقب. ولكنها كانت دمثة الأخلاق إلى حدّ بعيد، فهي تعطينا أيما شيء نسألها إياه».

وهنا قالت مس اينغرام مجعِّدة شفتها في سخرية: «يخيّل إليّ أننا على وشك أن نقدِّم موجزاً لذكرياتنا عن جميع المربيات اللواتي لا يزلن على قيد الحياة. ولكي نتفادى مثل هذه العقوبة أقترح من جديد أن ننتقل إلى موضوع آخر. مستر روتشيستر، هل تثنّي على اقتراحي؟»

– «سيدتي، إني أؤيدك في هذه النقطة تأييدي إيّاك في سائر النقاط».

– «وإذن فلأنهض أنا بعبء إثارة الموضوع. سينيور ادواردو، هل تؤانس في نفسك القدرة على الغناء؟»

– «إذا أصدرت أمرك بذلك، أيتها الدونّا بيبانكا، فعلْتُ».

– «إذن، أيها السينيور، أنا أفرض عليك مشيئتي الملكية التي تقضي بأن تجلو رئتيك وسائر أعضائك الصوتية، لتكون في خدمة شخصي الملكي السامي».

– «ومن الذي لا يتمنى أن يمثل دور «ريزيو»[1] أمام «ماري» كهذه كلها قدسية وسناء؟»

[1] هو دايفيد ريزيو David Rizzio (1533 –1566؟) وكان موسيقياً إيطالياً أثيرا لدى ماري Mary ملكة الاسكتلنديين. (العرب)

فصاحت رادّة شعرها – بكل خصلاته المعقوصة – إلى الوراء، فيما كانت تمضي إلى البيانو: «تعساً لريزيو! أنا أعتقد أن «دايفيد»[2] عازف الكمان كان شخصاً تافهاً من غير ريب، وإني لأؤثر عليه «بوثوويل»[3] الأسود. وعندي ان الرجل ليس شيئاً إذا لم يكن في أعطافه شيء من طيْب الشيطان وعبيره. وفي ميسور التاريخ أن يقول ما يشاء عن جايمس هيبورن ولكني أؤمن أنه يمثل النموذج الصحيح للبطل قاطع الطريق الوحشي الضاري الذي كان خليقاً بي أن لا أتردّد في منحه يدي».

[2] أي ريزيو الموسيقي الإيطالي الذي عرَّفنا به في الحاشية السابقة. (المعرب)

[3] James Bothwell (1546؟– 1578) الزوج الثالث لماري ملكة الاسكتلنديين. (المعرب)

فصاح مستر رونتشيستر: «أيها السادة، هل تسمعون؟ والآن أيّكم يشبه بوثوويل أكثر ما يكون؟»

– «فأجابه الكولونيل دينت: «يخيّل إليّ أنّك أنت موضع التفضيل».

فكان الجواب: «أقسم لك بشرفي إنيّ شاكر لك هذا اللطف!»

وهنا استهلّت مس اينغرام، التي جلست الآن، في رشاقة متكبّرة، إلى البيانو، ناشرة ثوبها الثلجي حولها في سعة ملكية، أقول استهلّت العزف بفاتحة بارعة، متحدثة في الوقت نفسه إلى بعض القوم. لقد بدت شديدة الاعتداد بنفسها تلك الليلة. ولقد بدا وكأن كلماتها وسِيْما وجهها لم يُقْصد بها إلى إثارة إعجاب المستمعين إليها فحسب، بل إلى إثارة دهشهم أيضاً. كان واضحاً أنها نزعت إلى أن تبهرهم بشيء جريء إلى أبعد الحدود حقاً.

لقد هتفت، وهي تداعب البيان بأناملها: «أوه، لقد سئمتُ شبّان عصرنا هذا! إنهم مخلوقات بائسة ضئيلة الجسم غير مؤهلين لأن يخطوا خطوة واحدة أبعد من حديقة «بابا»، بل إنهم لا يذهبون إلى هذا الحدّ من غير إذن«ماما» ورعايتها! مخلوقات لا همّ لهم إلاّ التفكير بوجوههم الوسيمة، وأيديهم البضة، وأقدامهم الصغيرة، كأن للرجل أيما شأن بالجمال! كأن الملاحة ليست امتيازاً خاصاً بالمرأة، وهِبَة خصَّتها الطبيعة بها، وميراثاً من مواريثها الشرعية! أنا أؤمن بأن المرأة الدميمة لطخة في محيّا الخليقة الوسيم. أما الرجال فيحسن بهم أن لا يشغلوا بالهم بغير التحلّي بصفتين اثنتين: القوة والبسالة. ليكن شعارهم: «الصيد والقنص والحرب، أما ما عدا ذلك فليس يساوي شيئاً». ولو كنت رجلاً لكان هذا شعاري أيضاً».

ثم إنها أضافت بعد تمهُّل لم يقاطعها خلاله أحد: «لقد عقدت العزم، في حال زواجي، على أن لا أجد في زوجي منافساً لي. أريده أن يكون وسيلة إلى إظهار حسني، كما يُظهر الضد حسنَ الضد. أنا لن أحتمل وجود أيما مزاحم على مقربة من العرش، ولسوف أطالبه بولاء لا يتجزأ، وبكلمة أخرى فإن عواطفه ينبغي أن لا تكون بيني وبين الصورة التي يراها في مرآته. مستر روتشيستر، في استطاعتك الآن أن تغني. سوف أعزف لك».

فكان الجواب: «أنا الطاعة مجسَّدة!»

– «دونك إذن أغنية من أغنيات القرصان. ألا فاعلم أني أهيم بالقراصنة حباً. ومن أجل ذلك أسألك أن تفرغ روحك كلها في الأداء».

– «إن أمراً يصدر من شفتي مس اينغرام لخليق به أن ينفخ الروح في إبريق حليب وماء».

– «خذ حذرك إذن! إذا لم تنتزع إعجابي فسوف أخزيك بأن أظهر لك كيف ينبغي لمثل هذه الأشياء أن تؤدّى».

– «الواقع أن هذا نوعٌ من مكافأة المرء على عجزه وتقصيره. ومن أجل ذلك سأحاول أن أخفق».

– «انتبه جيداً! إذا أخفقت عامداً متعمداً فعندئذ أستنبط لك عقوبة مناسبة».

– «على مس اينغرام أن تكون رءوفة طويلة الأناة، لأن في استطاعتها أن تُنْزِل بي عقوبة تتجاوز حدود الاحتمال البشري».

فأصدرت اللايدي أمرها قائلة: «ها! أوضِحْ!»

– «معذرة، يا سيدتي. لا حاجة إلى الإيضاح. إن حسّك المرهف نفسه يجب أن ينبئك بأن عبْسة واحدة من عبساتك تغْني عقوبة الموت».

فقالت: «غَنَّ»، ومسَّت أصابع البيانو، وراحت تعزف على نحو مشبوب.

وهنا قلت في نفسي: «تلك هي الفرصة التي يحسن بي أن أغتنمها للانسحاب». ولكن الأغنية التي تخللت اللحن أسرتني. كانت مسز فيرفاكس قد قالت إن صوت مستر روتشيستر جميل. والواقع أن صوته كان كذلك: صوتاً خفيضاً قوياً عذباً، افرغ فيه إحساسه كله وقوّته كلها، فهو يشق سبيله من الأذن إلى القلب، ليوقظ هناك ضروباً من الإحساس غريبة. وتريّثت حتى تلاشت آخر ذبذبة عميقة ملأى، حتى استأنفت موجة الحديث، التي كُبِحت لحظة، اندفاعها الأول. عندئذ

فارقت زاويتي الظليلة وانسللت خارجة من الباب الجانبي، وكان لحس الحظ غير بعيد عني. ثم

إ
نّ
م
ج
ا
ز
اً
ض
ي
ق
اً
أ
ف
ض
ى
ب
ي
إ
ل
ى
ا
ل
ر

دهة، وبينما كنت أجتازها استشعر

ت
أ
ن
و
ا
ح
د
اً
م
ن
ر
ب
ا
طَ
يْ حذائي كان محلولاً، فوقفت لكي أعقده، منحنية من أجل ذلك فوق البساط المنشور عند أدنى السلم. وفجأة سمعت باب حجرة الطعام يُفتح فيخرج منه واحد من السادة ونهضت على عجل فإذا بي أجد نفسي معه وجهاً لوجه: كان السيد الذي خرج من الباب هو مستر روتشيستر.

وسألني: «كيف أنت؟»

– «بخير كثير، يا سيدي».

– «لِمَ لم تأتي وتتحدّثي إليّ في حجرة الاستقبال؟»

وخطر لي أن أوجّه هذا السؤال نفسه إلى طارحهِ. ولكني لم أجترئ على ذلك. فأجبت:

– «أنا لم أرد أن أزعجك، بعد أن بدا لي أنّك كنت في شغل شاغل، يا سيدي».

– «وما الذي كنت تفعلينه في أثناء غيابي؟».

– «لا شيء جديراً بالذكر. كنت أدرّس آديل كالعادة».

– «وكنت تزدادين شحوباً، إلى حدّ بالغ، كما تبدَّى لي من النظرة الأولى. مابك؟»

– «لا شيء على الإطلاق، يا سيدي».

– «هل أصبت بزكام ما في تلك الليلة التي أغرقتني فيها نصف إغراق؟»

– «لا، لم أصب بشيء من ذلك».

– «ارجعي إلى حجرة الاستقبال. لقد غادرتِها أبكر ممّا ينبغي».

– «أنا متعبة، يا سيدي».

وحدّق إليّ لحظة، ثم قال: «ومحزونة بعض الشيء. علام حزنك هذا؟ أخبريني».

– «لا شيء، لا شيء، يا سيدي. أنا لست محزونة».

– «ولكني أؤكد أنك محزونة... محزونة جداً حتّى ليخيّل إليّ أن في ميسور بضع كلمات أخرى أن تفجِّر الدموع من عينيك – الواقع إني أراها الآن في مقلتيك، لامعة مترقرقة، وأن لؤلؤة منها قد زلَّت عن الهدب وسقطت على السوسنة. ولو قد كان لدي متّسع من وقت ولو لم أكن أخشى أشد الخشية أن يمرَّ بنا خادم مزعج مهذار إذن لعرفت ما معنى هذا كلّه. حسناً، سوف ألتمس لك الليلة عذراً، ولكن عليك أن تفهمي أنّي أتوقع وفودك على حجرة الاستقبال كلّ ليلة،

ما بقي ضيوفي في رحابي، تلك هي رغبتي، فلا تغفليها. والآن، امضي في سبيلك، وأرسلي «صوفي» لكي تأخذ آديل، طابت ليلتك يا...».

وأمسك عن الكلام، وعضَّ على شفتيه، وفارقني على نحو مفاجئ.

[18]

كانت أياماً مرحة بهيجة تلك التي قضاها الضيوف في قصر ثورنفيلد، أياماً كلها عملٌ أيضاً. لشدّ ما كانت مختلفة عن الثلاثة الشهور الأولى التي سلختها تحت سقفه والتي كانت مفعمة بالسكينة، والرتابة، والاعتزال! لقد بدا الآن وكأن جميع الأحاسيس المحزونة قد طُرِدت من القصر، وأن جميع المعاني الكئيبة قد نُسيت: كان ثمة حياة في كلّ مكان، وحركة طوال الليل والنهار. ولم يعد في ميسورك الآن أن تجتاز بالرواق – وكان من قبل ساكناً إلى أبعد حدّ – أو أن تدخل الحجرات الأمامية – وكانت من قبل خالية إلى أبعد حدّ – من غير أن تلتقي بوصيفة نشيطة لإحدى السيدات، أو بخادم متأنّق لأحد السادة.

كان المطبخ، وبيت المؤونة، وقاعة الخدم، والردهة الأمامية مفعمة كلها بالحيوية والنشاط. ولم تكن أبهاء الاستقبال لتخلو وتهدأ إلاّ حين تدعو سماء الربيع البهيج وأشعة شمسه الوادعة محتلِّيها إلى الأرض الفضاء. وحتى حين كان التغيّر يُلمُّ بذلك الجوّ الجميل فتنهمر الأمطار طوال أيام على. غير انقطاع لم يكن الفتور ليتطرّق إلى مرح القوم وابتهاجهم. على العكس، لقد كان الحظر المفروض على أسباب المتعة في الهواء الطلق يزيد أنواع التسلية في داخل الجدران حياة وتنوّعاً.

وتساءلت ما الذي سوف يفعلونه خلال أوُّل ليلة اقترِح فيها إجراء تعديل في أسباب التسلية: لقد تحدّثوا عن رغبتهم في أن يلعبوا «لعبة الأحاجي»[1] ولكني – لعظيم جهلي – لم أفهم هذا الاصطلاح. وسرعان ما دُعي الخدم إلى القاعة، وأخرِجت موائد حجرة الطعام، وعدِّلت أوضاع المصابيح، وصُفَّت الكراسي على شكل نصف دائرة مواجهة للقنطرة. وفيما كان مستر روتشيستر وغيره من السادة

الأماجد يشرفون على هذه التعديلات كانت السيدات يصعدن السلالم ويهبطنها داعياتٍ وصائفهنَّ برنَّات الأجراس. واستُد عيَتْ مسز فيرفاكس لتدلي بما لديها من معلومات عمّا يحتويه القصر من شالات، وفساتين، وبياضات من مختلف الصنوف والأنواع. وقُلِبَت خزائن مخصوصة، في الدور الثالث، رأساً على عقب، وحملت «الأماء» محتوياتها من تنانير موشّاة موسَّعة بأطواق صلبة، وسترات نسائية فضفاضة مخيطة من «الساتان»، وأقمشة سوداء، وذيول فساتين من «الدانتيل» – حملت الإماء هذا كله إلى الدور الأرضي أكداساً أكداساً. ثم أجرِيَت عملية تنخُّل وغربلة، ليُحْمل ما وقع عليه الاختيار، بعد ذلك، إلى المقصورة المحاذية لحجرة الاستقبال.

(1) charades لعبة يلعبها الانكليز داخل الجدران، وفيها يمثّل اللاعب أو اللاعبون كلمة من الكلمات أو معنى من المعاني تمثيلاً صامتاً، ويطلب إلى سائر القوم أن يحزروا الكلمة أو المعنى. (المعرب)

وفي غضون ذلك، كان مستر روتشيستر قد دعا السيدات إلى التحلُّق حوله، وكان قد شرع يختار «فريقه» من بينهنّ. وقال: «مس اينغرام سوف تكون من حصتي، طبعاً». وبعد ذلك اختار الآنستين ايشتون، ومسز دينت، ونظر إليّ، وشاءت المصادفة أن أكون على مقربة منه، إذ كنت أشبك سوار مسز دينت بعد أن انفكَّ.

وسألني: «هل تحبين أن تشاركي في اللعبة؟» فهززت رأسي علامة النفي. ولم يلحَّ علي في ذلك، وكنت أخشى أن يفعل: لقد أجاز لي أن أرجع في هدوء إلى مقعدي المألوف.

عندئذ انسحب هو وأعوانه إلى ما وراء الستارة، وقعد الفريق الآخر – وكان برئاسة الكولونيل دينت، على الكراسي التي رُصِفت على صورة هلال. ولمحني أحد السادة – مستر ايشتون – وبدا وكأنه اقترح أن أشاركهم اللعب، ولكن اللايدي

اينغرام سارعت إلى رفض الاقتراح. لقد سمعتها تقول: «لا، إنها تبدو أشدّ بلاهة من أن تشارك في أيما لعبة من هذا النوع».

وما هي إلاّ لحظات حتّى رنَّ جرس، وارتفعت الستارة. وداخل القنطرة ظهر شخص السير جورج لين، الضخم الجسم – وكان مستر روتشيستر قد ضمَّه إلى فريقه – متلفِّعاً في ملاءة بيضاء. وأمامه، على إحدى الموائد كان سفر مفتوح، وإلى جانبه، وقفت آيمي ايشتون، متدثّرة بمعطف مستر روتشيستر، وفي إحدى يديها كتاب. ورن شخص غير مرئي الجرس – رنيناً مرحاً. وعندئذ وثبت آديل (التي كانت قد أصرَّت على الانضمام إلى فريق كافِلها) إلى الأمام، ناثرةً حولها محتويات سلة زهور كانت تحملها في ذراعها، وبعد ذلك ظهر شخص مس اينغرام البهي متَّشحاً بالبياض، وعلى رأسها خمار طويل، وحول جبينها إكليل من ورود. لقد مشى مستر روتشيستر إلى جانبها، وراحا يتقدّمان معاً نحو المائدة. ثم إنهما ركعا، بينا اتّخذت مسز دينت ولويزا ايشتون وقد اتُّشحتا أيضاً بالبياض، موضعيهما خلفهما. وعقبت ذلك شعائر مثلتْ تمثيلاً أبكم، فلم يكن من العسير على المرء أن يحزر أن المشهد يمثّل حفلة زواج. وعند انتهاء تلك الشعائر تشاور الكولونيل دينت وأركان فريقه تشاوراً مهموساً استمرّ دقيقتين اثنتين، وبعد ذلك صاح الكولونيل:

– «عروس!» فانحنى مستر روتشيستر، وأسدلت الستارة.

وانسلخت فترة غير يسيرة قبل أن تُرفع الستارة مرِّة أخرى. فإذا بارتفاعها يكشف عن مشهد معَدٍّ على نحو أكثر إحكاماً من المشهد الأول. كان مستوى حجرة الاستقبال. كما سبقت مني الملاحظة، أعلى من مستوى حجرة الطعام بدرجتين اثنتين. وفوق الدرجة العليا، بدا حوضٌ رخامي ضخم وُضع على مبعدة ياردة أو ياردتين داخل حجرة الاستقبال، حوض عرفت فيه إحدى حلى المُسْتَنْبَتِ الزجاجي، حيث كان يقوم عادةً، محوطاً بنباتات مجلوبة نادرة، آهلاً

بالسمك الذهبي. لقد نقلوه من هناك متجشّمين في ذلك بعض العناء، بسب من ضخامته وثقله.

وإلى جانب هذا الحوض كان مستر روتشيستر جالساً على السجادة، متّشحاً بعدد من الشالات، ومعتمراً بعمامته. كانت عيناه السوداوان وبشرته السمراء وملامحه الشرقية متناغمة مع زيّه تناغماً كاملاً: لقد بدا وكأنه النموذج الحقُّ لأمير شرقي، وكأنه جلاّد مشنقة تركي أو واحد من ضحاياها. وما هي إلاّ لحظة حتى برزت مس اينغرام. كانت هي أيضاً ترفل في زى شرقي: لقد عقدت حول خصرها وشاحاً قرمزياً، وعقدت حول صدغيها منديلاً مطرَّزاً، وكانت ذراعاها المفرغتان في قالب الجمال عاريتين، وكانت إحداهما مرفوعة لكي تسند بها جرَّة توازنت على رأسها في رشاقة. كان شكلها وأساريرها، وبشرتها وهيئتها العامة كلّها تذكّر المرء بصورة أميرة عبرانية من أهل العهد الأبوي القديم. ولا ريب في أن هذه هي الشخصية التي أرادت مس اينغرام أن تمثّلها.

وتقدّمت نحو الحوض، وانحنت فوقه وكأنما تودُّ أن تملأ جرّتها، ثم عادت فرفعتها إلى رأسها من جديد. وهنا بدا وكأن الشخص القاعد عند حافة البئر قد بادرها بكلام ما، ملتمساً منها شيئاً، «فسارعت هي، وأنزلت جرتها عن رأسها، وقدّمت إليه جرعة ماء». عندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة حليّ، وفتحها وأخرج منها أساور باهرة وقرطين بهيَّين فتظاهرت بالدهشة والإعجاب، وركع هو فطرح الكنز عند قدميها. فبدتْ على محياها إمارات الجذل وعدم التصديق، فما كان من الرجل الغريب إلاّ أن طوّق بالأساور ذراعيها، وزيُّن بالقرطين أذنيها. لقد كان ذلك هو مشهد أليعازر وروبيكا، لا ينقصه غير الإبل.

وراح أفراد الفريق المتكهّن يتهامسون. لقد بدا وكأنهم لم يستطيعوا الاتفاق على الكلمة – أو المقطع – التي يمثّلها هذا المشهد، وعندئذ طالب الكولونيل دينت، الناطق بلسانهم، بعرض المشهد الأخير، فأسدلت الستارة من جديد.

حتّى إذا رفعت للمرة الثالثة لم يظهر غير جانب من حجرة الاسقبال، في حين حجب ما تبقّى من الفرقة حاجز (بارافان) مصنوع من قماش داكن خشن. كان الحوض الرخامي قد أُقصي، وكانت قد نهضت مكانه مائدة مصنوعة من خشب الشربين وكرسي من كراسي المطبخ، وكانت هذه الأشياء مرئية على ضوء مصباح باهت جداً، بعد أن أُطفئت الشموع كلها.

وسط هذا المشهد الحقير جلس رجل ناكس الرأس، مسندٌ يديه المقبوضتين إلى ركبتيه. كان هو مستر روتشيستر، عرفته في سهولة ويُسر، على الرغم من أن وجهه المتّسخ، وبزَّته المشوّشة (كانت سترته تتدلّى من إحدى ذراعيه، وكأنما كان ظهرها قد مزِّق – أو كاد – في مشاجرة) وقسمات وجهه اليائسة المقطبة، وشعره الخشن الشائك كان خليقاً بها أن تخفي هُويته. لقد تحرّك، فتناهى إلى آذاننا صليل: كان معصماه مكبَّلين بالأصفاد.

فهتفت الكولونيل دينت: «إصلاحية!»، وحُلَّت الأُحجية.

وبعد أن انقضت فترة من الوقت كافية لتمكين الممثلين من ارتداء. ملابسهم العادية انقلبوا إلى حجرة الطعام من جديد. كان مستر روتشيستر يقود مس اينغرام، وكانت مس اينغرام تطري تمثيله.

لقد قالت: «أتدري أني أحببتك أكثر ما أحببتك وانت تمثِّل الشخصية الثالثة والأخيرة؟» أوه، لو أن الدهر سَلَف بك بضع سنوات إذن لكنت قاطع طريق ماجداً شهماً يكاد يعزُّ نظيره!»

فتساءل ملتفتاً نحوها: «هل أُزيل السُّخام كله عن وجهي؟»

– «أجل، مع الأسف. فليس ثمة ما يلائم بشرتك أكثر من هذا الصبغ الذي يخلع عليك سِيْما سفاح من السفاحين».

– «وإذن فقطاع الطرق يروقون لك؟»

– «أجل، وإني لأؤثر قاطع الطرق الإنكليزي على قاطع الطرق الإيطالي، ولست أؤثر على هذين غير قرصان شرقي».

– «حسناً. وأيًّا ما كنت فيتعيَّن عليك أن تتذكري أنِّك زوجتي. لقد عقد قراننا منذ ساعة، في حضرة هؤلاء الشهود كلهم».

فقهقهت وشاع الدم في وجنتيها.

وتابع مستر روتشيستر: «والآن، يا دينت، جاء دورك».

حتى إذا انسحب الفريق الآخر احتلّ مستر روتشيستر ورفاقه المقاعد الشاغرة. وجلست مس اينغرام إلى يمين زعيمها، في حين شغل سائر المتكهنين الكراسي القائمة إلى جانبه وجانبها. والحق أني ما عدت الآن أراقب الممثلين، وما عدت أنتظر ارتفاع الستارة في شوق بالغ. كان انتباهي منصبًّاً على النظارة وكانت عيناي – اللتان سمِّرتا من قبلُ على القنطرة – منجذبتين الآن على نحوم لا يقاوم نحو صف الكراسي نصف الدائري. أنا لم أعد أذكر أيّة أحجية مثّلها ا لكولونيل دينت وفريقه، وأي كلمة اختبارها، وكيف أدّوا أدوارهم. ولكني لا أزال أرى إلى الآن المشاورة التي كانت تدور إثر كلّ مشهد: أنا أرى مستر روتشيستر يلتفت إلى مس اينغرام، ومس اينغرام تلتفت إليه. أنا أراها تميل برأسها عليه حتى لتكاد غدائرها تمسُّ كتفه وتتماوج على خده، أسمع همسهما المتبادل، أذكر نظراتهما المتبادلة. بل إني لا أزال أذكر في هذه اللحظة طرَفاً من الشعور الذي أوقعه المشهد في نفسي.

لقد أخبرتك من قبل، أيها القارئ، أنّى تعلمت أن أحب مستر روتشيستر. والواقع أني لم أستطع الآن أن أقلع عن حبه لمجرّد أني وجدته يكفّ عن النظر إليّ.. لمجرّد أني قضيت في حضرته ساعات من غير أن يدير عينيه نحوي مرة واحدة... لمجرّد أني رأيت اهتمامه كلّه تستأثر به سيدة عظيمة تأنف أن تمسَّني بأهداب فستانها وهي تمرُّ بي، سيدة لو اتّفق لعينيها السوداويين أن وقعتا عليّ مصادفة إذن لأشاحت بهما عني وكأنما كانت تشيح بهما عن شيء أحقر من أن

يستحقّ منها التفاتة. لا، أنا لم أستطع أن أقلع عن حبه لأني تأكدت أنه سوف يتزوج وشيكاً من هذه السيدة نفسها، أو لأني قرأت في وجهها كل يوم معاني اطمئنانها المتكبّر إلى نيّاته نحوها، أو لأني شهدت منه في كل ساعة ضرباً من مطارحتها الغرام قد لا يكون لا مبالياً وقد يؤثر أن يُسْعَى إليه بدلاً من أن يسعى هو إلى المحبوب ولكنه آسرٌ في لامبالاته هذه، لا يقاوَم حتى في تكبُّره ذاك.

ولم يكن في هذه الملابسات كلها ما يسكِّن الحب أو ينفيه من الفؤاد، وإن يكن فيها كثير ممّا يورث اليأس. ولعلّك أن تظن، أيها القارئ، أنه كان فيها أيضاً كثير مما يولد الغيرة، إن كان لامرأة في مثل مركزي أن تجترئ على الشعور بالغيرة من امرأة في مثل مركز مس اينغرام. ولكني لم أكن غيوراً، أو أني لم أكن كذلك إلاّ في أحوال نادرة جداً: - إن طبيعة الألم الذي قاسيته لا سبيل إلى تفسيرها بتلك اللفظة. كانت مس اينغرام غير جديرة بأن يغار المرء منها، كانت أدنى من أن تثير في النفس هذا الشعور. ألتمس عفو القارئ لهذا التناقض الظاهري، فأنا أعني ما أقول. لقد كان مظهرها الخارجي بهيًّا جداً، ولكنه زائف غير حقيقي. كانت جميلة، ذات براعات ساطعة، ولكن عقلها كان سقيماً، وفؤادها كان مجدباً بالفطرة: إنّ أيما شيء لم يكن ليتفتح تفتُّحاً تلقائياً في تلك التربة، ولا أيما ثمرة طبيعية تزهو بنضرتها. إنها لم تكن صادقة غير متكلفة، ولم تكن ذات فكر أصيل: كانت كثيراً ما تردِّد بعض العبارات الطنانة المنتزعة من الكتب، ولكنها لم تدل في أيما يوم من الأيام بأيما رأي خاص، ولم يكن لها مثل هذا الرأي. كانت تتحدث عن العاطفة حديث المحبِّذ المطري، ولكنها لم تعرف عاطفتَي العطف والشفقة. كانت جوانحها خلواً من الحنان والصدق، وكثيراً ما تكشَّفت عن ذلك. من طريق إطلاق العنان، على نحو ظالم، للكراهية الحقود التي كانت تضمرها لآديل الصغيرة، فهي تردُّها عنها، نابذة إيّاها بمختلف الألقاب المهينة، إذا ما اتّفق لها أن اقتربت منها، وهي تأمرها أحياناً بمغادرة الحجرة، وتعاملها دائماً في برود وفظاظة. وكانت عيون أخرى غير عينيَّ تراقب هذه الظواهر الخلقية أيضا. - تراقبها عن كثب، وفي انتباه وذكاء. أجل، لقد كان عريس المستقبل - مستر روتشيستر نفسه -

يُخضع خطيبته لرقابة متواصلة. ومن هذه الحصافة بالذات، من هذا الاحتراس، من هذا الوعي الكامل الواضح لنقائص مليحته، ومن هذا الفتور الجلي في عاطفته نحوها نشأ الألم الذي كان يعذبني تعذيباً ما ينقضي.

لقد رأيت أنه يزمع الزواج منها لأسباب عائلية أو ربما لأسباب سياسية، ذلك بأن منزلتها الاجتماعية والمكانة التي يتمتّع بها أنسباؤها وأصدقاؤها كانتا تلائمانه. لقد شعرت أنه لم يهَبْها حبه، وأنها لا تملك من المؤهلات ما يجعلها قمينة بأن تنتزع منه ذلك الكنز. ذلك كان جوهر المسألة، وتلك كانت هي النقطة التي مُسَّت عندها الأعصاب وأُثيرت. والتي حُضِنت عندها الحمَّى وغذِّيت: إنها لا تستطيع أن تفتنه.

ولو قد وفِّقت إلى إحراز النصر على التوّ، ولو قد ألقى السلاح أمامها وطرح قلبه عند قدميها إذن لكان عليّ أن أحجب وجهي وأستدير إلى الجدار، وأن أموت (بالمعنى المجازي) في سبيلهما. ولو قد كانت مس اينغرام امرأة صالحة نبيلة النفس وهبتها الطبيعة قوة وحماسة وحناناً ورجاحة عقل إذن لتعيّن عليّ أن أخوض صراعاً مهلكاً مع نمريْن اثنين، هما الغيرة واليأس. وإذن لتعيّن عليّ، وقد مزِّق قلبي وسُحِق، أن أعجَبَ بها، أن أقرّ بتفوّقها، وأن أستسلم للطمأنينة بقية أيام حياتي، وكلّما كان تفوّقها أكمل كان إعجابي أعمق، وكانت طمأنينتي أصدق واصحّ. أما في الوضع الراهن فقد كان في مراقبتي جهود مس اينغرام بسبيل استهواء مستر روتشيستر، وفي مشاهدتي إخفاقها
المتكرِّر – من غير أن تعي هي أن جهودها قد منيَت بالفشل، متوهمةً على غير طائل أن كلّ سهم أطلقته كان يصيب الهدف، معتزَّة بالنجاح اعتزازاً مخبَّلاً في حين كان غرورها ورضاها عن نفسها لا يزيدان الرجل الذي رغبت في أن تفتنه إلاّ صدوداً ونفوراً – أقول كان في هذا كله ما أخضعني، في آن معاً، لاهتياج موصول ولكبح لا يعرف الرحمة.

ذلك بأنني رأيت – حين أخفقَتْ – كيف كان من الممكن أن تتحقق بالنجاح. فقد كنت أعلم أن السهام اقي ارتدّت عن صدر مستر روتشيستر وأني تساقطت عند قدميه من غير أن تمسَّه بسوء كان في إمكانها لو رمَتْها يدٌ أشد ثباتاً أن تنفذ الصميم قلبه الفخور، بعد أن تدعو الحب إلى عينيه الصارمتين، والرقّة وجهه الساخر. بل لقد كنت أعلم أن انتصاراً صامتاً كان في الإمكان إحرازه بغير سلاح.

وسألت نفسي: «ما الذي يجعلها غير قادرة على مزيد من السيطرة عليه، وهي أني تنعم بحق الاقتراب منه إلى هذا الحد؟ ليس من ريب في أنها لا تستطيع أن تحبه حقاً، أو لا تستطيع أن تحبّه حباً مشبوباً بعاطفة صادقة! ولو قد كانت قادرة على ذلك إذن لما احتاجت إلى إطلاق ابتساماتها بمثل هذا السخاء البالغ، ولما احتاجت إلى تكلّف هذه المظاهر المجوَّدة كل هذا التجويد، واصطناع هذ الأناقات المتنوّعة إلى هذا الحدّ. لقد بدا لي أنه كان في ميسورها، بمجرّد الجلوس بجانبه في هدوء ودعة، وبشيء من الاقتصاد في الكلام وإرسال النظرات، أن تمسي أدنى إلى قلبه. ولقد سبق لي أن رأيت في وجهه انطباعة مختلفة اختلافاً بعيداً عن تلك أني تقسِّيه الآن فيما هي تخاطبه بكثير من النشاط والمرح. ولكن هذه الانطباعة انبعثت آنذاك من تلقاء نفسها، إنها لم تُنْتَزع انتزاعاً بضروب من الحيل المبهرجة والمناورات المدروسة. كيف ستوفُّق إلى إرضائه حين يجمع الزواج ما بينهما؟ لست أظن أنها ستوفق إلى ذلك، ومع هذا فقد تُوفّق بطريقة ما. وعلى أية حال فأنا أؤمن إيماناً راسخاً بأن زوجته سوف تكون أسعد امرأة تشرق عليها الشمس».

أنا لم أقل حتى الآن أيما شيء يُشْعِر باستنكاري لرغبة مستر روتشيستر في الزواج بدافع من المصلحة والاعتبارات العائلية. ولقد دُهشت عندما اكتشفت، أول ما اكتشفت، أن هذه كانت هي نيته: كنت قد حسبتُهُ رجلاً لا يمكن أن يتأثّر بعوامل مبتذلة مثل هذه في اختيار الزوجة، ولكني كلّما أطلت التفكير في مركز الفريقين الاجتماعي وثقافتهما الخ استشعرت أن لا حقّ لي في إدانته وإدانة مس اينغرام أو في لومهما بسبب من تصرّفهما وفقاً لأفكار ومبادئ نُشِّئا عليها، من غير ريب، منذ

طفولتهما. إن أفراد طبقتهما ليعتنقون هذه المبادئ. لقد حسبت، آنذاك، أن لهما أسباباً تبرّر هذا الاعتناق، ولكنها أسباب لم أستطع أن أدرك كنهها. ولقد بدا لي أني لو كنت رجلاً مثله إذن لما ضممت إلى صدري إلاّ زوجة حبيبة إلى قلبي، ولكن وضوح أفضلية هذا النوع من زواج الحب الذي يُو
رث الرجل السعادة والهناءة أقنعني بأنه لا بدّ أن تكون ثمة اعتبارات تحول دون تبنِّي الناس له على نحو شامل، اعتبارات كنت أجهلها كلّ الجهل. ولولا ذلك لكان خليقاً بالبشر كلهم –وقد كنت على يقين من ذلك – أن يتصرفُّوا مثلما وددت أن أتصرف.

ولكن الأيام كانت قد أخذت تجعلني شديدة التساهل في بعض النقاط الأخرى – كشأني في هذه النقطة –مع مستر روتشيستر. كنت قد شرعت أنسى جميع عيوبه، أني كنت من قبل أقف منها موقف الحذر البالغ. لقد كان من دأبي في ما مضى أن أحاول دراسة جوانب شخصيته كلها، ما طاب منها وما خَبُثَ، وأن أزن كلاًّ منها لأصدر بعد ذلك حكماً عادلاً. أما الآن فلم أعد ارى فيها أي شيء خبيث. لقد أمست سخريته أني كانت من قبل تُثير نفوري وفظاظته أني أفزعتني في يوم من الأيام مجرّد توابل حادَّة في طبق طعام ممتاز. أما ذلك الشيء الغامض – هل كان انطباعه مشؤومة أم محزونة، انطباعه مصمِّمة أم يائسة؟ – الذي ينكشف في عينيه، بين الفينة والفينة، للمتأمل البصير ثم لا يلبث أن ينغلق قبل أن يوفق المرء إلى سبر غوره العجيب المنفتح على نحو جزئي، ذلك الشيء الذي كان من دأبه أن يُوقع في قلبي الرعب والرغبة في الانكماش وكأني كنت هائمة على وجهي في هضابٍ بركانية السمات ثم أستشعر فجأة أن الارض تميد من تحت قدمي واراها تفغر فاها، ذلك الشيء بالذات كنت لا أفتأ أشهده، بين الفينة والفينة، بقلب واجف، ولكن ليس بأعصاب مشلولة. وبدلاً من أن ارغب في تحاشيه، أصبحت لا أتوق إلاّ إلى الجرأة على التكهُّن به. ولقد خيِّل إليّ أن مس اينغرام امرأة سعيدة، لأنها سوف

توفّق ذات يوم إلى إنعام النظر في تلك الأعماق، في أناة وتمهّل، فتكتشف أسرارها، وتحلّل طبيعة هذه الأسرار.

بينما كان تفكيري منصباً على سيدي وعروسه المقبلة - لا أرى غيرهما، ولا أسمع غير حديثهما ولا أولي اهتمامي غير حركاتهما - كان سائر القوم منهمكين في أشواقهم ومُتَعهم المستقلة الخاصة. لقد واصلت اللايدي لين واللايدي اينغرام إضاعة الوقت في أحاديث رزينة، كانتا خلالها تهزّان برأسيهما المتوجين بـــ - «عمامتين» هزّات ذات مغزى، وترفعان أيديهما الأربع في إيماءات مواجِهة تنمُّ عن دهش أو تحيُّر أو ذعر، وفقاً للموضوع الذي دارت عليه ثرثرتهما، وكأنهما دميتان مجسَّمتان. وتحدثت مسز دينت الدمثة إلى مسز ايشتون الأنيسة، ومنَّت كل منهما عليّ في بعض الأحيان بكلمة لطيفة أو ابتسامة مجامِلة. أما السير جورج لين، والكولونيل دينت، ومستر ايشتون فتناقشوا في السياسة، أو في شؤون الإقليم، أو قضايا العدالة. وغازل اللورد اينغرام آيمي ايشتون، وعزفت لويزا وغنَّت، في حين أصغت ماري اينغرام في وهنٍ وفتور إلى أحاديث الآخر الرقيقة المتودّدة. وفي بعض الأحيان كان القوم كلهم يقطعون حديثهم الجانبي، وكأنما يفعلون ذلك باتفاق إجماعي، ليراقبوا الممثلين الرئيسيين أو يصغوا لهما، إذ كان مستر روتشيستر على أية حال ومس اينغرام - بحكم ارتباطها الوثيق به - هما حياة الجماعة وروحها. كان إذا غاب عن الحجرة ساعة، بدا وكأن فتوراً ملحوظاً قد انسلَّ إلى نفوس ضيوفه، حتى إذا عاد خلع دخوله على الأحاديث حيوية جديدة.

ولقد افتُقد سلطانُهُ المحيي، أكثر ما يكون الافتقاد، في ذات يوم دُعي فيه إلى ميلكوت لقضاء بعض الأعمال، وكان من غير المحتمل أن يرجع في ساعة مبكرة. كان ذلك الأصيل ماطراً. وكان الاتفاق قد انعقد على أن تقوم الجماعة بنزهة على الأقدام لرؤية مخيَّم من مخيمات الغجر نصِب مؤخراً في ساحة عمومية وراء «هاي»، فلمّا ارتحل مستر روتشيستر اضطروا إلى ارجاء النزهة. لقد ذهب بعض المدعوين إلى الاسطبلات، وانصرف فريق منهم أصغر سناً، مع السيدات الأنضر شباباً، إلى لعب البليارد في حجرة البليارد. والتمست الارملتان اينغرام ولين

السلوان في دورة هادئة من دورات لعب الورق. وكانت بلانش اينغرام – بعد أن ردّت، في صمت متشامخ، بعض محاولات مسز دينت ومستر ايشتون لاستدراجها إلى الحديث – قد شرعت تغمغم، على البيانو، عازفةً بعض الألحان العاطفية لتعود بعد ذلك فتبحث عن قصة في المكتبة، حتى إذا وجدت طِلْبتها استلقت في توانٍ متكبِّر على إحدى الأرائك، وأخذت أهبتها لكي تبدِّد، من طريق سحر الرواية، ساعات الغياب الراشحة بالسأم، كان الصمت يرينُ على الحجرة والقصر، وبين الفينة والفينة كان مرح لاعبي البليارد ليس غير، يُسْمع من فوق.

كانت الشمس قد جنحت للغروب، وكانت ساعة الجدار قد أعلنت أن موعد ارتداء ملابس العشاء قد آن، عندما صاحت آديل الصغيرة وكانت راكعة على مقربة مني فوق المقعد القائم تحت عتبة النافذة في حجرة الاستقبال:

– «هو ذا مسيو روتشيستر! لقد عاد!»

فاستدرتُ، ووثبت مس اينغرام من أريكتها، ورفع الآخرون أعينهم عمّا كانوا فيه من أعمال وملاهٍ، إذ سُمِعت في الوقت نفسه قرقعةُ عجلات ووقعُ حوافر خيل تثير الرشاش فوق حصباء الطريق الندية. كانت عربة من عربات البريد تقترب.

وقالت مس اينغرام: «ما الذي استحوذ عليه فجعله يعود على هذه الصورة؟ لقد امتطى متن مسرور (الجواد الأسود) عندما غادر القصر، أليس كذلك؟ ولقد كان بايلوت معه، فأي شيء فعله بالبهيمتين؟»

قالت ذلك وأدْنَتْ قوامها الطويل وملابسها الفضفاضة من النافذة إلى حدٍّ اضطرّني إلى الانحناء إلى الوراء حتّى لقد كاد عمودي الفقري ينكسر. كانت اللهفة قد غلبت عليها فلم تلمحني بادئ الأمر، حتّى إذا وقع نظرها عليّ زمّت شفتها وانتقلت إلى نافذة أخرى. ووقفت عربة البريد، ورن الحوذي جرس الباب، وترجَّل سيد مُرتدٍ بزة سفر. بيد أنه لم يكن مستر روتشيستر، كان رجلاً فارع الطول أنيق المظهر، غريباً من الغرباء.

وهنا صاحت مس اينغرام: «شيء يثير الحنق! من الذي وضعك فوق النافذة (ووجهت الكلام إلى آديل)، أيتها القردة المتعِبة، لكي تذيعي أخباراً خادعة؟» ورشقتني بنظرة غضبى، وكأني أنا الجديرة بالملامة.

وفي الردهة سُمِع شيء من الأخذ والردَّ، وسرعان ما دخل الوفد الجديد. لقد انحنى تحية للايدي اينغرام، معتبراً إيّاها كبرى السيدات الحاضرات سناً.

وقال: «يبدو أني أقبلت في وقت غير مناسب، يا سيدتي، خلال غيبة مستر روتشيستر عن البيت. ولكني راجع من رحلة طويلة جداً، وأحسب أن في استطاعتي استناداً إلى ما بيني وبينه من ودّ قديم، أن أجترئ على النزول في هذا القصر حتى يؤوب».

كان مسلكه مهذباً. ولقد بدهتني نبرته في الكلام، بوصفها غير مألوفة بعض الشيء، - إذ لم تكن أجنبية بالمعنى الدقيق، ولكنها لم تكن في الوقت نفسه إنكليزية خالصة. ولعلّ سنه كانت قريبة من سن مستر روتشيستر كانت بشرته شاحبة على نحو فريد، ولو لا ذلك لكان رجلاً بهي الطلعة، عند النظرة الأولى بخاصة. حتّى إذا راح المرء يتفرّس فيه عن كثب اكتشف أن في وجهه شيئاً لا يُرضي، أو على الأصحّ شيئاً لا يوقع الرضا في النفس. كانت قسمات وجهه متناغمة، ولكنها كانت مسترخية أكثر مما ينبغي. كانت عيناه واسعتين نجلاوين، ولكن الحياة أني كانت تطل من خلالهما كانت تافهة فارغة - أو هكذا ظننت على الأقل.

بدَّد الجرس الخاص بارتداء ملابس السهرة شمل الجماعة. ولم إلى الوافد الجديد، مرّة أخرى، إلاّ بعد العشاء. لقد بدا آنذاك مطمئن النفس إلى أبعد حدّ. ولكني كرهت سيماءه أكثر ممّا كرهتها من قبل، فقد لاح لي أنها قلقة وأنها تعوزها الحياة في آن معاً. كانت عيناه شاردتين ولكن شرودهما كان خلواً من المعنى، ولقد أكسبه ذلك هيئة عجيبة لا أذكر البتّة أني شهدت مثيلاً لها من قبل. والواقع أني نفرت منه نفوراً عظيماً على الرغم من ملاحة وجهه وقربه إلى النفس: فلم يكن

ثمة أية قوة في ذلك الوجه الناعم البشرة، البيضاوي الشكل، ولم يكن ثمة أي عزم في ذلك الأنف الأقنى، وذلك الفم الصغير الشبيه بحبة كرز، ولم يكن ثمة أي فكر في ذلك الجبين الخفيض المستوي، ولا أي حزم في تلك العين البنّية التي تفتقر إلى التعبير.

وفيما كنت جالسة في زاويتي المألوفة أنظر إليه وقد انعكس ضوء الشمعدان، الموضوع فوق رف الموقد، على وجهه انعكاساً كاملاً إذ كان يحتلّ كرسياً ذا ذراعين، أدناه إلى قريب من النار وكأنما كان البرد يستبدّ به – قارنت ما بينه وبين مستر روتشيستر. لقد بدا لي – مع الاحترام الواجب – أن الفروق بين ذكر أوز ناعم وبين صقر ضار، بين حَمَل وديع وبين حاميه من الذئاب، الكلب الخشن الشعر الثاقب العينين – أقول لقد بدا لي أن هذه الفروق لا يمكن أن تكون أكبر من الفرق بينه وبين مستر روتشيستر.

كان قد تحدّث عن مستر روتشيستر فقال إنّه صديق له قديم. وليس من ريب عندي في أن صداقتهما هذه لا بد أن تكون صداقة غريبة. إنها مثل صارخ على صدق الحكمة القديمة القائلة «إن طرفَيْ النقيض يلتقيان».

لقد جلس على مقربة منه رجلان أو ثلاثة رجال، فكان يقع في سمعي بين الفينة والفينة أطراف من حديثهم عبر الحجرة. أنا لم أستطع بادئ الأمر أن أفهم شيئاً ممّا سمعته، ذلك بأن حديث لويزا ايشتون وماري اينغرام – وكانتا جالستين في مكان من الحجرة هو إليّ أقرب – شوّش عليّ الجمل المتقطّعة التي تناهت إلى أذني بين حين وآخر. وكانت هاتان السيدتان تتحدّثان عن الغريب وتبديان رأيهما فيه. لقد اعتبرته كلٌّ منهما «رجلاً وسيماً». وقالت لويزا إنه «مخلوق فاتن» و «إنها تعبده» واعتبرت ماري «فمه الصغير الحلو وأنفه الرائع» مثلها الأعلى في الفتنة.

وصاحت لويزا: «ما أبدع جبينه الراشح بعذوبة الخلق! إنه أملس إلى أبعد الحدود، منزّه عن تلك التغضّنات المقطّبة التي أكرهها كراهة التحريم! وعينه

وابتسامته؟ إنما آية في الوداعة!»

وهنا دعاهما مستر هنري لين – وقد وقعت دعوته هذه في نفسي أحسن موقع – إلى الجانب الآخر من الحجرة ليبتّوا في أمر ما ذي صلة بالنزهة المرجأة إلى ساحة هاي العمومية.

لقد أصبح في ميسوري، الآن، أن أركز انتباهي على الجمع المتحلِّق حول النار، وسرعان ما فهمت أن الوافد الجديد يدعى مستر مايسون، ثم علمت أنه وصل إلى إنكلترا منذ ساعات ليس غير، وأنه قادم من أحد البلدان الحارة، وهذا من غير ريب ما جعل وجهه على ذلك الشحوب كله، وما جعله يدني كرسيه إلى المستوقد كل هذا الإدناء ويتدثّر بمعطف، ضمن جدران البيت. وسرعان ما دلَّ ورود هذه الكلمات، جامايكا، كينغستون، سبانيشتاون، في حديثه على أنه كان يقيم في جزائر الهند الغربية. وما هي إلاّ لحظات حتى استنتجت – في شيء غير قليل من الدهش – أنه كان قد التقى هناك مستر روتشيستر وتعرّف إليه أول ما تعرّف. لقد تحدّث عن كراهية صديقه للقيظ اللاّهب، والرياح الهوج، وفصول المطر في تلك الديار، والواقع أني كنت أعرف أن مستر روتشيستر كان في ما مضى رحّالة كثير الأسفار، فقد سبق لمسز فيرفاكس أن قالت ذلك، ولكني حسبت أن أسفاره هذه لم تتعدَّ حدود القارة الأوروبية، إذ لم يقدَّر لي أن أسمع – حتى تلك اللحظة أي إلماع إلى رحلات له في ديار أشدّ بعداً.

وكنت مستغرقة في التفكير في هذه الأشياء عندما قطعت عليّ خيط تأملاتي حادثة ما، حادثة غير متوقّعة بعض الشيء. ذلك بأن مستر مايسون، وقد ارتعد حين اتّفق لأحدهم أن فتح الباب، طلب مزيداً من الفحم لإذكاء النار، التي كانت قد خبت، برغم أن رمادها المتراكم كان لا يزال يتوهّج بالحرارة والحمرة. ووقف الخادم الذي جاءه بالفحم، فيما هو يغادر الحجرة، على مقربة من كرسي مستر ايشتون وحدَّثهُ في صوت خفيض بكلام لم أسمع منه إلاّ هذه الألفاظ: «امرأة عجوز»، – مزعجة إلى أقصى حد».

فأجابه القاضي: «قل لها إنها إذا لم تنصرف وضعت قدميها في الدَّهق[1]».

(1) الدهق stocks آلة خشبية لتعذيب المجرمين.

فقاطعه الكولونيل دينت: «لا.. على رسلك. لا تطردها يا ايشتون. فقد نستطيع أن ننتفع بها. ومن الخير لنا أن نشاور السيدات».

ثم جهر بالكلام وأضاف: «أيتها السيدات، لقد تحدثتنَّ عن الذهاب إلى ساحة «هاي» العمومية لتقمن بزيارة مخيم الغجر. وها إن «سام» يقول إن في حجرة الخدم، في هذه اللحظة بالذات، واحدة من العجائز ذوات الحَدَبات، وإنها تصرّ على الإذن لها في المثول أمام «النخبة المختارة» لكي تكشف لأفرادها عن طوالعهم فهل ترغبن في الاستماع إليها؟»

فصاحت اللايدي اينغرام: «لست أشك، أيها الكولونيل، في أنّك لن تشجع مثل هذه الدّجالة الوضيعة. اطردها في الحال، مهما كلّف الأمر!».

فقال الخادم: «ولكني لا أقوى على إقناعها بالانصراف، يا سيدتي النبيلة، بل لا يقوى على ذلك أي من الخدم. إن مسز فيرفاكس مجتمعة بها الآن تتوسّل إليها أن تنصرف، ولكنها اتّخذت لنفسها كرسياً وقعدت على مقربة من نار المستوقد وهي تقول إنّ أيما قوة لن تستطيع أن تزحزحها من هناك حتى يؤذن لها في الدخول إلى هنا».

فسألته مسز ايشتون: «ماذا تريد؟»

– «هي تقول، يا سيدتي، إنها تريد أن تكشف لحضرات الأعيان عن طوالعهم، وهي تُقسم قائلة إنّ عليها أن تفعل ذلك، وإنها لا بدّ أن تفعله».

فتساءلت الآنستان ايشتون في آن معاً: «وكيف شكلها؟»

– «مخلوقة دميمة تتقزّز النفس منها، أيتها الآنسة. سوداء مثل قدر يعلوها السخام، تقريباً».

فصاح فريدريك لين: «ولكنها عرّافة حقيقية! دعونا ندخلها في غير تردّد».

وأضاف أخوه: «بلا ريب. وإنه لمن أعظم الخطل والخسارة أن نضيّع هذه الفرصة المفعمة بأسباب المرح والهزل».

فهتفت مسز لين: «ما الذي تفكّران فيه، يا ولديَّ العزيزين؟»

وضمّت الأرملة اينغرام صوتها إلى صوت مسز لين وقالت: «أنا لا أستطيع أن أؤيد، البتّة، مثل هذا الصنيع غير اللائق».

- «حقاً، يا ماما، ولكنك تستطيعين... ولسوف تستطيعين» كذلك قالت بلانش بصوتها المتكبّر، فيما كانت تستدير فوق كرسي البيانو، حيث جلست - حتى تلك اللحظة - صامتة تتأمل في ما يبدو مختلف صحائف الألحان الموسيقية. «إني لأستشعر فضولاً إلى الاستماع إلى عرّافة تكشف لي بختي. أدخل العجوز الشمطاء، يا سام».

- «يا عزيزتي بلانش، تذكري...»

- «إني أتذكّر... أتذكّر كل ما ترغبين في قوله. ومع ذلك يجب أن أنفّذ إرادتي. عجّل، يا سام، عجّل!»

وهنا صاح الشباب جميعاً، من سيدات وسادة: «أجل! أجل! أجل! أدخلها... إنها سوف تتيح لنا فرصة للمزاح ممتازة!»

فقال الخادم وهو لا يزال يتلكأ: «إنها تبدو جلفةً إلى أبعد الحدود».

فصاحت مس اينغرام: «اذهب»

وفي الحال استبدّ الهياج بالجماعة كلها. كان دفْق موصولٌ من السخرية والمزاح قد انطلق عندما رجع سام.

لقد قال: «إنها لن تجيء الآن. هي تقول إنه ليس من واجبها أن تَمْثُل أمام «قطيع الرعاع» (كما عبَّرت بالحرف الواحد).وإن عليّ أن أدخلها إلى حجرة خالية، ومن ثم يتعيّن على الراغبين في استشارتها أن يدخلوا عليها واحداً إثر واحد».

فقالت اللايدي اينغرام: «ها أنت ترين، الآن، يا بلانشتي الملكية. إنها تتطاول. كوني عاقلة. يا فتاتي الملائكية... و...».

فقاطعتها «الفتاة الملائكية» قائلة: «أدخِلها إلى المكتبة. هذا طبيعي، فليس من واجبي، أنا أيضاً، أن أسمع نبوءاتها أمام قطيع الرعاع. إني أريد أن أخلو بها وحدي. هل في حجرة المكتبة نار موقدة؟»

– «نعم، يا سيدتي. ولكنها تبدو صخَّابة مهذارة إلى أبعد حدّ».

– «كفَّ عن هذه الثرثرة، أيها الأحمق! ونفِّذ ما أمرتك به».

وكرة أخرى توارى سام. وكرة أخرى جرفت الجماعة موجة عارمة من الفضول، والنشاط، والتوقّع.

وقال الخادم لدن عودته: «إنها على استعداد، الآن، وهي تريد أن تعرف من سيكون زائرها الأول».

فقال الكولونيل دينت: «أرى من الخير أن ألقي عليها مجرّد نظرة قبل أن تذهب أيّ من السيدات للاجتماع بها».

– «قل لها، يا سام، إن زائرها الأول سوف يكون رجلاً».

فمضى سام ثم رجع ليقول: «لقد قالت، يا سيدي، إنها لن تستقبل أيما رجل. فلا داعي لأن يتجشموا عناء الدنو منها». وسكت لحظة ثم أضاف كابحاً، في عسر، ضحكة تُوشك أن تنطلق: «لا، ولا داعي لأن تتجشَّم السيدات مثل هذا العناء، فهي لن تقابل منهنّ إلاّ الشابات غير المتزوّجات».

فهتف هنري لين: «وحق الإله، إنها لتتمتع بذوق رفيع!»

عندئذ وقفت مس اينغرام في جلال، وقالت في لهجة تليق بقائد مغامرة يعتزم أن ينهض وحده، من دون طليعة رجاله كلهم، بعبء القتال. «سأذهب أنا أولاً».

فما كان من أمها إلاّ أن صاحت: «أوه، أوه يا خير الناس عندي! أوه، يا أعزَّ الناس عندي! تمهلي... فكري!» ولكنها اندفعت متجاوزة إيّاها في صمت مهيب، وخرجت من الباب الذي فتحه الكولونيل دينت، وسمعناها تدخل حجرة المكتبة.

وران، بعد ذلك، صمت نسبي. واعتبرت اللايدي اينغرام أن الموقف يقتضيها أن تفرك يديها جزعاً. وهو ما فعلته حقاً. وأعلنت مس ماري أنها، في ما يتّصل بها شخصياً، أعجز من أن تقدم على مثل هذه المغامرة في يوم من الأيام وضحكت آيمي ولويزا ايشتون ضحكاً مهموساً، وبدت على وجهيهما إمارات ذعر طفيف.

وتقضَّت الدقائق في بطء بالغ. وأحصينا خمس عشرة دقيقة قبل أن يُفتح بابُ حجرة المكتبة من جديد. لقد عادت إلينا مس اينغرام من خلال القنطرة.

هل ستضحك؟ هل ستعتبر الأمر كلّه مجرّد مزحة؟ لقد استقبلتها الأعين كلّها بنظرة فضول متلهِّف، واستقبلت هي الأعين كلها بنظرة صدوف وفتور. إنها لم تبدُ لا مضطربة ولا مبتهجة. لقد تقدَّمت إلى كرسيها في خطى تعوزها الرشاقة، واستوت عليه في صمت.

وسألها اللورد اينغرام : «ما وراءك يا بلانش؟»

وسألتها ماري: «ماذا قالت لك، أيتها الشقيقة؟»

وقالت الآنستان ايشتون متسائلتين: «ما رأيك الآن؟ ما هو شعورك؟ أهي عرّافة حقيقية؟»

فما كان من مس اينغرام إلاّ أن ردّت عليهم جميعاً: «كفى، كفى، أيها القوم الطيّبون. لا تلحّوا عليّ في السؤال. الواقع أن حالتي الدهشة والتصديق عندكم تُستثاران في سهولة ويُسر. ويبدو لي، من الأهمية التي تعلّقونها جميعاً – وفيكم والدتي الطيّبة نفسها – على هذه المسألة، أنّكم تؤمنون إيماناً راسخاً بأن عندنا في هذا القصر عرّافة حقيقية، على أوثق الاتصال بالشيطان! لا، يا سادتي، لقد رأيت غجرية من الغجريات الرحّل، ولقد ادّعت، بطريقة مبتذلة، علم قراءة الكف، وراحت تكرّر على مسمعي ما يقوله أمثال هؤلاء القوم عادة. لقد أشبعتُ نزوتي، ويُخيّل إليّ الآن أن مستر ايشتون يُحسن صنعاً إذا ما وضع قدمَيْ تلك الحيزبون في الدَّهق، غداً صباحاً، كما توعَّد من قبل».

وتناولت مس اينغرام كتاباً، وغارت في كرسيها رافضةً بذلك أيما مواصلة للحديث. وراقبتها نحواً من نصف ساعة، لم تقلب خلالها صفحة واحدة من صفحات الكتاب، في حين كان وجهها يزداد اكفهراراً لحظة بعد لحظة، ويزداد تعبيراً عن معاني السخط والخيبة المريرة. إنها لم تسمع، من غير ريب، أي شيء في مصلحتها، ولقد بدا لي من نوبة الكآبة والصمت الطويلة التي ألمَّت بها أنها هي نفسها كانت، برغم ما تظاهرت به من لامبالاة وعدم اكتراث، تعلّق أهمية لا مبرِّر لها على النبوءات التي أدلي إليها بها، أياً ما كانت هذه النبوءات.

وفي غضون ذلك أعلنت ماري اينغرام، وآيمي ولويزا ايشتون، أنهنّ لا يجدن في أنفسهنّ الجرأة على الشخوص إلى حجرة المكتبة على انفراد، ومع ذلك فقد كنّ كلهنُّ راغبات في ذلك. وهكذا افتتِحت مفاوضات من خلال السفير، سام، وبعد كثير من الذهاب والإياب، نفد خلاله صبر الفتيات الثلاث، وافقت «سيبيل» الصارمة في عُسْر بالغ – على استقبالهنٍّ مجتمعات.

ولم تكن زيارتهن ساكنةً سكون زيارة مس اينغرام. فقد تناهى إلى سمعنا خلالها قهقهات هستيرية وصرخات طفيفة منبعثة من حجرة المكتبة. وبعد عشرين

دقيقة، أو نحوها، فتحن الباب في قوة، واندفعن مهرولات عبر الحجرة، وكأن الرَّوع قد ذهب بصوابهنّ.

لقد صحن، دفعةً واحدة: «أنا واثقة من أنّ لهذه المرأة قدرة خارقة! كيف استطاعت أن تنبئنا بهذه الأشياء كلها؟ إنّها تعرف كلّ شيء عنا!» وغرقن لاهثاتٍ في الكراسي المختلفة التي سارع الرجال الأماجد إلى تقديمها إليهن.

حتى إذا ألحّ عليهن القوم طالبين شرحاً إضافياً أعلنَّ أنها حدّثتهنّ عن أشياء قلنها أو فعلنها يوم كنَّ في صدر طفولتهن، ووصفت لهن كتباً ونفائس اشتملت عليها مقاصيرهن الخاصة، وهدايا وتذكارات كان قد قدّمها إليهنّ انسباء لهن مختلفون. وأكّدن أنها ذهبت إلى حدّ قراءة ما كان يجول في أفكارهنّ، وأنها همست في أذن كلّ منهن باسم الشخص الذي تؤثره بأعظم الحب، في هذا العالم، وأنبأتهن بغاية ما كانت نفوسهن تهفو إليه وتتمناه.

وهنا قاطعهنّ الرجال متوسلين إليهن في حرارة ولهفة أن يزدنهم تفصيلاً حول النقطتين الأخيرتين، فلم يفوزوا منهن، بعد هذا الإلحاح كله، بغير حمرة الخجل وضروب الصيحات والتشنّجات والضحكات. وفي غضون ذلك قدَّمت إليهن النسوة المتزوجات علباً صغيرة فيها صنوف من العطور القوية، ورحن ينعشنهن بالمراوح. وكررن مرة بعد أخرى، التعبير عن قلقهنّ بسبب من أن الفتيات لم يعملن في الوقت المناسب وفقاً لنصائحهنّ وتحذيراتهن. وضحك الرجال المتقدمون في السن، وألحف الشبان في عرض خدماتهم على الحسان اللواتي استبدّ بهن الاهتياج.

وفي غمرة من هذه الجلبة، وفيما كانت عيناي وأذناي مستغرقة في المشهد البادي أمامي، سمعت شخصاً يتنحنح عند مرفقي. والتفتُّ فإذا بي أجد سام.

لقد قال لي: «عفواً، يا آنسة، تُعلن الغجرية أن في الحجرة شابة أخرى غير متزوجة لمَّا تفِد عليها بعد، وهي تُقسم إنها لن تغادر القصر إلاّ بعد أن تتم لها رؤية

الفتيات جميعاً ولقد قدَّرتُ أنك أنتِ الشابة المعنية، فلم يبق في الحجرة من ينطبق عليها هذا الوصف غيرك. ما الذي تودين أن أقوله لها؟»

فأجبته: «أوه، سوف أمضي إليها». وكنت سعيدة بأن تُتاح لي تلك الفرصة اللامرتقبة لإشباع فضولي الذي استُثير إلى حدّ بعيد. فانسللت من الحجرة، في غفلة من الأعين جميعاً – ذلك بأن القوم كانوا كلهم متحلقين حول الثلاثي المرتعد الذي انقلب إلى الحجرة منذ قريب – وأوصدت الباب خلفي في سكون.

فقال سام: «سوف أنتظرك في الردهة، أيتها الآنسة، إن شئت، حتى إذا روَّعتكِ لم يكن عليك إلاّ أن تناديني، فأهرع لنجدتك».

– «لا، يا سام، عد إلى المطبخ. أنا غير خائفة البتة».

والحق أني لم أكن خائفة. ولكني كنت شديدة التطلّع والانفعال.

[19]

وبدت حجرة المكتبة، لحظة دخلتها، ساكنة جداً. وكانت «سيبيل» – إذا صحّ أنها كانت «سيبيل» – مستوية على نحو مريح في كرسي وثير، غير بعيد عن المستوقد. كانت ترتدي عباءة حمراء، وتعتمر بقلنسوة سوداء، أو بقبعة عريضة الحافة من قبعات الغجر مشدودة إلى ما تحت الذقن بمنديل مخطَّط. وعلى الطاولة كانت شمعة مطفأة، وكانت هي منحنية فوق النار، وقد بدت وكأنها تقرأ في كتيِّب أسود، شبيه بكتاب صلاة، على ضوء اللهب. لقد غمغمت بالكلمات في ما بينها وبين نفسها، فِعْلَ الكثرة الكاثرة من العجائز حين يقرأن. ولم تكفَّ عن القراءة لدى دخولي عليها مباشرة: لقد بدا وكأنها تريد أن تتم تلاوة فقرة من الفقرات.

ووقفت على السجادة، ودفأت يدي اللتين كان الجلوس على مبعدة من نار حجرة الاستقبال قد ذهب بحرارتهما. واستشعرت الآن طمأنينةً لا تقلُّ عن طمأنينتي المألوفة في الأحوال العادية. فالواقع أنه لم يكن في مظهر الغجرية ما يعكّر سكينة المرء. لقد أغلقت كتابها، ورفعت بصرها في أناة. كانت حافة قبعتها تحجب وجهها على نحو جزئي، ومع ذلك فقد استطعت أن أتبيَّن، حين رفعته، أنه كان وجهاً غريباً. لقد بدا أسمر وأسود كله، ومن تحت العصابة البيضاء المعقودة عند ذقنها برزت خصل شعرها الشائك الشبيه بشعر السعالى، فحجب نصف خدّيها، أو على الأصحّ نصف فكّيها. وفي الحال رشقتني عينها بنظرة جسورة مباشرة.

وسألتني في صوت حازم مثل نظرتها، خشن مثل قسمات وجهها: «حسناً، وأنت أيضاً تريدين أن أكشف لك من طالعك؟»

– «أنا لا أبالي به، يا أماء. في إمكانك أن تكشفي لي عنه إذا كان في هذا ما يسرُّك. ولكن عليّ أن أحذّرك، فأنا لا أؤمن بهذه الأمور».

– «هذا الكلام الذي تقولينه يتناغم كل التناغم مع وقاحتك. كنت أتوقّع هذا منك، لقد سمعته في خطوك وأنت تجتازين العتبة».

– «صحح؟ إنّ لك لأذناً مرهفة حادّة».

– «أجل. وبصراً حاداً، وذكاء حاداً».

– «أنت تحتاجين إلى هذا كله في صناعتك».

– «هذا صحيح. وبخاصة حين يتعيّن عليِّ أن أكشف طوابع زبائن من مثلك. لماذا لا ترتعدين؟»

– «لست أشعر بالبرد».

– «لماذا لا يغلب الشحوب على وجهك؟»

– «أنا لست مريضة

– «لماذا لا تفزعين إلى فني تلتمسين عنده المشورة؟»

– «لأني لست بلهاء».

عندئذ ضحكت العجوز الحيزبون ضحكة اختفتا تحت قبعتها وعصابتها، ثم أخرجت «بيبة» قصيرة سوداء، وأشعلتها، وأنشأت تدخّن. حتى إذا انغمست برهة يسيرة في هذه المتعة المخدِّرة تصدرت، وأخرجت «البيبة» من بين شفتيها، ثم قالت في روية مفرطة وهي تحدّق إلى النار على نحو موصول:

– «أنت تشعرين بالبرد، أنت مريضة، أنت بلهاء».

فأجبتها: «برهتي على ذلك».

– «سوف أفعل، في كلمات معدودات. أنت تشعرين بالبرد لأنّك متوحّدة، لا احتكاك يقدح منك النار الكامنة فيك. وأنت مريضة، لأن أنبل ما وُهِبه الإنسان من شعور وأكثره سمواً وعذوبة ينأى بجانبه عنك وأنت بلهاء، لأنك برغم ما يعتلج في

صدرك من أسىّ وألم، لا تومئين إلى ذلك الشعور أن يدنو. لا، ولا تتقدمين خطوة واحدة لكي تلتقيه حيث ينتظرك».

ووضعت بيبدها السوداء القصيرة بين شفتيها، كرةً أخرى، واستأنفت تدخينها في قوة.

– «في ميسورك أن تقولي هذا كلّه لأيما امرئ – تقريباً – تعرفين أنه يحيا حياة مرتزق متوحّد في قصر كبير».

– «أجل، في ميسوري أن أقوله لأيما امرئ تقريباً. ولكن هل يصحّ في أيما امرئ تقريباً؟»

– «إذا كانت ظروفه مثل ظروفي».

– «أجل. بالضبط، في مثل ظروفك أنت. ولكن دلِّيني على شخص

آخر تكتنفه نفس الملابسات ألتي تكتنفك أنت على وجه الدقّة».

– «من اليسير عليّ أن أدلّك على آلاف من مثل هذا الشخص».

– «لن يكون في إمكانك أن تدليني على شخص واحد إلا بشق النفس. إن وضعك في الواقع، يكاد يكون معدوم النظير: السعادة على مقربة دانية منك. أجل إنها في متناول يدك. وأسبابها كلِّها مهيأة لك، وهي لا تحتاج إلاّ إلى حركة تجمع شتاتها. لقد وضعتها المصادفة في نقاط متناثرة بعض الشيء».

– «أنا لا أفهم الأحاجي. ولم أستطع في أيما يوم من أيام حياتي أن أحزر لغزاً واحداً».

– «إذا أردتني أن أخاطبك بلغة أوضح فليس عليك إلا أن تريني باطن كفّك».

– «وأن أضع في يديك بعض النقود، أليس كذلك؟»

– «من غير ريب».

ومنحتها شلناً، فوضعته في «قَدَم» جورب عتيق أخرجته من جيبها،

حتى إذا فتلَتْه وأحكمت عقده. وأعادته إلى موضعه سألتني أن أبسط يدي. فنزلت عند إرادتها، فأدنت وجهها إلى باطن كفي، وأنعمت النظر إليه من غير أن تمسَّه ثم قالت:

– «إن راحتك ناعمة أكثر ممّا ينبغي. أنا لا أستطيع أن أفهم شيئاً من يد كهذه، تكاد تخلو من الخطوط. وإلى هذا، فأيَّ شيء في راحة اليد؟ إن قدَر الإنسان ليس مسطوراً فيها».

فقلت: «هذا شيء أقرّك عليه».

فتابعت تقول: «لا. إنه مسطور في الوجه: على الجبين، حول العينين، في العينين نفسَيْهما، في أسارير الفم. اركعي، وارفعي رأسك إلى أعلى».

وقلت وأنا أمتثل أمرها: آه! لقد أخذت، الآن، تقتربين من الحقيقة. ولسوف أبدأ منذ هذه اللحظة في الإيمان بك بعض الشيء».

وركعت على مبعدة نصف ياردة عنها. وراحت تؤجج النار حتُّى لقد اندلع من بين الفحمات المهاجة لهب متموِّج. بيد أن وهج النارلم يلق على وجهها، في جلْستها تلك، غير ظل أكثف. أما وجهي أنا فقد أضاءه الوهج ونوَّره.

وقالت بعد أن تأملتني مليًّا: «إني لأتساءل بأي المشاعر وفدتِ إليّ الليلة، وأيٍ الخواطر كانت تضجُّ في فؤادك خلال تلك الساعات الطويلة ألتي تقضينها جالسةً في تلك الحجرة، حيث ينطلق أمامك أولئك القوم المترفون وكأنهم صورٌ في فانوس سحري. إنّك لا تخالطينهم إلا في أيسر قَدْر من المشاركة الوجدانية، فكأنهم في الواقع أطياف لشخوص من البشر، لا الشخوص الحقيقيين أنفسهم».

– «إني كثيراً ما أستشعر التعب، وفي بعض الأحيان يغلب عليّ النعاس. ولكني نادراً ما أستشعر الحزن».

– «إذن فإن لديك أملاً خفياً يستنهض همُّتك ويهيّج ونفسك بهمسات عن المستقبل؟»

– «لا، على الإطلاق. إن أقصى ما أطمح إليه هو أن أقتصد من مكاسبي بعض المال أستعين به، في مقبلات الأيام، على إنشاء مدرسة خاصة بي في مبنىّ أستأجره. لهذا الغرض».

– «غذاء حقير لا يُسمن الروح ولا يغنيها من جوع. وخلال جلوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة (أنت تلاحظين أني أعرف عاداتك)...».

– «لقد أظلمت عليها من طريق الخدم».

– «آه، أنت تحسبين نفسك متّقدة الذهن. حسناً، ربما كان ذلك صحيحاً. ولأقل الحقيقة: إني لأعرف واحدةً منهم... هي مسز بول...».

وأجفلت واقفة على قدميّ لدى سماعي هذا الاسم. وقلت في ذات نفسي: «أنت تعرفين... هل تعرفينها؟... إن في المسألة إذن لسحراً شيطانياً، على كل حال!»

فأردفت المخلوقة الغريبة: «لا تراعي! إن مسز بول خادمة مأمونة، امرأة هادئة قريبة إلى النفس، وفي ميسور المرء أن يُوليها ثقته. ولكن، كما كنت أقول، ألا تفكرين – خلال جلوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة – بغير المدرسة التي تعتزمين إنشاءها في المستقبل؟ أليس لك أيما اهتمام حالي بأحد من الجماعة الذين يحتلون الآن الأرائك والكراسي تجاهك؟ أليس ثمة بينها وجهٌ واحد يحلو لك أن تدرسيه؟ وجه واحد تتابعين حركاته، على الأقل، في فضول؟»

– «أنا أحب أن ألاحظ جميع الوجوه».

– «ولكن ألا تؤثرين أحياناً ملاحظة وجه واحد من بيتها جميعاً، أو ربما وجهين اثنين؟»

– «أنا أفعل ذلك في كثير من الأحيان. عندما تبدو إيماءات الرجل والمرأة ونظراتها وكأنها تروي حكاية: إني لأجد في مراقبتهما – في هذه الحال – متعة وتسلية».

– «أية حكاية تحبين أن تسمعيها أكثر ما يكون؟»

– «أوه، ليس مجال الاختيار واسعاً أمامي! إن الحكايات كلها تدور عادة على موضوع واحد، هو المغازلة، وتعِدُ بأن تنتهي إلى كارثة لا

تتغير، هي الزواج».

– «وهل تحبين ذلك الموضوع الرتيب؟»

– «لا، من غير ريب. أنا لا أبالي به. إنه ليس عندي بشيء».

– «ليس عندك بشيء؟ عندما تجيء سيدة ناضرة العود. مفعمة بالحياة والصحة، فاتنة الجمال، ذات مركز اجتماعي رفيع وثروة طائلة... وتجلس وتبتسم في عيني رجلٍ أنت تـــ...»

– «أنا ماذا؟...».

– «رجل أنت تعرفينه... وربما تطيلين التفكير فيه».

– «لست أعرف الرجال في هذا القصر. إني نادراً ما تبادلت مع أحد منهم كلمة واحدة، أو مقطعاً من كلمة. أما في ما يتّصل بالتفكير فيهم فإني أعتبر بعضهم قوماً محترمين مهيبين بلغوا سن الكهولة، وبعضهم الآخر شباباً ذوي أناقة ووسامة وحيوية. ولكن لهم جميعاً، من غير ريب، ملء الحرية في أن يتلقوا الابتسامات من شفتي أية سيدة تعجبهم، من غير أن اشعر بأيما رغبة في النظر إلى هذا الصنيع وكأنّ له أيّة أهمية. بالنسبة إليّ».

– «أنت لا تعرفين الرجال في هذا القصر؟ أنت لم تتبادلي مع أحد منهم كلمة واحدة أو مقطعاً من كلمة؟ هل تستطيعين أن تقولي هذا عن رب القصر أيضاً؟»

- «إنه ليس في القمر الآن؟»

- «ملاحظة عميقة! ومغالطة ليس أبرع منها! لقد ذهب إلى ميلكوت هذا الصباح، ولسوف يؤوب الليلة، أو غداً: أيكون في هذه الواقعة ما يقصيه من لائحة معارفك... ما يمحوه - إذا جاز التعبير - من الوجود؟»

- «لا، ولكني لا أكاد أرى أي شأن لمستر روتشيستر بالموضوع الذي أثرِيه».

- «كنت أتحدث عن سيدات يتبسَّمن في عيون الرجال، وفي الفترة الأخيرة سُفِحب في عيني مستر روتشيستر ابتسامات لا تكاد تحصى، حتى لقد فاضتا مثل كأسين أترعتا على الثقة. ألم تلاحظي ذلك؟»

- «إن للمستر روتشيستر حقاً في الاستمتاع بمعاشرة ضيوفه».

- «لست أجادل في حقّه هذا. ولكن ألم تلاحظي أن مستر روتشيستر قد خُصَّ، من بين جميع الحكايات المروِيَة هنا عن الزواج، بالحكاية الأكثر حيوية وديمومة؟»

- «إن لهفة المستمع تجعل لسان المتحدث أكثر فصاحة ودراية» قلت ذلك لنفسي أكثر ممّا قلته للغجرية ألتي كانت قد وفقت الآن، بحديثها العجيب وبصوتها ومسلكها الغريبين، إلى أن تلفُّني بضرب من الحلْم. ذلك بأْن الجمل غير المتوقعة انطلقت من بين شفتيها واحدة إثر أخرى، حتى لقد علِقْتُ في شَرك من التعمية والإبهام، ورحت أتساءل: أيّة روح غير منظورة كانت تقعد طوال أسابيع على مقربة من قلبي، فهي تراقب أفعاله وتسجّل كل نبضة من نبضاته.

وكررت الغجرية: «لهفة المستمع! أجل، لقد جلس مستر روتشيستر ساعات وساعات مرهفاً أُذنه للشفتين الفاتنتين اللتين وجدتا أعظم البهجة في النهوض بمهمة التحدَث. وكان مستر روتشيستر راغباً أشدّ الرغبة في الاستماع، وكانت أمارات وجهه تنطق بأعمق الامتنان لما أُتيح له من لهو ماتع. هل لاحظتِ ذلك؟»

- «الامتنان! أنا لا أذكر أني تبيّنت إمارات الامتنان على وجهه».

– «تبينت! إذن فقد كنت تدرسين وجهه. وما الذي تبيَّنتهِ إن لم يكن ما تبيَّنته هو الامتنان؟»

ولم أنبس بكلمة.

– «لقد رأيت حباً.. أليس هذا صحيحاً؟ وإذ نظرتِ بعين الخيال إلى المجهول رأيتهِ وقد تَزوَّج، ورأيت زوجته ترفل في السعادة؟»

– «لا، ليس على وجه الدقة. إن براعتك في الكشف عن الطالع لتتردَّى في الخطأ، أحياناً».

– «وإذن فما الذي رأيته، بحقّ الشيطان؟»!

– «دعي عنك هذا. لقد جئت إلى هنا لكي أستطلع، لا لكي أعترف. هل صحيح أن مستر روتشيستر سوف يتزوّج؟»

– «نعم. ومن مس اينغرام الجميلة».

– «عمّا قريب؟»

– «إن المظاهر لتبرر مثل هذا الاستنتاج. ولا ريب (على الرغم من أنّك تشكين في ذلك، على ما يبدو، بوقاحة يجب أن تعاقبي عليها) في أنهما سوف يكونان أسعد زوجين في الوجود. إنه لا يستطيع إلا أن يحب مثل هذه. السيدة الوسيمة، النبيلة، الذكية المثقفة. وأرجح الظن أنها هي تحبه، أو تحب على الأقل أمواله إن لم تحب شخصه. أنا أعلم أنها تعتبر ممتلكات آل روتشيستر شيئاً مرغوباً فيه إلى أبعد الحدود، برغم أني (وليغفر الله لي) قد أخبرتها شيئاً عن هذه المسألة قبل ساعة تقريباً، شيئاً جعلها تبدو مغتمّة إلى حدّ عجيب، وجعل زوايا شفتيها تتدلّى نصف إنش. وإني لأنصح طالب يدها الأسمر أن يأخذ حذره. لأنها خليقة بأن تخذله وتتخلّى عنه حالما يتقدّم لخطبتها رجل آخر، قائمة إيجاراته أطول أو أكثر تحرّراً من القيود».

- «ولكني ما جئت، يا أماه، لأستمع إلى حديث عن طالع مستر روتشيستر. لقد أقبلت لأسمع إليك تتحدثين عن طالعي أنا. وها أنت ذي لم تنبئيني بأيما شيء عنه».

- «إنّ طالعك لا يزال حتّى الآن موضع شكّ. فحين تفرّست في وجهك ألفيت كلّ واحدة من أساريره تناقض الأخرى. لقد خصك القدر بقسط من السعادة: هذا شيء أعرفه. وإنما عرفته قبل أن أفد إلى هنا، - هذا المساء. لقد وضعه لكِ جانباً، بكثير من العناية. ولقد رأيته بأمٍّ عيني يفعل ذلك. إن أمر الفوز بتلك السعادة منوط بك وحدك، وليس عليك، إذا شئت اكتسابها، إلاّ أن تمدي يدك نحوها، وتستولي عليها. ولكن هل ستفعلين؟ تلك هي المشكلة التي أدرسها الآن. اركعي على السجادة كرة أخرى».

- «لا تبقيني راكعة فترة طويلة، إن النار تسفع وجهي».

ورجعتُ. ولم تنحن نحوي، ولكنها اكتفت بالتحديق إليّ، وهي غائصة في كرسيها. ثم شرعت تغمغم:

- «اللهب يتواثب في العين. والعين تلتمع كالندى. إنها تبدو رقيقة مفعمة بالإحساس، وهي تبتسم ساخرة من رطانتي. إنها سريعة التأثر. والانطباعة تتلو الانطباعة في صفحتها الصافية. وحيثما كفَّت عن الابتسام كان,الحزن أغلب عليها. إن كلل لا شعورياً ليُثْقِل جفنها، وهذا يدلّ على الكآبة الناشئة عن التوحّد. إنها تتحوّل عني، فهي لا تقوى على احتمال مزيد من التحرّي والدرس. إنها تبدو وكأنها تنكر، بنظرة ساخرة، صدق المكتشفات ألتي وفقْتُ إليها... وكأنها تنكر تهمتي الحساسية والحزن جميعاً. ولكن كبرياءها وتحفّظها لا يزيدانني إلا ثقة بصحِّة رأيي. إن العين لمسعفة.

«أما الفم فيعلن عن ابتهاجه، بين الفينة والفينة، بالضحك. إنه ميّال إلى الإفصاح عن كلّ ما يتصوّره الدماغ. برغم أني أستطيع القول إنه يؤثر الصمت عن كثير ممّا يخامر الفؤاد. إنه بما فطر عليه من نشاط ومرونة لم يُجْعَل لكي يبقى

أبد الدهر مكرهاً على صمت الوحدة السرمدي. إنه فم خلقته الطبيعة لكبي يتكتم كثيراً ولكي يبتسم في كثير من الأحيان، وهو يكنُّ حناناً إنسانياً لمن يوجُّه إليه الخطاب. هذه السمة مسعفة أيضاً.

«أنا لا أرى أي عدو للطالع السعيد إلا على صفحة الجبين. إن هذا الجبين يتظاهر بأنه يقول: – «في استطاعتي أن أحيا وحيداً، إذا ما دعاني احترام الذات ودعتني الظروف إلى مثل هذه الحياة. أنا في غير ما حاجة إلى أن أبيع روحي لأشتري الهناءة القصوى. إني لأملك كنزاً باطنياً وُلِد معي، كنزاً قادراً على إبقائي على قيد الحياة إذا ما حبِست عني جميع المسرّات الدخيلة أو إذا لم تقدَّم إليَّ إلا بثمن لا قِبَل لي بدفعه». ويتابع الجبين حديثه فيُعلن: «إن العقل لراسخ القدم مسيطر على الزمام، وهو لن يدع العواطف تنفجر وتسوقها إلى مهاوٍ آبدة. إنّ الأهواء قد تثور على نحو ضار كما يثور الوثنيون الحقيقيون، وإن الرغبات قد تتخيّل مختلف ضروب الأشداء الباطلة، ولكن سوف يظلّ هو صاحب الكلمة الفصل في كل مناقشة، وصاحب الصوت المرجَّح في كل قرار. وإن العاصفة الهوجاء، وصدمة الزلزال، والنار قد تلمُّ بي ولكنني سوف أهتدي بهدي ذلك الصوت الصغير الهادئ الذي يعبِّر عن أوامر الضمير».

«لقد تحدثت فأحسنت الحديث، أيها الجبين. وإن تصريحك سوف يكون موضع الاحترام. لقد وضعت خططي – وإني لأعتبرها خططاً صحيحة – وفيها أصغيت لدعاوي الضمير وإرشادات العقل. أنا أعلم مدى السرعة ألتي يذبل بها الشباب ويذوي بها ريعانه إذا ما اكتشف في كأس السعادة المقدَّم ثقاله واحدة من خزي أو نكهة واحدة من ندم. ولست أبغي التضحية، والأسى، والفسوق، فليس ذلك متناغماً مع مزاجي – أنا أريد أن أساعد لا أن أؤذي... أن أكسب عرفان الجميل لا أن أعتصر دموعاً من ماء... لا، ولا دموعاً من ماء مالح. إن حصادي يجب أن يتألف من ابتسامات، ومشاركات وجدانية، وخبرات عذبة سائغة. كفى – حسبي هذا – يخيَّل إلي أني أهذي في ضرب من البُحران اللذين إلى أبعد الحدود. وإن عليّ الآن أن أطيل هذه اللحظة إلى ما لا نهاية له، ولكنني لا أجرؤ على ذلك – لقد

سيطرت على نفسي، حتى الآن، أكمل سيطرة، ولقد عملت وفق ما عاهدت نفسي على أن أعمل، ولكن الذهاب إلى أبعد من ذلك قد يرهقني إرهاقاً يتجاوز طاقتي على الاحتمال. انهضي، يا مس ايير، وفارقيني. لقد تمَّت الرواية».

أين كنت؟ أكنت يقظى أم نائمة؟ هل كنت أحلم؟ وهل لا يزال حلمي مستمراً؟ كان صوت المرأة العجوز قد تغير: أصبحت نبرتها، وإيماءاتها، وكلّ ما فيها مألوفاً لديَّ كصورة وجهي أنا في مرآة... كحديث لساني أنا. ونهضت، ولكني لم أمض لسبيلي. وأجلت الطرف في ما حولي. وحرّكت جمرات المستوقد لكي أرى على نحو أفضل، وأجلت الطرف كرة أخرى. ولكنها أنزلت قلنسوتها فوق جبينها وأحكمت تطويق وجهها بالعصابة، وأومأت إليّ من جديد تأمرني بالرحيل. وأضاء اللهب يدها المبسوطة. وإذ كنت قد استعدت الآن رشدي، وأمسيت متيقّظة لمختلف صنوف الاكتشافات فقد لاحظت تلك اليد على التوّ. إنها لم تعد يد الشيخوخة الذاوية، إلا إذا كانت يدي أنا يد عجوز شمطاء. كانت ذراعاً رخصةً ملفونة، ذات أصابع رقيقة مفرغة في قالب الانسجام. وكان خاتم عريض يلتمع في خنصرها. وانحنيت إلى أمام، ورحت أحدِّق إليه، فبَصُرْت بجوهرة كنت قد رأيتها مئات المرابت من قبل. وعاودت النظر إلى الوجه نزْلة أخرى - إنه لم يعد معرضاً عني، لا، على العكس، كانت القلنسوة قد خُلِعت، وكانت العصابة قد أزيحت من موضعها، وكان الرأس ممالاً إلى ناحيتي.

وسألني الصوت المألوف: «حسناً، جَيْن، هل تعرفينني؟»

- «اخلع إذن هذه العباءة الحمراء، يا سيدي، وبعد ذلك...».

- «ولكن الشريط معقود، ساعديني...».

- «اقطعه، يا سيدي».

- «حسناً، إذن، فلأخرج من هذه الثياب المستعارة!» وخرج مستر روتشيستر من ملا يسه التنكرية.

- «أيّة فكرة عجيبة هذه التي خطرت لك، يا سيدي!».

- «ولكنها نُفّذت في براعة. ألا تقرينني على ذلك؟»

- «لا ريب في أنك أجدت تمثيل دورك. السيدات!»

- «ومعك، ألم أجد تمثيل دوري؟»

- «أنت لم تمثّل، معي، شخصية عجوز غجرية».

- «أيّة شخصية مثلك إذن؟ شخصيتي أنا؟»

- «لا. شخصية لا سبيل إلى تحديدها. وبكلمة موجزة، أعتقد أنك كنت تحاول أن تستدرجني. كنت تنطق بالهراء لكي تحملني على النطق بالهراء. وليس في هذا كبير إنصاف، يا سيدي»

- »هل تغفرين لي، يا جين؟»

- »ليس في إمكاني أن أُجيب إلا بعد أن أفكر في الأمر ملياً. فإذا أبدى لي التفكير أني لم أتورّط في أيما حماقة فاحشة فعندئذ ما سأحاول أن أغفر لك. ولكن ما أقدمت عليه لم يكن من العدل في شيء».

- «أوه! لقد كنت مثالية... كنتِ شديدة الحذر، كثيرة التعقُّل».

وقلّبت الرأي في المسألة، فبدا لي أني كنت، على الجملة، كما يقول. وسرَّي ذلك عني. والواقع أني قد أخذت حذري، منذ بدء المقابلة تقريباً. فقد حدّثني قلبي بأن في الأمر ضرباً من التنكّر المساخريّ. إذ كنت أعلم أن الغجريات وقارئات الكفّ لا يعبّرن عن أنفسهنّ على النحو الذي عبّرت به هذه العجوز عن نفسها. أضف إلى ذلك أنني كنت قد لاحظت صوتها المتكلّف وحرصها المضطرب على إخفاء أسارير وجهها. ولكن ذهني كان يتَّجه آنذاك إلى غرايس بول – تلك الأحجية الحية، أو لغز الألغاز كما كنت اعتبرها. أنا لم أفكر قط بمستر روتثيستر.

وقال: «حسنا، فيم تفكرين؟ أي شيء تعنيه هذه الابتسامة الرزينة؟»

– «الدهشة وتهنئة الذات، يا سيدي. أستطيع أن استأذنك في الانصراف، الآن، على ما أظن؟»

– «لا. ابقي لحظة، وقولي لي ما الذي يفعله القوم في حجرة الاستقبال؟»

– «أغلب الظن أنهم يتجادلون في أمر الغجرية».

– «اجلسي!.. دعيني أسمع ما الذي قالوه عني».

– «من الخير آن لا أطيل المكث هنا، يا سيدي. لقد قاربت الساعة الحادية عشرة، من غير ريب. آوه، هل تعلم، يا مستر روتشيتر، أن غريباً قد وفد على القصر بُعَيد رحيلك هذا الصباح؟»

– «غريب!... لا.. ومن تُراه يكون، هذا الغريب؟ أنا لم أتوقع قدوم أحد؟ هل مضى لسبيله؟»

– «لا، لقد زعم أنه يعرفك منذ عهد بعيد، وأن في ميسوره أن يُبيح لنفسه حرية الإقامة هنا ريثما تؤب».

– «يا للشيطان! هل أدلى إليكم باسمه؟»

– «إن اسمه مايسون، يا سيدي. ولقد أقبل من جزر الهند الغريبة،

من سانيشتاون، في جامايكا، على ما أظن».

كان مستر روتشيستر واقفاً على مقربة مني، وكان قد أخذ بيدي وكأنما يريد ان يقودني إلى كرسي. وفيما كنت أتكلم، ضغط على رسغي ضغطاً متشنجاً، وتجلّدت البسمة على شفتيه: لقد بدا وكأن تشنجاً قد استبدّ بنحْره فعلاً.

وقال في مثل اللهجة التي قد يخيَّل للمرء أن الإنسان الأوتوماتيكي يُطْلق بها كلماته المفردة: «ماسيون!... جزر الهند الغربية!» وكرِّر: أمايسون!... جزر الهند

الغربية!» وأعاد مقاطع هذه الكلمات ثلاث مرات وقد أمسى لون وجهه، وهو يتكلّم، أشد بياضاً من الرماد. وبدا وكأنه لا يكاد يفقه ما كان يفعل.

وسألته: «هل تستشعر أنك مريض، يا سيدي؟»

فترنّح قائلاً: «جين، لقد ألمَّت بي مصيبة، لقد ألمَّت بي مصيبة، يا جين!».

– »أوه! توكأ علي، يا سيدي».

– »جَيْن، لقد عرضت عليّ كتفك، ذات مرة. فدعيني أستند إليها الآن».

– »أجل، يا سيدي، أجل. وإلى ذراعي أيضاً».

وقعد، وأقعدني إلى جانبه. لقد أخذ يدي بين يديه الاثنتين، وانشأ يفكها التماساً للدفء، محدقاً إليّ في الوقت نفسه بنظرة ليس أحفل منها بالقلق والكآبة.

وقال: «يا صديقتي الصغيرة. أتمنى لو كنت أنا وأنت وحدنا في جزيرة هادئة. ولو أقصي – عني البلاء والخطر والذكريات الراعية.

– هل أستطيع أن أساعدك، يا سيدي؟ أنا على استعداد لأن أقدّم حياتي ثمناً لراحتك».

–.«جَيْن، إذا أحوجتني الظروف إلى مساعدة فإني سوف ألتمسها على يديك. أنا أعد بذلك».

– «شكراً، يا سيدي. قل لي ما الذي يجب عليّ أن أعمل... سوف أحاول، على الأقل، أن أعمل ما تأمرني به».

– «ائتيني الآن، يا جين، بكأس خمر من حجرة الطعام. إنهم سوف يكونون هناك، على مائدة العشاء. وأعلميني هل مايسون معهم، وما الذي يفعله؟»

ومضيت. فوجدت القوم كلهم في حجرة الطعام يتناولون عشاء منتصف الليل، كما كان روتشيستر قد قال. إنهم لم يكونوا جالسين إلى المائدة: كانت صنوف

الطعام قد مدَّت على البوفيه، وكان كل امرئ يتخيّر منها ما يشاء، وكان القوم واقفين جماعات جماعات، هنا وهناك، وفي أيديهم أطباقهم وكؤوسهم- لقد بدا كلّ منهم في جندل عارم، وكان الضحك شاملاً والحديث مشوباً. أما مستر مايسون فقد وقف على مقربة من النار: كان يتحدث إلى الكولونيل ومسز دينت، ولقد بدا مرحاً مثيما واحد منهم. وملأت أحد الكؤوس خمراً (لقد رأيتُ مس اينغرام تراقبني في عبوس، بينما كنت أصبُّ الخمر في الكأس. ويخيّل إلي أنها توهّمت أني كنت أتصرف في حرية ليست من حقي)، ثم عدت إلى حجرة المكتبة.

وكان الشحوب أقصي الذي ران على مستر روتشيستر قد زايل وجهه الآن، وقد اقعد استعادة سيماءه الحازم الصارمة. وتناول الكأس من يدي وقال:

- »إنّي أشربها في صحتك، أيتها الروح المؤاسية!» وتجرع ما اشتملت عليه من خمر ثم أعادها إليّ، قائلاً: «ما الذي يفعلونه، يا جين؟»

- «إنهم يضحكون ويتحدثون، يا سدي».

- «ألا تبدو على وجههم إمارات التفكير العميق والانشداه، وكأتما قد سمعوا حديثاً عجباً؟»

- «لا، على الإطلاق. أنهم يفيضون مزاحاً وبهجة».

-«ومايسون؟»

- «كان يضحك أيضاً».

- «لو أن هؤلاء القوم كلهم مشوا مِشية رجل واحد وبصقوا في وجهي، فما الذي تفعليته، يا جين؟»

- «أطردهم من الحجرة، يا سدي، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً». فتبسّم نصف ابتسام، ثم أضاف: «ولكن إذا تعين عليّ أن أمضي إليهم، فاكتفوا بالنظر إليّ في

برود وشرعوا يتهامسون في سخرية، ثم انسحبوا من الحجرة وغادروني واحداً إثر واحد.. ما الذي تفعلينه عندئذ؟ هل تهجرينني معهم؟»

– «لست أظن ذلك، يا سيدي: إن ابتهاجي خليق به أن يكون أعظم إذا بقيتُ معك».

– «لكي تسرّي عني؟»

– «أجل، يا سيدي، لكي أسري عنك، على أحسن وجه أستطيعه».

– «وإذا ما فرضوا عليك ضرْباً من الغنم لتعلُّقك بي؟»

– «أغلب الظن أني لن أعرف شيئا عن هذا الحرم. أما إذا عرفت فيجب أن لا أبالي به البتة».

– «وإذن، ففي ميسورك أن تتحدِّي العند والتعنيف من أجلي؟»

– «وإذن، ففي ميسوري أن أتحدّاهما من أجل أي صديق استحقّ ثقتي وولائي. وليس يخامرني ريب في انّك أنت قد استحققت منى ذلك».

– «ارجعي الآن إلى الحجرة. وتقدَّمي نحو مايسون في خطى خافتة، واهمسي في أذنه أن مستر روتشيستر قد عاد وأنه يحب أن يراه. ثم قوديه إلى هنا وانصرفي».

–.«سمعاً وطاعة، يا سدي».

ونزلت عند إرادته. فحدّق القوم كلهم إليّ وأنا أشقّ طريقي بينهم. وشخصت إلى مستر مايسون، وأبلغته الرسالة، وغادرت الحجرة أمامه. ثم إني أدخلته إلى المكتبة، وارتقيت السلم إلى الدور العلوي.

وفي ساعة متأخرة من الليل، وكان ذلك بعد أن أويت إلى فراشي بفترة ما، سمعت الضيوف ينقلبون إلى حجراتهم. وتبيّنت صوت مستر روتشيستر بين

الأصوات، وسعته يقول: «من هنا، يا مايسون. هذه. هي حجرتك».

لقد تحدِّث في بشر ومرح. فسرت النبرات البهيجة عني، وأوقعت الطمأنينة في فؤادي. وسرعان ما استسلمت للرقاد».

[20]

وكنت قد نسيت أن أسدل الستائر، وهو ما جرت به عادتي كلّ ليلة، أن أوصد أيضا مصراع نافذتي. فكان من آثار ذلك أن القمر، الذي كان بدراً ساطعاً (فقد كانت الليلة رائقة صافية السماء) لم يكد ينتهي في سراه. إلى رقعة من السماء مواجهة لنافذتي يطلّ عليّ من خلال زجاج النافذة غير المحجُّب حتى أيقظي تحديقه المجيد. وإذ أفقت في سكون الليل فقد فتحت عيني على قرصِهِ، الفضي البياض، البلوري الصفاء. كان جميلاً، ولكنه كان مهيباً أكثر مما ينبغي. واستويت في فراشي نصف جالسةٍ، وبسطت ذراعي وأسدلت الستارة.

– «يا إلهي! يا لها من صرخة رهيبة!»

فقد مزَّقت الليل، صمت الليل وسكونه، صرخةُ وحشية، حادة، مجلجلة، انطلقت من أقصي قصر ثورنفيلد إلى أقصاه.

وانقطع نبضي: لقد كف نلبي عن الحركة، وشُلّت ذراعي المبسوطة. وتلاشت الصرخة، ولم تتكرر. والواقع أن المخلوق الذي أطلق تلك الصرخة الرهيبة، أياً ما كان، لم يكن في ميسوره أن يكررها في سرعة : وإن أقوى النسور الفاحّة في جبال الانديز[1] لا يستطيع أن يطلق، مرتين متعاقبتين، مثل هذه الصرخة من السحابة التي تغطِّي فراخهُ. إن الشيء المطلِق مثل هذه الصيحة يجب أن يستريح قبل أن يُكرر الجهد الذي بذله في إرسالها.

(1) Andes سلسلة من الجبال الشاهقة في الجزء الغربي من أميركة الجنوبية.

لقد انبعثت من الدور الثالث، لأنها انقضّت من فوق سمت الرأس. وفوق سَمت الرأس – أجل، في الحجرة القائمة فوق سقف حجرتي مباشرة – سمعت الآن

صراعاً: كان صراعاً مميتاً، على ما يؤخذ من مدى الضجة. وصاح صوت نصفُ مكبوت: «النجدة! النجدة! النجدة!» ثلاث مرات على عجل. ثم أضاف: «ألن يأتي أحد؟» وبعد ذلك استطعت، فيما كان الترنح وضَرْبُ الأرجل مستمرين على نحو واسع، أن أتبين من خلال الجبس وألواح السقف الخشبية، صوتاً ينادي:

– «روتشيتر! روتشيتر! تعال، إكراماً لله!»

– وفُتح باب حجرة ما، وأنشأ رجل يعدو، أو يندفع، في الرواق. ووطئَت قدمان أخريان أرضية الحجرة العلوية، وسقط شيء ما، ثم ران الصمت.

ولبست بعض ثيابي، برغم أن الذعر أوقع الرعدة في أوصالي كلها. وانطلقت من حجرتي. كان النائمون كلهم قد أوقضوا رقادهم، وكانت أصداء الصيحات والغمغمات المروّعة تتردّد في كل حجرة. وراحت الأبواب تُفتح واحداً إثر واحد. وأطلّ منها شخص بعد شخص، وغصّ الرواق بالقوم. كان الرجال والسيدات على حد سواء قد هجروا مضاجعهم، وكانت أسئلتهم تنطلق، في اختلاط وتشويش، من كل ناحية: «أوه! ما المسألة؟» – «من الذي أوذي؟» – ماذا حدث؟» – «ائتوا بمصباح!» – «أهو حريق؟» – «وهل داهم القصر لصوص؟» – إلى أين يجب أن نفرّ؟» ولولا ضوء القمر إذن لوجدوا أنفسهم في ظلام كامل. وأنشئوا يجرون جيئة وذهاباً. وتعتقد بعضهم على بعض: لقد تنهدت منهم طائفة، وتعثَّرت تطائفه: وبلغ الاختلاط الذروة التي ما بعدها.

وصاح الكولونيل دينت: «ولكن أين روتشيستر، بحق الشيطان؟.أنا لم أجده في سرير».

فجاءه الجواب صائحاً: «هنا! هنا! اطمئنوا، كلّكم، أنا آت»

وفُتِحَ الباب الذي في أقصى الرواق، وتقدم مستر روتثيتر وفي يده شمعة. كان قد هبط، اللحظة، من الدور الأعلى. وهُرِعت إحدى السيدات نحوه، مباشرة، وأمسكت بذراعه: كانت هي مس اينغرام.

وقالت: «أيّة حادثة رهيبة وقعت؟ تكلّم! دعنا نعرف أسوأ ما في المسألة، في الحال!»

فأجابها: «ولكن لا تطرحنني أرضاً ولا تخنقنني».

ذلك بأن الآنستين ايشتون كانتا قد تعلّقتا به الآن، على حين كانت الأرملتان النبيلتان تندفعان نحوه بسرعة، في دثارين أبيضين فضفاضين، وكأنهما مركبان نُشِرت أشرعتهما كلها.

وصاح: «ليس ثمة ما يدعو إلى الذعر؛ ليس ثمة ما يدعو إلى الذعر!

إنها مجرد إعادة لرواية «ضجة كبيرة حول لا شيء»(1) أيتها السيدات، لا تقربن مني، وإلاّ غدوت خطِراً».

(1) «Much Ado About Nothings» مسرحيات معروفة من مسرحيات شكسبير.

لقد بدا خطِراً حقاً، وكانت عيناه السوداويان تقذفان الشرر، غير انه هدّأ من روعه، في كثير من الجهد، ثم أضاف:

– «لقد ألمَّ بإحدى الخادمات كابوسً، هذا كلَّ ما في الأمر. إنها مخلوقة سريعة الاهتياج عصيبة المزاج. ولبس من ريب في أنها تخيّلت في منامها أن شبحاً قد هاجمها، أو شيئاً من مثل ذلك، فعصفت بها نوبة من ذعر. والآن، يجب أن تنقلبوا كلكم إلى حجراتكم، إذ لن نستطيع أن نتدبَّر أمر الخادمة إلاَّ إذا هيمن السكون على القصر. أيها لسادة، تفضلوا بضرب المثل الصالح للسيدات. مس اينغرام، أنا واثق من أنّك سوف توفّقين إلى السيطرة على مخاوفك التي لا تجدي– وأنتما، يا آيمي ولويزا، ارجعا إلى عشّيكما مثل حمامتين، وإنكما لكذلك. أما أنتما يا سيدتي، (وهنا وجّه الخطاب إلى الأرملتين النبيلتين) «فسوف تصابان بالزكام – أؤكد لكما ذلك أشد توكيد – إذا لبثتما في هذا الرواق البارد فترة أطول».

وهكذا سعى جاهداً، من طريق التملّق حيناً وأصدر الأوامر حيناً،

إلى إعادتهم كلهم إلى مخادعهم المستقلّة• ولم أنتظر حتى يأمرني بالعودة إلى حجرتي، بل انسللت متكفئة إليها من غير أن يراني أحد، كشأني عندما غادرتها.

بيد أني لم أنكفئ لكي آوي إلى الفراش. على العكس، لقد شرعت أرتدي ملابسي في عناية. ذلك بأن الأصوات التي سمعتها بعد الصرخة، والكلمات التي نُطق بها، لم يسمعها في أغلب الظن – أحدً غيري، إذ كانت قد انبعثت من الحجرة القائمة فوق حجرتي مباشرة، ولكنها جعلتني على يقين من أن الذي أوقع الرعب في أرجاء القصر على هذا النحو لم يكن حلم خادمة، وأن التفسير الذي قدّمه مستر روتشيتر كان مجرِّد اختراع قصد به إلى طمأنة ضيوفه وتهدئة روعهم. لقد ارتديت ملابسي، إذن، لكي أكون على استعداد للطوارئ كلها. حتى إذا فرغت جلست برهة طويلة على مقربة من النافذة، ورحت أطلُّ على حدائق القصر الصامتة والحقول المفضّضة، وأنتظر شيئاً لم أكن أعرف كنهه. لقد بدا لي أن حادثة ما لا بد أن تعقب تلك الصرخة الغريبة، وذلك الصراع والنداء العجيبين.

ولكن السكون ما لبث أن ساد كرة أخرى، وشيئاً بعد شيء تلاشت الغمغمات كلها، والحركات. كلها. وما هي غير ساعة أو نحوها حتى غلب الهدوء، من جديد، على قصر ثورنفيلد فهو أشبه بصحراء مقفرة. لقد بدا وكأن الرقاد والليل استردا سيادتهما المطلقة. وفي غضون ذلك جنح القمر إلى الأفول، وكاد أن يتوارى بالحجاب. وإذ لم أرتح للجلوس في البرد والظلمة فقد بدا لي أن أضطجع. في فراشي، من غير أن أخلع ملابسي. وهكذا غادرت النافذة، ورحت أنقل الخطى، في أناة واحتراس، عبر السجادة. حتى إذا انحنيت لأخلع نعلي قرعت الباب، في رفق، يد حذرة.

وسألت: هل أنت في حاجة إلي؟»

فأجابني الصوت الذي توقّعت أن أسمعه، أعني صوت سيدي:

- «هل أنت يقظى؟»

- «نعم، يا سيدي»

- «وفي لباسك الكامل؟»

- «نعم».

- «اخرجي، إذن، في هدوء».

وامتثلت أمره، فإذا بي أجد مستر روتشيستر واقفاً في الرواق، وفي يده شمعة.

وقال: «أنا في حاجة إليك. تعالي من هنا. على رسلك، وحذار أن تحدثي ضجّة».

كانت نعلاي رفيقتين، وكان في ميسوري أن أجتاز أرض الحجرة المفروشة بالبُسُط في مثل خفة الهرة ورشاقتها. وانسلَّ هو عبر الرواق، ثم ارتقى السلم، ليقف بعدُ في المجاز المظلم الخفيض المنبسط في الدور الثالث المشؤم. وكنت قد تبعته، ووقفت بجانبه.

وسألني في صوت مهموس: «ألديك في حجرتك اسفنجة؟»

نعم، يا سيدي».

- «ألديك بعض الأملاح؟.. الأملاح الطيارة أعني؟»

- «نعم».

- «ارجعي وائتي بهما»

وانقلبت عائدة إلى حجرتي، فجئت بالإسفنجه من على المغسلة، وبالأملاح من درجي، ورجعت أدراجي كرة أخرى. كان لا يزال ينتظرني وفي يده مفتاح. وتقدّم نحو باب من الأبواب الصغيرة السوداء، وأدخل المفتاح في ثقب القفل، ثم تمهّل لحظة ووجَّه الخطاب إليّ من جديد:

– «هل يصيبك الدوار لمرأى الدم؟»

– «لست أظن ذلك. وعلى أيّة حال فأنا لم أجرب نفسي قبل اليوم» وسرت في أوصالي، وأنا أجيبه، رعشة. ولكني لم أشتعر أي برد أو إغماء.

وقال: «هاتِ يدك. فليس من الخير أن تتعرضي للإغماء».

ووضعت يدي في يده. فلاحظ قائلاً: إنها دافئة، رابطة الجأش». ثم أدار المفتاح، وفتح الباب.

عندئذ بصرتُ بحجرة تنكرتُ أني رأيتها من قبل، يوم صعدت بي مسز فيرفاكس إلى سطح القصر. كانت هذه الحجرة مزدانة بقطعة من قماش مزركش، ولكن هذه القطعة القماشية كانت الآن مرفوعة من جانب واحد، وقد بدا من ورائها باب كان آنذاك محجوباً. وكان ذلك الباب مفتوحاً، وكان ينبعث من الغرفة التي وراءه ضوء مصباح. ومن هناك تناهى إلى سمعي صوتٌ نابحٌ ناهشٌ. أشبه شيء بعواء كلب في غمرة شجار. وقال لي مستر روتشيستر وهو يضع شمعته: انتظري دقيقة!» وتقدم نحو الغرفة الداخلية. فاستقبلته لدى دخوله ضحكة بدأت صاخبة أوّل الأمر ثم انتهت بقهقهة غرايس بول نفسها: «ها! ها!» وإذن فقد كانت هي هناك. وأجرى بعض الترتيبات من غير أن ينطق بكلمة ما، برغم أني سمعت صوتاً خفيضاً يخاطبه. ثم إنه غادر الغرفة الداخلية وأوصد الباب خلفه.

وقال: «من هنا، يا جين!» فانعطف إلى الجانب الآخر من سرير ضخم حجب بأستاره المسدلة جزءاً غير يسير من الحجرة. وكان على مقربة من مقدم السرير كرسي ذو ذراعين جلس عليه رجل مرتدٍ كامل ملابسه، ما عدا السترة. كان ساكناً، وكان رأسه ممالاً إلى وراء، وكانت عيناه مغمضتين. وربع مستر روتشيستر الشمعة فوقه، فتبيّنت في وجهه الشاحب الخالي، في ما يبدو، من الحياة، مايسون الغريب، ورأيت أيضاً أن الغطاء الذي يحجب إحدى ذراعيه وأحد جنبيه كان يقطر دماً أو يكاد.

وقال مستر روتشيستر: «خذي الشمعة»، فتناولتها منه. وجاء بحوض ماء كان فوق المغسلة وقال: «أمسكي هذا». فامتثلت أمره. فأخذ لإسفنجة، وغمسها فيه وراح يبلّل الوجه الشبيه بوجه جثة. وسألني أن أناوله زجاجة الأملاح التي حملتها من حجرتي، فأدناها من منخري الرجل. وسرعان ما فتح مستر مايسون عينيه، وأنشأ يئن. وأزاح مستر روتشيستر قميص الرجل الجريح، وكانت ذراعه وكتفه مضمدتين. وبالإسفنجة، أخذ يمسح الدم المتدفّق في سرعة بالغة.

وغمغم مستر مايسون: «هل من خطر مباشر؟»

– «لا! لا! مجرّد خدش ليس غير. لا تستلم لليأس، أيها الرجل. تشي! سوف آتيك الآن بجرّاح.. أنا بنفسي. ولسوف يكون في ميسورك أن ترحل مع منبلج الصباح، في ما أرجو»

ثم وجه الخطاب إلي قائلاً: «جين!»

– «سيدي؟»

– «سوف يتعيّن علتي أن أتركك في هذه. الغرفة مع هذا الرجل، ساعة من الزمن، أو ربما ساعتين. ولسوف يكون عليك أن تسحي الدم، كما كنت أفعل، إذا ما تدفّق الدم من جديد. أما إذا أحس بإغماء فعندئذ ضعي على شفتيه كأس الماء التي ترينها فوق تلك المنضدة، وقتي أملاحك إلى أنفه. وحذار أن تتحنثي إليه مهما تكن الذريعة. أما أنت يا ريتشارد فإنّ أيما كلمة توجّهها إليها يمكن أن تعرِّض حياتك لأعظم الخطر. أنا لن أكن مسئولا عن العواقب إذا ما خطر لك أن تفتح شفتيك أو تتزحزح من موضعك».

ومرّة أخرى أنشأ الرجل البائس يئن: لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على. الحركة، لكأن الخوف – الخوف من الموت أو من شيء آخر – قد شلَّه أو كاد. ووضع مستر روتشيستر الاسفنجة، وكانت الآن مشبّعة بالدم، في. راحة يدي، ورحت أنا أفعل ما كان قد فعل. وراقبني لحظة، ثم غادر الحجرة قائلاً: «تذكري! لا أريد أي

حديث!» حتى إذا صرّ المفتاح في القفل، وتناءت خطاه المنسحبة فلم يعد في الإمكان سماعها أستبد بي شعور غريب.

وهكذا وجدت نفسي في الدور الثالث، مشدودةً إلى إحدى حجراته المجلببة بالألغاز. كان الليل يحيط بي من كل جانب، وكان المشهد الشاحب الدامي مسمَّراً تحت عينيَّ يديَّ، وكان بابٌ مفرد يفصلني، وما يكاد، عن امرأة فاتكة قاتلة. والحق أن هذه الواقعة الأخيرة كانت أفظع ما في الأمر كله وادعاه إلى الرعب: لقد كان في ميسوري أن أحتمل سائر الدواهي، ولكني ارتعدت لمجرد التفكير في غرايس بول وفي أنها قد تنقضّ علي

وأيّا ما كان، فقد تعيّن عليّ أن ألزم مكاني. إن عليّ أن أراقب هذا الوجه الشمعي، وهاتين الشفتين الزرقاوين الساكنتين المحظَّر عليهما أن تنفرجا، وهاتين العينين المفمضتين حيناً، المفتوحتين حيناً، الشاردتين عبر الحجرة طوراً، المركزتين عليّ تارة، والمزجّجتين أبداً بفتور الرعب. إن علي أن أغمس يدي مرة ومرة في حوض الدم والماء، وأن امسح الدم الناضح، وأن أرى إلى ضوء الشمعة غير المجردة من فتيلها المحترق يضمحل وأنا في غمرة العمل، إلى الظلال:تُعتِم على الستارة القماشية العتيقة من حولي، وترتعش ارتعاشاً غريباً على أبواب خزانة ضخمة قائمة تجاهي، خزانة كانت واجهتها المقسومة إلى اثني عشر لوحا مؤطَّراً تحمل، في تصميم كالح، رؤوس الرسل ألاثني عشر، وقد طوّق كلّ منها في لوحة المستقل وكأنه إطار، على حين ارتع فوقها جميعاً صليب من آبنوس ومسيح يلفظ أنفاسه.

وتبعاً لتخييم الظلمة المتنقلة هنا ولالتماع الوميض المختلج هناك كانت الصورة التي أُنيرت هي حيناً صورة لوقا، الطبيب الملتحي، وقد حني جبينه، وحيناً صورة القديس يوحنا وقد تماوج شعره الطويل، وحيناً وجه يهوذا الشيطاني وقد برز من اللوح المؤطّر وبدا وكأنه يستردّ عازب حياته ويتهدّد بالتكشف عن الخائن الأعظم – عن الشيطان نفسه – في صورة تابع ومرؤوسه.

ووسط هذا كلّه كان عليّ، بالإضافة إلى المراقبة، أن أرهف أذني في الإصغاء، الإصغاء إني حركات البهيمة المتوحشة أو العفريتة الجاثمة في جُحرها الجانبي، ولكنها بدت، منذ زيارة مستر روتشيستر، وكأن سحراً ما قد جمَّد نشاطها فأنا لم أسمع طوال الليل غير ثلاثة أصوات في ثلاث فترات متباعدة: وقع خطى على الأرضية الخشبية، وتجدد مؤقت للضجة الكلبية النابحة، وأنين بشري عميق

ثم إن أفكاري الخاصة شرعت تقلقني. أيّة جريمة كانت هذه الجريمة التي عاشت متقمّصة في هذا القصر المعزول، فليس في ميسور صاحبه أن يطردها أو يُخضعها؟

أي لغز كان ذلك اللغز الذي تفجّر نارا حيناً، ودماً حيناً، في جوف الليل البهيم؟ وأية مخلوقة كانت تلك المخلوقة المتنكّرة في صورة امرأة عادية والتي أطلقت صوت عفريتة ساخرة تارة، وهوت جارحة من جوارح الطير الباحثة عن الجيف طوراً؟

وهذا الرجل الذي انحنيت فوقه – هذا الغريب الهادئ المبتذل –كيف قُدِّر له أن يقع في شرك الرعب؟ وما الذي جعله ضحية الهياج المجنون؟ ما الذي ساقه إلى هذا الجزء من القصر في ساعة غير ملائمة كان يتعيُّن عليه فيها أن يستسلم للرقاد في فراشه؟ لقد سمعت مستر روتشيستر يفرد له حجرة في الدور الأسفل، فما الذي جاء به إلى هنا؟ ولماذا يتكشف الآن عن كل هذه الوداعة في ظل هذا العنف أو ذلك الغدر الذي أنزِل به؛ لماذا استسلم بمثل هذا الهدوء للتكتم الذي فرضه مستر روتشيستر عليه؟ ولماذا فرض مستر روتشيستر هذا التكتم؟ لقد اعتُدي على ضيفه، ولقد دُبرت في مناسة سابقة مؤامرة بشعة ضد حياته هو، ومع ذلك فقد خنق كلتا المحاولتين في الكتمان، وأغرقهما في النسيان! وأخيراً، لقد لاحظت أن مستر مايسون كان شديد الإذعان لمستر روتثيستر، وأن إرادة ا لأخير المتهورة كان لها سلطان كامل على سكون الأول وجموده، وهو ما أكّدته لي الكلمات القليلة التي دارت بينهما. كان واضحاً أن نزعة أحدهما المنفعلة كانت متعوّدة على الخضوع لطاقة الآخر الفاعلة، وإذن فمن أين نشأ الرعب الذي

استبدّ بمستر روتشيستر عندما سمع بمجيء مستر مايسون؟ لماذا سقط مجرد اسم هذا الفرد الذي لا يقاوِم – والذي استطاعت كلمة واحدة منه، هو روتشيستر، أن تسيطر عليه وكأنه طفل من الأطفال – على رأسه، قبل ساعات قليلة، مثل سقوط الصاعقة على شجرة سنديان؟

أوه! أنا لم أستطع أن أنسى هيئته وشحوب وجهه عندما همس: «جين، لقد ألمّت بي مصيبة... لقد ألمّت بي مصيبة، يا جين». ولم أستطع أن أنسى كيف ارتعدت الذرع التي أسندها إلى كتفي. إن حادثاً يستطيع أن يلوي على هذا النحو روح فيرفاكس روتشيتر العازمة وأن يهزّ جسده الجبّار لا يمكن أن يكون حادثاً عادياً بسيطاً.

– «متى سيأتي؟ متى سيأتي؟» هكذا رحت أصيح في أعماق نفسي عندما تباطأ الليل وتطاول... وعندما خارت قوى مريضي الجريح وأنشأ يئن ثم غاب عن الوعي. ولكن لا النهار جاء ولا النجدة وصلت. وكنت قد أدنيت الماء، كرة بعد كرة، إلى شفتي مايسون البيضاوين، وكرة بعد كرة قدَّمت إليه الأملاح المنبِّهة، ولكن جهودي كلها بدت عبثاً لا طائل تحته، فقد كان الألم الجسدي، أو الألم العقلي، أو نزف الدم، أو الثلاثة مجتمعة قد أنهكت قواه. لقد أنَّ أنيناً واهناً وبدا غريب النظرات شاردها إلى درجة خفت معها أن يكون قد دخل في النزع الأخير، وليس في ميسوري أن أوجّه إليه ولو كلمة واحدة!

وذابت الشمعة آخر ا لأمر ثم انطفأت. وفيما هي تلفظ أنفاسها الأخيرة لمحتُ شعاعات من نور رمادي تحاذي ستائر النافذة: كان الضحى يرتفع آنذاك. وما هي إلاّ لحظات حتّى سمعت بايلوت ينبح بعيداً خارج وجاره النائي في فناء القصر، فانبعث في نفسي ميتا لأمل. ولم يكن أملي ذاك في غير محله. فلم تكد تنقضي خمس دقائق أخرى حتّى أنبأني المفتاح الصارُّ والقفل المستسلم أني أُعفيت من مهمة المراقبة التي عُهد بها إليَّ. إن تلك المهمة لم تدم أكثر من ساعتين اثنتين بأية حال، ومع ذلك فقد بدت الأسابيع المتعددة أقصر منها.

ودخل مستر روتشيستر ودخل معه الطبيب الجراح الذي كان قد ذهب لاستدعائه.

وقال للطبيب: «والآن، يا كارتر، انتبه جيداً، إني أمنحك نصف ساعة ليس غير، تضمِّد خلالها الجرح، وتشدّ العصائب، وتنزل الجريح إلى الدور الأسفل وتتمّ كل شيء.»

-.«ولكن أهو قادر على الحركة، يا سيدي؟»

- «لا ريب في هذا. فليس الأمر بخطير البتّة. إنه عصبي المزاج، يجب أن نعمل على رفع معنوياته. هيا، باشر العمل».

وردّ مستر روتشيستر السارة الكثيفة، ورفع مصراع النافذة المصنوع من نسيج كتاني، مجيزاً لأكبر قدر من ضياء النهار النفاذ إلى الحجرة، فيما كنت أعجب أعظم العجب وأستشعر أعمق البهجة لرؤية المدى البعيد الذي بلغه ارتفاع الضحى والشعاعات الوردية التي شرعت تنير المشرق. ثم إنه تقدَّم نحو مايسون، وكان الطبيب قد بدأ في عمله.

وسأله مستر روتشيستر:«والآن كيف، يا صديقي الطيب؟»

فجاءه الجواب الواهن: «أخشى أن تكون قد قتلتني».

- «هراء! تشجّع! فلن ينقضي غير أسبوعين حتى يزول آخر أثر من آثار هذا البلاء. لقد فقدت بعض دمك، هذا كلّ ما هنالك. كارتر، أكِّدْ له أن ليس ثمة خطر على حياته».

فقال كارتر، الذي كان قد نزع الضمادات: أستطيع آن أؤكد له ذلك في اطمئنان وراحة ضمير، وإن كنت أتمنى لو استطعت الوصول إلى هنا بأسرع ممّا فعلت. ولو تمّ لي هذا، إذن لما نزف من دمه مثل هذا القدر كله. ولكن كيف كان ذلك؟ إن لحم الكتف ممزَّق ومجروح في آن معاً. هذا الجرح لم يُحدَث بمدية.. هل ما أرى آثار أسنان؟»

فغمغم: «لقد عضتني. لقد نهشتني مثل أنثى النمر، عندما انتزع روتشيستر المدية من يدها».

فقال مستر روتشيستر: «لم يكن من حقك أن تستسلم. كان جديراً بك أن تقاومها في الحال».

فأجابه مايسون: «ولكن ما الذي يستطيع المرء أن يفعله في ظروف كهذه؟» وتمهّل لحظة ثم أضاف وهو يرتعد: «أوه، لقد كان ذلك رهيباً، وما كنت أتوقعه البتّة. لقد بدت وادعة إلى أبعد الحدود بادئ الأمر».

فكان جواب صديقه: «لقد أنذرتك. لقد قلتُ لك: خذ حذرك عندما تدنو منها. وإلى هذا، فقد كان في ميسورك أن تنتظر حتى غد وأن تصطحبني إليها. ولقد كانت محاولتك مقابلتها الليلة، ومقابلتها منفرداً، مجرّد حماقة».

– «لقد حسبت أن في استطاعتي أن أؤدي خدمة ما».

– «لقد حسبت! لقد حسبت! أجل، إن الاستماع إليك ليضجرني. ولكنك قد دفعت الثمن، على أيّة حال، وأغلب الظن انّك صوف تواصل دفعه هلويلاً بسبب من عدم عملك بنصيحتي. وهكذا، فإني لن أتكلم أكثر مما فعلت. كارتر، عجِّل!... عجِّل! إن الشمس سوف تشرق عمّا قريب، ويتعيّن عليّ أن أرحِّله من هنا».

– «دقيقة أخرى ليس غير، يا سيدي. لقد فرغت اللحظة من تضميد الكتف. وعليَّ أن أعنى الآن بالجرح الآخر الذي في الذراع. لقد أنشبت أسنانها هنا أيضاً، في ما أعتقد».

فقال مايسون: «لقد امتصت دمي، وقالت إنها سوف تشرب دم قلبي كله».

ورأيت مستر روتشيستر يرتعد. لقد لفَّت محياه انطباعة صارخة ترشح بالتقزّز والرعب والكراهية، انطباعه كادت تلوي ذلك المحيا وتشوِّهه. ولكنه اكتفى بالقول:

– «دع عنك هذا، وألزم الصمت يا ريتشارد. انْسَ حديثها الأحمق، لا تكرره».

فكان الجواب: «ليتني أستطيع أن أنساه».

– «سوف تنساه حين تصبح خارج البلاد. أجل، حين ترجع إلى سبانيشتاون تستطيع أن تعتبر أنها ماتت ودُفنت، بل إنك لن تكون في حاجة إلى التفكير فيها البتة».

– «ولكن.ن المتعذّر عليّ أن أنسى هذه الليلة!»

– «إنّه غير متعذِّر: ليكن لديك شيء من عزم، أيها الرجل. لقد خيِّل لك منذ ساعتين ليس غير أنك ميت مثل سمكة رِنكة، وها أنت ذا الآن حي، وحي يتحدث أيضاً. انتبه!... لقد فرغ كارتر منك، أو كاد. ولسوف ألبسك ملابس لائقة بأسرع من لمح البصر. جين!..»(والتفت إلي للمرة الأولى منذ عودته إلى الحجرة) »خذي هذا المفتاح، واهبطي إلى حجرة نومي، وامضي إلى غرفة زينتي مباشرة، فافتحي الدرج الأعلى من أدراج خزانة الثياب واخرجي منه قمصاً نظيفاً ووشاح عنق، فاحمليهما إلى هنا، وكوني رشيقة خفيفة الحركة».

ومضيت، فالتمست المستوح الذي أشار إليه، وجئت بما كلّفني أن أجيء به، وانقلبت عائدة.

فقال: »والآن، امضي إلى الجانب الآخر من السرير ريثما أشرف على تغيير ملابسه. ولكن لا تغادري الحجرة، فقد نحتاج إليك من جديد».

فانسحبت إلى حيث أمرني.

وما هي إلاّ لحظة حتى سألني روتشيسستر: هل سمت أحداً يتحرك في الدور الأسفل، عندما هبطت إليه، يا جين؟»

–.»لا، يا سيدي، كان كلّ شيء ساكناً جداً».

- «سوف ننقلك من هنا في احتراس، يا «ديك». ولسوف يكون هذا أفضل... أفضل لك وللمخلوقة البائسة القابعة هناك. لقد سعيت طويلاً لاجتناب الفضيحة. ولست أريد أن تذهب جهودي كلّها عبثاً. والآن ساعده، يا كارتر، على ارتداء صدرته. أين تركت معطفك المُفرَّى؟ إنّك لا تستطيع أن تسافر ميلاً واحداً بدونه، أنا أعرف ذلك، في هذا الجو القارس اللعين. في حجرتك؟... جين! اهبطي في سرعة بالغة إلى حجرة مستر مايسون - الحجرة المحاذية لحجرتي - وائتيني بمعطف سوف ترينه هناك».

وأسرعت هابطة، كرة أخرى. ثم انقلبت عائدة كما فعلت أول مرة، حاملة معطفاً ضخماً بُطِّن ووشحت أطرافه بالفراء.

فقال سيدي، الذي لا يعرف التعب سبيلاً إلى نفسه: «جين، عندي مهمة أخرى أريد أن أعهد إليك بها - يجب أن تذهبي إلى حجرتي كرة أخرى. وعلى أيَّة حال فمن حسن الطالع أنك تنتعلين حذاء مخملياً، يا جين! فالرسول الجلف ليس يصْلح البتة في هذه الورطة. إن عليك ان تفتحي درج منضدة زينتي الأوسط وتخرجي منه قارورة صغيرة وكأساً صغيرة سوف تجدينهما هناك... هيا، أسرعي!»

وهرعت إلى هناك ثم انقلبت عائدة على جناح الرعة حاملة الوعاءين المطلوبين. فقال مسنر رونتشيستر:«حسن جداً. والآن، أيها الطبيب، سوف أجيز لنفي أن أقدَّم إليه بذاتي جرعة، أن أقدّمها على مسؤوليتي أنا. لقد فزت بهذا العقار المنبِّه في رومة، من دجال إيطالي.. وهو فتىً كان خليقاً بك لو رأيته، يا كارتر، أن ترفسه بقدمك. وعلى أية حال فليس هذا العقار من الضرب الذي يجوز استخدامه في غير روية أوتمييز، ولكنه مفيد في بعض المناسبات، كهذه المناسبة مثلاً. جين، هاتِ بقليل من الماء».

وبسط يده بالكأس الصغيرة فملأتها للنصف من زجاجة الماء التي كانت على المغسلة.

– «هذا كاف، والآن، أميلي القارورة حتى تترطّب شفتها بالشراب».

ففعلت. فأحمى اثنتي عشرة قطرة من سائل فرمزي، ثم قدَّم الكأس إلى مايسون، قائلاً: «اشرب، يا ريتشارد، إن هذا الشراب سوف يَهبَك الشجاعة التي تنقصك، طوال ساعة أو نحوها».

– «ولكن هل يعود عليّ ذلك بأذى ما؟ أهو مهيِّج؟

– «اشرب! اشرب! اشرب! »

وامتثل مستر مايسون للأمر، فقد كان واضحاً أن المقاومة لن تجديه نفعاً. كان في لباسه الكامل الآن، ولكنه ظل باديَ الشحوب، وإن لم يعد قذر المظهر، مضرَّجاً بالدم. وأجاز له مستر روتشيستر أن يمكث ثلاث دقائق بعد تجرّعه الشراب، ثم إنه امسك بذراعه وقال: »أنا واثق الآن من أن في استطاعتك الوقوف على قدميك. حاوِل ذلك!».

ونهض الجريح، وقال مستر روتشيستر : «أمسكْ به من ذراعه الأخرى، يا كارتر. هيا، تشجَّع، يا ريتشارد، واخطُ إلى أمام... هذا كل ما هنالك».

فلاحظ مستر مايسون: «إني أشعر فعلاً بشيء من التحسن».

– «أنا على مثل اليقين من ذلك. والآن، انطلقي أمامنا، في رشاقة، إلى السلم الخلفي، فارفعي مزلاج باب المجاز الجانبي وقولي لسائق عربة البريد الذي ستجدينه في فناء الدار – فقد طلبت إليه أن لا يجري بعجلاته المجلجلة فوق الطريق المعبّدة – أن يكون على استعداد. نحن قادمون. وإذا اتّفق لك، يا جين، أن شاهدت أحداً هناك فارجعي إلى أدنى السلم وتنحنحي».

كانت الساعة آنذاك قد بلغت الخامسة والنصف. ولكني ألفيتُ المطبخ مظلماً صامتاً، ما يزال. كان باب المجاز الجانبي موصداً بالمزلاج، ففتحته بأقل قدر من الضجة. كان السكون يرين على الفناء كله، ولكن باب القصر الخارجي كان مفتوحاً على مصراعيه، وكانت هناك عربة بريد، مُسْرجة الجياد، وحوذي متربع في

مقعده. فتقدمت نحوه، وقلت له إن القوم قادمون، فأومأ برأسه، ثم إنني أجلت الطرف في ما حولي بانتباه، وأنشأت أصغي. كان سكون الصباح الباكر ناعس الجفن في كل مكان، وكانت الستائر ما تزال مُسْدلة فوق نوافذ حجرة الخدم. كانت صغار الطير قد شرعت تزقزق في شجرات الحديقة المنوَّرة، التي تدلَّت أفنانها وكأنها أكاليل بيضاء فوق الجدار المطوَّق لجانب من جوانب الفِناء. وبين الفينة والفينة كانت جياد العربة تضرب الأرض بقوائمها، أما سائر الأشياء فكانت مستسلمة للسكون.

وبرز الرجال الثلاثة. لقد بدا لي أن مايسرن كان يمشي، مستنداً إلى مستر روتشيستر والجرَّاح، في يسْر غير قليل. ثم إنهما ساعداه على الصعود إلى العربة. وصعد كارتر من بعده.

وقال مستر روتشيستر لهذا الأخير: »اعتنِ به، وأبقه في منزلك حتى. يشفى. ولسوف أهبط عليك، ممتطياً صهوة جوادي، بعد يوم أو يومين، ابتغاء الاطمئنان عليه. كيف تجد نفسك الآن، يا ريتشارد؟«

– «إن الهواء الطلق ينعشني، يا فيرفاكس».

– «دع النافذة مفتوحة من ناحيته، يا كارتر، فليس ثمة ريح. وداعاً، ياديك».

–«فيرفاكس...».

– »حسناً، ماذا تريد أن تقول؟«

– »دعهم يُعْنَون بها. دعهم يعاملونها بأقصى ما يستطيعون من رفق. دعهم...»وكفَّ عن الكلام، وانفجر بالبكاء.

فكان الجواب: »سوف أبذل قصارى جهدي. لقد بذلته، ولسوف أستمر في بذله »وأغلق باب العربة، فمضت لسبيلها.

– »ومع ذلك فأنا أسأل الله أن يضع حداً لهذا كله!» كذلك أصاف مستر روتشيستر وهو يغلق باب الفِناء الثقيل يدعمه بالمزلاج. حتى إذا أتَّم ذلك تقدّم في خطى وئيدة وسيماء ذاهلة شاردة اللب نحو باب في الجدار المتاخم للحديقة. وإذ حسبت أنا أنه لم يعد في حاجة إليّ فقد أخذت أهبّتي للعودة إلى القصر. بيد أني سمعته يناديني من جديد: »جين!» كان قد فتح الباب ووقف عنده، في انتظاري.

وقال: »تعالي إلى حيث تجدين بعض النسائم العليلة، وقفي معي دقائق معدودات. إن ذلك المنزل لا يعدو أن يكون سجناً مظلماً. ألا تشعرين أنه كذلك؟»

– «إنه يبدو في ناظري قصراً فخماً، يا سيدي».

فأجابني: «إن سَدَر الغرارة واللاخبرة ليغشي عينيك. وإنك لترين إليه من خلال مرآة مسحورة: أنت لا تستطيعين أن تتبيّني أن مذهبَاته طينٌ لزج، وستائره الحريرية نسيج عنكبوت، وأن رخامه إردواز حقير، وأن رياشه المصقول مجرّد شظايا خشب مرذولة ولحاء شجر خسيس. أما هنا (وأشار إلى حظيرة مورقة كنا قد دخلناها) فكل شيء حقيقي، عذب، خالص».

وراح يمشي، هائماً، في مجاز تكتنفه أشجار البقس والتفاح والكمثرى، والكرز من جانب، ورقعة متطاولة حافلة بمختلف ضروب الرياحين التقليدية، وزهر المنثور، وقرنفل الشاعر، وآذان الدبِّ، وزهرة الثالوث (بانسيه) ممتزجة بنبات الشَّيْبة، وورد النسرين، ومختلف الأعشاب الفاغمة، من جانب آخر. لقد غدت الآن ناضرة بقدر ما يستطع تعاقبُ أمطار نيسان وإيماضاته المتألقة بين يدي صباح حلو من أصباح الربيع، آن ينَضِّرها. كانت الشمس قد أخذت تصعِّد، منذ لحظات، في سماء المشرق المرقَّشة، وكانت أشعتها تضيء شجرات الحديقة المكللة بالزهور المثقلة بالندى، وتنير ما امتدَّ. تحتها من ممرات هادئة وادعة.

–«هل تريدين زهرة، يا جين؟»

وقطف وردة نصف متفتحة، كانت هي أول ورود العُلّيفة، وقدّمها إليّ».

– «شكراً، يا سيدي».

– «أتحبين شروق الشمس هذا، يا جين؟ هذه السماء ذات السحب الشامخة الرقيقة التي لا بدّ أن تذوب حين يحور النهار دافئاً... وهذا الجو الوادع العليل؟»

– «أجل، يا سيدي».

– «لقد قضيت ليلة عجيبة، يا جين؟.

– «نعم، يا سيدي».

– «ولقد جعلت الشحوب يرين على وجهِك... هل أوجست خيفة حين خلَّفتك وحيدة مع مايسون؟»

– «لقد خفت آن يخرج شخص ما من الحجرة الداخلية».

– »ولكني كنت قد أوصدت الباب... وكان المفتاح في جيبي. لكنت راعياً مهملاً لو تركت حمَلاً – حملي الوديع المحبوب – من غير حراسة، على مثل ذلك القرب من وجار ذئب ضار. لقد كنتِ في مأمن».

– «وهل ستبقى غرايس بول مقيمة في القصر، يا سيدي؟»

– «أوه، نعم! لا تقلقي بالك بها... اطردي صورتها من ذهنك».

– «ومع ذلك يبدو لي أنك لن تنعم بالسلامة ما بقيَتْ هنا».

– «لا تخافي عليّ البتة، سوف أصون نفسي منها».

– «وهل زال الآن ذلك الخطر الذي خشِيْتَهُ الليلة البارحة، يا سيدي؟»

– «لا أستطيع أن أقطع بذلك إلاّ بعد أن يغادر مايسون إنكلترا، بل حتى بعد أن يغادرها. إن الحياة، بالنسبة إلي، يا جين، تعني الوقوف علي فوهة بركان قد ينفجر وينفث الحم في أيما يوم».

– «ولكن مستر مايسون يبدو رجلاً سهل القياد. وسلطانك عليه، ياسيدي لقوي إلى حدّ جلي. إنه لن يتحداك أبد الدهر، ولن يسعى إلى وإيذائك عامداً».

– «آوه، لا. إن مايسون لن يتحداني، لا، ولن يعمل على إيذائي عامداً. ولكنه قد حرمني في لحظة واحدة، وعن غير قصد منه، سعادة الحياة إلى الأبد، إن لم يحرمني الحياة نفسها، بكلمة واحدة تنذُّ، طائشة، من بين شفتيه»

– »قل له أن يلزم الحذر، يا سيدي. أشعِرْهُ بمخاوفك، وبيِّنْ له كيف يجتب الخطر».

فأرسل ضحكة صفراوية، وسارع إلى لإمساك بيدي ثم ما لبث أن أقصاها عنه بمثل السرعة التي أمسكها بها وقال: «لو استطعت أن أفعل ذلك، أيتها البلهاء، فأين يكمن الخطر عندئذ؟ إن الخطر خليق به أن يزول في مثل هذه الحال، في لحظة واحدة. لقد تعيَّن عليّ، منذ عرفت مايسون، أن أكتفي بأن أقول له: «افعل هذا ! » فيصدع بأمري. ولكنني لا أستطيع أن أوجه إليه أمراً كهذا. أنا لا أستطيع أن أقول له: »حذار أن تؤذيني، يا ريتشارد !» لأني أعتبر من الجوهري بالنسبة إليّ أن أبقيه جاهلاً أن إيذاء إيّاي أمر ممكن. أنا أرى الآن إمارات الدهشة على وجهك، وإني لن أزيدك مع الأيام إلاّ دهشاً على دهش. أنت صديقتي الصغيرة، أليس كذلك؟»

– «أنا أحب أن أخدمك يا سيدي، وأطيعك في كل ما هو حق».

– «على وجه الضبط، وأني لأراك تفعلين ذلك. أنا ألمح الرضا الأصيل في مشيتك وسيمائك، في عينيك ووجهك، حين تعملين من أجلي معي، العون توقعين في نفسي السرو – حين تعملين من أجلي، ومعي، في كل ما هو حق» كما عبرتِ أدق تعبير وأكثره تمييزً. إذ لو أمرتكِ بأن تفعلي ما تحسبينه باطلاً إذن لما كان ثمة جري خفيف القدم ولا رشاقة أنيقة اليد، ولا نظرة مشبوهة، ولا بشرة تمور بالحياة. وأذن لالتفتت صديقتي إليّ، رابطة الجأش شاحبة الوجه وقالت: لا، يا سيدي، هذا متعذّر. أنا لا أستطيع أن أقوم به، لأنه باطل». وعندئذ تلزم موقفها لا تتزحزح عنه

مثل نجمة ثابتة. حسناً، إن لك أنت أيضاً سلطاناً عليّ، وفي ميسورك أن تؤذيني: ومع ذلك فلست أجرؤ على إطلاعك على موطن الانجراح عندي، مخافة أن تعمدي إلى طعني في الحال، برغم ما يعمر نفسك نحوي من ولاء ومودّة».

– »إذا كان ما تخشاه من مستر مايسون لا يعدو ما تخشاه مني فانعم بطول سلامة، يا سيدي».

– «أسأل الله أن يكون الأمر كذلك. هنا تعريشة ظليلة، يا جين، فاجلسي».

وكانت التعريشة كناية عن قوس محفور في الجدار يكتنفه اللبلاب،

وكانت تظلل مقعداً ريفياً بسيطاً. فاستوي مستر روتشيستر عليه، تاركاً لي مكاناً فيه، بيد أنني بقيت واقفة أمامه.

وقال: »اجلسي. المقعد طويل يتّسع لشخصين. أنا لا أظنّك تترددين في الجلوس إلى جانبي، أليس كذلك؟ هل تعتبرين ذلك ضرباً من الباطل، يا جين؟»

فكان جوابي الجلوس. لقد بدا لي أن الرفض عملٌ تعوزه الحكمة.

– والآن، يا صديقتي الصغيرة، بينما تشرب الشمس الندى، بينما تستيقظ جمع الرياحين في هذه الحديقة العتيقة وتتفتّح، وبينما تلتمس الطير فطور فراخها في الحقول المنبسطة وراء ثورنفيلد، وبينما النحلات المبكرات يؤدّين أولى نوبات عملهن... سوف أبْسُط لك قضية، يتعيّن عليك أن تحاولي اعتبارها قضيتك أنت. ولكن انظري إليّ، أولاً، وقولي لي إنك مطمئنة، غير خائفة أن يكون في إبقائي إيّاك هنا أي–بأس، أو أن يكون في لقائك معي أي إثم».

– «لا، يا سيدي. أنا مطمئنة النفس».

– «حسناً، إذن، يا جين، التمسي العون من خيالك: افترضي أنّك ما عدت فتاة نشِّئَت على التمسّك بأهداب الخلق والنظام، ولكن فتى نُشِّئ في الدلال منذ أن كان طفلاً. تخيلي نفسك في أرض أجنبية نائية، وتصوري أنك ارتكبت هناك خطيئة

عظمى، أياً ما كانت طبيعتها أو الدوافع التي أفضت إليها، ولكنها خطيئة لا بد لعواقبها أن تلزمك مدى الحياة كما يلزمك طفلك، وأن تلوِّث وجودك كله. انتبهي جيداً، أنا لا أقول جريمة، أنا لا أتحدّث عن سفك دم أو أي عمل إجرامي آخر يعرِّض مقترفه لعقوبات القانون. لا، إن الكلمة التي استعملتها هي خطيئة. ومع الأيام تصبح نتائج ما فعلته لا تطاق بأية حال، فتتخذين إجراءات تستهدفين من ورائها بعض العَزاء: إجراءات غير عادية، ولكنها ليست غير قانونية وليست محرَّمة. ومع ذلك، يظل الشقاء حيفك، ذلك بأن الأمل قد هجرك منذ مطلع حياتك نفسه: إن شمسك ليغشاها ظلام الكسوف في منتصف النهار، وهو ظلام تحسين أنه لن يفارقها حتى صاعة الغروب. وما هي إلاّ فترة حتى تصبح المعاني المريرة والحقيرة هي غذاء ذاكرتك الأوحد: إنّك لتهيمين على وجهك ضاربة في الأرض، باحثة عن السلوان في ديار الغربة، ملتمسة السعادة في الملذّات – الملذّات الحسِّية، البهيمية، أعني – التي تبلِّد الفكر، وتصوِّح الشعور. ثم تنقلبين إلى أرض الوطن، بعد سنوات من النفي الاختياري، وفي بُرْدَيْك فؤاد مضنى، وروح ذابلة. وتنشئين صداقة جديدة، أما كيف وأين؟ فأمرٌ لا يقدّم ولا يؤخّر، وتجدين في هذا الغريب كثيراً من الصفات الخيِّرة المشرقة التي التمستها طوال عشرين عاماً، والتي لم تهتد إليها البتّة، وكلها صفات نضرة، معافاة، لا يشوبها دنس، ولا يصِمها عار. ومثل هذه الصحبة تحيي النفس،

وتجدِّد الفؤاد. وتستشعرين أن أياما أفضل تنتظرك، أياماً حافلة بأماني أسمى، وأحاسيس أطهر. وترغبين في استئناف حياتك من جديد، وفي إنفاق ما بقي لك من أيام بطريقة أجدر بمخلوقٍ غير فانٍ. فهل يبرُّر لك الحرص على بلوغ هذا الهدف أن تتخطِّي عقبة من عقبات العرف – مجرد حاجز تقليدي لا يقدِّسه ضميركِ ولا يقرِّه عقلك؟»

وتمهل انتظار الجواب، ولكن ما الذي كان يجدر بي أن أقول؟ أوه، لشدّ ما تقت آنذاك إلى روح من الأرواح الخيِّرة تسرُّ في أذني جواباً عاقلاً مرضياً! ولكن يا له من أمل لا طائل تحته! لقد شرعت ريح الغرب توشوش شجرات اللبلاب من

حولي، ولكن أيما روح رقيقة منجدة لم تستعر أنفاسها لتتّخذ منها وسيلة للكلام. وغرَّدت الطير في فنن الأشجار، ولكن تغريدها - برغم عذوبته كلها - كان أبكم ممتنعاً على الفهم.

ومرَّة أخرى طرح مستر روتشيستر سؤاله: «أيسَوَّغ لهذا الرجل الضال الآثم، ولكن الذي أمسى الآن تائباً يلتمس الراحة، أن يتحدّى رأي الناس لكي يشدّ إليه، مدى الحياة، هذا الغريب، الأنيس، الكريم، اللطيف، وبذلك يحقّق طمأنينة فؤاده ويوفّق إلى تجديد حياته؟»

فأجبت قائلة: «سيدي، إن راحة الضال وتوبة الآثم يجب أن لا يكونا، بأية حال، رهناً بمخلوق بشري، فالرجال والنساء يموتون، والفلاسفة يتلعثمون بالحكمة، والنصارى يترددون في العمل الصالح. فإذا كان بين معارفك امرؤ تألم وضلَّ عن سواء السبيل فدعهُ يتطلَّع إلى أعلى، ويلتمس القوة المُصْلِحَة والسلوان الشافي عند من هو فوق أقرانه جميعاً.»

- «ولكن هناك الوسيلة... الوسيلة! إن الله، الذي يخلق العمل، يفرض الوسيلة. لقد كنت أنا نفسي - وإني لأقول لك ذلك في غير مداورة - رجلاً قلق النفس، دنيوي الهوى، منغمساً في الملذّات، وأحسب أني وجدت الوسيلة إلى الشفاء، في...».

وأمسك عن الكلام. وواصلت الطير تغريدها، وأوراق الشجر حفيفها الواهن. وكدت أعجب لِمَ لم تقطع أغانيها ووشوشاتها لكي تتلقَّف هذا الاعتراف المعلَّق، ولكنها لو فعلت إذن لتعيّن عليها أن تنتظر دقائق متعددة - فقد تطاول الصمت إلى هذا الحد فعلاً. وأخيراً، رفعت بصري إلى المتحدث المتواني، فألفيته ينظر إليّ في شوق بالغ.

وقال في نبرة مختلفة كل الاختلاف، بينما تغيَّر وجهه أيضاً، فاقداً كل وقته وكآبته، ليمسي جافياً ساخراً: «أيتها الصديقة العزيزة، لقد لاحظتِ ولوعي الغض

بمس اينغرام، أفلا تعتقدين أنها قادرة، إذا ما تزوجت منها، على أن تجدِّد فؤادي في قوة وعزم؟»

ونهض في الحال ومضى إلى أقصى الطرف الآخر من المجاز، حتى إذا رجع سمعتُهُ يدندن بلحن من الألحان.

وقال، واقفاً أمامي: «جين، جين، لقد أورثك سهرك هذا الطويل شحوباً بالغاً. فهل ستلعنينني لإقلاقي راحتك؟»

– «ألعنك؟ لا، يا سيدي».

– «صافحيني، توكيداً لهذا العهد. يا للأصابع الباردة! لقد كانت

أشد دفئاً، الليلة البارحة، عندما لمستُها عند باب الحجرة التي تكتنفها الأسرار. جين، متى ستسهرين الليل معي مرّة أخرى؟»

– «كلما وجدتُ نفسي ذات نفع، يا سيدي».

– «عشية زواجي، مثلاً! أنا واثق من أنى لن أقوى، تلك الليلة، على النوم، فهل تعدينني بأن تسهري معي لكي ترافقيني؟ إن في استطاعتي أن أفضي إليك أنتِ بالحديث عن فتاتي المحبوبة، ذلك بأنك قد رأيتِها الآن وعرفتِها».

– «أجل، يا سيدي».

– «إنها نادرة المثال، أليس كذلك يا جين؟»

– «أجل، يا سيدي».

– «فتاة فارعة الطول قوية البنية، اجل يا جين. وهي ضخمة الجسم، سمراء، ممتلئة عافية، ذات شعر هو أشبه ما يكون بشعر سيدات قرطاجة. رباه! إني ألمح «دينت» و«لين» في الإسطبل. ارجعي إلى القصر عبر هذه الخميلة، ومن خلال ذلك البُوَيب».

ومضيت أنا من طريق، ومضى هو من طريق، وسمعته في الفِناء يقول في بِشْر وابتهاج:

– «كان مايسون أسبقكم جميعاً إلى النهوض هذا الصباح. لقد ارتحل قبل طلوع الشمس. ولقد أفقت في الساعة الرابعة لكي أكون في وداعه».

[21]

ما أعجب الهواجس! وما أعجب ضروب التحاسس والنُذُر! إن هذه الثلاثة مجتمعة لتؤلف لغزاً لمَّا تعثر البشرية حتّى الآن على مفتاحه. والواقع أني لم أسخر قط، طوال حياتي، من الهواجس لأني خبرتُ بنفسي صنوفاً منها غريبة. فهي، في اعتقادي، موجودة: (مثلاً، بين الأنسباء الذين باعدت ما بينهم المسافات، وتطاولت فترات غيابهم، فأمسوا غرباء بعضهم عن بعض بكل ما في الكلمة من معنى. إنهم يؤكدون – برغم تباعدهم – وحدة الأرومة التي يردون إليها أصلهم)، وان مفاعيله لتذهل العقل البشري. أما النذر فهي، بقَدْر ما نعرف، لا تعدو أن تكون مشاركة وجدانية من جانب الطبيعة نحو الإنسان.

حين كنت بُنيَّة لا يزيد عمري على ست سنوات سمعت بيسي ليفن تقول، ذات ليلة، لمارتا آبوت إنها رأت في ما يراه النائم طفلاً صغيراً، وإن رؤية الأطفال في المنام نذيرٌ لا يكذب بأن بلاء سوف يحلّ إما بصاحب الحلم أو بأحد أفراد أسرته. ولقد كان لهذا الكلام أن يمحى من ذاكرتي لو لم تَعْقُبْ ذلك مباشرة حادثة ساعدت على ترسيخه هناك فليس من سبيل إلى طمسه: لقد استدعيت بيسي في اليوم التالي، إلى بلدتها، لتشهد وفاة أختها الصغيرة.

لقد تذكرت هذا القول وتلك الحادثة، مرّات عديدة، في الفترة الأخيرة. إذ نادراً ما أمضيت الليل، خلال الأسبوع الماضي، من غير أن أرى في المنام طفلاً – طفلاً كنت في بعض الأحيان أُسْكته بين ذراعي، وفي بعضها أدلله فوق ركبتي، بعضها الآخر أراقبه وهو يلعب بضروب الأقاحي في مرجة خضراء، أو يبلل يديه بالماء الجاري. لقد كان طفلاً مسرفاً في العويل في ليلة، مشرق الأسارير بالضحك في ليلة، وكان يستكن على مقربة مني حيناً، ويعدوها هارباً مني حيناً. ولكن أيًّا ما

كان المزاج الذي تكشّف عنه ذلك الطيف وأيًّا ما كان المظهر الذي اتّخذه، فإنه لم يكف مرة عن الظهور، طوال سبع ليال متعاقبات، حال دخولي دنيا الرقاد.

ولم أرتح لهذا التكرار من جانب فكرة واحدة، لهذا التعاقب العجيب لصورة مفردة. فكانت أعصابي تتوتّر كلما دنا موعد الإيواء إلى الفراش وكلما دنت ساعة الرؤى والأحلام. والواقع أني أوقظت من صحبة ذلك الطيف – الطفل، في تلك الليلة المقمرة، عندما سممت الصرخة الرهيبة، حتى إذا كان أصيلُ اليوم التالي دعيتُ للهبوط إلى الدور الأسفل حيث كان شخص ما يريد مقابلتي في حجرة مسز فيرفاكس. وحين شخصت إلى هناك وجدت رجلاً ينتظرني، تبدو عليه إمارات خادم من خدم السادة. كان يرتدي ثوب حِداد داكناً، وكانت القبعة التي حملها بيده مطوّقة بعصابة من قماش أسود.

وقال واقفاً لي عندما دخلت: «أستطيع أن أقول إنك لا تكادين تتذكرينني، أيتها الآنسة. ولكن اسمي ليفن. لقد كنت أعمل حوذياً عند مسز ريد يوم كنت أنت في غايتسهيد قبل ثماني سنوات أو تسع، ولا أزال مقيماً هناك.

– «أوه، روبرت! كيف أنت؟ أنا أتذكرك جيداً. لقد كنت تجيز لي أحياناً أن أمتطي صهوة فرس مس جورجيانا، الضئيل الجسم، الكميت اللون. وكيف حال بيسي؟ لقد تزوجت من بيسي، أليس كذلك؟»

– «أجل، أيتها الآنسة. وزوجتي في صحة جيدة، شكراً. ولقد أنجبت لي طفلاً آخر منذ شهرين تقريباً – إن عندنا الآن ثلاثة أولاد – وكل من الأم والوليد في أحسن حال».

– «وهل الأسرة، هناك، في القصر في حال حسنة، يا روبرت؟»

– «يؤسفني أن لا أستطيع إعطاءك أنباء عنها أفضل، أيتها الآنسة. إنها الآن في أسوأ في حال... لقد ألمَّ بها خطب عظيم».

فقلت وأنا أنظر إلى ثوبه الأسود: «أرجو أن لا يكون أحدٌ قد مات!»

فخفض بصره إلى العصابة المطوَّقة قبعتهُ وأجابني قائلاً: «لقد مات مستر جون في مثل يوم أمس من الأسبوع المنصرم، في شقته بلندن».

– «مستر جون؟»

– «نعم».

– «وكيف تلقّت أمه هذه الضربة؟»

إن المصيبة، يا مس ايير، لم تكن مصيبة عادية، على أيّة حال. فقد كان يحيا حياة طائشة إلى أبعد الحدود، ولقد استسلم في السنوات الثلاث الأخيرة لمسالك عجيبة. وكان موته مروّعاً حقاً.»

– «لقد سمعت من بيسي أنه لم يكن حسن السيرة».

– «حسن السيرة! إن سيرته ما كان يمكن أن تكون أسوأ ممّا كانت. لقد أتلفت صد
حّته وأمواله بمعاشرة أسوأ الرجال، وأسوأ النساء. ولقد رزح تحت أعباء الديون وأُ
لقي به في غياهب السجن. ومرتين اثنتين مدّت إليه أمه يد العون، ولكنه كان لا يكاد يغادر السجن حتى ينقلب إلى رفاقه القدماء، ويعود سيرته الأولى. إنه لم يكن ذا روية وتعقُّل، ولقد خدعه القوم اللئام الذين عاش بين ظهرانيهم خداعاً لم أسمع بمثله من قبل ومنذ ثلاثة أسابيع تقريباً وفد على غايتسهيد وطلب إلى سيدتي أن تتنازل له عن كلّ شيء. ولكن. سيدتي رفضت: ذلك أن إسرافه كان قد استنزف مرادها أو كاد. فعاد من حيث أتى، وكان أول نبأ جاءنا عنه بعد ذلك هو نعيه. أما كيف مات فهذا شيء لا يعلمه إلاّ الله ا... ولكن هناك من يقول إنه انتحر».

واعتصمت بالصمت، فقد كان النبأ رهيباً. واستأنف روبرت ليفن حديثه قال:

– «كانت صحة سيدتي نفسها قد اعتلت فترة من الزمان: لقد أمست بدينة جداً، ولكن ذلك لم يكن دليل قوة وعافية، ثم إن ما مُنِيت به من نقص في الأموال وما

اعتراها من خوف الفقر كانا قد قصما ظهرها قصماً. وعلى حين
غ
رّ
ة
ج
ا
ء
ه
ا
ذ
ع
ي
م
س
ت
ر
ج
و
ن
و
ا
ل
ط
ر
ي

قة التي لقي بها حتفه، فكانت الص

د
م
ة
أ
ع
ن
ف
م
ن
أ
ن
تُ

طاق. لقد اعتُقِل لسانها ثلاثة أيام متواليات، ولكن حالها تحسَّنت، يوم الثلاثاء الماضي، بعض الشيء: لقد بدت وكأنها تريد أن تقول شيئاً، وراحت تومئ لزوجتي وتتمتم على نحو موصول. ولم تفهم بيسي، إلاّ صباح أمس، أنها كانت تلفظ اسمك. وأخيراً أدركت أنها تقول: «ائتوني بجين... ابحثوا عن جين ايير... أنا أريد أن أتحدّث إليها». وبيسي ليست واثقة من أنها كانت في كامل قواها العقلية، وغير موقنة من أنها عنت بهذه الكلمات شيئاً ما. ولكنها أنبأت الآنسة ريد والآنسة جورجيانا بذلك، ونصحتهما باستدعائك. وأبت السيدتان الشابتان أن تعملا، بادئ الأمر، وفق هذه النصيحة. ولكن القلق غلب على أمهما إلى أبعد حد، فأنشأت تقول: «جين! جين!» على نحو مكروه حملهما آخر الأمر على الموافقة. لقد غادرتُ غايتسهيد أمس، وإني

لأحب أن أعود بك إلى هناك، في ضحى الغد، إن استطعتِ أن تكوني آنذاك على أتمّ الاستعداد للرحلة».

- «أجل، يا روبرت. سوف أكون على أتمّ الاستعداد. يبدو لي أن واجبي يقتضيني الذهاب».

- «وأنا أظن ذلك أيضاً، أيتها الآنسة. لقد قالت بيسي إنها على يقين من أنك لن ترفضي. ولكني أحسب أن عليك أن تلتمسي الإذن بالرحيل قبل أن توفَّقي إلى الذهاب».

- «أجل، ولسوف أفعل ذلك الآن».

حتى إذا قدته إلى حجرة الخدم وعهدت إلى زوجة جون، وإلى جون نفسه، في العناية به، رحت أبحث عن مستر روتشيسر.

إنه لم يكن في أي من الحجرات الدنيا، ولم يكن في الفِناء، أو في الإسطبل، أو في الأرض الواسعة المحيطة بالقصر. وسألت مسز فيرفاكس هل رأته، فقالت نعم، وعبّرت عن اعتقادها بأنه كان يلعب البليارد مع مس اينغرام. فهرعت إلى حجرة البليارد: كانت أصداء التصادم بين الكرات والأصوات المختلطة المبهمة تنبعث من هناك، وكان مستر روتشيستر ومس اينغرام والآنستان ايشتون والمعجبون بهن منهمكين كلهم في اللعبة. وكان إزعاج مثل هذه الجماعة المستغرقة في لهوها أمراً يحتاج إلى بعض الشجاعة. ولكن مهمتي كانت مما يتعذّر عليَّ إرجاؤه، وهكذا تقدّمت نحو رب القصر، وكان واقفاً بجانب مس اينغرام. حتى إذا اقتربت منه التفتت إليّ وحدجتني بنظرة متشامخة: لقد بدت عيناها وكأنهما تسألان: «أي شيء يمكن لهذه المخلوقة الزاحفة أن تطلبه في مثل هذا الوقت؟» وحين قلت في صوت خفيض: «مستر روتشيستر» أتت بحركة أوقعت في نفسي أنّها تودّ لو تطردني من الحجرة. أنا أتذكر حتى الآن كيف كان مظهرها في تلك اللحظة. كان جميلاً جداً وفاتناً جداً: لقد ارتدت ثوب صباح مخيطاً من «كريب» أزرق بلون السماء، وعقصت إلى شعرها وشاحاً لازوردياً شفافاً. كان اللعب قد استأثر بكامل حيويتها، ولم تطأ من الكبرياءُ المثارةُ من أساريرها الناطقة بالتشامخ والعجرفة.

وسألت مستر روتشيستر: «هل هذه المخلوقة تريدك؟» فالتفت مستر روتشيستر ليرى من كانت تلك «المخلوقة». فلوى فمه على نحو غريب – وهي إحدى طرائقه العجيبة المبهمة في إظهار الشعور – ثم طرح عصا البليارد وتبعني إلى خارج الحجرة.

وقال، وهو يُسند ظهره إلى باب حجرة الدراسة، وكان قد أغلقه: «حسناً، ماذا يا جين؟»

– «إني أرجو أن تمنحني، يا سيدي، إجازة أسبوع أو أسبوعان».

– «وما تريدين أن تفعلي فيها؟ وإلى أين سوف تذهبين خلالها؟»

– «أريد أن أعود سيدة مريضة أرسلت في طلبي».

– «أيّة سيدة مريضة؟... وأين تقيم هذه السيدة؟»

– «في غايتسهيد في إقليم...».

– ««إقليم؟... إنه يقع على مبعدة مئة ميل من هنا! ومن تكون هذه السيدة التي تُكلّف الناس أن يجتازوا هذه المسافة الشاسعة لكي يروها؟»

– «إن اسمها ريد، يا سيدي... مسز ريد»

– «من آل ريد الغايتسهيديين؟ كان ثمة قاض من آل ريد الغايتسهيديين هؤلاء».

– «إنها أرملته، يا سيدي».

– «وأي شأن لك بها؟ كيف اتّفق لك أن عرفتها؟»

– «لقد كان مستر ريد خالي، شقيق أمي».

– «يا للشيطان! إنّك لم تنبئيني بهذا قط من قبل. لقد كنت دائماً تقولين لي إنّك فتاة لا أنسباء لها».

– «أجل، ليس لي أنسباء يعترفون بأني واحدة منهم، يا سيدي. فقد تُوفي مستر ريد، ولقد نبذتني زوجته».

– «لماذا؟»

– «لأني كنت فقيرة، متعِبة، ولأنها كانت تكرهني».

– «ولكن ريد ترك أولاداً، ولا بد أن يكون لك أبناء خال، ولقد كان السير جورج لين، يتحدّث، أمس، عن واحد من آل ريد الغايتسهيديين... كان، على حدّ قوله، واحداً من أخبث أوغاد البلدة على الإطلاق. وكانت الآنسة اينغرام تتحدث من فتاة من الموطن نفسه تدعي جورجيانا ريد كان جمالها موضع إعجاب عظيم في لندن منذ فصل أو فصلين».

– «لقد توفي جون ريد أيضاً، يا سيدي، بعد أن أضاع أمواله وكاد يضيع أموال أسرته. ومن المفروض أنه مات منتحراً. ولقد وقع النبأ على أمه موقعاً شديداً أُصيبت على أثره بالفالج».

– «وأي نفع تستطيعين أنت أن تُسديه إليها؟ هراء، يا جين! لو كنت مكانك لما فكرت لحظة واحدة في اجتياز مئة ميل لكي أرى سيدة عجوزاً قد تقضي نحبها – فمن يدري؟ – قبل أن أصل إليها. وإلى هذا، فأنت تقولين إنها نبذتك».

– «نعم، يا سيدي، ولكن ذلك كان منذ فترة بعيدة، ويوم كانت ظروفها مختلفة جداً عن ظروفها الحالية. إن وجداني لن يرتاح إذا أغفلتُ رغباتها الآن».

– «وكم سوف تلبثين؟»

– «أقصر مدة مستطاعة، يا سيدي».

– «عديني بأن تلبثي أسبوعاً واحداً ليس غير....»

– «من الخير لي أن لا أعدك بشيء. فقد أضطر إلى الحنث في الوعد».

– «إنّك سوف تعودين، على أيَّة حال، ولن تغْرَىْ، مهما تكن الذريعة، بالإقامة الدائمة إلى جانبها؟»

– «أوه، لا! سوف أعود من غير ريب إذا جرى كل شيء وفق المرام».

– «ولكن من سيذهب معك؟ إنك لا تستطيعين السفر وحدك مسافة مئة ميل».

– «لا، يا سيدي. لقد أرسلت إليّ حوذيها».

– «وهل هو موضع ثقة؟»

– «أجل يا سيدي. لقد عاش مع الأسرة عشر سنوات كاملة».

ففكر مستر روتشيستر لحظة، ثم قال: «ومتى ترغبين في الرحيل؟»

– «في ضحى الغد، يا سيدي.»

– «حسناً، يجب أن تتزودّي بشيء من المال. إنك لا تستطيعين السفر من غير مال، وفي ميسوري أن أقول إنّ ما عندك من ذلك ليس بكثير. فأنا لم أدفع إليك أيما راتب حتى الآن». وتبسَّم ضاحكاً وسألني: «كم تملكين من حطام الدنيا، يا جين؟»

فأخرجت كيس دراهمي، وكان هزيلاً جداً. ثم قلت: «خمسة شلنات يا سيدي». فأخذ الكيس، وأفرغ ذخيرته في راحة يده، وأنشأ يضحك وكأن هزالها أوقع السرور في نفسه. ثم إنه سارع إلى إخراج حافظة نقوده، وقال وهو يقدِّم إليّ ورقة مالية: «دونك هذه!» كانت ورقة من فئة الخمسين جنيهاً، وكانت المدّة التي سلختها في تعليم آديل تجعله مديناً لي بخمسة عشر جنيهاً ليس غير. فقلت له إني لا أملك من قطع النقد الصغيرة ما يساعدني على ردّ بقية الحساب إليه.

– «أنا لا أريد هذه البقية، أنت تعرفين ذلك. هذه الخمسون جنيهاً هي أجرك».

ورفضت أن آخذ أكثر من حقي، فزوى ما بين حاجبيه، بادئ الأمر، ثم قال وكأنما تذكّر شيئاً:

– «صحيح، صحيح! من الخير لي أن لا أعطيك أجرّك كله الآن من يدري، فقد تمكثين هناك ثلاثة أشهر إذا كان معك خمسون جنيهاً. دونك عشرة جنيهات، أليس هذا كافياً وزيادة؟»

– «نعم، يا سيدي. ولكنك مدين لي، الآن، بخمسة».

– «ارجعي إذن من أجلها. أما الأربعون جنيهاً الباقية فسوف أعتبرها وديعة لك قي خزائن «مصرفي».

– «مستر روتشيستر، سوف أُجيز لنفسي أن أتحدّث إليك في مسألة أخرى من مسائل العمل ما دمت أجد الفرصة سانحة».

– «مسألة من مسائل العمل؟ إني مشوق إلى سماع حديثها».

– «لقد تلطّفت بإنبائي، يا سيدي، أنك على أهبّة الزواج؟»

– «أجل، ثم ماذا؟»

– «في هذه الحال، يا سيدي، يتعيّن على آديل أن تذهب إلى المدرسة. أنا واثقة من أنّك سوف تدرك الحاجة إلى ذلك»

– «لكي أبعدها من طريق عروسي، التي قد تدوسها، إن لم أفعل، بقدميها في قسوة بالغة. إن اقتراحك منطقي، هذا أمرٌ لا ريب فيه: يتعيَّن على آديل، كما تقولين، أن تذهب إلى المدرسة، وأنت، طبعاً، يتعيّن عليك أن تذهبي مباشرة... إلى الشيطان؟»

– «أرجو أن لا أنتهي إلى ذلك، يا سيدي. ولكن عليّ أن أبحث عن وظيفة أخرى في مكان ما».

– «على التوالي!» كذلك هتف في خنَّة صوت والتواء قَسَمات يثيران الاستغراب بقدر ما يبعثان على الضحك. ثم نظر إليّ بضع دقائق.

وأخيراً قال: «ولسوف تتوسلين إلى السيدة ريد العجوز أو إلى الآنستين، ابنتيها، أن يبحثن لك عن وظيفة، في ما أعتقد؟»

– «لا، يا سيدي. إن صِلاتي مع أنسائي ليست طيّبة إلى حد يسوِّغ لي أن ألتمس منهن إسداء مثل هذا المعروف إليّ. ولكني سوف أعلن في الصحف».

فدمدم قائلاً: «ولسوف تتسلقين أهرام مصر! إنّك سوف تعلنين، غير حاسبة حساباً للأخطار التي ستتعرضين لها! ليتني أعطيتك جنيهاً واحداً بدلاً من عشرة جنيهات. ردِّي إليّ تسعة جنيهات، يا جين. إني لفي حاجة إليها».

– «وأنا كذلك، يا سيدي». ووضعت يدي وكيس دراهمي وراء ظهري. «إني لا أستطيع الاستغناء عنها بأية حال».

فقال: «أيتها الشحيحة الصغيرة! أترفضين لي طلباً مالياً؟ أعطيني خمسة جنيهات، يا جين!»

– «ولا خمسة شلنات، يا سيدي. حتى ولا خمسة بنسات».

– «إذن دعيني أنظر إلى نقودك مجرّد نظر».

– «لا، يا سيدي، ليس من حسن الرأي أن أثق بك».

– «جين!»

– «سيدي؟»

– «عديني بشيء واحد».

– «سوف أعدك، يا سيدي، دائما شيء أعتقد أن في ميسوري أداءه».

– «عديني بأن لا تُعلني في الصحف، وأن تعهدي إليّ أنا بمهمة البحث هذه عن وظيفة جديدة. سوف أجد لك واحدة في الوقت المناسب».

– «سوف أكون سعيدة بأن أفعل ذلك، يا سيدي، إذا وعدتني أنت بدورك بأن أغادر أنا وآديل القصر قبل أن تدخله عروسك»

– «حسن جداً! حسن، جداً! إني أُعاهدك على ذلك. سوف تسافرين غداً، إذن؟»

– «نعم، يا سيدي، وفي ساعة مبكرة».

– «هل ستهبطين إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء؟»

– «لا، يا سيدي. إنّ علي أن أتأهّب للرحلة».

– «إذن، فإن على كل واحد منَّا أن يودّع الآخر لفترة قصيرة، أليس كذلك؟»

– «أحسب ذلك، يا سيدي».

– «وكيف يؤدي الناس شعائر الفراق، يا جين؟ علميني، أنا شديد الجهل في هذه الأمور».

– «إنهم يقولون: وداعاً، أو أية صيغة أخرى يفضّلونها».

– «إذن قولي هذه الكلمة».

– «وداعاً يا مستر روتشيستر، مؤقتاً».

– «وما الذي يجب أن أقوله أنا؟»

– «الشيء نفسه، إذا شئت، يا سيدي».

– «وداعاً، يا مس ايير، مؤقتاً: أهذا كل شيء؟»

– «نعم».

– «هذا يبدو – في رأيي – شحيحاً، جافاً، وغير ودي. وإني لأؤثر شيئاً آخر: إضافة صغيرة إلى هذه. الشعيرة المقدّسة. لو أردفنا ذلك بالمصافحة، مثلاً. ولكن

لا... حتى هذا لن يرضيني أيضاً. وإذن، فلن تأتي أيما شيء غير التلفّظ بكلمة وداعاً، يا جين؟»

– «إنها كافية، يا سيدي، على اعتبار أن كلمة واحدة صادرة من القلب يمكن أن تُحَمَّل من معاني المودّة مقدار ما تتّسع له الكلمات العديدة».

– «هذا محتمل جداً. ولكن «وداعاً» هذه لفضلة جوفاء، فاترة».

وسألت نفسي:.«إلى متى سيظل واقفاً على هذا النحو وظهره إلى الباب؟ إني أريد أن أشرع في حزم أمتعتي».

وهنا رنّ جرس العشاء. فولّى مدبراً، على نحو مفاجئ من غير أن ينطق ولو بمقطع من كلمة. ولم أره. بعد هذا خلال ذلك اليوم، ثم ارتحلت قبل أن يستيقظ في الصباح التالي.

وبلغت كوخ البواب، في قصر غايتسهيد، حوالي الساعة الخامسة من أصيل أول نوار (مايو). فدخلته قبل أن أمضي إلى القصر. كان بالغ النظافة والترتيب، وكانت ستائر صغيرة بيضاء تتدلّي من نوافذه الزخرفية. لقد بدت أرضه مبرَّأة من أية لطخة أو شائبة، وبدا الموقد وأدواته مصقولة على نحو لمـّاع، في حين اضطرمت النار وهَّاجة لا أثر فيها لدخان كانت بيسي جالسة على مقربة من الموقد، ترضع مولودها الأخير، وكان روبرت وأخته يلعبان في هدوء، في إحدى الزوايا.

فهتفت مسز ليفن عندما دخلت عليها: «فليباركك الله!.. كنت واثقة من أنك ستأتين!».

فقلت، بعد أن قبَّلتها: «نعم، يا بيسي. آملُ أن لا أكون قد تأخرت أكثر مما ينبغي. كيف حال مسز ريد؟ إنها ما تزال على قيد الحياة، في ما أرجو».

– «أجل، إنها على قيد الحياة. وأشدّ وعياً ورباطة جأش ممّا كانت من قبل. والطبيب يقول إنها قد تعيش أسبوعاً آخر أو أسبوعين آخرين، ولكنه يكاد يجزم

بأنها لن تشفى نهائياً».

- «هل ذكرتني في الفترة الأخيرة؟»

- «كانت تتحدث عنك صباح هذا اليوم بالذات، متمنية لو تأتين. ولكنها نائمة الآن، أو أنها كانت نائمة منذ عشر دقائق، حين كنت في القصر. إنها تقضي الأصيل كله، عادة، وهي مستغرقة في نوم عميق، ثم تستيقظ حوالي الساعة السادسة أو السابعة. هل لك أن تستريحي هنا، ساعة، أيتها الآنسة، وبعد ذلك أصعد معك إلى القصر؟»

وفي هذه اللحظة دخل روبرت، فوضعت بيسي وليدها النائم في المهد، ومضت لترحّب به. وبعد ذلك طلبت إليّ في إلحاح أن أخلع قبّعتي الصغيرة، وأتناول شيئاً من الشاي، ذلك بأنها قالت إني أبدو شاحبة مجهدة. وسعدت بحسن ضيافتها، وأجزت لها أن تحررني من ثوب سفري بمثل الاستسلام الذي تعوّدت أن أبديه، وأنا طفلة صغيرة، كلما عمدتْ إلى مساعدتي في نزع ملابسي.

وعاودتني ذكريات الأيام السالفة زرافاتٍ زرافاتٍ، بينا كنت أراقب بيسي وهي تطوّف في الحجرة خفيفة ناشطة، مزينة صينية الشاي بأفضل ما عندها من الأقداح الخزفية، قاطعة الخبز والزبدة، محمِّصة الكعك المحلَّى، مُرَبِّتَة بين الفينة والفينة على كتف روبرت الصغير أو جين الصغيرة أو رادَّة إياهما عنها كما كانت تفعل بي في الأيام الخوالي. لقد احتفظت بيسي بخُلْقها النزق، كما احتفظت بخفة الخطو ووسامة الوجه.

وتمّ إعداد الشاي، وهممت بالاقتراب من المائدة، ولكنها رغبت إليّ، بنفس نبرتها القديمة الحاسمة، أن ألزم مكاني، قائلة إنّ من واجبها أن تحمل إليّ الشاي إلى حيث كنت أجلس على مقربة من الموقد. ووضعت أمامي منضدة مستديرة صغيرة عليها قدح من الشاي وطبق حافل بالكعك المحلَّى المحمَّص، كشأنها في

عهد الصبا، يوم كانت تسرق لي بعض الأطعمة اللذيذة وتقدمها إليّ على كرسي من كراسي حجرة الحضانة. فابتسمت، وأطعتها، كدأبي في ماضيات الأيام.

لقد أرادت أن تعرف ما إذا كنت سعيدة في قصر ثورنفيلد أم لا، وأي نوع من الناس كانت سيدتي. وحين أنبأتها أنّ لي سيداً ليس غير، سألتني أن أحدّثها عن شخصيته. وهل هو رجل نبيل النفس، وإلى أي مدى كنت معجبة به. فقلت لها إنه أقرب إلى الدمامة منه إلى الوسامة، ولكنه رجل نبيل النفس بكل ما في هذا التعبير من معنى، وأنه عاملني معاملة كريمة، وأني كنت سعيدة راضية. ثم مضيت فحدّثتها حديث القوم المرحين الذين نزلوا ضيوفاً عليه، في قصره، خلال الفترة الأخيرة. فأصغت بيسي إلى هذا الحديث في شوق بالغ، فقد كانت تفصيلاته من النوع الذي تأنس إليه نفسها وترتاح لسماعه.

وأنفقنا في مثل هذا الحديث ساعة تقضَّت على نحو خاطف. ثم إن بيسي جاءتني بقلنسوتي وغيرها، وصحبتني إلى القصر. والواقع أنها كانت قد صحبتني أيضاً، منذ تسع سنوات تقريباً، يوم هبطتُ هذا المجاز نفسه الذي كنت أصعَّد فيه الآن. ففي ذات صباح قاتم، بارد، رطب، يكتنفه الضباب من صباح كانون الثاني (يناير) كنت قد هجرت سقفاً بغيضاً معادياً، وفي نفسي يأس وفي قلبي مرارة وشعور بالنبذ والحرمان من حماية القانون، لكي أشخص إلى ملجأ لو وود البارد – ذلك الجدول النائي غير المستكْشَف. وها هو ذا السقف البغيض المعادي نفسه يرتفع الآن أمامي. كان مستقبلي ما يزال موضع شك، وكان في جوانحي حتى ذلك الحين قلب مُوجَع. وكنت لا أفتأ أشعر أني تائهة أهيم على وجهي فوق ظهر الأرض. ولكني عرفت الآن ثقة بنفسي وبقواي الذاتية أشد رسوخاً، وخوفاً من الاضطهاد أقل إذبالاً للروح. ليس هذا فحسب، بل لقد كان جرح مظالمي الفاغر قد اندمل الآن بالكلية، وكان لهبُ غيظي قد أُخمِد.

وقالت بيسي، وهي تتقدمني عبر الردهة: «سوف تدخلين إلى حجرة الفطور، أولاً. إن السيدتين الشابتين ستكونان هناك».

وما هي إلاّ لحظة حتى وجدت نفسي داخل تلك الحجرة. كانت كل قطعة من قطع الأثاث تبدو كما بدت في ذلك الصباح الذي قُدِّمت فيه إلى مستر بروكلهورست، تماما. وكانت نفس السجادة التي وطئها آنذاك لا تزال فى موضعها على مقربة من المستوقد. وإذ وجُّهت طرفي نحو رفوف الكتب خيّل إلي أن في استطاعتي أن أتبيّن مجلَّدَيْ كتاب «الطيور البريطانية» لــــــ «بيوويك» في مكانهما القديم من الرف الثالث، وكتابي «رحلات جيليفر» و«ألف ليلة وليلة» فوق ذلك المجلدين تماماً. كانت الأشياء الجامدة هي هي لم تتغير، ولكن الأشياء الحيّة كانت قد تغيَّرت حتى ليتعذّر على المرء أن يعرفها.

وبرزت أمامي سيدتان شابتان، فأما إحداهما فكانت فارعة الطول، في مثل طول مس ايتغرام تقريباً، شديدة الهزال أيضاً، ذات وجه شاحب جداً وطلعة صارمة. وكان في مظهرها شيء تقشُّفي عزّزه وضاعف من بروزه ثوب قماشي أسود مغرق في البساطة، وتنورة مستقيمة، وياقة كتانية منشّاة، وشعر مرجَّلٌ إلى ما وراء الصدغين، وعقد من خرز آبنوسي، كعقود الراهبات، يتدلّى منه صليب. ولم تكد عيني تقع عليها حتى وثقت أنها أليزا، برغم أني لم أجد غير شبه ضئيل بين هذه، الصورة المتطاولة الشاحبة وبين صورتها في عهد الطفولة.

وأما الأخرى فكانت هي جورجيانا من غير ريب، ولكنها غير جورجيانا التي تذكرتها – تلك الفتاة النحيلة، الشبيهة بالجنيّات، ذات الأحد عشر ربيعاً. لقد كانت هذه آنسة كاملة التفتح، شديدة امتلاء الجسم، جميلة مثل دمية من شمع. وكانت ذات سمات حلوة لا شائبة فيها، وعينين زرقاوين ناعستين، وشعر ذهبي معقوص على صورة حُلَيْقات وخواتم. وكان لون ثوبها أسود أيضاً، ولكن زيّه كان مختلفاً جداً عن زى ثوب أختها – فهو فضفاض ولائق إلى حد أعظم بكثير وبكلمة، لقد بدا ممعناً في الأخذ بأسباب «الموضة»، بقدر ما بدا ثوب أختها ممعناً في التعلّق بأهداب النسك والتطهُّر.

وكانت في كل من الشقيقتين سمة من سمات الأم، سمة واحدة ليس غير. فأما الأخت الكبرى النحيلة الشاحبة فكان فيها من أمها عينُها الصفراء. وأما الفتاة الصغرى المنوَّرة الناضرة، فكان فيها من أمها شكل فكِّها وذقنها، ولعل ذلك الشكل كان ألطف بعض الشيء، ولكنه خلع على محياها برغم ذلك قسوة بالغة لا تكاد تُوصف، ولولاه لكان ذلك المحيا شديد البشاشة، مغالياً في المرح.

ولم أكد أتقدّم حتى نهضت كلتا الفتاتين للترحيب بي، وحتى خاطبتني كلٌّ منهما باسم «مس ايير». وكان ترحيب أليزا بي موجزاً، جافاً، ومن غير ما ابتسامة، عاودت بعده الجلوس في مكانها، مركّزة عينيها على نار المستوقد، وكأنها نسيتني. أما جورجيانا فأضافت إلى قولها «كيف حالك؟» عدداً من الملاحظات المبتذلة حول رحلتي، وحول الجو، وما إليه، أطلقتها في نبرة بطيئة مطَّت الكلمات فيها مطاً، وأرفقتها بمختلف النظرات الجانبية التي تفحَّصتني من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، مجتازة حيناً طيّات ثوبي المخيط من نسيج من صوف الغنم الإسباني، ومتلكئة حيناً عند زركشة قلنسوتي الريفية البسيطة. والحق أن للفتيات طريقة رائعة في إشعارك بأنهن يعتقدن أنك «موضوع سخرية» من غير أن ينطقن بهاتين الكلمتين فعلاً. إنهن يعبرِّن أكمل تعبير عن

مشاعرهن في هذا الصدد، بضرب من التشامخ في النظرة، والبرودة في المسلك، والفتور في اللهجة، من غير أن يحتجن في إبلاغها إلى أيما فظاظة فعلية في القول أو العمل.

بيد أن السخرية، سواء أكانت مبطَّنة أو صريحة، لم يَعُدْ لها عليّ، الآن، مثل ذلك السلطان الذي كان لها من قبل. ولقد دهشت، – حين اكتشفت – وأنا في مجلسي بين ابنتي خالي – مبلغ لامبالاتي بإهمال الأولى إيّاي إهمالاً كلياً، وبملاطفات الأخرى لي على نحو نصف ساخر. إن مسلك أليزا لم يجرحني، وإن موقف جورجيانا لم يزعجني. فالحق أنه كانت لدي أشياء أخرى تقتضيني التفكير فيها. ففي خلال الشهور القليلة الماضية كانت قد أُثيرت في ذأت نفسي مشاعر

أقوى بكثير من أيما مشاعر كان في وسعهما أن تثيراها، وآلامٌ ومسراتٌ أشد حدّة وأروع روعة من أيما آلام ومسرات كان في مستطاعهما أن توقعاها أو تغدقاها... بحيث لم أبالِ بعجرفتهما البتة.

وسارعت إلى السؤال: «كيف حال مسز ريد؟»، ناظرة في هدوء إلى جورجيانا، التي رأت أن من الخير أن تحدجني بنظرة متكبرة، وكأن سؤالي المباشر كان ضرباً من الوقاحة غير منتظر.

– «مسز ريد؟ آه، تعنين ماما. إنها عليلةٌ إلى أبعد حدّ. وإني لأشكَّ في أنه سيكون في ميسورك أن تريها الليلة».

فقلت: «إنّي لأكون شاكرة لك أعظم الشكر إذا تلطّفت بالصعود إلى الدور الأعلى وإبلاغها أني قد أقبلت»

وأجفلت جورجيانا أو كادت، وفتحت عينيها الزرقاوين أقصى ما استطاعت فتحهما، على نحو ضارٍ، فأضفتُ: «أنا أعلم أنها أبدت رغبة خاصة في رؤيتي، ولست أحب إرجاء النزول عند رغبتها إلى أبعد ممّا تقضي به الضرورة القاهرة»

فلاحظت أليزا: «إن ماما لتكره أن تزعَج في الأمسيات».

فما كان مني إلاّ أن نهضت، من غير أن أدعى إلى ذلك، ونزعت قلنسوتي وقفازي، وقلت إني سوف أمضي إلى بيسي – التي كانت، في ما خيِّل إليّ، في المطبخ – وأسألها ما إذا كانت حال مسز ريد تساعدها على استقبالي، الليلة، أم لا. وغادرت الحجرة، حتى إذا وجدت بيسي، وعهدت إليها في المهمة التي اخترتها لها، تقدمت إلى اتخاذ إجراءات إضافية. والواقع أنه كان من دأبي دائماً، في ما مضى، أن أجفل من التعاظم والعجرفة، ولو قد استُقْبِلْت، قبل عام واحد، كما استُقْبِلت اليوم، إذن لوطنت العزم على مغادرة قصر غايتسهيد في صباح اليوم التالي بالذات. أما الآن فقد تجلَّى لي في الحال أن مثل هذا الصنيع خليقٌ به أن يكون خطة حمقاء. فلقد اجتزت مئة ميل لكي أرى امرأة خالي، ومن واجبي أن

أبقى إلى جانبها حتى تبرأ.. أو تموت. أما غرور بنتيها وحماقتهما فيجب أن أطرحهما وراء ظهري، وأن لا أتأثر بهما البتة. وهكذا وجّهت الخطاب إلى مدبّرة شؤون المنزل وسألتها أن توصلني إلى إحدى الحجرات، وقلت لها إن من الراجح أن تطول إقامتي في القصر أسبوعاً أو أسبوعين، وطلبت إلى بعض الخدم أن ينقل حقيبة أمتعتي إلى حجرتي، وتبعتها إلى هناك بنفسي، فإذا بي ألتقي بيسي عند منبسط السلَّم.

وقالت: «إن سيدتي يقظى. لقد قلت لها إنك هنا. تعالي ولنر هل ستعرفك أم لا؟»

ولم أكن في حاجة إلى من يقودني إلى الحجرة الشهيرة، التي طالما دُعِيْت إليها لأنال قصاصاً ما أو لأستمع إلى تقريع ما، في الأيام الخالية. وهكذا اندفعت متقدمة بيسي، وفتحت الباب في رفق. كان على الطاولة مصباح مظلِّل، فقد كان الليل يتقدّم، الآن. وكان ثمة ذلك السرير الضخم ذو العَمد الأربعة، وقد أسدلتْ حوله سُجُفٌ عنبرية اللون كعهدي به في السنين الخوالي. وكانت ثمة منضدة الزينة، والكرسي ذو الذراعين، ومتكأ القدم الذي حُكِم عليِّ عشرات المرات بأن أركع عنده وألتمس الغفران عن ذنوب لم أقترفها. وتطلّعت إلى زاوية مجاورة، نصف متوقعة أن أرى شبح عصا مهزولة كانت في يوم من الأيام تُوقع الرعب في قلبي، عصا كانت تكمن هناك، في انتظار أن تثب مثل عفريت صغير وتلهب راحة يدي المرتعدة أو عنقي المنكمشة. وتقدمتُ نحو السرير، وفتحت السجف، وانحنيت فوق الوسائد المركوم بعضها فوق بعض.

وكنت لا أزال أتذكر وجه مسز ريد في كثير من الوضوح، فرحت أبحث في السرير عن هذا الوجه غير الغريب علي. وإنه لمن حسن الطالع أن الزمان يُخمد التوق إلى الانتقام، يُسكت حوافز الغيظ والنفور: كنت قد فارقت هذه المرأة وأنا فريسة الحقد والكراهية، وها أنا ذا أعود إليها الآن وليس في صدري نحوها غير ضرب من الإشفاق عليها لما تعاني من آلام مبرِّحة، وغير توق عارمٍ إلى أن أنسى

كل ما أنزلته بي من أذي وأغفره. لها، وإلى أن أصالحها وأضع يدي بيدها في قوة ومحبّة.

كان الوجه المألوف هناك: كالحاً قاسياً كعهدي به من قبل، وكانت هناك تلك العين الفريدة التي ما كان شيء بقادر على أن يكسر من حدّتها، وذلك الجبين المرفوع الآمر المستبد. كم من مرة صبَّ عليّ جام وعيده وبغضائه! ويا لذكريات مخاوف الطفولة وأحزانها كيف انبعثت حية وأنا أتفرّس في أساريره القاسية! ومع ذلك فقد انحنيت فوقها وقبّلتها.

فنظرت إليّ وقالت: «هل هذه هي جين ايير؟»

– «نعم، يا امرأة خالي. كيف حالك، يا امرأة خالي العزيزة؟» كنت قد أخذت على نفسي عهداً، في يوم من الأيام، بأن لا أدعوها امرأة خالي بقية عمري كله، ولقد رأيت أنه ليس من الإثم أن أنسى هذا العهد وأحنث به الآن. وكانت أصابعي قد تشبثت بيدها ا لمبسوطة فوق غطاء السرير، ولو أنها ضغطت هي على يدي في محبّة إذن لاستشعرت بهجة صادقة. ولكن الطبائع الممتنعة على التأثّر لا تُرَقَّق حاشيتها بمثل هذه السرعة كلها، وضروب التنافر الطبيعي لا تُسْتأصل بمثل هذا اليُسْر كله. لقد سحبت مسز ريد يدها، وأشاحت بوجهها عني قائلة إنّ الليل حار ومرّة أخرى نظرت إليّ نظرة مثلوجة إلى درجة أدركت معها، على التوّ، أن رأيها فيَّ – وشعورها نحوي – لم يتغيرا، وأنهما غير قابلين للتغير لقد عرفت من عينها المتحجرة – المستعصية على الحنان، الممتنعة على الدمع – أنها كانت مصممة على اعتباري مخلوقة طالحة أبداً. ذلك بأن الإيمان بأني مخلوقة صالحة ما كان ليُوقع في نفسها أي ابتهاج كريم، لقد كان خليقاً به أن يُشْعرها بالغمّ والكمد ليس غير.

وأحسست بألم، ثم أحسست بحنق، ثم أحسست بعزم على إخضاعها – على أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وبرغم إرادتها جميعاً. وكانت عبراتي قد طفرت،

كدأبي في عهد الطفولة تماماً، فأمرتها بالعودة إلى مصدرها. وأدنيت كرسياً إلى مقدَّم السرير، وقعدت، وانحنيت فوق الوسادة.

وقلت: «لقد أرسلت في طلبي، وها أنا قد جئت، وإني لأعتزم أن أبقى حتى ينحسر عنك الداء».

– «أوه، طبعاً! هل رأيت بنتيَّ؟»

– «حسناً، في إمكانك أن تخبريهما أني أريد منك أن تبقي هنا إلى أن يصبح في ميسوري أن أتحدّث إليك في أشياء تشغل ذهني. لقد فات الأوان، هذه الليلة، وإني لأجد عسراً في تذكرها. ولكن كان ثمة شي ء أحببت أن أقوله... دعيني أرى...».

وكانت في تلك النظرة التائهة وتلك اللهجة المتغيرة ما أنبأني بأن الخراب قد ألَمَّ بهذا الهيكل الذي كان في يوم من الأيام ذا بأس شديد. واستدارت في قلق وضيق، وجذبت غطاء الفراش محاولة أن تغلِّف نفسها به. ولكن مرفقي، المستند إلى زاوية اللحاف، ثبَّت الغطاء في مكانه، فأثار ذلك ثائرتها، في الحال، وقالت:

– «استقيمي في جلستك! لا تزعجيني بتشبثك بغطاء السرير... هل أنت جين ايير؟»

– «لقد عانيت من تلك الطفلة أكثر ممّا يتصور أي إنسان. يا لها من

ثقل ثقيل تُرِك في يدي! وما أعظم الإزعاج الذي أورثتني إيّاه في كل يوم وكل ساعة، بطبعها الغامض، وخلقها النزق، ومراقبتها غير الطبيعية لحركات المرء! أنا أعلن أنها خاطبتني ذات يوم مثل فتاة مجنونة، أو مثل عفريتة – إن أيما طفل لم يخاطبني أو ينظر إليّ قط من قبل بهذه الطريقة. ولقد كنت سعيدة بإخراجها من البيت. ما الذي فعلوه بها في لو وود؟ لقد تفشَّت الحمى هناك، وتخطَّف الموت كثيراً من التلميذات. أما هي فقد نجت من الموت: ولكني قلت إنها ماتت... لشد ما أتمنى لو أنها ماتت!»

– «أمنية عجيبة، يا مسز ريد. لماذا تكرهينها هذا الكره كله؟»

– «لقد كنت أكره أمها، دائماً. ذلك بأنها كانت أخت زوجي الوحيدة، وكانت أثيرة عنده: لقد عارض إنكار الأسرة لها عندما عقدتْ زواجها الوضيع، وعندما جاء نعيها بكى مثل في غرٍّ ساذج. كان يُرس في طلب الطفلة، برغم أني توسُّلت إليه أن يعهد في تربيتها إلى حاضنة وأن يدفع نفقات إعالتها. لقد أبغضتها أول ما وقعت عيناي عليها – كانت مخلوقة معتلة الصحة، كثيرة العويل، شديدة الهزال! وكان من دأبها أن تُعوِل في مهدها طوال ساعات الليل كلها – إنها لم تكن تصرخ من صميم فؤادها مثل أيما طفل آخر، ولكنها كانت تنشج نشيجاً وتئن أنيناً. لقد أشفق عليها ريد، وكان من دأبه أن يرعاها ورفق بها وكأنها بنته. بل لقد رفق بها أكثر مما رفق بأي من أولاده في تلك السن. وكان لا يفتأ يحاول حمل أولادي على اتّخاذ موقف ودّي من الشحاذة الصغيرة، ولم يكن في ميسور أحبَّتي أن يحتملوا ذلك، فنقم عليهم عندما أظهروا بغضهم لها. وفي مَرْضته الأخيرة، كان يطلب منّا على نحو موصول أن نحملها إليه، وقبل ساعة واحدة من وفاته انتزع مني عهداً بإبقاء تلك المخلوقة في القصر. ولقد كنت أؤثر أن أكلَّف برعاية طفل معوز من أطفال الملاجئ، ولكنه كان ضعيفاً بالفطرة. إن جون لا يشبه أباه البتة، وأنا سعيدة بذلك. جون يشبهني، ويشبه إخوتي – إنه «جيبسونيّ» حقيقي. أوه، لشد ما أود لو يكفَّ عن تلويعي برسائله التي يبعث بها إليَّ طلباً للمال! فلم يعُدْ لدي فضلٌ من مالٍ أعطيه إيّاه: إننا نتّخذ سبيلنا إليّ الفقر. ويتعيَّن عليّ منذ اليوم أن أسرح نصف الخدم، وأن أوصد جزءاً من القصر، أو أن أؤجر منه جزءاً. أنا لا أستطيع أن أقر مثل هذا الصنيع – ومع ذلك فكيف لنا أن نحتفظ بمستوى عيشنا القديم؟ إن فائدة الرهن تلتهم ثلثي دخلي. وجون يقامر على نحو رهيب، والخسارة حليفهُ أبداً... يا له من ولد بائس! إنه محاط بجماعة من النصَّابين. لقد تردَّى في هوة الشقاء والخزي... إن سماءه لرهيبة... وإني لأستحي به كلّما وقعت عليه عيناي».

كان الاهتياج البالغ قد شرع يستبدّ بها. فقلت لبيسي، وكانت واقفة عند الجانب الآخر من السرير «يخيل إليّ أن من الخير أن أفارقها الآن».

– «أحسب ذلك، أيتها الآنسة، ولكنها كثيراً ما تتحدث على هذا النحو عندما يتقدم الليل... إنها لتكون في الصباح أكثر هدوءً».

ونهضت. فهتفت مسز ريد: قفي. عندي شيء آخر أحببت أن أقوله. إنه يتوعدني... إنه لا يفتأ يتوعدّني بموته، أو موتي. وأنا أرى في المنام، أحياناً، أني أنظر إليه ممدَّداً وقد جرى الدم من جرح بليغ في نحره، أو وقد انتفخ وجهه واسودَّ. لقد انتهيتُ إلى مأزق غريب، إني لأرزح تحت عبء من المتاعب ثقيل. ما الذي يجب أن أفعله؟ من أين لي أن أحصل على المال؟»

وهنا حاولت بيسي أن تقنعها بأخذ جرعة من عقَّار مسكِّن، فوفِّقَتْ إلى ذلك في عسر. وسرعان ما هدأت نفس مسز ريد، وغلب عليها النعاس. وعندئذ فارقتها.

وتصرمت عشرة أيام قبل أن يدور بيني وبينها أيما حديث آخر. كانت أبدا تترجّح بين حالين من هذيان وسبات. ولقد أوصانا الطبيب بأن نجنِّبها كل ما يثير شجونها. وفي غضون ذلك عايشتُ جورجيانا وأليزا على أحسن وجه استطعته. والواقع أنهما وقفتا مني، بادئ الأمر، موقفاً يتميّز بالبرود الشديد. فكانت أليزا تُمض نصف النهار في الخياطة، أو المطالعة، أو الكتابة، من غير أن توجِّه إلي أو إلى أختها كلمة واحدة إلاّ في النادر. وكانت جورجيانا تقضي ساعات وساعات وهي تحدِّث كنارها بضروب الهراء من غير أن تلقي إليّ بالاً. ولكني كنت قد وطنت العزم على الاصطبار وعلى التسلّي عن ذلك بما يملأ فراغ وقتي. وكنت قد تزوّدت، عند ارتحالي إلى غايتسهيد، بأدوات الرسم، فوجدت فيها ما يشغلني ويسليني على حد سواء.

كنت أحمل علبة أقلامي وبضع صحائف من الورق، وأن أتّخذ لي مقعداً نائياً عنهما، على مقربة من النافذة، وأشْغَلَ نفسي بتسويدِ مختلف صنوف الرسوم

الصغيرة المتخيلة التي تمثل أيما مشهد اتّفق له أن تشكّل آنذاك في منظار خيالي ذي القطع الزجاجية الملونة التي ما تستقر على حال أو وضع: لمحة من البحر بين صخرتين، القمر الطالع وسفينة تمخرمُجَلْبَبَة بضياء قرصه المنعكس على صفحة الماء، مجموعة من القصب وقد انبثق منها رأس جنيّة ماء متوجة بأزهار اللوتس، وسعلاة متربعة في عش «عصفور شوك»، تحت إكليل من زهر الزعرور البري...

وذات صباح شرعت في رسم وجه.. أما أي ضرب من الوجه كان مقدَّراً له أن يكون فذلك ما لم أبالِ به أو أعرفه. وتناولت قلماً أسود طرياً، وروَّست طرفه على نحو عريض، وواصلت العمل. وسرعان ما سوّدت على الورق جبيناً عريضاً بارزاً وذقناً مربعة. وأوقعت هذه الخطوط البهجة في نفسي، وسرعان ما راحت أصابعي تملأها، في خفة ونشاط، بملامح وأسارير. وكان لا بد لي من أن أرسم، تحت ذلك الجبين، حاجبين أفقيين صارخين، وأن أتبع ذلك كله، طبعاً، بأنف بارز مستقيم ذي منخرين ضخمين، وبفَم غضٍّ طري غير صغير بأية حال، وبذقن عنيدة في وسطها «طابعٌ» عميق. ولقد احتجت، طبعاً، إلى رسم سالفين أسودين، وشعر فاحم، مُعَنْقَدٍ عند الصدغين ومموَّج فوق الجبين. بقيت العينان، وكنت قد تركتهما إلى النهاية لأنهما اقتضتا أعظم قدر من العناية والتجويد، ولقد صورتهما نجلاوين وقوّمتهما أحسن تقويم: لقد أطلت الأجفان وعتَّمتهما، وجعلت انسيابهما نيِّرين كبيرين. وقلت في ذات نفسي، وأنا ألقي نظرة على ما صنعت يداي: «حسن! ولكنها لا تمثل الأصل تمثيلاً كاملاً. إنها في حاجة إلى فضل من قوة وروح». وعمدت إلى الظلال فجعلتها اشد سواداً، لكي يكون في ميسور الجوانب المنيرة إن تُومض على نحو اشد سطوعاً، ولقد حققت نجاحي في ذلك لمسةٌ قلميه محظوظة أو لمستان ليس غير. وهكذا ألقيت تحت ناظري وجه صديق: فأي بأس في أن توليني هاتان الشابتان ظهريهما؟ وتأملت ذلك الوجه وابتسمت للشبه الناطق. كنت مندمجة راضية.

وسألتني أليزا، وكانت قد تقدّمت نحوي من غير أن ألحظها: «أهذه صورة شخص تعرفينه؟» فأجبتها قائلة إنّها مجرّد وجه متخيَّل، وسارعت إلى إخفائها تحت الصحائف الأخرى. ولقد كذبتُ، من غير ريب. فقد كانت في الواقع، صورة أمينة جداً لمستر روتشيستر. ولكن أية أهمية كان لذلك عندها، أو عند أي امرئ آخر، غيري أنا؟ واقتربت جورجيانا أيضاً لترى إلى الرسم وأعجبتها الرسوم الأخرى إعجاباً عظيماً، ولكنها علَّقت على هذه بقولها: «رجل دميم». وبدت الشقيقتان وكأنهما دهشتان لبراعتي، وعرضت أن أرسم وجهيهما، فقعدت كل منهما، بدورها، لكي أخرج لها صورة قلميه. ثم إن جورجيانا جاءت بألبومها. فوعدتها بأن أصورها صورة مائية، فانفرجت أساريرها في الحال، واقترحت عليَّ أن أقوم معها بنزهة في الحقول. ولم نكد نمضي ساعتين اثنتين حتى شرعنا نتجاذب أطراف حديث شخصي فتحت لي خلاله قلبها: لقد تكرّمت عليَّ بوصف لذلك الشتاء الرائع الذي قضته في لندن منذ فصلين اثنين، محدثة إيّاي عن الإعجاب الذي أثارته، والحفاوة التي حظيَتْ بها. بل لقد استشففتُ ملامح من الغزو الذي وفِّقت إليه لقلب أحد النبلاء. وخلال ساعات الأصيل والمساء توسَّعت في تصوير هذه الملامح، وأوردت ضرباً من المحاولات الرقيقة، وصوَّرت صنوفاً من المشاهد العاطفية. وبكلمة موجزة، ارتجلَتْ في ذلك اليوم، لإمتاعي، رواية كاملة عن حياة الترف والمترفين وجُدِّدت هذه الأحاديث يوماً بعد يوم. وكانت كلها تدور حول الموضوع نفسه – حولها هي، وحول قصص حبها وأحزانها. ومن عجب أنها لم تشر، ولو مرة واحدة، إلى مرض أمها أو إلى موت أخيها، أو إلى وضع الأسرة القاتم ومستقبلها المظلم. لقد بدا وكأن عقلها كان مستغرقاً استغراقاً كاملاً في ذكريات الحبور السالف، وفي التطلّع إلى ملذات المستقبل. كانت تنفق نحواً من خمس دقائق، كل يوم، في حجرة أمها المريضة، ليس غير.

أما أليزا فأقامت على صمتها: كان واضحاً أنه لم يكن لديها متّسع من الوقت للكلام. والحق أني لم أر في حياتي شخصاً أكثر انشغالاً منها كما تبدّت لعين الناظر. ومع ذلك، فقد كان من العسير على المرء أن يحزر ما الذي كانت تعمله،

أو بالأحرى أن يكتشف أيما ثمرة من ثمرات كدِّها. وكان لديها ساعة منبهة لإيقاظها في ساعة مبكرة من الصباح. ولست أدري كيف كانت تشغل نفسها قبل الفطور، أما بعد تلك الوقعة فكانت تقسِّم وقتها إلى أجزاء نظامية، مخصصة كل ساعة لمهمة بعَيْنها. وثلاث مرات في اليوم كانت تطالع في كتاب صغير ظهر لي، عند التحقيق، أنه كتاب من كتب الصلاة العامة. وسألتها ذات مرة عن أبرز ما كان يستأثر بإعجابها في ذلك السِّفر فأجابت «قانون الفرض الكنسي والقداس». وكانت تفرد ثلاث ساعات لتطريز حاشية قماشه قرمزية مربعة، تكاد تكفي لصنع سجادة، بخيط ذهبي. حتى إذا ألحت عليها في السؤال عن فائدة هذه القماشة أعلمتني أنها حجاب لمذبح كنيسة أُنشئت منذ فترة قريبة في مكان مجاور لغايتسهيد. وكانت تكرِّس ساعتين اثنتين لكتابة يومياتها، وساعتين أخريين للعمل بمفردها في حديقة المطبخ، وساعة واحدة لتنظيم حساباتها. لقد بدت وكأنها راغبة عن الأنس إلى أيما رفيق، زاهدة في أيما حديث. وأنا أعتقد أنها كانت سعيدة بطريقة حياتها هذه : لقد كان هذا الروتين يكفيها، ولم يكن ثمة ما يزعجها أكثر من وقوع أيما حادثة تُكرهها على تعديل نظاميته التي تُضاهي دقتها دِقة ساعة من الساعات.

وقد أنبأتني، ذات ليلة، وكانت تميل إلى التحدث على غير مألوف عادتها، أن سلوك جون والخراب الذي كان يتهدد الأسرة أورثاها غماً عميقاً، ولكنها قد وطّنت الآن نيتها، كما قالت، وعقدت عزمها على أمر. لقد عُنيت بالعمل على صيانة مستقبلها، حتى إذا ما قضت أمها نحبها - وقد كان من غير المحتمل بأية حال أن تُشفى أو أن يتطاول مقامها في هذه الدنيا، كما لاحظَتْ في رباطة جأش - عمدت إلى إنفاذ خطتها تلك، التي راودتها منذ فترة بعيدة، فالتمست العزلة في مَفْزَع تكون الحياة فيه صارمة جداً، دقيقة جداً، وأقامت حواجز آمنة تفصل ما بينها وبين العالم المستهتر الطيَّاش. وحين سألتها ما إذا كانت جورجيانا ستصحبها أجابت بما معناه: لا، طبعاً. فلم يكن بينها وبين جورجيانا، في أيما يوم من الأيام، أي قاسم مشترك. وهي لا تريد أن تُحَمَّل عبء مرافقتها لأيما سبب أو اعتبار. إن على جورجيانا أن

تتّخذ سبيلها التي اختارتها لنفسا، ولسوف تتّخذ هي – أليزا – سبيلها التي اختارتها لنفسها.

وكان من دأب جورجيانا – حين لا تبثُّني شجون قلبها – أن تنفق معظم وقتها مضطجعة على الأريكة، متبرّمة برتابة الحياة في القصر متمنية لو وجّهت إليها خالتها، مسز جيبسون، دعوة للذهاب إلى لندن. ولقد قالت ذات يوم إن من الخير لها، ألف مرة، أن تنأى بنفسها عن هذا الجو، شهراً أو شهرين، وأن لا تنقلب راجعة إلاّ بعد أن ينقضي كل شيء. ولم أسألها ماذا عنت بقولها: بعد أن ينقضي كل شيء»، ولكنني أعتقد أنها أشارت إلى موت أمها المرتقب وإلى ما سيعقب ذلك من طقوس الجنازة وشعائرها. ولم تول أليزا، على وجه عام، تواني أختها وشكاواها اهتماماً كبيراً، فكأن تلك المخلوقة المتذمرة المتكاسلة لا تقيم معها تحت سقف واحد. بيد أنها أغلقت دفتر حساباتها وطوت تطريزها، ذات يوم، واندفعت تعنفها تعنيفاً مفاجئاً على هذا النحو:

– «جورجيانا، أنا لا أشك في أنه لم يُجزْ لبهيمة أكثر منك سخفاً وإعجاباً بالنفس أن تزعج الأرض في أيما يوم من الأيام. والواقع أنه لم يكن من حقك أن تولدي، ذلك بأنك لا تفيدين من الحياة. فبدلاً من أن تعيشي لنفسك، وفي نفسك، ومع نفسك، كما يتعين على المخلوقة الحصيفة أن تفعل، أراكِ لا تسعَيْن إلا إلى إلقاء ضعفك على كتفي شخص آخر قوي. أما إذا عدمتِ شخصاً يرضى بأن يُثقل كاهله بهذا الحمل البدين، الضعيف، المنتفخ، الذي لا غناء فيه، جأرت بالشكوى زاعمة أنك بائسة، مضطهدة، مهمَلة. ليس هذا فحسب، بل إنك تريدين أن يكون وجودك مشهداً دائم التغيُّر والإثارة وإلا اعتبرت الحياة سجناً مظلماً. إنك تريدين دائماً أن تكوني موضع إعجاب الناس، وتوددهم، وإطرائهم... تريدين أن تحيَيْ دائماً حياة حافلة بالموسيقى، والرقص، والصخب وإلاّ ألـمَّ بك الذبول وتلاشَيْت تلقائياً. أليس لديك من العقل ما يساعدك على ابتداع نظام يجعلك مستغنية عن أيما جهد أو إرادة غير جهدك أنت وإرادتك أنت؟ خذي يوماً واحداً من أيامك، وقسِّميه إلى أجزاء، وعيِّني لكل جزء عملاً خاصاً به. املئي كل ربع ساعة، كل عشر دقائق، بل كل

خمس دقائق، بعمل ما، بحيث لا تتركين لحظة واحدة شاغرة. وأدِّي كل عمل من الأعمال في ميقاته، وفي نظامية صارمة. وعندئذ تجدين أن ساعات اليوم سوف تنقضي قبل أن تستشعري أنها بدأت، وتجدين أنك غير مدينة لأيّما امرئ بمساعدتك على التخلّص من أيما لحظة شاغرة. إنك لن تلتمسي بعد ذلك أنس أيما امرئ أو حديثه أو عطفه أو حلمه. وبكلمة، سوف تحبين كما ينبغي للكائن المستقلّ أن يحيا. دونك هذه، النصيحة، وهي أول نصيحة وآخر نصيحة أسديها إليك، وعندئذ لن تحتاجي

إل

يّ

،

.

أ

و

إ

لـ

ى

أ

يـ

مـ

ا

شـ

خـ

ص

آ

خـ

ر، مهما حدث. أما إذا نبذتها ورا

ء
ظ
ه
ر
ك
،
و
أ
ق
م
ت
ع
ل
ى
م
ا
أ
لِ
فتِهِ حتى الآن من اشتهاء وتبرّم وتكاسل فعندئذ يتحتّم عليك أن تتحملي عواقب بلاهتك، مهما تكن سيئة كريهة. إني أقول لك هذا في وضوح، فاسمعي: إذ على الرغم من أني لن أكرر ما أعتزم أن أقوله الآن فلسوف أعمد إلى تنفيذه في حزم.

إني سأنفض يديَّ منك بعد وفاة والدتي، وسأنفصل عنك، حالما يحْمل نعشها إلى عقْد كنسية غايتسهيد، وكأن إحدانا لم تعرف الأخرى قط. ولا داعي إلى أن تتوهمي أني سوف أرضى بأن توثقيني إليك بأيما رابطة مهما وهت، لمجـ

رّ
د
أ
ن
ا
لـ
مـ
صـ
ا
د
ف
ة
شـ
ا
ء
ت
أ
ن
نـ
تـ
حـ
د
ر
مـ
ن

ص
ل
ب
أ
ب
و
ا
ح
د
و
أ
م
و
ا
ح
د
ة
.
و
ف
ي
ا
س
ت
ط

ا
ع
ت
ي
أ
ن
أ
ق
و
ل
ل
ك
م
ا
ي
ل
ي
:
ل
و
أ
ن
أ
ف
ر

ا
د
ا
ل
ج
ن
س
ا
ل
ب
ش
ر
ي
ك
ل
ه
م
،
م
ا
ع
د
ا
ي
أ

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ذ
ا
و
م
ا
ع
د
ا
ك
أ
ذ
ت
ـ
مُ
حُوا محواً، ووقفنا نحن وحدنا على ظهر الأرض إذن لتركتك في العالم القديم ومضيتُ أنا إلى العالم الجديد».

قالت ذلك وأطبقت شفتيها، فأجابتها جورجيانا: «كان في إمكانك أن توفّري على نفسك عناء شنّ هذه الحملة علي. إن كل امرئ ليعلم أنك المخلوقة الأكثر أنانية وتحجُّر قلب، في هذا الوجود. وأنا أعرف كراهيتك الحقود لي: لقد ابتُليت بنموذج منها قبل اليوم، في المكيدة التي دبّرتها ضدي في موضوع اللورد ايدوين فير. فأنت لم تطيقي أن تري إليَّ وقد رفعني الناس فوقك درجة، وأن أحظى بلقب من الألقاب النبيلة، وأن تُفتح في وجهي أبواب حلقات لا تجرؤين أنت على، إظهار وجهك فيها، ومن أجل ذلك مثلت دور الجاسوس والنمَّام، وقضيت على مستقبلي إلى الأبد».

وهنا أخرجت جورجيانا منديلها. وراحت تتمخَّط طوال ساعة كاملة. أما أليزا فقد جلست غير مكترثة، ولا متأثرة، مواصلة كدحها في جدّ بالغ.

إن ثمة طائفة من الناس لا تقيم كبير وزن للعاطفة الكريمة الصادقة. ولكننا ههنا أمام طبيعيتين اثنتين أعوزتهما هذه العاطفة فإذا بالأولى حرِّيفة إلى حد لا يطاق، وإذا بالثانية تافهة الطعم إلى حد يغري بالازدراء. ذلك بأن العاطفة من غير عقل هي في الواقع شراب مخفِّف «سائط»، ولكن العقل الذي لا تلطِّفه العاطفة هو لقمة مريرة جافة في البلعوم، فليس في ميسور البشر ازدرادها.

كان أصيلاً ممطراً عاصفاً. وكانت جورجيانا قد استغرقت في النوم، على الأريكة، وفي يدها رواية كانت تطالعها. وكانت أليزا قد مضت لتشهد قداساً أُقيم في الكنيسة الجديدة إحياء لذكرى أحد القديسين – إذ كانت، في شؤون الدين، متزمِّتة شديدة المحافظة على الشكليات، لم يوفّق تقلب الأحوال الجوية في أيما يوم من الأيام إلى الحؤول بينها وبين أداء ما اعتبرته واجبها المقدس في ميقاته المعلوم. كانت تشخص إلى الكنيسة كل يوم أحد ثلاث مرات، سواء أكان الجو رائقاً أو عاصفاً، وتشخص إليها في أيام الأسبوع بقَدْر عدد الصلوات.

وخطر لي أن أرتقي السلم وأرى كيف كانت حال المرأة المحتَضرة التي اضطجعت هناك مُهْملة أو شبه مهملة. كان الخدم أنفسهم لا يولونها غير اهتمام متقطِّع، وكانت الممرضة المستأجرة، غير الخاضعة لمراقبة شديدة، تنسل من الحجرة كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً. أما بيسي فقد أخلصت لسيدتها، ولكنها كانت مضطرة إلى الاهتمام بشؤون أسرتها هي، ولم تكن بقادرة على الاختلاف إلى القصر إلاَّ لماماً. والحق أني وجدت حجرة المريضة مهجورة، كما توقعت من قبل: لم يكن ثمة ممرضة، وكانت مسز ريد مضطجعة في سكون، وقد استغرقت على ما بدا لي في سبات عميق. كان وجهها الأزرق الرصاصي غارقاً بين الوسائد، وكانت النار تخبو في المستوقَد فأذكيتها، وسوَّيت أغطية السرير، ورحت أحدّق إليها فترة، بعد أن أمست عاجزة عن التحديق إلي، ثم اتخذت سبيلي إلى النافذة.

كان المطر ينقر زجاج النافذة نقراً عنيفاً، وكانت الريح تهب على نحو عاصف. وقلت في ذات نفسي: «ههنا تضطجع مخلوقة لن تلبث أن تصبح بعيدة عن حرب العناصر الأرضية. فإلى أين ستمضي تلك الروح - التي تكافح الآن لمغادرة مثواها المادي - عندما تتحرر من عقالها آخر الأمر؟»

وفيما كنت أفكر في اللغز العظيم تذكرت هيلين بيرنز... تذكرت آخر كلماتها وقد حضرتها الوفاة، وتذكرت إيمانها، ومذهبها في تساوي الأرواح المفارقة أجسادَها. وكنت لا أزال أصغي، بالفكر، إلى نبراتها التي لم أنسها قط، متصوّرة مظهرها الشاحب الأثيري، ووجهها المضني، ونظرتها العلوية فيما كانت مضطجعة في فراش احتضارها الوادع وفيما كانت تهمس بتوقعها للعودة إلى صدر أبيها المساوي... عندما غمغم من جانب السرير القائم خلفي صوتٌ واهن: «.من هناك؟»

وكنت أعلم أن مسز ريد لم تنطق، منذ أيام، بكلمة ما، فتساءلت :هل عادت إلى الوعي؟ وتقدّمت نحوها.

- «أنا، يا امرأة خالي».

فكان جوابها: «من هو أنا هذا؟ من أنت؟» ونظرت إليّ في دهش وفي ضرب من الذعر، ولكن في غير ضراوة واهتياج. «أنت غريبة عني إلى أبعد الحدود... أين بيسي؟»

- «إنها في كوخ البواب، يا امرأة خالي».

فكررت: «امرأة خالي؟ من يدعوني «امرأة خالي؟« أنت لست واحدة من آل جيبسون، ومع ذلك فأنا أعرفك... هذا الوجه وهاتان العينان وهذا الجبين مألوفة عندي إلى أبعد الحدود. أنت تشبهين... أجل، أنت تشبهين جين ايير!».

ولم أقل شيئاً. لقد خشيت يسبب الإعلان عن هويتي صدمة ما. وقالت: «ومع ذلك، فأنا أخشى أن أكون قد أخطأت: إن أفكاري تخدعني. لقد أردت أن أرى جين

ايير، وإني لأتخيَّل بعض المـَشابه حيث لا مُشابهة البتة. وإلى هذا، فلا بد أنها قد تغيّرت تغيُّراً كبيراً في غضون سوات ثمان».

عندئذ أكّدت لها، في رفق، أني أنا الشخص الذي توهمتني إياه. وأرادتني أن أكونه. حتى إذا لاحظت أنها تدرك ما أقول، وأنها مالكة زمام حواسها شرحت لها كيف بعثت بيسي زوجها ليجيء بي من ثورنفيلد.

فما لبثت أن قالت: «أنا جد مريضة.. هذا شيء أعرفه. لقد كنت أحاول، منذ بضع دقائق، أن أنقلب على جانبي الآخر فوجدت أني لا أقوى على تحريك أي من أوصالي. ولكن عليّ أن أريح ضميري قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة، ذلك بأن ما لا نفكّر فيه – ونحن في عافيتنا – إلاّ قليلاً إنما يُنيخ علينا بكل كله في ساعة كمثل هذه الساعة التي أجدني فيها الآن. هل الممرضة هنا؟ وهل ليس في الحجرة أحد غيرك؟»

وأكدت لها أنا كنا وحدنا.

– «حسناً، لقد أسأت إليك، مرتين، إساءة أنا عليها الآن نادمة. الأولى عندما حنثت بما عاهدت زوجي عليه من تنشئتك مثل ولد من أولادي. والأخرى...».

وكفّت عن الكلام. وغمغمت مخاطبة نفسها: «علي أية حال، إنها ليست ذات أهمية كبيرة، ربما. وإلى هذا، فإني قد أبلُّ من دائي. إن إذلالي نفسي لها، على هذا النحو، لموجع».

وبذلت جهداً لتغيير وضعها في الفراش، ولكنها أخفقت. وتغيّر وجهها، لقد بدت وكأنها استشعرت إحساساً باطنياً ما، لعله كان هو النذير بدخولها في النزع الأخير.

ثم قالت: «حسناً، يجب أن أتغلّب على ترددي. فالأبدية أمامي. من الخير لي أن أخبرها... اذهبي إلى حقيبة زينتي، افتحيها، واخرجي منها رسالة سوف تجدينها هناك».

وامتثلت أوامرها. فقالت:.اقرئي الرسالة».

كانت موجزة، وكانت كلماتها تجري على النحو التالي:

«شدتي،

«هل لك أن تتكرمي فتبعثي إليّ بعنوان ابنة أخي، جين ايير، وتنبئيني عن حالها، فأنا أعتزم أن أكتب إليها عمّا قريب، وأرغب إليها في الالتحاق بي في ماديرا. لقد بارك الله جهودي، فأمسيت ذا غنى. وإذ كنت غير ذي زوجة ولا أولاد فإني أودّ أن أتبناها خلال حياتي وأن أوصي لها بكل ما سيقدّر لي أن أتركه عند وفاتي.

«وتفضلي؛ يا سيدتي» إلخ.. إلخ..

«جون ايير، ماديرا»

كان تاريخها يرقى إلى ثلاث سنوات خلتْ.

وسألتها: «لماذا لم أسمع بهذه الرسالة من قبل؟»

– «لأني أبغضتك بغضاً راسخاً بعيد الغور جعلني عاجزة أبد الدهر عن بسط يدي لرفعك إلى دنيا الرخاء والرفاهية. أنا لم أستطع قط أن انسي موقفك مني، يا جين – والهياج المجنون الذي حملتِ به علي، واللحظة التي أعلنت بها أنك تبغضينني أكثر مما تبغضين أي امرئ آخر في العالم، والنظرة والصوت غير الطفلين اللذين أكدتِ بهما أن مجرد التفكير بي يثير تقززك، وأني عاملتك في وحشية بالغة تبعث على الرثاء. ولم أستطع أن أنسى ما أحسستُ به عندما انتفضتِ ونفثت سُمَّ تفكيرك. لقد عصف بي الخوف، وكأني ضربت وحشاً ضارباً أو رفسته فراح يحدق إلّي بعينين بشريتين ويلعنني بصوت بشري. ائتني بقليل من الماء! عجِّلى، عجِّلي!»

فقلت وأنا أقدم إليها الجرعة التي طلبت: «لا تفكري، منذ اليوم، بهذا كله، يا امرأة؛ خالي العزيزة. انسي ذلك نسياناً كاملاً، واغفري لي ما اصطنعتُ من لغة انفعالية. لقد كنت مجرد طفلة صغيرة آنذاك. ولقد انقضت الآن على ذلك اليوم ثماني سنوات أو تسع سنوات».

ولم تلتفت إلى ما قلته البتّة. ولكنها لم تكد تتجرّع الماء وتسترح قليلاً، حتى استرسلت قائلة :

– «أقول لك إني لم أستطع أن أنسى ذلك، ولقد انتقمت منك. ذلك بأن التفكير في تبني عمك لك وفي تقلُّبك في أعطاف الطمأنينة والرقة كان هو الشيء الذي لا أقوى على احتماله. فكتبت إليه قائلة إني آسفة لما سيُمْنى به من خيبة أمل، فجين ايير قد ماتت، لقد قضت نحبها بحمى التيفوس في لو وود. والآن، تصرفي على النحو الذي يروق لك، اكتبي إليه واثبتي له أن ما قلته غير صحيح... افضحي كذبي حالما تجدين ذلك مناسباً. لقد خُلِقْتِ، في ما أحسب، لشقائي وتعذيبي، وها هي لحظاتي الأخيرة تنغِّصها ذكرى عمل ما كان خليقاً بي، لولاك أنتِ، أن أغرى بارتكابه بأية حال».

– «ليتني أستطيع أن أقنعك، يا امرأة خالي، بالإقلاع عن التفكير في ذلك، وفي النظر إليّ بعين الحنان والغفران...».

فقالت: «إنّ لك لمزاجاً رديئاً جداً، مزاجاً لا أزال أستشعر حتّى اليوم أن من المتعذّر علي أن أفهمه: كيف استطعت الإخلاد إلى السكون والصبر على مختلف ضروب المعاملة، طوال تسع سنوات متواليات، حتى إذا كانت السنة العاشرة تفجَّرتِ ناراً وعنفاً؟ هذا ما لا أستطيع فهمه أبد الدهر».

– «إن مزاجي ليس من الرداءة بالقدر الذي تحسبين. أنا انفعالية، ولكني لست نزّاعة إلى الانتقام. فكم من مرة استشعرت، وأنا طفلة صغيرة، رغبة في حبك وإسعاد نفسي بهذا الحب... ولكني لم أجد منك ما يشجعني على ذلك. وإنّي لأتوق الآن أخلص التوق إلى مصالحتك. قبليني، يا امرأة خالي».

وأدنيت خدي إلى شفتيها، فأبت أن تمسّه. لقد قالت إني ضايقتها. بانحنائي فوق السرير، وسألتني أن آتيها بشيء من الماء. أساعدها على الاضطجاع من جديد – ذلك بأني كنت قد رفعتها قليلاً وأسندتها إلى ذراعي وهي تشرب – وضعت يدي على يدها المثلوجة الراشحة بالعرق. ولكن الأصابع الواهنة انكمشت مجفلة من لمسة يدي... واجتنبت عيناها شبه الزجاجيتين النظر إلى وجهي.

وأخيراً قلت: «وأحبيني، إذن، إن شئت، واكرهيني إن شئت، فقد غفرتُ لك من تلقاء نفسي غفراناً كاملاً. اسألي الله، الآن، أن يمنحك غفرانه، واطمئني نفساً».

يا للمرأة المعذبة البائسة! لقد كان من المتعذّر عليها أن تغيّر مساق تفكيرها.. كان أوان ذلك قد فات. لقد أبغضتني طوال حياتي، فكان حتماً عليها أن تموت وصدرها يضطرب بالحقد علي».

وهنا دخلت الممرضة، تتبعها بيسي. فتلكأتُ نصف ساعة أخرى، راجية أن ألمح إمارة تؤذن بالمودّة، ولكنها لم تتكشف عن شيء من ذلك. كانت تتّخذ سبيلها، في خطى حثيثة، نحو غيبوبة جديدة لم يقدَّر لها أن تصحو منها. وفي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة لفظت نفسها الأخير. ولم أكن إلى جانبها، آنذاك، لأغمض عينيها، بل لم تكن أي من بنتيها إلى جانبها. وصباح اليوم التالي أُنبئنا بأن كل شيء قد انتهى. وفي غضون ذلك كانت الفقيدة قد كُفِّنت. فمضيت أنا وأليزا لنودّعها الوداع الأخير. أما جورجيانا، التي انفجرت في النحيب، فلم تجرؤ على المضي معنا. وهناك ألفينا جسد سارة ريد، الذي كان في يوم من الأيام قوياً فعالاً، مسجّى في السرير، متصلباً ساكناً. كانت عيناها الصوانيتان محجوبتين بجفنيها الباردين، وكانت جبهتها وأساريرها الصارمة لا تزال تحمل طابع روحها العنيدة. والحق أن ذلك الجثمان بدا في ناظري شيئاً غريباً مهيباً. لقد رنوت إليه في كآبة وألم، فلم يوح إليّ بأيما شيء رقيق، بأيما شيء عذب، بأيما شيء يثير العطف أو الأَمل أو الاستسلام... لا، إنه لم يوحِ إلّي بغير الأسى الموجع لبلاياها هي... لا لمصابي أنا، وبغير رعب كئيب عصيّ الدمع أمام رهبة الموت على ذلك النحو.

وتأملت أليزا أمها في سكون. وبعد صمت استغرق بضع دقائق قالت:

– «القد كان خليقاً بها، بما رُزقت من بنية قوية، ان تعمِّر طويلاً. ولكن الهموم قصَّرت حياتها».

ثم إن التشنج قلَّص فمها لحظة. حتى إذا زايَلها، استدارت وغادرت الغرفة. وحذوت أنا حذرها. إن أيًّا منا لم تكن قد سفحت عبرة واحدة.

[22]

كان مستر روتشيستر قد منحني إجازة أسبوع واحد ليس غير، ومع ذلك فقد انسلخ شهر قبل أن أوفق إلى مغادرة غايتسهيد. كنت راغبة في الرحيل بُعَيْد الجنازة مباشرة، ولكن جورجيانا توسّلت إليّ أن أبقى حتى تتمّ استعدادها للسفر إلى لندن... لندن التي دعاها لزيارتها آخر الأمر خالها مستر جيبسون الذي كان قد وفد ليُشرف على دفن شقيقته وليسوي شؤون الأسرة. لقد قالت لي جورجيانا إنها تخاف أن تخلَّف وحيدة مع أليزا، فهي لم تلق منها لا مشاركة وجدانية في انكسار خاطرها، ولا عوناً على مخاوفها، ولا مساعدة في استعداداتها للرحيل، وهكذا احتملت جبنها المخبول ونواحها الأناني ما استطعت أن أحتمل، وبذلت قصارى جهدي في خياطة الملابس لها وفي حزم أمتعتها، برغم أنها كانت تستسلم – خلال انهماكي في هذا العمل – للكسل والتراخي، حتى لقد قلت في ذات نفسي: «لو قُدِّر عليّ وعليك، يا ابنة خالي، أن نحيا معاً على نحو موصر إذن لتعيّن علينا أن نقيم علاقاتنا على أساس مغاير. إني لن أرضى، في وداعة وخنوع، بأن أكون الفريق الصابر المتحمل، وخليق بي في مثل هذه الحال أن أعيّن لك قسطك من العمل وأن أكرهك على أدائه، وإلاَّ ترِك مُهْمَلاً غير مُنْجَز. ليس هذا فحسب، بل إنه لخليق بي في مثل هذه الحال أن أصرّ على إبقاء بعض شكاواك المتشدقة نصف الكاذبة مكبوتة في صدرك. وإذا كنت قد رضيت بالصبر على هذا الوضع والإذعان له فلمجرد أن المصادفة شاءت أن تكون علاقتنا قصيرة الأجل إلى حدّ بعيد، وأن تنشأ في ظرف فاجع جداً».

وأخيراً، ودعتني جورجيانا وارتحلت، فإذا بأليزا تسألني بدورها، أن أمكث أسبوعاً آخر. كانت خططها تستغرق وقتها كله وعنايتها كلها، كما قالت. وكانت

على وشك أن ترحل إلى موطن مجهول، وكانت تُمضي يومها كله في حجرتها، بعد أن تحكم إيصاد بابها بالمزلاج، معبئة حقائبها، مُفْرغة أدراجها، محرقة بعض الأوراق، غير متّصلة بأحد أو متحدثة إلى أحد. لقد رغبت إليّ في العناية بأمر المنزل، واستقبال الزائرين، والردّ على رسائل التعزية.

وذات صباح قالت لي إني راحلة وأضافت قائلة: «أنا شاكرة لك خدماتك القيمة وسلوكك العاقل الرصين! إن ثمّة بعض الفرق بين الحياة مع فتاة من مثلك والحياة مع جورجيانا، فأنت تؤدين دورك في الحياة، وتأبين أن تكوني عالة على أحد». وصمتت لحظة ثم أردفت: «غداً، سوف أمضي إلى أوروبة، ولسوف أفزع إلى بيت من بيوت الله، قرب «ليل»... سمِّه ديراً إذا شئت. وهناك سوف أنعم بالراحة وأحيا بعيدة عن كل إزعاج. وسوف أكرّس نفسي، فترة من الزمان، لدراسة المعتقدات الرومانية الكاثوليكية، وللتبحّر في الطرائق التي يعمل بها نظامها. فإذا وجدت، كما أتوقع نصف ترقّع، أنها المذهب المؤهل أكثر من سائر المذاهب لأن يكفل أداء الأشياء كلها على نحو مناسب منظّم، , اعتنقت معتقدات رومة، وترهّبت في أغلب الظن».

ولم أعبِّر عن دهشتي لهذا القرار ولم أحاول أن أثنيها عنه. لقد قلت في ذات نفسي: «إن هذا العمل سوف يلائمك ملاءمة كاملة، وأنا أسأل الله أن يعود ذلك عليك بخير عظيم!»

وحين ودّعتني قالت: «إلى اللقاء، يا ابنة عمتي جين ايير. أنا أتمن لك أحسن التمنيات، فأنت فتاة على شيء من العقل».

فأجبتها: «أنت لست عاطلة عن العقل، يا ابنة خالي أليزا. ولكني أحسب أن ما تملكينه منه سوف يُدفن حياً ضمن جدران دير فرنسي. وعلى أيّة حال، فليس هذا من شأني، وإذا كان ذلك يلائمك فلست أُبالي كثيراً...»

فقالت: «لقد نطقت بالحق». ومضت كلٌّ منا في سبيلها. وإذ كنت لن أجد أيما فرصة أخرى للإشارة إليها أو إلى أختها فيُحسن بي أن أنصّ هنا على أن

جورجيانا وفّقت إلى الزواج من رجل ثريٍّ أنهكه طول الانغماس في الملذّات، وأن أليزا ترهّبت فعلاً، وهي اليوم رئيسة الدير الذي أنفقت فيه الفترة التحضيرية السابقة للترهّب، والذي وقفت له ثروتها.

كيف يشعر الناس عندما يؤوبون إلى ديارهم بعد غيبة ما، طويلة كانت أم قصيرة؟ لست أدري، فأنا لم أخْبُرْ مثل هذا الإحساس قط من قبل. لقد سبق لي أن عرفت، وأنا طفلة، ما معنى العودة إلى غايتسهيد بعد نزهة على القدمين طويلة، لكي أقابل هناك بالتعنيف بسبب ما يبدو على وجهي من إمارات البرد والكآبة. كما عرفت في ما بعد ما معنى العودة من الكنيسة إلى لو وود، لكي أتوق هناك إلى وجبة طعام خصبة ونارٍ متوهجة، ولكي يتعذّر عل

يٍّ الفوز بأي منهما. والواقع أن كلتا العودتين لم تكن سائغة جداً، أو مشتهاة إلى حد بعيد. فلم يكن ثمة أيما جاذبية تجذبني إلى نقطة بعينها، جاذبية تقوى وتشتدّ كلما اقتربت من مركزها. وهكذا كان علي أن أختبر معنى العودة إلى ثورنفيلد قبل أن أدرك ما يشعر به الناس عندما يؤوبون إلى ديارهم بعد الغياب عنها.

لقد بدت رحلتي مرهقة – مرهقة جداً: خمسون ميلاً في اليوم الأول، ومبيت ليلة في نزل، وخمسون ميلاً أخري في اليوم التالي. وخلال الساعات الاثنتي عشرة الأولى فكرت في مسز ريد وهي تعالج سكرات الموت: لقد رأيت وجهها الشائه الشاحب، وسمعت صوتها المتغيّر على نحو عجيب. لقد استغرقت في التفكير في الجنازة، والكفن، وعربة الموت، وموكب المستأجرين والخدم – كان عدد الأنسباء الذين شهدوا الجنازة قليلاً – والسَّرَبِ الصغير المتثائب، والكنيسة الصامتة، والصلاة المهيبة. ثم فكرت في أليزا وجورجيانا، لقد رأيت إحداهما مطمَح الأبصار في قاعة رقص، ورأيت الأخرى حبيسة حجيرة من حجيرات دير. واستغرقت في تحليل خصائصهما المتفاوتة التي تميّز شخصية كلٍّ منهما وشكلها الخارجي. ولكن وصولي، بعد أن هبط الظلام، إلى مدينة... الكبيرة ما لبث أن بدّد هذه الأفكار، لقد

وجَّهها الليل وجهة أخرى. فلم أكد أستلقي على فراش السفر حتى انتقلت من دنيا الذكريات إلى عالم التوقُع.

كنت عائدة إلى ثورنفيلد: ولكن كم سيطول مُقامي هناك؟ فترة غير مديدة.. ذلك أمرٌ كنت منه على يقين. والواقع أني تلقيت أثناء غيبتي رسالة من مسز فيرفاكس عرفت منها أن عقد ضيوف القصر كان قد انفرط، وأن مستر روتشيستر كان قد ارتحل إلى لندن قبل أسابيع ثلاثة، ولكن عودته متوقّعة بعد أسبوعين اثنين. ولقد قدّرت مسز فيرفاكس أن ارتحاله كان ابتغاء الترتيبات الخاصة بعرسه، إذ سبق له أن تحدّث عن شراء عربة جديدة: لقد قالت إن فكرة زواجه من مس اينغرام لا تزال تبدو في نظرها شيئاً غريباً، بيد أنه لم يعد في ميسورها – بعد الذي سمعته من أقوال الناس جميعاً وبعد الذي رأته هي بأمِّ عينها – أن تشك في أن الحدث واقع عما قريب. وكان تعليقي الذهني على هذا قولي بيني وبين نفسي: «يمكن أن تكوني مغالية في عدم التصديق إن شككتِ في ذلك. أمّا أنا فليس يخامرني أي شك».

وتلا ذلك سؤال: «إلى أين ينبغي أن أذهب؟ وطوال الليل رأيت مس اينغرام في ما يرى النائم. وفي حلم من أحلام الصباح الجلية رأيتها تُوصد أبواب ثورنفيلد في وجهي، وتطردني منه. ورأيت مسترروتشيستر يشهد ذلك طاوياً ذراعيه، يبتسم لها ولي – في ما خُيّل إليّ – ابتسامة ساخرة.

ولم أكن قد أحطت مسز فيرفاكس علماً بموعد عودتي على وجه الضبط، ذلك بأني كنت غير راغبة في أن تستقبلني في ميلكوت لا عربة ولا مركبة. لقد اعتزمت أن أجتاز المسافة بمفردي، سعياً على قدمي، في هدوء. وهكذا لم أكد أعهد في أمر العناية بحقيبتي إلى خادم «فندق جورج» حتى انسللت من الفندق، في سكينة بالغة، حوالي الساعة السادسة من مساء يوم من أيام حزيران (يونيو) واتّخذت الطريق القديمة المؤدية إلى ثورنفيلد، وهي طريق تنساب، في المقام الأول، عبر الحقول، وكانت الآن غير مطروقة إلاّ قليلاً.

إنها لم تكن ليلة من ليالي الصيف المشرقة أو الرائعة، على الرغم من أنها كانت رائقة عليلة النسيم. كان مجففو العشب منصرفين إلى عملهم على طول الطريق، وكانت السماء - برغم أنها لم تكن خلواً من الغيوم - تعِدُ بجوٍ جميل في مقبلات الأيام. كانت زرقتها - حيث بدت الزرقة لعين الناظر - معتدلة هادئة، وكانت طبقات سحابها شاهقة رقيقة. وكانت الريح

الغربية حارة، أيضاً - لا يرطبها أي التماعِ مائي: لقد بدت وكأن خلف حجابها المنسوج من بخار مرمري ناراً موقدة، ومذبحاً يضطرم فيه اللهب. ومن خلال كُوى السحاب توهّج احمرار ذهبي.

وغمرتني السعادة إذ رأيت الطريق تتقاصر أمامي: غمرتني إلى درجة جعلتني أكفّ عن السير، مرة، لأساءل نفسي عن معنى هذه البهجة، ولأذكرها بأني ما كنت ماضية إلى بيتي، أو إلى مثوى دائم، أو إلى موطن يترقّبني فيه ينتظر وصولي إليه أصدقاء مولعون بي. وقلت مخاطبة نفسي: «إن مسز فيرفاكس سوف ترحّب بك بابتسامة هادئة، هذا شيء لا ريب فيه. وإن آديل الصغيرة سوف تصفق وتثب لتراك. ولكنك تعلمين علم اليقين أنّك تفكرين في شخص آخر غير مسز فيرفاكس وآديل، وأن هذا الشخص لا يفكّر فيك».

ولكن أي شيء أشدّ عناداً من الشباب؟ أي شيء أشدَّ عمى من الغرور؟ لقد أكّد لي كلاهما أن مجرد تكحيل عيني، كرة أخرى، برؤية مستر روتشيستر هو بهجة من المباهج، سواء أنظرَ هو إليّ أم لم ينظر. ثم أضافا قائلين: «عجّلي! عجلي! كوني إلى جانبه ما دمت قادرة على ذلك، فلن تنقضي غير أيام قليلة أو أسابيع قليلة، على الأكثر، حتى تفارقيه إلى الأبد!» وعندئذ خنقت في صدري ألماً مبرحاً وليداً وأخذت أغذّ الخطى.

وكان العمّال يجففون العشب أيضاً، في مروج ثورنفيلد، وقد أنهوا عملهم منذ لحظات، وانقلبوا إلى بيوتهم، وقشاشاتهم على مناكبهم، ساعة وصلت. ولم يبق عليّ غير اجتياز حقل أو حقلين، ومن ثم أعبر الطريق وأبلغ أبواب القصر الخارجية.

لشدّ ما كانت الوشائع حافلة بالورود! ولكني لم أجد متّسعاً من الوقت لقطفها. فقد أردت أن أبلغ القصر على جناح السرعة. واجتزعت عليقة طويلة، مطلقة أغصانها مورقة منوِّرة عبر المجاز، ورأيت درجات سلم السياج الضيقة، ثم لمحت... مستر روتشيستر قاعداً هناك، وفي يده دفتر وقلم: لقد كان يكتب.

حسناً، إنه لم يكن شبحاً من الأشباح، ومع ذلك، فقد عجزت عن التحكّم بأي عصب من أعصابي، وانسلخت فترة فقدت فيها السيطرة على نفسي. فما معنى هذا؟ وما كنت لأتوهم أني سوف أرتعد على هذا النحو حين أراه، أو يتهدّج صوتي أو أفقد القدرة على التحرّك في حضرته. وعلى أيّة حال، فلسوف أنقلب راجعة حالما أوفّق إلى الحركة، ولا داعي لأن أخدع نفسي. أنا أعرف طريقاً أخرى تفضي إلى القصر. ولكن. أيّة قيمة لذلك، بل أيّة قيمة لمعرفتي عشرين طريقاً إلى القصر، لقد قفي الأمر ووقعت عينُه عليّ.

وصاح وهو ينحي دفتره وقلمه جانباً: «هالو! ها أنت ذي قد عدتِ! تقدِّمي، إذا سمحت».

وأحسب أني قد تقدّمت، وإن لم أدر بأية طريقة فعلت ذلك، إذ.

كنت لا أعي حركاتي إلاّ قليلاً، وإذ كنت لا أحرص إلاّ على الظهور. بمظهر الشخص الهادئ وعلى السيطرة – قبل كل شيء – على عضلات وجهي المختلجة، التي استشعرت أنها تتمرّد على إرادتي في وقاحة وتكافح للتعبير عمّا اعتزمت إخفاءه. ولكن لديّ قناعاً، ولقد أسدلته: لقد بذلت قصارى جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي.

وأضاف قائلاً: «أهذا أنتِ، يا جين ايير؟ أقادمة أنتِ من ميلكوت، وسعياً على القدمين؟ أجل... إنها لمجرد حيلة من حيلك أن لا تبعثي في طلب عربة تنطلق بك عجلاتها مجلجلة فوق حصباء الطريق كما يفعل أي مخلوق بشري، وأن تتسلَّلي بدلاً من ذلك،.مع الغسق، وكأنك حلم من الأحلام، أو شبح من الأشباح. قولي لي، بحق الشيطان، ما الذي فعلتِهِ بنفسكِ طوال هذا الشهر الأخير؟

– «كنت، يا سيدي، مع امرأة خالي التي ماتت».

– «يا له من جواب جَيْنــِيٍّ [1]نموذجي! فليحرسني الملائكة الصالحون! إنها تُقبل من العالم الآخر – من موطن الأموات – ولا تتورع عن إنبائي بذلك حين تلقاني وحيداً هنا عند الغسق! لو أني آنست من نفسي الجرأة إذن لعمدت إلى لمسك لأرى أأنت مادة أم خيال، أيتها العفريتة الصغيرة! ولكن ذلك أشبه بمن يحاول أن يتقرّى السراب الأزرق في أرض سبخة». وصمت لحظة، ثم أضاف: «يا لك من شاردة! يا لك من شاردة! لقد تعمّدت التغيّب عني شهراً كاملاً، ونسيتني نسياناً كاملاً! إني لمستعد لأن أقسم على ذلك!».

(1) Janian، نسبة إلى جن. (المعرب)

كنت أعلم أن الالتقاء بسيدي، من جديد، خليق به أن يُوقع البهجة في نفسي، برغم ما كان يعكّر صفو تلك البهجة من خوفي أن تنقطع هذه الصلة التي تربطني به، عمّا قريب، ومن إدراكي أني لم أكن عنده. سيئاً ذا خطر. ولكن مستر روتشيستر كان يتمتع أبداً(أو هذا ما اعتقدته على الأقل) بحظ وافر من القدرة على إدخال السعادة إلى القلوب بحيث كان مجرد تذوّق الفتات الذي نثره لأمثالي من الطيور الغريبة التائهة ضرباً من الوليمة البهيجة. لقد كانت كلماته الأخيرة بلسماً لقلبي: لقد بدت وكأنها تدلّ على أنه كان يعلّق أهمية ما على نسياني أو عدم نسياني له. ثم إنه قد تحدّث عن ثورنفيلد وكأنه مثواي... ألا ليته كان مثواي حقاً!»

ولم يغادر مجلسه عند سلم السياج. ولم أجد في نفسي كبير نزوع إلى استئذانه في الانصراف. وسرعان ما سألته هل ارتحل إلى لندن؟

فأجاب: «أجل، وأحسب أنك عرفت ذلك من طريق الكشف والفراسة».

– «لقد أنبأتني مسز فيرفاكس بذلك في رسالة كتبتها إليّ».

– «وهل أنبأتك بالغرض الذي من أجله شخصت إلى هناك؟»

– «أوه، أجل، يا سيدي. لقد عرف كل امرئ بالمهمة التي مضيت لأدائها».

– »يجب أن تلقي نظرة على العربة، يا جين، وتقولي لي هل تليق، في رأيك، با لسيدة روتشيستر، بكل ما في الكلمة من معنى، وهل ستبدو هذه السيدة فيها – وقد استراحت إلى وسائدها الأرجوانية – مثل الملكة بوديقا[1]؟ إني لأتمنى، يا جين، لو كنت أكثر أهلية، بمقدار ذرة واحدة، لملاءمتها في مظهرها الخارجي. ألا قولي لي، وفيك ما فيك من روح الجن، أليس في ميسورك أن تمنحيني رقية أو شراباً سحرياً أو أيما شيء من هذا القبيل قادراً على أن يجعل مني رجلاً وسيماً؟»

(1)Boudicca أو Boadiceaملكة بريطانية توفيت عام 62 بعد الميلاد قادت ثورة فاشلة ضد الحكم الروماني في بريطانيا. (المعرب)

– «إن ما تطلبه، يا سيدي، خليق به أن يُعجز سحر الساحر!» ثم أضفت في ما بيني وبين نفسي قائلة: «ان الرقية التي تحتاج إليها لا تعدو أن تكون عيناً مُحبة. وإنّك لتبدو، لمثل هذه العين، على قدر من الجمال غير يسير. ولعل الأصحّ القول إن لتجهم وجهك قوة أين منها قوة الجمال».

وكان مستر روتشيستر قد قرأ في بعض الأحيان أفكاري اللاملفوظة ببراعة عجزت عن فهمها. أما في هذه اللحظة بالذات فإنه لم يسمع حتى جوابي المقتضب الملفوظ. ولكن ثغره افترّ لي عن ابتسامة فريدة خاصة به – ابتسامة كان لا يرسلها إلاَّ في أحوال نادرة. فقد بدا وكأنه يعتقد أنها أعذب وأكرم من أن تكون للأغراض العادية. كانت إشراقه الشعور الحقيقية، ولقد سفحها الآن من أجلي.

وقال وهو يفسح لي مجالاً يمكنني من عبور سُلم السياج: «اذهبي إلى القصر، وضعي قدميك الصغيرتين التائهتين المرهقتين فوق عتبة صديق لكِ».

ولم يكن عليّ إلا أن أمتثل أمره في صمت ولم تكن بي حاجة إلى فضل كلام. فعبرت السياج من غير أن أنطق ببنت شفة، موطنة العزم على مفارقته في هدوء.

ولكن حافزاً باطنياً جمّدني في مكاني... لقد أكرهتني قوّة ما على الالتفات والعودة. وقلت – أو أن شيئاً في داخلي قال بالنيابة عني، وبالرغم مني:

– «أشكرك، يا مستر روتشيستر على عطفك العظيم. إني لسعيدة على نحو غير مألوف بالعودة إليك من جديد. وحيث تكون أنت فثمة مثواي... مثواي الوحيد».

وأنشأت أعدو في سرعة بالغة كان من المتعذّر معها، حتى عليه هو، أن يدركني لو حاول ذلك. وكادت آديل الصغيرة تطير فرحاً عندما رأتني. وتلقتني مسز فيرفاكس بمودّتها المألوفة الصادقة. وابتسمت «ليبا»، وحتى «صوفي» قالت لي بالفرنسية «مساء الخير» في جذل وحبور. وكان هذا عذباً جداً، فليس ثمة سعادة أعظم من إدراك المرء أنه موضع حب إخوانه في الإنسانية، وشعوره بأن وجوده مدعاةً إلى تعزيز راحتهم ورفاهيتهم.

وتلك الليلة أغمضت عيني عن المستقبل في قوة وعزم، وأوصدت أذني دون الصوت الذي ظلّ يذكّرني بالفراق الوشيك والغمّ القريب. حتى إذا فرغنا من تناول الشاي، واستأنفت مسز فيرفاكس حبْكها، واتُّخذت مقعداً خفيضاً على مقربة منها، وركعت آديل على السجادة ملتصقة بي، وبدا وكأن جواً من الحنان يطوّقنا بحلقة من الأمن الذهبي سألتُ الله، في صلاة صامتة، أن لا يتبدّد شملنا وشيكاً والا تشط بنا النوى. ولكن ما إن دخل علينا مستر روتشيستر على حين غرة، ونحن في مجلسنا ذاك، وبدا لي وكأنه ابتهج إذ رأى إلى اجتماع شملنا على ذلك النحو الناضح بالمحبَّة... وما أن قال إنه يحسب أن السيدة العجوز لا بد أن تكون مغتبطة الآن بعد أن استردّت بنتها بالتبنّي، وأنه واثق من أن آديل مستعدة لأن «تقرقش» أمها الإنكليزية الصغيرة، – أقول ما إن دخل مستر روتشيستر علينا حتى جرؤتُ على مداعبة الأمل بأن يلهمه الله، حتى بعد زواجه، إبقاءنا معاً في مكان ما في ظل رعايته، وعدم إقصائنا كلّ الإقصاء عن إشعاع وجوده ما بيننا.

وتلت عودتي إلى قصر ثورنفيلد فترة أسبوعين من الهدوء المريب. إن أيما شيء لم يُقَل عن زواج رب القصر، ولم أشهد أنا أي استعدادات خاصة بمثل هذا الحدث. كنت أسأل مسز فيرفاكس، كل يوم تقريباً، عمّا إذا كانت قد سمعت بأيما قرار اتُّخِذَ في هذه المسألة، ولكن جوابها كان منفياً، دائماً. ولقد قالي لي إنها سألت مستر روتشيستر فعلاً، ذات مرة، متى يعتزم أن يصحب عروسه إلى قصر ثورنفيلد فلم يجبها بغير مزحة أطلقها، وبغير نظرة من نظراته الغريبة، فلم تدر ما الذي ينبغي لها أن تفهم من ذلك كله.

بيد أن الذي أدهشني، أكثر ما يكون الدهش، إحجامه عن الارتحال عن القصر بين الفينة والفينة، وانقطاعه عن زيارة «اينغرام بارك». صحيح أنه كان يقوم على مبعدة عشرين ميلاً، عند تخوم إقليم آخر، ولكن أي شيء كانت تلك المسافة في نظر عاشق تضطرم في قلبه نار الشوق؟ إنها لا تعدو أن تكون، بالنسبة إلى فارس متمرّس لا يعرف الكلل كمستر روتشيستر، نزهة صباحية. وهكذا شرعت أغذو آمالاً لم يكن من حقي أن أغذوَها: لقد قلت في ذات نفسي إن الخطبة قد فُسِخت، وإن إشاعة الزواج كانت كاذبة، وإن أحد الفريقين، أو كليهما، قد غيّر رأيه. وكان من دأبي أن أرنو إلى وجه سيدي لأرى هل هو محزون أو مغيظ، ولكني لم أستطع أن أتذكّر أني ألفيته، في أيما يوم مضى، أكثر صفاء وأشد خلواً من سحائب الحزن والكمد. ليس هذا فحسب، بل لقد كان إذا ما اتّفق لي أن تكشّفت – في اللحظات التي اعتدت إنفاقها أنا وتلميذتي في حضرته – عن شيء من الاكتئاب أو استغرقت في غم لا مفرّ منه، تنبسط أسارير وجهه ويغلب عليها البشر. ولست أعرف أنه دعاني إلى المثول في حضرته، في أيما يوم مضى، أكثر مما دعاني في هذه الفترة، أو أنه كان أكثر ملاطفة لي وأنا بين يديه. وأسفاه! إني لم أحبه في أيما فترة سالفة أكثر ممّا أحببته آنذاك.

[23]

وكان منتصفُ الصيف قد أشرق على إنكلترة بهياً رائعاً. إن مثل هذه السماء المسرفة في الصفاء وهذه الشمس المغالية في السطوع، اللتين نعمنا بهما آنذاك فترة طويلة على غير انقطاع، نادراً ما تحابيان أرضنا المكتنفة بالأمواج. لكأن عصبة من الأيام الإيطالية قد وفدت من الجنوب مثل سرب من الطيور الرحّالة السَّنية، وحطّت التماساً للراحة فوق شواطئ بريطانيا الصخرية. كان التبن كله قد خُزِن، وكانت الطرق بيضاء مسفوعة، وكانت أوراق الشجر في معية، الاسمرار. ولقد بدت المغايرة قوية صارخة بين الأسيجة والغابات المثقلة بالأوراق والممعنة في الاخضرار وبين المروج المكشوفة القائمة بينها والتي غلبت عليها صبغة الشمس.

وعشية اليوم الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) أوت آديل إلى فراشها مكدودة مرهقة،.مع غروب الشمس، بعد أن أنفقت نصف النهار في جني الفريز البري من درب «هاي» حتى إذا استغرقت في النوم، فارقتها ومضيت إلى الحديقة.

كانت هذه الساعة هي أعذب الساعات الأربع والعشرين. «كان النهار قد استنفد نيرانه المتوقدة»، وكان الندى يسقط بارداً على السهول اللاهثة، والقمم المسفوعة. وحيث جنحت الشمس إلى الغروب وانتشر وهج أرجواني مهيب، متّقد بمثل وميض جوهرة حمراء وبمثل لهب فرن في ناحية، فوق قمّة إحدى التلال، وممتدّ امتداداً عالياً عريضاً، رقيقاً ثم أشد رقة، فوق نصف السماء. وكانت للمشرق أيضاً فتنته الخاصة المتميزة بزرقة عميقة بديعة، وجوهرته المتواضعة الخاصة أيضاً، وهي نجمة متوحّدة تتّخذ سبيلها في معارج السماء. ولن يمضي طويل وقت حتى يزهو بالقمر. ولكن القمر كان لا يزال وراء الأُفق.

تمشيت برهة في المجاز المعبَّد، ولكن أريجاً لطيفاً مألوفاً لديّ – عبير سيجار– ما لبث أن تسلل نحوي من نافذة ما. والتفت فرأيت نافذة حجرة المكتبة مفتوحة فتحة لا يزيد عرضها على عرض اليد البشرية. وكنت أعلم أن في إمكان العين أن تراقبني من هناك. وهكذا مضيت إلى البستان. والحق أنه لم يكن في أراضي القصر بقعة أورف ظلالاً، وأكثر شبهاً بجنّة عدن. كان غاصاً بالأشجار، منوِّراً بالأزهار. وكان يفصله عن فناء القصر، من ناحية، جدار شامخ، ويحجبه عن المرج، من ناحية أخرى، ممر تكتنفه شجرات الزان. وفي أقصاه كان سياج غائر هو الفاصل الوحيد بينه وبين الحقول المنعزلة. وكان يفضي إلى هذا السياج مجاز متعرج تكتنفه أشجار الغار، وينتهي عند شجرة ضخمة من شجرات الشهبلُّوط الهندي طُوِّقت قاعدتها بمقعد. وههنا كان في ميسور المرء أن يطوِّف في نجوة من أعين الرقباء. وقد شعرت وكأن في ميسوري أن أفيء إلى هذه الظلال أبد الدهر. ولكن خطاي ما لبثت أن صُدَّت عن سبيلها بينما كنت أذرع أحواض الرياحين والشجرات المثمرة في الجزء الأعلى من البستان، وقد أغراني بالذهاب إلى هناك ذلك الضوء الذي كان يلقيه القمر البازغ منذ قريب على تلك الرقعة الأكثر انكشافاً... ولم يكن الذي صدّ خطاي عن سبيلها صوتاً ما، أو مشهداً ما، ولكنه كان هذه المرة أيضاً عبيراً منذراً.

كان النسرين، ونبات الشَّيْبة، والياسمين، والقرنفل والورد قد شرعت تقدم قرابين بخورها الليلية منذ فترة بعيدة... وهذا العبير ليس عبير عشب ولا زهر، إنه – ولقد عرفت ذلك جيداً – عبير سيجار مستر روتشيستر. وأجلتُ الطرف في ما حولي، وأصغيت، فرأيت أشجاراً دانية القطوف، وسمعت هزاراً يغرّد في غابة تقع على مبعدة نصف ميل، ولكني لم أر أي شخص يتحرّك ولم أسمع أية خطى تتقدم. ومع ذلك فها هو ذا ذلك العبير يقوى ويشتدّ، ولا بد لي من الركون إلى الفرار. وهكذا شخصت إلى البُوَيب المؤدّي إلى الخميلة، فإذا بي أرى مستر روتشيستر قادماً. عندئذ ارتددت إلى فجوة اللبلاب قائلة في ما بيني وبين نفسي إنه لن يمكث

فترة طويلة، وإنه سوف يرجع وشيكاً من حيث أتى، وإنه لن يراني البتة إذا ما لزمت السكينة والهدوء.

ولكن لا... إن هذه. العشية تُوقع في نفسه البهجة كما أوقعتها في نفسي، وإن هذه الجنينة العتيقة تجذبه إليها بقدر ما جذبتني. وها هو ذا يتقدم في سبيله، رافعاً حيناً أغصان شجرة عنب الثعلب ليرى إلى ما يُثقلها من ثمرات في مثل ضخامة الخوخ، قاطفاً حيناً حبّة كرز ناضجة من على الجدار، منحنياً حيناً فوق مجموعة من الرياحين يستروح أريجها أو يمتّع طرفه بمشهد حبات الندى على بتلاتها. وتدندن فراشة ضخمة على مقربة مني، وتحطّ على نبتة قائمة عند قدمي مستر روتشيستر. ويلمح مستر روتشيستر الفراشة، وينحني لكي يتأملها.

وقلت في ذات نفسي: «إنه يوليني الآن ظهره، وهو في شُغل عني أيضاً. ومن يدري، فلعلي إذا ما خففت الوطأ أن أوفّق إلى الانسلال من غير أن يشعر بي»•

ورحت أمشي الهوينا على حافة الأرض المكسوة بالعشب خشية أن ينم عليّ الحصى إذا وطئته: كان واقفاً بين أحواض الرياحين على مبعدة ياردة أو ياردتين من المكان الذي كان علي أن أجتازه، وكانت الفراشة تستأثر بانتباهه في ما يبدو. فقلت في ذات نفسي: «سوف أنسلُّ، في سهولة ويسر». وفيما كنت أجتاز ظله، الذي بسطه القمر، غير المرتفع عالياً في السماء، بَسْطاً متطاولاً على أرض الحديقة، قال في هدوء ومن غير أن يلتفت:

- «جين، تعالي وانظري إلى هذه المخلوقة».

ولم أكن قد أحدثت ضجة ما، وليس له عينان من خلف، فهل كان في ميسور ظله أن يشعر؟ أجفلت بادئ الأمر، ثم تقدّمت نحوه.

وقال: «انظري إلى جناحيها. إنها تذكّرني بحشرة من حشرات جزر الهند الغربية. والواقع أن المرء نادراً ما يرى قرصاناً ليلياً في مثل هذه الضخامة والمرح في إنكلترة. انظري! لقد طارت».

وطوَّفت الفراشة بعيداً عنه، وكنت أنا أتراجع أيضاً على نحو خجول أخرق. ولكن مستر روتشيستر تبعني، حتى إذا بلغنا البوَيب قال:

– «ارجعي. فمن العار في مثل هذه الليلة البديعة أن يقبع الناس في منازلهم. ولا ريب في أنه ما من إنسان يتمنى المضي إلى فراشه حين يلتقي غروب الشمس مثل هذا الالتقاء الرائع مع طلوع القمر».

إن بين عيوبي عيباً يتمثل في أن لساني، برغم ما يجيده أحياناً من سرعة الإجابة، يعجز في أحيان أخرى عجزاً محزناً عن صياغة عذر من الأعذار. وهذا العجز لا يحدث إلا وأنا في غمرة أزمة ما، حين أكون في أمس الحاجة إلى ذريعة معقولة للتخلص من ارتباك موجع. فالواقع أني كنت راغبة عن السير أنا ومستر روتشيستر، وحدنا، في البستان الظليل، وفي مثل تلك الساعة بالذات، ولكني لم أستطع أن أجد عذراً أنتحله لمفارقته. فرحت أتبعه في خطىً متلكِّئة، وقد عكفت أفكاري على اكتشاف وسيلة للخلاص. ولكنه هو نفسه بدا رابط الجأش رزيناً إلى درجة خجلت معها من ذلك الاضطراب الذي ألمَّ بي. لقد تراءى لي أن الشر – إن يكن ثمة شر فعلي أو محتمل – كان كامناً في ذات نفسي فحسب. أما ذهنه هو فكان وادعاً خالياً من ذلك كله.

واستأنف حديثه حين بلغنا المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار، وهبط في تؤدة نحو السياج الغائر وشجرة الشهبلُّوط الهندي، فقال: «ثورنفيلد موطن بهيج في فصل الصيف، أليس كذلك؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «من المفروض أن تكوني قد أصبحت مولعة بعض الشيء بهذا الموطن... أنت التي تملكين عيناً ذوَّاقة للجمال الطبيعي، وتتمتعين بقَدْر غير يسير من حس الألفة».

– «أنا مولعة به حقاً».

– «وعلى الرغم من أني لا أفهم كيف تمَّ ذلك، ألاحظ أنك اكتسبت قدراً من الحب لآديل الصغيرة أيضاً، وحتى للسيدة فيرفاكس الساذجة».

– «نعم، يا سيدي. إني لأحبهما كليهما، بطريقتين مختلفتين».

– «وهل تعتقدين أن ابتعادك عنهما خليق بأن يُحزن نفسك؟»

–«نعم».

فقال: «واحسرتاه! ثم أطلق زفرة وصمت لحظة، ليعود بعد ذلك إلى القول: «تلك هي السبيل التي تنتهجها الأحداث في هذه الحياة. فما إن يستقرّ المقام بالمرء في موطن من مواطن الاستراحة بهيج حتى يدعوه صوت ما إلى النهوض والارتحال، لأن ساعة الراحة قد انقضت».

فسألته: «وهل يتعيَّن علي أن أرتحل؟ هل يتعيّن عليّ أن أغادر ثورنفليد؟»

–«أعتقد أنه يتعيِّن عليك ذلك، يا جين. أنا آسف، يا جانيت، ولكني أعتقد حقاً أنه يتعيّن عليك ذلك».

وكانت هذه ضربة قاسية. ولكني لم أجِزْ لها أن تصرعني

وقلت: «حسناً، يا سيدي، سوف أكون مستعدة للرحيل حالما أُبلَّغ الأمر بذلك».

– «إني أبلِّغك إيّاه الآن إن علي أن أصدره الليلة».

– «وإذن. فقد اعتزمت أن تتزوج، يا سيدي؟»

–«تمـــــ...ــــــاماً، بالـــ ...ــضبط. لقد وفِّقت، بذكائك المعهود، إلى إصابة كبد الحقيقة».

–«وفي وقت قريب، يا سيدي؟»

– «في وقت قريب جداً، يا... أعني يا مس ايير. ولسوف تذكرين، يا جين، أنه في أول مرة ألمعتُ لك فيها أو ألمعتِ الإشاعات لك فيها إلى أنني أعتزم أن

أضع رقبتي العجوز العزباء في الأنشوطة المقدسة، وأن أدخل حظيرة الزواج الإلهية، وأن أضم مس اينغرام إلى صدري، وبكلمة مختصرة (إنها ضخمة بعض الشيء، ولكن هذا لا صلة له بالموضوع، ولكن المرء لا يكاد يُتخَم من مخلوقة ممتازة جداً مثل بلانشتي الجميلة) حسناً، كما كنت أقول لكِ، اصغِ إليَّ يا جين! أنت لا تديرين رأسك لكي تبحثي عن فراشات إضافية، أليس كذلك؟ لقد كانت مجرد حشرة حمراء، أيتها الطفلة الغريرة، مرتحلة إلى موطنها... أقول إني أحب أن أذكركِ بأنك كنت أول من قال لي، بتلك الحصافة التي أحترمها فيك - بذلك التبصر والتعقّل والوداعة التي تليق بمركزك المرؤوس والمسؤول في وقت واحد - أن من الخير لك ولآديل الصغيرة معاً، في حال زواجي من مس اينغرام، أن تغادرا القصر في الحال. ولسوف أتغاضى عمّا ينطوي عليه هذا الاقتراح من ذمٍّ لشخصية محبوبتي، أجل إني سأحاول أن أنساه، حين تبرحين القصر يا جين، وأن لا أتذكر منه غير جانبه الحكيم الذي قررت أن أجعله هادياً لي إلى سواء السبيل. إن على آديل أن تذهب إلى المدرسة، وإن عليك أنت - يا مس ايير - أن تبحثي عن عمل جديد».

- «أجل، يا سيدي، سوف أعلن في الصحف على التوّ، وفي الوقت نفسه أحسب...» وكنت على وشك أن أقول: «أحسب أن في استطاعتي أن أبقى هنا ريثما أجد مكاناً آخر أفيء إليه». ولكني أمسكت عن الكلام. وقد شعرت أنه ليس من الخير لي أن أغامر بتطويل الجملة، ذلك بأن صوتي لم يكن طوع أمري تماماً.

وتابع مستر روتشيستر حديثه قائلاً: «أنا أرجو أن أصبح عريساً في مدّة لا تتجاوز شهراً واحداً، وفي خلال ذلك سأبحث لك بنفسي عن عمل ومكان للإقامة».

- «أشكرك، يا سيدي... يؤسفني أن أجشمك...»

- «أوه، لا داعي للاعتذار! أنا أعتبر أنه حين تؤدي مرؤوسة واجبها بمثل الإجادة التي أدّيت أنت بها واجبك يصبح من حقها على مستخدمها أن يُسدي إليها أيّة خدمة صغيرة يجد نفسه قادراً على إسدائها في غير مشقة. والواقع أني كنت قد

سمعت من أم زوجتي المقبلة عن وظيفة أحسب أنها تلائمك، وظيفة تقتضيك أن تتولّي تربية بنات مسز ديونيسيوس أوغول الخمس، وهي إحدى سيدات بيترنوت لودج، كونوت، في ارلندة. ولسوف تحبين إيرلندة، في ما أعتقد. إن أهلها على ما يقال، قوم يتميزون باللطف البالغ والمودّة الغامرة».

– «ولكنها نائية جداً، يا سيدي».

– «ليس هذا بالأمر المهم. إن فتاة تتمتع بمثل عقلك الراجح لن تعترض لا على الرحلة ولا على البعد».

– «أنا لا أعترض على الرحلة، ولكن أعترض على البعد. ثم إن البحر يشكّل حاجزاً يفصلني عن...».

– «يفصلك عن أي شيء؟»

– «عن إنكلترة، وعن ثورنفيلد... وعن...».

– «وعن ماذا؟»

– «عنك أنت، يا سيدي».

قلت ذلك على نحو لا إرادي تقريباً. وعلى الرغم مني سالت العبرات من عينيَّ. بيد أني لم أبك بكاء صارخاً، لا، لقد اجتنبت النحيب. ولقد كان مجرّد التفكير بمسز أوغول وبـــ «بيترنوت لودج» قد أورثني انقباضاً في الصدر. وكان التفكير في كل ذلك الماء الأَجاج وذلك الزبد المقدَّر لهما، في ما بدا لي، أن يفصلاني عن سيدي الذي كنت أمشي الآن إلى جانبه قد أورثني انقباضاً أقوى. ولكن التفكير في الأوقيانوس الأوسع – الثروة، الطبقة الاجتماعية، والأعراف التي حالت

بيني وبين من أحببته حباً طبيعياً لا منجىً منه – كان هو الذي أورثني انقباض الصدر.

وعدت أقول: «إنها نائية جداً».

– «هذا صحيح، من غير ريب وحين تنتهين إلى بيترنوت لودج، كونوت، إيرلندة، فلن أوفّق إلى رؤيتك بعد ذلك أبداً، يا جين. تلك حقيقة لا يعتورها أي لبس. فأنا لا أسافر إلى إيرلندة البتة، بسبب من أني لا أستشعر ميلاً كبيراً إلى تلك البلاد. لقد كنا صديقين حميمين، يا جين، ألم نكن كذلك؟»

– «أجل، يا سيدي».

وحين يلتقي الصديقان عشية الفراق فإنهما يحبان أن ينفقا ما تبقَّى لديهما من سويعات قليلة، متناجييْن جنباً إلى جنب. تعالي... سوف نتحدث عن الرحلة وعن الفراق القريب، في هدوء، طوال نصف ساعة أو نحو ذلك، بينا تستهلّ النجوم حياتها المشعّة في القبة الزرقاء هناك.هي ذي شجرة الشهبلُّوط الهندي، وهو ذا المقعد القائم عند جذورها العتيقة. تعالي، سوف نجلس هناك في أمن وسكينة، هذه الليلة، على الرغم من أنه لن يقدُّر لنا، بعد، أن نجلس ههنا معاً، أبداً».

ثم أقعدني وقعد، وأضاف قائلاً: «إنّ الشقة بعيدة ما بين ثورنفيلد وإيرلندة يا جانيت، وإنه ليؤسفني أن أطوح بصديقتي الصغيرة في أمثال هذه الرحلات الشاقّة، ولكن ما حيلتي إذا لم أوفّق إلى ما هو أفضل؟ هل تحسبين، يا جين، أن بيننا نَسَباً؟»

وهنا لم أستطع المغامرة بجواب، فقد كانت مشاعري أعمق من أن يعبَّر عنها بكلام.

فقال: «إنّما وجّهت إليك هذا السؤال لأني أحس في بعض الأحيان بمودّة غريبة نحوك – وبخاصة حين تكونين على مقربة مني، كشأنك الآن، فكأن ثمة في مكان ما تحت أضلاعي اليسرى سلكاً معقوداً عقداً مُحْكَماً لا انفصام له بسلك مماثل قائم في المكان المقابل من جسدك الصغير.

وإني لأخشى، إذا ما فصلت بيننا تلك القناة الصاخبة ونحو مئتي ميل من الأرض المترامية، أن ينقطع هذا الحبل الذي يربط ما بيننا، وعندئذ لا بد أن يقطر فؤادي دماً، أو هذا ما تحدثني به هواجسي. أما أنت... فإنك سوف تنسينني».

– لا، أنا لن أنساك أبد الدهر، يا سيدي. أنت تعلم...» وتعذّر

عليَّ أن أتمّ.

– «جين، أتسمعين ذلك الهزار المغرّد في الغابة؟ أصيخي له!».

وتنهدت، وأنا أصيخ السمع، على نحو تشنجي. ذلك بأني لم أعد بعدُ قادرة على كبت ما كابدتُهُ. لقد اضطررت إلى الاستسلام، وكانت عاصفة من الأسى الحاد قد لفتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. حتى إذا تكلمت لم أزد على أن قلت، في انفعال متهور: «ليتني لم أولد قط، أو لم أجيء إلى ثورنفيلد في أيما يوم من الأيام!»

– «وكل ذلك لأنك محزونة لمغادرتها؟»

كانت حُمَيَّا الانفعال، وقد أثارها ما اعتلج في فؤادي من أسىً وحب، قد تصدّرت للمطالبة بالسيادة وكانت تناضل لبسط سلطانها الكامل عليَّ ولتوكيد حقها في أن تهيمن: أن تتغلّب، أن تحيا، أن تفوز، وأن تسود آخر الأمر، أجل، وفي أن تتكلم أيضاً.

– «أنا آسفة لمغادرة ثورنفيلد: أنا أحب ثورنفيلد. أحبها، لأني عشت فيها حياة خصية بهيجة، مؤقتاً على الأقل. إن أحداً لم يُذلني هنا، ولم يَصْعَقْني. أنا لم أدفن هنا، حية،.مع عقول منحطَّة، ولم أحرم أدنى الاتصال بكل ما هو مشرق، وفعَّال، وسامٍ. لقد تحدثت، وجهاً لوجه، إلى ما أبجّل، إلى ما به أبتهج – إلى عقل أصيل، ناشط، مستنير. لقد تعرَّفت إليك، يا مستر روتشيستر، وإنه ليرعبني ويوقع في نفسي أعظم الحزن أن أستشعر أن قوة قاهرة تفصلني عنك إلى الأبد. إني أدرك ضرورة الفراق، وهي تبدو لي حتمية كالموت».

فسألني على التو: «وأين ترين هذه الضرورة؟»

– «أين؟ إنك أنت الذي وضعتها نصب عيني، يا سيدي».

– «في أية صورة؟»

– «في صورة مس اينغرام... امرأة كريمة المحتد بهية الطلعة... عروسك».

– «عروسي؟ أيّة عروس؟ ليس لي عروس!».

– «ولكنه سيكون لك عروس».

– «آه... سيكون لي! سيكون لي!» وكزّ على أسنانه.

– «وعندئذ يتعيّن عليّ أن أرحل...لقد قلت ذلك بنفسك».

– «لا. يتعيّن عليك أن تبقي... إني أقسم على ذلك... ولسوف أفي بقسمي».

فقلت، وقد غلب عليّ شيء كالانفعال: «أقول لك إنّ علي أن أرحل! أتحسب أن في استطاعتي أن أبقى لأصبح شيئاً لا قيمة له عندك؟ أتحسب أني إنسان ميكانيكي؟... آلة من غير مشاعر؟ وأني أطيق أن أرى إلى لقمة خبزي تُنْتَزع من بين شفتي، وإلى ماء حياتي يُهرق من كأسي؟ وهل تظنني – لمجرّد كوني فقيرة، مغمورة، دميمة، ضئيلة الجسم – مخلوقة لا روح لها ولا قلب؟ إنك إن فعلت كنت مخطئاً! فأنا أتمتّع بقدر من الروح لا يقلّ عما تتمتع به أنت، وبقلب لا يقل إحساساً عن قلبك! ولو قد وهبني الله شيئاً من جمال، وشيئاً من ثروة إذن لكان خليقاً بي أن أجعلك تأسى لفراقي كما آسى أنا، الآن، لفراقك. أنا لا أخاطبك الآن بلغة العرف والتقاليد وحتى بلغة الجسد الفاني.. لا، إن روحي هي التي تخاطب روحك، وكأننا التقينا من وراء القبر، ووقفنا عند قدمي الله متساويين، كشأننا في الحقيقة!»

فكرر مستر روتشيستر: «كشأننا في الحقيقة!» ثمّ طوقني بذراعيه، وضمّني إلى صدره، ضاغطاً شفتيه على شفتي، وأضاف: «هكذا... هكذا، يا جين!»

فقلت: «أجل، هكذا، يا سيدي... ومع ذلك فليس هكذا...

لأنك رجل متزوج... أو في حكم الرجل المتزوج، المقترن بامرأة أدنى منك... بامرأة لا تشدّك إليها أية مشاركة وجدانية... امرأة لا أعتقد أنّك تحبها حباً حقيقاً، ذلك بأني رأيتك وسمعتك تسخر منها. إني لأزدري مثل هذا الزواج، ومن هنا كنت أنا خيراً منك... دعني أنصرف!»

– «إلى أين، يا جين؟ إلى إيرلندة؟»

– «أجل، إلى إيرلندة. لقد صارحتك بحقيقة ما يجول في ذهني، وفي ميسوري الآن أن أضرب في أرض الله الواسعة».

– «جين، الزمي الهدوء، ولا تحاولي الإفلات مني مثل طير طائش مذعور يغريه اليأس بالفرار ولو جُرِّد من ريشه كله!»

– «أنا لست طيراً، وليس في طاقة أيما شرك أن يُطبق عليّ. أنا كائنة بشرية حرّة ذات إرادة مستقلة أمارسها الآن إذ أعلن أني سأفارقك».

ومكنني مجهود آخر بذلته من الإفلات من قبضته، وعندئذ انتصبت واقفة أمامه.

فقال: «وإرادتك هذه سوف تقرر مصيرك. إني أمنحك يدي، وقلبي، وجزءاً من كامل ممتلكاتي».

– «إنّك لتمثل مهزلة لا أقابلها بغير السخرية».

– «إني أسألك أن تنفقي العمر إلى جانبي... أن تكوني نفسي الثانية ورفيقة حياتي الفضلى في هذه الدنيا»

– «لقد سبق لك أن اخترت هذه الرفيقة. وأن عليك أن تَلْزَم مَن وقع عليها اختيارك».

– «جين، اعتصمي بالهدوء بضع لحظات. أنتِ مهتاجة أكثر مما ينبغي. ولسوف أعتصم أنا بالهدوء أيضاً».

وهبَّ على المجاز المطوق بشجرات الغاز نسيم عليل أرعش أغصان الشهبلوط الهندية. ثم هام على وجهه بعيداً.. بعيداً – إلى مسافة غير متناهية – وتلاشى. لقد أمسى تغريد الهزار هو وحده الصوت المسموع في تلك الساعة، وفيما كنت أصغي إليه سفحتُ الدمع من جديد، وقد قعد مستر روتشيستر ساكناً ينظر إليّ في رقة ورزانة. وتقضَّت فترة لم ينبس خلالها بكلمة. وأخيراً قال.

– «تعالي إلى جانبي، يا جين، ودعينا نتفاهم».

– «أنا لن أقعد إلى جانبك منذ اليوم. لقد انفصلت عنك، وليس في مستطاعي أن أعود».

– «ولكني أدعوك، يا جين. بوصفك زوجتي: إنكِ أنت وحدك المرأة التي أعتزم أن أتزوج منها».

وبقيت صامتة. لقد حسبتُ أنه يسخر مني.

– «تعالي، جين! تعالي إلى هنا!»

– «إن عروسك لتقف حاجزاً يفصل ما بيننا».

فنهض. وبخطوة واحدة أمسى بجانبي. وقال وهو يجذبني نحوه كرة

أخرى: «إن عروسي هنا. لأن المرأة التي هي كفؤ لي والتي تشبهني هي هنا. جين، هل تقبلين بي زوجاً؟»

ولزمت الصمت هذه المرة أيضاً، ورحت أتلوّى محاولة الإفلات من قبضته. فقد كنت لا أزال غير مصدقة.

– «أترتابين بي يا جين؟»

– «كل الارتياب».

– «أليس لكِ ثقة بي؟»

– «لا، ليس لي ذرة من الثقة بك»

فسألني في انفعال: «هل أنا، في نظرك، مخادع كذاب؟ أيتها المرتابة الصغيرة، إنك سوف تقتنعين. هل أكنّ أنا أي حب لمس اينغرام؟ لا، البتّة، وهل تكنّ هي أي حب لي؟ لا، البتة، وهو ما بذلت قصارى جهدي لكي أقيم الدليل عليه: لقد روجتُ إشاعة، أردتها أن تتناهى إلى سمعها، إشاعة تقول بأن ثروتي لا تبلغ ما توهّمه الناس، وبعد ذلك اتصلت بها لأرى النتيجة، فإذا بها برود منها ومن أمها في آن معاً. أنا لا أريد، بل لا أستطيع، أن أتزوج من مس اينغرام. أما أنت –أنت الغريبة، المخلوقة التي تكاد تكون لا أرضية – فإني أحبك كما أحب نفسي. إني أتوسّل إليك – أنت الفقيرة، المغمورة، الضئيلة الجسم، الدميمة الوجه – أن ترضيني بعلاً لك».

فصحت، وقد بدأت أثق بإخلاصه بعد الذي لمسته من حماسته،

وعلى الأخص، من جلافته: «ماذا؟ أنا! أنا التي لا صديق لي في الدنيا غيرك – إن صحّ أنك صديق لي حقاً – والتي لا أملك من المال غير ما قدّمته إليّ؟»

– «أجل، أنت يا جين. يجب عليّ أن أستأثر بك... أن أستأثر بك من دون كل الناس . فهل ترضين أن تكوني ملكي؟ قولي نعم، بسرعة».

– «مستر روتشيستر، دعني أنظر إلى وجهك. التفت نحو ضياء القمر».

– «لماذا؟»

– «لأني أريد أن أقرأ ملامحك. التفت!»

– «ها قد التفتُّ. إنك لن توفّقي إلى قراءتها إلاّ بمقدار ما يوفق المرء إلى قراءة صفحة ممزقة ممحوة. هيا، اقرئي. ولكن عجّلي، لأني أتألم».

كان وجهه منفعلاً جداً، متضرجاً بالدم إلى أبعد الحدود، وكان ثمة ارتعاد في قسماته، والتماع عجيب في عينيه..

وصاح: «أوه، جين، أنت تعذبينني. إنك تعذبينني بهذه النظرة الفاحصة، على الرغم مما تنطوي عليه من إخلاص وكرم!»

– «كيف أستطيع أن أعذبك؟ إذا كنت صادقاً في ما قلت، جاداً في ما عرضت فليس ينبغي لي أن أحس نحوك بغير العرفان والولاء. والعرفان والولاء لا يمكن أن يكونا مصدر عذاب».

– «فصاح:«عرفان !» ثم أضاف، في ضراوة: «سارعي إلى الرضا بي، يا جين. قولي لي يا إدوارد – أجل، خاطبيني باسمي، إدوارد – سوف أتزوجك».

– «أصادق أنت في ما تقول؟ هل تحبني حقاً؟ أراغب أنت، بإخلاص، في أن أكون زوجتك؟»

– «أجل، يا جين. وإذا كانت اليمين ضرورية لإقناعك أقسمت لك يميناً».

– «إذن، فسوف أتزوجك، يا سيدي».

– «لا تقولي يا سيدي. قولي يا إدوارد – يا زوجتي الصغيرة!».

– «يا عزيزي إدوارد».

فقال: «تعالي إليّ، تعالي إليّ الآن بكليتك!» ثم أضاف في أعمق نبرة من نبرات صوته، هامساً في أذني، إذ كان خده، على خدي: «هبيني السعادة... أَهَبْكِ السعادة!»

وصمت لحظة ثم أردف: «فليغفر الله لي، وليجنّبني تدخّل الإنسان! لقد فزت بها، ولسوف أحتفظ بها».

– «لن يتدخّل بيننا أحد، يا سيدي. فليس لي أي نسيب حتى يتدخّل».

- «لا. وهذا خير ما في المسألة».

ولو قد كان حبي له أقل إذن لوجدت في نبرته وفي محياه، المتهلل شيئاً وحشياً. أما وقد كنت جالسة إلى جانبه، بعد أن أوقظت من كابوس الفراق ودُعيْت إلى جنة الزواج، فإني لم أفكر بغير النعمة التي أسبغها الله عليَّ، نعمة العبّ من مثل هذا الفيض السخي. وقال مرة ومرة: «أسعيدة أنت يا جين؟» فأجبته مرة ومرة: «نعم». فغمغم: «إنّ في ذلك لكفَّارة... إن في ذلك لكفَّارة. ألم أجدها منبوذة، مقرورة، لا يعرف السلوان سبيلاً إلى قلبها؟ ألن أحميها، وأرعاها، وأواسيها؟ أليس في فؤادي حب وفي قراري ثبات؟ إن هذا سوف يشفع لي في محكمة الله. أنا أعلم أن خالقي يُقرّ ما أعمله. أما أحكام الدنيا فإني أغسل يديّ منها. أما رأي الإنسان... فإني أتحداه!».

ولكن ماذا دهى الليل؟ إن القمر لمّا يأفل بعد، ومع ذلك فقد لفنا الظلام، وأمسيت لا أكاد ألمح وجه سيدي. وما الذي أوجع الشهبلوطة الهندية؟ لقد تلوّت وأنَّت، بينما كانت الريح تهدر في المجاز الذي اكتنفته شجرات الغار وتعصف بنا عصفاً.

وقال مستر روتشيستر: «يجب أن ندخل إلى القصر. الجو آخذ في التغيّر. ولولا هذا لجلست معك حتى مطلع الفجر، يا جين».

وفكرت بيني وبين نفسي : «ولجلست أنا معك حتى مطلع الفجر

أيضاً». ولعله كان يجمل بي أن أصرّح بذلك أيضاً، ولكن وميضاً ساطعاً ضارباً إلى الزرقة انبثق من سحابة كنت أرنو إليها، وتلا ذلك فرقعة، قرقعة، هزيم رعد مجلجل يقترب. هنالك لم أفكر إلاّ في حجب عيني المبهورتين وإخفائهما بكتف مستر روتشيستر.

وانهمر المطر. فحثّني مستر روتشيستر على العدْو في المجاز، ثم عبر حاشية الحديقة، ابتغاء الوصول إلى القصر. ولكنا لم نبلغ عتبته إلاّ بعد أن تبللت ملابسنا.

وكان ينزع شالي عن كتفي، في الردهة، وينفض حبات المطر عن شعري المُسدل عندما نبعثْ مسز فيرفاكس من حجرتها. ولم ألمحها بادئ الأمر، ولم يلمحها مستر روتشيستر أيضاً. وكان المصباح مضاء، وكانت ساعة الجدار تعلن الثانية عشرة.

وقال: «سارعي إلى نزع ملابسك المبللة. وقبل أن تمضي أتمنى لك ليلة طيبة... ليلة طيبة يا عزيزتي».

وقبّلني مرة ومرة. وحين رفعت بصري، بعد أن فارقت ذراعيه، ألفيت الأرملة أمامي شاحبة الوجه، متجهّمة الأسارير، مشدوهة،

فاكتفيت بالابتسام لها، واندفعت مرتقية السلم إلى الدور الأعلى. وقلت في ذات نفسي: «سوف أشرح لها الأمر في مناسبة أخرى». ومع ذلك، فلم أكد أصل إلى حجرتي حتى استشعرت غصّة في النفس لمجرّد التفكير في أنها لا بد ستسيء، ولو مؤقتاً، فهم ما رأته عيناها. ولكن الجذل سرعان ما محا كل شعور آخر. كانت الريح تهب عنيفة وكان الرعد يقصف على نحو دان عميق، وكان البرق يومض ضارياً متواتراً، وظل المطر ينهمر انهمار الشلال خلال عاصفة استمرّت ساعتين اثنتين، ومع ذلك فلم أستشعر أي خوف، ولم أحسّ إلاّ بقدر يسير من الرهبة. وفي غضون ذلك أقبل مستر روتشيستر إلى باب حجرتي ثلاث مرات ليسألني هل أنا آمنة مطمئنة. وكان في هذا عزاء لي، وكان في هذا قوة أستعين بها على كل شيء.

وقبل أن أبرح سريري صباح اليوم التالي أقبلت آديل الصغيرة تعدو لتنبئني بأن صاعقة انقضت الليلة البارحة على شجرة الشهبلوط الهندي الضخمة في أقصى البستان، ففلقتها فلقاً.

[24]

وفيما كنت أنهض من فراشي وأرتدي ملابسي فكرت في ما قد حدث، وتساءلت هل كان ذلك حلماً؟ ولم أستيقن من الحقيقة إلاّ بعد أن رأيت مستر روتشيستر من جديد، وسمعته يجدِّد لي عهده، ويكرر آيات حبه.

وبينما كنت أسرح شعري، نظرت إلى وجهي في المرآة، فاستشعرت أنه لم يعد دميماً: كان ثمة أملٌ في أساريره، وحياة في لونه، ولقد بدت عيناي وكأنهما أبصرتا ينبوع البهجة، واستعارتا تألقهما من تماوجه الصقيل. وكان من دأبي أن أزهد في النظر إلى سيدي، خشية أن لا تروقه طلعتي، ولكني آنست في نفسي، ثقة قوية أشعرتني بأن في استطاعتي أن أرفع وجهي إلى وجهه من غير أن يفتر حبّه لي من جراء ملامحه. وأخرجت من درجي فستاناً بسيطاً، ولكنه نظيف رقيق، من فساتين الصيف، وارتديته. فبدا لي وكأن أيما ثوب لم يلق بي قط بقدرما لاق هذا الثوب بي، لأنني لم أرتدِ من قبل ثوباً ما بمثل هذا المزاج البهيج.

ولم يستبدّ بي الدهش عندما رأيت، وأنا أهبط السلم إلى الردهة، أن صباحاً متألقاً من أصباح حزيران(يونيو) قد خلّف عاصفة الليلة البارحة، وعندما داعبتني، من خلال الباب الزجاجي المفتوح، أنفاس نسيم عليل فاغم. لا ريب أن الطبيعة كانت مغتبطة بسعادتي البالغة. وفي هذه اللحظة، صَعَدَت في المجاز متسوّلة تصحب ولدها الصغير - وكأن كل منهما شاحب الوجه رثّ الملابس - فهبطتُ نحوها مسرعة ونفحتها كل ما اتّفق أن كان في كيسي من نقود، وكان يبلغ ثلاثة شلنات أو أربعة: فسواء أكان هذان المخلوقان صالحين أم طالحين فإن من حقهما

أن يشاركاني ابتهاجي. ونعبت الغربان السُّحْم، وغرّدت الطيور الأكثر بشراً. ولكن أيما شيء لم يبلغ من الطرب وحسن الإيقاع ما بلغه فؤادي المتهلل.

وفاجأتني مسز فيرفاكس بالإطلال من النافذة، محزونة المحيا، وبقولها لي في اكتئاب: «مس ايير، ألا تريدين أن تتناولي فطور الصباح؟» وخلال الطعام غلبت عليها السكينة والفتور، ولكني لم أستطع أن أكاشفها، آنذاك، بواقع الأمر. إن عليّ أن أنتظر حتّى يقدم سيدي إيضاحاته، وعليها هي أيضا أن تنتظر. وأكلت ما وسعني، ثم هرعت إلى الطابق العلوي، فالتقيت آديل وهي تغادر حجرة الدرس.

– «إلى أين أنت ذاهبة؟ لقد حانت ساعة التدريس؟»

– «لقد أمرني مستر روتشيستر بالانتقال إلى حجرة الحضانة».

– «وأين هو؟»

– «هناك»، وأشارت إلى الحجرة التي قد غادرتها. فدخلتها، فإذا هو واقف في إحدى نواحيها.

وقال: «تعالي وتمنّي لي صباحاً طيباً»

فتقدمتُ في ابتهاج، فلم يكن ما تلقيته مجرد كلمة باردة أو مصافحة، بل كان عناقاً وقبلة. وبدا لي أن غمره إيّاي بهذا الحب كله ومعانقته لي بهذه الحرارة كلها كانا شيئاً طبيعياً... شيئاً بهيجاً.

وقال: «جين، إني لأراك منوِّرة، بسَّامة، بهية الطلعة... بهية الطلعة حقاً في هذا الضباح. أهذه هي عفريتتي الصغيرة الشاحبة؟ أهذه هي حبة خردلي؟ هذه الفتاة الصغيرة المبتهجة ذات الوجنة التي تزينها غمّازة والشفتين الورديتين، والشعر البندقي الأملس كالحرير، والعينين المشعَّتين بلون البندق أيضاً!» (لقد كانت لي، أيها القارئ، عينان خضراوان، ولكن عليك أن تغفر له هذه الغلطة، فقد بدتا له مصبوغتين بصِبْغ جديد، في ما أحسب).

- «هذه الفتاة هي جين ايير، يا سيدي».

فأضاف: «التي ستصبح جين روتشيستر عمّا قريب، بعد أسابيع أربعة يا جانيت، أسابيع أربعة لن تزيد يوماً واحداً. هل تسمعين هذا الذي أقوله؟»

لقد سمعته، ولكني لم أوفّق إلى فهمه تماماً: لقد أصابني ذلك بدوار. كان الشعور الذي أوقعه هذا الإعلان في نفسي أقوى من أن يتناغم مع البهجة.. كان شيئاً يُذهل ويَصْعق: كان، في ما خُيّل إليّ، خوفاً أو شبه خوف.

- «لقد احمرّ وجهك بادئ الأمر، وها هو ذا الآن شاحب أشدّ الشحوب، فعلام ذلك يا جين؟»

- «لأنك منحتني اسماً جديداً: جين روتشيستر. وهو اسم يبدو لي غريباً كلّ الغرابة».

فقال: «أجل، مسز روتشيستر، مسز روتشيستر الشابة، عروس فيرفاكس روتشيستر».

- «هذا لا يمكن أن يكون أبداً، يا سيدي. إنه لا يبدو محتملاً. إن البشر لا يستمتعون بالسعادة الكاملة في هذا العالم. ولم أخلق أنا لقَدر غير القدر الذي كتِب على سائر بنات جنسي. وإن التفكير في أن السعادة مقدرة لي هو مجرد حديث خرافة... مجرّد حلم من أحلام اليقظة».

- «حلم أستطيع أن أحققه، ولسوف أحققه. إني سأبدأ اليوم بالذات، فقد كتبت إلى المصرف الذي أعامله في لندن أسأله أن يبعث إلي ببعض الجواهر المودعة عنده - ميراث موقوف على سيدات ثورنفيلد. ولن ينقضي يوم أو يومان، في ما أرجو، حتى أنثرها في حِجْرك. ذلك بأني سوف أخصّك بمختلف ضروب الامتياز والعناية التي يجدر بي أن أخصّ بها بنت لورد من اللوردات لو كنت على وشك الزواج منها».

– «أوه، يا سيدي! دعنا من الجواهر! أنا لا أحب الاستماع إلى حديثها. جواهر لجين ايير؟ إن هذا ليبدو شيئاً غريباً... شيئاً غير طبيعي. أنا أؤثر أن لا أفوز بها».

– «سوف أطوّق جيدك، بنفسي، بالعقد الماسي، ولسوف أكلل جبينك بالتاج، الذي سيكون لائقاً به، لأن الطبيعة، على الأقل، قد دمغت هذا الجبين، بطابع نبلها، يا جين، ولسوف أشبك الأساور حول هذين المعصمين الرائعين، وأُثقِل بالخواتم هذه الأصابع الشبيهة بأصابع الجنيات».

– «لا، لا، يا سيدي! فكّر في موضوعات أخرى، وتحدّث عن أشياء أخرى، بأسلوب آخر: لا تخاطبني وكأنني امرأة بارعة الجمال. أنا لا أعدو أن أكون تلك المربية الكويكرية الدميمة العاملة في خدمتك».

– «أنت بارعة الجمال في ناظريَّ، وبارعة الجمال على النحو الذي يشتهيه فؤادي تماماً: رقيقة وأثيرية».

– «تعني ضئيلة الجسم، تافهة. أنت تحلم، يا سيدي، وإلاّ فأنت تسخر. أسألك بحقّ الله أن لا تتهكّم عليّ».

فأردف قائلاً، بينما ضِقت – في الواقع – ذرعاً بأسلوبه، لأني استشعرت أنّه قصد بذلك إلى إحدى غايتين، إما أن يخدعني وإما أن يخدع نفسه: «ولسوف أحمل العالم على الاعتراف بك امرأة بارعة الجمال، أيضاً. وسألبس حبيبتي جين ثياب الأطلس والدانتيل. وأشكّل شعرها بالورود. وسأحجب الوجه الذي أحبّه أعظم الحب بخمار نفيس لا يقوَّم بمال».

– «وعندئذ لن تعرفني، يا سيدي، ولن أعود محبوبتك جين ايير، ولكن قردة في ثياب مهرّج... زريابا(1) في ريش مستعار، ولسوف أراك وشيكاً، يا مستر روتشيستر مثقل الجسم بالزخارف المسرحية، كما أرى نفسي رافلة في ثوب سيدة

من سيدات البلاط. أنا لا أزعم أنك وسيم، يا سيدي، برغم أني أهيم بك حباً... أهيم بك إلى حدّ يتعذّر عليّ معه أن أتملقك، فلا تتملقني».

(1) الزرياب، أو أبو زريق، اسم طائر. (المعرب)

بيد أنه تابع الضرب على الوتر نفسه، غير حافل بتوسلي: «واليوم بالذات سوف أصحبك في العربة إلى ميلكوت إذ يتعين عليك أن تختاري لنفسك بعض الفساتين. ولقد قلت لك إننا سنتزوج في مدى أربعة أسابيع. ولسوف يتم الزفاف في سكينة وهدوء، في الكنيسة القائمة هناك، ومن ثم سأمضي بك، في الحال، إلى لندن. وبعد مُقام وجيز في. رحابها سأحمل كنزي إلى بقاع هي إلى الشمس أقرب: إلى كروم العنب الفرنسية والسهول الإيطالية. ولسوف ترى هناك كل ما هو شهير في التاريخ القديم وفي الحقبة الحديثة. ليس هذا فحسب، بل إنها سوف تتذوّق شيئاً من حياة المدن، وتتعلّم كيف تقوِّم نفسها بمجرّد المقارنة مع الأخريات».

– «وهل سأسافر؟... ومعك أنت، يا سيدي؟»

– «سوف تنزلين في باريس، وروما، ونابولي، وفي فلورنسة، والبندقية، وفيينا: جميع الديار التي طوفتُ أنا فيها سوف تطوفين فيها أنتِ، وأيما أرض وطئتها أنا بحافري سوف تطئينها أنت أيضاً بقدمك الرقيقة الجديرة بحورية من الحوريات. قبل عشر سنوات اندفعت أجوب أرجاء أوروبا كالمجنون، وفي نفسي تقزّز وكراهية وغيظ كالتي في نفوس رفاقي، واليوم سوف أعاود زيارتها وقد شُفيت
وتطهّرت، وبرفقتي ملاك حقيقي يدخل البهجة على قلبي».

وضحكت منه حين قال ذلك. وأكّدت: «أنا لست ملاكاً، ولن أكون

ملاكاً حتى يدركني الموت: سوف أكون ما أنا، يا مستر روتشيستر، وعليك أن لا تتوقّع مني، وأن لا تقتضيني، أيما شيء سماوي – لأنك إن فعلت لم تُوفّق إلى

الفوز به أكثر من توفيقي إلى الفوز بأيما شيء سماوي منك، وهو شيء لست أتوقّعه البتّة».

– «وماذا تتوقعين مني؟»

– «لعلّك أن تظل، طوال فترة يسيرة، كما أنت الآن، – أقول طوال فترة يسيرة، ومن ثم ستصبح فاتراً، وبعد ذلك ستصبح متقلَّباً، ثم ستصبح متجهم الوجه، ولسوف ألقى عسراً بالغاً في إرضائك: ولكنك قد ترغب فيَّ من جديد بعد أن تألفني جيداً... أقول «قد ترغب فيّ»، لا «قد تحبني». أنا أحسب أن حبّك سوف يحتفظ بمحيَّاه ستة أشهر، أو أقل. فقد لاحظت في الكتب التي ألَّفها الرجال أن هذه المدة تعتبر حداً أقصى لاحتفاظ الزوج بحماسته واتّقاد حبه. ومع ذلك فأنا أرجو، بوصفي صديقة ورفيقة، أن لا أصبح في أيما يوم من الأيام بغيضة، بكلّ ما تنطوي عليه هذه اللفظة من معنى، إلى قلب سيدي العزيز».

– «بغيضة! وأرغب فيك من جديد! الذي أحسبه أني سوف أرغب فيك أبد الدهر. ولسوف أحملك على الاعتراف بأني لا أكتفي بمجرّد الرغبة، بل أعدو ذلك إلى الحب–إلى الحب الصادق، المتّقد، السرمدي».

– «ولكن.. ألست ذا طبع متقلَّب، يا سيدي؟»

– «أنا الشيطان نفسه في معاملتي للنسوة اللواتي لا يرضينني إلا بوجوههن، عندما أكتشف أنهن لا يملكن لا أرواحاً ولا قلوباً... عندما يفتحن أمامي عالماً من الرتابة، والتفاهة، وربما من البلاهة، والجلافة، والنزق. أما بالنسبة إلى العين الصافية، واللسان الفصيح، بالنسبة إلى الروح التي خلِقت من نار والخُلْق الذي ينثني ولكنه لا ينكسر.. والذي يتميز بالليونة والرسوخ، والوداعة والتماسك، في آن معاً، فإني أبد الدهر رقيق القلب صادق الودّ».

– «هل خبرت مثل هذا الخُلْق، ذات يوم، يا سيدي؟ هل سبق لك أن أحببت امرأة تتحلى بمثل هذا الخلق؟»

– «أنا أحب واحدة الآن».

– «ولكن هل أحببت مثل هذه المرأة قبلي... إذا صحّ أني أحقق،

بأي وجه من الوجوه، هذا المثل الأعلى العسير الذي اتّخذته لنفسك؟»

– «أنا لم ألْق في أيما يوم من عمري نظيراً لك. جين، إنك تعجبينني، وتهيمنين عليّ – أنت تظهرين وكأنك مذعنة، وأني لأحب حسَّ الطواعية الذي توحين به. وفيما أنا أفتل الخصل الحريرية الناعمة حول إصبعي توقع هذه الخصل في ذراعي ارتعاشه لا تلبث أن تسري إلى فؤادي. إني أشعر أني خاضع لسلطان قاهر، وإني مغلوب على أمري، وهذا السلطان هو أعذب من أن أقوى على التعبير عنه، وإن لهذه الغلبة التي أستشعرها لسحراً دونه سحر أيما نصر أستطيع أن أحرزه. لماذا تبتسمين، يا جين؟ وما معنى هذه الأسارير الساذجة الممتنعة على التفسير؟»

– «كنت أفكر، يا سيدي، (ولسوف تغفر لي هذه الفكرة، لقد كانت لا إرادية) كنت أفكر في هرقل وشمشون وفاتنتيهما».

– «لقد كنتِ، أيتها العفريتة الصغيرة...»

– «صه، يا سيدي! إنّك تتحدث الآن حديثاً تعوزه الحكمة بقدر ما أعوزت الحكمة هذين الرجلين في تصرفاتهما. وعلى أيّة حال، فلو قد كانا متزوجين إذن لعوّضا من غير ريب، بقسوتهما كزوجين، عن رقّتهما كعاشقين. وكذلك سوف تكون حالك، في ما أخشى. وإني لأتساءل أي جواب سأفوز به منك لو سألتك، بعد عام واحد، أن تُسدي إلي مِنّة لا يلائمك أو لا يسرّك إسداؤها اليّ؟»

– «اسأليني شيئاً الآن، يا جانيت... اسأليني أقل شيء. أنا أحب أن –أرى الناس يتوسلون إليّ...»

– «سوف أفعل، من غير ريب. لقد أعددت عريضتي».

– «تكلمي! أما إذا اكتفيت بالدنو إليّ وبالابتسام بهذه الملامح فسأقسم لأجيبنَّك إلى سؤلِكِ قبل أن أعرف ماهيته، وهذا ما يظهرني بمظهر الرجل المغفل».

– «معاذ الله، يا سيدي. أنا لا أسألك غير شيء واحد: لا تبعث في طلب الجواهر، ولا تتوجّني بالورود. وفي استطاعتك في الوقت نفسه أن تطوّق هذا المنديل البسيط الذي تحمله بحاشية من خيوط ذهبية».

– «في استطاعتي أيضاً أن أذهّب الذهب الخالص. أنا أعرف هذا.

إن مطلبك إذن مجاب، مؤقتاً على الأقل. سوف أسحب التعليمات التي أصدرتها إلى البنك الذي أعامله. ولكنك لم تسأليني حتّى الآن شيئاً، كل ما فعلته هو أنّك توسّلت إليّ أن أعفيك من هدية اعتزمت تقديمها إليك. جرّبي مرة ثانية».

– «حسناً، إذن يا سيدي، تكرَّم بإشباع فضولي الذي تثيره، أشدّ ما تكون الإثارة، نقطة بعينها».

فبدت على وجهه إمارات القلق، وسارع إلى القول: «ماذا؟ ماذا؟ الفضول عريضة خطرة، لقد أحسنت صنعاً إذ لم آخذ على نفسي عهداً بإجابتك إلى أي مطلب...».

– «ولكن إجابتي إلى مطلبي هذا لا يمكن أن تنطوي على خطر ما، يا سيدي».

– «صرّحي به، يا جين – ولكني أتمنى لو تطلبين إليّ التنازل عن نصف إقطاعتي بدلاً من أن تسأليني – فمن يدري؟ – عن سرّ من الأسرار».

– «كفى أيها الملك احشويروش(1)! ما حاجتي إلى نصف إقطاعتك؟ أتحسبني مرابياً يهودياً يبتغي تثمير ثروته في الأراضي تثميراً ناجحاً؟ إني لأؤثر ألف مرة

أن أحظى بثقتك. إنّك لن تخرجني من رحاب ثقتك إذا ما أدخلتني إلى رحاب قلبك، أليس كذلك؟»

(1)ملك من ملوك الفرس القدماء، كان زوج «استير» اليهودية وله معها قصة معروفة مروية في الكتاب المقدس. (المعرب)

– «مرحباً بك في دنيا ثقتي الكاملة التي أرجو أن تكون جديرة بأن يُسعى إلى اكتسابها يا جين. ولكن بحق الله لا ترغبي في عبء غير مفيد! لا تتوقي إلى سم... لا تنقلبي إلى مجرّد حوّاء كلّ همها تعذيبي!»

– «ولم لا، يا سيدي؟ لقد حدثتني منذ لحظات عن مدى الارتياح الذي تستشعره كلّما فكرت في أنك مغلوب على أمرك، وعن مدى العذوبة التي تجدها في الانقهار. ألا ترى أن من الخير لي أن أفيد من هذا الاعتراف فأشرع في التملّق والتوسّل – بل في البكاء والتجهم إذا اقتضى الأمر ذلك – ابتغاء. القيام بمجرّد تجربة لسلطاني؟»

– «إنّي أتحداك أن تقومي بمثل هذه التجربة. تطاولي، تعدّي، فلن تلبث الخطة أن تفشَل».

– «أتظن ذلك، يا سيدي؟ إنّك لتلقي السلاح بسرعة بالغة. لشدّ ما يغلب التجهّم على وجهك، الآن! لقد أمسى حاجباك في مثل كثافة إصبعي. وإن جبينك ليشبه ما عبّر عنه بعض الشعراء، في قصيدة له مدهشة جداً، بقوله: «صاعقة مشحونة بنيران جهنم». هل ستكون هذه. هي ملامح وجهك، بعد الزواج، يا سيدي؟»

– «لو كانت هذه هي ملامح وجهك أنت، بعد الزواج، لسارعت، بوصفي مسيحياً، إلى التخلّي عن فكرة الاقتران من مجرّد غول أو عنقاء. ولكن ما الذي تريدين أن تسأليني إيّاه، أيتها المخلوقة؟ أفصحي!»

– «ها أنت الآن أقلّ كياسة. إني لأؤثر الجلافة، ألف مرّة، على التملّق. وأفضل أن أكون «مخلوقة» على أن أكون «ملاكاً». هذا ما أريد أن أسألك إيّاه:

لماذا بذلت كلّ تلك الجهود لحملي على الاعتقاد بأنّك راغب في الزواج من مس اينغرام؟»

– «أهذا كلّ شيء؟ أحمد الله على أنك لم تسأليني سؤالاً أسوأ!»

وهنا حلّ عقدة حاجبيه الأسودين، وخفض بصره، مبتسماً لي. وداعب شعري وكأنّما سرّه، أن يرى إلى نفسه وقد اجتنب خطراً محدقاً. ثم أردف قائلاً: «أحسب أن في ميسوري أن أعترف، حتى ولو أفضى ذلك إلى إثارة سخطك، يا جين... ولقد سبق لي أن رأيت كيف تلتهبين التهاباً حين يشتدّ بك السخط... لقد انفعلت غاية الانفعال، الليلة البارحة، عندما تمرّدت على القدر وزعمت أن منزلتك تضارع منزلتي. وبالمناسبة، إنّك أنت التي اقترحت عليّ ذلك، يا جانيت».

– «لقد فعلت، من غير ريب. ولكن فلنعد إلى الموضوع، من فضلك، يا سيدي. حدثني عن مس اينغرام...

– «حسناً، لقد تظاهرت بمغازلة مس اينغرام، لأني أردت أن أجعلك متيَّمة بحبي بقدْر ما كنت متيماً بك، وكنت أعلم أن الغيرة هي خير حليف أستطيع أن أستعين به على بلوغ تلك الغاية».

– «ممتاز! إنك الآن لصغير جداً... إنك في حجم أُنملة خنصري تماماً. لقد كان من العار اللاّهب والخزي الفاضح أن تتصرّف على هذا النحو. ألم تفكر قط بمشاعر مس اينغرام، يا سيدي!»

– «إن مشاعرها تتركّز حول شيء واحد: – التكبّر. والتكبّر يقتضي إذلالاً. هل استبدّت بك الغيرة آنذاك، يا جين؟»

– «دع عنك ذلك، يا مستر روتشيستر. فليس ممّا يهمك بأية حال، أن تعرف ذلك. أجبني في صدق كرة أخرى. أتحسب أن مس اينغرام لن تتألم لغزلك الكاذب؟ ألن تستشعر أنّك قد هجرتها وتخلّيت عنها؟»

– «مستحيل! والواقع أنها هي التي تخلّت عني، كما أخبرتك من قبل. لقد كان في مجرّد توهمها أني مفلس ما برد نارها، بل ما أخمدها، في لحظة واحدة».

– «إن لك عقلاً عجيباً ماكراً، يا مستر رونتشيستر. وإني لأخشى أن تكون مبادئك، في ما يتّصل ببعض القضايا، غريبة شاذة».

– «إنّ مبادئي لم تعرف في أيما يوم من الأيام أي تثقيف أو تهذيب. ولعلها قد انحرفت بعض الشيء بسبب من الإهمال».

– «أنبئني، كرة أخرى، في جد: هل أطمع في الاستمتاع بالخير العظيم الذي أسبغَ علي من غير أن أخشى أن تقاسي امرأة أخرى ذلك الألم المرير عينه الذي استشعرته أنا منذ فترة يسيرة؟»

– «في استطاعتك أن تطمئني من هذه الناحية، يا فتاتي الصغيرة الطيّبة، فليس في العالم كله مخلوقة أخرى تكنُّ لي ما تكنينه أنت لي من حب محض – ذلك بأني أمسح روحي بهذا البلسم العذب، يا جين، بلسم الإيمان بحبك».

وحوّلت شفتيَّ إلى اليد الملقاة على كتفي. لقد أحببته حباً عارماً...أكثر ممّا أستطيع أن أفصح... أكثر ممّا في طاقة الكلمات أن تعبّر عنه.

وسرعان ما قال: «اسأليني شيئاً آخر، إني ليُبهجني أن أراك تتوسلين إليّ وأن أسارع إلى النزول عند إرادتك».

وكنت هذه المرة أيضاً قد أعددت مطلبي، فقلت: «أشْعِرْ مسز فيرفاكس بما اعتزمت عليه، يا سيدي. لقد رأتني معك، الليلة البارحة، في الردهة، فكان في ذلك صدمة لها. قدّم إليها تفسيراً ما، قبل أن ألتقيها من جديد. إنه ليؤلمني أن تخطىء في الحكم عليَّ امرأة في مثل صلاحها وطيبتها».

فأجابني: «امضي إلى حجرتك، واعتمري بقلنسوتك. أنا أريدك أن ترافقيني إلى ميلكوت هذا الصباح. وسأعمد، فيما تستعدين أنت للرحلة، إلى إحاطة السيدة

العجوز علماً بكل شيء. هل ظنّت، يا جانيت، أنّك تخلّيت عن العالم كله في سبيل الحب، وأنك أخذت: تنظرين إليه نظرتك إلى شيء مفقود؟»

– «أحسب أنها ظنّت أني نسيت مركزي ونسيت مركزك، يا سيدي».

– «مركز! مركز!... إن مركزك لفي قلبي، وفوق أعناق أولئك الذين قد يهينونك اليوم أو غداً... اذهبي».

وسرعان ما ارتديت فستاني. حتى إذا سمعت مستر روتشيستر يغادر حجرة مسز فيرفاكس، هبطت إليها في سرعة. وكانت السيدة العجوز تتلو نصيبها الصباحي من الكتاب المقدس، وكان الكتاب المقدس مفتوحاً أمامها ونظارتاها فوقه. لقد بدت وكأنها قد نسيت، الآن، ما كانت تؤديه من فريضة بعد أن أبلغها مستر روتشيستر ما سعى لإبلاغها إيّاه: كانت عيناها، المثبّتتان على الجدار العاري تجاهها، تعبران عن دهش عقل وادعٍ استثارته أنباء غير عادية. وحين بَصُرَت بي انتزعت نفسها من غمرة الشرود الذهني، وبذلت بعض الجهد لتبتسم، وصاغت بعض كلمات التهنئة. ولكن ابتسامتها ما لبثت أن تلاشت... وأهملت الجملة قبل اكتمالها. لقد وضعت نظارتيها على عينيها، وطوت الكتاب المقدّس، وأبعدت مقعدها شيئاً ما عن المنضدة.

ثم استهلّت كلامها بالقول: «إن الدهش ليعصف بي، وإني لا أكاد أدري ما الذي يتعيّن عليَّ أن أقوله لك، يا مس ايير. أنا لم أكن في حلم، من غير ريب. هل كنت في حلم؟ إنه ليتّفق لي في بعض الأحيان، وأنا قاعدة وحدي، أن تأخذني سنة من النوم فأتصور أشياء لم تحدث في أيما يوم من الأيام. لقد بدا لي غير مرة، وأنا في مثل تلك الحال، إن زوجي العزيز الذي التحق بالرفيق ا لأعلى منذ خمس عشرة سنة قد وفَد عليَّ وقعد بجانبي، ليس هذا فحسب، بل لقد بدا لي أني سمعته يناديني، باسمي، آليس، كشأنه في الأيام الخالية. والآن، قولي لي هل صحيح، حقاً، أن مستر روتشيستر طلب يدك؟ لا تسخري مني. ولكني اعتقدت فعلاً أنه أقبل إلى هنا منذ خمس دقائق وقال إنّك سوف تصبحين له زوجة بعد شهر واحد».

فأجبتها: «لقد قال لي الشيء نفسه».

– «لقد فعل! هل تصدقينه؟ هل قبلتِه بعلاً؟»

– «نعم».

فنظرت إليّ مشدوهة ثم قالت: «لم يقم ذلك في وهمي في أي يوم من الأيام. إنّه رجل متكبّر. لقد كان آل روتشيستر كلهم متكبرين، وكان أبوه، على الأقل، يحب المال. وهو نفسه معروف بشدّة الحذر. إذن فهو ينوي الزواج منك؟»

– »هذا ما يقوله لي».

ونظرت إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. ولقد قرأت في عينيها

ما يفيد أنهما لم تقعا عندي على أيما سحر قادر على حلّ الأحجية.

ثم أردفت قائلة: «ذلك شيء يعدو قدرتي على التصديق. ولكنه صحيح من غير ريب ما دمت تقولين ذلك. أما كيف سينجح في ما اعتزم عليه فهذا ما لا أستطيع التنبؤ به... أنا في الواقع لا أدري. إن التكافؤ في المركز والثروة كثيراً ما يكون مستصوَباً في مثل هذه الحالات. ثم إنه أكبر منك بعشرين سنة. إنه يكاد يكون في سن أبيك».

فهتفت، مغيظة: «لا، لا، يا مسز فيرفاكس! إنه ليس في سن أبي وما من أحد يرانا معاً يتوهّمه كذلك ولو لحظة واحدة. إن مستر روتشيستر ليبدو في مثل نضرة بعض الشبان الذين لم يجاوزوا الخامسة والعشرين، بل إنه لفي مثل نضرتهم».

فسألتني: «هل صحيح أنه سوف يتزوجك بدافع من الحب؟»

– «وجرحني برودها وارتيابها حتى لقد طفرت الدموع إلى عينيَّ. فتابعت الأرملة: «يؤسفني أن أحزنك، ولكني أردت أن أحذِّرك بوصفك فتاة في مقتبل العمر... فتاة لا علم لها بالرجال. هناك مثل قديم يقول: «ليس كل ما يلمع ذهباً».

وإني لأخشى، في هذه الحالة الحاضرة، أن يُكتَشف شيء مغاير لما تتوقعينه أنت أولما أتوقعه أنا».

فقلت: «عجباً! وهل أنا مسخ أو هولة؟ أيكون من المتعذّر على مستر روتشيستر أن يضمر لي حباً صادقاً؟»

– «لا، إن الجمال لا يعوزك، ولقد تحسَّنتِ في الفترة الأخيرة

تحسناً كبيراً. وفي ميسوري القول إن مستر روتشيستر مولع بك. لقد لاحظت دائماً أنّك كنت مدلَّلته أو شيئا من هذا القبيل. ولقد عبرت بي ساعات استشعرت فيها بعض الجزع عليك بسبب من تفضيله إيّاك تفضيلاً صارخاً، فرغبت في تحذيرك، ولكني لم أحب أن أوحي إليك حتّى بأن ثمة إمكانية شرّ. لقد عرفت أن هذه الفكرة خليق بها أن تروعك، بل أن تغضبك، ولكنك كنت من الحصافة ومن شدّة الاحتشام والحساسية بحيث اعتقدت أن في ميسورك أن تحمي نفسك بنفسك. ولا أستطيع أن أصف لك كم قد تألمت، الليلة البارحة، عندما بحثت عنك في أرجاء القصر كلّه فلم أجدك في أي مكان، ولم أجد سيد القصر أيضاً، وعندما رأيتك بعد ذلك في الساعة الثانية عشرة وقد دخلت القصر معه»

فقاطعتها بفروغ صبر: «حسناً، دعي عنك ذلك الآن. بحسبك أنك علمت أنّ كل شيء كان حسناً».

فقالت: «أرجو أن يكون كل شيء حسناً في النهاية، ولكن صدّقيني إذا قلت لك إن المغالاة في الحذر تظلّ أمراً مرغوباً فيه. حاولي أن تبقي مستر روتشيستر على مبعدة: ارتابي في نفسك وارتابي به أيضاً، فالرجال الذين ينسبون إلى مثل طبقته الاجتماعية لم يتعوّدوا الزواج من مربيات أولادهم».

كان الغيظ قد شرع يستبدّ بي حقاً. وفي هذه اللحظة اندفعت آديل، لحسن الطالع، ودخلت علينا صائحة: «دعيني أذهب... دعيني أذهب أنا أيضاً إلى

ميلكوت. لقد أبي مستر روتشيستر عليّ ذلك، برغم أن في العربة الجديدة متّسعاً كبيراً. توسُّلي إليه أن يجيز لي الذهاب، يامدموازيل!»

– «سأفعل ذلك، يا آديل» وأسرعت إلى مغادرة الحجرة معها، سعيدة بفراق مرشدتي الكئيبة. كانت العربة معدّة، وكانوا يدفعونها إلى واجهة القصر، وقد راح سيدي يذرع المجاز المعبَّد جيئة وذهاباً، وكلبه «بايلوت» يتبعه في غُدوه ورواحه.

– «في استطاعة آديل أن ترافقنا، أليس في استطاعتها ذلك يا سيدي؟»

– «لقد قلت لها لا. أنا لا أريد أن أصطحب أطفالاً... أنا لن أصطحب أحداً غيرك».

– «اسمح لها بالذهاب، يا مستر روتشيستر، أرجوك. إن ذلك أفضل».

– «على العكس، إنها سوف تقيّد حرّيتنا».

كانت ملامحه وصوته تنمّ عن جزْم لا لبس فيه. وكانت تحذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها لا تزال تُوقع الرعدة في أوصالي: لقد أوهن آمالي بعض التردد واللايقين، واستشعرت أني فقدت، أو كدت، حسّ السيطرة عليه. وكنت على وشك الإذعان له على نحو آلي، من غير مزيد من الاعتراض والاحتجاج، ولكنه لم يكد يساعدني على الصعود إلى العربة ويرى إلى وجهي حتى سألني: «ما بالك؟ لقد زايلك الإشراق كلّه. أترغبين في اصطحاب هذه الطفلة حقاً؟ أيزعجك أن نخلِّفها هنا؟»

– «إني لأؤثر أن تذهب معنا، يا سيدي».

فصاح موجهاً الخطاب إلى آديل: «إذن انطلقي التماساً لقبعتك ثم ارجعي بمثل سرعة البرق».

فامتثلتْ أمره بأقصى سرعة.

وقال: «ليس ثمة على أية حال كبير بأس في هذا الإزعاج يُلم بنا صباح اليوم مادام إزعاجاً مفرداً لن يتكرّر وما دمت أعتزم أن أستأثر بك قريباً – أن أستأثر بأفكارك، وبحديثك، وبرفقتك – مدى الحياة».

ولم تكد آديل تُرفع إلى العربة حتى شرعت تقبّلني كتعبير عن شكرها لي على الوساطة التي قمت بها من أجلها. ولكن مستر روتشيستر سرعان ما ردّها عني مُقعداً إيّاها في زاوية ما بجاذبه من الناحية الأخرى. فراحت تختلس النظر إلى حيث كنت أجلس، فخليق بمثل جارها المتجهم أن يفرض على حريتها قيوداً أثقل ممّا ينبغي: إنها لم تجرؤ، وقد قرأت في وجهه معاني الشكاسة، على الهمس في أذنه بأية ملاحظة، أو على سؤاله أي إيضاح.

فتوسّلت إليه: «دعها تجلس في جانبي، أنا أخشى أن تزعجك، يا سيدي. إن ثمة متسعاً كبيراً في هذه الناحية».

فرفعها وأسلمها إليّ وكأنها كلب صغير. وقال: «ومع ذلك، فسوف أرسلها إلى المدرسة». ولكن فمه أفتر الآن عن ابتسامة.

وسمعته آديل، فسألته: «وهل سأذهب إلى المدرسة بدون المدموازيل؟»

فأجابها: «أجل. بدون المدموازيل، تماماً. ذلك بأنني سوف آخذ المدموازيل إلى القمر، وهناك سوف أبحث عن غار في أحد الأودية البيضاء بين قمم البراكين، ولسوف تعيش المدموازيل معي هناك، ومعي وحدي».

فلاحظت آديل: «ولكنها لن تجد ثمة ما تأكله. إنك سوف تجوعها».

– «سوف أجني لها المنّ صباح مساء. إنّ المن ليغطي سهول القمر وسفوح هضابه بطبقة بيضاء لا نهاية لها، يا آديل».

– «ولكنها سوف تضطر إلى تدفئة نفسها. فمن أين تأتي بالنار؟»

– «إن الجبال القمرية لتنفث ناراً حامية. فإذا ما استشعرت البرد حملتها إلى إحدى القمم ووضعتها على حافة فوهة من فوهات البراكين».

– «أوه، لشدّ ما سيكون ذلك سيئاً، بعيد عن الرِّفه! وثيابها؟ إنها سوف تبلى من غير ريب، فأنَّى لها أن تفوز بثياب جديدة؟»

– «وتظاهر مستر روتشيستر بالانشداه. وقال: « هممم! وما الذي تفعلينه أنت يا آديل لو وجدت نفسك في مثل ذلك الموقف؟ اقدحي زناد فكرك بحثاً عن وسيلة. أليس في استطاعتها أن تتّخذ من إحدى السحائب البيضاء أو القرنفلية فستاناً؟ إن المرء قد يوفّق هناك إلى أن يفصل من قوس قزح وشاحاً عريضاً».

فقالت آديل بعد أن فكرت في الأمر بعض الشيء: «إنها كما هي الآن أحسن حالاً بكثير، وإلى هذا، فإن العيش معك وحدك في القمر لا بد أن يُوقع السأم في نفسها. ولو كنت أنا مكان المدموازيل لما رضيت بالذهاب معك البتة».

– «ولكنها قد رضيت. لقد عاهدتني على الذهاب».

– «ولكنك لا تستطيع أن تحملها إلى هناك، فليس ثمة أيما طريق إلى القمر. إن الفضاء ليفصلكما عنه، وليس في ميسور أيّ منكما أن يطير».

– «آديل، انظري إلى ذلك الحقل!» كنا الآن خارج أبواب ثورنفيلد، وكانت العربة تَدْرُجُ بنا في رفق فوق الطريق الملساء المفضية إلى ميلكوت، حيث كانت العاصفة الراعدة قد نشرت بساطاً من غبار، وحيث كانت الأسيجة الخفيضة والأدواح السامقة، على كلا الجانبين، تتألّق خضراء كساها المطر، من جديد، لباس النضارة.

ثم أضاف: «في ذلك الحقل، يا آديل، كنت أمشي ذات مساء، قبل أسبوعين اثنين – مساء ذلك اليوم الذي ساعدتني فيه على جمع العشب اليابس في مروج البستان. حتى إذا غلب عليّ التعب، جلست التماساً للراحة. وهناك أخرجت من جيبي دفتراً صغيراً وقلماً، وشرعت أصف بلاءً ألمَّ بي منذ عهد بعيد وأعبّر عن

تطلّعي إلى أيام سعيدة في المستقبل. وفيما كنت أكتب في سرعة بالغة، برغم هبوط الليل، سمعت وطء قدمي مخلوقة تمشي في الطريق، لتقف على مبعدة ياردتين اثنتين مني. ونظرت إليها، كانت مخلوقة صغيرة على رأسها خمار رقيق من شاش. وأومأت إليها أن تقترب مني، وسرعان ما وقفت عند ركبتي. أنا لم أتحدّث إليها قط، وهي لم تتحدث إليّ بلغة الكلام، ولكني قرأت أفكارها في عينيها، وقرأت أفكاري في عيني، وهذه هي ترجمة حديثنا غير الملفوظ:

– «لقد قالت إنها جنية أقبلت من أرض الجنيات، وإنها مكلّفة بإسعادي، وأن عليّ أن أنفذ معها من أقطار العالم المعروف إلى مكان منعزل – إلى القمر مثلاً – وأومأت برأسها نحو أحد قرْني الهلال، المرتفع فوق هضبة «هاي»، وحدثتني عن الكهف المرمري وعن الوادي الفضي الذي سنعيش فيه. فقلت إني أحب أن أمضي إلى هناك، ولكنها ذكرتني – كما فعلت أنت – بأنني لا أملك جناحين أستعين بهما على الطيران».

«ثم إنّ الجنية قالت: «أوه، هذا لا يهم! دونك هذا الطّلسم الذي يذلل العقبات جميعاً «وقدّمت إليّ خاتماً ذهبياً جميلاً وقالت: «البسه في بنصر يدك اليسرى، وعندئذ أصبح أنا مِلكك وأنت ملكي. ولسوف نغادر الأرض وننشئ جنتنا الخاصة هناك». ثم إنها أومأت نحو القمر. آديل، إن الخاتم في جيب بنطلوني متنكراً في صورة ليرة ذهبية، ولكني أعتزم أن أحوله عمّا قريب إلى صورته الأولى... إلى خاتم».

– «ولكن ما علاقة المدموازيل بذلك؟ أنا لا أبالي بالجنية.. لقد قلت إنّك تريد أن تأخذ المدموازيل، لا أي كائن آخر، إلى القمر...».

فقال في همس مُلغَز: «المدموازيل جنية». وهنا سألتها أن لا تلقي بالاً إلى مزاحه، وتكشّفت هي، بدورها، عن ذخيرة من الارتياب الفرنسي الأصيل، ناعتة مستر روتشيستر بـــ «الكذاب الحقيقي»، ومؤكدة له أنها لم تبال قط بحكاياته عن الجنيات، وأنه ليس ثمة – على أية حال – جنيات البتة، وحتى لو كان ثمة جنيات

فلا ريب عندها في أنهنّ لا يظهرن له هو، ولا يمكن أن يقدّمن إليه خواتم أو يبدين رغبتهن في العيش معه في القمر.

كانت الساعة التي قضيناها في ميلكوت مزعجة لي بعض الشيء. فقد أكرهني مستر روتشيستر على الذهاب إلى أحد مخازن المنسوجات الحريرية حيث أصدر أمره إليّ باختيار نصف دزينة من الفستانين. وكرهت هذه المسألة، وتوسّلت إليه أن يسمح لي بإرجائها، فأصرّ على ضرورة إنجازها في الحال. وبفضل موجة من الضراعات التي عبُّرت عنها في همسات مشبوبة وفقتُ إلى إنقاص عدد الفساتين من ستة إلى اثنين، بيد أنه أبى إلاّ أن يختار هذين الفستانين بنفسه. وفي قلق، رحت أراقب عينه وهي تطوّف في أرجاء المخزن، ليثبتها آخر الأمر على قطعة حريرية غالية ذات لون شديد التألق أحمر ضارب إلى الزرقة، وعلى قطعة نفيسة من الأطلس القرنفلي. فقلت له، في سلسلة جديدة من الهمسات – إن في ميسوره أن يشتري لي أيضاً جلباباً ذهبياً وقبعة فضية في الحال، ولكني لن أغامر في أيما يوم من الأيام بارتداء ما اختاره لي. وفي صعوبة لا نهائية – فقد كان عنيداً كجلمود صخر – أقنعته بأن يستعيض عن هاتين القطعتين بقطعة من الأطلس الأسود الرصين وبأخرى من الحرير الرمادي الضارب لونه إلى لون اللؤلؤ. فقال: «سوف أسايرك هذه المرة، ولكني مع ذلك أحب أن أراك تتألقين مثل حوض من أحواض الزهور».

وسعدت بمغادرة مخزن المنسوجات الحريرية ثم بمغادرة محل خاص ببيع الجواهر. كان كلما أسرف في الشراء من أجلي اتّقدت وجنتاي بحس من التبرّم والمهانة. حتى إذا امتطينا متن العربة من جديد، واستويت فيها محمومة متعبة تذكّرت ما كنت قد نسيته في زحمة الأحداث، القاتم منها والمشرق، نسياناً كاملاً، أعني رسالة عمي، جون ايير، إلى مسز ريد، التي أعلن فيها عزمه على أن يتبناني ويُوصي لي بثروته. وقلت في ذات نفسي: «إن ممّا يسري عن النفس، حقاً، أن أفوز في يوم من الأيام بمثل هذه الثروة الصغيرة. أنا لا أطيق البتّة أن يكسوني مستر روتشيستر كما تكسَى الدمى، أو أن أجلس مثل «دانيه»[1]

جديدة وغيوث الذهب تنهمر من حولي كل يوم. سوف أكتب إلى ماديرا حالما أرجع إلى القصر، وأخبر عمي جون بأني سوف أتزوج، وممَّن. فلو قد كان أمامي مجرّد أمل في أن أحمل إلى مستر روتشيستر بعض الثروة في يوم من الأيام فعندئذ يكون في ميسوري أن أحتمل، على نحو أفضل، إنفاقه عليّ الآن». وإذ سرَّت هذه الفكرة عني بعض الشيء (هذه الفكرة التي لم أغفل عن تنفيذها ذلك اليوم) فقد تجرأت كرة أخرى على النظر إلى عيني سيدي وعاشقي، اللتين التمستا النظر إلى عيني في عناد، برغم أني اجتنبت كلاًّ من وجهه ونظرته. وابتسم، وبدا لي أن بسمته كانت أشبه بتلك التي قد يغدقها سلطان، في لحظة من لحظات الحبور والحب، على جارية كان قد غمرها بذهبه وجواهره. وسحقتُ يده، التي كانت لا تفتأ تبحث عن يدي، في قوة وعنف، ثم رددتها إليه دامية بالضغط الانفعالي...

(1) Danae في الميثولوجيا الإغريقية، عذراء سجنها والدها، آكريسيوس ملك آرغوس، في برج نحاسي، فما كان من زيوس إلاّ أن زارها على صورة غيث منهمر من الذهب. (المعرب)

وقلت: «لا حاجة بك إلى النظر إليّ على هذا النحو. أما إذا فعلت فعندئذ لن أرتدي، حتى النهاية، غير ثوبي القديم الذي كنت ألبسه في لو وود. إني سوف أزفّ إليك في هذا الثوب القطني المخطط ذي اللون البنفسجي الفاتح. وفي ميسورك أنت أن تخيط لنفسك مبذلاً (روب دو شامبر) من هذا الحرير الرمادي الضارب لونُهُ إلى لون اللؤلؤ، وسلسلة لا نهاية لها من الصدرات من هذا الأطلس الأسود».

فضحك وأنشأ يفرك يديه، ثم هتف: «أوه! إن في رؤيتها والاستماع إليها لتسلية بالغة. أهي غريبة الأطوار، أهي قارصة اللسان؟ إلا أني لن أتخلّى عن هذه الفتاة الإنكليزية الصغيرة ولو أعطِيْتُ مقابلها سراي السلطان التركي الكبير كلها، بما اشتملت عليه من عيون الغزلان وقامات الحوريات وكل شيء!»

وآذتني هذه الصورة البيانية المشرقية، فقلت: «لو كنت جارية من جواري السلطان لما وجدتني ذات نفع لك البتّة. وإذن، فكفّ عن اعتباري إحدى هاته الجواري. وإذا كانت لك رغبة في أيما شيء من هذا الطراز فاذهب، يا سيدي، إلى

أسواق استانبول، وأنفق في شراء الرقيق، على نطاق واسع، بعض هذا الفائض من المال الذي يبدو وكأنك لا تدري كيف تنفقه هنا في صورة مُرْضية».

– «وما الذي ستصنعينه، يا جانيت، وأنا أساوم على شراء كل هذه الأطنان من اللحم، ومثل هذه التشكيلة من العيون السود؟»

سأكون منصرفة إلى اتّخاذ الأهبة للضرب في الأرض، كمبشرة من المبشرات، ابتغاء الدعوة إلى تحرير المستعبدين – وفي جملتهم جواري حريمك. سوف أحتال للدخول إلى هناك، ولسوف أثير حركة تمرّد عليك. وعندئذ ستجد نفسك، أيها الباشا ذو الأذناب الثلاثة، وقد كُبِّلت يداك، بمثل لمح البصر، بالأصفاد. ولن أرضى أنا، ولن يرضى غيري، أن يحطّم أغلالك إلاّ بعد أن توقِّع «براءة»، لم يقدم أيّما طاغية إلى شعبه ما يضارعها تحرراً وسماحة».

– «إني لأقبل بأن أكون تحت رحمتك، يا جين».

– «لن يعرف قلبي الرحمة، يا مستر روتشيستر، إذا ما التمستها بعين مثل هذه العين. ذلك بأنك إذ تنظر إليّ هكذا أستيقن أنّ أول عمل سوف تقوم به بعد إطلاق سراحك، أيّاً ما كانت «البراءة» التي وقّعتها بالإكراه، هو انتهاك حرمة أحكامها».

– «ولكن ما الذي تطمحين إليه، يا جين؟ أنا أخشى أن تكرهيني على إقامة حفلة زواج خصوصية، بالإضافة إلى تلك التي تُقام عند المذبح. ولسوف تفرضين عليَّ، في ما يخيّل إليّ، شروطاً غريبة...»

– «كل ما أريده، يا سيدي، هو الاطمئنان وراحة البال، وأن أجد نفسي غير مثقلة بالالتزامات. أتذكر ما قلته عن سيلين فارينز الفرنسية؟ – عن الحلى الماسية والشالات الكشميرية التي قدّمتها إليها؟ أنا لن أكون سيلين فارينز الإنكليزية. لا، بل سأظل أعمل كمربية لآديل، ومن هذه الطريق سأكسب نفقات قوتي وسكناي، بالإضافة إلى ثلاثين جنيهاً في العام. ولسوف أجهّز خزانة ملابسي بملابس أشتريها بجزء من ذلك المال، ولن تمنحني أنت شيئاً غير...»

– «حسناً، غير ماذا؟»

– «غير احترامك. وإذا ما منحتك أنا، بدوري، احترامي، فعندئذ أكون قد وفيتك دينك هذا».

– «فقال: «حسناً، أنت فتاة لا نظير لها من حيث الجرأة الفطرية الهادئة، والغرور الغريزي المحض». وكنا الآن نقترب من ثورنفيلد. حتى إذا اجتزنا أبوابه الخارجية سألني: «هل يسرّك أن تتناولي طعام العشاء معي؟»

– «لا، أشكرك يا سيدي».

– «وأي حاجة إلى هذه الـــــــــــــ «لا، أشكرك»، إذا كان لامرئ أن يسأل؟»

– «أنا لم أتناول طعام العشاء معك من قبل قط. ولست أرى أيما سبب يدعوني إلى ذلك الآن: حتى...».

– «حتى ماذا؟ إنك لمولعة بأنصاف الجمل».

– «حتى لا يعود لي قِبَلٌ بالامتناع».

– «أتحسبين أني آكل مثل غول حتى ترتعدي من تناول الطعام على مائدتي؟»

– «أنا لم أكوّن أيما فكرة عن الموضوع يا سيدي. ولكنني أريد أن أقيم على مألوف عادتي شهراً آخر».

– «بل ستخلعين نير عبوديتك، عبودية تربية الأطفال، في الحال».

– «حقاً! ألتمس عفوك، يا سيدي، وأقول إني لن أفعل. سوف أواصل حمل هذا النير وفقاً لما جرت به عادتي. ولسوف أبتعد عن طريقك طوال ساعات النهار، كما ألِفْتُ أن أفعل. وفي ميسورك أن تدعوني إلى الاجتماع بك مساء، حين تؤانس

من نفسك رغبة في رؤيتي، ولسوف أفِد عليك عندئذ، ولكني لن أفِد في أيما وقت آخر».

– «إني لأحتاج إلى «سيجار» أدخنه أو إلى قبضة سعوط، لكي أتسلّى عن هذا كله، يا جين، أو «لكي أهدئ أعصابي» كما تقول آديل. ولكنني لا أحمل – لسوء الطالع – لا علبة «أسجرتي» ولا صندوق سعوطي. ولكن أصغي إليّ: إن الدور هو الآن دورك، أيتها الطاغية الصغيرة، بيد أنه سوف يصبح دوري عمًّا قريب. حتى إذا وفِّقتُ إلى امتلاكك والأخذ بناصيتك قيدتك – بمعنى مجازي – بسلسلة مثل هذه» (وأشار إلى سلسلة ساعته). «أجل، أيتها المخلوقة الوسيمة البالغة الصِغر، سوف أحملك في صدري، خوفاً على جوهرتي من الضياع».

قال ذلك وهو يساعدني على الترجّل من العربة. وبينا انهمك بعد ذلك في إنزال آديل منها دخلت أنا القصر، وارتقيت السلم منسحبة إلى حجرتي في سرعة.

وما إن هبط الليل حتى دعاني إلى الاجتماع به. وكنت قد أعددت له مهمة ينصرف إلى أدائها، ذلك بأني كنت قد وطّدت النية على أن لا أنفق الوقت كله في محادثة مقتصرة علينا نحن الاثنين. لقد تذكّرت صوته العذب: وكنت أعلم أنه يحب أن يغني، وتلك شيمة جميع البارعين في الغناء. ولم أكن أنا نفسي أجيد الإنشاد، بل لم أكن – في ذوقه الذي لا يسهل إرضاؤه – أجيد العزف أيضاً، ولكني كنت أجيد الإصغاء حين يكون الأداء جيداً. فما إن شرع الغسق، تلك الساعة الشاعرية، يبسط لواءه الأزرق المرصّع بالنجوم على النافذة، حتى نهضت، وفتحت البيانو، وتوسّلت إليه، بحق السماء، أن يسمعني أغنية. فقال إني ساحرة متقلّبة الأهواء، وأنه يؤثر أن يغني في وقت آخر. ولكنني أكّدت له أن ليس ثمة مناسبة خير من تلك المناسبة.

وسألني: «هل يعجبك صوتي؟»

فقلت: «كثيراً». أنا لم أكن مولعة بدغدغة غروره الشديد الحساسية، ولكني لم أتورّع في تلك المناسبة بالذات، ولحاجة في نفسي أريد قضاءها، عن تملّق ذلك الغرور وإثارته.

– «إذن فيتعيّن عليك، يا جين، أن تصاحبيني في العزف على البيانو».

– «حسن جداً، يا سيدي. سوف أحاول».

ولقد حاولت فعلاً. ولكنه سرعان ما دفعني عن كرسي البيانو وهو يقول: «يا لك من مهملة صغيرة!» أجل، لقد دفعني عن الكرسي في غير تلطّف ولا كياسة – وهذا على وجه الضبط ما كنت أسعى إليه – واغتصب مكاني اغتصاباً، وراح يعزف اللحن بنفسه، ذلك بأنه كان يُحسن العزف بقَدْر إحسانه الغناء. وسارعت أنا إلى فجوة النافذة. وفيما كنت جالسة هناك أطلّ على الشجرات الساكنة والمرج القاتم أدِّيَتْ هذه الأبيات بنغمات رقيقة بمصاحبة لحن عذب:

«إن حباً لم يعرف القلب

في سويدائه الملتهبة أصدق منه

قد سكب في كلّ عرق من عروقي،

دفق حياة متسارعاً.

كان قدومها هو أملي كل يوم.

وكان ذهابها هو ألمي.

وكان كل ما يعوق خطاها

ثلجاً في عروقي جميعاً.

لقد حلمت أن غاية الغايات في السعادة

أن يبادلني من أحبّه حباً بحب.

وفي سبيل هذا الهدف سعيتُ

بلهفة وعلى نحو أعمى.

ولكن الشقة الفاصلة ما بين حياتنا

كانت واسعة وغير مطروقة،

وكانت محفوفة بالمخاطر مثل تيار مزبد

من تيارات المحيط المصطخبة الخضراء.

وكانت راعبة مثل درب من دروب اللصوص

في قفر من القفار أو غابة من الغابات،

ذلك بأن القوة والحق، والويل والحنق

تفصل ما بين روحينا.

واقتحمت المخاطر، وسخرتُ من العقبات،

وتحدَّيت نذُر الشر،

وكل ما كان يهدّد، أو يضايق، أو ينذر

تخطَّيْتُهُ في قوة واندفاع.

وانطلق قوس قزحي، بمثل سرعة البرق،

وطرت أنا وكأنني في حلم،

ذلك بأن ابن المطر والضياء هذا

ارتفع أمام ناظري بهيًّا سَنِيًّا.

إن ذلك الابتهاج الرقيق المهيب

لا يزال يشرق ساطعاً على سحب الألم القاتمة،

فأنا لا أبالي الآن بالأرزاء المجتمعة من حولي

مهما تكاثفت وتجهَّمت.

أنا لا أبالي في هذه اللحظة الحلوة،

برغم أن كل ما اقتحمته وتغلّبت عليه

لا بد أن ينقض عليّ، انقضاض جوارح الطير،

قوياً رشيقاً، طالباً الثأر الممِض،

وبرغم أن البغض المتشامخ سوف يصرعني

وإلى محكمة الحق سيقدمني

وأن القوة الماحقة سوف تقسم،

في تجهم ضار، على معاداتي إلى ما لا نهاية.

لقد وضعت حبيبتي يدها الصغيرة،

بثقةٍ نبيلة، في يدي،

وأقسمت أن رابطة الزواج المقدسة

سوف توحَّد ما بين وجودَيْنا.

لقد أقسمت حبيبتي، ماهرةً قَسَمها بقبلة،

على أن تحيا معي، وتموت معي،

وهكذا بلغت آخر الأمر غاية غايات السعادة:

فأنا عاشق، ومعشوق، في آنٍ معاً.

ونهض وأقبل نحوي، فرأيت وجهه كله ملتهباً وعينيه الصقريتين مومضتين، ولمحتُ الرقَّة والهيام في أساريره جميعاً. وجبنتُ بادئ الأمر، ثم استجمعت قواي.

أنا لم أكن راغبة لا في المشاهد الرقيقة ولا في المكاشفات العاطفية الجريئة... وها أنا ذا أجد نفسي مهددة بكلا الخطرين. إن عليّ أن أعدّ سلاح الدفاع: وهكذا رحت أشحذ لساني. حتى إذا انتهى إليّ سألته في غلظة: «من هي المرأة التي تعتزم الزواج منها الآن؟»

فقال: «غريب أن يصدر هذا السؤال عنك أنت، يا حبيبتي جين».

– «على العكس، إني أعتبره سؤالاً طبيعياً جداً، وضرورياً جداً. لقد زعمت أن زوجتك المقبلة سوف تموت معك، فما الذي عنيته بهذه الفكرة الوثنية؟ أما أنا فلست أعتزم الموت معك... في استطاعتك أن تكون على ثقة من ذلك.

– «أوه، كل ما أتوق إليه، كل ما أصلي من أجله، هو أن تعيشي معي! أن الموت لم يُخْلق لفتاة مثلك».

– «بلى، لقد خُلِق لي. إنّ لي حقاً في أن أموت، عندما يحين أجلي، لا يقلّ عن حقك. ولكن عليّ أن أنتظر هذا الأجل متمهلة، لا أن أُساق إليه سَوقاً وكأنني زوجة هندوسية تلقي بنفسها في النار التي تُحرق بعلها الميت».

– «هل أغفر لك هذه الفكرة الأنانية، وأقيم الدليل على غفراني بقبلةٍ مصالِحة؟»

– «لا، أنا أؤثر أن أعفى من ذلك».

وهنا سمعته يناديني بقوله: «أيتها المخلوقة الصغيرة الصلبة» ثم يضيف: «لقد كان خليقاً بأيّة امرأة أن تذوب ذوباناً كاملاً لدى سماعها هذه الأبيات تُغَنَّى في مديحها».

وأكّدت له أني صلبة بطبيعتي – صخرية إلى حدّ بعيد، وأنه سوف يجدني هكذا في كثير من الأحيان، وأني وطّنت النية على إطلاعه على مختلف مواطن الفظاظة في خُلقي قبل انقضاء الأسابيع الأربعة القادمة، وأن عليه أن يُدرك أكمل الإدراك أي ضرب من الصفقة قد عقد، ما دام ثمة متّسع من الوقت لفسخها.

- «هل لك أن تلزمي الهدوء وأن تتكلمي على نحو عقلاني؟»

- «سوف ألزم الهدوء إذا رغبت أنت في ذلك. أما التكلّم على نحو عقلاني فهذا ما أزعم بكثير من الفخر أني فعلتُهُ حتى الآن».

فاغتاظ وأطلق أصواتاً تنمّ عن الازدراء وفروغ الصبر. فقلت في ذات نفسي: «حسن جداً، في استطاعتك أن تغضب وأن تتململ ما شاء لك الغضب والتململ، ولكني على مثل اليقين من أن هذه هي خير خطة أستطيع أن أواصل انتهاجها معك. أنا أحبك حباً يفوق قدرتي على التعبير، ولكني لن أسفَّ إلى دركٍ من العاطفة. وبأبرة البديهة الحاضرة هذه سوف أبقيك بعيداً عن شفا الهاوية أيضاً. ليس هذا فحسب، بل سوف أحافظ، بعونها اللاذع، على تلك المسافة التي تفصل ما بيني وبينك والتي تفضي أكثر من أيما شيء آخر إلى خيرنا الحقيقي المتبادل».

ورحت أمعن في إثارته أكثر فأكثر حتّى لقد غلب عليه الانفعال. حتى إذا انسحب في حنق بالغ، إلى أقصى الحجرة نهضتُ أنا قائلة، بطريقتي الطبيعية المألوفة الراشحة بالاحترام: «أتمنى لك ليلة طيبة، يا سيدي»، وانسللت من الجدار الجانبي، وانصرفت.

وطوال فترة الاختبار عملت بهذا النظام الذي دشّنته على ذلك النحو، ولقد وُفِّقت في ذلك أقصى ما يكون التوفيق. وليس من ريب في أن ذلك جعله دائم الغضب والنكد ولكني استطعت أن أرى، على الجملة، أنه قد أتاح له تسلية ممتازة، وأني لو تكشّفت له عن إذعان كإذعان الحمل وحساسية كحساسية اليمامة إذن لأرضيت عقله وذوقه - برغم تعزيزي لنزعته الاستبدادية - إرضاء أقلّ.

أما في حضرة الآخرين فكنت ألتزم، جرياً على مألوف عادتي، جانب الاحترام والسكون. وإذ لم تكن ثمة حاجة إلى انتهاج أيما مسلك آخر فإني لم أعمد إلى معارضته ومضايقته إلاّ في أحاديثنا المسائية. ولقد واصل دعوتي إلى الاجتماع به كلّما دقّت الساعة السابعة من كلّ ليلة، برغم أنه لم يعد يتلقّاني الآن بضروب

الألفاظ المعسولة من مثل «حبيبتي» و«منية نفسي»، وبرغم أن خير الكلمات التي أمسى يضعها تحت تصرفي هي – «دمية مستفزّة» و«عفريتة خبيثة»، و«جنية»، و«بلهاء» إلخ. وبدلاً من الملاطفات أصبحت لا أحظى منه بغير التجهّم. ليس هذا فحسب بل لقد حلّت القرصة في الذراع محل الضغط على اليد، وفركة الأذن الموجعة محلّ القبلة على الخد. وكان كل ذلك حسناً، فقد آثرت هذه المنن الضارية، في تلك الفترة بالذات، على أيما بادرة من بوادر الرقّة والتلطّف، إيثاراً لا لبس فيه. وأقرّتني مسز فيرفاكس، كما لاحظت، على هذا النهج: لقد تبدّد قلقها عليّ، ومن هنا ثبت لديّ أني تصرّفت تصرفاً حكيماً. وفي غضون ذلك أكّد لي مستر روتشيستر أني أبليته فلم يبق منه غير الجلد والعظم، وتهدّدني بأن ينتقم لنفسه من سلوكي الحالي انتقاماً رهيباً في مستقبل قريب. فضحكت في سري من تهديداته تلك، وقلت في ذات نفسي: «في استطاعتي أن أواصل كبحك، الآن، كبحاً معقولاً، ولست أشكّ في أني قادرة على مثل ذلك في ما بعد. وإذا ما فقدت إحدى الوسائل فاعليتها تعيَّن عليّ أن أستنبط وسيلة أخرى».

ومع ذلك فإن مهمتي لم تكن بالمهمة اليسيرة. وما أكثر ما تاقت نفسي إلى إرضائه بدلاً من إغاظته. ذلك بأن زوجي المقبل كان قد أصبح عندي هو العالم كله، بل أكثر من العالم: كان قد أصبح أملي في الجنة أو يكاد. لقد حال ما بيني وبينه أيما تفكير في الدين كما يحول الكسوف بين الإنسان وبين الشمس في وضح النهار. لقد تعذّر علي، في تلك الأيام، أن أرى الله بسبب من مخلوقه، هذا المخلوق الذي كنت قد جعلت منه معبوداً.

[25]

كان شهر الغزل قد تقضّى، وكانت ساعاته الأخيرة قد أمست معدودة. ولم يحدث أيما إرجاء لليوم الذي كان يغذ الخطى – يوم الزفاف. وكانت جميع الاستعدادات لاستقباله قد أكملت. ولم يكن بقي عليّ أنا، على الأقل، ما أصنعه: كانت حقائبي قد مُلئت، وأُقفلت، وشُدَّت بالحبال، ورُصِفت في محاذاة جدار حجرتي الصغيرة. وغداً، في مثل هذا الوقت، سوف تكون في طريقها إلى لندن، وكذلك سأكون أنا (إذا شاء الله لي هذا)، أو على الأصح ستكون جين روتشيستر، وهي شخص لم يكن قُدِّر لي بعد أن أعرفه. ولم يبق غير تعليق البطاقات، التي تحمل عنواني، على الحقائب، وكانت ملقاة هناك، مجرد مربعات صغيرة أربعة، في الدرج. كان مستر روتشيستر قد خطّ بنفسه العنوان، «مسز روتشيستر، فندق...، لندن» على كلّ منها، ولقد عجزت عن إقناع نفسي بتثبيتها على الحقائب، أو بتكليف أحد بتثبيتها. مسز فيرفاكس! إنها لم توجد بعد، إنها لن تولد إلاّ في غد، حوالي الساعة الثامنة صباحاً، وإني لأؤثر أن أنتظر وأستيقن من أنها قد وُلدت حية قبل أن أحوّل إليها هذه الملكية كلها. بحسْبي أن الفساتين التي في الخزانة المواجهة لمنضدة زينتي، والتي يُقال إنها ملك لها، قد حلّت محل فستاني الأسود وقبعتي القشيَّة اللذين كنت أرتديهما في لو وود، لأن بذلة العرس تلك، وهذا الفستان اللؤلؤي اللون، وذاك الخمار الوهمي، المتدلية من المشجب المغتصب لم تكن لي أنا. لقد أوصدت الخزانة لأحجب ما اشتملت عليه من جهاز طيفي غريب انبعث منه في هذه الساعة المسائية – الساعة التاسعة – عبر قتام حجرتي، وميض شبحي إلى أبعد الحدود. وقلت: «سوف أدعك وشأنك، أيها الحلم الأبيض. إن الحمى لتعصف بي. وإني لأسمع الريح تهبّ، ولسوف أمضي إلى خارج الغرفة لكي أستمتع بشيء من الهواء الطلق».

ولم تكن زحمة الاستعداد ليوم الزفاف هي وحدها التي أوقعت الحمى في أوصالي، لا، ولم يكن ترقّب التغير الكبير – هذه الحياة الجديدة التي كان من المفروض أن تستهلّ غداً – هو الذي أوقعها. كان لكل من هذين الحدثين أثره، من غير ريب، في خلق هذا المزاج القلق المهتاج الذي دفع بي في تلك الساعة المتأخرة إلى حديقة القصر المحلولكة. ولكن كان ثمة سبب ثالث خلَّف في نفسي أثراً أعظم من الأثر الذي خلَّفاه.

كانت قد استحوذت عليّ فكرة غريبة لاهفة. لقد حدث الليلة البارحة شيء لم أهتدِ إلى فهمه، شيء لم يعلم به أو يره أحد غيري! كان مستر روتشيستر قد غادر القصر الليلة البارحة، ولم يكن قد عاد بعد. لقد قصد إلى مِلك له صغير يتألف من مزرعتين أو ثلاث على مبعدة ثلاثين ميلاً، لقضاء بعض الأعمال التي حتّمت ذهابه لتسويتها بنفسه قبل مغادرته المتوقعة لإنكلترة. وكنت الآن أنتظر عودته لأبثّه مكنون صدري ولألتمس عنده حلَّ الأحجية التي حيَّرتني. ولكن يحسن بك أن تنتظر، أيها القارئ، ريثما يعود، حتى إذا أفضيت إليه بسرّي شاركته ثقتي.

وشخصت إلى البستان تحدوني إلى ظلاله تلك الريح التي كانت قد هبّت طوال النهار، من ناحية الجنوب، شديدة عارمة ولكن من غير أن تحمل ذرة من مطر. وبدلاً من أن تخمد مع تقدّم الليل بدت وكأنها تزيد من قوة اندفاعها وتعمّق من زئيرها: لقد مالت الأشجار إلى ناحية واحدة على نحو موصول، فهي لا تلتوي البتّة نحو الناحية الأخرى، وهي ما ترد أغصانها إلى الوراء إلا مرة كل ساعة... فقد كان الضغط الذي فرض على رؤوسها المتفرّعة أن تنحني نحو الشمال مستمراً لا ينقطع. واندفعت السحب من جهة إلى جهة، متعاقبة في سرعة، متراكبة طبقة فوق طبقة: إن عين المرء لم تقع على أيما رقعة زرقاء في سماء ذلك اليوم التموزي.

والواقع أني رحت أعدو مع الريح في شيء من الحبور الضاري، مُلقية بالهموم التي تشغل بالي إلى سيل الهواء العارم الهادر في الفضاء. حتى إذا هبطتُ

المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار واجهتُ حطام شجرة الشهبلوط الهندي: كان الشهبلوطة منتصبة هناك، سوداء مفلوعة، وكان جذعها المنفلق عند منتصفه يلهث فاغر الفم شاحب اللون كالموتى. إن نصفيها المشقوقين لم ينفصل أحدهما عن الآخر، لأن أصلها الثابت وجذورها القوية أبقتهما غير مشطورين. ولكن وحدة الحيوية فيها كانت قد تعطّلت، وكفَّ النسغ عن السرَيان، وماتت الأغصان الكبرى في كل من جانبيها، وكان خليقاً بعواصف الشتاء المقبل أن تصرع واحداً من الشقين، أو كليهما، وتسوّيه بالارض... ومع ذلك ففي إمكان المرء أن يلاحظ أن هذين الشقين كانا يشكّلان شجرة واحدة.. طللاً من الأطلال، ولكنه طلل كامل.

وقلت وكأن الفلقَيْن كانا مخلوقين حيّين قادرين على سماع كلماتي: «لقد أحسنتما صنعاً بتماسككما هذا. أنا أحسب أنه لا يزال فيكما – برغم ما يبدو عليكما من إمارات التلف والتفحيم والسَّفع – بقية من حياة، منبثقة من ذلك التلاصق عند جذوركما المخلصة الأمينة. إنكما لن تنعما بعد اليوم بشيء من الورق الأخضر، ولن تريا بعد اليوم طيوراً تبني أعشاشها وتنشد أغاني الرعاة على أغصانكما. لقد انقضى عهد الحبور والحب بالنسبة إليكما، ولكنكما لا تعيشان في عزلة موحشة. إن لكلّ منكما رفيقاً يحنو عليه في محنته».

وفيما كنت أرفع بصري إليهما بدا القمر، لحظة واحدة، في ذلك الجزء من السماء الذي استطعت رؤيته من خلال الشق. كان قرصه أحمر دامياً، وكان نصف محجوب بالغمام: لقد بدا وكأنه يُلقي عليَّ نظرة مشدوهة كئيبة ليسارع بعد ذلك فيدفن نفسه من جديد في خضم السحاب العميق. وهدأت الريح، لحظة ليس غير، حول ثورنفيلد، أما بعيداً هناك فوق الغابات والجداول فقد أطلقت عويلاً ضارياً كئيباً يوقع الحزن في النفس، وهكذا آثرت الفرار من جديد.

لقد همت على وجهي ههنا وههناك، خَلَل البستان، جامعة التفاح المتناثر بكثرة على العشب المحيط بجذور الأشجار، ثم رحت أتسلّى بفرز الصالح منه عن الطالح لأحمل ذلك، بعد، إلى القصر فأضعه في مخزن الأطعمة. ثم إني شخصت إلى

حجرة المكتبة لأستيقن من أن نار الموقد قد أضرمت، إذ كنتُ أعلم أن مستر روتشيستر يؤثر – ولو أن الفصل صيف – أن يرى، لدى عودته، إلى النار تضطرم في الموقد على نحو بهيج. فوجدت النار مضرمة، منذ فترة يسيرة، ومتوهجة توهجاً قوياً. فأدنيت كرسيه ذا الذراعين إلى زاوية المدفأة، ثم دفعت المائدة ذات العجلات إلى جوارها، وأسدلتُ الستارة، وطلبتُ إدخال الشموع إلى الحجرة استعداداً لإضاءتها. واستبدّ بي القلق، عندما أتممت هذه الترتيبات، أكثر مما استبدّ بي في أية لحظة سابقة حتى لقد تعذّر عليّ أن ألزم مقعدي بل أن أبقى في القصر. وأعلنت ساعة صغيرة معلقة على جدار الحجرة وساعة الردهة العتيقة، في آن معاً، العاشرة مساء.

وقلت في ذات نفسي: «لشدّ ما قد تقدم الليل! لسوف أهبط مسرعة إلى أبواب القصر الخارجية، فثمة بين الفينة والفينة شيء من ضياء القمر، وفي ميسوري أن أرى طريقي إلى مسافة معقولة. ومن يدري فلعله أن يكون قادماً الآن، وأن في لقائه لما يوفر عليّ بضع دقائق من الترقّب والقلق».

وزأرت الريح زئيراً داوياً في الشجرات الضخام التي ظللت الأبواب الخارجية. ولكن الطريق كانت، بقَدْر ما استطعت أن أرى، ساكنة موحشة، من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال على حدّ سواء. ولولا ظلال السحب التي عبرتها بين حين وآخر، كلما أطل القمر عليها، لكانت مجرد خط طويل شاحب لا تضطرب فيه ذرَّة متحركة.

وترقرقت في عيني، وأنا أرى إلى الطريق، دمعة صبيانية – دمعة خيبة وفروغ صبر. وغلب عليّ الخجل فكفكفتها. وتباطأت في السير: كان القمر قد أوصد أبواب حجرته عليه إيصاداً كاملاً، وأحكم إسدال ستارته المنسوجة من سحائب كثيفة، وكان الليل قد أظلم، وكان المطر قد اندفع ممتطياً متن العاصفة الهوجاء.

– «لشد ما أتمنى أن يجيء! لشد ما أتمنى أن يجيء!» كذلك هتفت وقد استبدّ بي هاجس سوداوي.. كنت قد توقّعت عودته قبل موعد الشاي، وها قد هبط الليل الآن، فما الذي عاقه؟ هل أصابه مكروه؟ وتذكرت حادثة الليلة البارحة، فرأيت فيها نذيراً ببلاء قريب. وخشيت أن تكون آمالي من شدّة الإشراق بحيث يتعذّر تحقيقها. وكنت قد استمتعت، في الفترة الأخيرة، بقدر من الهناءة ضخم، حتى لقد خيّل إليّ أن سعادتي قد جاوزت خط هاجرتها وأنها لابد أن تأخذ سبيلها، الآن، نحو الأفول.

وقلت في ذات نفسي: «ومع ذلك، فليس في ميسوري أن أرجع إلى القصر. أنا لا أستطيع أن أجلس إلى جانب المستوقد في حين لا يزال هو في قارعة الطريق، في مثل هذا الجو البارد العاصف. فلأن أتعِب ساقي خير لي من أن أرهق قلبي. سوف أمضي للقائه».

وانطلقت مغذَّة السير، ولكني لم أمض إلى بعيد. فلم أكد أجتاز ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر، وبصرت بفارس ينهب الأرض بجواده، وإلى جانبه كلب يعدو. ألا بُعْداً لهواجس الشؤم! كان ذلك هو، كان هو من غير ريب، ممتطياً صهوة جواده «مسرور» وفي أعقابه كلبه «بايلوت». وبَصُر بي، ذلك أن القمر كان قد شقّ سبيلاً أزرق في السماء، وراح يتقدّم فيه ساطعاً مؤذناً بوشك هطول المطر. ونزع قبعته وراح يلوح بها حول رأسه. فانطلقت أعدو للقائه.

وهتف، وهو يبسط لي يده وينحني من على السرج: «هاها! إنّك لا تستطيعين العيش لحظة واحدة بدوني... هذا شيء واضح. طأي على مقدَّم حذائي، ومدّي إليّ يديك الاثنتين: اصعدي!».

وامتثلت أمره: كانت البهجة قد جعلتني رشيقة خفيفة الحركة، فوثبت واستويت على صهوة الجواد أمامه فرحّب بي بقبلة قلبية وبتمدح مزهو بالانتصار احتملته ما وسعني الاحتمال. ثم إنه كبح جماح اعتزازه ذاك ليسألني: «هل حدث، يا جانيت، ما دعاك إلى الخروج للقائي في مثل هذه الساعة؟ أتشكين أمراً؟»

– «لا. ولكني حسبت أنّك لن تعود أبداً. فلم أطق انتظارك في القصر، وبخاصة في مثل هذا الجو الممطر».

– «حقاً إنه جو ممطر! أجل، وإن المياه لتقطر من ثيابك مثل عروس من عرائس البحر. تدثّري بمعطفي: ولكني أظنّك محمومة، يا جين! إنّ النار لتتّقد في خدك ويدك. وكرة أخرى أسألك: هل تشكين أمراً؟»

– «لا، أنا لا أشكو الآن شيئاً. أنا لم أعد لا خائفة ولا تاعسة».

– «إذن فقد كنت من قبل خائفة وتاعسة؟»

– «إلى حدّ ما. ولكني سوف أفضي إليك بكل ذلك عمّا قريب، يا سيدي. وأستطيع القول إنّك لن تقابل آلامي بغير السخرية مني».

– «سوف أسخر منك، من صميم قلبي، عندما ينقضي الغد. أما قبل ذلك فإني لن أجرؤ على مثل هذا الصنيع، لأن فوزي بغنيمتي لا يزال موضع شكّ. ولكن أهذا أنت؟ أنت التي كنت خلال هذا الشهر الأخير فرَّارة مثل الانكليس، شائكة مثل الوردة البرّية؟ أنا لم أكن بقادر على أن أمسَّك بأصبعي من غير أن تدمى، ومع ذلك فها أنا ذا أراني الآن أضمّ بين ذراعي حملاً شارداً. لقد شردتِ من الحظيرة بحثاً عن راعيك، أليس كذلك يا جين؟»

– «لقد أردتك، ولكن لا يأخذك الزهو! ها نحن قد بلغنا ثورنفيلد، فدعني أترجّل الآن».

وأنزلني في الممرّ المعبّد. حتى إذا أخذ جون جواده لحق بي إلى الردهة وسألني أن أسارع لارتداء بعض الملابس الجافة وأن أوافيه بعد ذلك إلى حجرة المكتبة. ثم إنه أوقفني، عندما تقدّمت نحو السلم، لينتزع مني وعداً بأن لا أبطئ في العودة. والحق أني لم أبطئ، فما هي غير دقائق خمس حتى دخلت عليه، فألفيته جالساً إلى مائدة العشاء.

– «اجلسي وابقي معي، يا جين. سوف تكون هذه، إذا شاء الله ذلك، هي الوجبة قبل الأخيرة التي ستتناولينها في قصر ثورنفيلد حتى نعود إليه بعد فترة طويلة».

فجلست قربه، ولكني قلت له إني لا أستطيع أن آكل.

فقال: «لماذا يا جين؟ ألأن ثمة رحلة تنتظرك؟ أيكون التفكير في الذهاب إلى لندن قد ذهب بشهوتك إلى الطعام؟»

– «أنا لا أستطيع الليلة أن أرى، في وضوح، ما الذي ينتظرني، يا سيدي. وإني أكاد أجهل أي أفكار تراودني. إن كل ما في الحياة ليبدو وهمياً في عيني».

– «ما عداي. أنا شيء مادي. المسيني!».

– «أنت يا سيدي أكثر الأشياء سبحيَّةً. إنّك مجرد حلم».

فبسط يده ضاحكاً وقال وهو يقربها إلى عينيَّ: «أهذه حلم؟» كانت له يد ممتلئة عضِلة ذات بأس، وكانت له ذراع طويلة قوية. فقلت وأنا أردّها عن وجهي: «أجل، إنها برغم لمسي لها مجرد حلم. هل فرغت من عشائك، يا سيدي؟»

– «نعم، يا جين».

وقرعت الجرس، وأصدرت الأمر بإخراج الصينية. حتى إذا خلَونا إلى بعضنا من جديد حركت جمرات النار، ثم اتّخذت مقعداً خفيضاً عند ركبة سيدي.

وقلت: «لقد أوشك الليل إن ينتصف».

– «أجل، ولكن تذكَّري يا جين: لقد وعدتني بأن تسهري معي طوال الليلة السابقة ليوم زفافي».

– «أجل، لقد وعدتك. ولسوف أبرُّ بوعدي، طوال ساعة أو ساعتين على الأقل. فليست بي، الآن، رغبة في الرقاد».

– «هل إنجزتِ ترتيباتك كلها؟»

– «كلها، يا سيدي».

فقال: «وكذلك فعلت أنا بدوري. لقد سوّيت كل شيء، ولسوف نغادر ثورنفيلد، غداً، بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة».

– «حسن جدا، يا سيدي».

– «بأية ابتسامة عجيبة أطلقتِ هاتين الكلمين «حسن جداً» يا جين! أي تورُّدٍ يبدو على كل وجنة من وجنتيك! وأي بريق غريب هذا الذي يلتمع في عينيك! أأنت في حال صحية حسنة؟»

– «أحسب ذلك».

– «تحسبين! ما بالك، يا جين؟ قولي لي بماذا تشعرين».

– «لا أستطيع، يا سيدي. إن الكلمات أعجز من أن تصوّر ما أحس به. أنا أتمنى إن لا تنقضي هذه الساعة التي نحن فيها، إذ من يدري أي قَدَر تخبئه لنا الساعة التالية؟»

– «هذه هي الميلانخوليا، يا جين. لقد رزحتِ تحت عبء ثقيل من الاهتياج أو من الإجهاد».

– «وهل تشعر أنت، يا سيدي، بالهدوء والسعادة؟»

– «الهدوء؟... لا. أما السعادة... فقد نفذت إلى شغاف قلبي بالذات».

وتطلّعت إليه لأقرأ إمارات الهناءة على وجهه. لقد كان متَّقداً مضرجا بالدم.

وقال: «امنحيني ثقتك، يا جين. حرِّري ذهنك من أي هم يُثقله، بأن تفضي إليّ به. ما الذي تخافينه؟ – أتخافين إن أتكشَّف عن زوج غير صالح؟»

– «هذا آخر ما يخطر في بالي».

– «أترهبين هذه الدنيا الجديدة التي تقفين على عتبتها؟... هذه الحياة الجديدة التي تأخذين سبيلك إليها؟»

– «لا».

– «أنت تحيرينني، يا جبين. إن سيماءك ونبرتك المثقلة بالجرأة المحزومة لتوقعان في نفسي مزيجاً من الارتباك والألم. أنا أسألك إيضاحاً».

– «إذن، فاسمع، يا سيدي. لقد غادرتَ القصر، الليلة البارحة، أليس كذلك؟»

– «أجل، غادرته. أنا أعلم ذلك، ولقد ألـــمعتِ منذ لحظات إلى أن شيئاً قد حدث في أثناء غيبتي... شيئاً هو في أغلب الظن غير ذي شأن، ولكنه أقلقك على كل حال. دعيني أسمعه أتكون مسز فيرفاكس قد قالت لك شيئاً؟ أم إنك سمعت الخدم يتحدثون؟ هل جُرِح احترامك الذاتي الحسَّاس؟»

– «لا، يا سيدي».

وأعلنت الساعة الثانية عشرة. وتريّثت ريثما أكملت ساعة الحجرة الصغيرة دقاتها الفضية، وساعة الردهة الكبيرة ضرباتها المتذبذبة المبحوحة، ثم استأنفت الكلام فقلت:

– «لقد كنت طوال يوم أمس في شغل شاغل سعدتُ به أعظم السعادة. ذلك بأني لم أكن، كما يبدو أنك تعتقد، فريسة أيما خوف من الحياة الجديدة إلخ.. إن ما يداعب نفسي من أمل العيش معك هو في ذاته شيء رائع، لأني أحبك. لا، يا سيدي، لا تلاطفني الآن... دعني أتحدث غير معتَرَضَة. أمس كانت ثقتي عظيمة بالعناية الإلهية، ولقد آمنت بأن الأحداث كانت تتعاون لتحقيق خيري وخيرك. لقد كان يوماً رائقاً، إذا كنت تذكر – وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك أو راحتك في الرحلة التي قمت بها. وبعد تناول الشاي تمشّيت فترة قصيرة في المجاز المعبَّد، وأنا أفكر فيك. لقد رأيتك بعين الخيال على مقربة دانية مني إلى حدّ جعلني لا أفتقد وجودك الفعلي إلا قليلاً. لقد فكرت في

الحياة التي تنتظرني – حياتك، أنت يا سيدي – وهي وجود يفوق وجودي سعة وخصباً، بقدر ما تفوق أعماق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقاً وبُعْد غور. وعجبت كيف يشبّه علماء الأخلاق هذا العالم بالقفر الموحش الكئيب، ذلك بأنه كان منوَّراً في نظري مثل وردة ناضرة. ولم تكد الشمس تجنح للغروب حتى برد الهواء وانتشرت السحب في السماء، فانقلبت إلى القصر. ودعتني «صوفي» إلى الدور الأعلى لأرى ثوب زفافي وكان قد جيء به منذ فترة يسيرة ليس غير. وتحته، في العلبة وجدت هديتك – ذلك الخمار الذي حملك تبذيرك الأميري على طلبه من لندن، عاقداً النية، في ما أظن، بعد أن رفضتُ جواهرك، على إغرائي بقبول شيء في مثل هذه النفاسة. وابتسمت وأنا أنشره، وفكرت في مكيدتك والسخرية من ذوقك الأرستوقراطي وجهودك لحجب وجه عروسك العامية بقناع نبيلة من النبيلات. وتساءلت كيف السبيل إلى أن أحمل إليك تلك القطعة الحريرية المربعة، غير الموشّاة، التي كنت قد أعددتها أنا بنفسي لأتّخذ منها غطاء لرأسي ألوضيع المولد، وإلى أن أسألك ألا تليق هذه القطعة بامرأة عاجزة عن أن تقدم إلى زوجها أيما ثروة، أو جمال، أو أنسباء. ولقد رأيت، في مثل هذا الموقف، وسمعت أجوبتك الديموقراطية المتهورة، وإنكارك المتشامخ لأيما حاجة، من جانبك، إلى زيادة ثروتك، أو رفع مكانتك الاجتماعية، بالزواج من كيس من أكياس النقود أو تاج من التيجان».

فقاطعني مستر روتثيستر قائلاً: «ما أحسن ما قرأت أفكاري، أيتها الساحرة. ولكن ماذا وجدت في الخمار غير ما ازدان به من وشي؟ هل وجدت سمّاً أو خنجراً؟ وإلاّ. فعلام هذه السيما المأتمية التي تبدو على وجهك الآن؟»

– «لا، لا، يا سيدي. أنا لم أجد، بالإضافة إلى لطافة الخمار ونفاسته، أيما شيء غير كبرياء فيرفاكس روتشيستر، وهذه الكبرياءلم تروِّعني لأني تعوّدت رؤية الشيطان. ولكن ما إن هبط الليل، يا سيدي، حتى هبّت الريح: لقد هبّت مساء أمس، لا كما تهب الآن – ضارية داوية – ولكن في جَرْس كئيب منتحب هو أدعى إلى الإخافة والترويع وتمنيت لو أنك كنت معنا في القصر. ووفدتُ على هذه

الحجرة فكان في مشهد الكرسي الشاغر والمستوقد العاطل عن النار ما أوقع الرعدة في أوصالي. وأويت إلى الفراش، وحاولت طوال فترة غير يسيرة أن أستسلم للرقاد، ولكني لم أستطيع – كان حس من الاهتياج اللاهف يحزنني. وبدا لي وكأن الريح الهوجاء، التي كانت ما تزال تعصف، قد خنقت صوتاً آخر فاجعاً، صوتاً لم أستطع أن أقرر بادئ الأمر هل انطلق في داخل القصر أم في خارجه، ولكن هذا الصوت تكرر، غامضاً ولكنه كئيب، بين الفينة والفينة. وأخيراً أدركت أن هذا الصوت لا بد أن يكون صوت كلب يعوي على مسافة ما. ثم إنه انقطع، فسررتُ بانقطاعه. حتى إذا استسلمت للرقاد لاحقتني، في أحلامي، أجواء تلك الليلة المظلمة العاصفة، وواصلتُ، كذلك، الرغبة في أن أكون معك، واستشعرت حساً غريباً محزوناً بأن ثمة حاجزاً يفصل ما بيننا. وخلال الفترة الأولى من رقادي رأيت نفسي أتبع التواءات طريق مجهول: كانت ظلمة حالكة تكتنفني من كل جانب، وكان وابل من المطر ينهمر عليّ. وكنت أحمل بين ذراعي طفلاً صغيراً: مخلوقاً بالغ الصغر، أعجز من أن يقوى على السير، وكان هذا الطفل يرتعد بين يدي المقرورتين، ويُعْول في أذني على نحو يثير الشفقة. وخُيّل إليّ، يا سيدي، أنك كنت تسير على الطريق نفسها، ولكنك تتقدّمني فيها مسافة غير يسيرة، فأرهقت كل عصب من أعصابي لكي أدركك، وبذلت الجهد تلو الجهد للنطق باسمك وللتوسّل إليك أن تقف – ولكن حركاتي كانت مغلولة... ولكن صوتي تلاشى قبل أن يطلق لفظة واحدة. في حين كنت أنت – أو هكذا أحسست – لا تزداد عني، في كل لحظة، إلا بعداً».

– «وهل لا تزال هذه، الأحلام تنكّد عيشك الآن، يا جين، وأنا على مقربة دانية منك؟ يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة! تناسَي هذا البلاء الوهمي ولا تفكري إلاّ بالسعادة الواقعية. أنت تزعمين انك تحبينني، يا جانيت: اجل، أنا لا أستطيع أن أنسى هذا، وليس في أستطاعتك أنتِ أن تنكريه. إن هذه الكلمات لم تمت، غير ملفوظة، على شفتيك. لقد سمعتها واضحة، رقيقة: وقد تكون الفكرة مهيبة أكثر مما ينبغي، ولكنها عذبة كالموسيقى – «أعتقد أن ما يداعب نفسي من أمل العيش معك،

يا إدوارد، هو في ذاته شيء رائع، لأني أحبك» هل تحبينني، يا جين؟ أسمعيني هذه. الكلمة كرة أخرى».

– «أجل، أحبك، يا سيدي، أحبك بكل قلبي».

وبعد صمت استمرّ بضع دقائق قال «حسناً، هذا غريب، ولكن تلك الجملة نفذت إلي صدري على نحو موجع. لماذا؟ لأنّك، في ما أحسب، قلتها في حرارة صادقة... حرارة تكاد تكون دينية، ولأن نظرتك الآن إليّ هي الإيمان والصدق والولاء في أسمى معانيها. وهذا فوق ما أطيق: لكأن في جانبي روحاً من الأرواح لا بشراً من البشر – ألا فانظري إليّ نظرة ماكرة، يا جين، وهو شيء تتقنينه أحسن إتقان. افترّي عن ابتسامة من ابتساماتك الغريبة، الحيية، المثيرة. قولي لي إنك تبغضينني – ناكديني، أغيظيني: افعلي أيما شيء شرط أن تثيريني، فلأن أستشعر بالحنق خير لي من أن أستشعر بالحزن».

– «سوف أناكدك واغيظك ما طابت لك المناكدة والإغاظة، عندما أتمّ قصّتي. ولكن استمع إليّ حتى النهاية».

– «لقد حسبت، يا جين، أنكِ قلت كل ما ترغبين في قوله. لقد حسبت أني اكتشفت مصدر كآبتك في حلم من الأحلام».

فهززت برأسي، فقال: «ماذا؟ ألا يزال لديك ما تضيفينه؟ ولكني لن اعتقد أنه ذو بال. أنا أنبّهك، سلفاً، إلى أني غير مستعد للتصديق. تابعي».

وأدهشني ما بدا على محياه من اضطراب، ومن نفاد صبر مشوب بالخشية. ولكني مضيت في حديثي قائلة:

– «لقد رأيت حلماً آخر، يا سيدي. حلمت أن قصر ثورنفيلد قد استحال طللاً موحشاً أوت إليه الخفافيش والبوم. وتراءى لي أنه لم يبق من واجهته الفخمة غير جدار هيكلي الشكل، عالٍ جداً، هش جداً. وهمت على وجهي، في ليلة مقمرة، خلال الأعشاب التي نبتت ضمن نطاقه، فكنت اتعثّر ههنا بموقد رخامي، وأتعثر

ههناك بقطعة ساقطة من افريز. كنت متلفعة بشال، وكنت لا أزال أحمل الطفل الصغير المجهول. لقد أبيت أن ألقيه في أيما مكان، برغم كل ذلك الكلال الذي استبدّ بذراعي. ولقد تعيّن عليّ الاحتفاظ به على الرغم من أن ثقله كان يعوق تقدّمي إلى حدّ بعيد. وعلى مسافة ما، سمعت جواداً يخب على الطريق، وكنت على مثل اليقين من أنك كنت أنت الفارس الممتطي صهوته: كنت مرتحلاً إلى بلد قصيٍّ لن ترجع منه إلاّ بعد سنوات عديدة. فتسلّقت الجدار الرقيق في عجلة مسعورة مخاطرة، وكلّي شوق إلى أن المحك، من قمته، ولو مجرّد لمح. وتدحرجت الحجارة من تحت قدمي، وانقصفت أغصان اللبلاب التي تشبثت بها، وطوق الطفل عنقي بذراعيه، في ذعر، حتى لكاد يخنقني. وأخيراً بلغت قمة الجدار، فرأيتك أشبه شيء بذرَّة في طريق بيضاء، ذرة تتضاءل لحظة بعد لحظة. وعصفت الريح عصفاً شديداً لم أطق عليه صبراً. فقعدت على القمة الضيقة. ووضعت الطفل المذعور في حِجري ورحت أهدئ من روعه. واستدرت عند منعطف من منعطفات الطريق، فانحنيت إلى أمام لكي ألقي عليك نظرة أخيرة. وفي هذه اللحظة انهار الجدار، فأجفلت، وهوى الطفل من على ركبتي، وفقدت توازني، وسقطت، وأفقت من نومي».

– «والآن، يا جين، هذا كل شيء، أليس كذلك؟»

– «هذا ليس إلاّ المقدمة، يا سيدي. أما القصة فسوف أشرع الآن في روايتها: حين أفقت من نومي بهر عيني ضياء، خيّل إليّ معه أن الشمس قد طلعت. ولكني كنت مخطئة: إن ذلك الضياء لم يكن غير ضوء شمعة. وحسبت أن «صوفي» قد دخلت عليّ. كان ثمة شمعة على منضدة الزينة، وكان باب الخزانة، حيث كنت قد علّقت قبل ذهابي إلى الفراش ثوب زفافي وخماري، مشرعاً. وسمعت ثمة حفيفاً. فسألت: «صوفي، ما الذي تفعلينه؟» فلم يجبني أحد. ولكن شبحاً ما لبث أن انبثق من الخزانة، فتناول الشمعة، ورفعها عالياً وراح يتأمل الملابس المتدلية من المشجب. وصحت كرة أخرى: «صوفي! صوفي!» ومع ذلك، لم أسمع رجع جواب. وكنت قد نهضت من فراشي، فانحنيت إلى أمام: لقد استبدّ بي بادئ الأمر

دهشٌ، ثم حيرة، وبعد ذلك جرى الدم بارداً في عروقي. إن ذلك الشبح، يا مستر روتشيستر، لم يكن صوفي، ولم يكن «ليا»، ولم يكن مسز فيرفاكس، بل إنه لم يكن - لا، لقد كنت واثقة من ذلك، ولا أزال واثقة - حتى تلك المرأة العجيبة، غرايس بول».

فقاطعني سيدي: «يجب أن يكون واحدة منهن».

- «لا، يا سيدي، أؤكد لك، في صدق وإخلاص، أنه لم يكن واحدة منهن. إن الشخص الذي رأيته منتصباً أمامي كان مخلوقاً لم تقع عليه عيناي قط من قبل ضمن نطاق قصر ثورنفيلد. كان طوله وشكله العام غريبين عليّ».

- «صفيه لي، يا جين».

- «لقد بدا، يا سيدي، امرأة، فارعة الطول، ضخمة الجسم، ذات شعر أثيث قاتم تتدلّى غدائره طويلة على ظهرها. ولست أدري ماذا كانت تلبس: كان شيئاً أبيض مستقيماً، ولكني لا أستطيع القول هل كان ثوباً أم شرشفاً أم كفناً».

- «هل رأيت وجهها؟»

- «أنا لم أره بادئ الأمر. ولكنها سرعان ما تناولت خُماري من موضعه، ورفعته عالياً، وحدّقت إليه طويلاً، ثم طرحته على رأسها هي واستدارت إلى المرآة. وفي تلك اللحظة رأيت منعكس الوجه والأسارير، في وضوح كامل، على المرآة المستطيلة المظلمة».

- «وكيف كانت؟»

- «رهيبة ومروِّعة - أوه، يا سيدي، أنا لم أر في حياتي وجهاً مثل ذلك الوجه! كان وجهاً متغير اللون... وجهاً وحشياً. لشدّ ما أتمنى لو أنسى دوران تينك العينين الحمراوين في محجريهما، وانتفاخ تلك الملامح الرهيبة المكفهرَّة».

- «الأشباح شاحبة، عادة، يا جين».

– «ولكن هذا الشبح، يا سيدي، كان أرجوانياً: كانت شفتاه متورمتين داكنتين، وكان جبينه متغضناً، وكان حاجباه الأسودان مرفوعين رفعاً مسرفاً فوق العينين المحتقنتين أأقول لك بأي شيء ذكرتني هذه المرأة؟»

– «في إمكانك أن تقولي».

– «بالشبح الألماني الشرير... بالشبح المصاص لدماء النيام».

– «آه.... وماذا فعلت بعد ذلك؟»

– «لقد نزعت خماري عن رأسها الرهيب، ومزّقته قطعتين، ثم طرحت كلتا القطعتين على الأرض وداست عليهما».

– «وبعد ذلك؟»

– «لقد أزاحت ستارة النافذة وأطلت منها: لعلها رأت الضحى يرتفع، ذلك بأنها سرعان ما حملت الشمعة وانكفأت إلى الباب. ثم إنها وقفت عند سريري وأنشأت تحدق إلي بعينيها الناريتين... لقد دفعت شمعتها نحو وجهي، وأطفأتها تحت عيني. وأحسست بوجهها المتوهج يتأجج فوق وجهي، وغبت عن الوعي: للمرة الثانية في حياتي – للمرة الثانية فحسب – أُغمي عليّ من شدّة الذعر».

– «ومن كان إلى جانبك عندما ثبتِ إلى رشدك؟»

– «لا أحد، يا سيدي، غير وضح النهار. لقد نهضت، وغسلت رأسي ووجهي بالماء، ثم شربت جرعة طويلة، واستشعرت أني لم أكن، برغم وهن قواي، مريضة، ووطّنت النية على أن لا أفضي بنبأ ذلك إلى أحد غيرك. والآن، يا سيدي، قل لي من كانت تلك المرأة؟»

– «مخلوقة من مخلوقات عقلك المستثار أكثر مما ينبغي، ذلك أمر لا ريب فيه. إن عليّ أن أكون لطيفاً بك، يا كنزي. إن أعصابك المرهفة لم تخلق للمعاملة الخشنة».

– «صدقني يا سيدي إذا قلت لك إنّ أعصابي لم تكن ملومة. كانت المخلوقة حقيقية، ولقد حدثت المسألة فعلاً».

– «وأحلامك السابقة، هل كانت حقيقية أيضاً؟ هل استحال قصر ثورنفيلد إلى طلل؟ هل فصلتني عنك عِقابٌ لا سبيل إلى قهرها؟ أتستطيعين القول إني فارقتك من غير دمعة... من غير قبلة... من غير كلمة؟»

– «إن هذا لـــمَّا يحدث بعد».

– «وهل ترينني على وشك أن أفعل ذلك؟ كيف، وها هو ذا اليوم الذي سيجمع ما بين روحينا إلى الأبد قد أطلّ علينا فعلاً؟ وما إن تتّحد روحانا حتى تزايلك هذه. المخاوف الذهنية: أنا أضمن لك ذلك».

– «مخاوف ذهنية، يا سيدي! لشدّ ما اتمنى لو أستطيع الاعتقاد أنها لم تكن إلاّ مخاوف ذهنية. إني لأتمنى ذلك الآن، أكثر من أي وقت آخر، ما دمت حتّى أنت نفسك عاجزاً عن حلّ لغز تلك الزائرة الرهيبة».

– «وما دمت أنا نفسي عاجزاً عن ذلك، يا جين، فلا بد أن تلك الزائرة كانت زائرة وهمية».

– «ولكني لم أكد أقول ذلك في ما بيني وبين نفسي عندما نهضت من فراشي هذا الصباح، يا سيدي، ولم أكد أجيل طرفي في الحجرة لكي أستمد من مشهد الأشياء البهيج في وضح النهار شجاعة وعزاء حتى رأيت هناك، هناك على السجادة، ما جعل من افتراضى مجرَّد كذبة بلقاء: لقد رأيت الخمار وقد شطر، من أعلى إلى أدنى، شطرين اثنين!»

وبصرتُ بمستر روتشيستر يجفل ويرتعد. ثم إنه سارع إلى تطويقي بذراعيه وهتف: «إذا صح أن شيئاً خبيثاً قد ألمَّ بك الليلة البارحة فاحمدي الله على أن الخمار هو وحده الذي أُصيب بأذى. أوه، لشدّ ما يروعني مجرّد التفكير في ما كان يمكن أن يحدث!»

وأنشأ يلهث، وضمّني إليه في قوة جعلتني لا أكاد أقوى على اللهاث. وبعد صمت استمرّ بضع دقائق، أردف في بشر:

– «والآن، يا جين، سوف أشرح لك كلّ شيء. لقد كان ما رأيته مزاجاً من الحلم والحقيقة. فليس من ريب في أن امرأة قد دخلت غرفتك، وأن تلك المرأة كانت – بل يجب أن تكون – غرايس بول. لقد قلت أنت نفسك إنها مخلوقة عجيبة، وأن لك، على ضوء كل ما تعرفينه عنها، لحقّاً في أن تصفيها بهذا الوصف. أتذكرين ما صنعته بي؟ ما صنعته بمايسون؟ لقد لاحظتِ دخولها وأعمالها وأنت في حالٍ وسطٍ بين النوم واليقظة. ولكنك، عزَوتِ إليها – وقد عصفت بك الحمى وأخذتِ أو كدت في الهذيان – مظهراً عفريتياً غير مظهرها الحقيقي: إن الشعر الطويل المنفوش، والوجه الأسود المنتفخ، والقامة المغالى فيها ليست غير تلفيق من تلفيقات الخيال، وثمرة من ثمرات الكابوس. أما تمزيق الخمار تمزيقاً حقوداً فكان حقيقياً. وهو يتّفق ومزاجها وطريقتها. أنا أرى أنك لتتساءلين لماذا أبقي على مثل هذه المرأة في بيتي، ألا فاعلمي أني سوف أفضي إليك بالسبب بعد أن ينقضي على زواجنا عام ويوم واحد، ولكن ليس الآن. أيقنعك هذا، يا جين؟ هل تقبلين حلّي للغز؟»

وفكرت ملياً، فبدا لي في الحق، أن تفسيره ذاك هو التفسير الوحيد الممكن. أنا لم أقتنع، ولكني حاولت التظاهر بذلك لكي أرضيه. وليس من ريب في أن كلامه كان قد سرَّى عن نفسي، وهكذا أجبته بابتسامة راضية. وإذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة منذ فترة غير يسيرة فقد أخذت الأهبة لمفارقته.

فسألني وأنا أشعل شمعتي: «أتنام صوفي مع آديل في حجرة الأطفال؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «وإن في سرير آديل الصغير لـمتّسعاً لك. يتعيّن عليك أن تشاطريها إيّاه، هذه الليلة، يا جين. ذلك بأن الحادثة التي رويتها لي خليق بها أن تثير أعصابك، وأني لأؤثر أن لا تنامي وحدك. عديني بأن تنامي في حجرة الأطفال».

- «إن ذلك ليسعدني كثيراً، يا سيدي».

- »أحكمي إيصاد الباب من داخل. وأيقظي صوفي عندما تصعدين بحجّة أنّك تريدين أن تكلّفيها إيقاظك في ساعة مبكرة من صباح غد، ذلك بأن عليك أن تفرغي من ارتداء ملابسك وتناول فطورك قبل الساعة الثامنة. والآن، اطردي الأفكار القاتمة، وطاردي الهموم الكئيبة، يا جانيت. ألا ترين كيف هدأت الريح واستحال زئيرها إلى وشوشات ناعمة؟ ألا تلاحظين أن حبات المطر كفَّت عن النقر على زجاج النافذة؟ (وهنا رفع الستارة) يا له من ليل رائع!»

والواقع أنه كان ليلاً رائعاً. كان نصف السماء صافياً لا تشوبه شائبة: كانت السحب، وقد احتشدت الآن أمام الريح التي أخذت تهبّ من ناحية الغرب، قد انكفأت نحو الشرق في صفوف طويلة مفضَّضة. وكان القمر يسفح النور في طمأنينة.

وقال مستر روتشيستر وهو يحدّق إلى عيني على نحو استطلاعي: «وكيف حال جانيتي الحلوة الآن؟»

- «الليل رائق، يا سيدي، وكذلك أنا».

- »ولن تحلمي، الليلة، أحلاماً كلها فراق وأسى. بل ستحلمين بالحب السعيد وبالزواج الهنيء».

ولقد تحقّقت هذه النبوءة نصف تحقّق ليس غير. صحيح أني لم أحلم بالأسى، ولكني لم أحلم بالبهجة أيضاً، ذلك بأن جفني لم يعرفا الغمض قط. لقد طوّقت آديل الصغيرة بذراعي وأخذت أتأمل نوم الطفولة - نوم الطفولة الساجي، الرصين، البريء - وأرتقب انبلاج الصباح. كانت حياتي كلها يقظى مضطربة في كياني، فما إن نهضت الشمس بازغة حتى نهضت أنا أيضاً. وأذكر أن آديل تشبّثت بي عندما فارقتها، وأني قبّلتها وأنا أقصي يديها الصغيرتين عن عنقي. لقد ملْتُ عليها وأنشأت أبكي في انفعال عجيب، ثم فارقتها خشية أن

تع
كّ
ر
ت
ن
ه
د
ا
ت
ي
صد
ف
و
ر
ق
ا
د
ه
ا
ا
ل
ع
م
ي
ق

. لقد بدت في عيني رمزاً لحياتي ال

سالفة، أماهو – مَنْ كان عليّ الآن أن أرتدي ملابسي للقائه – فقد بدا في عيني وكأنه النموذج المخُوْف، ولكن المحبوب، لأيامي القادمة المجهولة.

[26]

وفي الساعة السابعة أقبلت «صوفي» لتساعدني في ارتداء ملابسي. والحق أنها كانت بطيئة جداً في أداء مهمتها، بطيئة إلى درجة دعت مستر روتشيستر، بعد أن ضاق ذرعاً بتأخّري، إلى إرسال من يسأل عن السر في عدم مجيئي. وكانت قد شرعت تثبت خماري (تلك الرقعة الحريرية البسيطة المربّعة، على أيّة حال) إلي شعري بواسطة دبوس نفيس، فما كان مني إلاَّ أن انسللت من بين يديها حالما وفقت إلى ذلك.

فصاحت بالفرنسية:«قفي! انظري إلى صورتك في المرأة، فأنت لم تلقي ولو نظرة واحدة مختلَسَة، على نفسك».

فعدت أدراجي، وكنت قد انتهيت إلى الباب، فرأيت في المرآة مخلوقة مرتدية ثوب عرس وخماراً، مخلوقة لا شبه بيني وبينها البتُّة. حتى لقد حيّل إليّ أنها تكاد أن تكون صورة امرأة غريبة. وناداني صوت: «جين!» فرحت أهبط السلم على عجل، ليتلقاني مستر روتشيستر عند درجاتها الدنيا، قائلاً:«أيتها المتلكئة، إن دماغي ليغلي على نار من نفاد الصبر ومع ذلك فأنت تتباطئين كل هذا التباطؤ!».

وقادني إلى حجرة الطعام، وأنشأ يتأملني، في انتباه بالغ، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ليعلن بعد ذلك أني كنت «جميلة مثل زنبقة» وأني لم أكن «فخرَ حياته فحسب، بل مشتهى عينيه أيضاً». ثم قال لي إنّه سوف يمنحني عشر دقائق ليس غير أتناول خلالها شيئاً من طعام، وسارع إلى دقّ الجرس فلبَّاه نادلٌ من أولئك الخدم الذين كان قد استأجرهم في الفترة الأخيرة.

– «أيُعِدّ جون العربة؟»

- «نعم، يا سيدي».

- «وهل أُنزِلتِ الحقائق؟»

- «إنهم ينزلونها، يا سيدي».

- «امضِ إلى الكنيسة لترى ما إذا كان مستر وود (الكاهن) والقندلفت هناك. ثم ارجع واخبرني».

وكانت الكنيسة، كما يعلم القارئ، تقوم على بضع خطوات من أبواب القصر الخارجية. فما هي غير دقائق حتّى رجع النادل وقال: إن مستر وود في غرفة الملابس، يا سيدي، يرتدي حلّته الكهنوتية البيضاء».

- «والعربة؟»

- «إنهم يُسْرجون جيادها».

- »نحن لن نحتاج إليها في ذهابنا إلى الكنيسة، ولكنها يجب أن تكون جاهزة لحظة نعود: يجب أن تكون جميع الصناديق والحقائب قد نُضِّدت وشُدّت بالسيور، وأن يكون الحوذي في مقعده».

- «سمعاً وطاعة، يا سيدي».

- «جين، أمستعدة أنت؟»

فنهضت. لم يكن ثمة لا أشابين ولا اشبينات، ولا أنسباء يجب أن يُنْتظروا أو ينظموا في صفوف. أجل، لم يكن ثمة غير مستر روتشيستر وغيري. ولقد وقفت مسز فيرفاكس في الردهة عندما اجتزناها. وكان خليقاً بي أن أسعد بالتحدُّث إليها، ولكن قبضة من حديد كانت تضغط على يدي: لقد أكرِهْتُ على الإسراع بسبب من خطوات روتشيستر الواسعة التي لم أوفّق إلى مسايرتها إلاّ بشق النفس، وكان في النظر إلى وجه مستر روتشيستر ما يشعرني بأنه لن يتسامح بالتأخر ولو ثانية واحدة أيّاً ما كان السبب. وتساءلت بيني وبين نفسي: هل

قدِّر لأيما عريس آخر أن يبدو كما بدا هو: مشدوداً بكل هذا الإحكام إلى غرض ما، عازماً على تحقيقه بكلّ هذا العبوس والتقطيب، أو هل قدِّر لأيما عريس آخر أن يتكشف، تحت مثل هذين الحاجبين الراسخين، عن مثل هاتين العينين الملتهبتين الومضتين؟

ولم أدر هل كان جو ذلك اليوم جميلاً أم رديئاً. ولم أنظر، فيما نحن نهبط طريق المركبات، لا إلى السماء ولا إلى الأرض: كان قلبي في عيني، ولقد بدا وكأنهما كليهما كانا قد هاجرا إلى شخص مستر روتشيستر. كنت أريد أن أرى ذلك الشيء غير المنظور الذي بدا وكأن عريسي كان يحدق إليه، طوال الطريق، تحديقاً ضارياً قاسياً. كنت أريد أن ألمس تلك الأفكار التي بدا وكأنه كان يكافح سلطانه ويقاومه.

حتى إذا بلغنا بوَيْب فناء الكنيسة كفّ عن السير: لقد اكتشف أني كنت ألهث لهاثاً موصولاً، فقال: «أأنا وحشيّ في حبي؟ تمهلي لحظة: استندي إلى جسمي، يا جين».

والآن أستطيع أن أتذكر صورة بيت الله العتيق الرمادي المنتصب أمام ناظري في هدوء وروعة، وصورة غراب أسود يطوِّف حول برج الكنيسة، وسماء صباحية تمتد متوردة خلفه. وأنا أذكر، أيضاً، شيئاً من القبور الساذجة الخضراء، ولـمّا أنس حتى الآن ذينك الرجلين الغريبين اللذين هاما على وجهيهما وسط الروابي الصغيرة الخفيضة(1)، وراحا يقرآن الكلمات التذكارية المنقوشة على الشواهد القليلة المكسوة بالطحلب. وإنما وُفِّقت إلى رؤيتهما لأنهما ما إن رأيانا حتى استدارا متّجهين نحو الجزء الخلفي من الكنيسة، فلم أشكّ في أنهما كانا يعتزمان دخولها من الباب الجانبي، ويشهدا الحفلة. أما مستر روتشيستر فلم تقع عينه عليهما، فقد كان ينظر، في اهتمام بالغ، إلى وجهي الذي خيّل إليّ أن الدم قد غاض منه مؤقتاً، ذلك بأني استشعرت العرق يتصبب من جبيني، واستشعرت البرد

يتمشّى في وجنتيَّ وشفتيَّ. حتى إذا استجمعت قواي، وهو أمرٌ سرعان ما وُفقت إليه، سار معي سيراً رفيقاً حتى مدخل الكنيسة.

(1)تقصد: بين القبور. (المعرب)

ودخلنا الهيكل الوادع المتواضع. كان الكاهن ينتظر في حلّته الكهنوتية البيضاء عند المذبح الوضيع، والقندلفت إلى جانبه. وكان كل شيء ساكناً: لقد تحرك شبحان اثنان، ليس غير، في زاوية قصية. كان حدسي صحيحاً: ذلك بأن الغريبين انسلاّ إلى الكنيسة قبلنا، وكانا الآن واقفين قرب سرداب آل روتشيستر، وقد ولانا كل منهما ظهره، يتأملان عبر القضبان الحديدية ذلك القبر الرخامي العتيق الذي أكل الدهر عليه وشرب، حيث ركع ملاك من رخام حارسٌ رفات «دامر دو روتشيستر»، الذي ذبح في «مارستون مور» أيام الحرب الأهلية ورفات إليزابيث، زوجته.

كنا قد استوينا في المقعد الخاص بمتناولي القربان المقدس. حتى إذا سمعت من ورائي وقع قدم حذرة التفت نصف التفاته: إن أحد الغريبين - وكان رجلاً من غير شك - كان يتقدُّم نحو المذبح. وبدأت الخدمة الدينية. وأنجِز شرح الغرض من الزواج. ثم إن الكاهن تقدم خطوة أخرى إلى أمام، فانحنى بعض الشيء نحو مستر روتشيستر، وتابع كلامه:

- «إني أسألكما معاً وآمركما معاً (إذ ستكونان مسؤولين عن ذلك في يوم الحساب الرهيب، يوم يكشف الغطاء عن أسرار القلوب جميعاً) بأن تعترفا الآن بأيما عقبة خليق بها أن تحول دون ارتباطكما شرعياً برباط الزوجية إن كان أيّ منكما عالماً بوجود عقبة كهذه، إذ يتعيّن عليكما أن تثقا ثقة كاملة بأن أولئك الذين زُوِّجوا على غير النحو الذي تفرضه كلمة الله لم يجمع الله ما بينهم، لا وليس زواجهم شرعياً».

وتمهَّل، تبعاً للعادة. وهل قدِّر للصمت الذي يعقب تلك الجملة أن يُقطع ذات يوم بجواب؟ لعل ذلك لم يحدث ولو مرة في كلّ مئة عام. وهكذا كان الكاهن -

الذي لم يرفع عينيه عن كتابه والذي لم يحبس أنفاسه إلاّ لحظة واحدة – على وشك أن يتابع مهمته، وكانت يده قد بسطت نحو مستر روتشيستر وشفتاه تنفرجان لتسألا: «هل تقبل هذه المرأة زوجة لك»... عندما قال صوت واضح قريب:

– «هذا الزواج لا يمكن أن يتمّ. أنا أعلن أن ثمّة عقبة».

ورفع الكاهن بصره إلى المتكلم، معقود اللسان كالأخرس. وكذلك فعل القندلفت. وأتى مستر روتشيستر بحركة يسيرة، وكأن الأرض زلزلت زلزالها تحت قدميه. ثم إنه ثبّت رجليه في موضعهما، ومن غير أن يدير رأسه أو عينيه قال للكاهن: «تابع!»

حتى إذا نطق بهذه الكلمة في نبرة عميقة خفيضة هيمن على الكنيسة صمت عميق. وسرعان ما قال مستر وود: «أنا لا أستطيع أن أتابع من غير شيء من التحقيق في ما زُعم، ومن غير ما بيِّنة على صدقه أو كذبه». فأضاف الصوت من خلفنا: «لقد عطِّلت حفلة الزواج تعطيلاً كاملاً. وإني لفي وضع يمكنني من إقامة الدليل على صحّة دعواي: هناك عقبة لا تذلل تحول دون عقد هذا الزواج».

وسمع مستر روتشيستر هذا الكلام، ولكنه لم يبال به. لقد ظلَّ حروناً متصلّب الأوصال، ممتنعاً عن القيام بأية حركة، إلاّ ابتغاء التعلّق بيدي. ما كان أقوى قبضته وأشدّها حرارة! وما كان أشبه جبينه الشاحب، الثابت، الضخم، في هذه اللحظة، بقطعة من الرخام مربعة! وما كان أقوى بريق عينيه، الساكنتين الحذرتين، برغم ضرا وتهما، تحت ذلك الجبين!

وبدا وكأن الحيرة استبدّت بمستر وود. ثم سأله: «ما طبيعة هذه العقبة؟ لعلّ في الإمكان تذليلها... أو تبريرها؟»

فكان الجواب: «لست أعتقد. لقد قلت إنها عقبة لا تذلّل، وإني لأنطلق عن علم وحُسن اطّلاع».

وتقدّم المتكلم إلى أمام، وانحنى فوق الدرابزون. ثم تابع حديثه، لافظاً كل كلمة في وضوح، وهدوء، وثبات، ولكن من غير أن يرفع صوته:

– «إنّها تتمثّل، في بساطة، بوجود زواج سابق. إن لمستر روتشيستر زوجة ما تزال على قيد الحياة».

وارتجّت أعصابي لدى سماعي هذه الكلمات الملفوظة بصوت خفيض كما لم ترتج قطّ من قبل لهزيم الرعد... واستشعر دمي عنفها الماكر كما لم يستشعر قطُّ من قبل صقيعاً أو ناراً، ولكني بقيت محتفظة برشدي، وفي نجوة من خطر الإغماء. ونظرت إلى مستر روتشيستر، وحملته على النظر إليّ. كان وجهه كله صخراً لا لون له وكانت عيناه شرراً وصواناً في آن معاً. إنه لم ينكر شيئاً ولم ينفِ شيئاً، لقد بدا وكأنه يتحدّى كلّ شيء. ومن غير أن يتكلّم، ومن غير أن يبتسم، ومن غير أن يبدو وكأنه يرى فيَّ كائنة بشرية اجتزأ بأن لوى خصري بذراعه، وسمَّرني إلى جانبه.

وسأل الواغل المتطفل: «من أنت؟»

– «اسمي بريغز... محام في شارع... بلندن».

– «وتريد أن تنسب إليّ زوجة؟»

– «إني لأذكرك بوجود زوجتك، التي يعترف بها القانون إن لم تعترف بها أنت».

– «تكرَّم علي ببيان عنها – واذكر اسمها واسمي أبويها والمكان الذي تُقيم فيه».

– «من غير ريب». وفي هدوء أخرج مستر بريغز من جيبه ورقة، وتلا في ضرب من الصوت الرسمي الأخنّ:

– «إني أؤكد، وفي استطاعتي أن أُقيم الدليل، على أنه في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) عام... للميلاد (وكان تاريخاً يرقى إلى ما قبل خمسة عشر عاماً) عُقِدَ قران ادوارد فيرفاكس روتشيستر صاحب قصر ثورنفيلد في مقاطعة...، وصاحب «فيرنديان ماينور»، في إنكلترة، على شقيقتي، بيرتا أنطوانيتا، وهي خلاسية، في كنيسة...، سبانيشتاون في جامايكا. ومحضر هذا الزواج محفوظ في سجلات تلك الكنيسة، ولكن في حوزتي الآن نسخة عنه. التوقيع: ريتشارد مايسون»

– «هذا المحضر – إذا كان صحيحاً غير زائف – قد يثبت أني تزوجت، ولكنه لا يُثبت أن المرأة التي ينص على أنها زوجتي لا تزال على قيد الحياة».

فأجاب المحامي: «لقد كانت على قيد الحياة منذ أشهر ثلاثة».

– «كيف عرفت؟»

– «إنّ لدي شاهداً على هذه الواقعة. شاهداً لا تقوى حتّى أنت، يا سيدي، على مجادلته إلاّ قليلاً».

– «قدِّمْه... أو اذهب إلى الجحيم!»

– «سوف أقدّمه أولاً.. إنه معنا ههنا: مستر مايسون! تفضَّل بالتقدّم».

ولم يكد مستر روتشيستر يسمع هذا الاسم حتّى كزّ على أسنانه، وحتّى عصف به أيضاً ضرب قوي من الارتعاد التشنجي. وإذ كنت على مقربة دانية منه فقد أحسست بحركة الغيظ أو اليأس التشنجية تسري في جسده. وهنا، دنا الغريب الثاني وكان قد لزم، حتّى تلك اللحظة، الجانب الخلفي من الكنيسة. وأطلّ من فوق منكب المحامي وجه شاحب.. أجل، لقد كان هو مايسون نفسه. واستدار مستر روتشيستر وحدّق إليه. كانت عيناه، كما قلت غير مرة، سوداوين، ولكنهما كانتا الآن

صفراوين ضاربتين إلى سواد، بل لقد كان في قتامهما ضياء دام. وشاع الدم في وجهه، فتلقّى خده الزيتوني وجبينه الشاحب وهجاً يُخيَّل إلى الناظر أنه انبعث من نار فؤاده المنتشرة الصاعدة. وتململ في مكانه، ورفع ذراعه القوية... لقد كان في ميسوره أن يصفع مايسون... أن يصرعه على أرض الكنيسة... أن يخمد أنفاسه بضربة منه لا تُرحم... ولكن مايسون انكمش نائياً بنفسه عنه، وصاح في صوت واهن: «يا إلهي الطيب!» فرمقه روتشيستر بنظرة ازدراء هدأت معها نفسه، وخمد انفعاله وكأن آفة قد أذبلتهُ، فاجتزأ بالسؤال:

– «وماذا تريد أن تقول؟»

فندَّ من شفتي مايسون البيضاوين جواب خافت لا يُسْمع.

– «فليأخذك الشيطان إذا كنت لا تستطيع الإجابة في وضوح. إني أسألك من جديد: ماذا تريد أن تقول؟»

فقاطعه الكاهن: «سيدي... سيدي... لا تنسى أنك في حَرَم مقدس» ثم وجّه الخطاب إلى مايسون سائلاً إيّاه في تلطّف: «هل تعلم، يا سيدي، ما إذا كانت زوجة هذا الرجل الماجد لا تزال على قيد الحياة أم لا؟»

فحرّضه المحامي قائلاً: «تشجَّعْ!.. اجْهَرْ بالقول!»

عندئذ قال مايسون، في نبرات أكثر إبانة:

– «إنها تقيم الآن في قصر ثورنفيلد. لقد رأيتها هناك في شهر نسيان (أبريل) المنصرم. أنا أخوها».

فصاح الكاهن: «في قصر ثورنفيلد؟ مستحيل! أنا واحدٌ من المقيمين القدامى في هذا الجوار، يا سيدي، ولم أسمع قط من قبل بامرأة تُعرف بمسز روتشيستر في قصر ثورنفيلد».

فلمحت ابتسامة كالحة تلوي شفة مستر روتشيستر، وسمعته يغمغم:

- «لا، وحق الإله! لقد جهدتُ لكي لا يعلم أحد بالأمر أو لكي لا يسمع بها بهذا الاسم». ثم استغرق في التأمل... وراح يشاور نفسه طوال عشر دقائق، وأخيراً اتّخذ قراره، وأعلنه:

- «كفى...
أُصرِّح بكل شيء دفعة واحدة كما تنطلق الرصاصة من اسطوانة البندقية... اطو كتابك، يا وود، واخلع حلّتك الكهنوتية البيضاء. وأنت يا جون غرين (والتفت إلى القندلفت) غادرِ الكنيسة، فلن يُعقد اليوم أي قران».

وامتثل الرجل أمره.

عندئذ تابع مستر روتشيستر كلامه في قوة وتهوُّر: «إن الزواج من امرأتين تعبير بشع، ومع ذلك فقد اعتزمت أن أجمع بين زوجتين. ولكن القَدَر أحبط خطّتي، بل الراجح أن العناية الإلهية صدَّتني عن سبيلي. أنا لست في هذه اللحظة غير شيطان مريد، أو أحسن قليلاً. وليس من شكّ في أنني أستحق - كما يجدر بكاهني هذا أن يقول لي - أقسى عقاب أعدّه الله للخاطئين... حتّى النار التي لا ينطفئ غليلها والدودة التي لا تموت. أيها السادة، لقد فسدت خطّتي! إن ما يقوله هذا المحامي وموكله لصحيح. لقد سبق لي أن تزوجت، وأن المرأة التي سبق لي أن تزوجتها لا تزال على قيد الحياة! أنت تقول إنَّك لم تسمع قط من قبل بامرأة تعرف بمسز روتشيستر في ذلك القصر القائم هناك، يا وود. ولكني أستطيع القول إنَّك كثيراً ما أرهفت أذنك لسماع ما يلغو به الناس عن تلك المجنونة الغامضة المحتجزة هناك تحت الحراسة والحفظ. ولقد همس بعضهم في أُذنك قائلاً إنّها أخت لي، غير شرعية، من أبي، وهمس آخرون قائلين إنها خليلة لي مهجورة. ولكني أعلمك الآن أنها زوجتي، التي تزوجتها منذ خمس عشرة سنة، واسمها بيرتا مايسون، وهي أخت هذا الرجل ذي العزم الشديد... الذي يُريك الآن، بأوصاله المرتعدة وخدّيه اللذين غار منهما الدم، أي

قلب باسل جريء قد يحمله الرجال بين ضلوعهم. استبشر يا «دك»... لا توجس خيفة مني البتة!... فلأن أضرب امرأة خيرٌ عندي من أن أضربك. إن بيرتا مايسون امرأة مجنونة، وإنها لتتحدّر من أسرة مجنونة - أسرة من المعتوهين والمخالطين في عقولهم خلال أجيال ثلاثة. كانت أمها - الخلاسية - مجنونة وسكّيرة في آن معاً!... كما اكتشفت بعد أن تزوجت البنت، إذ كانوا صامتين عن أسرار الأسرة من قبل. ولقد طبعت بيرتا - مثل طفلة مطيعة - على غرار أمها في هاتين الخصلتين جميعاً. لقد كانت لي شريكة حياة فاتنة - شريكة حياة طاهرة، حكيمة، محتشمة، وفي ميسوركم أن تتخيلوا أي رجل سعيد كنت! لقد تعاقبت علي مشاهد رائعة! أوه! لقد كانت تجربتي، لو علمتم، تجربة سماوية! ولكن ليس من واجبي أن أقدّم إليكم مزيداً من شرح. بريغز، وود، مايسون، أنا أدعوكم كلكم للوفود إلى القصر وزيارة مريضة مسز بول، أعني زوجتي. ولسوف ترون أيُّة مخلوقة هي هذه التي خدِعت بالزواج منها، وتحكمون في ما إذا كان من حقي أن انكث العهد، وأن ألتمس المشاركة الوجدانية عند شيء إنساني على الأقل... أم لا؟ إنّ هذه الفتاة(قال ذلك ونظر إليّ) لا تعرف عن السر الكريه أكثر مما تعرفه أنت يا وود. لقد حسبت أنّ كل شي ء كان شرعياً خالياً من الشوائب، ولم تحلم قطّ أنها تقع في شرك زواج مزيف من وغد مغبون مرتبط بشريكة حياة شريرة مجنونة لا تكاد ترتفع عن مستوى البهائم في شيء! تعالوا كلكم، اتبعوني!»

وغادر الكنيسة وهو لا يزال متشبثاً بي. وعلى أثرنا مضى الرجال الثلاثة. حتى إذا بلغنا باب القصر الأمامي ألفينا العربة، فقال مستر روتشيستر في فتور: «أرجعها إلى حظيرة العربات، يا جون، فلن يُحتاج إليها اليوم».

ولحظة دخلنا الردهة هرعت مسز فيرفاكس، وآديل، وصوفي، وليا للقائنا والترحيب بنا.

فصاح رب القصر: «انصرفوا... كلكم! ابعدوا عني تهنئاتكم! من الذي يريدها؟ - لست أنا، على كل حال! - لقد جاءت متأخرة أكثر مما ينبغي.. لقد

تأخرت على كل حال! – لقد جاءت متأخرة أكثر مما ينبغي.. لقد تأخرت خمس عشرة سنة!»

وتابع سبيله وارتقى السلم، وهو لا يزال متشبثاً بيدي، مشيراً إلى الرجال أن يتبعوه، ففعلوا. وانتهينا إلى قمة الجزء الأول من السلم، ثم اجتزنا الرواق، وتابعنا الصعود إلى الدور الثالث. وفتح مستر روتشيستر، بمفتاحه الرئيسي، الباب الخفيض الأسود، وأدخَلَنا إلى الحجرة ذات الجدران المزيّنة بالقماش المزركش، وذات السرير الضخم، والخزانة المحلاّة بالرسوم.

وقال دليلنا: «أنت تعرف هذا المكان، يا مايسون. لقد عضّتك وطعنتك هنا!»

ورفع الستار عن الجدار كاشفاً عن الباب الثاني. ثم إنه فتح هذا الباب أيضاً. فإذا نحن في حجرة لا نافذة لها... حجرة يُحيط بموقدها المضطرمة نارُه، سياج عالٍ قوي، ويتدلّى من سقفها مصباح معلِّق بسلسلة. كانت غرايس بول منحنية فوق النار، وكأنها تطهو شيئاً في قدر. وفي الظل العميق، عند الطرف الأقصى من الحجرة، كان شبح يعدو جيئة وذهاباً. أي شيء كان ذلك الشبح، أبهيمة أم مخلوقاً بشرياً؟ ذلك ما لم يكن في إمكان المرء أن يقطع به لأول وهلة. لقد دبّ، في ما بدا لنا، على الأربع، وراح ينشب أظفاره ويزمجر مثل حيوان عجيب ضارٍ. ولكنه كان مكسواً ببعض الملابس، وكان مقدار الشعر الداكن الأشيب، المنفوش مثل لبدة الأسد، يخفي رأسه ووجه.

وقال مستر روتشيستر: «صباح الخير، يا مسز بول! كيف حالكِ

اليوم، وحال من عُهِد إليك في العناية بأمرها؟»

فأجابت غرايس: رافعة الطعام الغالي، في حذر، إلى رف الموقد: «نحن في حال لا بأس بها. إنّها فظة في الواقع، ولكنها ليست مسعورة».

وهنا انطلقت صيحة ضارية بدت وكأنها تكذِّب تقريرها المشجع: لقد نهضت الضبع المكسوَّة بالملابس، ووقفت فارعة الطول على قائمتيها الخلفيتين.

وهتفت غرايس: «آه، يا سيدي، إنها تراك. ومن الخير لك أن لا تبقى».

– «لن أبقى غير لحظات قليلة، يا غرايس. إن عليك أن تمنحيني لحظات قليلة».

– «خذ حذرك إذن، يا سيدي. إكراماً لله، خذ حذرك !» وزمجرت المجنونة: لقد ردَّت شعرها الأشعث عن وجهها، وأنشأت تحدِّق تحديقاً ضارياً إلى وجوه زائريها. والواقع أن ذلك الوجه الأرجواني وتلك الملامح المتورمة لم تكن غريبة علي: لقد عرفتُها معرفة حسنة. وتقدّمت مسز بول.

فقال مستر روتشيستر، وهو يدفعها جانباً: «ابتعدي من هنا. إن في يدها، الآن، مدية، في ما أظن؟ وإني لمحترسٌ منها».

– «إن المرء لا يعرف ما في يدها البتة، يا سيدي. فهي ماكرة إلى حدّ بعيد. وليس في ميسور الفطنة البشرية أن تسبر غور دهائها».

فهمس مايسون: «كان من الخير لنا أن نفارقها». فجاءته هذه النصيحة من ابن عمه: «اذهب إلى الشيطان!» وصاحت غرايس: «حذار!»

فتراجع الرجال الثلاثة في آن معاً. وردَّني مستر روتشيستر إلى الوراء حاجباً إيّاي بظهره. ووثبت المجنونة عليه وأنشبت أظفارها في عنقه على نحو يرشح بالشر والإثم، وحاولت أن تعض خده بأسنانها. واصطرعا. كانت امرأة ضخمة يكاد طولها أن يبلغ طول زوجها، وكانت ممتلئة الجسم بدينة. ولقد تكشفت، في الصراع، عن قوة كقوة الرجال، وكادت أن تخنقه غير مرة، برغم أنه كان رياضياً. كان في ميسوره أن يصرعها بضربة شديدة، ولكنه أبى أن يضرب: لقد اكتفى بالمصارعة ليس غير. وأخيراً وُفّق إلى تثبيت ذراعيها. وناولته غرايس بول حبلاً، فأوثقهما به خلف ظهرها. وبحبل آخر، كان في متناوله، أوثقها إلى أحد الكراسي. وإنّما تمّت هذه العملية وسط أشد الصيحات ضراوة، وأكثر. الوثبات

تشنجاً. وعندئذ التفت مستر روتشيستر إلى النظارة: لقد نظر إليهم وعلى شفتيه ابتسامة لاذعة وكئيبة في آن معاً، وقال:

– «هذه هي زوجتي. وهذا هو كلّ ما قدِّر علي أن أعرفه من عناقها الزوجي... تلك هي ضروب التحبب المفروض فيها أن تحمل العزاء إليّ ساعات فراغي! وهذه هي التي أردتها لنفسي (ووضع يده على كتفي): هذه الشابة التي تقف بكل هذه الرصانة والسكون عند فوهة جهنم، ناظرة في رباطة جأش إلى وثب عفريتة من العفاريت. لقد أردتها طمعاً في شيء من التغيير، ليس غير، بعد هذا الطبق الحرِّيف الضاري. انظرا، يا بريغز ويا وود، إلى الفرق! قارنا ما بين هاتين العينين الصافيتين وهاتين الكرتين الحمراوين هناك... بين هذا الوجه وذلك القناع... بين هذا القوام وتلك الكتلة من اللحم، ثم احكما علي، يا كاهن الإنجيل ويا رجل القانون، واذكرا أنه بالطريقة التي تدينان بها الناس سوف تدانان! اغربوا من وجهي الآن. إن علي أن أوصد الباب على غنيمتي».

فانسحبنا جميعاً. أما مستر روتشيستر فتخلّف عنّا لحظة ليصدر إلى غرايس بول أمراً إضافياً. وفيما نحن نهبط السلم وجّه المحامي الخطاب إليّ فقال: «ليس عليك، يا سيدتي، أيما لوم البتة، ولسوف يسعد عمك أن يسمع بهذا الذي حدث – إن يكن ما يزال على قيد الحياة – عندما يرجع مستر مايسون إلى ماديرا».

– «عمي؟ ما الذي تستطيع أن تخبرني عنه؟ هل تعرفه؟»

– «مستر مايسون يعرفه، فقد كان مستر ايير هو العميل الفونشالي[1] لمؤسسته التجارية طوال بضع سنين. وعندما تلقّى عمك رسالتك التي أشرت فيها إلى ما أزمعت عليه من الزواج بمستر روتشيستر اتفق أن كان مستر مايسون إلى جانبه بعد أن لبث أياماً في ماديرا، ابتغاء استعادة صحّته ا لمعتلّة، في طريق عودته إلى جامايكا. فأبلغه مستر ايير النبأ إذ كان يعلم أن موكّلي هذا كان على معرفة برجل من آل روتشيستر. فما كان من مايسون، وقد استبدّ به الدهش والغم كما تستطيعين أن تفترضي، إلا أن كشف له عن حقيقة الوضع. إن عمّك –

ويؤسفني أن أقول ذلك – ليتقلّب الآن على فراش مرض ليس من المحتمل أن يُشفى منه في أيما يوم من الأيام، بالنظر إلى طبيعة الداء – السل – والمرحلة التي انتهى إليها. ولم يكن في استطاعته، آنذاك، أن يشدّ الرحال إلى إنكلترة بنفسه لكي ينتشلك من الشرك الذي وقعت فيه، فتوسّل إلى مستر مايسون أن يعمد في الحال إلى اتّخاذ الخطوات الكفيلة بالحيلولة دون الزواج الزائف، وأحاله إليّ لأساعده على ذلك. فاصطنعت أقصى السرعة الممكنة، وإني أحمد الله على أني لم أجيء بعد فوات الأوان، كما يتعيّن عليك أنت أيضاً، من غير ريب، أن تحمديه. ولو لم أكن على مثل اليقين من أن عمك سوف يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن تصلي إلى ماديرا إذن لنصحتك بمرافقة مستر مايسون عند عودته إلى هناك. أما والحال على ما هو عليه فإني أعتقد أن من الخير لك أن تبقي في إنكلترة حتى يأتيك من مستر ايير، أو عنه، نبأ جديد». ثم إنه التفت إلى مستر مايسون فسأله: «هل ثمة أيما شيء آخر يدعونا إلى البقاء؟»

(1) نسبة إلى فونشال Funchal، وهي عاصمة جزائر ماديرا الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من أفريقية. (المعرب)

فجاءه الجواب اللاّهف: «لا، لا، فلنمضِ لسبيلنا».

ومن غير أن ينتظرا حتى يستأذنا مستر روتشيستر في الانصراف غادرا القصر من باب الردهة. أما الكاهن فلبث لكي يتبادل بعض عبارات التحذير أو التعنيف، لست أدري، مع ابن أبرشيته المتكبّر. حتى إذا أتمّ القيام بهذا الواجب غادر هو القصر أيضاً.

ورأيت إليه وهو يمضي لسبيله فيما كنت واقفة بباب حجرتي نصف المفتوح، هذه الحجرة التي كنت قد انسحبت إليها حتى إذا خلا القصر من الزائرين، أوصدت الباب على نفسي، وأحكمت إغلاقه بالمزلاج حتى لا يتطفّل علي أحد ثم أخذت – لا في البكاء، ولا في النحيب، فقد كنت لا أزال أهدأ من أن أقدم على ذلك – ولكن في نزع ثوب الزفاف، على نحو آلي، والاستعاضة عنه بثوبي القماشي المتواضع الذي

لبسته في اليوم السابق متوهّمة أني أفعل ذلك لآخر مرة. ثم إني جلست، فقد استشعرت أني موهونة متعَبَة. وأسندت ذراعَيّ إلى الطاولة، فتدلّى رأسي عليهما. وأنشأت أفكر: حتى الآن كان كل ما فعلته هو الاستماع، والنظر، والتحرّك، والانتقال إلى حيث وجدت نفسي مَقُوْدةً أو مسوقة، ومراقبةً الأحداث تندفع في أثر الأحداث، والسر ينكشف تلو السر... أما الآن فإني أفكر.

لقد كان ذلك الصباح صباحاً هادئاً إلى حدّ غير يسير، أجل، كان كل ما فيه، ما خلا الشجار القصير مع المجنونة، متّسماً بطابع الهدوء: إن حادثة الكنيسة نفسها لم تكن صاخبة، فلم يكن ثمة أي انفجار عاطفي، أيّة مشاحنة صارخة، أي نزاع، أي تحدٍّ، أية دموع، أي نشيج. لقد قيلت كلمات معدودات، وقدِّم اعتراض هادئ على الزواج، وطرح مستر روتشيستر بضعة أسئلة قصيرة متجهمة، فقدِّمت أجوبة وشروح وأُقيم دليل، وأطلق سيدي اعترافاً بالحقيقة صريحاً، وبعد ذلك شوهد – البرهان الحيّ، ومضى المتطفلون لسبيلهم... وقضي الأمر!

كنت الآن في حجرتي كالعادة – كما أنا تماماً، ومن غير أيما تغيير واضح: إن أيما آفة لم تصبني، أو تؤذني، أوتشوّهني. ومع ذلك فأين كانت جين ايير الأمس؟.. وأين كانت حياتها؟.. أين كانت آمالها؟

إن جين آيير التي كانت امرأة متّقدة النشاط بعيدة مرامي الأمل – والتي كادت أن تصبح عروساً – قد عادت الآن من جديد فتاة باردة متوحدة: كانت حياتها شاحبة، وكانت آمالها موحشة. كان صقيع أشبه بصقيع عيد الميلاد قد اجتاح الأرض في عزّ الصيف، وكانت عاصفة من عواصف كانون الأول (ديسمبر) المثلوجة قد دوّمت في حزيران (يونيو)، لقد زجَّج الجليد التفاحات اليانعة، وسحقت أكوام الثلج الورود المنوِّرة. كان يحجب حقل التبن وحقل القمح كفن جليدي، وكانت الدروب التي احمّرت وجناتها الليلة البارحة بما حفلت به من رياحين قد أمست اليوم وعرة المسالك بما تراكم عليها من ثلج لمَّا تطأهُ الأقدام، وكانت الغابات التي تمايلت – قبل اثنتي عشرة ساعة – مورقة فاغمةً وكأنها غياض في بعض المناطق

الاستوائية قد انبسطت الآن جرداء موحشة بيضاء مثل غابات الصنوبر في بلاد النرويج أيام فصل الشتاء. كانت آمالي كلها قد ماتت. بعد أن ألمَّ بها هلاك خبيث كذلك الذي ألمَّ، ذات ليلة، بجميع المواليد في أرض مصر(1). لقد ألقيت نظرة على ما غذوته من آمال كانت أمس منوِّرة جداً متوهجة جداً فإذا بها الآن جثث يابسة باردة مزرقَّة لا سبيل الى بعثها من جديد. ونظرت إلى حبي: تلك العاطفة التي كانت مِلْكاً لسيدي... والتي كان هو قد خلقها، فرأيته يرتعد في فؤادي مثل طفل موجَع في مهد بارد. كان المرض والألم المبرِّح قد استبدا به، ولم يكن في ميسوره أن يلتمس ذراعي مستر روتشسيتر – لم يكن في ميسوره أن يستمدّ الدفء من صدره. أوه، إنه ما عاد قادراً على أن يفزع إليه البتّة، ذلك بأن الإيمان كان قد صُوِّح، والثقة كانت قد حُطِّمت! إن مستر روتشيستر لم يعد، عندي، ما كأنهُ من قبل، ذلك بأنه لم يكن ما كنت قد حسبته. أنا لا أنسب إليه إثماً ما، أنا لا أقول إنه قد خانني: ولكن صفة الحقيقة التي لا تشوبها شائبة كانت قد فارقت صورته، وكان علي أن أنأى بنفسي عنه... ذلك شيء أدركته إدراكاً حسناً. أما متي وكيف، وإلى أين فهذا ما لم أكن قد تبيّنته بعد: ولكنه هو نفسه كان خليقاً، من غير ريب، بأن يتعجّل إبعادي عن ثورنفيلد. لقد بدا لي وكأنه ما كان قادراً على أن يكنَّ لي حباً صادقاً، كانت عاطفته نحوي مجرد عاطفة محمومة مؤقتة، ما لبثت أن كُبِحت، ومن هنا فلن يستشعر أيما حاجة إليّ منذ اليوم، بل إن علي أن أخشى الآن مجرّد المرور به، فليس من ريب في أن رؤيتي أمست بغيضة إلى نفسه. أوه، لشدّ ما كانت عيناي مكفوفتين! لشد ما كان سلوكي ضعيفا!

كانت عيناي محجوبتين مغمضتين. ولقد بدا لي وكأن ظلاماً عاصفاً يسبح من حولي، وتدفّقت أفكاري كالسيل سوداء مشوِّشة. وفي حال من الهيجان الذاتي والاسترخاء وعدم الكدّ بدا لي وكانني منطرحة في قعر نهر عظيم جفّت مياهه. وتناهى إلى سمعي هدير سيلٍ أطلق من عقاله في جبال قصية، وأحسست بالتيار يندفع نحوي: لم تكن بي في النهوض رغبة، ولم يكن لي على الفرار قوة. وهكذا لزمت مكاني فاقدة الرشد، توّاقة إلى الموت. إن فكرة واحدة ظلّت تختلج في

جوانحي اختلاجة نابضة بالحياة، ولم تكن تلك الفكرة غير تذكر الله. وعن هذا التذكر نشأت صلاة مغمغمة: لقد هامت هذه الكلمات على وجهها في ذهني المظلم، كشيء يجب أن يُهمس به، ولكني لم أجد في نفسي القدرة على التعبير عنها.

(1) إشارة إلى ما حدث قبل ولادة النبي موسى مما اضطر أمه إلى وضعه في صندوق وإلقائه في اليم على ما ورد في الكتب المقدسة. (المعرب)

– «ربّ لا تبتعد عني، فالبلاء قريب، وليس ثمّة من يمد إليّ يد العون».

ولقد كان قريباً مني حقاً. وإذا لم أرفع إلى السماء أيما ضراعة لدفعه، ولم أشبك ذراعي في الصلاة أو أحني ركبتي أو أحرك شفتي فقد أقبل ذلك البلاء. لقد اندفع السيل نحوي عارماً طاغياً، وسرعان ما سحقني وعيي الكامل لحياتي المضيَّعة، وحبي المفقود، وأملي المخمَد، وإيماني الطعين... سحقني بكلكله المتجهم الجبار الذي جثم علي دفعة واحدة. إن البيان ليعجز عن وصف تلك الساعة: فالحق «إن المياه نفذت إلى صميم ذاتي. لقد غُصت في حمأة بعيدة الغور، لم أجد فيها موطئاً لقدمي. ولقد انتهيت إلى مياه. عميقة، وهناك غمرتني السيول».

[27]

وفي فترة ما من أصيل ذلك اليوم رفعت رأسي، وإذ أجلت الطرف في ما حولي ورأيت الشمس الآخذة سبيلها نحو الغرب ترسم على الجدار صورة غروبها بصبغ ذهبيٍّ أخذت أتساءل: «ما الذي يتعيّن عليّ أن أفعله؟»

ولكن الجواب الذي أعطاه عقلي – «غادري ثورنفيلد على التوّ» كان سريعاً ورهيباً إلى حد جعلني أصمّ أذني عنه. لقد قلت إني لا أقوى على احتمال كلمات مثل هذه الآن. وزعمت. «أن عدم زواجي من إدوارد روتشيستر هو الجانب الأهون من بلائي. وأن يقظتي من أروع الأحلام واكتشافي أنها كلها جوفاء باطلة هما هولٌ أستطيع أن أطيقه وأتغلّب عليه. ولكن الذي لا أستطيع الصبر عليه هو فراقه في غير تردّد، وفي الحال، وبالكلية. لا، هذا شيء ليس لي قِبَلٌ به».

ولكن صوتاً في أعماق نفسي ما لبث أن جزم بأني أقدر على ذلك، وتنبأ بأني سوف أُقدِم عليه. وشرعت أصارع قراري: لقد أردت أن أكون من العجز بحيث اجتنب سلوك ذلك الطريق الرهيب، الحافل بمزيد من الألم. ولكن الضمير استحال إلى طاغية، فأخذ بخناق الحب، وقال له معنِّفاً إنه(1) لم يزد على أن غمس قدمه الناعمة في الأتون، وأقسم ليقذفنَّ به – بذراعه الحديدية تلك – في أعماق من الألم المبرح لا يُسبر لها غور.

(1) أي الحب.

وصحت: «فلأمزَّق إرباً إرباً إذن! فلتهرع يد أخرى إلى نجدتي!»

– «لا. إنك سوف تمزقين نفسك بنفسك، ولن يهرع إلى نجدتك أحد. إنك سوف تفقئين، بنفسك، عينك اليمنى، وبنفسك سوف تقطعين يدك اليمنى: إن قلبك

سوف يكون الفداء، ولسوف تكونين أنت الكاهن الذي يطعنه».

ونهضت فجأة وقد روعتني الوحدة التي عكَّر صفوها مثل هذا القاضي المتحجر الفؤاد، والصمت الذي ملأه مثل هذا الصوت الرهيب. ودار رأسي وأنا أنهض واقفة، ولاحظت أن الاهتياج والجوع كادا يُسلمانني إلى الإغماء: إن شيئاً من الطعام أو الماء لم يَعْبُر شفتي ذلك اليوم، إذ لم أكن قد تناولت طعام الصباح حتى تلك الساعة. وفي غُصةٍ عجيبة لاحظت الآن أن مستر روتشيستر لم يبعث إليّ، منذ أن أوصدت الباب على نفسي هنا، من يسألني عن حالي أو يدعوني للهبوط إلى الدور الأسفل. حتى آديل الصغيرة لم تقرع باب حجرتي... وحتى مسز فيرفاكس لم تسعَ إليّ. وغمغمت وأنا أرفع المزلاج وأغادر الحجرة: «الأصدقاء ينسون دائماً من يتخلّى الحظّ عنهم». وتعثّرت بعقبة ما: كان الدوار لا يزال يعصف برأسي، وكانت غشاوة ترين على بصري، وكانت أطرافي واهنة. وعجزت عن لمّ شتات قواي، فسقطت، ولكن ليس على الأرض: لقد أمسكت بي ذراع مبسوطة. ورفعت بصري، فإذا بي مستندة إلى مستر روتشيستر، الجالس على كرسي عند عتبة حجرتي.

وقال: «ها قد خرجتِ آخر الأمر. حسناً، لقد انتظرتك منذ فترة طويلة، ورحت أصغي، ولكني لم أسمع أية حركة، ولم أسمع أية زفرة. ولو قد استمر هذا الصمت الشبيه بصمت الموت خمس دقائق أخرى إذن لكان علي أن أقتحم عليك الحجرة الموصدة مثل لص من اللصوص. وإذن فأنت تتجنبينني؟... أنت تغلقين الباب على نفسك وتأسَيْن بمفردك! لقد كنت أؤثر لو هبطت إلى الدور الأسفل وعنَّفتِني في حدة بالغة. إنك فتاة انفعالية، ولقد توقعتُ انفجاراً عاطفياً من هذا النوع. كنت مستعداً لوابل دموعك الحار، بيد أني أريد أن أراها تُسْفَح على صدري أنا، بدلاً من أن تسفح على أرض الحجرة التي لا حسّ فيها وعلى منديلك المبلل. ولكني مخطئ: أنت لم تذرفي عبرة واحدة! إني أرى وجنة شاحبة وعيناً ذابلة، ولكني لا أرى أي أثر لدموع. ويُخيّل إليّ، إذن، إن فؤادك كان يبكي دماً...

– «وحسناً، يا جين، أليس عندك كلمة لوم؟ أليس عندك أيما شيء مرير... أيما شيء موجِع؟ أليس عندك ما يجرح شعوراً أو يلدغ عاطفة؟ أنت تقبعين حيث وضعتكِ وتنظرين إليّ نظرات كليلة سلبية».

– «جين، أنا لم أرد أن أ جرحك على هذا النحو. ولو أن الرجل الذي كان لا يملك غير نعجة صغيرة أثيرة على قلبه وكأنها بنته فلذةُ كبده، نعجة أكلت من خبزه وشربت من كأسه واضطجعت في صدره.. أقول لو إن هذا الرجل ذبح هذه النعجة نتيجة لخطأ ما في المسلخ إذن لما ندم على غلطته الدامية أكثر مما أفعل أنا الآن. ألن تغفري لي أبد الدهر، يا جين؟»

أيها القارئ، لقد غفرت له في الحال، وفي تلك اللحظة نفسها فقد كان في عينيه من الندم العميق، وفي نبرته من الإشفاق الصادق، وفي مسلكه من القوة الجديرة بالرجال، بل لقد كان في محياه كله من الحبّ الثابت غير المتغيّر ما دعاني إلى أن أغفر له كل شيء... ومع ذلك فأنا لم أغفر له بكلمات ملفوظة، لم أغفر له جهاراً... لقد غفرت له في

سويداء قلبي ليس غير.

وسرعان ما سألني في كآبة وقد عجب، في ما أحسب، لصمتي ووداعتي اللذين كانا ثمرة العنف أكثر ممّا كانا ثمرة الإرادة:

– «أتعتقدين أني وغد، يا جين؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «إذن قولي لي ذلك في صراحة وقسوة.. ولا تقتصدي في تعنيفي».

– «لست أستطيع. أنا متعبة يعصف برأسي الدوار. أنا أريد جرعة ماء». فأطلق ضرباً من الزفرة المرتعدة، واحتواني بين ذراعيه، وهبط بي السلم إلى الدور الأسفل. ولم أدرِ بادئ الأمر إلى أيّة حجرة حملني، فقد كان كلّ شيء غائماً في عيني شبه الزجاجيتين، ولكنني سرعان ما استشعرت دفء النار المحيي، بعد أن

تمشّى البرد المثلوج في جسدي، متحدياً فصل الصيف، خلال احتجابي في حجرتي. وبلّل شفتي بقطرات من خمر. تذوّقتها واستعدت وعيي. ثم إني أكلت شيئاً قدّمه إليّ، وما لبث النشاط أن دبَّ في أوصالي. كنت في حجرة المكتبة، جالسة على كرسيه، وكان هو على مقربة مني. وقلت في ذات نفسي: «إذا استطعت أن أفارق الحياة الآن، من غير أن أستشعر كرباً بالغاً، كان ذلك خيراً لي، وعندئذ لن أضطر إلى بذل أيما جهد لفصل نياط قلبي عن نياط قلب مستر روتشيستر فصلاً لا بدّ أن تتقطّع معه وتتمزّق. إن عليّ، في ما يبدو، أن أفارقه... أنا لا أستطيع أن أفارقه».

– «كيف أنت الآن؟»

– «أحسن كثيراً، يا سيدي. ولسوف أستعيد كامل نشاطي عمّا قريب».

– «خذي جرعة أخرى من الخمر، يا جين».

وامتثلت أمره. ثم إنه وضع الكأس على الطاولة، ووقف تجاهي، وأنشأ يرنو إليّ في انتباه. وفجأة استدار مطلقاً صيحة بكماء، حافلة بضرب من الانفعال المشبوب. وذرع الغرفة في سرعة، ثم رجع ومال عليّ وكأنه يريد أن يقبّلني، ولكني تذكّرت أن المعانقات أمست الآن محظورة. فأشحت بوجهي عنه، ورددت وجهه جانباً.

فصاح في اهتياج: «ماذا؟ كيف ذلك؟ أوه، أنا أدري! أنت لن تقبّلي زوج بيرتا مايسون؟ أنت تعتبرين ذراعي مليئتين، وقبلاتي ملكاً لغيرك؟»

– «ليس لي، على أية حال، لا مكان في قربك ولا حق في حبك، يا سيدي».

– «لماذا، يا جين؟ سوف أكفيك مؤونة الكلام، سوف أجيب بالنيابة عنك، فأقول إنك تقفين مني هذا الموقف لأن لي زوجة... أمصيبٌ أنا في حدسي؟»

– «نعم»

– «إذا كنت تفكرين هكذا فلا بد أن يكون لك رأي عجيب فيّ. لا شكّ في أنّك تنظرين إليّ نظرتك إلى متهتّك متآمر – نظرتك إلى فاجر سافل وضيع كان يتظاهر بالحبَّ النزيه لكي يجذبك إلى شرك نصبهُ عامداً متعمداً، ولكي يجرّدك من شرفك، ويسلبك احترامك الذاتي. ما قولك في هذا الكلام؟ أنا أرى أنّك لا تستطيعين أن تقولي شيئاً: فأنت، أولاً، لا تزالين في حال من الإغماء وأنّك لتجدين في مجرّد التنفس مشقّة كافية، وأنت، ثانياً، لا تزالين عاجزة عن تعويد نفسك على اتّهامي وشتمي وإلى هذا فإن سدود دموعك مفتوحة على مصارعيها، وخليق بهذه الدموع أن تتدفّق إذا ما أسرفت في الكلام. وليست بك رغبة في العتاب، في التعنيف، في المشاجرة. أنت تفكرين في ما يتعيّن عليك أن تعمليه، أما الكلام فأنت تعتبرينه عبثاً لا طائل تحته. أنا أعرفك... وإني لعلى حذر».

فقلت: «أنا لا أريد أن أعمل ضدّك» ونبّهني صوتي المتهدّج إلى ضرورة بتر حملتي.

– «أنت ترسمين خطة للقضاء عليّ، لا بمفهومك أنت للكلمة، ولكن بمفهومي أنا. لقد قلت لي، عملياً، إنني رجل متزوج – وبوصفي رجلاً متزوجاً سوف تتجنبينني... سوف تبتعدين من طريقي: ولقد رفضت منذ لحظة أن تقبّليني. أنت تعتزمين أن تجعلي من نفسك مخلوقة غريبة عني بالكلية، وأن تعيشي تحت هذا السقف كمربية لآديل ليس غير. فإذا وجّهت إليك في أيما يوم كلمة ودّية، وإذا ما أحسست نحوي من جديد أيما شعور ودّي فعندئذ ستقولين: «هذا الرجل كاد أن يجعل مني خليلته: يجب أن أكون معه ثلجاً وصخراً». ولسوف تصبحين، وفقاً لذلك، ثلجاً وصخراً».

وجلوت حنجرتي وثبَّتُّ صوتي لكي أجيب، ثم قلت: «كل شيء من حولي قد تغيّر يا سيدي، فيجب أن أتغير أنا أيضاً – هذا شيء لا ريب فيه. وليس أمامي، لكي أجتنب تقلّبات العاطفة وأتحاشى الصراع الموصول مع الذكريات، غير سبيل واحدة: يجب أن تعهد في تربية آديل إلى مربية جديدة، يا سيدي».

– «أوه، آديل سوف تذهب إلى المدرسة. لقد عقدت العزم على ذلك، الآن. ولست أبتغي، في الوقت نفسه، أن أشقيك بذكرياتك البشعة في قصر ثورنفيلد... هذا الموطن الملعون... الشبيه بخيمة آخان... هذا السرداب الوقح الذي يقدم إلى ضياء الشمس الطلقة شحوب الموت في الحياة... هذا الجحيم الحجري الضيق بعفريتته الحقيقية الوحيدة التي هي أسوأ من كتيبة كاملة من العفاريت المتخيّلة! جين، إنك لن تبقي هنا، لا، ولن أبقى أنا أيضاً. لقد أخطأت خطأ كبيراً عندما أجزت لك أن تفدي على قصر ثورنفيلد، برغم علمي أنه قصرٌ مسكون بالأشباح. ولقد أصدرت أمري إليهم بأن يكتموا عنك، قبل أن تقع عليك عيناي، لعنة هذا المكان. وإنما فعلت ذلك لمجرّد خوفي أن لا توفّق آديل إلى مربية ترضى بالبقاء إلى جانبها إذا ما عرفت هذه المربية مع من ستجد نفسها في هذا البيت. ولم تساعدني خططي على نقل المجنونة إلى مكان آخر، برغم أني أملك بيتاً عتيقاً، في فيرنديان، هو أشدّ انعزالاً وتوارياً عن الأنظار حتّى من هذا القصر. بيتاً كان في ميسوري أن أنزلها فيه في سلام، لولا أن ساورني ريب في مدى ملائمة موقعه – في قلب إحدى الغابات – لصحُّتها، فإذا بضميري يكرهني على الإحجام عن ذلك الصنيع. وأغلب الظن أن تلك الجدران الرطبة كان خليقاً بها أن تريحني، وشيكاً، من عبئها، ولكن لكل وغد عيبه، وعيبي هو أني لا أنزع إلى الاغتيال غير المباشر، حتى لمن أكنّ له أعظم البغض».

«بيد أن كتمان جوار المرأة المجنونة عنك كان أشبه شيء بتغطية طفل بمعطف ووضعه قرب شجرة يوباس[1]: إن جوار تلك الشيطانة سامٌّ، ولقد كان دائماً ساماً. ولكني سوف أغلق قصر ثورنفيلد: سوف أسمِّر بابه الأمامي، وأسد نوافذه السفلى بألواح خشبية. ولسوف أدفع إلى مسز بول مئتي جنيه في العام لتعيش هنا مع زوجتي، كما تسمين أنت هذه الشمطاء الرهيبة. إن غرايس لمستعدة لأن تعمل أشياء كثيرة في سبيل المال، ولسوف تكلّف ابنها، حارس غريمسبي ريتريت، بالإقامة معها وبالإسراع إلى نجدتها كلّما عمدت قرينة[2] زوجتي إلى

إغرائها، في نوبة من نوباتها المسعورة، بإحراق الناس في مضاجعهم ليلاً، وبطعنهم بالمدية، أو بعضِّهم وسلخ لحمهم عن عظامهم الخ..».

(1) upas tree شجرة سامة تنبت في «جاوا» ويتخذ من نسغها (عصيرها) سم يُعرف بالاسم نفسه. (المعرب)

(2)أي الجنية الملازمة لها.

فقاطعته قائلة: «أنت يا سيدي قاسٍ على تلك السيدة التعيسة: إنَّك تتحدث عنها في بغض... في كراهية حقودٍ... هذه وحشية منك.. إذ ليس لها في جنونها حيلة».

– «جين، يا حبيبتي الصغيرة (هكذا سوف أدعوك، لأنك هكذا في الواقع)، أنت لا تعرفين ماذا تقولين. إنّك تجورين في الحكم عليّ، كرة أخرى: أنا لا أكرهها لأنها مجنونة، إذ لو أصابك أنت مسّ من جنون أتحسبين أني لا بد مبغضك؟»

– «من غير ريب، يا سيدي».

– «إذن فأنت مخطئة، وأنت لا تعرفين أيما شيء عني وعن نوع الحب الذي يستطيع قلبي أن ينبض به. إنّ كل ذرة. من لحمك أثيرة لدي مثل أي ذرة من لحمي، ولسوف تبقي أثيرة لديّ في حالي الألم والمرض. إن عقلك هو كنزي، فإذا ما قُدِّر له أن يصاب بمس فعندئذ يظل هو كنزي أبد الدهر. وإذ ما اهتجتِ فعندئذ ستضمك ذراعاي لا صدرةٌ ضيقة. إن قبضتك، حتى في حال الحنق والثورة، سوف يكون لها عندي سحر وفتنة: وإذا ما انقضضتِ عليٍّ بمثل الضراوة التي غلبت على تلك المرأة هذا الصباح فعندئذ سأتلقاك بعناق، فيه من الحنان بقَدْر ما فيه من التقييد والكبح. وخليق بي أن لا أجتنبك في اشمئزاز كما حاولت أن أجتنبها. أما فى لحظاتك الوادعة فلن ينهض بعبء السهر عليك والعناية بصحتك أحدٌ غيري. سوف يكون في ميسوري أن ألازمك في حنان لا يعتوره كلل، ولو لم تمنحيني لقاء ذلك ابتسامة واحدة، ولن أملَّ النظر إلى عينيك ولو خلتا من أيما وميض يؤذّن بأنك تعرفين من أنا... ولكن لماذا أتبع هذا المجرى

الفكري البغيض؟ لقد كنت أتحدث عن رغبتي في نقلك من ثورنفيلد. وأنت تعلمين أنَّ كل شيء معَدٌّ للرحيل العاجل: إنّك سوف ترحلين غداً، وكل ما أسألك إيّاه هو أن تحتملي الإقامة ليلة أخرى، ليس غير، تحت هذا السقف، يا جين! إنّ لدي مثوى أفيء إليه، مثوى سوف يكون حرماً آمناً من الذكريات البغيضة... من التطفل غير المستحب... بل من البهتان والنميمة».

فقاطعته بقولي: «خذ آديل معك، يا سيدي. إنها سوف تكون لك بمثابة الرفيق المؤنس».

– «ماذا تعنين، يا جين؟ لقد قلت لك إني سوف أرسل آديل إلى المدرسة، وما حاجتي إلى رفقة طفلة مثلها؟ طفلة ليست هي ابنتي أيضاً... ولكنها بنت غير شرعية لراقصة فرنسية؟ وعلام هذا الإلحاف كله في أمرها؟ أقول، لماذا تفرضين عليّ أن أتخذ منها رفيقة؟»

– «لقد تحدّثت عن العزلة يا سيدي؟ والعزلة والتوحّد موحشان... موحشان إلى حدّ لا يستطيع مثلُك احتماله».

فردَّد في انفعال: «التوحد! التوحد! يخيّل إليّ أن من واجبي أن أوضح هذه النقطة. ولست أدري أية انطباعة من انطباعات أبي الهول ترتسم على محياك. إن عليك أنت أن تشاطريني توحدي. أتفهمين؟»

فهززت رأسي. والواقع أن مجرد المغامرة بإبداء إمارة المخالفة الخرساء هذه كان يتطلب قدراً من الشجاعة غير قليل، بالنظر إلى سورة الغضب التي كانت قد شرعت تعصف به. كان يذرع الحجرة في عصبية، فما إن رأى إلى هزة رأسي تلك حتى توقف وكأنه سُمِّر فجأة إلى بقعة واحدة. وأنشأ يحُدّق إليّ تحديقاً طويلاً قاسياً، فحوّلت عيني عنه وثبتّهما على النار، محاولة أن أصطنع مظهراً هادئاً رابط الجأش وأن ألزم هذا المظهر.

وأخيراً قال، متكلماً بنبرة أحفل بالهدوء من تلك النبرة التي أوحت إليّ ملامحه بأنه سوف يصطنعها: «ها قد وصلنا إلى العقدة في خُلق جين ايير. إن بكرة الحرير قد دارت، حتى الآن، في سلاسة غير يسيرة. ولكني كنت أعلم دائماً أنها لا بد أن تنتهي إلى عقدة أو عقبة. وها هي ذي العقدة قد أطلعت رأسها. والآن حدِّث عن الإغاظة والإسخاط والبلاء المقيم ولا حرج! وحق الإله إني لتوّاق إلى بذل جزء من قوتي الشمشونية لأقطع هذه العقدة كما تُقطع نسالة القنَّب!»

واستأنف ذرع الحجرة، ولكنه ما لبث أن وقف، ولكن تجاهي مباشرة هذه المرة، وقال:

- »جين! أرجوك أن تصيخي إلى صوت العقل!» (وانحنى وأدنى شفتيه من أذني) «لأنك إن لم تفعلي لجأت إلى العنف». كان صوته أجش، وكانت أساريره أشبه بأسارير رجل يوشك أن يحطم قيداً ثقيلاً لا يطاق ويندفع في تهور ورعونة نحو حرية طائشة لا تخضع لضابط. وأدركت أني إن تشبّثت بموقفي لحظة أخرى وإن هبّت عليه هو رياح الحنق هبَّة إضافية فلن أقوى عندئذ على مقاومته. كانت الثانية الحاضرة. تلك الثانية المندفعة في مجرى الزمن - هي كل ما أملكه لكبحه والسيطرة عليه. وكان خليقاً بأيما حركة نفور أو فرار أو خوف أن تفضي بي، وبه أيضاً، إلى الهلاك. ولكني لم أستشعر خوفاً... لم أستشعر ذرة من خوف... لقد آنست في ذات نفسي قوة باطنية، ولمست فيها إحساساً بالسلطان أعانني وشدّ أزري. كانت الأزمة محفوفة بالمخاطر، ولكنها لم تكن لتخلو من فتنة وسحر.. فتنة وسحر شبيهين بذينك اللذين ربما كان الهندي يستشعرهما حين يندفع بزورقه في موضع من النهر جارف التيار ممتلئ بالصخور. وهكذا أمسكت بيد، المتشنجة، وأرخيت أصابعه المنقبضة، وقلت له في لهجة مهدئة:

- «اجلس. سوف أتحدّث إليك ما شئت لي أن أتحدث، ولسوف أصغي إلى كل ما تريد أن تقوله، سواء أكان معقولاً أم غير معقول».

وجلس، ولكنه لم يُوفق إلى الكلام مباشرة. ذلك بأني كنت قد غالبت الدموع برهة، وكنت قد بذلت جهداً بالغاً في كبحها لعلمي أنه لم يكن يحب أن يراني أبكي. أما الآن فقد رأيت من المستحسن أن أدعها تتدفّق ما وسعها التدفق. فإذا ما غاظه ذلك كان خيراً وأبقى. وهكذا استسلمت، وأنشأت أبكي بكاء مريراً.

وسرعان ما سمعته يتوسّل إليّ في حرارة أن أهدئ من روعي. فقلت إني لا أقوى على ذلك ما بقي هو مستسلماً للانفعال.

فقال: «ولكني لست مغضباً، يا جين. كل ما في الأمر أني أحبك حباً عارماً، وأنك كنت قد فُولذتِ وجهك الشاحب الصغير بانطباعه مثلوجة مصممة لم يكن لي قِبَلٌ باحتمالها. اهدئي الآن، وكفكفي عبراتك».

وكان في الرقة التي اتّسم بها صوته ما أشعرني بأن ثورته قد خمدت. وهكذا أخلدت أنا بدوري إلى السكينة. عندئذ حاول أن يريح رأسه على كتفي، ولكني لم أجز له ذلك. ثم جرّب أن يجذبني إليه، فامتنعت.

فقال في نبرة من الحزن المرير أوقعت القشعريرة في كل عصب من أعصابي: «جين! جين! أنت لا تحبينني إذن؟ أنت لم يعجبك مني غير مكانتي الاجتماعية وغير المنزلة التي يجدر بمن اختارها زوجة لي أن تنعم بها؟ أما وقد اعتقدت الآن أنني غير أهل لأن أصبح لك زوجاً فإنك تنفرين كلّما لمستك وكأنني قرد أو ضفدع بري».

وأوجعتني هذه الكلمات، ومع ذلك فما الذي كان في ميسوري أن أقوله أو أن أفعله؟ أغلب الظن أنه كان من واجبي أن لا أفعل شيئاً أو أن لا أقول شيئاً، ولكن حساً من الندم كان يعذبني لأني جرحت مشاعره على هذا النحو تعذيباً مبرحاً، فلم أستطع أن أقاوم الرغبة في وضع شيء من البلسم على الجرح الذي أحدثته.

فقلت: «أنا أحبك أكثر مما أحببتك في أي وقت مضى. ولكن من واجبي أن لا أظهر هذا الشعور أو أنغمس فيه. وهذه هي آخر مرة يتعيّن عليّ أن أعبّر فيها

عنه».

– «آخر مرة، يا جين! ماذا؟ أتحسبين أن في استطاعتك أن تعيشي معي، وتشاهديني كل يوم، ومع ذلك تظلين – إذا أقمتِ على حبي – باردة دائماً، نافرة دائماً؟»

– «لا، يا سيدي. أنا واثقة من أني لا أستطيع. ومن أجل ذلك أرى أن ثمة سبيلاً واحدة ليس غير، ولكن سورة الغضب سوف تعصف بك إذا ما ذكرتها».

– «أوه، اذكريها! فإذا ما ثرت لجأت أنت إلى حيلتك الماكرة: سفح الدموع».

– «مستر روتشيستر، إن عليّ أن أفارقك».

– «إلى متى، يا جين؟ بضع دقائق، ريثما تسرِّحين شعرك... الذي هو مشعَّث بعض الشيء، وتغسلين وجهك الذي تبدو عليه إمارات الحمى؟»

– «علي أن أفارق آديل وثورنفيلد. عليّ أن أنفصل عنك بقية عمري كله: علي أن أستهل حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة».

– «من غير ريب: لقد قلت أنا لك إن عليك أن تفعلي ذلك. وعلى أيّة حال فإني سأضرب صفحاً عن حماقة انفصالك عني. أنت تعنين من غير ريب أنك تريدين أن تصبحي جزءاً مني.(1) أما الحياة الجديدة فشيء حسن جداً: إنك، برغم كل ما حدث، سوف تصبحين زوجتي. أنا لست متزوجاً. ولسوف تصبحين مسز روتشيستر، بالواقع وبالاسم على حد سواء. سوف أبقى إلى جانبك ما دمت أنت وما دمت أنا على قيد الحياة. إنك ستمضين إلى مكان أملكه في جنوب فرنسة: دارة بيضاء على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وهناك سوف تحيين حياة سعيدة، آمنة، وطاهرة إلى أقصى حدود الطهارة. ولا تحسبي أني أريد أن أغريك باقتراف الإثم... أن أجعلك خليلتي. لماذا تهزّين رأسك؟ جين، يجب أن تحكّمي العقل، وإلا جُنّ جنوني من غير ريب».

(1) في الأصل تلاعب لفظي ظاهر بين parting from me (الانفصال عني) وبين to become a part of me (أن تصبحي جزءاً مني). (المعرب)

وتهدّج صوته، وارتعدت يده، واتّسعت خياشيمه الضخام، والتهبت عيناه: ومع ذلك فقد جرؤت على القول: «سيدي، إن زوجتك لا تزال على قيد الحياة: هذه حقيقة اعترفت بها أنت نفسك هذا الصباح. فإذا ما عشت معك كما تبتغي فعندئذ أصبح خليلتك. وكل زعم مخالف هو مجرد سفسطة... مجرد بهتان».

– «جين، أنا لست رجلاً دمث الطبع... إنك تنسين ذلك. أنا لست رجلاً طويل الأناة... لست فاتراً ولست رزيناً. من أجل ذلك أسألك، رحمة بي وبنفسك، أن تجسّي نبضي وتري إلى تسارعه... وأن تأخذي حذرك!»

وكشف عن معصمه، وبسطه نحوي: كان الدم يفارق خديه وشفتيه فهي تزرقّ ازرقاقاً رصاصياً. ومن هنا ألمَّ بي الكرب. فلأن أثيره أعمق الإثارة بمقاومة يبغضها كل هذا البغض ضرب من القسوة يجاور الوحشية. ولأن أستسلم له أمرٌ غير وارد البتة. وأخيراً فعلت ما يفعله البشر، على نحو غرزي، عندما ينوؤون بأثقال الغمُّ وتسد في وجوههم سبل النجاة: لقد التمست العون عند من هو فوق الإنسان، فإذا بالكلمات «ساعدني يا رب!» تنفجر من شفتيَّ انفجاراً غير إرادي.

فصاح مستر روتشيستر، فجأة: «إني لمعتوه حقاً! فأنا لا أفتأ أقول لها إني غير متزوج، ولكني لا أشرح لها كيف ذلك. إني أنسى أنها لا تعرف شيئاً عن خُلق تلك المرأة وعن الملابسات التي رافقت زواجي الجهنمي منها. أوه، أنا واثق من أن جين سوف تتّفق معي في الرأي عندما تعلم كل ما أعلمه! أنا لا أسألك إلاّ أن تضعي يدك في يدي، يا جانيت – لكي أتأكد، ببيِّنة اللمس وبيِّنة البصر على حد سواء، من أنّك على مقربة مني – ولسوف أصوّر لك بكلمات قليلة حقيقة الحال. هل تستطيعين أن تصغي إليّ؟»

–.«أجل، يا سيدي، وطوال ساعات إذا شئت».

– «لا أسألك غير دقائق معدودات. جين، هل سمعت ذات يوم أو علمت أني لم أكن أرشد إخوتي: أنه كان لي أخ أكبر مني سناً؟»

– «أذكر أن مسز فيرفاكس أنبأتني بذلك ذات مرة».

–.«وهل سمعت في أيما يوم من الأيام أن أبي كان رجلاً بخيلاً منقبض الكف؟»

–.«حسناً، يا جين، لقد حدا به شحُّه هذا إلى عقد النية على إبقاء ممتلكاته سليمة متماسكة. إنه لم يكن ليطيق فكرة تقسيم هذه الممتلكات بحيث يترك لي نصيباً عادلاً منها، وهكذا قرّر أن يجعل ثروته كلها وقفاً على أخي راولاند. بيد أنه لم يطق، في الوقت نفسه، التفكير في أن ولداً متحدراً من صلبه سوف يقضي حياته فقيراً: كان لا بد له من أن يكفل لي رفاه العيش من طريق زواج ثريٍّ. وسرعان ما راح يبحث لي عن شريكة حياة. وكان مستر مايسون، أحد مزراعي جزر الهند الغربية وتجارها، صديقاً من أصدقائه القدماء. وكان أبي على يقين من أن مستر مايسون كان يتمتع بثروة عقارية ضخمة، فراح يُجري بعض الاستطلاعات، فاكتشف أن لمستر مايسون ولداً وبنتاً، وعرف منه أن في إمكانه، وفي نيّته، أن يهب هذه الأخيرة ثروة مقدارها ثلاثون ألف جنيه: وكان هذا كافياً. فما إن تركت الكلية حتى أرسلت إلى جامايكا لأتزوج عروساً كانت قد حُفِظت لي من قبل. ولم يقل لي أبي أيّة كلمة عن ثروتها، ولكنه قال لي إن مس مايسون كانت في جمالها الساحر مفخرة «سبانيشتاون» وموضع اعتزازها. ولم يكن هذا كذباً. فقد ألفيتها امرأة فاتنة، من طراز بلانش اينغرام: امرأة فارعة الطول، سمراء، مهيبة. وكانت أسرتها حريصة على الفوز بي لنبل محتدي، وكذلك كانت مس مايسون نفسها. كانوا يبدونها لناظري، في الحفلات الساهرة، رافلة بأبهى الحلل وأسناها. ولكني نادراً ما رأيتها منفردة، ونادراً ما أدرت معها حديثاً شخصياً موجزاً. كانت تتملقني، وتسرف في محاولة إمتاعي بإظهار مفاتنها ومواهبها. ولقد بدا لي وكأن جميع الرجال من حولها كانوا معجبين بها، وكانوا يحسدونني عليها. وبُهرت، وأثرت،

وغلب على حواسي الاهتياج، وإذ كنت جاهلاً، غرّاً، قليل التجربة، فقد خيّل إليّ أني أحببتها. والواقع أنه ليس ثمة من حماقة يعجز التنافس المعتوه في دنيا المجتمع المترف ويعجز شبق الشباب وطيشه وعماه عن دفع المرء إلى ارتكابها. وشجّعني أنسباؤها، وأثارني المنافسون، وأغوتني هي: وهكذا تمّ زواجي منها قبل أن أعرف. أو أكاد، أين أنا. أوه، أنا لا أنظر إلى نفسي نظرة احترام عندما أفكر في ذلك الصنيع!... إن ازدراء باطنياً مبرّحاً ليستحوذ علي. أنا لم أحبها قط. أنا لم أحترمها قط، بل إني لم أعرفها قط. ولم أكن واثقاً من وجود أيما فضيلة في طبيعتها: أنا لم ألمح في ذهنها أو في مسلكها لا تواضعاً ولا طيبة ولا صراحة ولا دماثة. وتزوجتها... فما كان أشد حماقتي وخساستي وعنادي وعماي! ولو قد كانت خطيئتي أقل خطورة إذن لأستطعت أن... ولكن يحسن بي أن أذكر مع من أتحدث.

«أما والدة العروس فإني لم أرها قط. لقد توهّمت أنها ميتة. حتى إذا انقضى شهر العسل أدركت خطأي، فقد كانت مخبَّلة حبيسة في مستشفى للأمراض العقلية. وكان لزوجتي أخ أصغر منها سناً أيضاً. أخ معتوه أخرس. أما أخوها الأكبر، الذي رأيتِهِ (والذي لا أستطيع أن أبغضه برغم أني أكره أفراد أسرته جميعاً، لأن في عقله الضعيف بضع ذرات من الحنان تتمثّل في اهتمامه الموصول بأخته البائسة وفي المودة البالغة الشبيهة بمودّة الكلب، التي كان يكنُّها لي في يوم من الأيام) فأغلب الظن أنه سوف ينتهي إلى المصير نفسه ذات يوم. لقد عرف والدي وأخي راولاند هذا كله ولكنهما لم يفكرا إلاّ بالثلاثين ألف جنيه، ولقد شاركا في المؤامرة المدبّرة ضدي.

«كانت هذه مكتشفات خسيسة. ولكن لولا الخداع الذي انطوى عليه إخفاؤها عني لما جعلتُها موضوع تعنيف لزوجتي. وحتى عندما وجدت أطوارها مختلفة كل الاختلاف عن أطواري، وأذواقها بغيضة إلى نفسي، وطراز عقلها حقيراً، وضيعاً، ضيقاً، عاجزاً عجزاً فريداً عن الانقياد إلى ما هو أسمى وعن الانفساح لما هو أرحب... عندما وجدت أني لا أستطيع أن أنفق معها ليلة واحدة أو ساعة من ساعات النهار في اطمئنان ورفه، وأن لا سبيل إلى الاستمرار في أيما حديث لطيف

معها إذ كنت لا أكاد أستهلّ موضوعاً من موضوعات الكلام حتى أتلقّى منها جواباً جافياً مبتذلاً، فاسداً وأحمق في آن معاً... عندما أدركت أني لن أوفّق إلى خدم يرتضون الاستقرار في بيتي لأن أيًّا منهم ما كان ليطيق سورات غضبها العنيفة غير المعقولة ومضايقات أوامرها الحمقاء المتناقضة، المتطلبة – أقول حتى عندما اكتشفت ذلك كله كبحت جماح نفسي: لقد اجتنبت التعنيف، وأوجزت في الاحتجاج. لقد حاولت أن أزدرد ندمي وتقززي في غير ما ضجة، ولقد كظمت تلك الكراهية العميقة التي اعتملت في نفسي.

«جين، أنا لن أزعجك بسرد مختلف التفاصيل البغيضة: إن بعض الكلمات اللاذعة سوف تعبّر عما أريد أن أقوله. لقد عشت مع تلك المرأة التي في الدور الأعلى أربع سنوات، لم تكد تنقضي حتى كنت قد بُليت منها بمحنة قاسية حقاً: لقد أينعت شخصيتها وتطوّرت في سرعة رهيبة، واطلعت رذائلها الراسخة الجذور: كانت من القوة بحيث تعذّر كبحها إلاّ بالقسوة الوحشية، ولكني أبيت اصطناع القسوة الوحشية. لشدّ ما كان عقلها قزماً، ولشد ما كانت نزواتها عملاقة! وما أفظع البلايا التي أنزلتها بي هذه النزوات! لقد أورثتني بيرتا مايسون – الابنة البارة لأم فاقدة الأهلية – جميع ضروب الآلام الشنيعة المذِلة التي لابد أن تلازم رجلاً موثقاً إلى امرأة هي في آن معاً سكيرة وخليعة العذار.

«وفي غضون ذلك كان أخي قد تُوفي، حتى إذا تصرَّمت السنوات الأربع توفي أبي أيضاً. وكنت أنعم آنذاك بقدر من الغنى كافٍ، ومع ذلك فقد كنت معسراً أبشع ما يكون الإعسار: كانت حياتي قد شُدّت إلى مخلوقة لم أر أشد منها فظاظة وبذاءة وفسوقاً، مخلوقة يعتبرها القانون ويعتبرها المجتمع جزءاً مني. وعجزت عن التخلّص منها من طريق اللجوء إلى الشرع وإجراءاته المألوفة. ذلك بأن الأطباء اكتشفوا الآن أن زوجتي مجنونة – كانت اشتطاطاتها قد ولَّدت، قبل الأوان، بذور الخبل والجنون. جين، أنت غير مرتاحة إلى سماع قصتي هذه، إني لأرى على وجهك إمارات التقزز والغثيان... هل أرجئ بقية القصة إلى يوم آخر؟»

– «لا، يا سيدي. أتمها الآن: أنا أرثي لك... أنا أرثي لك من كل قلبي».

– «الرثاء، يا جين، لا يعدو أن يكون – حين يصدر من بعض الناس – ضرباً من المنحة الوبيلة المهينة، يحق للمرء أن يقذفها في وجوه واهبيها، بيد أن هذا النوع من الرثاء خليق بالقلوب الأنانية المتحجرة: إنه ألم هجينٌ أناني يعتور صاحبه عند سماعه ويلات الناس، ألمٌ ملقَّح بالازدراء الجاهل للذين ألمَّت بهم تلك الويلات. ولكن هذا الرثاء، ليس هو رثاءك، يا جين. إنه لا يتناغم مع العاطفة التي يطفح بها وجهك كله في هذه اللحظة... والتي تكاد عيناك أن تفيضا بها الآن... والتي يجيش بها فؤادك... والتي ترتعد بها يدك وهي في يدي. إن رثاءك، يا حبيبتي، هو أمُّ الحب المعذبة: وإن ألمه المبرح هو الكرب نفسه الذي يرافق ولادة العاطفة الإلهية. إني أتقبَّله، يا جين، قبولاً حسناً. دعي البنت ترى النور في حرية... إن ذراعيَّ لمشوقتان إلى استقبالها».

– «والآن، تابع يا سيدي. ما الذي فعلته عندما وجدت أنها قد خُولطت في عقلها؟»

– «لقد أشرفت على شفير اليأس، ولم يحل بيني وبين تلك الهاوية غير بقية من احترام الذات. كنت في أعين الناس مجلبباً – من غير ريب – بلباس من الخزي قذرٍ، ولكني

و
طّ
ن
ت
ا
ل
ع
ز

م
ع
ل
ى
أ
ن
أ
ك
و
ن
ط
ا
ه
ر
اً
ف
ي
ع
ي
ن
ذ
ا
ت
ي
.

.
.
و
ن
أ
ي
ت
ب
ن
ف
س
ي
،
ح
ت
ى
ا
ل
ن
ه
ا
ي
ة
،
ع

ن

د

ذَ

س جرائمها وترفّعت عن كل اتصال بنقائصها العقلية. ومع ذلك فقد ربط المجتمع اسمي وشخصي باسمها وشخصها. وبرغم هذا كله بقيت أراها وأسمعها كل يوم: كان شيء من أنفاسها (أف!) يمازج الهواء الذي تنشّقته، وإلى هذا فقد تذكرت أني كنت في يوم من الأيام زوجها.. وكانت تلك الذكرى مقيتة إلى نفسي آنذاك، كشأنها اليوم، على نحو يجل عن الوصف. وفوق هذا، فقد أدركت أني لن أوفّق البتة إلى أن أصبح زوجاً لامرأة أخرى، لامرأة أفضل، ما بقيت هي على قيد الحياة. وعلى الرغم من أنها كانت أكبر مني بخمس سنوات (لقد خدعتني أسرتها وخدعني أبوها حتى في مسألة سنها) فقد كان من المحتمل أن يُفْسَح من أجلها فتعمَّر قدر ما أعمَّر، إذ لم يكن ثمة ما يضارع ضعف عقلها غيرُ قوة بنيتها. وهكذا انتهيت، وأنا بعد في السادسة والعشرين، إلى حالٍ ميؤوس منها.

«وذات ليلة أيقظتني صيحاتها من نومي (وكنا قد احتجزناها، طبعاً، في إحدى الحجرات بعد أن أعلن الأطباء جنونها). وكانت ليلة نارية من ليالي جزر الهند الغربية، من ذلك الضرب الذي يسبق، عادة، هبوب الأعاصير في تلك المناخات. وإذ عجزت عن الاستسلام للنوم من جديد، فقد نهضت من فراشي وفتحت النافذة. كان الهواء أشبه بأبخرة الكبريت، فلم أجد في أي مكان ما ينعش نفسي. وتوافد البعوض بطنينه وأزيزه، وراح يدندن على نحو كالحٍ في أرجاء الحجرة. كان البحر – الذي سمعت هديره من هناك – يدمدم دمدمةً مكظوظة مثل زلزال، وكانت السحب السوداء تتلبّد فوقه، وكان القمر يأفل بين الأمواج، عريض الوجه أحمر اللون، مثل قنبلة مدفع حارة... لقد ألقى آخر نظرة من نظراته الدامية على عالم يرتعد أمام اختمار العاصفة. وكان الجو والمشهد قد أثرا في جسدي، وكانت أذناي مليئتين باللعنات التي كانت المجنونة ما تزال تطلقها، مقحمة اسمي فيها، بين الفينة والفينة، بنبرة من البغض الشيطاني وبلغة لم تصطنع أيما عاهرة محترفة أقذر من

ألفاظها قطّ. وعلى الرغم من أن غرفتين اثنتين كانتا تفصلانني عنها فقد سمعت كل كلمة ندت من فمها: إن جدران ذلك البيت من بيوت جزائر الهند الغربية لم يعق انطلاق صيحاتها الذئبية إلاّ قليلاً.

«وقلت آخر الأمر: هذه الحياة هي جهنم عينها! وهذا هو هواؤها... وهذه هي أصداء هاويتها التي لا قرار لها! إن لي لملء الحق في النجاة بنفسي منها إذا استطعت. وعندئذ تفارقني آلام هذه الحال المميتة مع هذا اللحم الثقيل الذي يرهق الآن روحي. أما أبدية المتعصبين اللاهبة فلا أخافها، فليس ثمة حياة مستقبلية أسوأ من حياتي الحاضرة... فلأولِّ فراراً، ولأنقلب عائداً إلى الله!

«قلت ذلك وأنا أركع وأفتح صندوقاً اشتمل على مسدسين مشحونين: كنت قد عزمت على الانتحار. ولكن هذه النية لم تستحوذ عليّ إلاّ لحظة واحدة ليس غير. ذلك بأن أزمة القنوط الشديد الصِّرف، التي كانت قد ولَّدت الرغبة في قتل النفس والعزم عليه ما لبثت - بوصفي عاقلاً غير مخبول - أن تلاشت في ثانية واحدة..

«وهبت على الأوقيانوس ريح عليلة مقبلة من أوروبة، واندفعت عبر النافذة المفتوحة. وانفجرت العاصفة، وأمطرت، ورعدت، وأومضت، وغدا الهواء نقياً. عندئذ اتّخذت قراراً وعقدت العزم على تنفيذه. فبينا كنت أتمشّى تحت شجرات البرتقال المبللة في حديقتي الندية وبين شجرات الرمان والأناناس الممطورة، وبينا كان فجر المناطق الاستوائية المتألّق البهي يتّقد من حولي ساورتني فكرة، يا جين... والآن أصيخي لي، لأن الحكمة الحقيقية هي التي حملت إليّ العزاء في تلك الساعة، وهدتني سواء السبيل.

«كانت الريح الأوروبية العليلة لا تزال توشوش أوراق الأشجار التي انتعشت بعد ذبول، وكان المحيط الأطلسي لا يزال يرعد في حرية مجيدة. واستبشر فؤادي بذلك اللحن - بعد أن أتت عليه فترة طويلة جفّ فيها وتصوَّح - وفاض بالدم المحيي... وتاق كياني إلى التجدد... وظمئت روحي إلى جرعة صافية. ورأيت الأمل يبعث حياً، واستشعرت أن التجدُّد ممكن. ومن قوس مزهرٍ في أقصى حديقتي

رنوت إلى البحر – وكان أشد من السماء زرقة – فألفيت العالم القديم وراءه، وانفسح المستقبل أمام ناظري على هذا النحو:

«لقد قال لي الأمل: اذهب وعش في أوروبة من جديد. فهناك لا يعرف أحد أي اسم ملوّث تحمل، ولا أي عبء قذر يُنْقض ظهرك. وفي استطاعتك أن تصطحب المجنونة إلى إنكلترة. احبسها في ثورنفيلد وأحطها بأسباب الرعاية والاحتراس الضرورية، ثم ارتحل أنت إلى أيما منطقة تشاء، وأنشئ ضروب العلاقات الجديدة التي تحلو لك. إن هذه المرأة التي طالما لوثت اسمك، وهاجت شرفك، وصوحت شبابك ليست امرأتك... لا ولست أنت زوجها. احرص على العناية بها وِفقَ ما تقتضيه حالها تكون قد أدّيت كل ما يكلفك إيّاه الله وتكلفك إيّاه الإنسانية. ادفن هويتها وصِلَتها بك في مطاوي النسيان: إن عليك أن لا تفضي بهما إلى أيما كائن حي. أحطها بأسباب السلامة والرفه، غلِّف هوانها بالكتمان، واهجرها.

«وعملت بهذا الإيحاء في دقة بالغة. كان أبي وأخي قد كتما نبأ زواجي عن معارفهما. لأني كنت قد ألححت، حتى في أول رسالة كتبتها إليهما معلناً لهما نبأ زواجي – بعد أن شرعت بالغثيان من نتائجه، وبعد أن رأيت على ضوء خُلق الأسرة ومزاجها أن مستقبلاً بشعاً ينتظرني – أقول لأني كنت قد ألححت عليهما في تلك الرسالة أن يُبقيا النبأ سراً من الأسرار. وسرعان ما استفحل السلوك الشائن الذي سلكته الزوجة التي اختارها لي أبي استفحالاً جعله يخجل من الاعتراف بها زوجة لولده. إذ زهد في إعلان هذه المصاهرة على الناس فقد أمسى حريصاً على كتمانها كحرصي أنا سواء بسواء.

«إلى إنكلترة نقلتها إذن، ولقد كانت رحلة رهيبة حقاً. وسعدت أعظم السعادة عندما انتهيت بها آخر الأمر إلى ثورنفيلد، وعندما رأيتها تُنْزَل آمنة في تلك الحجرة التي في الدور الثالث، حيث جعلت من جزئها الداخلي الخفي، طوال عشر سنوات متعاقبة، وِجاراً من أوجرة السباع الضارية – زنزانة غول من الغيلان.

ولقد لقيت بعض العسر في العثور على خادمة تلازمها، إذ كان عليّ أن أختار خادماً ذات إخلاص يجعلها موضع الثقة، ذلك بأن هذيانها كان لا بد له أن يفضح سري. وإلى هذا فقد كانت لها فترات صحو أو تعقل تستمرّ أياماً - وأحياناً أسابيع - تعوّدت أن تملأها بسبي وشتمي. وأخيراً استأجرت غرايس بول من مستشفى المجاذيب في غريمسبي. وهي والجراح كارتر (الذي ضمد جراح مايسون ليلة طُعِن ونُهِش) هما الشخصان الوحيدان اللذين أفضيت إليهما بسري. وجائز أن تكون مسز فيرفاكس قد ساورتها الريب. ولكنها ما كانت بقادرة على النفاذ إلى الحقائق نفاذاً دقيقاً. فقد أثبتت غرايس، على الجملة، أنها حارسة يقظة، برغم أن يقظتها هذه خُدِعت غير مرة وأغرِيت بالتراخي، وبعض ذلك راجع إلى علّة فيها هي، علة يبدو أن أيما شيء لا يستطيع أن يشفيها منها وأنها من الظواهر الملازمة لمهنتها المزعجة. فالمجنونة ماكرة ومؤذية في آن معاً. وهي لم تغفل قط عن الإفادة من الهفوات التي ارتكبتها حارستها، فأخفت ذات مرة تلك المدية التي طعنت بها أخاها، واستولت مرتين على مفتاح زنزانتها فغادرتها تحت جنح الظلام. وفي أولى هاتين المناسبتين حاولت إحراقي وأنا مضطجع في فراشي، وفي ثانيتهما زارتكِ تلك الزيارة المروّعة. وإني لأحمد العناية الإلهية، التي حرستك، على أنها صبّت نقمتها على ثوب زفافك، الذي ربما أعاد إلى مخيلتها بعض ذكريات عرسها الغامضة. ولكني لا أطيق التفكير في ما يمكن أن يحدث نتيجة لثورتها تلك. إني كلّما تخيّلت تلك المخلوقة التي انقضّت على عنقي هذا الصباح تنحني بوجهها الأسود القرمزي على عشْ يمامتي الحلوة ترتعد أوصالي ويجفّ الدم في عروقي..».

فسألته وقد تمهل لحظة: «وما الذي فعلته، يا سيدي، بعد أن أنزلتها هنا؟ إلى أين رحلت؟»

- «ما الذي فعلته، يا جين؟ لقد حوّلت نفسي إلى وهم أجميّ[1]. إلى أين ارتحلت؟ لقد همت على وجهي هيام الأرواح على التخوم ما بين إنكلترة واسكتلندة. ولقد شخصت إلى أوروبة وطوفت في أرجائها كلها. كانت رغبتي الراسخة أن

أهتدي إلى امرأة صالحة ذكية أستطيع أن أحبها... امرأة مغايرة كل المغايرة لتلك المسعورة التي خلَّفتها في ثورنفيلد..».

(1) وهج يتراءى فوق الآجام في أثناء الليل. (المعرب)

– «ولكنك لم تستطع أن تتزوج، يا سيدي».

– «كنت قد عقدت العزم على ذلك وكنت موقناً من أن في إمكاني ذلك. ولم يكن في نيتي، بادئ الأمر، أن أخدع عروسي عن نفسها كما قد خدعتك عن نفسك. لقد اعتزمت أن أقصّ عليها قصتي في وضوح وأن أقدُّم إليها عروضي في صراحة. ولقد بدا لي أن من المنطقي أن أعتبر حراً في أن أحِب وأحَب. وكان هذا الظن من القوة والرسوخ بحيث لم أشكّ لحظة في أني لابد واجدٌ امرأة ترغب في فهم قضيتي، ومن ثم ترتضيني زوجاً لها، على الرغم من اللعنة التي تنقض ظهري».

– «ثم ماذا، يا سيدي؟»

– «كلما غلب عليك الفضول، يا جين، غلب عليّ الابتسام. إنك تفتحين عينيك مثل طائر متلهف وتأتين بين الفينة والفينة بحركة قلقة. لكأن الأجوبة التي يشتمل عليها كلامي لا تتدفُّق نحوك في سرعة كافية، أو لكأنك تريدين أن تقرأي ما خط على لوح فؤادي. ولكن قولي لي، قبل أن أتابع الحديث، ماذا تعنين بقولك «ثم ماذا، يا سيدي؟» إنها عبارة قصيرة كثيراً ما يضطرب بها لسانك، عبارة استطاعت في كثير من الأحيان أن تستدرجني، ولست أدري لماذا، إلى الإفاضة في حديث لا نهاية له».

– «أعني.. وماذا حدث بعد ذلك؟ ما الذي فعلته؟ ما الذي نشأ عن هذه الحادثة؟»

– «تماماً. وما الذي تريدين أن تعرفيه الآن؟»

- «أريد أن أعرف هل وجدت أيما امرأة خفق بحبها قلبك، وهل سألتها أن تقبل بك بعلاً، وماذا كان جوابها؟»

- «في استطاعتي أن أقول لك ما إذا كنت قد وجدت أيما امرأة خفق بحبها قلبي، وما إذا كنت قد سألتها أن تقبل بي بعلاً، أما جوابها فلمّا يدوَّن بعد في سجل القدر. لقد ضربت في الأرض طوال عشر سنوات، أقيم في هذه العاصمة مرة، في تلك العاصمة مرة: أحياناً في سانت بطرسبرج، ومعظم الأحيان في باريس، وبين الفينة والفينة في رومة، أو نابولي، أو فلورنسة. وإذ كنت متزوّداً بثروة ضخمة وبجواز سفر يحمل اسماً عريقاً فقد استطعت أن أصطفي المجتمعات التي تاقت إليها نفسي: إن أيما وسط من الأوساط لم يوصد أبوابه في وجهي. لقد رحت أبحث عن المرأة التي اعتبرتها المثل الأعلى لبنات جنسها، فالتمستها بين السيدات[1] الإنكليزيات، والكونتيسات الفرنسيات، والسينيورات الإيطاليات، والغرافينات الألمانيات. ولكني لم أهتدِ إليها. وكان يُخيّل إليّ في بعض الأحيان، خلال لحظة عابرة ليس غير، أني لمحت أو سمعت أو شهدت شكلاً يؤذن بتحقيق حلمي، ولكني سرعان ما كنت أفيق على الحقيقة. ولا يذهب بك الظن إلى أني نشدت الكمال، سواء في العقل أو في الجمال. لا، لقد تقت إلى نقائض تلك المرأة الخلاسية، ولكن توقي كان على غير طائل.

فبينهنَّ جميعاً لم أجد واحدة خليقاً بي لو كنت أملك الحرية - أنا الذي خبرت مخاطر الزواج غير الملائم وأهواله وتقزّزاته كلها - أنْ أسألها الزواج مني. وأحالتني خيبة الأمل إلى فتى متهور طيَّاش. ففزعت إلى الملذّات انغمس فيها، ولكن ليس إلى الفسوق البتة: فهذا شيء كرهته ولا أزال أكرهه. كانت هذه هي حسنة «ميسَّالينتي»[2] الهندية: إن اشمئزازي منها ومن وفسوقها ذلك الاشمئزاز الراسخ الجذور كان يكبح من جماحي أشدّ الكبح، حتّى في لحظات الانغماس في الملذات. ولقد خيّل إليّ أن كل متعة معربدة كانت تدنيني منها ومن رذائلها، فأنأى بنفسي عنها وأجتنبها.

(1) في الأصل Ladies وهي جمع «لايدي». (المعرب)

(2) Messalina الزوجة الثالثة للأمبراطرر الروماني كلوديوس وكانت معروفة بفسوقها. وقد توفيت عام 48 بعد الميلاد.

«ومع ذلك فلم أستطع أن أعيش وحيداً. وهكذا جرّبت معاشرة الخليلات. ولقد وقع اختياري أول ما وقع على سيلين فارينز – وتلك خطوة أخرى من تلك الخطى التي تجعل المرء يزدري نفسه حين يتذكرها. وأنت تعرفين حقيقة هذه المرأة وكيف انتهت صلتي بها. وكانت لسيلين خليفتان: إحداهما إيطالية، هي جيبيا سينتا، والأخرى ألمانية، هي كلارا. وكان الناس يعتبرون كلاًّ منهما امرأة ذات جمال فذ. ولكن إلام انتهى جمالهما، في نظري، بعد أسابيع معدودة؟ كانت جيبيا سينثا امرأة مخادعة نزاعة إلى العنف فسئمتها في مدى ثلاثة أشهر. وكانت كلارا مخلصة مؤثرة للهدوء، ولكنها كانت بليدة، حمقاء، متحجرة الفؤاد، لا يسغيها ذوقي البتّة. ولقد سعدت بأن أمنحها مبلغاً من المال كافياً لأن يمكنها من العيش من إحدى الصناعات الصالحة، وهكذا تخلّصت منها بطريقة لائقة. ولكني أتبين في وجهك، يا جين، إنك لم تكوّني عني حتى الآن فكرة حسنة جداً. أنت تحسبينني خليعاً عاطلاً عن الشعور، فاجراً لا يقيم للمبادئ وزناً. أليس كذلك؟»

– «الواقع أني لا أكنّ لك مثل ذلك الحب الغامر الذي استحوذ عليَّ في فترة سابقة، يا سيدي. ألم يبدُ لك، بأية حال، أن من الخطل أن تحيا على ذلك النحو: مع هذه الخليلة حيناً، ومع تلك حيناً؟ إنك تتحدث عن مسلكك هذا وكأنه ملك طبيعي إلى أبعد الحدود».

– «كان مسلكاً طبيعياً بالنسبة إلي، ولكني لم أحبه. كان ضرباً من الحياة الخسيسة، وخليق بي أن لا أنزع إلى العودة إليه البتّة. إن استئجار خليلة ما لصنيع بغيض إلى النفس – صنيع ليس ثمة ما هو أشنع منه غير شراء جارية ما. وكلتا الخليلة والجارية وضيعة بفطرتها في أكثر الأحوال، وضيعة بمركزها الاجتماعي. والعيش مع الوضعاء، في غير ما كلفة، مذلّ مهين. وإني لأكره الآن ذكرى الأيام التي سلختها مع سيلين، وجيبيا سينتا، وكلارا».

وجدت في هذه الكلمات حرارة الصدق. وخلصت منها إلى هذه النتيجة اليقينية: لو قدِّر لي أن أنسى نفسي وجميع التعاليم التي لقّنتها في طفولتي، وأن أصبح - مهما تكن الذريعة، وأيًّا ما كان المبرر، وتحت وطأة أيما إغراء - خليفة هته الفتيات البائسات، إذن لكان خليقاً به أن يستشعر نحوي مثل هذا الشعور الذي يدنّس الآن ذكراهن في ذهنه. ولم أُفصح عن هذا اليقين: كان حسبي أن أحسّ به إحساساً. ولقد نقشته في قلبي رجاة أن يستقرّ هناك لكي يهرع لنجدتي عقد المحنة.

- «والآن، يا جين، لماذا لم تقولي: «ثم ماذا يا سيدي؟» أنا لم أنته بعد. إن علائم الغمّ لتبدو على وجهك. وإني لأرى أنك لا تزالين تستنكرين مسلكي. ولكن دعيني أصل إلى النقطة الجوهرية. ففي كانون الثاني (يناير) المنصرم دعاني داع من عمل إلى العودة إلى إنكلترة، وكنت قد تخلّصت من خليلاتي جميعاً، فانقلبت راجعاً، يغلب عليّ مزاج قاس مرير - هو ثمرة الحياة العابثة، الهائمة، المتوحدة - وتتآكلني الخيبة، ويقرضني الحقد على الناس جميعاً، وبخاصة على النساء كجنس (ذلك بأنني بدأت أعتبر أن المرأة المحبّة المخلصة المفكّرة لا وجود لها في دنيا الواقع.. إنها مجرّد حلم من الأحلام).

«وذات أصيل شتوي يلفّه الصقيع، انطلقت بجوادي حتى أصبحت على مقربة دانية من قصر ثورنفيلد. يا لها من بقعة بغيضة! أنا لم أكن أتوقّع أن أجد فيها أيما أمن أو هناءة. وعلى سلم السياج في طريق «هاي» رأيت مخلوقة ضئيلة الجسم جالسة وحدها في وداعة. فاجتزت بها بمثل اللامبالاة التي اجتزت بها بالصفصافة المشذّبة التي كانت تواجهها: إنّ قلبي لم يحدثني بأيما شيء استشفّ منه أية منزلة سوف تحتل من فؤادي، لا، ولم ينبئني أي هاتف باطني بأن الفتاة التي ستكون لها الكلمة الفاصلة في حياتي والجنية التي ستلهمني الخير أو الشرّ كانت تنتظرني هناك متنكرة بقناع بسيط متواضع. أنا لم أعرفها، حتّى عندما كبا «مسرور» بي وهرعت كاسفة البال تعرض عليّ العون والمساعدة. يا للمخلوقة الطفلية المهزولة! لقد بدا وكأن زقيقيَّة[1] راحت تثب عند قدمي وتقترح حملي على جناحها الضئيل. وقابلتها في شكاسة وعبوس، ولكن تلك المخلوقة أبت أن تنصرف. لقد لزمت مكانها إلى

جانبي في عناد غريب، ونظرت إليَّ وحدّثتني بضرب من السلطان. كان عليّ أن أحظى بالعون، ومن تلك اليد! ولقد حظيت بالعون فعلاً.

(ا) طائر صغير يأكل حب الكتان.

«ولحظة ضغطت على تلك الكتف الهشة سرى في أوصالي شيء غريب علي: نسغٌ جديد، وإحساس لم أعرفه من قبل. وابتهجت عندما علمت أن هذه العفريتة الصغيرة سوف ترجع معي... إنها تقيم في قصري ذاك، القائم هناك، وإلا لما كان في طوقي أن أدعها تفر من تحت يدي وأن أراها تختفي خلف السياج القاتم من غير أن يستبد بي ندم فذ. وسمعت وقع خطاك وأنت تعودين إلى القصر تلك الليلة، يا جين، على الرغم من أنك لم تعِ في أغلب الظن أني فكرت فيك أو انتظرت عودتك. وفي اليوم التالي راقبتك – من غير أن تريني – طوال نصف ساعة فيما كنت تلعبين مع آديل في الرواق. أنا أذكر أنه كان يوماً تساقط فيه الثلج فلم يكن في ميسوركما أن تنطلقا خارج الجدران. وكنت أنا في حجرتي، وكان الباب مفتوحاً نصف فتحة: لقد كان في وسعي أن أصغي وأرى في آن معاً، واستحوذت آديل على انتباهك الخارجي فترة من زمان، ومع ذلك فقد خُيّل إليّ أن أفكارك كانت شاردة في مكان آخر: ولكنك كنت طويلة الأناة معها إلى حدّ بعيد، يا صغيرتي جين. لقد تحدِّثت إليها وسلَّيتها برهة طويلة. حتّى إذا فارقتك آخر الأمر استغرقت على التوّ في حلم عميق من أحلام اليقظة: لقد مضيتِ في تؤدة لتذرعي الرواق. وبين الفينة والفينة كنت تطلّين – كلما اجتزت بإحدى النوافذ – وتلقين نظرة على الثلج المتساقط في كثافة، وتصيخين إلى الريح المنتحبة، لتعاودي من ثم سيرك الرفيق واستسلامك للأحلام. وأحسب أن أحلام اليقظة تلك لم تكن قاتمة، فقد كان يلتمع في عينيك أحياناً بريق بهيج ويغلب على محياك اهتياج رقيق لا ينمّان عن تفكُّر مرير، صفراوي، ميلانخولي: بل لقد نمَّت أساريرك عن تلك التأملات العذبة التي يهيم الشباب في واحتها عندما تساير روحه، على أجنحة مطواعة، طيران الأمل نحو سماء مثالية. وأيقظك صوت مسز فيرفاكس، وكانت تتحدّث إلى خادم في الردهة، وكم كانت بديعة تلك الابتسامة التي افترت عنها شفتاك بينك وبين

نفسك، يا جين! لقد كان في ابتسامتك كبير معنى: كانت لبيبة جداً، وبدا وكأنها تلقي ضوءاً على شرود ذهنك. لقد خُيّل إليّ إنها تقول: «إن رؤاي الرائعة حسنة جداً، ولكن عليّ أن لا أنسى أنها وهمية بكلّ ما في الكلمة من معنى. إن في مخيلتي لسماء وردية، وجنّة خضراء مورقة. أما في خارجها، وأنا أعي ذلك أكمل الوعي، فتنبسط تحت قدمي طريق وعرة عليّ أن أسلكها، وتتجمع من حولي عواصف سوداء يتعيّن عليّ أن أواجهها» وهبطت السلم مسرعة، وسألت مسز فيرفاكس أن تعهد إليك بعمل ما، كتسوية حسابات القصر الأسبوعية، في ما أظن، أو شيء من مثل ذلك، واغتظت أنا منك، لابتعادك عن متناول ناظري.

«وفي فروغ صبر، رحت أرتقب هبوط الليل، إذ كان في ميسوري آنذاك أن أدعوك إلى المثول بين يديَّ. لقد خيّل إليَّ أنه كان لك خلق غير مألوف، خُلقٌ كان عندي جديداً بالكلية، ولقد تقت إلى أن أسبر غوره.. إلى أن أعرفه معرفة أفضل. ودخلت الحجرة وعلى محياك سيماء تنمّ عن حياء واستقلال في الرأي، في آن معاً: كنت ترتدين ثياباً غريبة... كمثل الثياب التي ترتدينها الآن. واستدرجتك إلى الكلام، ولم يمض طويل وقت حتى اكتشفت أنّك حافلة بالمتناقضات العجيبة: كانت ملابسك وأخلاقك متزمتة تقيّدها قواعد العرف، وكانت تصرفاتك حيية في معظم الأحيان، جديرة بفتاة صقلتها الطبيعة ولكنها لم تألف الحياة الاجتماعية البتة، فتاة تخشى أشدّ الخشية أن يندَّ من شفتيها هراء ما أو ترتكب خطأ فاضحاً يجعلانها موضع سخرية السامع، ومع ذلك فقد كنت كلما وُجِّه الكلام إليك ترفعين إلى وجه مخاطبك عيناً ملتمعة، جريئة، ثاقبة: كان ثمة نفاذ وقوة في كل نظرة من نظراتك، حتى إذا ألحّ عليك مخاطبك بأسئلة محرجة سارعت إلى الردّ عليه بأجوبة حاضرة وصريحة. وما هي غير فترة قصيرة حتىّ بدا وكأنك قد ألفت معاشرتي: وأنا أعتقد أنك استشعرت مشاركة وجدانية بينك وبين سيدك المتجهم النزق، يا جين، إذ كان من دواعي دهشي أن أرى بأية سرعة بالغة كانت الطمأنينة العذبة تهدئ من روعك. كنت مهما دمدمتُ أو كشرتُ لا تتكشفين عن أيما دهش أو خوف أو تبرم أو استياء من نكدي وشكاستي، وكنت تراقبينني، وتبتسمين لي بين الفينة والفينة في

لطف بسيط ولكنه أريب، لطفٍ يعجز بياني عن وصفه. كنت في آن معاً راضياً ومُثاراً بما قد رأيت: لقد أحببت ما رأيت وطمعت في مزيد. ومع ذلك، فقد عاملتكِ، طوال فترة غير قصيرة، في شيء من التحفّظ، ولم أقصد إلى الاجتماع بك إلاَّ نادراً. كنت أبيقوري الهوى، عقلياً، وكنت أريد أن أطيل أجلَ الاستمتاع بهذه الصداقة الجديدة الحرِّيفة. وإلى هذا، فقد استحوذ علي، فترة من الزمان، خوف صوَّر لي أني إذا لمست الزهرة في غير احتراس ذبل بهاؤها... وفارقها سحر النضارة العذب. أنا لم أعرف آنذاك أنه لم يكن تفتحاً زائلاً البتة، ولكنه ضرب من التفتح المشع المميز لزهرة منقوشة في جوهرة ممتنعة على التلف والفساد. وفوق هذا، فقد أحببت أن أرى ما إذا كنت سوف تسعين للقائي إن عمدتُ إلى اجتنابك... ولكنك لم تفعلي. لقد لزمت حجرة الدرس جامدة مثل مقعدك ومسند رسمك، فإذا ما اتّفق لي أن لقيتك مصادفة اجتزت بي في سرعة ولا مبالاة لا يخفّف من غلوائهما غير حرصك على التشبث بأهداب الاحترام. وكانت انطباعتك المألوفة في تلك الأيام، يا جين، سيماء متفكّرة: لم تكن قانطة، إذ لم تكوني آنذاك رقيقة الصحّة، ولكنها لم تكن بهيجة إذ كان صدرك لا ينطوي إلاّ على قليل من أمل، وكانت نفسك لا تعرف الحبور الحقيقي البتّة. وتساءلت: ترى ما رأيك فيَّ، أو هل كنت توليني جانباً مهما يكن ضئيلاً من تفكيرك. ولكي أهتدي إلى جواب لهذين السؤالين استأنفت مراقبتي لك. كان ثمة مسحة من البهجة على محياك، وشيء من الود في تصرفاتك، كلما تحدثتِ. لقد رأيت أن لك قلباً اجتماعياً يأنس بالمعاشرة، وأن حجرة الدرس الصامتة ورتابة حياتك هما اللتان أوقعتا الكآبة في نفسك. وأجزت لنفسي أن تسعد بالتلطّف في معاملتك، وسرعان ما أثار التلطف عاطفتك: لقد غدا وجهك رقيق الانطباعة، وغدت لهجتك رقيقة. وكنت أطرب لسماع اسمي يُلفظ من بين شفتيك في نبرة سعيدة ترشح بالاعتراف بالجميل. وكان من دأبي أن أستمتع ببعض اللقاءات العَرَضية معك، يا جين، في تلك الفترة. لقد كان في تصرفاتك تردّد غريب: كنت تنظرين إليّ في قلق طفيف.. في ارتياب مخيّم، ذلك بأنك كنت تجهلين أي مزاج كان خليقاً به أن يغلب عليّ آنذاك: أأعتزم أن أمثل دور السيد

فأصطنع القسوة، أم أمثل دور الصديق فأفزع إلى الرأفة. ولكني كنت قد أمسيت آنذاك مولعاً بك ولوعاً جعل من المتعذّر علي أن أعمد إلى إثارة النزوة الأولى، وكنت إذا ما بسطت يدي نحوك في محبة، أشرقت أساريرك الغضّة الكئيبة بتهلّل وضياء وسعادة جعلتني ألقى عسراً بالغاً، في كثير من الأحيان، في اجتناب ضمّك إلى قلبي».

– «أرجوك أن تكتفي بهذا القدر من الحديث عن تلك الأيام، يا سيدي» كذلك قاطعته، وانا أكفكف عبرات ترقرقت في عيني. كانت كلماته تعذِّب نفسي، ذلك بأني كنت أعرف ما الذي يتعيّن عليّ أن أفعله – وأن أفعله وشيكاً – وكانت هذه الذكريات وهذه المكاشفات العاطفية لا تزيد مهمتي إلاّ صعوبة وعسراً.

فقال: «أجل، يا جين، سوف أكتفي بهذا القدر. وأية حاجة لي في الإسهاب في الكلام على الماضي ما دام الحاضر أدعى ألف مرة إلى الثقة والاطمئنان... وما دام المستقبل أحفل ألف مرة بالبشر والإشراق؟»

وارتعدت لسماع ذلك التوكيد المتيَّم المخبول.

وأردف يقول: «أنت ترين، الآن، حقيقة الوضع... أليس كذلك؟ فبعد أن سلخت سنوات شبابي ورجولتي في شقاء يعزّ على الوصف، من ناحية. وفي توحّد موحش، من ناحية، اكتشفت للمرة الأولى من أستطيع أن أحبّه حباً حقيقياً... اكتشفتك أنت. أنت شقيقة روحي... أنت نفسي الفضلى... أنت ملاكي الكريم. إنّ حباً عارماً ليشدّني إليك، وإني لأراك فتاة طيبة، موهوبة، بهية الطلعة. إن فؤادي ليضمر لك عاطفة مهيبة متّقدة. وهذه العاطفة تجنح إليك، وتجذبك إلى قلب حياتي وينبوعها، وتلفُّك بكياني... وتصهرك وتصهرني، بلهبها الطاهر المشبوب، في كلٍّ واحد.

«وإنما كان إحساسي بهذا وإدراكي إيّاه هما الحافزين اللذين جعلاني أعقد العزم على البناء بك. وما قولك ان لي زوجة غير سخرية فارغة، فأنت تعرفين الآن أنه ليس لي غير شيطانة رهيبة. لقد أخطأت عندما حاولت أن أخدعك، ولكني

خشيت عناداً يتَّسم به خلقك. لقد خشيت أن تؤدي مصارحتك بالواقع إلى إشراب قلبك بكراهية لي مبكرة، ولقد أردت أن أطمئن إلى أنك قد صرتِ ملكي قبل الإفضاء إليك بأي حديث ينطوي على مخاطرة. وكان ذلك جبناً: فقد كان عليّ أن أستصرخ نبلك وشهامتك أولاً، كما أفعل الآن... أن أصارحك بحياتي الطافحة بالآلام... أن أصف لك جوعي وظمأي إلى حياة أسمى وأجدر... أن أظهِر لك، لا عزمي (فهذه كلمة ضعيفة) بل تصميمي الذي لا يقاوم على أن أحب في إخلاص وقوة من يبادلني الحب في إخلاص وقوة، وبعد ذلك كان يتعيّن عليَّ أن أسألك أن تأخذي عليّ عهد الوفاء، وأن تعطيني. عهدك. جين، عاهديني، الآن على الوفاء!».

وران الصمت.

- «لم لا تتكلمين يا جين؟»

كنت أجتاز محنة قاسية: لقد اعتصرت فؤادي يد حديدية ملتهبة. وكانت لحظة رهيبة، ملأى بالنضال، والكآبة، والاحتراق! إنّ أيما كائن بشري قدِّر له أن يحيا على سطح هذه الأرض لم يكن في ميسوره أن يطمع في أن يلقى من الحب أكثر ممّا لقيت، ولقد عبدت أنا، بكلّ ما في الكلمة من معنى، ذلك الذي أحبّني هذا الحب كله. ومع ذلك فقد كان عليّ أن أشيح عن الحب وعن المعبود في آن معاً! كان ثمة كلمة واحدة موحشة تشتمل على واجبي الثقيل الذي لا يطاق: «الرحيل!»

- «جين، أنت تفهمين ما أريده منك... أنا لا أريد غير هذا العهد: «سوف أكون ملكك، يا مستر روتشيستر!».

- «مستر روتشيستر، أنا لن أكون ملكك».

وران صمت طويل.

فاستطرد في رقّة حطّمتني باللوعة والأسى وحجّرتني برعب مشؤوم، فقد كان صوته برغم هدوئه أشبه بلهاث أسد: «جين، أتعتزمين أن تتّخذي لنفسك طريقاً في الحياة، وأن تدعيني أتّخذ لنفسي طريقاً مختلفة؟»

- «نعم، أعتزم ذلك».

- «جين، (ومال عليّ وعانقني) ألا تزالين تعتزمين ذلك الآن؟»

- «نعم، لا أزال».

- «والآن؟» وطبع على جبيني وخدي قبلات رقيقة.

- «نعم، لا أزال...» وتحرّرت من أساره تحرراً سريعاً وكاملاً.

- «أوه، جين، هذا مرير! هذا... هذا هو الإثم. وليس من الإثم أن تحبيني».

- «ومن الإثم أن أطيعك».

فرفعت حاجبيه سيماء ضارية عصفت بملامح وجهه. ونهض، ولكنه ظلَّ معتصماً بالصبر. ووضعت يدي على ظهر أحد الكراسي حذَر السقوط. لقد ارتعدت أوصالي... لقد خفت... ولكني عقدت العزم.

- «لحظة واحدة، يا جين. فكّري لحظة واحدة في ما ستؤول إليه حياتي الرهيبة عندما ترحلين. إن السعادة كلها سوف تمزَّق بذهابك. ما الذي سيبقى لي بعد ذلك؟ لن تكن لي زوجة غير تلك المجنونة التي في الدور العلوي، غير جثة أشبه بتلك الجثث الراقدة هناك في المقبرة... ما الذي سأفعله، يا جين؟ إلى من سأتطلع التماساً للرفيق... التماساً لشيء من أمل؟»

- «افعل ما أفعله أنا. ضع ثقتك في الله وفي نفسك. آمن بالسماء. ارجُ أن نلتقي هناك مرّة أخرى».

- «وإذن فأنت لن تدعني؟»

- «لا».

فقال وقد ارتفع صوته: «وإذن فأنت تحكمين عليّ بأن أحيا بائساً، وبأن أموت ملعوناً».

– «أنا أنصح لك أن تعيش من غير خطيئة، وأرجو لك أن تموت في سلام».

– «وإذن فأنت تسلبينني الحب والبراءة؟ إنك تردينني إلى الشهوة أستغني بها عن الهيام، وإلى الرذيلة أملأ بها ساعات حياتي؟»

– «أنا لا أفرض عليك هذا المصير البتّة، يا مستر روتشيستر، إلا إذا كنت أنا أرتضيه لنفسي وأتشبُّث به. لقد خلِقنا لكي نكدح ونحتمل.. شأنك في ذلك كشأني... فاعمل وِفق ما خلِقْتَ له. ولسوف تنساني قبل أن أنساك».

– «إنّك تتهمينني، بهذا الكلام، بالكذب والبهتان: إنك تغمزين من قناة شرفي. لقد أعلنت أني لا أستطيع أن أتغيّر، ومع ذلك فأنّك تقولين لي، في وجهي، إني سوف أتغيّر وشيكاً. ولشدّ ما يثبت سلوكك مدى الانحراف في حكمك، ومبلغ الضلال في آرائك! أيكون دفع أخٍ لك في الإنسانية نحو اليأس والقنوط خيراً من مخالفة مجرد قانون بشري... قانون لن يُنزل انتهاكه أذىً ما بأي امرئ من الناس؟ ذلك بأنه ليس لك أنسباء ولا معارف تخشين إغضابهم بالعيش معي».

وكان هذا صحيحاً. وفيما كان يتكلّم خانني ضميري نفسه وعقلي نفسه، واتّهماني بالإجرام إذا ما قاومته. لقد تكلما بصوت لا يقلّ ارتفاعاً عن صوت العاطفة، وكانت هذه قد صرخت في ضراوة. لقد قالت: «أوه، اذعني! فكّري في بؤسه، فكري في الخطر الذي يحفّ به... تصوّري حاله بعد أن تتركيه وشأنه، تذكّري طبيعته الرعناء، اعتبري الطيش الذي لا بد أن يعقب يأسه... هدئيه، أنقذيه، أحبيه، قولي له إنّك تحبينه وإنّك سوف تكونين له. من الذي يحفل بك في العالم كله؟ أو من ذا الذي سوف يمسّه الأذى من جرّاء ما تفعلين؟»

ومع ذلك فقد كان الجواب جموحاً لا سبيل إلى تطويعه: أنا أحفل بنفسي. وكلّما اشتدّ توحّدي، وقلَّ أصدقائي، وعدمت من يعيلني ازداد احترامي لنفسي. سوف أتشبث بالشريعة التي سنّها الله، وأقرّها الإنسان. سوف أتعلق بالمبادئ التي لُقِّنتُها يوم كنت عاقلة، لا وأنا مخبولة... كشأني اليوم. إن الشرائع والمبادئ لم تُجعل للأوقات التي يُفتقد فيها الإغراء: لقد جُعِلَتْ للحظات مثل هذه اللحظة، عندما

يتمرَّد الجسد والروح على قسوتها. والحق أنها صارمة، ومصونة سوف تظلّ. إذا ما أجزت لنفسي أن أنتهك حرمتها كلّما حلّ لي ذلك فأية قيمة تبقى لها؟ إن لها لقيمة... هذا ما آمنت به دائماً، وإذا كنت لا أستطيع أن أؤمن به الآن فما ذلك إلاّ لأنني مخبَّلة... مخبَّلة بكل ما في الكلمة من معنى: تسري النار في عروقي، ويخفق قلبي بأسرع مما أستطيع أن أحصي نبضاته. إن الآراء المدركة على نحو سبقي والقرارات المتّخذة سلفاً هي كل ما أملك الآن أن ألزمه وأخلص له، وهناك يجب أن أثبت قدمي».

ولقد أثبتّها فعلاً. وقرأ مستر روتشيستر أسارير وجهي فأدرك أني أقدمت على ذلك. كان حنقه قد استثير إلى أبعد حدود الاستثارة، فاستسلم له لحظة أيًّا ما كانت العاقبة. وهكذا عبر أرض الحجرة، وقبض على ذراعي وأمسكني من خصري. لقد بدا وكأنه يفترسني بنظراته

الـ

لـ

أ

هـ

بـ

ة

.

و

ف

ي

تـ

لـ

ك

ا

للحظة استشعرت، جسدياً، أني عاج

ز
ة
م
ث
ل
ع
ق
ب
م
ن
أ
ع
ق
ا
ب
ا
ل
ح
ن
ط
ة
عُ
رِّض لأنفاس أحد الأفران ووهج ناره. أما عقلياً فقد بقيت مالكة زمام نفسي وثقتي بالسلامة المطلقة. ومن حسن الطالع أن للنفس مترجماً - كثيراً ما يكون لا واعياً ولكنه برغم ذلك صادق، وما ذلك المترجم غير العين. ولقد ارتفعت عيني لتواجه

عينه، وفيما كنت أحدّق إلى وجهه الضاري أطلقت زفرة لا إرادية. كانت قبضته موجعة وكانت قوّتي المجهدة قد نفدت أو كادت.

وقال وهو يصرُّ بأسنانه: «إنّ أيما شيءلم يبلغ قط من قبل مبلغ هذه المخلوقة من الهشاشة ومبلغها من الصلابة في آن معاً. إني لأحسّ بها بين يدي وكأنها مجرد قصبة! (وهزّني بقبضته القوية) إن في ميسوري أن ألويها بسبابتي وإبهامي: ولكن أيّة فائدة أرتجيها إذا ما لويتها، إذا ما اقتلعتها، إذا ما سحقتها؟ انظر إلى تلك العين: تأمل ذلك الشيء الحر، الضاري، المصمم المطلّ منها ليتحداني بما هو أكثر من الشجاعة... بانتصار صارم. إني مهما أفعل بقفصها – يا للمخلوقة المتوحّشة الجميلة! – أظلّ عاجزاً عن بلوغها. ولو أني مزّقت هذا القفص الضئيل إذن لما أدّى هياجي إلى أكثر من إطلاق سراح الأسير. إني قد أوفّق إلى احتلال ذلك المثوى، ولكن نزيلته سوف تفرّ إلى السماء قبل أن أستطيع الاعتزاز بأني مالك بيتها الفخاري. إنك أنت، أيتها الروح – بعزيمتك وطاقتك، بفضيلتك وطهارتك – ما أتوخاه وأريده، لا هيكلك الهشُّ فحسب. وخليق بك، إن تركت لك الحرية، أن تطيري في رقّةٍ ورشاقة وتستكني في فؤادي إذا شئت. أما إذا أكرهت على ذلك برغم إرادتك فعندئذ لا بدّ أن تفرّي من قبضة اليد مثل عطر من العطور... إنّك سوف تتلاشين قبل أن أستروح عبيرك الفاغم. أوه، تعالي، يا جين، تعالي!».

قال ذلك وأطلقني من مخالبه، واكتفى بالتحديق إليّ. كانت نظرته تلك أقسى من ضغطه المسعور وأكثر امتناعاً على المقاومة. بيد أن الأبله وحده ينزع الآن إلى الاستسلام. لقد تحدّيت ثورته وأحبطتها، فيتعيّن عليّ أن أنجو بنفسي من سلطان أساه. وهكذا انسحبت نحو الباب.

– «أنت ذاهبة، يا جين؟»

– «أنا ذاهبة، يا سيدي».

– «ولسوف تتركينني؟»

– «نعم».

– «ألن تأتي، ألن تكوني مؤاسيتي ومنقذتي؟... وحبي العميق، وبليَّتي الضارية، وضراعتي المشبوبة، أليس لها كلها، عندك، أي اعتبار؟»

يا للشجن الذي انطوى عليه صوته! وكم كان عسيراً عليّ أن أجيب في ثبات: «أنا ذاهبة».

– «جين!»

– «مستر روتشيستر!»

– «ارحلي إذن... أنا أوافق... ولكن تذكري: إنك تخلِّفينني هنا فريسة لكرب عظيم. اصعدي إلى حجرتك، فكّري في كلّ ما قلته لك، يا جين، والقي نظرة على آلامي... فكّري بي».

واستدار، وانطرح على وجهه على الأريكة، ومن شفتيه انطلقت هذه الكلمات في ألم مبرِّح: «أوه، جين!... يا أملي... يا حبي... يا حياتي!» وأرسل زفرة عميقة قوية.

وكنت قد انتهيت إلى الباب. ولكني، أيها القارئ، عدت أدراجي... عدت أدراجي بمثل العزم والتصميم اللذين كنت قد انسحبت بهما. وركعت إزاءه، وأدرت وجهه المكبَّ على الوسادة، نحوي، وطبعت على خده قبلة، وأمررت يدي على شعره في رفق.

وقلت: «فليباركك الله، يا سيدي الغالي. فليصنك الله من الأذى والخطأ... ليهدك سواء السبيل، ويوقعْ في قلبك العزاء... فليُحْسن ثوابك على ما أبديته من سالف عطف عليّ».

فأجاب: «إن حب جين الصغيرة كان خليقاً به أن يكون خير ثواب لي. بدونه ينفطر قلبي. ولكن جين سوف تجود عليّ بحبها: أجل، سوف تجود عليّ به في نبل

وفي سخاء».

وشاع الدم في وجهه، وانطلق الشرر من عينيه، وانتصب واقفاً. لقد بسط ذراعيه نحوي، ولكني اجتنبت عناقه، وغادرت الحجرة في الحال.

– «وداعاً!» تلك كانت صيحة فؤادي وأنا أفارقه. ثم إن اليأس أضاف: «وداعاً، إلى الأبد!».

في تلك الليلة لم يخطر ببالي أن أنام قط. ولكن الكرى غلب عليَّ حالما اضطجعت في الفراش. وحمِلت على جناح الفكر إلى مسارح الطفولة: لقد حلمت أني في الحجرة الحمراء في قصر غايتسهيد، وأن الليل حالك، وأن مخاوف غريبة استحوذت على عقلي. وبدا لي وكأن الضوء الذي ذهب برشدي في ذلك العهد البعيد، والذي انبعث من جديد في هذه الرؤيا، قد انزلق متسلقاً الجدار واستقرّ مرتعشاً في منتصف السقف القاتم. ورفعت رأسي لأرى: كان السقف قد استحال إلى سحب شامخة داكنة، وكان الضياء يشبه ذلك الذي يسفحه القمر على الضباب استعداداً لتبديده. وأنشأت أراقب طلوع القمر، أراقبه في جزع ليس ثمة ما هو أغرب منه على الإطلاق، وكأن الحكم بهلاكي سيكون مسطوراً على قرصه. لقد انبثق كما لم ينبثق قمر، في أيما ليلة، من خلال السحاب: إن يداً اخترقت بادئ الأمر تلك الطيات القاتمة وردّتها إلى بعيد. وبعد ذلك لم

يشرق في اللازورد قمرٌ، ولكنْ شبحٌ بشري أبيض حنى جبينه البهي نحو الشرق. لقد حدّق إليّ، فأطال التحديق. ولقد تحدّث إلى روحي: كان صوته ينبعث من مكان قصي إلى حد يمتنع على القياس، ومع ذلك فقد كان من القرب بحيث همس في فؤادي:

– «انجي بنفسك، يا ابنتي، من الإغراء!»

– «سوف أنجو بنفسي، يا أماه!»

بذلك أجبت بعد أن أفقت من ذلك الحلم الذي كان أشبه بغيبوبة من غيبوبات التنويم المغناطيسي. كان الليل مسدلاً أستاره، ما يزال، ولكن ليالي تموز (يوليو) قصار، ما إن تنتصف حتى يُقبل الضحى. وقلت في ذات نفسي: «لست أحسب أن الوقت لا يزال أبكر من أن أشرع في أداء مهمتي». ونهضت من فراشي: كنت مرتدية ملابسي، ذلك بأني لم أكن قد خلعت غير نعليَّ. وكنت أعلم أين أجد في أدراجي بعض القمصان، وقلادة، وخاتماً. وفيما كنت ألتمس هذه الأشياء وقعت على حبات عقد لؤلؤي كان مستر روتشيستر قد أكرهني على قبوله قبل بضعة أيام. فتركته. إنه لم يكن ملكاً لي: كان ملكاً للعروس الوهمية التي كانت قد تلاشت في الهواء. أما الأشياء الأخرى فجمعتها في رزمة. وأما كيس نقودي، المشتمل على عشرين شلناً (كانت هي كلّ ما أملك) فوضعته في جيبي. واعتمرت بقبّعتي القشّية. وشكلت شالي بدبوس، وحملت الحزمة ومشايتي، ولم أكن قد لبستها من قبل قط، وانسللت من الحجرة.

وهمست وأنا أجتاز، على رؤوس أصابعي، بباب مسز فيرفاكس: «وداعاً يا مسز فيرفاكس الكريمة!» حتى إذا التفت نحو حجرة الأطفال قلت: «وداعاً، يا عزيزتي آديل!» ولم يكن في إمكاني أن أذعن لأيما رغبة تغريني بالدخول ابتغاء تقبيلها ومعانقتها. كان علي أن أخدع أذناً واعية، فقد كنت أعلم على أيّة حال أنها قد تكون الآن مصغية.

وكان خليقاً بي أن أجتاز بحجرة مستر روتشيستر من غير توقّف، ولكن قلبي كفَّ عن الخفقان حالما بلغت تلك العتبة، فأكرِهَتْ قدماي على التوقّف أيضاً. إن النوم لم يفئ، تلك الليلة، إلى هذه الحجرة: كان نزيلها يذرعها، في قلق، من جدار فيها إلى جدار، ومرة تلو مرة تنهّد فيما كنت أصغي. كان ثمة جنة لي – جنّة مؤقتة – في هذه الحجرة، إذا ما اخترت ذلك: لم يكن عليّ إلاّ أن أدخل عليه وأقول:

– «مستر روتشيستر، سوف أحبك وأحيا معك مدى الحياة وحتى تدركني المنية» وعندئذ يتفجّر إلى شفتي ينبوع من جذل غامر. لقد فكرت في ذلك.

إنّ هذا السيد الكريم، الذي امتنعت عيناه الآن على الغمض، كان ينتظر ارتفاع الضحى في صبر نافد. إنه سوف يُرسل في طلبي، مع الصباح. ولكني سوف أكون قد مضيت لسبيلي، ولسوف يبحث عني، على غير طائل. وعندئذ لا بدّ أن يشعر أنّي قد تخلّيت عنه، وأني قد رفضت حبه، فيتردّى في وهدة العذاب، وقد يغلب عليه القنوط. لقد فكرت في هذا أيضاً، فامتدّت يدي نحو القفل. ولكني رددتها عنه، وتسللت متابعة طريقي.

لقد هبطت السلم في كآبة: كنت أعرف ما الذي يتعيّن عليّ أن أفعله، ولقد فعلته على نحو آلي. وهكذا التمست مفتاح الباب الجانبي في المطبخ، والتمست، أيضاً، قنينة زيت وريشة ورحت أزيت المفتاح والقفل. وجئت بشيء من ماء، وبشيء من خبز: فلربما تعيّن عليَّ أن أسير مرحلة بعيدة، وليس ينبغي لقوتي التي زلزِلت في الأيام الأخيرة بعنف، أن تهن وتنهار. وهكذا كله فعلته من غير أن أحدث أيّة ضجة. وفتحت الباب، وخرجت، ثم أوصدته في رفق. كان الضحى قد ارتفع أغبش باهتاً في فناء القصر. وكانت الأبواب الخارجية مغلقة ومقفلة. ولكن بويباً واحداً في أحدها كان موصداً بالمزلاج ليس غير. ومن خلال هذا البويب بالذات ارتحلت، وحتى هذا البويب أغلقته من ورائي، فإذا بي أجد نفسي خارج قصر ثورنفيلد.

كان على مبعدة ميل واحد، وراء الحقول، طريق ينبسط في اتجاه معاكس لميلكوت، طريق لم أسلكه قطّ من قبل، ولكني كثيراً ما لمحته، وتساءلت إلى أين يفضي. فما كان مني إلاّ أن اتّجهت نحو هذا الطريق، غير مجيزة لنفسي أن أفكّر بأي شيء، أو ألقي أيما نظرة إلى الوراء، بل حتى إلى الإمام. كان عليّ أن لا ألتفت إلى الماضي، وأن لا أتطلّع إلى المستقبل. فقد كان الأول صفحة عذبة على نحو سماوي – مخزونة على نحو مهلك – حتى لقد كان في مجرّد تلاوة سطر من سطورها ما يُطيب شجاعتي ويهدّ طاقتي. وكان الثاني صفحة بيضاء رهيبة: شيئاً أشبه بالعالم بعد انقضاء الطوفان.

ورحت أسير في محاذاة الحقول، والأسيجة، والدروب، إلى ما بعد طلوع الشمس. وأحسب أنه كان صباحاً صيفياً جميلاً، وأني لأذكر أن نعليَّ، اللذين كنت قد لبستهما عندما غادرت القصر، سرعان ما تبللا بالندى. ولكني لم أرنُ لا إلى الشمس البازغة، ولا إلى السماء المبتسمة، ولا إلى الطبيعة المستيقظة من رقادها. إن من يُساق إلى المشنقة، عبر مناظر طبيعية ساحرة، لا يفكر في الرياحين التي تبتسم في طريقه ولكن في آلة الإعدام وشفرة الفأس، في كسر العظام وتمزيق الأوردة، في القبر الفاغر فاه آخر الأمر: ولقد فكّرت أنا في هروبي الموحش وضربي في الأرض على غير هدى، وفكرت – بمثل سكرة الموت – في الذي خلَّفتُهُ ورائي. أنا لم أتمالك نفسي عن ذلك. أجل، لقد تصوّرته وقد وقف الآن في حجرته يشهد طلوع الشمس راجياً أن أفد عليه وشيكاً لكي أعلن له أني سوف أبقى إلى جانبه، وأكون ملكه. لقد تقت إلى أن أكون ملكه، وتلهّفت على العودة: فلم يكن الأوان قد فات، وكان لا يزال في ميسوري أن أكفيه مؤونة الحرمان وغصصه المريرة. وكنت على يقين من أن هروبي لمـَّا يُكتشف بعد. لقد كان في إمكاني أن أعود أدراجي وأكون مصدر عزائه، وموضع اعتزازه، ومنقذته من البؤس، وربما من الخراب. أوه، لشدّ ما نخسني الآن ذلك الخوف من تخلّيه عن نفسه، وهو شرّ من تخليَّ أنا عنه وأسوأ منه بكثير! لقد كان سهماً شائك النصل مغروزاً في قلبي، وحاولت نزعه فمزّقني تمزيقاً، حتى إذا أقحمته الذكريات إلى أبعد فأبعد كاد

الإغماء يطرحني أرضاً. وأنشأت الطيور تغرّد في الآجام والأدغال: كانت الطير تخلص الودّ لأقرانها، وكانت الطير رمز الحب. أما أنا فأي شيء كنت؟ وفي غمرة من آلام قلبي وجهودي المهووسة لاحترام مبادئي، أبغضت نفسي واجتويتها. ولم يحمل إليّ رضائي عن نفسي أيما عزاء، بل لم يحمل إليّ احترامي لذاتي سلواناً ما. كنت قد آذيت سيدي... وجرحته... وهجرته. فإذا بي أصبح، في عيني نفسي، بغيضة إلى نفسي. ومع ذلك، لم يكن في وسعي أن أعود أدراجي أو أن أرتدّ خطوة واحدة إلى الوراء. لا ريب في أن الله كان هو الذي سدّد خطاي. أما إرادتي وضميري فكان الأسى المشبوب قد داس أحدهما وخنق الآخر. وكنت أبكي بكاء مريراً وأنا أمضي في سبيلي المتوحدة: ورحت أغذّ السير في سرعة بالغة مثل من عصف به اهتياج مسعور. ولكن ضعفاً، بدأ باطنياً ثم امتدّ إلى أوصالي، ما لبث أن استبدّ بي فهويت. ولقد بقيت طريحة الأرض بضع دقائق، ضاغطة وجهي على الأعشاب الندية. وخشيت – أو رجوت – أن يدركني الموت هناك، ولكني سرعان ما نهضت: لقد زحفت أولاً على يدي وركبتيَّ، ثم استويت على قدميّ. وبي لهفة وعزم على بلوغ الطريق لم أعرف لهما ضريباً من قبل.

حتى إذا انتهيت إلى هناك اضطررت إلى الجلوس، التماساً للراحة، تحت السياج. وفيما كنت جالسة تناهى إلى سمعي وقع عجلات، ورأيت مركبة تقترب. فنهضت ورفعت يدي، فكفّت عن السير. وسألت الحوذي عن طيَّة المركبة[1] فسمَّى موضعاً نائياً كنت واثقة من أن مستر روتشيستر لم تكن له صلات به. وسألته عن الأجر الذي يتعيّن عليّ دفعه لقاء نقلي إلى هناك فقال: «ثلاثون شلناً». فأجبته أني لا أملك غير عشرين. فقال: «لا بأس، سوف أحاول الاكتفاء بهذا المبلغ». ثم إنه أذِن لي في الصعود إلى داخل المركبة، إذ كانت خالية. ففعلت، مغلقة الباب من ورائي. وتابعت المركبة سبيلها.

(1) الطية: الناحية التي تقصد إليها.

ألا فليعصمك الله، أيها القارئ الكريم، من أن تستشعر أبد الدهر ما استشعرته آنذاك! ومن أن تسفح عيناك أبد الدهر مثل تلك العبرات العاصفة المحرقة الممزّقة للفؤاد، التي سفحتها عيناي! ومن أن تضرع إلى السماء أبد الدهر بمثل الصلوات اليائسة الموجعة التي انطلقت من شفتيَّ في تلك الساعة! ومن أن ترهب أبد الدهر، كما رهبت أنا، أن تصبح أداة شرّ تعود بالأذى على من محضته حبك كله!

[28]

انقضى يومان. وكان مساءٌ من أماسي الصيف. وأنزلني الحوذي في موضع يدعى هويتكروس. إلى هنا أقلّني لقاء المبلغ الذي دفعته. كنت لا أملك من حطام الدنيا أي شلن آخر. وكانت المركبة قد أمست على مبعدة ميل، وكنت قد خُلِّفت ثمة وحيدة. وفي تلك اللحظة اكتشفت أني نسيت رزمتي في جيب المركبة وكنت قد وضعتها فيه زيادة في الحرص. هناك قد بقيتْ، وهناك كان يجب أن تبقى. وها أنا ذي الآن معدمة بكلّ ما تنطوي عليه الكلمة من معنى.

إن هويتكروس ليست بلدة وليست قرية صغيرة. إنها مجرّد معْلم حجري أقيم عند ملتقى طرق أربع: معلم طلوه، بطلاء أبيض لكي تراه العين من بعيد، وفي غمرة من الظلام، على نحو أوضح، في ما أحسب. إن أربع أذرع لتنبثق من قمّته. وأقرب المدن التي تشير إليها هذه الأذرع كانت تبعد، وفقاً لما دوِّن على الذراع، عشرة أميال، في حين أن أقصاها كانت تبعد عشرين ميلاً ونيفاً. ومن أسماء هذه المدن الشهيرة عرفت في أيّة مقاطعة ترجّلت: إقليم من الأقاليم الوسطى الشمالية، قاتمٍ بالأراضي السبخة، مكتنفٍ بالجبال. وكان في ميسوري أن أرى ذلك. إن خلفي وعن يميني وشمالي لأراضي سبخة مترامية الأطراف، وإن وراء ذلك الوادي السحيق الغائر عند قدميّ لسلسلة من جبال متلاحقة. ولا ريب في أن سكان تلك الديار كانوا قلّة متناثرة ههنا وههناك، فأنا لا أرى أي عابر سبيل في هذه الطرق: لقد امتدّت شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً – خالية، عريضة، موحشة. ولقد شُقَّت كلها وسط الأراضي السبخة، وكان نبات الخلنج ينمو كثيفاً ضارياً حتى حافَّاتها نفسها. ومع ذلك فقد يتّفق لمرتحل ما أن يجتاز بها. وكنت أرجو أن لا تراني الآن عين ما. فخليق بالأغراب أن يتساءلوا عمّ كنت أفعله متسكّعة هنا عند معْلم

الطريق، وقد بدت عليّ إمارات الحيرة واللاهدف. وقد أَسأل عم كنت بسبيله، فلا أستطيع أن أجيب إلاّ بكل ما يبدو عسيراً على التصديق، مثيراً للريبة. إن أيًّا من الروابط لا تشدّني إلى المجتمع البشري في هذه اللحظة... وليس من سحر أو رجاء يجذبني إلى حيث يقيم إخواني في الإنسانية. ولن يخامر أحداً ممّن قد يرونني أي ظن حسن بي أو أمنية طيّبة لي. لقد غدوت وليس لي من نسيب غير الأم الكلية: الطبيعة. فلأفزع إلى صدرها، ولألتمس فوقه الراحة!

وفجأة اندفعت إلى المرج، متّجهة نحو غور رأيته يشقّ الأراضي السبخة السمراء شقاً عميقاً. ورحت أخوّض حتى ركبتي في أعشابه الداكنة، منعطفة مع متعرجاته. حتى إذا اكتشفت عند زاوية خفية من زواياه صخرة صوانية سامقة سودتها الطحالب، جلست تحتها. كانت ضفاف المستنقع العالية تحيط بي من كل جانب، وكانت الصخرة تحمي رأسي، وكانت السماء فوق ذلك كله.

وانقضت برهة قبل أن أستشعر السكينة حتى في وحدتي تلك. لقد ساورني خوف غامض من أن يكون على مقربة دانية مني بهيمة ضارية، أن يكتشف وجودي قانص من القناصة أو سارق من سرَّاق الصيد. كنت كلّما عصفت الريح في ذلك القفر رفعت رأسي متوهمة أن عزيفها ليس غير اندفاعة ثور هائج، وكلّما زقزق سقساق[1] خلته رجلاً. حتى إذا وجدت آخر الأمر أن مخاوفي غير قائمة على أساس من الواقع، وحتى إذا أفرغ روعي إثر ذلك السكون العميق الذي ران مع هبوط الليل، عاودتني الثقة، ولم أكن قد فكرت، حتى ذلك الحين، في شيء البتّة. كنت قد أصغيت، وراقبت، وأوجست خيفة ليس غير. أما الآن، فقد استرددت قدرتي على التفكير.

[1] السقساق: طائر يشبه الحمام. (المعرب)

ماذا أعمل؟ إلى أين أذهب؟ أوه، ما كان أمرَّ هذين السؤالين في موقف عجزت فيه عن أن أعمل شيئاً أو أمضي إلى مكان!... في موقف تعيّن عليّ فيه أن أقيس بقدمي المرهقتين المرتعدتين درباً لا نهاية له، قبل أن أبلغ موضعاً آهلاً بالناس...

في موقف كان لا بدّ لي فيه من أن ألتمس الصدقة فى توسّل وضراعة قبل أن أفوز بسقف يؤوينى، ومن أن ألحف في طلب العطف وأتعرّض لشيء من الصدّ قبل أن تجد قصُّتي أذناً واعية، أو قبل أن تُقْضى حاجة واحدة من حاجاتي!

ولمست نبات الخلنج فإذا هو جاف محتفظ بدفئه من أثر حرارة النهار الصيفي. ونظرت إلى السماء فإذا هي صافية الأديم: كان نجم رؤوف يأتلق فوق حافة الخندق مباشرة. وسقط الندى، ولكن في رقُّة متعطفة، ولم تتنفس أيما ريح. لقد بدت الطبيعة شفيقة بي عطوفاً علي، لقد خيّل إليّ أنها تحبني، برغم كل ما قاسيت من نبذ وتشرّد، وتعلّقت أنا بها – أنا من كانت لا تتقوع من الإنسان غير الإهانة والصد وسوء الظن – تعلقاً أشبه بهيام الطفل بأمه. وهذه الليلة، على الأقل، سوف أكون ضيفها، كما كنت طفلتها، وأن أمي سوف تؤويني من غير ما مال ومن غير ما ثمن. وكان لا يزال لدي كسرة من خبز، هي البقية الباقية من رغيف كنت قد اشتريته من بلدة اجتزنا بها ظهراً ببنس ضالٍّ – آخر قطعة نقدية في جيبي. وبصرت بالتوت الشوكي اليانع يلتمع ههنا وهناك مثل حبات الكهرمان الأسود وسط نبات الخلنج. فجنيت منه حفنة وأكلتها مع كسرة الخبز. فإذا بطعام الناسك هذا يسكِّن من جوعي، الذي كان مُمضاً، إن لم يُشبعه. حتى إذا فرغت من تناول الطعام تلوت صلواتي المسائية، ثم اخترت مضجعي.

وكان نبات الخلنج كثيفاً إلى حد بعيد عند الصخرة الشامخة، فما إن اضطجعت حتى غُمرت قدماي فيه. لقد ارتفع عالياً عن يمين وعن شمالي غير تارك إلاّ فسحة ضيّقة يستطيع نسيم الليل أن يغزوها. ثم إني طويت شالي طية ضاعفت من كثافته والتحفت به. أما وسادتي فكانت نتوءاً خفيضاً مكسواً بالطحالب. وإذ رقدت على هذا النحو فإني لم أستشعر أي برد، في مستهل الليل على الأقل.

وكان خليقاً براحتي تلك أن تكون سعيدة إلى حدٍ كاف لو لم يعكّر صفوها فؤاد محزون راح يتشكّى من جراحه الفاغرة، ونزيفه الباطني، ونياطه الممزقة. لقد

ارتعد جزعاً على مستر روتشيستر وما ينتظره من مصير كالح، وانتحب عليه في إشفاق مرير، وهفا إليه في توق موصول. وفي مثل عجز الطائر المهيض الجناحين ظلّ يصفق بقوادمه وخوافيه المهشَّمة محاولاً على غير طائل أن يطير إليه.

ونهضت راكعة على ركبتي وقد أضناني عذاب الفكر ذاك. كان الليل قد تقدّم، وكانت نجومه قد طلعت: كان ليلاً آمناً ساكناً، وكان أروق من أن يجعل من الخوف رفيقاً لمن يسري فيه. إننا نعلم أن الله موجود في كل مكان، ولكنا من غير ريب نستشعر وجوده أقوى ما نستشعره عندما تتجلّى آثاره لأنظارنا على أوسع نطاق. وإنما ندرك لانهائيته، وقدرته الكلية ووجوده في كلّ مكان، أوضح ما يكون الإدراك، في سماء الليل المنزّهة عن الغيوم، حيث تجري عوالمه في سبيلها الصامت. وكنت قد نهضت راكعة على ركبتي لكي أصلي من أجل مستر روتشيستر. وإذ رفعت بصري إلى السماء رأيت، بعيني اللتين غشّاهما الدمع، المجرّة الجبارة. وحين تذكّرت ماهيتها – وأيّة نظم شمسية لا تحصى كانت تمخر الفضاء مثل وميض ناعم رقيق – استشعرت بأس الله وقوته. كنت واثقة من قدرته على إنقاذ ما قد خلق، ولقد اقتنعت الآن بأن الهلاك لن يلمّ لا بالأرض ولا بأي من النفوس التي تدخرها. عندئذ حوّلت صلاتي إلى حمد، فقد كان مصدر الحياة هو منقذ الأرواح أيضاً. واطمأن فؤادي إلى سلامة مستر روتشيستتر: كان الله، وبرعاية الله سوف يُحاط. وكرة أخرى أنِسْتُ إلى صدر الرابية، وما هي غير لحظات حتى نسيت أساي في غمرة الرقاد.

ولكن العوز ما لبث أن أقبل نحوي، صباح اليوم التالي، شاحب الوجه عارياً. فبعد فترة غير يسيرة انقضت على مبارحة العصافير أعشاشها، وبعد فترة طويلة من إقبال النحل في مطلع النهار العذب لكي تجني عسل نبات الخلنج قبل أن يجفّ الندى – عندما تقاصرت ظلال الصباح الطويلة، وغمرت الشمس بضيائها الأرض والسماء جميعاً – نهضت من رقادي، وأنشأت أُجيل الطرف في ما حولي.

يا له من نهار ساكن، دافئ، كامل! أية صحراء ذهبية كانت هذه الأرض السبخة المترامية الأطراف! كانت أشعة تملأ الكون كله، ولكم تمنيت لو أستطيع أن أعيش فيها وعليها. وبصرت بعظاية تجري فوق الصخرة الشامخة، ورأيت نحلة تطوِّف ناشطة بين ثمرات التوت الشوكي الحلوة، فتمنيت في تلك اللحظة لو أنقلب إلى نحلة أو عظاية، عساي أجد في هذا المكان، غذاء ملائماً ومثوى دائماً. ولكني كنت بشراً، وكانت لي مطالب وحاجات مثل التي للبشر، فيتعيّن عليّ أن لا أتسكع حيث لا شيء يرضيها ويشبعها. ونهضت. والتفت إلى المضجع الذي فارقته. وإذ يئست من المستقبل فإني لم أتمنَّ غير هذا: لو أن بارئي تفضّل تلك الليلة فتوفّاني إليه وأنا نائمة، ولو أن الهيكل المضني الذي أحلَّه الموت من أي صراع إضافي مع القدر يفنى الآن بهدوء ويمتزج في سلام بثرى هذا الفقر. بيد أن الحياة كانت لا تزال في حوزتي، بجميع مطالبها وآلامها وتبعاتها. فلم يكن لي من حمل ذلك العبء مناصٍ، ومن إشباع هذه المطالب، واحتمال تلك الآلام، وأداء هاتيك التبعات مَعدىً أو مفرّ. وانطلقت.

حتى إذا بلغت هويتكروس من جديد سلكت طريقاً استدبر معها الشمس، وكانت الآن متّقدة الأوار بالغة الارتفاع. أن أيما اعتبار آخر لم يُمْلِ عليّ هذا الاختيار. واجتزت مسافة طويلة، حتى إذا بدا لي أني بذلت جهداً كافياً وأن في ميسوري أن أستسلم، مرتاحة الضمير، للتعب الذي كاد يقهرني وأن أستريح من هذا العمل الإلزامي، وحتى إذا جلست على حجر رأيته قريباً مني وخضعت – في قلق – للبلادة التي أثقلت قلبي وأوصالي... سمعت رنين جرس – رنين جرس كنيسة.

واستدرت نحو منطَلَق الصوت – وهناك – بين الهضاب الرومانتيكية التي كنت قد كففت منذ ساعة عن ملاحظة مظاهرها المتغيّرة – رأيت قرية صغيرة وبرجاً مستدقاً. كان الوادي الغائر عن يميني مليئاً كله بالمراعي وحقول القمح والأحراج، وكان ثمة جدول ملتمع يجري متعرّجاً عبر ظلال الخضرة المتبدلة، والقمح الآخذ سبيله إلى النضج، والغابة القاتمة، والمرج المشرق الشمس. وفجأة سمعت قرقرة عجلات في الطريق الممتدّ أمامي، فأفقت من استغراقي في النظر

إلى تلك المشاهد، ورأيت عربة مثقلة بالأحمال تصعّد في الكثيب جاهدة كادحة، وغير بعيد عنها كانت بقرتان وراعيهما. كانت الحياة البشرية والعمل البشري على مقربة مني. فلأناضل، ولأكافح في سبيل العيش ولأنصرف إلى الكدح مثل سائر الناس.

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر دخلت القرية... كان في أقصى شارعها الوحيد دكان صغير في واجهته بعض الأرغفة. وتشهَّيت رغيفاً منها. ومن يدري، فلعلّ في هذه اللقيمات المنعشة ما يمكنني من استرداد بعض القوة، ولا ريب في أنه سوف يكون من العسير عليّ، بدونها، أن أتابع السير. وإنما عاودتني الرغبة في شيء من القوة وشيء من النشاط حالما وجدت نفسي بين إخواني وأخواتي في الإنسانية. لقد استشعرت أن من المذلّ أن أقع مغشيًّا عليَّ، تحت وطأة الجوع، فوق طريق قرية من القرى. وفكرت قائلة في ذات نفسي: «أليس معي أيما شيء أستطيع أن أعرضه على سبيل المقايضة بواحد من هذه الأرغفة؟» كان لدي منديل حريري صغير يطوِّق جيدي. وكان لدي قفازي. ولم أستطع أن أحزر كيف يتأتى الناس للأمر في أقصى حالات الفاقة والعوز. ولم أدرِ هل يحظى أي من هذين الشيئين بالقبول أم لا. أغلب الظن أنهما سوف يرفضان. ولكن عليّ أن أجرب.

ودخلت الدكان، فألفيت فيه امرأة. وإذ رأت في دكانها شخصاً حسن البزَّة، شخصاً حسبته سيدة نبيلة، فقد تقدّمت في لطف واحترام، وسألتني عن الخدمة التي تستطيع أن تؤديها إليّ. فاستحوذ عليّ الخجل: لقد أبى لساني أن ينطق بالطلب الذي كنت قد أعددته. ولم أجرؤ على أن أعرض عليها قفازي نصف المتهرئ ومنديلي المتغضّن، وإلى هذا فقد استشعرت أن مثل هذا العرض خليق به أن يكون سخيفاً. وهكذا اكتفيت بسؤالها أن تسمح لي بالقعود لحظة، إذ كنت متعبة حتى الإرهاق. فأجابتني، في فتور، إلى طلبي ذاك بعد أن خاب ظنها فيَّ وظهر لها أني لم أفد عليها لشراء شيء ما. لقد أشارت إلى مقعد، فتقدّمت نحوه وغصت فيه. واستشعرت حافزاً قوياً يدعوني إلى البكاء. وإذ وعيت أن مثل هذا الكشف عمّا

اعتمل في نفسي لم يكن ليتلاءم البتّة مع الموقف والظرف فقد كبحت جماح عبراتي. وسرعان ما سألتها: «هل في القرية أيّة خياطة؟»

– «أجل، هناك خياطتان أو ثلاث. على قدر ما تقتضيه الحاجة إلى مثل هذا العمل».

وفكرت. كنت الآن قد انتهيت إلى ورطة. لقد وُضِعت وجهاً لوجه مع الحاجة والعوز. وكنت في موقف فتاة من غير مورد: من غير صديق، من غير قطعة نقدية. إن عليّ أن أفعل شيئاً. ولكن ماذا؟ وإن علي أن ألتمس عملاً في مكان ما. ولكن أين؟

– «أفي علمك أن في هذا الجوار من يحتاج إلى خادمة؟»

– «لا. لست أعرف أحداً».

– «ما هي الصناعة الرئيسية في هذا الموطن؟ ما العمل الذي تمارسه كثرة الناس؟»

– «بعضهم عمال زراعيون. وكثير منهم يعملون في مصنع الأبر الذي يملكه مستر أوليفر، وفي مصهر الحديد».

– «وهل يستخدم مستر أوليفر النساء؟»

– «لا. ذلك عمل من أعمال الرجال».

– «وما الذي تفعله النساء؟»

فكان الجواب: «لست أدري. بعضهن يفعلن كيت، وبعضهن يفعلن كيت. وعلى الفقيرات أن يحتلن على الحياة كيفما استطعن».

وبدت وكأنها قد سئمت أسئلتي. وهل كان لي، في الواقع، أي حق في الإلحاح عليها في السؤال؟ وأقبل جار أو جاران، فأدركت أني أحتلّ مقعداً قد يكون أحدهما

في حاجة إليه. فاستأذنت في الانصراف.

وحرت أصعِّد في الشارع، ناظرة إلى مختلف البيوت القائمة عن يمين وعن شمال، ولكني لم أستطع أن أكتشف أيما ذريعة أو أجد أيما حافز لدخول واحد منها. وهمت على وجهي في القرية الصغيرة، مجتازةً في بعض الأحيان مسافة قصيرة لأعود أدراجي بعد ذلك إلى حيث كنت. وسلخت على هذا النحو ساعة أو يزيد. حتى إذا غلب عليّ الإجهاد وأورثني الجوع ألماً شديداً انعطفت إلى أحد الأزقّة فجلست تحت الوشيع(1)، بيد أني ما لبثت أن انتصبت، بعد بضع دقائق، واقفة على قدمي ورحت أبحث مرّة أخرى عن شيء... عن ملاذ أفزع إليه أو عمّن يهديني إلى هذا الملاذ. وكان في أعلى الدرب بيت صغير جميل تتقدّمه حديقة... حديقة بالغة الأناقة منوِّرة على نحو مؤتلق. فوقفت عنده. ولكن بأية ذريعة أقترب من ذلك الباب الأبيض وتلك المطرقة المتوهجة؟ وما الذي يغري سكان المثوى بإسداء يد العون إلي؟ ومع ذلك فقد دنوت من الباب وقرعته، ففتحت لي فتاة لطيفة الطلعة حسنة البزة. وفي صوت كالذي يُتوقع من قلب يائس وجسد مشرف على الإغماء – صوتٍ خفيض متلجلج إلى حد يائس – سألتها ما إذا كانوا في حاجة إلى خادمة.

(1) سياج من نباتات يجعل حول الحديقة منعاً للداخلين.

فقالت: لا. نحن لا نستعين بأية خادمة».

فأضفت: «هل تستطيعين أن تنبئيني أين أجد عملاً أيًّا ما كان نوعه؟ أنا غريبة، ولست أعرف أحداً، في هذه القرية. أنا في حاجة إلى عمل... عمل من أي نوع».

بيد أنه لم يكن من شأنها أن تفكّر بالنيابة عني أو أن تلتمس لي عملاً ما. وإلى هذا فلا ريب في أن شخصيتي ووضعي وقصتي بدت في عينها شيئاً مريباً إلى حد بعيد. من أجل ذلك هزّت رأسها قائلة إنها «آسفة لعجزها عن إعطائي أية معلومات». وأوصدت الباب الأبيض في رفق وأدب بالغين، ولكنه برغم ذلك حطّر

عليّ الدخول. ولو قد أبقته مشرّعاً بضع لحظات أخرى إذن لالتمست منها كسرة خبز، ذلك بأن قواي كانت الآن قد وهنت وخارت.

ولم أطق التفكير في العودة إلى القرية الحقيرة، حيث لم تلح لي - على أية حال - بارقة أمل في الفوز بمساعدة ما. ولقد كان خليقاً بي أن أتوق، بدلاً من ذلك إلى الانحراف نحو غابة بصرت بها على مقربة دانية... غابة بدا لي وكأنها تقدّم إليّ من ظلها الوارف ملاذاً حسن الوفادة. ولكني كنت من وهن القوى ووشك الإغماء ومن الاشتياق العارم إلى إشباع الحاجات الطبيعية بحيث حملتني الغريزة على مواصلة التطواف حول مختلف الأماكن التي لاحت لي فيها فرصة العثور على شيء من قوت.

وأنشأت أدنو من البيوت، ولكني سرعان ما فارقتها، ثم انقلبت راجعة إليها مرّة أخرى، لأعود بعد ذلك فأهيم على وجهي وقد صدّني في كل مرة شعور بأنه لا حقّ لي في أن ألتمس من أحد الاهتمام بمصيري المعزول، أو في أن أتوقّع مثل هذا الاهتمام من أحد. وتقدم الأصيل، في غضون ذلك، بينا كنت أطوّف ههنا وهناك مثل كلب ضالٍ أضرَّ به الجوع. حتى إذا عبرت حقلاً من الحقول لمحت برج الكنيسة المستدقّ منتصباً أمامي: فرحت أغذّ الخطى في اتجاهه. وعلى مقربة من فناء الكنيسة كان يقوم منزل حسن البناء، وعلى الرغم من صغره. كان من غير ريب بيت الكاهن. عندئذ تذكّرت أن الأغراب الذين تسوقهم أقدامهم إلى موضع لا أصدقاء لهم فيه، والذين يطلبون عملاً، كثيراً ما يلتمسون من الكاهن أن يعرفهم إلى بعض رعيته أو أن يمدّ إليهم يد العون. إن من مهمة رجل الكنيسة أن يساعد - بنصائحه على الأقل - أولئك الذين يرغبون في مساعدة أنفسهم. وبدا لي أني أملك ما يشبه الحق في التماس المشورة في هذا المكان. وهكذا جدُّدت شجاعتي، واستجمعت بقايا قوتي الواهنة، واندفعت قدُماً، فبلغت البيت، وقرعت باب المطبخ، ففتحت امرأة عجوز فسألتها: «أهذا بيت الكاهن؟»

- «نعم».

– «هل الكاهن هنا؟»

– «لا».

– «هل سيعود عمّا قريب؟»

– «لا. لقد رحل».

– «إلى مكان بعيد؟»

– «لا... إلى مكان يبعد ثلاثة أميال ليس غير. لقد دعاه إلى الرحيل موت أبيه المفاجئ، وهو الآن في «مارش ايند»، وأغلب الظنّ أنه سوف يقضي هناك أسبوعين آخرين».

– «وهل في البيت سيدة ما؟»

– «لا، ليس فيه أحد غيري. إني مدبرة المنزل».

ولا أُخفي عليك، أيها القارئ، أني لم أحتمل أن أسأل هذه المرأة أن تنتشلني من العوز الذي كنت أغوص فيه. ولم يكن في ميسوري، بعد، أن أستجدي. وهكذا جررت قدمي عائدة أدراجي كرة أخرى.

ونزعت منديلي من جديد، ومن جديد فكّرت في أرغفة الخبز التي رأيتها في الدكان الصغير آه، من أين لي بكسرة منها ليس غير! من أين لي بلقمة واحدة ليس غير أسكّن بها ألم الجوع؟ وكرة أخرى وجَّهت وجهي، على نحو غرزي، قِبَلَ القرية، فبلغت الدكان من جديد، فدخلته. كان ثمة، بالإضافة إلى المرأة، نفر آخرون ولكني غامرت برغم ذلك فطرحت عليها هذا السؤال:

– »هل لك أن تعطيني بهذا المنديل رغيفاً من خبز؟»

فنظرت إليّ في ارتياب واضح وقالت:

– «أنا لا أبيع بهذه الطريقة أبداً».

وكاد اليأس أن يغلب عليّ، فسألتها أن تعطيني نصف رغيف. ولكنها رفضت، كرة أخرى، قائلة: «وما يدريني من أين جئت بهذا المنديل؟»

– «أنا مستعدة أن أعطيك قفازي»

– «لا! وماذا أصنع به؟»

إن الإفاضة في هذه التفاصيل ليست، أيها القارئ، بالأمر المستعذب. والواقع أن بعضهم يزعم أن الالتفات إلى الخبرات الأليمة المنقضية ينطوي على شيء من البهجة، ولكني لا أكاد أطيق، حتّى يوم الناس هذا، استعادة ذكرى تلك الأيام التي ألمِعُ إليها: إن الإذلال المعنوي، المشوب بالألم الجسدي، ليشكّل ذكرى هي أشدّ إثارة للأسى من أن أرغب، راضية، في إطالة التفكير فيها. أنا لم ألم أيًّا من أولئك اللواتي نهرنني، فقد شعرت أن ذلك كان عين ما ينبغي للمرء أن يتوقّعه، وأنه كان أمراً لا حيلة لهن فيه: إنّ المتسول العادي كثيراً ما يكون موضع ريبة، أما المتسوّل ذو البزّة الحسنة فموضع الريبة دائماً. صحيح أن ما التمسته كان هو العمل ليس غير، ولكن من ذا الذي كان مهمته أن يزوّدني بالعمل؟ إن ذلك لم يكن، طبعاً، مهمة أولئك الأشخاص الذين رأوني آنذاك للمرة الأولى، والذين لم يعرفوا أيما شيء عن خلقي. وحتى المرأة التي أبت أن تأخذ منديلي مقابل رغيف من خبزها... حتى هذه المرأة كانت على حق، إذا ما بدا العرض – في عينيها – مشؤوماً، وبدت المقايضة غير رابحة. فلأوجز الآن. إن الكلام على هذه المسألة ليثير تقزّزي.

وقبيل سقوط العتمة بقليل اجتزت ببيت في مزرعة، وكان الفلاح قاعداً عند بابه المفتوح يتناول عشاءه المؤلف من خبز وجبن. فوقفت، وقلت:

– «هل تتكرّم عليّ بكسرة من خبز؟ إني جائعة جداً».

فألقى عليّ نظرة ترشح بالدهش. ومن غير أن يجيب، قطع جزءاً ضخماً من رغيفه وقدّمه إليَّ. ويُخيّل إليّ انه لم يحسبني شحاذة، ولكن مجرّد سيدة غريبة

الأطوار؟أعجبت برغيفه الأسمر. وما إن نأيت بنفسي عن مرمى بصره، حتى قعدت والتهمت قطعة الخبز.

وما كان ليراودني أيما أمل في المبيت تحت سقف من السقوف، فالتمسته في الغابة التي ألمعت إليها من قبل. ولكن ليلتي كانت بائسة، وراحتي متقطّعة: كانت الأرض رطبة، والهواء بارداً وإلى هذا فقد مرّ بي المتطفلون غير مرة فكان عليّ أن أغيّر مقرّي مرة بعد مرة: إن أيما شعور بالسلامة أو الطمأنينة لم يحالفني. وقبيل ارتفاع الضحى، هطل المطر، ولقد تواصل هطوله طوال اليوم التالي. ولا تسألني، أيّها القارئ، أن أقدّم إليك وصفاً دقيقاً لذلك اليوم. فقد التمست عملاً ما، شأني من قبل، فانتُهِرْتُ شأني من قبل. وكشأني من قبل أيضاً أمضّني الجوع، ذلك بأن الطعام لم يدخل فمي إلاّ مرة واحدة. وعند باب أحد الأكواخ بصرت بفتاة صغيرة تُوشك أن تطرح طبقاً من عصيدة باردة في حوض من أحواض الخنازير. فسألتها: «هل لك أن تعطيني هذا الطبق؟»

فحدّث إليّ ثم صاحت: «أمّاه! هنا امرأة تريد أن أعطيها هذه العصيدة».

فأجابها صوت من داخل: «حسناً، يا بنيتي، أعطيها إيّاه إذا كانت شحاذة. إن الخنزير غير راغب فيها».

فأفرغت الفتاة ذلك القالب المتصلّب في يدي، فالتهمته بنهم.

حتى إذا أحلو لك الغسق الممطر كففت عن السير في طريق منعزل خاصّ براكبي الخيل كنت قد سلكته طوال ساعة أو يزيد. وقلت مناجية نفسي: «إن قوتي لتخذلني خذلاناً كاملاً. ويخيّل إليّ أني لن أقوى على الذهاب إلى أبعد من هذا بكثير. هل سأقضي ليلتي هذه أيضاً طريدة منبوذة؟ وفيما يهطل المطر على هذا النحو، هل يتعيّن عليّ أن ألقي رأسي على التراب البارد المبلل! أنا أخشى أن لا أوفّق إلى غير ذلك:إذ من ذا الذي سوف يفتح بابه لاستقبالي؟ ولكن ذلك سوف يكون رهيباً جداً، وأنا على مثل هذه الحال من الجوع والإغماء والقشعريرة وهذا الشعور بالعزلة – هذا الانقطاع الكامل للرجاء. ولكنني سوف أموت، في أغلب

الظن، قبل منبلج الصباح. فلماذا لا أهيئ نفسي لتقبُّل هذا الاحتمال.. احتمال الموت؟ لماذا أناضل للاحتفاظ بحياة لا قيمة لها؟ لأني أعرف، أو أؤمن، أن مستر روتشيستر لا يزال على قيد الحياة، وإذن فالموت جوعاً أو برداً مصيرٌ لا تستطيع الطبيعة أن تستسلم له من غير مقاومة. أوه، أيتها العناية الإلهية! ادعميني بضع لحظات أخرى! ساعديني... سدّدي خطاي!».

وتاهت عيناي شبه الزجاجتين في البرية القاتمة المُضِبَّة، فأدركت أني قد أسرفت في الابتعاد عن القرية: كانت قد أمست وراء مرمي النظر تماماً. وحتى الحقول المحيطة بها كانت قد اختفت. وكنت قد اقتربت كرة أخرى – بما سلكت من طرق فرعية ودروب جانبية – من الأرض السبخة، فليس يفصلني عن الهضبة التي احتضنها الغسق غير بضعة حقول تكاد تكون مهملة عقيمة مثل نبات الخلنج الذي لم يُقْتلع منها إلاّ قليلاً.

وقلت في ما بيني وبين نفسي: «حسناً، إني لأوثر أن أقضي نحبي هناك، في شارع من الشوارع، أو على طريق يألفه السابلة. وإنه لخير لي ألف مرة أن تنقر الغربان والغربان السود – إذا ما كان في هذه الديار غربان سود – لحمي وتنتزعه عن عظمي من أن يُسْجن في كفن من أكفان الملاجئ ويفسد في قبر من قبور الشحاذين».

وهكذا عدت أدراجي إلى الهضبة. وبلغتها. ولم يبق عليّ إلا أن أجد حفرة أستطيع أن أضطجع فيها وأستشعر أني محجوبة عن الأنظار، على الأقلّ، إن لم أستشعر أني آمنة. ولكن أرض القفر كلّها بدت مستوية. إنها لم تتكشَّف عن أيما تفاوت إلا في اللون والصبغة: فهي خضراء حيث حجبت الطحالب وجه المستنقعات، وهي سوداء حيث لم تُطلع التربة الجافة غير نبات الخلنج. وعلى الرغم من الظلمة الهابطة فقد استطعت أن ألمح هذه الفروق، وإن بدت لي وكأنها مجرّد تعاقب أضواء وظلال: ذلك بأن اللون كان قد نَصَل مع نصول ضياء النهار.

وكانت عيناي ما تزالان تجولان في الهضبة المتجهمة وعلى طول حافة المستنقع المتلاشي وسط أراضٍ ليس ثمّة ما هو أشدّ منها إقفاراً عندما انبثق ضياء ما في نقطة قاتمة، بعيداً بين الأراضي السبخة والهضاب. فكان أول خاطر بدا لي هو أن هذا الضياء ليس إلاّ سراباً من السراب، سراباً توقّعت أن يتلاشى وشيكاً. بيد أنه ظلّ يتّقد في ثبات، من غير أن يتقدّم أو أن يتأخر. وتساءلت: «أهي، إذن، نار من نيران الابتهاج أُضرمت منذ لحظات؟» ورحت أراقبها لأرى ما إذا كانت سوف تنتشر وتمتد: ولكن لا، إنها لم تتعاظم، كما أنها لم تتضاءل. وعندئذ حدست قائلة: «قد تكون شمعة في بيت. ولكن إذا كانت كذلك فإني لن أوفّق إلى بلوغها أبداً. إنها بعيدة أكثر مما ينبغي: وحتى لو كانت على بعد ياردة واحدة مني ليس غير... أيُّ فائدة تُرتجى منها؟ إني لن أقرع الباب إلاّ لكي أراه يغلق في وجهي».

وانطرحت على الأرض حيث كنت واقفة وأخفيت وجهي في التراب. واضطجعت فترة من غير حراك. وهبّت رياح الليل على الهضبة وعلي، ثم تلاشت منتحبة في المدى البعيد. أما المطر فانهمر في قوة وعنف مبللاً ثيابي من جديد تبليلاً نفذ معه الماء إلى جلدي نفسه. ولو قد وُفّقت إلى مجرّد التصلّب تحت وطأة الصقيع الهادئ – خدر الموت الودود – من غير أن أحسّ به. ولكن لحم جسدي الذي كان لا يزال حياً ارتعد تحت تأثيره القارس. وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى نهضت.

كان الضوء لا يزال يلتمع، هناك، قاتماً – خلال المطر – ولكنه موصول غير منقطع. وحاولت أن أستأنف السير، فجررت قدمي المنهوكتين نحوه في تؤدة. فقادني الضوء إلى التصعيد، على نحو منحرف، في الهضبة. عبر مستنقع لو كان في شهور الشتاء لكان غير قابل للاجتياز.. مستنقع كان حتى في هذه الآونة، في غمرة الصيف، موحلاً يتطاير منه الرشاش. وههنا سقطت طريحة الأرض مرتين اثنتين، ولكني كنت في كلّ مرة أعاود النهوض وأحشد شتات قواي. كان ذلك الضوء هو أملي الأخير. وأن عليّ أن أبلغه بأية حال.

حتى إذا عبرت المستنقع رأيت أثراً من بياض فوق الأرض السبخة. فدنوت منه. كان طريقاً أو مجازاً، وكان يفضي مباشرة إلى ذلك الضوء الذي شعّ الآن من شبه رابية من الروابي، وسط باقة من الأشجار - أشجار الشربين، في ما يبدو، تبعاً لما استطعت أن أتبيّنه خلال العتمة من أشكالها وأوراقها. وتوارى نجمي الهادي فيما كنت أدنو منه: كانت عقبة ما قد اعترضت ما بيني وبينه. وبسطت يدي لأتلمَّس الكتلة المظلمة المنتصبة أمامي، فإذا هي سور خفيض خشن الحجارة. وفوق ذلك السور كان شيء أشبه بسياج من أعمدة خشبية، ووراء هذا السياج كان وشيع[1] عالٍ وشائك. فرحت أتلمَّس طريقي وسط الظلام. وكرة أخرى التمع أمامي شيء ضارب لونه إلى البياض. لقد كان باباً - أو على الأصح كوة من باب. ولم أكد أمسّها حتى استدارت على مفْصلاتها. وعلى كلا الجانبين كانت أية سوداء من السدْر الجبلي أو من شَرابة الراعي.

[1] سياج من نباتات وشوك.

حتى إذا نفذت من خلال الباب وتجاوزت الأعشاب بدا لناظري خيال بيت أسود، خفيض، هو إلى الطول أميل. بيد أن الضوء الهادي لم يشعّ في أيما موضع. كان الظلام يلفّ المكان كله. فهل كان نزلاء البيت مستسلمين للرقاد؟ لقد خشيت أن يكونوا كذلك. وفيما كنت أبحث عن مدخل البيت انعطفت حول إحدى الزوايا، وهناك انبثق الوميض الودود كرة أخرى، من زجاج ذي شكل ألماسي في نافذة صغيرة ذات شعرية قائمة على ارتفاع قدم واحد عن سطح الأرض.. نافذة زادها صغراً نمو شجرة لبلاب - أو ضرب آخر من النباتات المتعرشة - تعنقدت أوراقها كثيفة فوق موضع تلك النافذة من جدار البيت. وكانت النافذة مظلمة وضيّقة إلى حد جعل تزويدها بستار أو شعرية أمراً غير ضروري البتّة. وحين انحنيت وأزحت الأفنان المبرعِمة فوقها استطعت أن أرى ما في الداخل. كان في ميسوري أن أشهد، في وضوح، غرفة منظُّفة أحسن تنظيف مفروشة أرضها بالرمل، وخواناً من خشب الجوز نُضِّدَتْ فوقه صفوف من أطباق صفيحيَّة ينعكس منها احمرار وإشعاع

كاللذين ينبعثان من نار متوهجة بوقود من ترابٍ نفطيٍّ. وكان في ميسوري أن أرى ساعة جدار، وطاولة بيضاء من خشب الشوح، وبعض الكراسي. وبصرت بالشمعة، التي كان شعاعها مشعلي، تحترق فوق الطاولة. وعلى ضوئها كانت امرأة عجوزٌ، جافية المظهر بعض الشيء ولكنها نظيفة إلى حد مغالى فيه ككل شيء حولها، تحوك جورباً.

وإنما ألقيت على هذه الأشياء نظرة سريعة ليس غير، إذ لم يكن فيها أيما شيء استثنائي. وعلى مقربة من المستوقد كانت جماعة مخلدةً إلى السكينة في غمرة من الأمن والدفء الورديين اللذين كانا يغمرانه. لقد جلست ثمة شابتان أنيقتان – سيدتان بكل ما في لفظة «سيدة» من معنى – الأولى على كرسي خفيض هزَّاز، والأخرى على كرسي من غير ظهر وأشد انخفاضاً. وكانت كلتا الشابتين ترتدي ثياب حداد مخيطة من كريب أسود ونسيج صوفي مشوب بقطن، ثياباً أظهرت بقتامها محاسن جيدها ووجهها الناصعي البياض. وكان كلب ضخم يريح رأسه الهائل على ركبة إحدى الفتاتين، في حين كانت هرةٌ سوداء تجثم فوق وسادة في حجر الفتاة الأخرى.

ما كان أغرب هذا المطبخ المتواضع مستقراً لمثل هاتين السيدتين! ولكن من كانتا؟ لم يكن من المعقول أن تكونا بنتي المرأة العجوز الجالسة إلى تلك الطاولة، إذ بدت على وجهها أمارات الجلافة الريفية، في حين كانتا هما مثال الرقة والصقل. أنا لم أر قط في أيما مكان وجهين كوجهيهما، ومع ذلك فقد بدا لي، وأنا أرنو إليهما، أني على إلفة بكل قَسَمة من قسماتهما. أنا لا أستطيع أن أزعم أنهما كانتا وسيمتين – فقد كان في شحوبهما ورزانتهما المسرفتين ما يبعدهما عن الوسامة: لقد بدتا، وقد انكبّت كلٌّ منهما على كتاب تطالعه، مستغرقتين في التفكير حتى الصرامة تقريباً. وكانت تقوم بينهما منضدة عليها شمعة أخرى ومجلدان ضخمان كثيراً ما كانتا ترجعان إليهما، وكأنهما تقارنان ما بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا في أيديهما، فِعْلَ من يرجع إلى معجم يستعين به في مهمة الترجمة. والحق أن هذا المشهد كان صامتاً إلى درجة يخيّل معها للمرء أن جميع

الوجوه لم تكن غير ظلال، وأن الحجرة المضاءة بنار المستوقد لم تكن غير لوحة فنية. وكان كل شيء غارقاً في السكون حتى لقد استطعت أن أسمع قطع الوقود المحترقة تتساقط وراء شباك المستوقد، وساعة الجدار تتك في زاويتها المظلمة. بل لقد خُيّل إليَّ أني استطعت أن أسمع طقطقة إبرتي الحوك في يدي العجوز. حتى إذا عكّر هذا السكون العجيب صوتاً ما في آخر الأمر تناهى إلى أذني، ولا عجب، واضحاً مفهوماً.

– «اسمعى، يا ديانا!» كذلك قالت إحدى التلميذتين المستغرقتين فى المطالعة. «إن الليل ليلف كلاًّ من فرانز ودانيال العجوز، وأن فرانز ليروي حلماً استيقظ من غمرته مذعوراً. اسمعي!»

وفي صوت خفيض راحت تتلو شيئاً لم أفهم منه كلمة واحدة. ذلك بأنه كان مكتوباً بلغة مجهولة... ليست بالفرنسية وليست باللاتينية. ولم أستطع أن أجزم هل كانت تلك اللغة يونانية أم ألمانية.

وحين فرغت من التلاوة قالت: «هذا قوي جداً. وإني لأستسيغه». فما كان من الفتاة الأخرى، التي كانت قد رفعت رأسها لتصغي لأختها، إلآ أن كررت فيما هي تحدق إلى النار سطراً مما قرئ. وفي يوم تال عرفتُ اللغة والكتاب. ومن أجل ذلك سوف أقتبس ههنا ذلك السطر، على الرغم من أنه لم يكن حين سمعته أول مرة غير صوت مبهم شبيه بالضرب على نحاس رنان، فهو لا ينطوي على أي معنى:

«Da trat hervor Einer, anzusehen wie die Sternen Nacht».[1]

[1] «وتقدم أحدهم لينظر إلى النجوم في الليل». (المعرب)

وهتفت وقد التمعت عيناها السوداويان العميقتان: «جيد! جيد! إن لديك هنا وصفاً صادقاً لكبير ملائكة متجهم جبار! وهذا السطر يساوي مئة صفحة من الكلام الطنان:

Ich wage die Gedanken in der Schale mein es Zornes und die Werke mit dem»
Gewichte meines Grimms»..[2]

[2] «إني أزن الأفكار في ميزان غضبي، والآثار بمثقال سخطي». (المعرب)

أنا أحب هذا!».

واعتصمت كلتاهما بالصمت من جديد،

وتساءلت المرأة العجوز رافعة بصرها عن حبكها: هل ثمة بلاد يتكلّم الناس فيها بهذه الطريقة؟»

– «أجل، ياحنة، وإنها لبلاد أكبر من إنكلترة بكثير، بلاد لا يتكلمون فيها بأية طريقة أخرى».

– «حسن، ولكن الشيء الثابت هو أني لا أفهم كيف يستطيع أحدهم أن يفهم الآخر. ولو قد ذهبت إحداكما إلى هناك فهل تستطيع أن تفهم ما يقولون؟»

– «في استطاعتنا أن نفهم بعض ما يقولونه ليس كله... لأننا لسنا من البراعة بقدْر ما تحسبيننا، ياحنة، نحن لا نتكلم الألمانية، ولا نستطيع أن نقرأها من غير قاموس يعيننا على ذلك».

– «وأي فائدة تجنيانها من هذه اللغة؟»

– «نحن نعتزم أن ندرِّسها في يوم من الأيام... أو على الأقل أن ندرِّس مبادئها، كما يقولون. وعندئذ سوف نكسب قدراً من المال أكبر من الذي نكسبه الآن».

– «محتمل جداً. ولكن كفاكما درساً. لقد بذلتما جهداً غير يسير هذه الليلة».

– «أظن أننا قد بذلنا. أنا، على الأقل، أستشعر تعباً. فهل أنت متعبة مثلي، يا ماري؟»

– «حتى الهلاك وعلى أيَّة حال فإنها لمهمة عسيرة أن يكدح المرء في درْس لغة ما وليس لديه من يعلِّمه إياها غير معجم من المعاجم».

– «هذا صحيح. وبخاصة إذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقدة المربكة، على الرغم من أنها مجيدة. ترى، متى سيعود سانت جون؟»

– «لا ريب في أنه لن يتأخر أكثر مما فعل. الساعة الآن هي العاشرة تماماً (قالت ذلك، ناظرة إلى ساعة ذهبية صغيرة أخرجتها من زنارها). إن المطر ينهمر في قوة. هل لك يا حنة أن تتكرمي بإلقاء نظرة على النار في حجرة الجلوس؟»

فنهضت المرأة، وفتحت باباً رأيت من خلاله – على نحو باهت – ممراً أو مجازاً. وسرعان ما سمعتها تثير جمرات نار موقدة في حجرة داخلية.

ثم إنها ما لبثت أن عادت وقالت: آه، يا صغيرتي! يؤلمني أشدّ الإيلام أن أمضي الآن إلى تلك الحجرة التي هناك. إنها لتبدو موحشة جداً بذلك الكرسي الخالي المنحّي في إحدى الزوايا»

وكفكفت عبراتها بفضل مئزرها. فإذا بالفتاتين، اللتين كانتا متجهمتي الوجه من قبل، تصبحان محزونتين.

وتابعت حنة كلامها: «ولكنه الآن في موطن أفضل. وليس ينبغي لنا أن نتمنى لو يعود إلى هنا. وفوق هذا، فإن أحداً لا يمكن أن يموت ميتة أكثر هدوءاً من ميتته».

فسألتها إحدى السيدتين: «تقولين إنه لم يذكرنا البتة؟»

– «لم يكن لديه متّسع من وقت، يا بنيَّتي: لقد قضى أبوك نحبه في دقيقة واحدة. كانت صحّته قد اعتلّت، في اليوم السابق، بعض الشيء، ولكن ذلك لم يكن أمراً ذا بال. وعندما سأله مستر سانت جون ما إذا كان يودّ أن يبعث في طلب أيّ منكما سخر منه. ثم استقبل اليوم التالي وفي رأسه شيء من الثقل – وكان ذلك منذ أسبوعين اثنين – وآوى للرقاد ثم لم يفق بعد ذلك قط. حتى إذا دخل أخوكما

الحجرة عليه وجده شبه متصلّب. آه، يا صغيرتي! لقد كان هو بقية السلف الصالح لأنكما أنتما ومستر سانت جون من ضرب آخر مختلف عن أولئك الذين قضوا نحبهم من أفراد الأسرة. لقد كانت أمكما مثلكما تماماً، وكانت مثقفة مثلكما تماماً. والواقع أنك صورة عنها، يا ماري. أما ديانا فتشبه أباها أكثر».

بيد أنني حسبتهما متماثلتين إلى أبعد حدود التماثل، ولم أر أين وجدت الخادم العجوز (ذلك أني استنتجت الآن أنها كانت خادماً) ذلك الفرق. فقد كانت كل منهما بيضاء البشرة ممشوقة القوام، وكان لكلّ منهما وجه يتّسم بالامتياز والذكاء. غير أن شعر إحداهما كان أشدّ سواداً إلى حدّ لا يكاد يَبيْن، من شعر الأخرى، وأنه كان ثمة اختلاف في طريقة تسريحه. فأما شعر ماري الداكن بعض الشيء فكان مفروقاً ومجدولاً جدلاً منسدلاً، وأما ضفائر ديانا الأشد حلكة فكانت تغطي جيدها بحُلَيقات كثيفة. وأعلنت ساعة الحائط العاشرة مساء.

فقالت حنة: «أنا واثقة من أنكما تريدان أن تتناولا طعام العشاء. وكذلك سيكون مستر سانت جون راغباً في تناول الطعام عندما يعود».

وشرعت تُعدّ المائدة. ونهضت السيدتان، وبدتا على وشك الانصراف إلى حجرة الجلوس. وكنت قد عكفت – حتى تلك اللحظة – على تأملهما، وكان مظهرهما وحديثهما قد أثار اهتمامي أعظم ما تكون الإثارة حتى لقد نسيت، أو كدت، وضعيَ البائس. أما الآن فسرعان ما تذكرته. فبدالي، على ضوء المقارنة بين حالي وحاليهما أني كنت أشد بؤساً وأعظم يأساً من أيما وقت مضى، وأن من المتعذّر أن أستثير عطف نزلاء هذا البيت وأوفّق إلى حملهم على العناية بأمري – أن أقنعهم بصدق ما اقاسيه من عوز وبلايا، وأن أغريهم بمنحي ملاذاً يقيني من التشرّد! حتى إذا تلمّست طريقي نحو الباب وقرعته في تردد استشعرت أن الفكرة الأخيرة لم تكن غير وهم من الأوهام.

وفتحت حنة، وسألتني في صوت يغلب عليه الدهش فيما كانت تقلِّب طرفها فيَّ على ضوء الشمعة التي حملتها: «ماذا تريدين؟»

فقلت: «هل تسمحين لي أن أتحدّث إلى سيدتك؟»

- «من الخير لك أن تخبريني بما تريدين أن تقوليه لهما. من أين أنت مقبلة؟»

- «أنا غريبة».

- «وما الذي جاء بك إلى هنا في مثل هذه الساعة؟»

- «إني ألتمس المبيت هذه الليلة في سقيفة أو زريبة أو أيما مكان آخر، وكسرة من خبز أتبلّغ بها».

فبدت على وجه حنة أمارات الارتياب - ذلك الشعور عينه الذي كنت أخشاه وأرهبه - وقالت بعد تمهل: «سوف أعطيك كسرة خبز، ولكننا لا نستطيع أن نؤوي متشرّدة. هذا غير ملائم».

- «أتوسّل إليك أن تدعيني أخاطب سيدتيك».

- «لا. لست أنا من تقدم على ذلك. وما الذي تستطيعان أن تفعلاه من أجلك؟ إنه ليس من حقك أن تتسكعي الآن في الطرق. يبدو لي أن هذا شنيع جداً».

- »ولكن أين أذهب إذا ما طردتني؟ ما الذي سوف أصنعه؟»

- «أوه، أنا أؤكد لك أنك تعرفين إلى أين تذهبين وما الذي يجب أن تفعليه. ولكن حذار أن تقارفي إثماً، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك. إليك هذا البنس، وامضي الآن لسبيلك... »

- «هذا البنس لا يستطيع أن يغنيني من جوع، ولم تبق لي قدرة على السير أكثر ممّا فعلت. لا توصدي الباب في وجهي... أوه، لا توصديه إكراماً لله!».

- «يتعيّن عليّ أن أفعل. إن المطر يتسرب إلى الداخل...».

- «أخبري السيدتين... دعيني أراهما...».

– «لن أفعل ذلك من غير ريب. أنت لست ما ينبغي أن تكوني، وإلا لما أحدثتِ مثل هذه الضجة كلها. انصرفي!».

– «ولكني لا بد أن أموت إذا طُرِدت من هنا».

– «لست أنت من تموت إذا طُرِدت. وإني لأخشى أن تكون لك أهداف شريرة تحدو بك إلى طرق أبواب بيوت الناس في مثل هذه الساعة من الليل. وإذا كان لك بعض الأتباع – من سُرَّاق البيوت أو ما شابه – في مكان غير بعيد، ففي استطاعتك أن تخبريهم أننا لا نقيم وحدنا في هذا المنزل، وأن لدينا رب بيت وكلاباً وبنادق».

وهنا أغلقت الخادمة الأمينة، ولكن العنيدة القاسية الفؤاد، باب البيت، وأحكمت إيصاده بالمزلاج.

عندئذ بلغ السيل الزبى. لقد مزّقت قلبي وورَّمته غصة من ألم مبرَّح وكربٌ من قنوط حقيقي. كنت منهوكة القوى حقاً، ولم يكن في ميسوري أن أخطو خطوة أخرى. فتهالكت على عتبة الباب المبللة... وأخذت أئن... وأعتصر يديّ... وأبكي في لوعة ليس وراءها لوعة. أوه، هو ذا شبح الموت! أوه، هي ذي الساعة الأخيرة تدنو بمثل هذا الهول كله! وأسفاه، أأموت في هذه العزلة وهذا الإقصاء عن بني جنسي! أنا لم أفقد الأمل في إلقاء مرساتي في بيت ما، فحسب، بل فقدت موطئ الجَّلَد والثبات أيضاً – طوال فترة قصيرة على الأقل. ولكني سرعان ما ناضلت لاسترداد موطئ القدم هذا.

وقلت: «لم أعد أقدر على شيء غير الموت. وإني لأؤمن بالله. فلأحاول أن أنتظر مشيئته في صمت».

هذه الكلمات لم أقلها بفكري بحسب، بل قلتها بشفتي أيضاً. ثم إنني رددت بؤسي كله إلى فؤادي، وبذلت جهداً غير يسير لكي أبقيه هناك، أخرسَ ساكناً.

فقال صوت على مقربة دانية مني: «لقد كتب الموت على الناس جميعاً، ولكن لم يُكتب على الناس كلهم أن يلقوا مثل هذه الميتة المتطاولة، الفطيرة، التي ستنتهين إليها إذا ما قضيت نحبك هنا جوعاً وعوزاً».

وتساءلت، وقد روّعني الصوت اللا متوقع وأمسيت عاجزة عن أن أرى في أيما حادثة، مهما تكن، بصيص أمل في العثور على عون: «من الذي، أو ما الذي، يتكلم؟» كان ثمة شبح قريب مني، ولكن الليل ذا الظلام الحالك و بصري الذي أصابه الوهن حالا بيني وبين تبيُّنه. وأنشأ الوافد الجديد يطرق الباب طرقاً عنيفاً طويلاً:

فصاحت حنة: «أهذا أنت، يا مستر سانت جون؟»

– «أجل.. أجل.. افتحي في سرعة».

– «حسناً، ولا ريب في أنّك تشكو البرد والبلل في مثل هذه الليلة الضارية! ادخل... إن أختيك قلقتان عليك أعظم القلق، وأنا أعتقد أن بعض الأشرار يحومون حول البيت ويتربّصون بنا الدوائر... فقد وفدت علينا، منذ لحظات، شحاذة.. ولكنها لمَّا تنصرف بعد! إنها منطرحة على الأرض هناك. انهضي! يا للعار! أقول لكِ امضي لسبيلك!».

– «صه، يا حنة! إن لدي كلمة أريد أن أقولها لهذه المرأة. لقد أدَّيتِ أنت واجبك بطردها، فدعيني أؤدي أنا واجبي بإدخالها. فقد كنت واقفاً غير بعيد فأصغيت إليك وإليها. ويُخيّل إليّ أن هذه حالة استثنائية، وأن من واجبي أن أدرسها على الأقل. أيتها الشابة، انهضي وتقدميني إلى البيت».

فصدعت بما أمرني في صعوبة وعسر. وسرعان ما وجدت نفسي واقفة ضمن جدران ذلك المطبخ النظيف المشرق، أمام المدفأة نفسها، وأنا أرتجف وأغالب الإغماء، وأعي أن مظهري لا بد أن يكون غاية الغايات في الشحوب، وانتفاش

الشعر، والإرهاق من جرّاء السير تحت المطر والرياح. كانت السيدتان، وأخوهما سانت جون، والخادمة العجوز، كلّهم يحدقون إليّ.

وسمعت إحداهنّ تسأله: «سانت جون، من هذه. المرأة؟»

فكان الجواب: »لست أدري. لقد وجدتها بالباب»

فقالت حنة: «إنها تبدو شاحبة جداً».

– «بل إنها شاحبة شحوب الصلصال أو الموت. وهي توشك أن تقع مغشياً عليها. دعيها تجلس».

والواقع أن الدوار كان يعصف برأسي. وهويت. ولكن أحد الكراسي تلقّاني. كنت لا أزال مالكة زمام حواسي، برغم أني كنت عاجزة في تلك اللحظة عن الكلام.

– «لعلّ شيئاً من الماء قادر على إنعاشها. ائتيني بقليل منه، يا حنة. ولكن الضنى قد أنهكها فلم يبق منها غير الجلد والعظم. آه، ما أشدّ هزالها، وما أعظم امتقاع لونها!».

– «إنها مجرّد شبح».

– «أهي مريضة أم جائعة وحسب؟»

– «جائعة، في ما أظن. هل هذا لبن، يا حنة؟ ائتيني به وبكسرة من خبز».

فكسرت ديانا (لقد عرفتها من جدائلها الطويلة التي رأيتها تنسدل بيني وبين النار عندما انحنت فوقي) شيئاً من خبز وغمسته في اللبن، ووضعته في فمي. كان وجهها على مقربة من وجهي: لقد رأيت علائم الإشفاق فيه، واستشعرت المشاركة الوجدانية في أنفاسها المتسارعة. وبكلماتها البسيطة، أيضاً، تكلمت العاطفة البلسمية نفسها فقالت: «حاولي أن تأكلي».

فكررت ماري في لطف: «أجل... حاولي».

ونزعت يد ماري قبعتي المبللة ورفعت رأسي. وذقت ما قدّموه إليّ،

على نحو واهن، أولاً، ثم في لهفة بعد ذلك.

وقال سانت جون: «ليس ينبغي لها أن تُسرف في الطعام أول الأمر.. اكبحي جماحها... لقد أصابت منه مقداراً كافياً». وأقصى كوب اللبن وطبق الخبز عني.

– «دعها تصيب مقداراً إضافياً قليلاً، يا سانت جون، انظر إلى النهم في عينيها».

– «لا. يجب أن لا تعطى مزيداً، في الوقت الحاضر، يا أختاه. حاولي أن تري ما إذا كان في ميسورها الآن أن تتكلم. اسأليها ما اسمها».

واستشعرت أني قادرة على الكلام، فأجبت: «اسمي جين ايليوت».ذلك بأن حرصي، أكثر من أيما وقت مضى، على أن لا يكتشف هويتي أحد كان قد دعاني إلى توطين النيّة على اصطناع اسم مستعار.

– «وأين تقيمين؟ أين أهلك؟»

فاعتصمت بالصمت.

– هل نستطيع أن نستدعي أحداً من معارفك؟»

– «فهززت رأسي».

– «هل تستطيعين أن تروي لنا قصّتك؟»

وبطريقة ما، لم أعد أشعر – بعد أن اجتزت عتبة هذا المنزل ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع أصحابه – أني منبوذة، متشردة، أنكرها العالم كله. من أجل ذلك جرؤت على اطِّراح صفة المتسوّلة، واستعادة شخصيتي ومسالكي الطبيعية. وشرعت أعرّف نفسي، مرّة أخرى. حتى إذا سألني مستر سانت جون أن أروي

قصّتي – وهو شيء كنت آنذاك أضعف من أن أقوى على أدائه – قلت بعد تمهل وجيز: «سيدي، ليس في استطاعتي أن أقدم إليك الليلة أيّة تفاصيل».

فقال: «ولكن ما الذي تتوقعين مني، إذن، أن أفعله من أجلك؟»

–«فأجبته: «لا شيء».

كانت قوّتي لا تساعدني على أكثر من الرد بأجوبة قصيرة. فتولّت ديانا الكلام قائلة: «هل تعنين أننا قد أسدينا إليك العون الذي تبتغينه؟ وأن في ميسورنا أن نسرِّحك لتعودي إلى الأرض السبخة والليل الممطر؟»

ونظرت إليها. كانت لها، في ما خُيِّل إليّ، سماه أخّاذة تميّز بالقوة والطيبة في آن معاً. وآنست في نفسي شجاعة مفاجئة. وإذ أجبت عن نظرتها الرءوف بابتسامة قلت: «إن لي ثقة فيكم. وأنا أعرف أني لو كنت كلباً ضالاً لا سيّد له لما طردتموني من مستوقدكم الليلة. وهكذا فإني لا استشعر خوفاً البتة. افعلوا بي ومن أجلي ما تشاؤون، ولكن اعفوني من الإسراف في الكلام – إن أنفاسي لقصيرة، وإني لأستشعر أن التشنج يستبدّ بي كلما تكلمت».

وراح الثلاثة ينظرون إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، واعتصموا كلهم بالصمت.

وأخيراً، قال سانت جون: «حنة، دعيها تقعد هناك مؤقتاً، ولا توجّهي إليها أيّ سؤال. وبعد عشر دقائق أعطيها بقية ذاك اللبن وذلك الخبز. ولنذهب، يا ماري وديانا، إلى حجرة الجلوس ونتحدث في المسألة».

وانسحبوا. وما هي إلاّ لحظات حتى عادت إحدى السيدتين – ولم أستطع أن أجزم أكانت هي ماري أم ديانا. وكان ضرب من الخدر العذب يتمشّى في مفاصلي وأنا قاعدة على مقربة من النار الأنيسة. وفي كلمات مهموسة، أصدرت إلى حنة بعض التعليمات. ولم تمض غير دقائق حتى رحت أبذل قصارى جهدي، مستعينة بالخادمة، لارتقاء درجات سلم ما. ونُزِعت ملابسي. وسرعان ما استقبلني فراش

دافئ جاف. وحمدت الله... وراودتني وسط إعياء لا سبيل إلى وصفه، حميًّا ابتهاج مقرون بعرفان الجميل... واستسلمت للرقاد.

[29]

إني لا أذكر الأيام الثلاثة والليالي التي تلت ذلك إلاّ ذكرى مبهمة جداً. في استطاعتي أن أتذكّر بعض المشاعر التي خامرتني خلال تلك المدّة، ولكني لا أتذكّر إلاّ قلّة قليلة من الأفكار التي راودتني: أما الأعمال التي قمت بها فلست أتذكر منها شيئاً البتة. لقد عرفت أني كنت في حجرة صغيرة، وفي سرير ضيق. ولقد بدا لي أني كنت مشدودة إلى ذلك السرير شداً: لقد اضطجعت فيه. جامدة كالحجر، وكان انتزاعي منه خليقاً به أن يفضي إلى قتلي أو يكاد. ولم أفطن قط إلى تصرُّم الزمن – إلى تحوّل الصباح إلى ظهر، والظهر إلى مساء. لقد لاحظت دخول الداخلين إلى الحجرة وخروج الخارجي منها. بل لقد كان في ميسوري أن أعرفهم بأسمائهم، وكان في طوقي أن أفهم ما يقال كلما اتّفق أن كان المتكلم واقفاً على مقربة مني، ولكنني كنت عاجزة عن الإجابة. فقد كان من المتعذّر عليّ أن أفتح شفتي وأن أحرّك أطرافي، على حدّ سواء. وكانت حنة، الخادمة أكثر القوم اختلافاً إلى حجرتي. وكان وفودها عليّ يزعجني: كنت أشعر أنها حريصة على إبعادي عن المنزل، وأنها لم تفهمني أو لم تفهم ظروفي، وأنها كانت متحاملة عليّ. أما ديانا وماري فكانتا تفدان على حجرتي مرة أو مرتين في اليوم. وكان من دأبهما أن تتهامسا بمثل هذه الجمل، أمام سريري:

– «لقد أحسنّا صنعاً، إلى حدّ بعيد، بإيوائنا إيّاها».

– «أجل. ولو قد تُرِكت طوال الليل خارج البيت إذن لكان خليقاً بنا أن نجدها في الصباح جثة هامدة طريحة لدى الباب. ليت شعري أي خطب ألمَّ بها؟»

– «يُخيّل إلي أنها قاست شدائد عجيبة. يا لها من متشردة بائسة مهزولة شاحبة الوجه!»

– «يبدو لي، من طريقتها في الكلام، أنها ليست امرأة غير مثقفة. إن نبرتها صافية كلّ الصفاء، ولقد كانت الملابس التي خلعتها – برغم ما أصابها من وحل وبلل – ملابس مترفة شبه جديدة».

– «إن لها لوجهاً فريداً، وأني لأحبه على الرغم من هزاله وشحوبه. ويُخيل إلي أن سيماءها سوف تكون، يوم تستردّ صحتها وعافيتها، مستحبة قريبة إلى النفس».

ولم أسمع في محاوراتهما، ولو مرة واحدة، أيما كلمة تنمّ عن ندم على ما أحاطتاني به من حسن ضيافة، أو عن ارتياب فيَّ أو كره لي. ولقد كان في ذلك ما سرّى عني.

ولم يفد مستر سانت جون على حجرتي إلا مرة واحدة: لقد نظر إلي وقال إن حالة السبات التي غلبت علي ناشئة عن إعياء شديد لمدة طويلة. وأعلن أن ليس ثمة حاجة إلى استدعاء طبيب، وأنه واثق من أن الطبيعة، إذا ما تُرِكت وشأنها، سوف تصلح ما فسد. لقد قال إن كل عصب من أعصابي كان مرهقاً بطريقة ما، وإن الجهاز العصبي كله يجب أن يخلد إلى السكينة والرقاد فترة من الزمن، وإنني لا أشكو أيما داء، وإنه يميل إلى الاعتقاد بأني ما إن أشرع في استرداد العافية حتى أنعم بالشفاء على نحو عاجل. وإنما عبّر عن هذه الآراء في كلمات معدودات، وفي صوت خفيض هادئ. ثم أضاف، بعد تمهُّل، في نبرة رجل لم يألف التبسط في الشرح والتعليق إلاّ قليلاً: «سحنة غير عادية... لا تنمّ من غير شك عن ابتذال أو حطّة».

فأجابته ديانا قائلة: «بل إنها أبعد ما تكون عن الابتذال والحطة أقول لك الحق، يا سانت جون، إن قلبي ليأسى لهذه النفس الصغيرة البائسة ويعطف عليها. ولشدَّ ما أتمنى لو نستطيع أن نسدي إليها عوناً».

فكان الجواب: «لسوف تجدين عمّا قريب أنها شابة نشأ بينها وبين أهلها سوء تفاهم، وأنها في أغلب الظن قد هجرتهم من غير ما روية ولا تبصّر. ومن يدري،

فلعلنا أن نوفّق إلى إعادتها إليهم، إذا لم تتكشف عن تصلّب في الرأي. ولكني ألمح إمارات العناد على وجهها، وهذا ما يجعلني أعتقد أنها لن تكون سهلة الانقياد». وراح يتأملني بضع دقائق، ثم أضاف: «إنها تبدو ذكية، ولكنها غير وسيمة البتة».

– «ولكنها رازحة تحت وطأة المرض، يا سانت جون».

– «تحت وطأة المرض أو تحت وطأة الصحة... إنها سوف تظل دميمة أبد الدهر. هذه الأسارير يعوزها بهاء الجمال وتناغمه».

في اليوم الثالث، غدوت أحسن حالاً. وفي اليوم الرابع أمسى في ميسوري أن أتكلم، وأتحرّك، وأرفع نفسي وأتقلّب في الفراش من جنب إلى جنب. وحوالي موعد الغداء، في ما أحسب، حملت إليّ حنة، بعض الثريد وقطعة من خبز محمص. فأكلت في شهية: كان الطعام جيداً، خلواً من نكهة الحمى التي كانت قد سممت كل ما ازدردته حتى ذلك الحين. وعندما فارقتني حنة استشعرت قوة ونشاطاً نسبيين. وما هي غير فترة يسيرة حتى ضقت ذرعاً بالراحة الموصولة وحتى استحوذت عليّ رغبة في التحرّك والعمل. لقد نزعت إلى مغادرة الفراش، ولكن أي شيء أرتدي؟ لم يكن عندي غير ملابسي الملطخة بالوحل... تلك التي نمت بها على الأرض وهويت بها في المستنقع. واستشعرت الخجل من أن أظهر بتلك الملابس أمام من أحسنوا إليَّ، ولكني سرعان ما كفِيْت هذا الهوان.

فعلى كرسي إلى جانب سريري كانت ثيابي كلها، نظيفة جافة. وكان فستاني الحريري الأسود معلقاً على الحائط، وقد أُزيلت منه آثار الوحل وتلك التغضنات التي كان البلل قد أحدثها فيه: لقد كان في وضع حسن. وحتى حذائي وجوربي كانا قد نُظِّفا وجُعلا لائقين. وفي الحجرة أيضاً كانت جميع أسباب الاغتسال، ومشط وفرشاة لكي أستعين بهما على تسريح شعري. وبعد جهود جاهدة، كنت أخلد خلالها إلى الراحة مرة كل خمس دقائق، وفقت إلى ارتداء ملابسي واتّخاذ زينتي. وتهدّلت ملابسي على جسدي، بسبب من الهزال الذي ألَمَّ بي، ولكني حجبت هذه العيوب بشالي. حتى إذا استعدت مظهري النظيف اللائق – فليس فيه لطخة من قذر وليس

فيه أيما أثر من آثار الاضطراب الذي أمقته أشدُّ المقت والذي بدا وكأنه ينْزل بي أعظم المهانة – تحاملت على نفسي ورحت أهبط، مستعينة بالدرابزون، سلماً حجرية أفضت بي إلى مجاز ضيق خفيض. وسرعان ما اكتشفت طريقي إلى المطبخ.

كان المطبخ عابقاً كله بعبير الخبز الطازج، ودفء نار حسنة الضرام. كانت حنة تخبز. ومعروف لدى الخاص والعام أن من أعسر العسير استئصال جذور التحامل من قلب لم تدمِّث الثقافة تربته أو لم تُصطنع في إخصابها، لأنها تمتد راسخة ثابتة كالأعشاب الضارة بين الحجارة. والواقع أن حنة وقفت مني بادئ الأمر موقفاً بارداً قاسياً، ثم شرعت تلين بعد ذلك بعض الشيء. وعندما رأتني أدخل عليها المطبخ أنيقة حسنة البزة ذهبت إلى حد استقبالي بابتسامة.

وقالت: «ماذا؟ لقد نهضت من فراشك؟ أنت إذن أحسن حالاً. في ميسورك أن تجلسي على كرسي إلى جانب المستوقد، إذا شئت».

وأشارت إلى الكرسي الهزّاز، فاستويت عليه. ثم إنها انهمكت في عملها بهمّة ونشاط، مختلسة النظر إليّ بين الفينة والفينة. وفيما كانت تخرج بعض الأرغفة من الفرن، التفتت إليّ، وسألتني في فظاظة:

– «هل لجأت إلى التسوّل، في أيما يوم من الأيام، قبل أن تجيئي إلى هنا؟»

وعصف بي السخط لحظة. حتى إذا تذكرت أن الغضب كان أمراً غير وارد، وأني كنت قد بدوت لها في الواقع في مظهر شحاذة، أجبتها في هدوء، ولكن في شيء من الحزم الصارخ:

– «أنت تخطئين إذ تتوهمينني شحاذة. أنا لست بالشحاذة... إلاّ إذا كنت أنت وكانت سيدتاك الشابتان من زمرة الشحاذين!».

وبعد تمهل قالت: «أنا لا أفهم ذلك. إنك فتاة لا بيت لها ولا نحاس، في ما أظن؟»

- «إن افتقار المرء إلى بيت ونحاس (الذي تعنين به المال، على ما أحسب) لا يجعل منه شحاذاً بالمعنى الذي تفهمينه من الكلمة».

فسألتني على التو: «هل أنت متعلمة؟»

- «أجل، إلى حدّ بعيد».

- «ولكنك لم تلتحقي قط بمدرسة داخلية!»

- «لقد سلخت ثمانية أعوام في إحدى المدارس الداخلية».

ففتحت عينيها أوسع ما استطاعت أن تفتحهما، وقال: « وإذن، فما الذي يجعلك عاجزة عن كسب رزقك بنفسك؟»

- «لقد كسبت رزقي بنفسي وإني لآمل أن أوفّق إلى كسبه في المستقبل، مرّة أخرى. ما الذي تعتزمين أن تفعليه بعنب الثعلب هذا؟»

- «كذلك سألتها عندما جاءت بسلة حافلة بذلك الثمر.

- «سوف أصنع منه بعض المعجنات».

- «هات لأساعدك فأنتقي الجيد منه».

- «لا أنا لاأريدك أن تأتي عملاً ما».

- «ولكني يجب أن أعمل شيئاً. ادفعي الثمار إليّ».

ووافقت آخر الأمر. ليس هذا فحسب، بل إنها جاءتني بمنشفة نظيفة لكي أنشرها فوق فستاني، «خشية أن أوسخه» كما قالت.

ولاحظت قائلة: «إن يديك توحيان إليّ بأنك لم تتعوّدي الخدمة المنزلية من قبل. هل كنت خياطة؟»

– «لا. لم أكن خيّاطة. والآن، دعي عنك ما كنته من قبل. لا تشغلي بالك بأمري أكثر مما فعلت. ولكن قولي لي ما اسم المنزل الذي نحن فيه».

– «بعضهم يدعونه «مارش اند»، وبعضهم يدعونه «مور هاوس».

– «والسيد الذي يقيم هنا يدعى مستر سانت جون؟».

– «لا. إنه لا يقيم هنا: فهو لن يمكث غير فترة يسيرة. وسيعود إلى موطنه، إلى أبرشيته في مورتون».

– «تلك القرية الواقعة على مبعدة بعضة أميال؟»

– «نعم».

– «وما عمله؟؟»

– «إنه قسيس».

عندئذ تذكّرت جواب مدبرة المنزل العجوز في بيت راعي الكنيسة عندما التمست مقابلة القسيس فقلت: «إذن، فهذا هو بيت أبيه؟»

– «نعم، لقد عاش مستر ريفرز العجوز هنا، وكذلك عاش أبوه، وجده، وجده الأعلى من قبله».

– «وإذن فاسم ذلك السيد هو مستر سانت جون ريفرز؟».

– «نعم. إن «سانت جون» هو اسمه الصغير كما يقولون».

– «وأختاه تدعيان ديانا وماري ريفرز؟»

– «نعم».

– «وقد مات أبوهم، أليس كذلك؟»

– «مات منذ ثلاثة أسابيع بضربة شلل».

– «أليس لهم أم؟»

– «لقد توفيت سيدتي منذ سنوات عديدة».

– «وهل عشت مع هذه الأسرة طويلاً؟»

– «ثلاثين سنة. ولقد ربيت الأولاد الثلاثة جميعاً».

– «هذا يثبت أنك كنت طوال هذه الفترة خادمة أمينة مخلصة. أقول لك هذا برغم أنك لم تتورعي عن الزعم أني شحاذة».

فحدّقت إليّ بنظرات ترشح بالدهش، وقالت: «أعتقد أني كنت مخطئة تماماً في رأيي فيك. ولكن كثيراً من الماكرين والماكرات يختلفون إلى هذه، البقعة... ومن أجل ذلك يتعيَّن عليك أن تغفري لي».

فتابعت، في نبرة هي إلى القسوة أقرب: «برغم أنّك أردت أن تطرديني عن باب البيت، في ليلة ما كان من حقك أن تطردي فيها كلباً».

– «حسناً، لقد كنت قاسية عليك: ولكن ما الذي يستطيع المرء أن يفعله؟ لقد فكرت بالفتاتين الصغيرتين أكثر ممًا فكرت في نفسي. يا للمخلوقتين البائستين! إذ ليس لهما من يعنى بهما غيري. وخليق بي أن أنزع إلى الحدّة في بعض الأحيان».

واعتصمت، بضع دقائق، بصمت كئيب. فلاحظت من جديد: «يجب ان لا تقسي، أكثر مما يجب، في الحكم عليّ».

فقلت: «ولكني لا أستطيع إلاّ أن أقسو عليك، ولسوف أقول لك لماذا... أنا لا أقسو عليك لأنك رفضت إيوائي أو اعتبرتني محتالة بقدر ما أقسو عليك لأنّك جعلت الآن من افتقاري إلى «نحاس» ودارٍ مطعنا علي وموضوعاً لتعييري. إن جمهرة من أفضل الذين اقلّتهم الأرض كانوا لا يقلّون عني عوزاً. وإذا كنت مسيحية فيتعيّن عليك أن لا تعتبري الفقر جريمة».

فقالت: «لن أعتبره كذلك منذ اليوم. إن مستر سانت جون يقول لي ذلك أيضاً، وإني أدرك أني مخطئة.. ولكني كوَّنت الآن فكرة جديدة عنك تختلف عن فكرتي السابقة كل الاختلاف. إنك تبدين لي مخلوقة صغيرة محترمة إلى أبعد حد».

– «كفي... إني أغفر لك الآن. صافحيني!».

فوضعت يدها الصلبة المغبَّرة بالدقيق في يدي. وأضاءت وجهها الجافي ابتسامة أخرى أحفل بالصدق والحرارة. ومنذ تلك اللحظة توثّقت بيننا عرى الصداقة.

كانت حنة مولعة بالكلام، من غير ريب. وفيما كنت أفصل رديء الثمار عن جيّدها وفيما كانت هي تعدّ الرقاقات لصنع المعجّنات راحت تقدّم إليّ تفاصيل شتّى عن سيدها الفقيد وسيدتها المرحومة وعن «الصغيرتين» كما كانت تدعو بنتيهما الشابتين.

لقد قالت إن مستر ريفرز العجوز كان رجلاً ساذجاً إلى أبعد الحدود ولكنه كان سيداً ماجداً ينتمي إلى أسرة من أعرق الأسر. وقالت إن «مارش اند» كان، منذ إنشائه، ملكاً لآل ريفرز، وأكّدت أن «إنشاءه يرقى إلى مئتي عام خلت. إنه لم يكن غير بيت صغير متواضع، بالقياس إلى قصر مستر أوليفر الضخم القائم في وادي مورتون. ولكنها لا تزال تذكر أبا «بيل أوليفر»، وكان صانع أبر مترحلاً. ولقد كان آل ريفرز من أثرياء الطبقة الوسطى على عهد ملوك إنكلترة القدامى المتّخذين اسم هنري، وهو شيء يستطيع كل امرئ أن يدركه بالاطلاع على السجّلات المحفوظة في كنيسة مورتون».ومع ذلك فقد «كان السيد العجوز مثل سائر القوم، يسلك مسالكهم ويلتزم عمودهم: كان مفتوناً بالصيد والزراعة وما شابههما». أما السيدة فكانت من طراز مختلف. كانت مولعة بالمطالعة، منكبة على الدرس، ولقد حذا «صغارها» حذوها في ذلك. لم يكن في هذه الديار نظير لهم، ولم يُوجد قطّ مثل ذاك النظير في أيما وقت مضى. لقد أولعوا، ثلاثتهم، بالمطالعة، منذ أن جرت ألسنتهم بالنطق تقريباً. ولقد كانوا دائماً من نسيج مختلف عن نسيج الآخرين. ولم

يكد مستر سانت جون يبلغ الحلم حتى التحق بالكلية وأمسى قسيساً. أما الفتاتان فلم تكادا تغادران المدرسة حتى بحثتا عن العمل كمربيتين: ذلك بأنهما أخبرتاها أن والدهما كان قد فقد منذ بضع سنوات جزءاً كبيراً من ماله، بسبب من إفلاس رجل كان قد ائتمنه ووثق به. وإذ لم يعد من الثراء بحيث يخلِّف لهما ثروة تعيشان عليها فقد تعيّن عليهما أن تعيلا نفسيهما بنفسيهما. لقد امضتا فترة طويلة من الزمن بعيدتين عن بيتهما لا يختلفان إليه إلاّ لماماً، ولقد وفدتا الآن على البيت لتلبثا فيه بضعة أسابيع ليس غير بسبب من وفاة أبيهما. ولكنهما كانتا تحبان «مارش إند» و«مورتون» وكل هذه، السباخ والهضاب المجاورة حباً عظيماً. لقد أقامتا زمناً طويلاً في لندن وفي كثير من المدن الكبيرة الأخرى ولكنهما كانتا تقولان دائماً إنهما لم تجدا البتة ما هو أروع وأجمل من مسقط رأسيهما. وإلى هذا، فقد كانتا على غاية التناغم والانسجام، فلم تختلفا مرة ولم تتشاجرا البتّة. وهي لا تحسب أن في الدنيا كلها أسرة متآزرة متكاتفة كهذه الأسرة.

حتى إذا فرغت من تنقية عنب الثعلب سألتها أين كانت السيدتان وأخوهما الآن.

– «لقد ذهبوا إلى مورتون في نزهة على الأقدام! ولكنهم سوف يرجعون لتناول الشاي بعد نصف ساعة ليس غير».

والحق أنهم رجعوا في الموعد الذي حدّدته لهم حنة، ودخلوا البيت من باب المطبخ، فأما مستر جون فاكتفي، حين وقع بصره عليّ، بالانحناء تحية لي، وتابع تقدّمه إلى إحدى الحجرات. وأما السيدتان فوقفتا: لقد عبّرت ماري، في كلمات قليلة، تعبيراً كريماً هادئاً عن الابتهاج الذي راودها إذ رأتني على نشاط مكنني من هبوط السلم إلى الدور الأرضي. وأمسكت ديانا بيدي، وهزّت رأسها لي وقالت:

– «كانت ينبغي أن تنتظري حتى آذن لك بالنزول، إن إمارات الشحوب الشديد لا تزال بادية على وجهك.. وأنت لا تزالين مهزولة إلى حدّ بالغ!يا لك من طفلة مسكينة! يا لك من فتاة مسكينة!»

كان لديانا صوت يقع في أذني موقع هديل الحمام. وكانت ذات عينين أبتهج كلما التقت نظراتي نظراتهما. لقد بدا لي وجهها كله حافلاً بالسحر والفتنة. وكان محيا ماري لا يقلّ عن محياها ذكاء... وكانت أساريرها مثل أسارير أختها حسناً وجمالاً، ولكن الانطباعة الغالبة على وجهها كانت أكثر تحفظاً، وكان سلوكها نحوي، برغم لطفه، أكثر برودة. وكان في نظرة ديانا وحديثها شيء من السيطرة والسلطان: لقد كانت، من غير ريب، ذات إرادة فعّالة. وكنت أنا مفطورة على الابتهاج بالخضوع لسلطان كسلطانها، وبالإذعان – حيث يجيز لي ضميري واحترامي لذاتي ذلك – للإرادة الفعّالة.

ثم إنها أضافت: «وأي شأن لك بالمطبخ؟ أنه ليس مكانك. إن من دأبي ودأب ماري أن نجلس، في بعض الأحيان، في المطبخ لأننا نحب، أن ننعم، في البيت، بالحرية... أن ننعم بها حتي الإسراف. أما أنت فضيف، ويجب أن تمضي إلى حجرة القعود».

– «ولكني أجد متعة في الجلوس هنا».

– «لست أظن ذلك البتة... ما دامت حنة تضطرب ههنا رائحة غادية، وما دامت تغطيك بالدقيق».

وهنا تدخّلت ماري فقالت: «وإلى هذا فالنار هنا حامية إلى حد تعجزين عن احتماله».

وأضافت أختها: «من غير ريب. تعالي، يجب أن تكوني مطيعة».

وحملتني على النهوض – وكانت لا تزال ممسكة بيدي – وقادتني إلى الحجرة الداخلية.

وقالت وهي تقعدني على الأريكة: «اجلسي هنا ريثما نغيُّر ثيابنا ونعدّ الشاي. إذ من الامتيازات التي ننعم بها في بيتنا هذا، المجاور للمستنقعات، أن نُعد طعامنا

بأيدينا حين نؤانس في نفسَيْنا ميلاً إلى ذلك، أو حين تكون حنة منصرفة إلى الخبز أو صنع الجعة أو غسل الملابس أو كيِّها».

وأغلقت الباب، تاركة إيّاي وحدي مع مستر سانت جون الذي كان جالساً قبالتي، وفي يده كتاب أو صحيفة. وأنشأت أتأمل الحجرة، أولاً، وأتأمل محتلها، بعد ذلك.

كانت حجرة الجلوس حجرة هي إلى الصِغر، أقرب، وكانت مفروشة بأثاث بسيط إلى حدٌّ بعيد، ومع ذلك فهي مريحة بسبب من نظافتها وحسن ترتيبها. كانت الكراسي العتيقة الطراز شديدة اللمعان، والطاولة المصنوعة من خشب الجوز صقيلة كالمرآة. وكانت بضع صور عتيقة غريبة لرجال ونساء من أهل العهود الغابرة تزيّن جدرانها المدهونة وكان يقوم في ركن من أركانها خوان ذو أبواب زجاجية يشتمل على بعض الكتب ومجموعة من الآنية الخزفية. لم يكن في الحجرة أي من أسباب الزينة غير الضرورية، أو أية قطعة من الأثاث العصري، ما خلا علبتين خاصتين بأشغال الإبرة، وقِمَطْر[1]

[1] مكان تُحفظ فيه الكتب.

من خشب الورد موضوع على طاولة جانبية: لقد بدا كل شيء – حتى السجادة والستائر – عتيقاً جداً ومصوناً جداً في آن معاً.

وكان مستر سانت جون جالساً في مثل سكون اللوحات القاتمة المعلّقة على الجدار، مثبتاً عينيه على الصفحة التي كان يطالعها في روية وإمعان، مطبقاً شفتيه على نحو أبكم، فليس من العسير على المرء أن يدرسه ويتفحصه. ولو قد كان تمثالاً لا بشراً إذن لما كان درسه وتفحصه أشد يسراً. كان فتى تراوح سنّه في أغلب الظن ما بين الثامنة والعشرين والثلاثين ربيعاً – فارع الطول، مهزول الجسم، يتسمّر نظر المرء على وجهه الإغريقي، ذي القسمات الصافية إلى حدّ بالغ، والأنف الكلاسيكي المستقيم، وعلى فمه وذقنه الاثينيين الخالصين. والواقع أن

من النادر أن يشبه الوجه الإنكليزي النماذج العتيقة بقدر ما أشبهها وجهه. وكان طبيعياً أن يصدمه تنافر قسماتي ما دامت قسماته هو على هذا التناغم كله. أما عيناه فكانتا نجلاوين زرقاوين ذواتَيْ أهداب سمراء. وأما جبينه العالي، الشاحب كالعاج، فكانت تنوس فوقه ذوائب شعثاء من شعره الأشقر

وتلك صورة حبيبة إلى النفس، أليس كذلك أيها القارئ؟ و مع ذلك فإن صاحبها كان لا يُوقع في نفس الناظر أنه ذو طبيعة لطيفة، لدنة، يسهل التأثير فيها.. بل كان لا يوقع في نفس الناظر أنه ذو طبيعة وادعة. وحتى في جلسته الساكنة تلك كان كل من أنفه وفمه وجبينه يتّسم، في ما خُيّل إليّ، بشيء ينمُّ عن نفسٍ قلقة، أوقاسية، أومتلهفة. أنه لم يوجّه إليّ أية كلمة، بل لم يوجه إليّ نظرة إلاّ بعد عودة أختيه. وحملت إليّ ديانا، في رواحها وغدوها خلال إعداد الشاي، كعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن، وقالت:

– «كلي هذه الآن، فلا بد أن تكوني جائعة. تقول حنة إنّك لم تصيبي، منذ فطور الصباح، غير بعض الثريد».

ولم أرفض الكعكة، ذلك بأن شهوتي إلى الطعام كانت قد أوقظت فهي قوية حادة. عندئذ طوى مستر ريفرز كتابه ودنا من المائدة، مثبّتاً علي، فيما كان يتّخذ مقعده، عينيه الزرقاوين الشبيهتين بتلك العيون التي تمثّلها اللوحات القديمة. كان في نظرته، الآن، استقامة جافية ورسوخ ثاقب عازم أظهرا أن اجتنابه النظر إليّ، أنا الغريبة، كان عن عمد لا عن استحياء.

وقال: «أنت جائعة جداً».

– «أجل، يا سيدي». لقد كان من شيمتي دائماً، بحكم الغريزة، أن أردّ على الملاحظة الموجزة بإيجاز، وعلى الكلام المباشر ببساطة.

– «كان من حسن طالعك أن أكرهتك حمى خفيفة على الامتناع عن الطعام خلال الأيام الثلاثة الماضية: إذ كان ثمة خطر في الاستسلام لرغبات شهيتك في

بادئ الأمر. أما الآن، ففي ميسورك أن تأكلي، ولكن في غير إسراف».

– «آمل أن لا يطول تناولي الطعام على نفقتك يا سيدي». كذلك كان جوابي اللفظّ المصوغ على نحو أخرق إلى أبعد الحدود.

فقال في فتور: «لا. لن يطول. إذ سيكون في ميسورنا، حين تعطينا عنوان أهلك، أن نكتب إليهم، وعندئذ يصبح بإمكانك أن تعودي إلى بيتك».

– «يتعيّن عليٌّ أن أقول لك، في صراحة، إن هذا أمر لا قِبَل لي به إذ لا بيت لي ولا أهل على الإطلاق».

وحدّق الثلاثة إليّ، ولكن في غير ما ارتياب. لقد استشعرت أنه لم يكن في نظراتهم شكّ ما: كانت أقرب إلى الفضول منها إلى شيء آخر. وإنما أتكلم بخاصة عن السيدتين الشابتين. أما سانت جون، فكانت عيناه، برغم وضوحهما البالغ بالمعنى الحرفي للكلمة، غامضتين يعسر على المرء سبر غورهما. لقد بدا وكأنه يستخدمهما كأداتين للكشف عن أفكار الناس أكثر من استخدامه إيّاهما كعاملين للإبانة عن أفكاره هو، وأن تمازج الحدّة والتحفُّظ فيهما كان يراد به إرباك الآخرين أكثر بكثير من تشجيعهم.

وسألني سانت جون: «هل تريدين أن تقولي إنه ليس لك أنسباء البتة؟»

– «أجل، فليس ثمة أية صلة تربطني بأي كائن حيّ. وليس لي أيما حق في أن أستظل أيما سقف في إنكلترة كلها».

– «ذلك وضع غريب جداً بالنسبة إلى فتاة في مثل سنك!»

وهنا رأيت عينيه تتجهان إلى يدي، اللتين كانتا متصالبتين أمامي على المائدة. وتساءلت في ما بيني وبين نفسي عن الغرض من نظرته تلك. ولكن كلماته سرعان ما حملت إليّ الجواب.

– «ألم يقدَّر لك أن تتزوجي البتّة؟ هل أنت عانس؟»

فضحكت ديانا، وقالت: «ولكن سنها لا يمكن أن تعدو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، يا سانت جون».

– «أنا في نحو التاسعة عشرة. ولكني غير متزوجة».

واستشعرت وهجاً لافحًا يدبّ إلى وجهي، ذلك بأن هذا الإلماح إلى الزواج أيقظ في ذات نفسي ذكريات مريرة مثيرة. ولاحظوا كلهم ما اعتراني من ارتباك وانفعال. فسارعت ديانا وماري إلى تحويل نظراتهما عن وجهي المضرّج مخففتين بذلك من وطأة اضطرابي. ولكن أخاهما، الأشد قسوة وبرودة، لم يرفع بصره عني، حتى أفضى الارتباك الذي أورثني إيّاه. إلى إغراق عيني بالدمع وإغراق وجهي بالدم في آن معاً.

ثم إنه سألني: «وأين كنت تقيمين قبيل وفودك علينا؟»

فغمغمت ماري في صوت كالهمس: «إنّك لشديد الفضول، يا سانت جون».

ولكنه انحنى فوق المائدة مطالباً – من طريق نظرة أخرى ثابتة ثاقبة – بالحصول على جواب.

فأجبت في اقتضاب: «إن اسم المكان الذي أقمت فيه واسم الشخص الذي عشت معه هما من أسراري الخاصة».

فلاحظت ديانا: «ومن حقك، في نظري، أن تكتميهما عن سانت جون وعن أي مستجوب آخر إذا رغبت في ذلك».

فقال: «ومع ذلك، فلن يكون في ميسوري أن أساعدك إذا لم أعرف شيئاً عنك وعن ماضيك. وإنّك لفي حاجة إلى المساعدة، أليس كذلك؟»

– «أجل إني لفي حاجة إلى المساعدة، ولسوف ألتمسها حتى أعثر على محسن حقيقي محبّ للإنسانية يرشدني إلى سبيل تمكنني من الفوز بعمل أستطيع أداءه

وأستعين بالأجر الذي أكسبه منه على العيش، وسدّ أبسط حاجات الحياة على الأقل».

– «أنا لا أدري ما إذا كنت محسناً حقيقياً محباً للإنسانية... ومع ذلك فإني أودّ أن أساعدك، بكل ما أوتيت من قوة، على تحقيق مثل هذا الغرض الشريف. ولكن قولي لي أولاً ما الذي أَلِفْتِ أن تفعليه، وما الذي تستطيعين أن تفعليه».

وكنت الآن قد فرغت من تناول الشاي. وكان ذلك الشراب قد أوقع في نفسي نشاطاً عارماً، كالذي توقعه الخمرة في نفس عملاق من العمالقة: لقد منح أعصابي المرهقة قوة جديدة، ومكّنني من أن أخاطب هذا القاضي الشاب، الفطن البصير، في عزم وثبات.

فقلت، مستديرة نحوه ناظرة إليه – كما نظر إليّ – في قوة ومن غير ما استحياء: «مستر ريفرز، لقد أسديت إليّ أنت وشقيقتاك خدمة جليلة – أعظم خدمة يستطيع أن يسديها امرؤ إلى إخوانه في الإنسانية. لقد أنقذتموني، بنبل وفادتكم، من الموت. وهذه اليد التي أسديتموها إليّ تجعل لكم عليّ حقّين: حقاً في اعترافي بجميلكم على نحو غير محدود، وحقاً في إيلائكم ثقتي إلى حدّ ما. من أجل ذلك سأروي لكم من ماضي المتشرّدة التي آويتموها ذلك المقدار الذي أستطيع روايته من غير أن أسيء إلى راحة بالي، ومن غير أن أعرّض سلامتي، الأدبية والجسدية، وسلامة الآخرين، لأيما خطر.

«أنا يتيمة، بنت رجل من رجال الدين. مات عني أبواي قبل أن يُقَدَّر لي أن أعرفهما، فنشأت عالة على بعض أهلي، وتلقّيت العلم في مؤسسة خيرية. إني سوف أذهب إلى حدّ إخباركم باسم تلك المؤسسة، حيث قضيت ست سنوات بوصفي تلميذة، وسنتين بوصفي مدرِّسة: مأوى اليتيمات في لو وود، مقاطعة... وأحسب أنك سمعت به، يا مستر ريفرز.. إن المحترم بروكلهورست هو خازن تلك المؤسسة».

– «لقد سمعت بمستر بروكلهورست، ولقد رأيت تلك المدرسة».

– «وغادرت لو وود، منذ عام تقريباً، لأعمل مربية خصوصية. فوفّقت إلى الفوز بوظيفة حسنة في بيت عرفت فيه السعادة. ولكني اضطررت إلى مبارحة ذلك البيت قبل أربعة أيام من مجيئي إلى هنا. أما سبب رحيلي فلست أستطيع الإفضاء به وليس ينبغي لي ذلك. ولو قد فعلت إذن لكان خطراً. وأغلب الظن أن السبب سوف يبدو غريباً ممتنعاً على التصديق. ولا تحسبُنَّ أني كنت أنا الملومة في ذلك، لا، فأنا بريئة من اللوم براءتكم أنتم الثلاثة منه. مسكينة أنا، ولا بد أن أبقى كذلك فترة من زمان. ذلك بأن الكارثة التي أقصتني عن البيت الذي وجدته جنٍّة كانت من ضرب مروْع. ولقد راعيت في وضع خطة رحيلي نقطتين اثنتين ليس غير: السرعة، والكتمان. ووفاء بهذين الغرضين تعيَّن؛ عليّ أن أخلِّف ورائي كلّ ما أملكه، ما خلا رزمة صغيرة نسيتها، بسبب من تعجُّلي وانشغال بالي، في العربة التي أقلّتني إلى هويتكروس. وهكذا وفدت على هذه المنطقة معدمة بكلّ ما في الكلمة من معنى. لقد نمت ليلتين اثنتين في العراء، وهمت على وجهي نحو يومين اثنين من غير أن أجتاز عتبة ما: أنا لم أذق الطعام، خلال تلك المدة، غير مرتين. حتى إذا هدَّني الجوع والإعياء واليأس وكدت ألفظ نفسي الأخير منعتني أنت، يا مستر ريفرز، من الموت – تحت وطأة العوز – عند بابك، وآويتني تحت سقفك. أنا أعرف كلّ ما فعلته شقيقتاك، منذ ذلك الحين، في سبيلي – إذ لم أكن غائبة عن الوعي خلال سباتي الظاهري – إني لمدينة لحنانهما العفوي، الأصيل، البهيج ديناً لا يقلّ عن ديني لإحسانك الإنجيلي».

فقالت ديانا حين تمهلت لحظة: «لا تحملها على الاسترسال في الكلام، يا سانت جون. فمن الواضح أنها لا تزال غير قادرة على احتمال الهياج والانفعال. تعالي إلى الأريكة، واجلسي هنا، يا مس ايليوت».

وأجفلت نصف إجفالة لا إرادية عندما سمعت ذلك الاسم المستعار: كنت قد نسيت اسمي الجديد. فما كان من مستر ريفرز، الذي بدا وكأن أيما شيء لم يكن ليفوته، إلا أن لاحظ ذلك في الحال وقال:

– «لقد قلت إن اسمك هو جين ايليوت؟»

– «أجل، لقد قلت ذلك. وإن هذا لهو الاسم الذي أعتقد أن من الملائم أن أُدعى به في الوقت الحاضر: ولكنه ليس اسمي الحقيقي، وإنه ليبدو – حين أسمعه – غريباً عليّ».

– «أما اسمك الحقيقي فلن تصرّحي به؟»

– «لا، أنا أخشى الفضيحة قبل كلّ شيء. وإني لأجتنب كلّ تصريح قد يفضي إلى ذلك».

فقالت ديانا: «أنا واثقة من أنك على صواب. والآن، دعها يا أخي تنعم بالهدوء والطمأنينة، فترة قصيرة من الزمان».

ولكن سانت جون، الذي كان قد استغرق في التفكير بضع لحظات، سرعان ما عاد إلى الكلام بمثل برودته وفطنته السابقين فقال:

– «ليس من ريب. في أنك لا ترغبين في الاتكال على حُسن ضيافتنا زمناً طويلاً. وأنت تتوقين، في ما أرى، إلى التحرر على أسرع وجه تستطيعينه من حنان شقيقتيّ، وإلى التحرر – قبل كل شيء – من إحساني (أنا أعي التمييز الذي يبدو عليك وعياً حسناً. ولست أستنكره... فهو حق). هل تريدين الانفصال عنا؟»

– «أجل، ولقد عبّرت عن رغبتي هذه من قبل دلّني كيف أعمل، أو كيف أجد عملاً: هذا كل ما أسألك إيّاه الآن. ثم دعني أمضي لسبيلي، ولو إلى أحقر كوخ... ولكن أجِزْ لي – حتى ذلك الحين – أن أبقى هنا. أنا أخشى أن أقع في تجربة أخرى محفوفة بأهوال الفاقة المتشرّدة».

فقالت ديانا، واضعة يدها البضّة على يدي: «ولكنك سوف تبقين هنا من غير ريب».

وكررت ماري في نبرة راشحة بالصدق غير المنفعل، نبرة بدت طبيعية بالنسبة إليها: «أجل، سوف تبقين».

فقال مستر سانت جون: «إن شقيقتيَّ لتجدان، كما ترين، متعة في الاحتفاظ بك، كتلك المتعة التي تجدانها في احتضان طائر نصف متجمّد ساقته إليهما، عبر النافذة، ريح مطيرة. أما أنا فأشد نزوعاً إلى دفعك في السبيل التي تمكُّنك من إعالة نفسك بنفسك. ولكن يحسن بك أن تلاحظي أن نطاقي ضيّق. أنا لست غير راعي أبرشية ريفية فقيرة، ومن هنا فإن مساعدتي لك لا بد أن تكون متواضعة إلى أبعد حدود التواضع. فإذا كنت تزدرين الأشياء الصغيرة فالتمسي نجدة أكثر فعالية من تلك التي أستطيع أن أقدمها إليك».

فأجابت ديانا بالنيابة عني: «لقد قالت من قبل إنها راغبة في أداء أيما عمل شريف تستطيع أن تؤديه. وأنت تعلم، يا سانت جون، أنه ليس لها في المسعفين خيار. إنها مكرهة على احتمال أُناس أجلاف مثلك».

فأجبت: «سوف أشتغل خياطة، أو عاملة. سوف أعمل خادمة أو ممرضة إذا لم أوفّق إلى ما هو أفضل».

فقال سانت جون في فتور بالغ: «حسن. إذا كانت هذه هي روحك فإني أعدك بالمسَاعدة، حين أجد ذلك مناسباً وبالطريقة التي أراها ملائمة».

وهنا ارتدّ إلى الكتاب الذي كان مستغرقاً في مطالعته قبل تناول الشاي. وسرعان ما انسحبت من الحجرة، ذلك بأني كنت قد تحدَّثت، وجلست، بقدْر ما أجازت لي قوتي الحاضرة أن أتحدّث وأجلس.

[30]

كنت كلما ازددت معرفة بنزلاء «مور هاوس» ازددت لهم حباً. وكنت قد استعدت، خلال بضعة أيام، مقداراً من صحّتي مكنني من الجلوس طوال النهار والتنزّه خارج البيت في بعض الأحيان. لقد أمسى في ميسوري أن أشارك ديانا وماري في أعمالهما كلها. وأن أتحدّث إليهما ما رغبتا في ذلك، وأن أساعدهما كلما أجازتا لي – وحيثما أجازتا لي – مثل هذه المساعدة. لقد كان في هذه العشرة متعة محببة، من نوع ذقته الآن للمرة الأولى... متعة ناشئة عن التجانس الكامل في الأذواق، والعواطف، والمبادئ.

لقد أحببت أن أطالع ما كانتا تحبان مطالعته، وكان ما يسرّهما يبهجني، وما يرضيهما يحظى بإعجابي وتقديري. لقد أحبّتا بيتهما المعزول، وكذلك وجدت أنا فتنة قوية وسرمدية في آن معاً في ذلك المبنى الرمادي العتيق، بسقفه الخفيض، ونوافذه ذوات الشعريات، وجدرانه العفنة، ومجازه المحاط بصفين من شجرات الشربين المسنَّة، وقد نمت كلها مائلة تحت وطأة الرياح الجبلية، وحديقته المعتمة بأشجار السدر وشرابة الراعي، حيث لا ينوِّر من الزهور إلاّ أشدها بأساً. لقد تعلّقتا بالسباخ الأرجوانية الممتدة خلف بيتهما وحوله، وبالوادي الغائر الذي هبط نحوه طريق الخيالة الكثير الحصى، ذلك الطريق المفضي إليه من بابهما الخارجي، والمتعرّج بين ضفاف الخنشار، أولاً، ثم وسط عدد يسير من المراعي الصغيرة التي لم يقدَّر لأي فلاة حافلة بنبات الخلنج أن حُفَّت بأشدَّ منها وحشية ولم يقدَّر لأي قطيع من خراف السباخ الرمادية ولحملانها ا لصغيرة الخضراء الوجوه أن رعت في ما هو أكثر منها ضراوة. أقول لقد تعلقتا بهذا المشهد في حماسة كاملة، وكان في ميسوري أن أفهم شعورهما ذاك، وأشاركهما قوته وصدقه معاً. لقد رأيت سحر

المنطقة وشعرت بقدسية عزلتها. كانت عيناي تستمعان بنتوءاتها والتواءاتها، وبضروب الألوان البرية التي أضفتها الطحالب، والأراضي المخضوضرة المفروشة بالرياحين، والخنشار المتألّق، والصخور الصوّانية الملساء على هضابها ووهادها. كانت هذه الدقائق بالنسبة
إليٍّ ما كانته بالنسبة إليهما تماماً: مصادر متعددة، كلها صاف وعذب، للمسرَّة والبهجة. كانت الريح العاتية والنسيم العليل، واليوم العاصف واليوم الوادع، وساعات الشروق وساعات الغروب، والليالي المقمرة والليالي الغائمة – كانت كلها تثير في نفسي، في هذه الديار، مثل ذلك الإعجاب الذي أثارته في نفسيهما وترقي ملكاتي بمثل الرقية التي كانت تخلب ملكاتهما.

وضمن جدران البيت كان التناغم بيننا كاملاً أيضاً. كانت كلتاهما أرفع مني ثقافة وأغزر مطالعة، ولكني اتّبعت في لهفة وحماسة نفس سبيل المعرفة الذي كانتا قد سلكتاه قبلي. لقد التهمت الكتب التي أعارتاني إيّاها، وجعلت من دأبي أن أناقشهما في المساء في ما كنت قد طالعته خلال النهار، واجدة في ذلك ارتياحاً غامراً، لقد لاءم الفكر الفكرَ، والتقى الرأيُ الرأيَ. وبكلمة، لقد توافقنا توافقاً كاملاً.

وإذا كان بين ثلاثتِنا متفوّق وزعيم فقد كانت ديانا هي التي احتلّت هذه المنزلة. فمن الناحية الجسدية برَّتني دياناً كثيراً: كانت بهية الطلعة موفورة النشاط. وكان في قوتها البدنية وفرة حيوية، ويقينيَّة تدفُّق اثارتا دهشتي وامتنعتا، في الوقت نفسه، على فهمي. كان في ميسوري أن أتحدث، برهة، عندما يهبط الليل، ولكن ما إن تتلاشى أولى دفقات حيويتي وطلاقة لساني حتى تراودني رغبة في الجلوس على كرسي خفيض لا ظهر له، عند قدمي ديانا، وإراحة رأسي على ركبتيها، والإصغاء لها حيناً ولماري حيناً، فيما هما تسبران غور الموضوع الذي كنت قد مَسَسْتُهُ مسَّا رفيقاً ليس غير. واقترحت ديانا أن تعلّمني الألمانية. وأحببت أن أتتلمذ عليها، فقد رأيت أن دور المعلمة يرضيها ويلائمها، وأن دور طالبة العلم يرضيني ويلائمني إلى حدّ مكافئ. لقد تناغمت طبيعتانا، فإذا بثمرة ذلك محبة متبادلة – محبة من ضرب ليس أقوى منه. واكتشفتا أني أجيد الرسم، وفي الحال وضعتا ريشاتهما

وعلبتي ألوانهما تحت تصرُّفي. وأدهشتهما براعتي، التي كانت في هذا الفن بالذات أعظم من براعتهما وفتنَتْهما. فكان من دأب ماري أن تجلس وتراقبني ساعات طوالاً. وبعد ذلك سألتني أن أعطيها بعض الدروس في الرسم، فإذا بها تتكشَّف عن تلميذة وديعة، ذكية، مجدَّة. وفي مثل هذا الجو الذي ملأت فيه وقتي بالعمل والتسلية المتبادلة تصرَّمت الأيام وكأنها ساعات، وتقضَّت الأسابيع وكأنها أيام.

أما مستر سانت جون فإن الألفة، التي نشأت بيني وبين شقيقتيه نشوءاً طبيعياً جداً وسريعاً جداً، لم تمتدّ إليه. ومن أسباب تلك الشقة التي ظلت تفصل ما بيننا أنه كان نادراً – نسبياً – ما يقيم في البيت: كان جزء كبير من وقته مكرساً، في ما يبدو، لعيادة المرضى والمعوزين من أبناء أبرشيته المتناثرين ههنا وههناك.

ولم يكن أيما تقلّب في الأحوال الجوية ليحول بينه وبين القيام برحلاته الرعائية هذه. كان من دأبه كلما انقضت ساعات درسه الصباحي، سواء أكان الجو ممطراً أم صاحياً، أن يعتمر قبعته وينطلق – يتبعه كلب أبيه العجوز، كارلو – لأداء رسالته، رسالة الحب أو رسالة الواجب، فما كنت أعلم إلاّ قليلاً على أي ضوء كان ينظر إليها. وكان من دأب شقيقتيه، كلما همَّ بالخروج في يوم مكفهر عاصف، أن تجادلاه في ذلك معترضتين. وعندئذ كان يقول، في ابتسامة فريدة حفلت بمعاني الجلال أكثر مما حفلت بمعاني البِشر:

– «إذا أجزت لهبَّة ريح أو رشاش مطر أن يصدَّاني عن أداء هذه، المهام اليسيرة فبئس هذا الكسل ممهِداً للمستقبل الذي أُعد نفسي له!».

وكان رد ديانا وماري العام على هذا الكلام هو زفرة تطلقانها، وبضع دقائق من التأمل الفاجع.

بيد أنه كان ثمة، إلى جانب غيابه المكرور، حاجز آخر يحول دون توطّد الصداقة ما بيني وبينه: لقد بدا لي أنه ذو طبيعة متحفظة، موزّعة اللب، بل ذو طبيعة نزاعة إلى الاستغراق في التأمل. وعلى الرغم من حاسته في أداء أعماله الكهنوتية وطهارة سيرته وعاداته فإنه لم يتمتع، في ما يبدو، بذلك الصفاء الذهني

وبذلك الرضا الباطني اللذين لا بد أن يكافأ بهما كل مسيحي مخلص وكل محب عملي من محبي الإنسانية. وما أكثر الليالي التي كان يجلس فيها مستقبلاً النافذة، وأمامه مكتبهُ وأوراقه، ليكفَّ بعد ذلك - فجأة - عن القراءة أو الكتابة، ويسند ذقنه إلى يده، ويستسلم لأفكار لست أدري كنهها، ولكن الذي أدريه أنها كانت أفكاراً قلقة مثيرة على ما رأيت من وميض عينيه المتواتر واتّساع حدقتيهما المتفاوت.

وأحسب، فوق هذا، أن الطبيعة لم تكن عنده كنز بهجة وحبور كما كانت عند شقيقتيه. لقد عبَّر مرة على مسمع مني، ولم يثنّ البتة، عن إحساس قوي بسحر الهضاب المتجهم، وعن حب فطري للسقف الداكن والجدران الشائبة التي كان يدعوها بيته. ولكن النبرة والكلمات التي أظهر بها هذه العاطفة كانت أدنى إلى الكآبة منها إلى الابتهاج. ولم يطوِّف البتة - في ما خُيّل إيّ - في الأراضي السبخة استمتاعاً بسكونها المهدئ للنفس، ولم يلتمس أو يفكر ملياً في مئات المباهج الوادعة التي كان خليقاً بها أن توفرها.

وإذ كان زاهداً في العشرة والإفصاح عن ذات نفسه فقد انسلخت فترة قبل أن تُتاح لي فرصة أسبر فيها غور عقله. وإنما كوّنت فكرة عن صفة عقله هذا، أوّل ما كوّنت، عندما سمعته يعظ في كنيسته في مورتون. وكم أتمنى لو أصف تلك العظة، ولكن ذلك فوق قدرتي. بل إني لا أستطيع التعبير، في صدقٍ وأمانة، عن الأثر الذي خلَّفته في نفسي.

لقد بدأت هادئة، والواقع أنها ظلت حتى النهاية هادئة إذا اعتبرنا الأداء و«مقام» الصوت ليس غير. وسرعان ما سرت في نبراتها الواضحة حرارة ملموسة، ولكنها مكبوحة في صرامة، أغرته باستخدام اللغة العصبية. ثم تطوُّرت هذه الحرارة إلى قوة - قوة مكبوتة، مركزة، ملْجَمة. وعرت الفؤاد، من قوة الواعظ، هزّة عنيفة، واستبدّ بالعقل دهش بالغ. ولم يعتر الوهن تلك الهزة وهذا الدهش. وخلال العظة كلها هيمنت مرارة عجيبة وتجلَّى افتقار إلى الرقة المؤاسية، وكثرت الإشارات المتجهمة إلى المعتقدات الكالفينية: الاختيار، والقضاء والقدر،

والنَّبذ. وكانت كل إشارة إلى هذه النقاط تبدو وكأنها حكم بالهلاك يصدر من بَين شفتيه. حتى إذا أتمَّ عظته لم أستشعر أني أمسيت أفضل وأهدأ وأكثر استنارة ممّا كنت، بل غلب عليّ حزن لا سبيل إلى وصفه. ذلك بأنه بدا لي – ولست أدري ما إذا كان الآخرون قد آنسوا الشيء نفسه – أن الفصاحة التي كنت أصغي إليها إنما انبعثت من أعماق استقرُّت فيها رواسب الخيبة العكرة، واعتلجت في جنباتها حوافز مكدِّرة من أشواق نهمة وأطماح مقلقة. لقد كنت على يقين من أن سانت جون ريفرز – برغم طهارة حياته، ويقظة ضميره، وغيرته المشبوبة – لمَّا يجد ذلك الأمن الإلهي الذي يتخطّى كل فهم: إنه لمَّا يجده – كذلك تراءى لي –أكثر ممَّا وجدته أنا في غمرة حسراتي المكتومة الملوِّعة على صنمي المحطم وفردوسي المفقود... حسراتي التي أحجمت في الفترة الأخيرة عن الإلماع إليها والتي استحوذت عليّ، برغم ذلك، واستبدّت بي على نحو لا يعرف الرحمة.

وتصرَّم في غضون ذلك شهر كامل. وكان على ديانا وماري أن تغادرا «مور هاوس» وشيكاً وتعودا إلى حياة مختلفة جداً كانت تنتظرهما كمربيتين خصوصيتين في مدينة كبيرة عصرية في مدن إنكلترة الجنوبية، حيث كانت كلّ منهما تعمل في خدمة أسرة لم يكن أفرادها الموسرون المتشامخون ينظرون إليها إلا نظرتهم إلى مرؤوسة حقيرة. ولم يكونوا يعرفون أو يحاولون أن يعرفوا أياًّ من كفاءاتها الفطرية فهم لا يقدِّرون غير براعاتها المكتسبة كما يقدرون مهارة طاهيتهم، أو ذوق وصيفتهم. ولم يكن مستر سانت جون قد قال لي شيئاً عن العمل الذي كان قد وعد بتأمينه لي، ومع ذلك فإن حصولي على عمل من أي نوع كان قد أمسى الآن ملحًّا. وذات صباح غامرت، وقد تُرِكت وحدي معه في حجرة الجلوس دقائق معدودات، فدنوت من فجوة النافذة التي كرَّستها طاولته وكرسيه وقَمْطره شبه مكتب له... وكنت على وشك أن أتكلم – برغم أني لم أكن أعرف معرفة جيدة بأية كلمات أصوغ سؤالي، إذ من العسير دائماً كسر جليد التحفّظ الذي يزجج الطبائع المشابهة لطبيعته.. أقول كنت على وشك أن أتكلّم عندما كفاني هو مؤونة ذلك بأن كان البادئ في الحديث. لقد قال، وهو يرفع بصره نحوي فيما كنت أدنو منه:

- «أحسب أن لديك سؤالاً تودّين أن تطرحيه علي؟»

- «أجل، أريد أن أعرف ما إذا كنت قد اهتديت إلى أيما عمل أستطيع أداءه».

- «لقد وجدت، أو ابتدعت، لك شيئاً منذ ثلاثة أسابيع. ولكن لما كان قد بدا لي أنك سعيدة هنا ومفيدة في آن معاً... ولمّا كانت شقيقتاي قد أولعتا بك ولوعاً واضحاً فهما تجدان في معاشرتك متعة استثنائية فقد رأيت من غير الملائم أن أقطع عليكن ارتياحكن المتبادل، وآثرت الانتظار حتى يحتم رحيلُهما الوشيك عن «مارش آند» رحيلَك أنت أيضاً».

فقلت: «ولسوف ترحلان بعد ثلاثة أيام، أليس كذلك؟»

- «أجل، وعندما ترحلان أعود أنا إلى بيتي في مورتون. إن حنة سوف ترافقني، وعندئذ يُوصد هذا المنزل العتيق».

وانتظرت بضع لحظات، متوقعةً أن يسترسل في الكلام على الموضوع الذي طرقته في مستهل الحديث. ولكنه بدا وكأن أفكاره اتّخذت وجهة أخرى مغايرة: لقد أنبأتني أساريره أنه كان ذاهلاً عني وعن عملي. فاضطررت لردّه إلى موضوع كان بالضرورة ذا أهمية بالغة عندي. فقلت:

- «ما هو العمل الذي خطر لك، يا مستر ريفرز؟ أرجو أن لا يفضي هذا التأخّر إلى مزيد من الصعوبة في الحصول عليه».

- «أوه، لا. ما دام عملاً مرهوناً بنا نحن الاثنين ليس غير: أنا أعرض، وأنت تقبلين أو ترفضين».

وصمت كرّة أخرى. لقد بدا وكأنه كان يكره أن يتابع الحديث. وضقت بصمته ذرعاً، فأتيت بحركة قلقة أو بحركتين قلقتين وسمَّرت على وجهه نظرة لاهفة متطلبة استطاعت جميعها أن تبلغه شعوري على نحو فعّال وكأنها كلمات مبينة، وبقدر من العناء أقل.

فقال: «ليس ثمة ما يدعوك إلى تعجُّل السماع. دعيني أخبرك، في صراحة، أنه ليس لديّ أيما شيء لائق أو رابح أقترحه. ولكن قبل أن أشرح، إذا سمحت، ما كنت قد أوضحتهُ من قبل، وتذكَّري أني إذا ساعدتك كان مثلي معك كمثَل أعمى يساعد أعرج. أنا رجل فقير. لأني أرى أن الميراث الذي سيبقى لي، بعد أن أفي ديون أبي، لن يعدو هذا البيت الريفي المتداعي، وصفّ شجرات الشربين المسفوعة الممتدّ وراءه، وتلك القطعة من الأرض السبخة، وأشجار السَّدر وشرابة الراعي القائمة أمامه. وأنا رجل مغمور. إن أسرة ريفرز عريقة، ولكن اثنتين من أصل الثلاثة الذين لم يبق منها غيرهم تكسبان خبزهما بالخدمة في بيوت الغرباء، على حين يعتبر الثالث نفسه أجنبياً عن مسقط رأسه لا طوال الحياة فحسب، بل بعد الموت أيضاً. أجل، ويعتبر، وليس له من ذلك بدّ، إن الله قد شرَّفه بحظه هذا... فهو لا يطمح إلاَّ إلى اليوم الذي يلقى فيه صليب الانفصال عن الروابط الجسدية على كتفيه، وإلا إلى اليوم الذي ينادي فيه أمام تلك الكنيسة المجاهدة التي هو واحد من أحقر أعضائها: «انهضوا، واتبعوني!»

قال سانت جون هذه الكلمات كما تعوّد أن يلفظ عظاته، في صوت هادئ عميق، وبوجنة لم يشعّ فيها الدم، ونظرة موَّارة بإشعاع متألق. ثم إنه أضاف قائلاً:

– «وإذ كنت أنا نفسي فقيراً ومغموراً فليس في وسعي أن أقدّم إليك غير عمل فقير مغمور. بل إنك قد تحسبين هذا العمل مهيناً لك... ذلك بأني أرى ان عاداتك كانت من ذلك النوع الذي يدعوه الناس مصقولاً، وأن أذواقك تنزع إلى المثل الأعلى، وأن حياتك كانت على الأقل بين المثقفين. ولكني لا أجد أيما هوان في أيما عمل قادر على تحسين النور البشري. وأنا أؤمن بأنه كلما كانت التربة التي يُعْهد إلى المناضل المسيحي بحراثتها أكثر جدباً... وكلما كان ثواب كدحه أضأل كان الشرف الذي يحظى به أعظم. إن حظّه، في مثل هذه الأحوال، هو حظ الرائد، ولقد كان روّاد الإنجيل الأولون هم الرسل، ولقد كان إمامهم هو يسوع، المخلِّص نفسُه .»

فقلت وقد تمهل من جديد: «حسناً؟ تابع! »

فنظر إليّ قبل أن يتابع، وراح يقرأ وجهي ملياً وكأن أساريره كانت حروفاً مسطورة على صفحة كتاب. ولقد عبّر بعض التعبير عن ثمرات إمعانه النظر إلي، في ملاحظاته التي تلت.

قال: «أنا أعتقد أنّك سوف تقبلين الوظيفة التي سأعرضها عليك .وأنك سوف تؤدينها فترة من الزمن فحسب، وليس أبد الدهر، إلا إذا استطعت أنا أن أنهض أبد الدهر بوظيفة القس الإنكليزي الريفي، هذه الوظيفة الهادئة، المحجوبة، الضّيقة، المضيِّقه ذلك بأن في طبيعتك معدناً لا يقلّ عداء للراحة والسكينة عن المعدن الذي في طبيعتي، برغم أنه من ضرب آخر».

فألححت، عندما كفّ عن الكلام كرة أخرى: «اشرح، أرجوك!».

– «سوف أشرح. وستسمعين أي اقتراح هزيل...تافه... ومعقَّد هو اقتراحي، أنا لن أمكث طويلاً في مورتون، بعد أن توفي والدي وأصبحت سيد نفسي. وأغلب الظن أني سأغادر ذلك المكان في خلال اثني عشر شهراً. ولكنني سوف أبذل قصارى جهدي، ما أقمت فيه، لتحسينه. إن مورتون لم يكن فيها، يوم وفدت عليها منذ سنتين، مدرسة ما: كان أبناء الفقراء محرومين كل أمل في التقدّم. فأنشأت مدرسة للصبية، وإني لأعتزم الآن إنشاء مدرسة ثانية للبنات. لقد استأجرت مبنى لهذا الغرض، مع كوخ ملحق به مؤلف من حجرتين ليكون مثوى للمعلمة. إن راتبها سيكون ثلاثين جنيهاً في العام، ولقد تَّم تأثيث بيتها هذا، على نحو بسيط جداً، ولكنه كافٍ، بفضل كرم سيدة نبيلة، هي مس أوليفر، البنت الوحيدة للثري الوحيد في أبرشيتي – مستر أوليفر، وهو صاحب مصنع ابر و مَصْهر حديد في الوادي. وهذه السيدة نفسها سوف تدفع نفقات تعليم يتيمة من يتيمات الملجأ ونفقات كسوتها، شريطة أن تساعد المعلمة في أداء بعض الأعمال الحقيرة المتّصلة ببيتها وبالمدرسة، لأن انشغالها بالتعليم سوف يحول بينها وبين أدائها بنفسها. هل ترضين أن تكوني هذه المعلمة؟»

لقد طرح السؤال في شيء من التعجّل، وبدا وكأنه كان يتوقّع، نصف توقّع، أن أرفض عرضه في حنق، أو على الأقل في ازدراء. إنه لم يستطع، بسبب من عدم معرفته كل أفكاري ومشاعري - وإن يكن قد حزر بعضها - أن يتنبأ بموقفي من العمل الذي اقترحه عليّ. لقد كان، في الواقع، عملاً متواضعاً، ولكنه كان يتيح لي سقفاً أستظل بظله، وكنت أنا في حاجة إلى مأوى آمن. لقد كان مرهقاً ورتيباً، ولكنه كان - إذا ما قورن بوظيفة المربية الخصوصية في بيتٍ موسر - عملاً يتّسم بسمة الاستقلال، وكان الخوف من العبودية للغرباء يحزّ في نفسي كالسكين. إن العمل المقترح لم يكن خسيساً.. لم يكن غير لائق.. لم يكن مهيناً. وهكذا اتّخذت قراري، فقلت:

- «أشكرك على اقتراحك، يا مستر ريفرز. وإني لأقبله من صميم فؤادي».

فقال: «ولكن هل فهمتني؟ إنها مدرسة قروية: إن تلميذاتك لن يكنَّ غير فتيات فقيرات - بنات قوم يسكنون الأكواخ... وفي أحسن الأحوال بنات قوم من الفلاحين. إن الحبك، والخياطة، والقراءة، والكتابة، والحساب سوف تكون كل ما سيتعين عليك أن تعلّميه. ما الذي سوف تفعلينه بثقافتك؟ ما الذي سوف تفعلينه بالجزء ا لأعظم من عقلك... من عواطفك... من أذواقك؟»

- «سأدُّخرها ليوم أحتاجها فيه، إنها لن تتْلَف».

- «إذن، فقد عرفت المهمة التي ستنهضين بعبئها؟»

- «أجل، لقد عرفت».

عندئذ تبسَّم... لا ابتسامة مريرة أو محزونة، ولكن ابتسامة راضيةً جداً، مَرْضيَّة جداً.

- «ومتى ستشرعين في أداء وظيفتك؟»

- «سوف أمضي إلى بيتي غداً. وسأفتح المدرسة، إذا شئت، في الأسبوع التالي».

– «حسن جداً. فليكن ذلك».

ونهض وأنشأ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً. ثم إنّه كفّ عن ذلك وراح ينظر إليّ من جديد. وهزّ رأسه.

فسألته: «ما الذي يقلق بالك، يا مستر ريفرز؟»

– «إنك لن تلبثي في مورتون طويلاً. لا، لا!».

– «لماذا؟ ما الذي يدعوك إلى هذا القول؟»

– «أنا أقرأه في عينك. إنها ليست من ذلك النوع الذي يَعِدُ بالتثبث بسياق حياة هادئ».

فقلت: «أنا لست طموحاً».

فأجفل لدى سماعه كلمة «طَموح». وكرّر: «لا. ما الذي جعلك تفكرين في الطُموح؟ من هو الطُموح ؟ أنا أدري أنني ذومطامح. ولكن كيف اكتشفتِ ذلك؟»

– «لقدكنت أتحدث عن نفسي».

– «حسناً، إذا كنتِ غير طموحة، فأنت...» وكفّ عن الكلام.

– «ماذا؟»

كنت على وشك أن أقول: عاطفية. ولكني خشيت أن تسيئي فهم اللفظة، وأن يأخذك الغضب. إنما أعني أن العواطف البشرية لها أعظم السلطان عليك. وإني لواثق من أنك لا تستطيعين أن تقنعي طويلاً بتزجية أوقات فراغك في وحدة وانعزال، وبتكريس ساعاتك العاملة لجهد خلو من كل مانع مثير، بأكثر ممّا أستطيع أنا أن أقنع بالعيش هنا دفيناً في مستنقع، حبيساً في جبل إني بإقامتي هنا إنما أخالف طبيعتي التي وهبني الله إيّاها، وأشلّ ملكاتي التي أغدقتها السماء عليّ، فهي من ثم غير ذات غناء. وأحسب أنك تلاحظين كيف أناقض الآن نفسي... أنا الذي بشّر

بالرضا بالنصيب المتواضع، وبرَّر حتى مهنة الحطابين ومهنة السقَّائين، ما دام ذلك كله يتمّ في سبيل الله...أنا، كاهنه المرسوم، أكاد أهذي في قلقي. ولكن علينا أن نوفّق بين الميول والمبادئ، بطريقة ما».

وغادر الحجرة، وكنت قد عرفت عنه – في هذه الساعة القصيرة –أكثر مما عرفت خلال الشهر المنصرم كله. ومع ذلك فقد ظلّ يثير دهشي وحيرتي.

وتعاظم حزن ديانا وماري ريفرز وصمتهما باقتراب موعد فراقهما لأخيهما وبيتهما. ولقد حاولت كلّ منهما أن تبدو على سجيتها، ولكن الأسى الذي تعيّن عليهما أن تقاوماه كان من نوع لا سبيل إلى قهره أو إلى إخفائه.. وألمعت ديانا إلى أن هذا الفراق سوف يكون مختلفاً عن أيما فراق قُدِّر لهما أن تعرفاه في ماضيات الأيام، ذاهبة إلى أنه سوف يكون، في أغلب الظن، وبقدر ما يتعلّق الأمر بسانت جون، فراقاً إلى سنوات عديدة: وقد يكون فراقاً إلى الأبد.

وقالت: «إنّه سوف يضحّي بكل شيء في سبيل أهدافه التي نصبها لنفسه منذ عهد بعيد... سوف يضحي حتى بعواطفه الطبيعية وبمشاعره، الأكثر قوة أيضاً إن سانت جون ليبدو هادئاً، يا جين. ولكنه يخفي في أحشائه حمى شديدة الأوار. إنك قد تحسبينه رقيقاً، ومع ذلك فهو في بعض الأشياء عنيد كالموت. وأسوأ ما في الأمر أن ضميري لن يجيز لي أن أثنيه عن عزمه الصارم. وليس من ريب في أنني لا أستطيع، لحظة واحدة، أن ألومه على ذلك. إن ما اعتزم عليه حق، ونبيل، ومسيحي، ومع ذلك فإنه يسحق فؤادي». وطفرت الدموع إلى عينيها النجلاوين، ونكست ماري رأسها فوق شغلها وغمغمت:

– «لقد فقدنا أبانا منذ فترة يسيرة، ولسوف نفقد، عمّا قريب، بيتنا وأخانا».

وفي تلك اللحظة وقعت حادثة صغيرة بدا وكأن القدر أرادها عامداً لكي يقيم الدليل على صحّة المثل الذي يقول: «إن المصائب لا تأتي فرادى»، ولكي يضاعف آلامهما بإقامة الدليل أيضاً على المثل الآخر القائل: «إن ثمة مزالق كثيرة ما بين

الكأس والشفة[1]، لقد اجتاز سانت جون بالنافذة وهو يقرأ رسالة. ثم دخل علينا الحجرة وقال:

[1] مثل إنكليزي مفاده، أن عقبات جمّة كثيراً ما تنشأ لتحول دون تنفيذ خطة من الخطط. (المعرب)

- «مات خالنا جون».

وبدت كلتا الشقيقتين وكأنها قد ذهلت، ولكنها لم تُصْدَم ولم تروَّع. لقد بدا النبأ، في أعينهما، خطيراً أكثر منه محزناً.

وكررت ديانا: «مات؟»

- «نعم».

فسمَّرت على وجه أخيها نظرة ثاقبة، ثم سألته في صوت خفيض: «وماذا بعد؟»

فأجابها، محتفظاً دائماً بجمود أساريره الرخامية: «ماذا بعد؟ ماذا بعد؟لا شيء...اقرأي».

وألقى الرسالة في حِجْرها، فتصفحتها، ثم أسلمتها إلى ماري. فقرأتها ماري في روية وصمت، ثم أعادتها إلى أخيها. وتبادل الثلاثة النظرات، وابتسم الثلاثة جميعاً... ابتسموا ابتسامة كئيبة متفكّرة.

وقالت ديانا، آخر الأمر: «فلتكن إرادة الله! ومع ذلك، فلا يزال في ميسورنا أن نعيش».

ولاحظت ماري: «وعلى أيّة حال فإن هذا لن يجعلنا أشدّ فقراً ممّاكنا من قبل».

فقال مستر ريفرز: «ولكنه يطبع في الذهن، بقوة وعنف، صورة ما كان يمكن أن يكون، ويُكره المرء على مقارنته بما هو كائن».

ثم طوى الرسالة ووضعها في قمطره، وغادر الحجرة من جديد.

وطوال بضع دقائق لم تنطق أيّ منا بكلمة. ثم إن ديانا التفتت إليّ وقالت:

– «جين، إنك لا بد أن تعجبي لنا ولألغازنا، وأن تحسبينا كائنات قاسيات القلوب إلى حدّ جعلنا لا نتأثر لوفاة نسيب، كخالنا، من أقرب الناس إلينا. ولكننا لم نره قط من قبل، ولم نعرفه قط من قبل. لقد كان أخاً لأمي، ولقد تشاجر هو ووالدي منذ عهد بعيد. ذلك بأن أبي غامر بمعظم ثروته في المضاربة نزولاً عند نصيحته، فألمّ الخراب بساحته. لقد تبادلا السباب والمهاترات، وافترقا على غضب، ثم لم يتصالحا بعد ذلك قط. ومن ثم انصرف خالي إلى أعمال تجارية اقترنت بحظ من النجاح أكبر، ويبدو أنه جنى من ورائها ثروة مقدارها عشرون ألف جنيه. إنه لم يتزوّج البتّة، ولم يكن له أيما أنسباء أدْنَيْن غيرنا، وغير شخص آخر لا تشدّه إليه قرابة أوثق من تلك التي تشدّنا نحن إليه. وكان والدي يأمل دائماً أن يكفِّر خالي عن غلطته بأن يوصي لنا بممتلكاته، ولكن هذه الرسالة تنبئنا بأنه أوصى بكل فلس من ثروته للنسيب الآخر، ما خلا ثلاثين جنيهاً تُقسم بين سانت جون وديانا وماري ريفرز لشراء ثلاثة خواتم حِداد. كان له ملء الحق، من غير ريب، في أن يفعل ما يحلو له، ومع ذلك فإن تلقّي مثل هذا النبأ كان لا بد له أن يورثنا غماً مؤقتاً، فقد كان خليقاً بي وبماري أن نعتبر نفسينا موسرتين لو فازت كلّ منا بألف جنيه، وكان خليقاً بمثل هذا المبلغ أن يكون بالنسبة إلى سانت جون مبلغاً كبيراً، بسبب من الخير العظيم الذي يمكِّنه من أدائه».

حتى إذا أعطيْتُ هذا التفسير أسقط الموضوع فلم يُشر إليه مستر ريفرز أو أختاه أيما إشارة بعد ذلك البتة. وفي اليوم التالي غادرت «مارش اند» إلى مورتون. وفي اليوم الذي بعده غادرته ديانا وماري إلى بلدة«ب» النائية. وما هو

غير أسبوع حتى شخص مستر ريفرز وحنة إلى البيت الخاص براعي الكنيسة في مورتون. وهكذا هُجِر البيت الريفي العتيق.

[31]

إذن فقد كان بيتي، يوم وجدت آخر الأمر بيتاً، مجرَّد كوخ صغير: حجرة ضيقة ذات جدران طليت بالكلس، وأرضية فرشت بالرمل، وأربعة كراسي مدهونة، وطاولة، وساعة، وخوان يشتمل على بضعة أطباق وصحون، وآنية شاي خزفية كاملة. وفوقها، كانت حجرة ذات مساحة مماثلة لمساحة المطبخ تشتمل على سرير من خشب الشوح وخزانة ذات أدراج: خزانة صغيرة حقاً، ومع ذلك فإن ملابسي القليلة لم تشغل غير حيّز ضئيل منها. على الرغم من أن كرم أصدقائي ذو اللطف والسخاء عزز تلك الملابس بمجموعة متواضعة من الأشياء الضرورية.

لقد هبط الليل. ولقد سرَّحت اليتيمة الصغيرة التي تعينني على أداء الأعمال المنزلية بعد أن أعطيتها برتقالة اجراً لها على ما عملت ذلك اليوم. وكانت مدرسة القرية قد فُتحت هذا الصباح. وكان عدد طالباتي عشرين، ثلاث منهن فحسب كنَّ قادرات على القراءة. ولكن أيّا من هاته العشرين لم تكن تعرف الكتابة أو الحساب. إن كثيراً منهن يحبكن، وقليلٌ منهن يخطن. وهن يتكلمن بلهجة المقاطعة في أقوى مظاهرها، فأنا أجد الآن عسراً في فهم لغتهن وهن يجدن عسراً في فهم لغتي. إن بعضهن تغلب عليهن الغلظة، والفظاظة، والجموح، والجهل. ولكن الأخريات لينات العريكة، راغبات في التعليم، وهن يتكشَّفن عن ميول ترضيني. ويتعيّن عليّ أن لا أنسى أن هاته الريفيات الصغيرات الخشنات اللباس هنّ من لحم ودم كسليلات أنبل الأسر، وأن بذور التفوق الفطري، والرقة، والذكاء، والحنان خليق بها أن تنمو في قلوبهن كما تنمو في قلوب ذوات المحتد الكريم. ولسوف يكون واجبي هو العمل على تطوير هذه البذور، وليس من ريب في أني سأجد بعض السعادة في أداء هذه

المهمة. أنا لا أتوقّع أن ألقى متعة بالغة في الحياة التي تتفتّح الآن أمامي، و مع ذلك فلست أشكّ في أنها سوف تتيح لي، إذا ما عدَّلتُ تفكيري وأنفقت قواي كما ينبغي أن أنفقها، قدراً من المتعة كافياً لتمكيني من العيش من يوم إلى يوم.

هل كنت موفورة الحظ من السعادة والاطمئنان والرضا خلال السعاعات التي سلختها في حجرة التدريس تلك، العارية الحقيرة، هذا الصباح وهذا الأصيل؟ ولكي لا أخدع نفسي يتعيّن عليّ أن أجيب بقولي: لا. لقد استشعرت – أجل، ويا لبلاهتي! – شيئاً من حطة وازدراء. لقد تراءى لي أني خطوت خطوة هبطت بي بدلاً من أن ترفعني في سلم الوجود الاجتماعي. لقد روّعتني وأرمضتني ضروب الجهالة والفقر والخشونة التي تكشَّف عنها كل ما سمعته ورأيته من حولي. ولكن ليس يُحسن بي أن أزدري نفسي أكثر مما ينبغي بسبب من هذه المشاعر. أنا أعلم أنها كانت خاطلة... وهذه خطوة واسعة إلى الأمام من غير ريب، ولسوف أسعى جهدي لمقاومة تلك المشاعر. وأنا أؤمن أني سأتغلب عليها، في غدٍ، بعض التغلب. وقد لا تنقضي بضعة أسابيع حتى أقهرها نهائياً. ومن يدري، فقد يفضي ابتهاجي برؤية التقدّم الذي ستحرزه طالباتي وتطورهن نحو الأحسن إلى إحلال الرضا في نفسي –خلال شهور قليلة – محل الاشمئزاز.

وفي غضون ذلك دعني أسال نفسي سؤالاً: ما الأفضل؟ أن أستسلم للإغراء، وأن أصغي لصوت العاطفة، وأن لا أبذل أي جهد موجع أو أخوض أيما نضال... أن أقع في الشرك الحريري، وأنام على الرياحين التي تغطيه ثم استيقظ في بقعة جنوبية، وسط متارف دارة من دارات المتعة: أن أكون الآن عائشة في فرنسة، خليلة لمستر روتشيستر، نشوى بحبه نصف أيامي كلها، ذلك بأنه لابد أن يحبني حباً جماً زمناً ما. والواقع أنه قد أحبّني فعلاً، وأن أيما امرئ لن يمحضني مثل هذا الحب كرة أخرى، أبد الدهر. ولن يقدَّر لي أن أعرف، منذ اليوم، ذلك الولاء الحلو الذي يقدّم إلى الجمال، والشباب، والكياسة، إذ لن يقدَّر لي، حتى آخر الدهر، أن أبدو في نظر أحد من الناس وكأنني أملك هذه المفاتن. لقد كان مولعاً وفخوراً بي، وهو شيء لن يكونه أي إنسان آخر غيره... ولكن في أية متاهة يهيم فكري؟ وما

هذا الذي أقوله؟ بل ما هذا الشعور الذي يخامرني؟ إني لأسأل، ما الأفضل: أن أكون عبدة مسترقَّة في جنة وهمية في مرسيليا، محمومة بالسعادة الخادعة حيناً، مختنقة بامرّ دموع الندم والخزي حيناً آخر، أم أن أكون مدرِّسة قروية، حرة وأمينة، في زاوية جبلية كثيرة الرياح في قلب إنكلترة الصحي؟

أجل، أنا أستشعر الآن أني كنت على صواب عندما تمسكت بالمبدأ والقانون، وازدريت وسحقت المغريات المخبولة التي طوَّقتني بها إحدى اللحظات المسعورة. لقد سدد الله خطاي فأحسنت الاختيار، وإني لأحمد العناية الإلهية على ما هدتني إليه.

حتى إذا انتهت بي تأملاتي المسائية إلى هذه النقطة نهضتُ ومضيت إلى بابي، فرنوت إلى غروب الشمس في ذلك اليوم الحصادي، وإلى الحقول الوادعة المنبسطة أمام كوخي، الذي كان يقع هو والمدرسة على مبعدة نصف ميل من القرية. فسمعت الطير تتغنى بآحر ألحانها: «كان الهواء عليلاً، وكان الندى بلسماً».

وفيما كنت أرنو، حسبتُ نفسي سعيدة، ولكنني سرعان ما ذهلت إذ وجدت نفسي أنخرط في البكاء – ولماذا؟ للقَدَر الذي أكرهني على الانفصال عن سيدي: إذ لن يُكتب لي بعد اليوم أن أراه، وللأسى القانط والغيظ القاتل – وهما ثمرة من ثمرات رحيلي – اللذين ربما كانا الآن يحيدان به عن جادة الصواب ويغاليان في التطويح به بعيداً عنها بحيث ينقطع كل رجاء في إعادته إليها في أيما يوم من الأيام. وما خطرت لي هذه الخاطرة حتى أشحت بوجهي عن سماء المساء الرائقة، وعن وادي مورتون الموحش – أقول الموحش، لأنه في ذلك المنحنى البادي منه لناظري لم ألمح أي مبنى غير الكنيسة وبيت راعي الكنيسة نصف محتجبين بالأشجار، وفي طرفه الأقصى لم ألمح غير سقف «قصر الوادي» (فايل هول) حيث كان مستر أوليفر الثري وابنته يقيمان. وحجبت عينيَّ، وأسندت رأسي إلى الإطار الحجري الذي يطوق باب كوخي، ولكن صوتاً خافتاً منبعثاً من على مقربة من البُوَيب الذي يفصل حديقتي الضئيلة عن المرج القائم خلفها سرعان ما دعاني

إلى أن أرفع بصري. كان كلب – هو كارلو العجوز، كلب مستر ريفرز – يدفع الباب الخارجي بأنفه، وكان سانت جون نفسه مستنداً إليه مطويَّ الذراعين، وقد زوى ما بين حاجبيه وحدّق إليَّ بنظرة جادة تكاد تشعر بالامتعاض. فدعوته إلى الدخول فقال:

– «لا. أنا لا أستطيع البقاء. لقد حملتُ إليك رزمة صغيرة تركتها لك أختاي. وأحسب أنها تشتمل على صندوق ألوان، وريشات، وورق».

وتقدّمت لآخذها: لقد كانت هدية لطيفة. وخيّل إليّ أنه راح يتحرّى وجهي، بتجهم، فيما كنت أدنو منه، وكانت آثار الدموع بادية عليه من غير ريب.

وسألني: «هل وجدتِ أول يوم من أيام عملك أشقَّ مما توقعت؟»

– «أوه، لا! على العكس. وأحسب أني سوف أنسجم مع تلميذاتي، عمّا قريب، انسجاماً حسناً».

– «ولكني أخشى أن تكون أسباب عيشك... وكوخك... وأثاثك قد خيبت آمالك. إنها، في الحق، هزيلة إلى حدّ بعيد. ولكن...».

فقاطعته قائلة: «إن كوخي نظيف وهو يعصمني من غائلة الجو وتقلّباته، وإن أثاثي كاف ومريح. والواقع أن كل ما أراه قد أوقع في نفسي عرفان الجميل، لا اليأس والقنوط. ولست حمقاء ولا مؤثرة للرفاه الحسِّي إلى درجة تجعلني آسى لخلوّ بيتي من سجادة أوأريكة أوطبق فضي. وإلى هذا، فقبل أسابيع خمسة كنت لا أملك شيئاً... لقد كنت منبوذة، شحاذة، شريدة. أما الآن فقد أمسيت ذات معارف، وبيت، وعمل. والحق أني لأعجب لفضل الله، وسخاء أصدقائي، ووفرة النِعم المغدقة علي. أنا لا أتذمّر ولاأتظلَّم».

– «ولكنك تضيقين ذرعاً بالوحدة الموحشة؟ إن المنزل القائم وراءك مظلم وخالٍ».

– «أنا لم أكد أجد متسعاً من الوقت للاستمتاع بالهدوء والطمأنينة حتى أضيق ذرعاً بالوحدة والوحشة».

– «حسن جداً. أنا أرجو أن تستشعري فعلاً هذا الرضا الذي تعبّرين عنه. وعلى أيّة حال، فإن عقلك السليم سوف ينبئك بأن الوقت لمَّا يحن بعد للاستسلام لمثل ما كان ينتاب امرأة لوط من مخاوف متراوحة. أنا أجهل، طبعاً، ما الذي خلَّفتِهِ وراءك قبل ان أتعرّف إليك. ولكني أنصح لك أن تقاومي، في قوة وثبات، كل إغراء قد يدعوك إلى الالتفات للوراء. واصلي أداء عملك الراهن، في اطّراد، طول أشهر معدودات على الأقل».

فأجبته: «هذا ما أعتزم أن أفعله».

واسترسل سانت جون قائلاً: «إنه لمن العسير على المرء أن يسيطر على جَيَشان الرغبة، وأن يعدل نزعات الطبيعة البشرية. ولكن هذا أ مرٌ ممكن: أنا أعرف ذلك بالتجربة. لقد منحنا الله، إلى حدَّ ما، القدرة على صنع قدَرِنا بأنفسنا. وعندما يبدو لنا أن طاقاتنا في حاجة إلى غذاء لا تقوى على الفوز به... عندما تَجْهَدُ رغباتنا لاتباع سبيل لا نستطيع أن نسلكه فلا داعي لأن نتحرّق من الظمأ، أو نستسلم للقنوط، لا، ليس علينا في مثل هذه الحال. إلاّ أن نلتمس غذاء آخر لعقولنا لا يقلّ قوة عن ا لغذاء المحظور الذي تاقت لتذوُّقه، ولعلّه أن يكون أثبت وأضمن. وإلا أن نمهّد للقدم المغامرة طريقاً مستقيمة واسعة كتلك التي سدّها الحظ في وجوهنا، وإن تكن أوعر منها.

«فمنذ سنة واحدة كنت أنا نفسي أستشعر تعاسة بالغة، بسبب من اعتقادي أنني اخطأت في الانتظام في سلك رجال الدين. والواقع أن واجباتي الكهنوتية الرتيبة أضجرتني حتى الموت. لقد تحرّقت شوقاً إلى حياة دنيوية أكثر فعالية ونشاطاً... إلى ضروب الكدح الأكثر إثارة، الملازمة لعمل الأديب... إلى قَدر كقَدر الفنان، أو الكاتب، أو الخطيب، أو أي شيء آخر غير قدر الكاهن. أجل إن قلباً كقلب السياسي، أو الجندي أو المتعبِّد للمجد، أو المحبّ للشهرة، أو الشبق إلى القوة

والسلطان لينبض تحت الحلّة الكهنوتية التي أرتديها. وتأملت وضعي. كانت حياتي غاية في البؤس، وكان علي إما أن أغيرها وإما أن أقضي نحبي. وبعد فترة من الظلام والنضال انبلج الفجر وجاء الفرج: لقد انبسط وجودي المقيَّد، فجأة، إلى سهل مديد لا يعرف الحدود... لقد سمعت طاقاتي نداء من السماء يدعوها إلى أن تنهض، أن تستجمع كامل قواها، أن تنشر جناحيها، وتحلّق إلى ما وراء مدى البصر. لقد قضيّني الله لرسالة سامية، لا يحتاج حملها إلى بعيد وأداؤها أداء حسناً إلا إلى البراعة والقوة، والشجاعة والفصاحة وهي خير سجايا الجندي ورجل الدولة والخطيب: ذلك بأن هذه كلها تتركّز في المبشر الصالح.

وهكذا عقدت العزم على أن أكون مبشراً صالحاً. ومنذ تلك اللحظة تغيّرت حالتي الروحية، وانحلت الأصفاد وسقطت عن كلّ ملكة من ملكاتي غير مخلِّفة من العبودية إلا مرارتها المحنِقة، وهي مرارة لن يشفيني منها شيء غير مر الزمان. والواقع أن أبي عارض قراري هذا، حتى إذا توفي لم تبق ثمة عقبة شرعية يتعين علي أن أقاومها. وما إن أسوي بعض القضايا؛ وأجد من يخلفني في مورتون، وأتحرر من بعض المشاعر المتشابكة أو أقطع عقدتها، وأخوض غمرة نضال أخير مع الضعف البشري، نضالِ أنا على مثل اليقين من أنني سوف أنتصر فيه، لأني أخذت على نفسي عهداً أن أنتصر... أقول ما إن يتمّ لي هذا كله حتى أغادر أوروبة مولياً وجهي نحو الشرق».

قال ذلك بصوته الغريب، المكبوح، ولكن الجازم في آن معاً، ناظراً حين كف عن الكلام لا إليّ ولكن إلى الشمس الجانحة إلى المغيب، التي رنوت إليها أنا أيضاً. وكان كلانا قد ولّى ظهره ذلك المجاز المفضي عبر الحقل إلى البويب. ولم نكن قد سمعنا أي وقع أقدام على المجاز المكسو بالأعشاب، فقد كانت المياه الجارية في الوادي هي الصوت المسكِّن الوحيد في تلك الساعة وذلك المكان. من أجل ذلك، كان طبيعياً أن نجفل عندما سمعنا صوتاً بهيجاً، عذباً مثل رنين جرس فضي، يهتف:

– «طاب مساؤك، يا مستر ريفرز، وطاب مساؤك، يا كارلو العجوز. إن كلبك يتبيَّن أصدقاءه بأسرع مما تتبين أنت أصدقاءك، يا سيدي. لقد أرهف أذنيه وبصبص بذنبه عندما كنت في جوف الوادي. في حين أنك ما زلت حتى الآن توليني ظهرك».

وكان ذلك صحيحاً. فعلى الرغم من أن مستر ريفرز أجفل لدى سماعه أولى هذه النبرات الموسيقية، وكأن صاعقة شقّت إحدى السحب فوق رأسه، فقد كان لا يزال واقفاً، عند انتهاء الجملة، في نفس الوضع الذي فاجأه المتحدث فيه: فأما ذراعه فمستندة إلى الباب الخارجي، وأما وجهه فموجَّه نحو الغرب. وأخيراً استدار، في تروّ متعمد. لقد بدا لي وكأن رؤيا قد تجسَّدت في جانبه. وبرزت، على مبعدة ثلاثة أقدام منه، مخلوقة ترتدي ملابس بيضاء ناصعة – مخلوقة فتية بهية الطلعة، ممتلئة الجسم ولكنها رشيقة. حتى إذا رفعت رأسها، بعد أن انحنت لتداعب كارلو، وردّت إلى الوراء خماراً طويلاً، أشرق تحت نظرتها وجه ذو جمال كامل. والحق أن «الجمال الكامل»تعبير قوي، ولكني لن أرجع عنه أو أعدِّله. لأن أساريرها الحلوة التي لم يصُغْ مثلها جو إنلكترة المعتدل في أيما يوم من الأيام، ولأن وجنتيها الورديتين اللتين لم تُبدع رياحها الرطبة وسماواتها الغائمة ولم تُظِلَّ ما هو أروع منهما... أقول لأن هاتين الوجنتين وهاتيك الأسارير تبرِّر اصطناع ذلك التعبير. لم تكن أي فتنة لتعوز ذلك الوجه، ولم تكن العين لتقع فيه على أيما عيب.

كانت للفتاة قسمات متناغمة دقيقة، وعينان شبيهتان في شكلهما ولونهما بتلك العيون النجلاء الداكنة التي نراها في الصور البديعة. وكانت لها تلك الأهداب الطويلة الظليلة التي تطوّق العيون الجميلة بسحر بالغ الرقّة، وذلك الحاجب المزجج الذي يضفي على الوجه وضوحاً شديداً، وذلك الجبين الناعم الوضّاح الذي يضيف إلى جمالات اللون والإشراق الأشد بهاء جمال الوداعة، وتلك الوجنة البيضاوية الغضة الناعمة، وتانك الشفتان الغضتان أيضاً الموردتان الممتلئتان صحة وعذوبة، وتلك الأسنان المستوية البراقة المنزهة عن العيب، وتلك الذقن الصغيرة ذات

الطابع، وتلك الجدائل الخصبة الغزيرة... وبكلمة موجزة، كانت لها على نحو موفور كل المزايا التي تحقق، مجتمعة، مَثَلَ الجمال الأعلى. وأخذني الدهش وأنا أرنو إلى هذه المخلوقة الوسيمة: لقد أعجبت بها من كل قلبي. وليس من ريب في أن الطبيعة قد حابتها يوم خلقتها محاباة كبيرة، ناسية مألوف تقتيرها - الذي يذكِّر بتقتير زوجة الأب - فوهبتها عطاياها - هي حبيبتها الصغيرة - بمثل سخاء الجدة وإغداقها.

ما كان رأي سانت جون ريفرز في هذا الملاك الأرضي؟ لقد كان طبيعياً أن أطرح على نفسي هذا السؤال عندما رأيته يستدير نحوها ويرنو إليها. وكذلك كان طبيعياً أن ألتمس الجواب على هذا السؤال في محياه. وكان قد حوّل بصره الآن عن الملاك الأرضي، وأنشأ ينظر إلى باقة من الأقاحي نمت على مقربة من البويب.

وقال وهو يسحق بقدمه رؤوس الرياحين المبرعمة الثلجية البياض:«إنها أمسية بديعة. ولكن ما كان يحسن بك أن تخرجي وحدك في مثل هذه الساعة المتأخرة».

- «أوه، لقد رجعت هذا الأصيل من س... (وذكرت اسم بلدة كبيرة واقعة على مبعدة عشرين ميلاً تقريباً). لقد أنبأني أبي أنك فتحت مدرستك، وأن المعلمة الجديدة قد أقبلت. وهكذا اعتمرت قلنسوتي، بعد تناول الشاي، ورحت أصعِّد في الوادي لكي أراها. أهذه هي؟»

(وأشارت إليّ).

فقال سانت جون: «أجل، إنها هي».

وعندئذ سألتني في بساطة ساذجة صريحة، تكاد تكون طفليَّة، ولكنها راقت لي: «هل تعتقدين أنك سوف تحبين مورتون؟»

- «أرجو أن أوفّق إلى ذلك. إن ثمة مغريات كثيرة تدعو إلى ذلك».

- «هل وجدت طالباتك راغبات في الدرس بقَدْر ما توقعت؟»

- «من غير ريبء».

- «هل تحبين بيتك؟»

- «كثير اًجداً».

- «هل أثثته على نحو حسن؟»

-«على نحو حسن جداً، من غير ريب».

- «وهل كان اختياري»أليس وود» خادمة لك اختياراً موفقاً؟»

- «أجل كان اختيارك موفقاً، من غير ريب. إنها قابلة للتعلّم، بارعة رشيقة اليد». وقلت في ذات نفسي «إذن فهذه هي مس أوليفر، الوريثة، التي حابتها الأقدار، في ما بدا، فأغدقت عليها ونِعَم الجمال على حد سواء! وتساءلت: أية مجموعة سعيدة من النجوم قد أشرفت على ولادتها؟»!

وأضافت: «.سوف آتي بعض الأحيان وأساعدك في التدريس. ولسوف يكون في زيارتي إيّاك بين الفينة والفينة ضرب من التغيير يخفّف من رتابة العيش هنا. وأنا أحب مثل هذا التغيير. لقد كنت مبتهجة جداً، يا مستر ريفرز، خلال مقامي في س... لقد رقصت، الليلة البارحة، أو على الأصح، هذا الصباح، حتى الساعة الثانية. إن الكتيبة الـــ...معسكرة هناك منذ نشوب الاضطرابات، وضباطها هم خير رجال الدنيا قاطبة وأقربهم إلى الفؤاد: إنهم يُخزون شاحذي سكاكيننا وتجار مقصّاتنا الشبان».

لقد بدا لي أن سانت جون قد مدَّ شفته السفلى وأن شفته العليا قد تشنجت لحظة. وليس من ريب في أن فمه بدا مُحكَم الإطباق، وأن الجزء الأدنى من وجهه كان متجهماً مكتئباً أكثر من العادة، عندما حدّثته الفتاة الضاحكة بذاك الحديث. ليس هذا فحسب، بل لقد رفع بصره أيضاً عن الأقاحي وحوّلها نحوها. لقد كانت نظراته مكفهرة، ثاقبة، ذات مغزى. فما كان من الفتاة إلاّ أن قابلتها بضحكة ثانية، ولقد لاءم الضحك شبابها، ووجنتيها الورديتين، وغمازتيها، وعينيها الوضاءتين.

وفيما كان هو واقفاً، أبكم كئيباً، عاودت مداعبة الكلب كارلو قائلة: «إن كارلو المسكين يحبني. إنه ليس غليظ القلب صارماً، وليس يجفو أصدقاءه. ولو استطاع الكلام إذن لما لزم الصمت».

وبينا كانت تربت على رأس الكلب، منحنية في بهاء فطري أمام سيده الشاب المتجهم، لمحفت وجه ذلك السيد يتّقد. لقد رأيت عينه الكئيبة تتوهّج بنار مفاجئة، وترتعش بانفعال لا يقاوم. وعلى هذه الحال من الاضطرام وشيوع الدم في الوجه، بدا جميلاً بين الرجال بقَدْر ما كانت هي جميلة بين النساء. وارتفع صدره مرة، وكأن قلبه الكبير الذي سئم القهر الاستبدادي كان قد تضخم، برغم إرادته، وقام بوثبة جبارة للفوز بالحرية. ولكنه كبحه، في ما أعتقد، كما يكبح فارس ذو بأس جواداً حروناً. إنه لم يستجب، لا بكلمة ولا بحركة، للمحاولات اللطيفة التي قامت بها الفتاة لاستمالته.

وتابعت من أوليفر رافعة بصرها إلى أعلى: «بابا يقول إنك انقطعت عن زيارتنا انقطاعاً كاملاً. لقد أمسيت غريباً في «قصر الوادي» (فايل هول). إنه متوحّد هذه الليلة، هو منحرف الصحة، فهل لك أن ترجع معي وتزوره؟»

فأجابها سانت جون: «ليست هذه بساعة ملائمة للتطفل على مستر أولفير».

– «ليست بساعة ملائمة! ولكني أعلن أنها ملائمة. إنها هي بالذات الساعة التي يحتاج فيها أكثر ما يحتاج إلى رفيق يؤنسه: حين يُوصد العمل أبوابه، ولا يبقى لديه أي عمل يشغله. والآن، يا مستر ريفرز، أرجوك أن تذهب معي ما الذي يجعلك حيياً إلى هذا الحد، مغتماً إلى هذا الحد؟»

ثم إنها ملأت الثغرة التي أحدثها صمته بجواب من عندها، فهتفت وهي تهز رأسها الجميل، ذا الشعر المعقوص، وكأن تصرفها ذاك قد روّعها: «لقد نسيت! أنا طائشة حقاً، حمقاء حقاً!وإني لأتوسل إليك أن تغفر لي. لقد فاتنى أن لديك أسباباً وجيهة تزهدك في ثرثرتي، فقد فارقتك ديانا وماري، وأُوصِدت أبواب «مور

هاوس»، وخُلَفت في وحدة موحشة. إني لأرثي لك من غير ريب. هيا، امض معي لنرى بابا»

«ليس الليلة، يا مس روزاموند. ليس الليلة».

لقد تكلم مستر سانت جون وكأنه إنسان ميكانيكي تقريباً. ولقد كان هو وحده يعرف مدى الجهد الذي بذله لرفض هذا العرض.

– «حسناً، إذا كنت على هذا القدر كله من العناد فسوف أفارقك ذلك بأني لا أستطيع البقاء أكثر مما فعلت. لقد بدأ الندى يسقط. طاب مساؤك».

وبسطت يدها له. فمسَّها مساً رفيقاً، وكرّر في صوت خفيض وغائر كأنه صدى: «طاب مساؤك».

ومضت لسبيلها، ولكنها ما لبثت أن استدارت وسألته: «هل تشكو شيئاً؟» ولقد كانت على حق في سؤالها ذاك. إذ كان وجهه أبيض شاحباً كفستانها.

فأعلن قائلاً: «لا، أنا في أحسن حال». وانحنى تحية لها، وغادرالباب الخارجي. ومضت هي في طريق، و مضى هو في أخرى. والتفت مرتين لكي ترى إليه، فيما كانت تهبط الحقل في خفة ورشاقة، مثل جنية حسناء. أما هو فأوسع الخطى، في رسوخ وثبات، عبر الحقل، غير ملتفت البتّة

وكان في مشهد الألم والتضحية مرتسمين على وجه شخص آخر ما صرف ذهني عن التفكير في ألمي وتضحيتي دون غيرهما. لقد سبق لديانا ريفرز أن وصفت أخاها بقولها إنه عنيد كالموت. والحق أنها لم تَغْلُ ولم تبالغ.

[32]

وواصلت النهوض بعبء المدرسة القروية بأقصى ما استطعته من فعالية وإخلاص. لقد كان ذلك عملاً شاقاً، حقاً، في بادئ الأمر. وتصرّمت فترة ما قبل أن أوفَّق، برغم جهودي كلها، إلى فهم طالباتي وطبيعتهن. لقد بدوْن لي، بجهلهن المطبق وملكاتهن الهامدة، غبيَّات إلى حد يائس، بل بدوْن لي، للوهلة الأولى، متساويات في الغباء، ولكني سرعان ما أدركت أني كنت مخطئة. فقد كانت بينهن فروق كتلك التي بين المثقفات. حتى إذا وُفّقت إلى معرفتهن، ووفقن إلى معرفتي، تطوّرت هذه الفروق واتّسعت على نحو سريع. وما إن خمدت دهشتهن مني ومن لغتي وعاداتي وطرائقي حتى وجدت أن بعض هاته القرويات الذاهلات المتبلدات لطيفات قريبات إلى الفؤاد، أيضاً. لقد اكتشفت بينهن أمثلة غير قليلة على الكياسة الطبيعية، واحترام الذات الفطري، كما اكتشفت بينهن مواهب ممتازة انتزعت إعجابي ومودّتي. وسرعان ما أخذ هؤلاء يجدن متعة في أداء عملهن أداء حسناً، وفي الحرص على نظافة أجسامهن، وفي حفظ دروسهن على نحو منتظم، وفي اكتساب عادات تتّسم بالهدوء والنظامية. والواقع أن سرعة تقدمهن، في بعض الأحوال، كانت تثير الدهش، ولقد اعتززت بذلك التقدم اعتزازاً صادقاً سعيداً. وإلى هذا، فقد شرعت أنا أحب بعض الممتازات منهن، وشرعن هنَّ يحببني. وكان بين طالباتي عدة من بنات الفلاحين بلغن مبلغ الفتيات اليافعات، أو كدن. وهؤلاء كان في ميسورهن، قبل نهوضي بعبء التدريس، أن يقرأن ويكتبن ويخطن فكنت أعلمهن مبادئ النحو والجغرافية والتاريخ وضروب أشغال الإبرة الأكثر دقة. لقد وجدت بينهن نفوساً جديرة بالتقدير – نفوساً متعطشة إلى المعرفة، نزّاعة إلى التحسن – قضيت في بيوتها كثيراً من الأمسيات العذبة. لقد كان آباؤهن (الفلاحون وزوجاتهم) يغمرونني في تلك الأمسيات بفيض من المحبة والرعاية. وكنت أجد

متعة في تقبُّل عطفهم الساذج، وفي مكافأتهم على ذلك بالاحترام البالغ لمشا عرهم، وهو احترام لعلهم لم يألفوه دائماً، فإذا به يفتنهم وينفعهم في آن معاً. لأنه رفعهم في عيون أنفسهم ودعاهم في الوقت نفسه إلى أن يتنافسوا في عمل كل ما يجعلهم أهلاً للمعاملة الكريمة التي كانوا يلقونها.

واستشعرت أني أصبحت أثيرة لدى أبناء تلك البقعة. فحيثما مضيت كنت أسمع تحيات ودية تنطلق من كل حدب وصوب، وكنت أستقبَل بابتسامات صادرة عن القلب. إن حياة المرء في غمرة من الاحترام العام، حتى ولو كان هذا الاحترام منبعثاً من أبناء الطبقة العمالية دون غيرها، لتوقع في نفسه، مثل القعود في ضياء الشمس، طمأنينة ورضا. فالمشاعر الباطنية الرائقة إنما تبرعم وتنوّر تحت خيوط الشعاع. وفي تلك الفترة من حياتي كان قلبي يفيض بعرفان الجميل، ونادراً ما غار بالكآبة والخور. ومع ذلك يتعيّن عليّ، أيها القارئ، أن أذكر، لكي أصوّر لك الحقيقة كاملة، أنني في غمرة هذه الحياة المطمئنة النافعة كنت – بعد نهار أقضيه في جهود مشرِّفة أبذلها لخدمة تلميذاتي ومساء أنفقه في الرسم أو المطالعة الراضية المتوحدة – أستغرق، ليلًا في أحلام عجيبة: أحلام متعددة التلاوين، مهتاجة، مفعمة بالمثل الأعلى وبكلّ مثير وعاصف، أحلام كانت تتيح لي –و سط المشاهد الاستثنائية المثقلة بالمغامرة، والمخاطرة المُهيجة، والمصادفة الرومانتيكية – أن ألقى مستر روتشيستر مرة ومرة ومرة، وهو دائماً في محنة مستفزة. وعندئذ كان يتجدّد شعوري بأني بين ذراعيه، وأني أسمع صوته، وألقى عينه، وألمس يده ووجنته، وأني أحبه وأنه يحبني، وأن أملي كبير في قضاء عمري كله إلى جانبه – أجل كان ذلك كله يتجدّد بكامل قوّته الأولى واضطرامه القديم. وبعد ذلك كنت أفيق من رقادي: فأتذكر أين أنا وما هو وضعي الحقيقي، وأنهض من سريري العاري عن الستائر، مرتعشة مرتعدة. ومن ثم كان الليل الحالك الساكن يشهد تشنّج اليأس ويسمع انفجار العاطفة. حتى إذا كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فتحت أبواب المدرسة واستأنفت التدريس في ميقاته، هادئة مطمئنة النفس مستعدة لأداء واجبات النهار المطردة.

ووفت روزاموند أوليفر بوعدها، فكانت تزورني في المدرسة. وإنما كانت تقوم بزيارتها هذه، عادة، خلال رياضتها الصباحية ممتطية جوادها الضئيل الجسم. كان من دأبها أن تنطلق على صهوته حتى المدرسة، يتبعها على متن جواد آخر خادم من خدم الاصطبلات. والحق أن المرء نادراً ما يستطيع أن يتخيّل ما هو أروع من مظهرها، في ردائها الأرجواني الخاص بركوب الخيل، وقبعتها الأمازونية المخملية السوداء المستوية في ظرف فوق جدائلها الطويلة التي لثمت وجنتيها وطَفَتْ على كتفيها. وعلى هذا النحو البهي كانت تدخل المبنى القروي، وتخطر خلال صفوف بُنيَّات القرية المبهورات. وكان من دأبها أن تفد في الساعة التي يكون مستر ريفرز منصرفاً أثناءها إلى إلقاء درسه اليومي في التعليم المسيحي. ويُخيّل إليَّ أن عيني الزائرة كانتا تضرمان ناراً متّقدة في فؤاد القس الشاب. وبدا لي وكأن ضرباً من الغريزة كان ينذره بدخولها، حتى ولو لم ير ذلك. وكان إذا ما برزت لدى الباب لحظة يكون بصره منصرفاًعنه انصرافاً كاملاً، يتوهّج خداه، وتتبدل أساريره شبه الرخامية - برغم إصرارها على عدم الاسترخاء - تبدلاً يعز على الوصف. وكانت هذه الأسارير تعبّر، في سكونها البالغ، عن حرارة مكبوتة تعبيراً أقوى مما تستطيع العضلات المختلجة أو النظرات الثاقبة أن تؤذن به.

كانت من غير ريب تدرك قوتها. والواقع أنه لم يُخفِ ذلك عنها، لأنه كان عاجزاً عن ذلك. فعلى الرغم من رواقيته المسيحية فإنه كان ما إن تتقدم نحوه، وتخاطبه، مبتسمة في وجهه بابتهاج وتشجيع بل بمحبة وولوع، حتى ترتعش يده، وتضطرم بالنار عينه. لقد بدا وكأنه يقول، بنظرته الكئيبة العازمة، إن لم يقل ذلك بشفتيه: «أنا أحبك، وأنا أعلم أنك تؤثرينني على غيري.وليس ما يعقد لساني هو اليأس من النجاح إنني لو قدّمت إليك قلبي إذن لقبلتهِ في ما أعتقد. ولكن ذلك القلب مستقر الآن فوق مذبح مقدّس: أضرمت النار من حوله، ولن تنقضي فترة يسيرة حتى يصبح قرباناً التهمه الضرام».

وعندئذ كانت تتجهم مثل طفل مخيَّب. كانت سحابة متفكرة ترقق من حيويتها المشعّة. وكان من دأبها أن تسارع إلى سحب يدها من يده، وتشيح بوجهها، في نزق سريع الزوال، عن محياه المتَّسم بسمة البطولة البالغة وسمة الاستشهاد في آن معاً. وليس من ريب في أن سانت جون كان خليقاً به – حين تفارقه على هذا النحو – أن يتنازل عن العالم كله لو ملكه من أجل اللحاق بها، واستردادها، والاحتفاظ بها. ولكنه ما كان ليطَّرح حظاً واحداً من حظوظ الفوز بالنعيم السماوي أو ليتخلى – من أجل فردوس حبها – عن أمل واحد في دخول الجنة الحقيقية السرمدية. وإلى هذا، فإنه لم يستطع أن يحتجز كل ما اشتملت عليه فطرته – الرحالة، والطامح، والشاعر، والكاهن – ضمن تخوم عاطفة مُفردة. إنه لم يستطع – وما كان ليرغب في ذلك ، أن يتخلى عن ميدان حربه الرسالية العريض طمعاً في إبهاء «قصر الوادي» وأمنه. وإنما عرفت هذا القَدْر من حقيقة أمره من طريق غزوة جرؤت ذات يومبرغم تحفّظه البالغ، على القيام بها، على حصون أسراره.

وكانت مس أوليفر قد شرفتني قبل ذلك بزيارات متعددة قامت بها لكوخي. وكنت قد فهمت خُلْقها كله في وضوح، ومن غير ما تقنُّع أو تنكُّر: لقد كانت ذات غنج ودلال، ولكنها لم تكن بلا قلب. وكانت كثيرة المطالب ولكنها لم تكن أنانية على نحو تافه. لقد دُللت منذ أن أبصرت عيناها النور، بيد أن هذا التدليل لم يفسدها إفسا داً كاملاً. كانت طيَّاشة، ولكنها ودّية. وكانت مختالة معجبة بنفسها (ولم يكن لها في ذلك حيلة، إذ كانت كل نظرة إلى المرآة تطالعها بفيض من نضارة وملاحة) ولكنها لم تكن متكلفة متصنّعة، وكانت سخية الكف، بريئة من غرور الثراء. وكانت صريحة، ذكية إلى حد كاف، بهيجة النفس، ناشطة، تعوزها الروية. وباختصار، كانت فاتنة جداً، حتى في عين مراقبة باردة من بنات جنسها مثلي. ولكنها لم تكن لتثير الشوق والاهتمام إلى حد عميق، ولم تكن لتخلّف في نفس المرء انطباعه راسخة. كان عقلها، مثلاً، مختلفاً اختلافاً عظيماً عن عقل كل من شقيقتي سانت جون. ومع ذلك فقد أحببتها بقدْر ما أحببت تلميذتي آديل، تقريباً. في

ما خلا أن المرء يكنّ للطفلة التي رعاها وعلّمها محبة أقوى من تلك التي يستطيع أن يكنها لصديقة يافعة لا تقل عنها جاذبية.

وكانت قد أولعت بي وأحبّتني. لقد قالت إني أشبه مستر ريفرز (ولكنها أقرّت، من غير ريب، بأن جمالي لا يبلغ عشر جماله، برغم أني كنت مخلوقة حلوة ظريفة صغيرة. أما هو فكان ملاكاً). بيد أنني كنت، مثله، صالحة، بارعة، رابطة الجأش، رصينة. ولقد أكدتْ قائلة إني، بوصفي معلمة في قرية، «فلتة من فلتات الطبيعة». وكانت على مثل اليقين من أن حياتي السالفة – لو كشِف النقاب عنها – خليق بها أن تكون مادة صالحة لرواية ماتعة.

وذات مساء بينما كانت، بنشاطها الطفلى المألوف وفضولها الطيَّاش ولكن غير العدواني، تقلِّب محتويات الخزانة ودرج الطاولة في مطبخي الصغير، اكتشفت، أولاً، كتابين فرنسيين، ومجلداً من تأليف شيلر، ومعجماً وكتاب نحوٍ ألمانيين. واكتشفت، بعد ذلك، أدوات رسمي الخاصة، وبعض رسومي الإعدادية، وفي جملتها صورة بالقلم لرأس فتاة صغيرة مليحة شبيهة بالملائكة، كانت هي إحدى تلميذاتي، ومشاهد شتىُّ من الطبيعة انتزِعت من وادي مورتون ومن السباخ المحيطة به. وشلَّها الدهش، بادئ الأمر، ثم كهربها الابتهاج، فقالت:

– « هل رسمت أنت هذه الصور؟ هل تعرفين الفرنسية والألمانية؟ ما أروعك ! وأية معجزة أنت ! إنك ترسمين خيراً مما يرسم أستاذي في المدرسة الأولى في. س... هل لك أن ترسمي لي صورة تمثِّلني لكي أريها لوالدي؟»

فأجبتها: «بكل سرور». واسشعرت رعشة ابتهاج كتلك التي تلمُّ بالفنان حين فكرت بأنه سوف يتاح لي أن أنقل عن مثل هذا النموذج الكامل المشعّ. وكانت آنذاك ترتدي ثوباً حريرياً أزرق داكناً يكشف عن ذراعيها وعن جيدها. وكانت الحلية الوحيدة التي تزينها هي جدائلها الكستنائية التي تموُّجت فوق كتفيها بكل ما تتميز به حلَيْقات الشعر الطبيعية من جمال. وتناولت قطعة من الورق المقوَّى، وأنشأت أرسم – في عناية – الخطوط الكبرى لصورة

تمثِّلها. ومنَّيتُ نفسي بمتعة تلوينها عندما تُنجز. وإذ كان الليل قد تقدّم، الآن، بنا، فقد قلت لها إن عليها أن تفد في يوم آخر لإتمام الرسم.

ويبدو أنها أطرتني أمام أبيها إطراء جعله يرافقها بنفسه في مساء اليوم التالي – وكان مستر أوليفر رجلاً في خريف العمر فارع الطول، ضخم التقاطيع، مشتعل الرأس بالشيب – فبدت ابنته الفاتنة، بجنبه، أشبه بزهرة مشرقة على مقربة من برج بناية أشيب. لقد بدا لي رجلاً سكوتاً، وربما رجلاً يغلب عليه العُجب والغرور، ولكنه كان بالغ اللطف معي. وسرَّته صورة روزاموند الإعدادية سروراً عظيماً، وقال إن علي أن أجعل منها لوحة منجزة. وكذلك دعاني لقضاء سهرة الغد في «قصر الوادي» (فايل هول) وألحَّ عليّ في ذلك.

ولبيَّت دعوته. فألفيت «فايل هول» قصراً ضخماً جميلاً يقدم بيِّنات وافرة على غنى صاحبه. وكان الجذل والبِشر يفعمان روزاموند طوال زيارتي تلك. وكان أبوها أنيساً ودوداً وحين جا ذبني أطراف الحديث بعد الشاي عبَّر لي في تعابير قوية عن رضاه عمّا قمت به في مدرسة مورتون. وقال إنه يخشى – بعد الذي رآه وسمعه – أن أكون أكبر من المكان الذي أعمل فيه، وأن أغادره – وشيكاً – إلى مكان أفضل.

وصاحت روزاموند: «حقاً! إنها بارعة إلى حدٍّ يؤهلها لأن تكون مربية في أسرة من الأسر الكبيرة، يا بابا».

وقلت في ذات نفسي: إني لأؤثر البقاء حيث أنا على العمل في خدمة أية أسرة كبيرة من أسر البلاد. وتحدث مستر أوليفر عن مستر ريفرز – وعن أسرة ريفرز كلها – في احترام عظيم. وقال إنها إحدى الأسر العريقة في تلك الديار، وإن أسلافها كانوا موسرين، وإن مورتون كلها كانت في يوم من الأيام مِلكاً لهم، وإنه حتى في يوم الناس هذا يرى أن ممثل تلك الأسرة أهل، إذا شاء، لمصاهرة خير الأسَر. واعتبر من الأمور الداعية إلى الأسى والأسف أن يكون شاب في مثل امتيازه ومواهبه قد وطّن النية على الانتظام في سلك المبشّرين، وأن صنيعه ذاك لا

يعدو أن يكون تخلّياً لحياة نافعة. ولقد بدا، من ثم، أنه ما كان ليقيم أيّة عقبة في طريق زواج روزاموند من سانت جون، وأنه كان يجد في كرم محتد القس الشاب، وعراقة أسرته، وقدسية مهنته ما يعوّضه تعويضا كافياً عن فقره وعوزه.

وصادف أن كان اليوم الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) يوم عطلة. وكانت خادمتي الصغيرة قد مضت لسبيلها، بعد أن ساعدتني في تنظيف بيتي، راضية أبعد الرضا ببنس واحد دفعتُهُ إليها أجراً على مساعدتها لي. كان كل ما حولي نظيفاً مشرقاً – أرضية مغسولة، ومدفأة مصقولة، وكراسيّ مجلوَّة. وكنت أنا أيضاً قد اتّخذت زينتي، ففي ميسوري أن أفيد من فترة الأصيل تلك وأنفقها كيف أشاء.

وهكذا أنشأت أترجم بضع صفحات عن الألمانية منفقةً في ذلك ساعة كاملة. ثم إني تناولت ريشاتي ولوحة الرسم وشرعت في أداء مهمة أكثر عذوبة، لأنها أيسر وأسهل – مهمة إتمام صورة روزاموند المصغّرة. وكنت قد فرغت قبل ذلك من رسم الرأس، ولم يكن قد بقي عليّ غير تلوين الخلفيَّة بأصباغ خفيفة، وغير تظليل الثياب، وإضافة لمسة من اللون القرمزي إلى الشفتين الممتلئتين، وبضع حُلَيْقات نواعم إلى جدائل الشّعر، وخضاب أعمق لظلال الأهداب تحت الجفن اللازوردي. وكنت متسغرقة في استكمال هذه التفاصيل عندما فُتح باب بيتي، إثر ضربات عليه متعجلة، ودخل سانت جون ريفرز.

وقال: «لقد. وفدت لأرى كيف تنفقين عطلتك، راجية أن تكوني منصرفة إلى إنفاقها في غير الاستغراق في التفكير. لا، هذا حسن: إنك لن تستشعري أي وحشة ما دمت مكبَّة على الرسم. ومن هنا ترين أني لا أزال في ريب منك، على الرغم من أنَّك تكشَّفت حتى الآن عن صبر رائع. ولقد جئتك بكتاب أرجو أن تقعي فيه على بعض السلوى في ساعات المساء». وألقى على الطاولة كتاباً صدر حديثاً – قصيدة من تلك الآثار الأصيلة التي كثيراً ما جادت بها تلك الأيام – عصر الأدب الحديث الذهبي – على جمهور القرّاء المحظوظ. وأسفاه! إن القرّاء في عصرنا هذا أقلّ حظاً. ولكن، قليلاً من الشجاعة! إني لن أتمهل لحظة لأتهم أو أتذمر. فأنا

أعلم أن الشعر لم يمت، وأن العبقرية لم تضع، وأن شيطان الجشع لمَّا يهيمن على أيّ منهما، لكي يقيدهما أو ينحرهما:إنهما كليهما سوف يؤكّدان وجودهما، ومثولهما، وحريتهما، وقوّتهما، كرة أخرى ذات يوم. إن الملائكة الجبابرة الآمنة في السماء لتبتسم حين تنتصر النفوس الخسيسة، وتندب النفوس الواهنة هلاكها. أصحيح أن الشعر قد هلك؟ وأن العبقرية قد نفيت؟ لا! لا، أيتها التوسطية[1]، لا تدعي الحسد يدفعك إلى مثل هذا الاستنتاج. لا، إن الشعر والعبقرية ليسا على قيد الحياة فحسب، ولكنهما يهيمان ويُعتقان. ولولا سلطانهما الإلهي المنتشر في كل مكان لكنتِ في جحيم – جحيم حقارتك بالذات.

(1) حالة التوسط بين السمو والوضاعة.

وفيما كنت أقلب في لهفة صفحات مارميون (فقد كانت القصيدة من نظم مارميون فعلاً) انحنى سانت جون ليتأمل رسمي. وفجأة انصبت قامته الفارعة في إجفال، ولم ينبس بأية كلمة. ورفعت بصري إليه، فأشاح عني بوجهه. لقد فهمت ما كان يجول في ذهنه فهماً حسناً، واستطعت أن أقرأ صفحة فؤاده في وضوح. وفي تلك اللحظة استشعرت أني أهدأ نفساً، وآنست آنذاك – مؤقتاً – إني في مركز أقوى من مركزه، وراودتني نزعة إلى إسداء خدمة ما إليه، إذا استطعت ذلك.

وقلت في ذات نفسي: «إنه، على الرغم مما يمتاز به من ثبات وضبط نفس، يجتاز بمحنة قاسية. فهو يكبت عواطفه كلها وآلامه كلها، وهو لا يفصح عن شيء، ولا يعترف أو يدلي بشيء. وإني على مثل اليقين من أن بعض الحديث عن روزاموند الحلوة هذه، التي أعتقد هو بأنه ليس ينبغي له أن يتزوجها، خليقٌ به أن يسرّي عنه. ومن هنا فسأعمد إلى إغرائه بالكلام».

فقلت بادئ الأمر: «اجلس، يا مستر ريفرز». ولكنه أجاب، جرياً على مألوف عادته، قائلاً إنّه لا يستطيع البقاء. فرددت عليه، في ما بيني وبين نفسي، قائلة: «حسن جداً. ابق واقفاً إذا شئت. ولكني لن أدعك تذهب، فقد وطَّنت النية على ذلك: إن العزلة تؤذيك بقدر ما تؤذيني. ولسوف أبذل قصارى جهدي لكى أكتشف ثغرة

في ذلك الصدر الرخامي أستطيع أن أَسْقِط من خلالها قطرة واحدة من بلسم المشاركة الوجدانية».

وسألته في غير مداراة: «هل هذه الصورة تشبه الأصل؟»

– «تشبه الأصل؟ أي أصل؟ أنا لم أنعم النظر فيها».

– «بل لقد فعلت، يا مستر ريفرز».

وأجفل، أو كاد، لفظاظتي المفاجئة الغريبة، ونظر إليّ ذاهلاً. وغمغمت في ما بيني وبين نفسي: «أوه، أنت لم تر شيئاً بعد»، ثم تابعت حديث النفس قائلة: «أنا لن أجيز لبعض الخشونة، من جانبك، أن يصدّني عن سبيلي. وإني لمستعدة لأن أمضي في ذلك إلى أبعد مدى لقد أنعمت النظر فيها إنعاماً بالغاً، ولكني لن أعارضك إذا رغبت في معاودة النظر إليها كرّة أخرى».

ونهضت ووضعتها بين يديه، فقال: «لوحة بارعة الأداء، إن ألوانها لوضّاحة جداً، ورقيقة جداً. وإن خطوطها لرشيقة، ودقيقة إلى درجة بالغة».

– «أجل، أجل. أنا أعرف ذلك كله. ولكن ماذا عن الشبه؟ من تشبه هذه الصورة؟»

فأخذه شيء من تردد، ولكنه ما لبث أن سيطر على نفسه وقال: مس أوليفر، في ما أظن».

– «طبعاً. والآن، يا سيدي، لكي أكافئك على حدسك الصائب أعدك بأن أرسم لك نسخة دقيقة أمينة عن هذه الصورة بالذات، شريطة أن تعلن أن الهدية سوف تحظى منك بالقبول. فأنا لا أريد أن أنفق وقتي وجهدي على هبة قد تعتبرها أنت تافهة».

وواصل التأمل في الصورة. وكلّما أطال النظر إليها ازداد تشبثه بها، وتعاظم اشتهاؤه لها. وغمغم: «إنها تشبهها! والعين مرسومة أدقَّ رسم. أجل، إن كل ما

فيها لكامل: اللون، والضوء، والتعبير. إنها تبتسم!»

– «أيسرِّي عنك الفوز بصورة مماثلة أم يشجيك؟ أصدقني القول. وحين تكون في ماديرا، أو في مدينة الرأس، أو في الهند، هل تلقى بعض العزاء في وجود هذا التذكار بين يديك؟ أم أن النظر إليه خليق به أن يبعث ذكريات من شأنها ان تثير أعصابك وتُوقع في نفسك الأسى؟»

فرفع عينيه واختلس النظر إليّ في تردّد واضطراب. ثم راح يتأمل الصورة كرة أخرى.

– «أما أني أحب الفوز بها فأمر لا ريب فيه. وأما ما إذا كان هذا الصنيع حكيماً أو غير حكيم فتلك مسألة أخرى».

وإذ كنت قد استيقنت أن روزاموند كانت تؤثره حقاً، وأن أباها ماكان ليعارض في زواجهما فإني – وكنت أقلّ اعتزازاً بآرائي من سانت جون – ملت ميلاً قوياً صادقاً إلى العمل من أجل إقناعه بطلب يدها. لقد بدا لي أنه إذا ما قُدِّر له أن يكون هو المسيطر على ثروة مستر اوليفر الضخمة فعندئذ يصبح في إمكانه أن يخدم الناس بها بقَدْر ما يخدمهم لو مضى وعرَّض عبقريته للذبول وقوَّته للضياع تحت شمس استوائية موقدة. وبهذا اليقين أجبته:

– «إنه لخير لك وأحفل بالحكمة، على قدر ما أرى، أن تسارع إلى امتلاك الأصل في الحال».

ولكنه كان قد جلس، هذه المرة. وكان قد وضع الرسم أمامه، على الطاولة، وانحنى فوقها في محبّة وولوع، مسنداً جبينه إلى كلتا يديه. وأدركت أنه لم يكن الآن لا غاضباً ولا مروَّعاً لجرأتي عليه. بل لقد رأيت أنه شرع يجد في محادثته على هذا النحو الصريح في موضوع كان يعتبره محظوراً، وفي سماعه إياه يعالَجُ بمثل هذه الحرية، متعة جديدة، وارتياحاً لم يكن ليطمع فيه. والحق أن المتحفظين من الناس كثيراً ما يحتاجون، أكثر من غير المتحفظين، إلى من يناقش عواطفهم

وشجونهم مناقشة صريحة. والرواقيون الذين يتكشّفون عن أشدّ الصرامة والتجهّم هم بشر. وكثيراً ما يكون في اقتحامنا «بحر نفوسهم الصامت»، في جراءة ومودّة، خدمة جلى تسدى إليهم.

وقلت، فيما كنت أقف وراء كرسيه: «إنها تحبك، أنا واثقة من ذلك. وإن والدها ليحترمك. وإلى هذا، فإنها فتاة فاتنة، وإن تكن أميل إلى الطيش. ولكنك تملك من التبصُّر والفطنة ما يكفيك ويكفيها. وإن من واجبك أن تتزوجها».

وسألني: «هل تحبني حقاً؟»

– «من غير ريب. إنها تحبك أكثر ممّا تحب أيما امرئ آخر. وهي تتحدث عنك على نحو موصول. وليس ثمة موضوع أدعى إلى إبهاجها من هذا الموضوع، فهي تحرص أبداً على إثارته».

فقال: «إنه ليسعدني جداً أن أسمع ذلك. أجل، يسعدني جداً. فواصلي حديثك ربع ساعة أخرى». وأخرج ساعته، فعلاً، ووضعها على الطاولة لكي يقيس الزمن.

فسألته: «ولكن أيّة فائدة ترتجى من مواصلة الحديث، ما دمت – في أغلب الظن – تعدُّ ضربة حديدية من المعارضة، أو تسبك قيداً جديداً تصفِّد به قلبك؟»

– «لا تتخيلي مثل هذه الأشياء القاسية. تخيليني أستسلم وأذوب، كما هي حالي في الواقع. إن الحب البشري ليتفجّر في عقلي مثل ينبوع بكر، ويغمر بفيض عذب أرجاء الحقل الذي حرثته بأعظم الكدح وأكبر العناية، والذي غرست فيه بذور النيات الطيبة والخطط القائمة على إنكار الذات. لقد غرق الآن في طوفان من شراب الآلهة، فجُرِفت البذور الغضّة وتأكّلها السم اللذيذ. وإني لأتخيّل نفسي الآن مضطجعاً على أريكة في حجرة الاستقبال في «قصر الوادي» (فايل هول)، عند قدمي عروسي روزاموند أوليفر: إنها تتحدث إلي بصوتها العذب، ناظرةً إلي من عل بتينك العينين اللتين صورتهما يدك البارعة فأحسنت تصويرهما، مبتسمة لي بهاتين الشفتين المرجانيتين. إنها مِلكي... وإني مِلكها... وإن هذه الحياة الدنيا،

الفانية، لتكفيني. صَه! لا تقولي شيئاً... إن فؤادي لمفعم بالابتهاج... وإن حواسي لذاهلة... دعي المهلة التي حدَّدتها لنفسي تنقضي في سلام».

ونزلت عند رغبته: لقد واصلت الساعة تكَّاتها، وأخذ صدره يعلو ويهبط، وأخلدت أنا إلى الصمت. وفي غمرة من هذا السكون تصرَّمت الدقائق الخمس عشرة. فأعاد الساعة إلى جيبه، ووضع الصورة على الطاولة، ونهض، ووقف على مقربة من المستوقد.

وقال: «والآن، لقد كُرِّست تلك الفترة القصيرة للهذيان والوهم. لقد أرحت صدغيَّ على صدر الإغراء، ووضعت عنقي – طوعاً واختياراً – تحت نيره المصنوع من رياحين. لقد ذقت كأسه. كانت الوسادة مضطربة، ولقد كان في الإكليل حبة صغيرة سامة. إن الخمر ذات طعم مرير، وإن وعودها جوفاء، وعروضها زائفة. إني لأرى هذا كله، وأعرفه.»

وحدَّقت إليه في دهش.

وتابع كلامه: «ومن عجب أني بينما أحب روزاموند أوليفر هذا الحب المشبوب – بكامل زخم الحب الأول لمخلوقة هي على مثل هذا الجمال والبهاء والسحر كله – أعي في الوقت نفسه، وعياً هادئاً نزيهاً – أنها لن تكون لي زوجة صالحة.. إنها لن تكون لي شريكة حياة ملائمة... وإني لابد أن أكتشف ذلك في مدى عام ينقضي على الزواج.. وإنه لابد أن يعقب ابتهاج الشهور الأثني عشر عمرٌ كامل من الندامة. ذلك شيء أعرفه.»

فلم أتمالك عن القول، في نبرة عالية: «هذا عجيب، حقاً! »

وتابع قائلاً: «وفيما يتكشَّف شيء ما فيَّ عن أعظم الحساسية لمفاتنها يتكشَّف شيء آخر عن أعمق التأثر بنقائصها. وهذه النقائص قوية إلى درجة تجعل روزاموند غير قادرة على مشاركتي، وجدانياً، في أيما شيء مما أطمح إليه، أو على التعاون معي في أيما شيء مما سأنهض بعبئه. هل تستطيعين أن تتخيلي

روزاموند رسولةَ، مناضلة تقاسي المتاعب والآلام؟ هل تستطيعين أن تتخيلي روزاموند زوجة لمبشّر؟ أنا لا أستطيع!»

– «ولكنك في غير حاجة إلى العمل كمبشر. في استطاعتك أن تتخلّى عن هذ الخطة».

– «أتخلى! ماذا! عن مهمتي؟ عن رسالتي العظيمة؟ عن الأساس الذي أرسيته في الأرض لإقامة قصر في الجنُّة؟ عن آمالي في أن أدخَل في عداد تلك العصبة التي صهرت جميع المطامح في مطمح مجيد واحد، هو تحسين النوع البشري.. ونقل المعرفة إلى عوالم الجهل... وإحلال السلم محل الحرب، والحرية محل العبودية، والدين محل الخرافة، ورجاء الجنة محل خوف جهنم؟ هل ينبغي لي أن أتخلّى عن هذا كله؟ إنّه أعز عندي من الدم الجاري في عروقي. إنه ما يجب أن أتطلّع إليه، وأن أحيا من أجله».

وبعد صمت استمرّ فترة غير يسيرة قلت: «ومس أوليفر؟ ألا يهمك أساها وخيبة أملها».

– «مس أوليفر محاطة أبداً بجمهرة من الخطاب والمتملقين. وما هو غير شهر واحد، أو أقلّ من شهر واحد، حتى تمحي صورتي من فؤادها إنها سوف تنساني. ولسوف تتزوج، في أغلب الظن، من رجل يسعدها أكثر مما أستطيع أنا أن أسعدها، بكثير».

– «أنت تتحدث في فتور بالغ. ولكن الصراع يعذبك. إنه يضنيك ويُبليك».

– «لا. إذا كان شيء من الهزل قد اعتراني فليس ذلك إلاّ بسبب من قلقي على مشروعاتي التي لمَّا تتحقّق بعد... بسبب من رحيلي الذي لا يفتأ يُرجأ ويؤجل. ففي هذا الصباح بالذات تلقيت نبأ يفيد أن خَلَفي، الذي توقعت وصوله منذ فترة طويلة، لن يستطيع الحلول محلي إلاّ بعد شهور ثلاثة. ومن يدري، فقد تتطاول الشهور الثلاثة لتصبح شهوراً ستة».

– «إنّك لترتعد وإن الدم ليشيع في وجنتيك كلما دخلت مس أوليفر غرفة الصف».

وكرة أخرى غلبت الانطباعة المشدوهة على محيّاه. ذلك بأنه لم يتخيّل أن تجرؤ امرأة على التحدّث إلى رجل ما بمثل هذه اللهجة. أما أنا فلم أجد أي حرج في مثل ذلك الحديث. ذلك بأني ما كنت لأرتاح إلى الاتصال بالعقول القوية الحصيفة المهذبة – سواء أكان أصحابها رجالاً أو نساء – إلاّ بعد أن اجتاز حصون التحفّظ التقليدي، وأتخطّى عتبة الثقة، وأفوز بموضع في سويداء قلوبهم.

وقال: «أنتِ فتاة ذات أصالة، ولست بالهيَّابة. إن في روحك لشيئاً باسلاً، وإن في عينيك لشيئاً ثاقباً. ولكن دعيني أؤكد لك أنك تسيئين فهم عواطفي، بعض الشيء. أنت تتوهمينها أعمق وأقوى ممّا هي في الواقع. وتنسبين إليّ قدْراً من المشاركة الوجدانية أعظم مما أستحق. وحين يتضرّح وجهي وحين أرتعد أمام مس أوليفر لا أرثي لنفسي البتّة. أنا أزدري ضعفي. وأعلم أنه عار وخسَّة... إنه مجرد حمَّى من حميات الجسد، وليس تشنجاً من تشنجات الروح. إن روحي لثابتة مثل صخرة راسخة في أعماق بحر متلاطم ا لأمواج. ألا فاعرفيني على حقيقتي: رجلاً بارداً صُلباً».

وابتسمت ابتسامة تؤذن بعدم التصديق.

واسترسل قائلاً: «لقد نفذتِ إلى سري بهجوم صاعق، وإنه الآن رهن إرادتك. أنا لا أعدو أن أكون، في حقيقتي – مجرّداً من ذلك الثوب الأبيض الذي تغطي به النصرانية عيوب البشر – رجلاً بارداً، قاسي القلب، طموحاً. والحنان الطبيعي له، من بين سائر العواطف، سلطان سرمدي علي. العقل، لا الشعور، هو قائدي وهاديَّ. إن طموحي طموح لاحدّ له، وإن رغبتي في السمو على الآخرين وفي القيام بأكثر مما يقومون من أعمال رغبة لا تعرف الشِّبع. أنا أقدَّس الجلد والمثابرة والكدّ والموهبة، لأن هذه هي الوسائل التي بها يحقق الناس أهدافاً عظمى، ويبلغون منازل السمو السامقة. أنا أراقب سيرتك في اهتمام، لأني أعتبرك نموذجاً للمرأة

المثابرة، المنظّمة، الناشطة، لا لأني آسَى لك، على نحو عميق، بسبب مما أصابك من قبل أو بسبب مما لا تزالين تقاسينه».

فقلت: «لعلّك تريد أن تقول إنّك مجرد فيلسوف وثني».

– «لا. هناك هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين يفرضون الإيمان بالوحي: إني أنا أؤمن بالتعاليم المسيحية. لقد خانك التوفيق في اختيار النعت، فأنا لست فيلسوفاً وثنياً، بل فيلسوف نصراني – تابع من أتباع نخلة المسيح. وبوصفي تلميذاً من تلاميذه أراني أتبنىَّ عقائده الطاهرة، الرحيمة، الخيّرة. أنا أنادي بها، ولقد أخذت على نفسى عهداً بأن أبثها وأنشرها. وإذ نذرت نفسي، في صدر الشباب، للدين هذَّب الدين سجاياي الفطرية على هذا النحو: فمن البذرة الدقيقة، الحنان الطبيعي، أنشأ الشجرة الوارفة الظلال، حب الإنسانية. ومن جذر الاستقامة الإنسانية البرّي ربّى إحساساً واجباً بالعدالة الإلهية. ومن الطموح إلى اكتساب السلطان والشهرة لذاتي البائسة كوَّن الطموحَ إلى توسيع مملكة إلهي، إلى تحقيق الانتصارات لراية الصليب. ذلك كلّه فعله الدين من أجلي: لقد مكّنني من أن أفيد من المواد الخام التي منحتني إيّاها الحياة أحسن ما تكون الإفادة، ومن تشذيب طبيعتي وتدريبها. ولكنه لم يستطع أن يستأصل هذه الطبيعة، ولن يستطيع استئصالها «حتى يوفق هذا الإنسان الفاني إلى الفوز بالخلود».

قال ذلك وتناول قبّعته التي كانت على الطاولة بجانب لوحة ألواني. وكرة أخرى أنشأ ينظر إلى رسم روزاموند أوليفر.

وغمغم: «إنها فاتنة. ولقد أصاب من سمَّاها «زهرة العالم[1] حقاً».

(1)تتألف كلمة ررزاموند من لفظتين rose ومعناه الوردة، و monde ومعناها العالم. (المعرب)

– «ألا تريدني أن أرسم من أجلك لوحة مثلها؟»

– «وما الفائدة من ذلك؟ لا».

وحجب اللوحة بتلك الورقة الرقيقة التي كان من دأبي أن أريح يدي عليها أثناء الرسم صيانةً للورق المقويّ من التلوّث. إن من المتعذّر عليّ أن أحزر ما الذي رآه فجأة على تلك الورقة البيضاء ولكن شيئاً ما قد جذب بصره. فانتزعها انتزاعاً، وراح يحدِّق إلى زاويتها، ثم حدّجني بنظرة.. نظرة عجيبة لا سبيل إلى وصفها، مبهمة لا سبيل إلى فهمها. نظرة بدا وكأنها كانت تسجّل كل شاردة وواردة من شكلي، ووجهي، وملابسي. ذلك بأنها جَابتْ كل ذلك خاطفة نافذة كالبرق. وانفرجت شفتاه، وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكنه كبح الجملة التي أوشكت أن تنطلق من بينهما، أيًّا ما كانت تلك الجملة.

وسألته: «ما بالك؟»

فكان جوابه: «لا شيء على الإطلاق». وإذ أعاد الورقة إلى موضعها رأيته يقتطع، في رشاقة، جانباً ضيقاً من هامشها و يغيّبه في قفازه. ثم إنه حيّاني تحية عاجلة، وتمنى لي أصيلاً طيباً، وتوارى.

وهتفت، مستخدمة تعبيراً من تعابير المنطقة: «هذا يتوِّج الكرة الأرضية على أية حال!»

ورحت بدوري أتأمل تلك الورقة. ولكني لم ألمح عليها أي شيء غير لطخات قليلة من الأصباغ التي جرّبتها بريشتي. واستغرقت في التفكير في ذلك اللغز دقيقة أو دقيقتين. حتى إذا استعصى عليّ حلَّه، وحتى إذا استيقنت أنه لا يمكن أن يكون ذا خطر عظيم، أقلعت عن ذلك، وسارعت إلى نسيان المسألة كلها.

[33]

وكان الثلج قد شرع يتساقط عندما مضى مستر سانت جون لسبيله، وواصلت العاصفة انطلاقها عنيفة مدوِّمة طوال الليل. وفي اليوم التالي هبت ريحٌ مثلوجة هطلت في أعقابها أمطار جديدة تُعمي البصر. حتى إذا هبطت العتمة كان الثلج قد ملأ الوادي وجعل اجتيازه شبه متعذّر. وكنت قد أوصدت مصراع نافذتي، ووضعت عند الباب حصيرة لأمنع تسرُّب الثلج من تحته، وأصلحت النار في موقدي. وبعد أن جلست في جواره نحواً من ساعة أصغيت خلالها إلى ثورة العاصفة المكبوحة أضأت شمعة وتناولت قصيدة مارميون وأنشأت أقرأ:

«ارتفع الضحى فوق القصر القائم عند منحدر نورهام،

وفوق نهر «تويد» الجميل، العريض، العميق،

وجبال «شيفيو» المنعزلة.

إن الأبراج الضخمة، والحصن الداخلي،

والأسوار المنيفة التي تكتنفها

لتتوهجُ ببريق أصفر..»

وسرعان ما نسيت العاصفة في غمرة من تلك الموسيقى.

وسمعت جلبة. وخُيّل إليّ، بادئ الأمر، أن الريح قد هزّت الباب. ولكني ما لبثت أن أدركت أن سانت جون ريفرز قد عاد. لقد رفع المزلاج، وانبثق من غمرة الزوبعة المثلوجة... والظلمة العاوية... ووقف أمامي، وقد بدت العباءة التي غطّت

قامته الفارغة بيضاء كلها مثل نهر متجمد. واستبدّ الذعر بي أو كاد. إذ لم أكن أتوقع أن يفد عليّ تلك الليلة، من الوادي الذي سدّ الثلج مسالكه، أي زائر.

وسألته: «ألديك أيّة أنباء سيئة؟ هل حدث أيما شيء؟»

– «فأجابني، نازعاً عباءته، معلقاً إيّاها على الباب: «لا. ما أيسر ما يستبدّ الذعر بك!» وأعاد دفع الحصيرة التي كان دخوله قد أزاحها عن موضعها. وضرب الأرض بقدميه نافضاً الثلج عن حذائه.

وقال: «سوف ألوّث أرض حجرتك النظيفة. ولكن عليك أن تعذريني هذه المرة وحسب». ثم إنه دنا من المستوقد وأضاف وهو يصطلي بناره: «أؤكد لك أني بذلت جهداً عظيماً للوصول إلى هنا. فقد غمرتني الثلوج برهة، حتى خصري. ولكن هذه الثلوج كانت، لحسن الطالع، دمثة إلى حدّ بعيد».

ولم أتمالك نفسي عن سؤاله: «ولكن ما الذي جاء بك؟»

– «.سؤال ليس من حسن الضيافة توجيهه إلى زائر. ولكن ما دمتِ قد طرحتِهِ عليّ فسأجيب عنه لمجرّد رغبتي في التحدث إليك فترة قصيرة، فقد سئمت كتبي الخرساء وحجراتي الخالية. وإلى هذا، فقد غلب عليّ منذ أمس مثل ذلك الاهتياج الذي يغلب على من لم يسمع من قصة ما إلاً نصفها، فهو مشوّق إلى سماع تتمتها».

وجلس. وتذكرت ما تكشَّف عنه أمس من سلوك شاذ، فشرعت أخشى في الواقع أن يكون قد خولط في عقله. ولكن خبله، إذا صحّ أن الخبل قد ألمَّ به حقاً، كان خبلاً فاتراً رابط الجأش إلى حد بعيد. ولست أحسب أني رأيت ذلك الوجه المليح السمات أشدّ شبهاً بالرخام المنقوش مما رأيته في هذه اللحظة بالذات، بينا كان يرد شعره المطلول بالثلج عن جبينه ويجيز لوهج النار أن يتألق في حرية على جبهته الشاحبة، ووجنته التي ما كانت بأقل شحوباً، وجنته ألتي آلمني أن ألمح عليها آثار الهمّ أو الأسى محفورة على نحو واضح. وترقّبت، متوقعة أن يقول شيئاً

أستطيع على الأقل أن أفهمه. ولكن يده كانت الآن عند ذقنه، وأصبعه كانت على شفته: كان مستغرقاً في التفكير. وقد راعني أن تبدو يده مرهقة مضناة مثل وجهه. وعندئذ فاض قلبي بدفق من الإشفاق ربما كان غير إرادي. ودُفِعت إلى القول:

– «أتمنى لو تفد ديانا أو ماري وتقيم معك. فمن المؤسف جداً أن تضطر إلى العيش وحدك، وأنت رجل قليل الاهتمام بصحّتك إلى حد طائش».

– «لا، على الإطلاق. أنا أعنى بنفسي حين يكون ذلك ضرورياً. وإني الآن لفي خير. هل تجدين فيَّ علة ما؟»

قال ذلك في لا مبالاة ذاهلة أظهرت أن جَزَعي كان، في رأيه على الأقل، غير ضروري البتة. وهكذا أُكرِهتُ على الصمت.

وواصل سانت جون تحريك إصبعه، في تؤدة، فوق شفته العليا، وواصلت عينه رنوّها الحالم إلى الموقد المتوهج. وإذ رأيت من واجبي أن أقول شيئاً فقد سارعت إلى سؤاله ما إذا كان يحسّ بأي تيار من الهواء البارد منبعث من الباب القائم خلفه.

فأجابني في اقتضاب وبعض شكاسة: «لا! لا!»

فقلت في ذات نفسي: «حسناً، إذا أبيت أن تتكلم، ففي وسعك أن تخلد إلى الصمت. سوف أتركك الآن وشأنك، وأعود إلى كتابي».

وهكذا أزلت الجزء المحترق من فتيل الشمعة واستأنفت مطالعة ديوان مارميون. وسرعان ما تحرُّك. وفي الحال جذِبت عيني إلى حركاته. ولكنه اكتفى بأن أخرج حافظة أوراق مصنوعة من جلد مراكشي، وسحب منها رسالة تلاها في صمت، ثم طواها، وأعادها إلى الحافظة، واستغرق في التفكير من جديد. كان من العبث الذي لا طائل تحته أن أطالع كتابي ما بقي هذا الشيء المتسمر المبهم تجاهي. وفي الوقت نفسه لم أستطع – وقد نفد صبري – أن أرضى بالتزام الصمت. ومن هنا وطّنت النية على الكلام، ولينتهرني إذا شاء.

وقلت: «هل تلقيت في الفترة الأخيرة أية رسالة من ديانا وماري؟»

– «لم أتلق أية رسالة بعد تلك التي أطلعتك عليها منذ أسبوع».

– «ألم يطرأ على خططك أيما بديل؟ ألن تدعى إلى مغادرة إنكلترة بأسرع مما توقّعت؟»

– «لست أظن ذلك، في الواقع. فمثل هذا الحظ أسعَدُ من أن يحالفني».

وإذ أُحبِطت محاولاتي كلها فقد عمدت إلى تغيير خطتي. لقد خطر لي أن أتحدّث عن المدرسة وعن تلميذاتي.

– «إن صحة أم ماري غاريت، قد تحسنت، ولقد عادت ماري إلى المدرسة صباح اليوم، ولسوف يفد على مدرستي من «حظيرة المصهَرْ» في الأسبوع القادم أربع فتيات صغيرات. ولقد كان خليقاً بهن أن يَفِدن اليوم، ولكن الثلج صدَّهن عن سبيلهن».

– «حقاً!»

– «إن مستر أوليفر تعهّد بدفع نفقات اثنتين منهن».

– «صحيح؟»

– «إنه يعتزم أن يقيم وليمة لطالبات المدرسة كلهن عند حلول عيد الميلاد».

– «أدري».

– «هل كان ذلك بناء على اقتراح منك؟»

– «لا».

– «بناء على اقتراح من، إذن؟»

– «ابنته، في ما أحسب».

- «إنه اقتراح متناغم مع طبيعتها. فهي طيبة القلب كثيراً».

«أجل».

وكرة أخرى، ران الصمت علينا. ودقَّت الساعة ثماني دقات. فأيقظتْهُ من ذهوله. وأنزل رجلاً عن رجل، واعتدل في جلسته، والتفت إليّ وقال: «دعي كتابك لحظة، واقتربي من النار أكثر قليلاً».

وإذ استبدّ بي عجبٌ لم أجد له نهاية فقد امتثلت أمره.

وتابع حديثه قائلاً: «منذ نصف ساعة تحدّثت عن شوقي اللاهب إلى سماع بقية قصة ما. ولكني رأيت، بعد شيء من التفكير، أن من الخير أن أمثل دور الراوية، وأن أجعل منك مستمعة. وقبل أن أبدأ أجد من الإنصاف أن أنبّهك إلى أن القصة قد تبدو لك مبتذلة بعض الشيء. ولكن الأحداث الذابلة كثيراً ما تكسب درجة من النضارة عندما تنطلق عبر شفاه جديدة. وإلى هذا، وسواء أكانت حكايتي مبتذلة أو طريفة، فإنها موجزة.

«منذ عشرين سنة أغرِم كاهن فقير - ولا بأس في إغفال اسمه الآن - بابنة أحد الموسرين. وأُغرمت الفتاة بدورها به، وتزوجت منه مخالفة بذلك نصائح أهلها جميعاً... أهلها الذين تبرأوا منها بعد الزواج مباشرة. ولم تكد تنقضي سنتان حتى قضى الزوجان الطائشان نحبهما، ودُفنا جنباً إلى جنب تحت بلاطة واحدة. (لقد رأيت قبرهما. كان يشكّل جزءاً من رصيف فناء ضخم يكتنف كاتدرائية عتيقة كالحة، من أثر سخام المداخن، في مدينة صناعية نامية أكثر مما ينبغي من أعمال مقاطعة...). ولقد خلّفا طفلة احتضنها الإحسان، منذ ولادتها، في حِجره... حجره البارد برود أكوام الثلج التي كادت تعوق سبيلي الليلة. وحمل الإحسان تلك المخلوقة اليتيمة إلى بيت خالها الثري حيث ربّتها امرأة خال تدعى (وهنا أصل الأسماء) مسز ريد أوف غايتسهيد... أنت تجفلين... هل سمعت أيّة ضجة؟ أغلب الظن أن مصدر الضجّة لا يعدو أن يكون فأرة تتسلّق سقف حجرة التدريس المحاذية الخشبي المنحدر. لقد كانت هذه الحجرة قبل أن أصلحها وأعدِّلها مخزناً

للمحصولات الزراعية. ومخازن المحصولات الزراعية كثيراً ما تختلف إليها الفئران. فلأتابع... لقد أعالت مسز ريد تلك البنت اليتيمة عشر سنوات. فإذا سألتني هل كانت هذه المخلوقة البائسة سعيدة في كنف امرأة خالها أم غير سعيدة أجبتك: لست أدري، لأن أحداً لم ينبئني بذلك البتَّة. ولكنها نقِلت في ختام تلك المدة إلى مكان تعرفينه، لأنه لا يعدو أن يكون مدرسة لو وود التي أقمت أنت فيها فترة طويلة جداً. والذي يبدو أن سيرتها هناك كانت مشرِّفة جداً، إذ ما لبثت، بعد تخرُّجها، أن أصبحت معلمة في تلك المدرسة بالذات، كما أصبحتِ أنت. والواقع أني لا أتعجّب من تعدّد وجوه الشبه بين ما ضيها وماضيك. وما هي غير فترة حتى تركت التعليم لتعمل مربية خصوصية في أحد البيوت. وهنا أيضاً يتجلَّى الشبه بين قدريكما، فقد تولّت تثقيف فتاة صغيرة كان رجل يدعى مستر روتشيستر قد كفلها».

فقاطعته: «مستر ريفرز!»

فقال: «وفي استطاعتي أن أحزر أي الأحاسيس تعتلج في نفسك. ولكني أسألك أن تكبحيها لحظة، فقد كدت أوفي من القصة على نهايتها، فاسمعيها حتى تلك النهاية. أنا لا أعرف عن خُلق مستر روتشيستر شيئاً. كل ما أعرفه هو أنه عرض على هذه الفتاة أن يتزوّج منها زواجاً مشرِّفاً، وأنها اكتشفت – أمام المذبح بالذات – أنّ له زوجة لا تزال على قيد الحياة وإن تكن مجنونة. أما كيف كان مسلكه معها بعد ذلك، والعروض التي تقدّم إليها بها فذلك ما لا أعرفه على وجه الدُّقة. ولكن ما إن نشأت من ثم مناسبة أوجبت استدعاء المربية حتى اكتشِف أنها مضت لسبيلها... إن أحداً لم يعرف متى وكيف وإلى أين مضت. ذلك بأنها غادرت قصر ثورنفيلد تحت جنح الظلام. وأخذ القوم يبحثون عنها، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح. لقد رادوا البلاد كلها طولاً وعرضاً فلم يُوفّقوا إلى الفوز بأي نبأ من أنبائها. ومع ذلك فإن العثور عليها كان قد أمسى ضرورة ملحَّة. فنشِرت في جميع الصحف إعلانات حولها وإذاعات. وأنا شخصياً تلقيت رسالة من رجل اسمه مستر

بريغز، وهو محام، اشتملت على هذه التفاصيل التي أدليت بها منذ لحظات. ليست هذه القصة قصة عجيبة؟»

فقلت: «لست أريد إلاّ أن تفيدني عن أمر واحد... وما دمت تعرف هذا القدر كله فليس من ريب في أنّك قادر على إفادتي عن هذا الأمر: ماذا حل بمستر روتشيستر؟ كيف هو، وأين هو؟ ما الذي يفعله الآن؟ أهو بخير؟»

– «إني أجهل كلّ ما يتّصل بمستر روتشيستر، فالرسالة لم تشر إليه إلاّ لتروي محاولته الخادعة غير الشرعية التي ألمعت إليها، وأنه لخير لك أن تسألي عن اسم تلك المربية... وعن طبيعة الحادث الذي يُوجب ظهورها».

– «ألم يذهب أحد إلى قصر ثورنفيلد؟ ألم ير أحد مستر روتشيستر؟»

– «لست أظن ذلك».

– «ولكنهم كتبوا إليه؟»

– «من غير ريب».

– «وماذا قال؟ من الذي يحتفظ برسائله؟»

– «يشير مستر بريغز إلى أن الجواب الذي جاءه لم يكن من مستر روتشيستر، ولكن من سيدة لقد كان مذيَّلاً بتوقيع «أليس فيرفاكس ».

وعصفت بي قشعريرة ورعب. وإذن فأغلب الظن أن أسوأ مخاوفي كانت حقيقية. فلا ريب في أنه قد غادر إنكلترة واندفع، في يأسه المتهوّر، إلى موطن سابق من تلك التي كان يألفها في القارة الأوربية. وأي مخدِّر لآلامه المبرِّحة وأي هدف لعواطفه الجيّاشة التمسهما هناك؟ إني لم أجرؤ على الإجابة عن ذلك السؤال. إيه، يا سيدي المسكين – الذي كاد ذات مرة أن يكون زوجي – والذي طالما دعوته: «إدواردي العزيز!»

فلاحظ مستر ريفرز قائلاً: «لا ريب في أنه كان رجل سَوء».

فقلت في حرارة: «أنت لا تعرفه... فلا تبدِ أيما رأي فيه».

فأجابني في سكون: «حسن جداً. والواقع أن ذهني منشغل بغيره: إن لدي قصتي التي يجب أن أتمَّ روايتها. وما دمت لم تسأليني ما اسم المربية فالواجب يقتضيني أن أنبئك به من تلقاء نفسي... تمهلي... إنه لدي هنا... وإنه لأدعى إلى الرضا، دائماً، أن يرى المرء الأشياء الهامة مدوَّنة سواداً على بياض».

وفي تؤدة أخرج حافظة أوراقه من جيبه مرّة أخرى وفتحها، وراح يتحرّاها. ثم إنه أخرج من إحدى طبقاتها قصاصة رثّة من ورق، اقتطعت على عجل. فعرفت في نسيجها وفي لطخات الأصباغ الزرقاء الصافية، والحمراء القاتمة والقرمزية التي عليها هامش غطاء الصورة المختطَف. ونهض من مكانه، ووضعها تحت ناظري. وقرأت هاتين الكلمتين، «جين ايير»، مكتوبتين بخط يدي بحبر صيني.

ولا ريب في أني كتبت ذلك في ساعة من ساعات الذهول.

وقال: «لقد كتب بريغز إليّ عن فتاة تدعى جين ايير. ولقد تساءلت الإعلانات المنشورة في الصحف عن فتاة تدعى جين ايير، ولكني لم أكن أعرف غير جين ايليوت. وأعترف لك أن الشكوك كانت قد ساورتني، ولكن تلك الشكوك لم تنقلب إلى يقين إلاّ أصيل أمس. فهل تقرّين بأن هذا هو اسمك وتتخلّين عن اسمك المستعار؟»

– «أجل، أجل، ولكن أين مستر بريغز؟ لعلّه يعلم من أمر مستر روتشيستر أكثر ممّا تعلم».

– «بريغز في لندن. وأنا أشكّ في أنه يعرف أيما شيء مهما يكن عن مستر روتشيستر، لأن اهتمامه ليس منصبًّا على مستر روتشيستر. وفي الوقت نفسه، ألاحظ أن انشغالك بتعقُّب الأمور الجزئية قد أنساك بعض النقاط الأساسية. فأنت لا تسألين لماذا يبحث مستر بريغز عنك.. وما الذي يبتغيه منك..».

– «حسناً، ما الذي كان يريده مني؟»

– «كان يريد مجرّد إعلامك بأن عملك، مستر ايير الماديري[1]قد توفي، وأنه قد ترك لك ثروته كلها، وأنك الآن غنية... ذلك كل ما يريده، ولاشيء غير ذلك.».

(1) نسبةإلى.«ماديرا».

«أنا غنية؟»

– «أجل، أنت، غنية. لقد ورثت إرثاً كبيراً».

وران الصمت لحظات.

ثم إن مستر سانت جون استطرد قائلاً: «إنّ عليك أن تثبتي هويتك، من غير ريب. وهي خطوة لا تنطوي على أيّة مصاعب. وعندئذ يصبح في ميسورك أن تضعي يدك، في الحال، على التركة. إن ثروتك هي كناية عن سندات على الحكومة الإنكليزية، وبريغز يملك الوصية والوثائق الضرورية».

وهنا قُلِبت في حياتي صفحة جديدة! والواقع أنه لشيء رائع، أيها القارئ، أن يجد المرء نفسه وقد ارتفع في لحظة واحدة من الفاقة إلى الثروة... شيء رائع جداً، ولكنه ليس شيئاً يستطيع المرء أن يفهمه، وبالتالي أن يستمتع به في الحال. وإلى هذا ففي الحياة مصادفات أخرى أدعى إلى الإثارة والابتهاج الغامر: إن المصادفة التي رفعتني من العوز إلى الغنى هي شيء حقيقي، مسألة من مسائل العالم الواقعي، ليس فيها أيّة نفحة من نفحات المثالية. إن كل المعاني المتِّصلة بها معان حقيقية وهادئة، وكذلك ظواهرها جميعاً. وإن المرء لا يثب، لدى وقوعها، ولا يقفز، ويهتف هتاف الفرح والنصر. لا، فهو ما إن يسمع أنه أمسى صاحب ثراء حتى يشرع في التفكير في التبعات، وينصرف إلى التأمل في قضايا العمل والتجارة وما إليها. وعلى أساس من الرضا الراسخ تنهض بعض الهموم

الكئيبة – وعندئذ نتمالك أنفسنا، ونستغرق في تأمل السعادة وقد زوينا ما بين أعيننا.

وفوق هذا، فإن تعبيرَي: «الإرث» و«الإرث المخلَّف بوصية» يجريان جنباً إلى جنب مع لفظتي «الموت» و«الجنازة». فقد سمعتُ، مع نبأ الثروة التي آلت إليّ، أن عمي – وهو نسيبي الأوحد – قد مات.كان الأمل قد راودني، منذ عرفتُ بوجوده، بأن أراه ذات يوم، وها إن أملي ذاك يتلاشى ولن يُقَدَّر لي أن أرى عمي أبد الدهر. زد على ذلك أن هذه الثروة هبطت عليّ وحدي، أنا الفتاة التي لا أنسباء لي، ولم تهبط عليَّ وعلى أسرة متهللة. لقد كانت نعمة كبرى من غير ريب، وخليق بتحرري من الفقر أن يكون شيئاً في غاية الروعة – أجل، لقد استشعرت هذا – وكان في تلك الفكرة ما أفعم قلبي بالارتياح.

وقال مستر ريفرز «ها قد حَلِّلت عقدة جبينك آخر الأمر. وكنت حسبت أن «مدوسة[1] قد نظرت إليك، وأنك قد انقلبت إلى حجر... ولعلك الآن أن تسأليني ما مبلغ ثروتك؟»

(1) Medusa، في الميثولوجيا اليونانية، إحدى ثلاث شقيقات كانت لرؤوسهنّ بدل الشعر أفاع وثعابين. (المعرب)

– «ما مبلغ ثروتي؟»

– «أوه، شيء هزيل! إنه ليس شيئاً يستحق الذكر، طبعاً! عشرون ألف جنيه... ذلك ما ورد على ألسنتهم في ما أحسب. ولكنه مبلغ تافه، أليس كذلك؟»

– «عشرون ألف جنيه؟»

وكان ههنا مبعث دهش جديد. فقد كنت أعتقد أن التركة لا تزيد على أربعة آلاف جنيه أو خمسة آلاف جنيه. فإذا بهذا النبأ يقطع أنفاسي، حقاً، لحظة قصيرة. وهنا ضحك مستر سانت جون، وهو الرجل الذي لم أسمعه يضحك قط من قبل.

وقال: «حسناً، لو أنك كنت قد ارتكبت جريمة قتل فجئت أقول لك إن جريمتك قد اكتُشِفت إذن لما شُدِهت بأكثر مما شُدِهت الآن».

– «إنه مبلغ ضخم... ألا تعتقد أن ثمّة خطأ؟»

– «ليس ثمة خطأ البتة».

– «ربما قرأتَ الرقم على نحو مغلوط... إنه قد يكون ألفي جنيه!»

– «لقد كتب المبلغ بالحروف، لا بالأرقام: عشرون ألفاً».

وكرَّة أخرى استشعرت وكأنني شخص متوسط الشراهة يجلس وحده إلى مائدة أفعِمت بما يُشبع مئة طاعم. وهنا نهض مستر ريفرز، وارتدى معطفه وقال:

– «لو لم تكن هذه، الليلة بالغة الضراوة لأرسلت حنة للبقاء إلى جانبك، إذ يبدو لي أنّك أشدُّ تعاسة من أن تتركي وحيدة. ولكن مسكينة هي حنة! إنها لا تُحسن التخويض في الثلج كما أفعل. إن رجليها ليستا طويلتين مثل رجليَّ. وهكذا يتعيّن عليّ أن أتركك لأحزانك. طاب مساؤك».

وكان يرفع مزلاج الباب حين خطرت لي فكرة مفاجئة.

وصحت: «قف دقيقة واحدة».

– «ماذا تريدين؟»

– «إن بي لشوقاً عنيفاً إلى أن أعرف لماذا كتب إليك مستر بريغز في شأني، وكيف عرفك، أو كيف استطاع أن يتخيّل أن في إمكانك – أنت المقيم في مثل هذا الموطن النائي – أن تساعده في العثور علي...».

فقال: «أوه، أنا قسٌّ، والقسس كثيراً ما يُفزَع إليهم في القضايا الغريبة». وكرة أخرى، صَرَّ مزلاج الباب.

فهتفت: «لا، هذا لا يقنعني!» والواقع أنه كان في ذلك الجواب المتعجّل المقتضب شيء أثار فضولي أكثر من أيما وقت مضى، بدلاً من أن يسكِّنَهُ ويلطِّفه.

وأضفت قائلة: «إنها لمسألة عجيبة جداً. ويتعيّن عليّ أن أعرف عنها أكثر من هذا القدر».

– «في فرصة أخرى».

– «لا: الليلة!... الليلة!» وفيما كان يبتعد عن الباب بعض الشيء أقحمت نفسي بينه وبين ذلك الباب. فبدت عليه إمارات الارتباك.

وقلت: «لا ريب في أنك لن تمضي لسبيلك إلاّ بعد أن تتبئني بكل شيء!»

– «أنا أؤثر أن لا أفعل، في هذه اللحظة بالذات».

– «بل سوف تفعل... يتعين عليك أن تفعل!»

– «أؤثر أن تنبئك ديانا أو ماري بذلك».

وكان طبيعياً أن تثير هذه الاعتراضات لهفتي وتشوّقي حتى الأوج. فلم يكن بد من إشباعهما، ومن أن يتمّ ذلك في غير إبطاء. ولقد عبَّرت له عن ذلك كله فأجاب:

– «ولكني أعلمتك أني رجل عنيد يصعب إقناعه».

– «وأنا امرأة عنيدة... من المستحيل مماطلتها».

وتابع قائلاً: «وإلى هذا، فأنا بارد لا تحركّني أيما حرارة».

– «أما أنا فملتهبة. والنار تذيب الثلج. إن نار الموقد الذي هناك قد أذابت الثلج كله عن معطفك، وأسالته كذلك على أرض مطبخي، فجعلتها أشبه شيء بطريق تدوسها الأقدام. وإذا كنت تريد، يا مستر ريفرز، أن تحظى بالعفو عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عندما لوّثت مطبخاً مفروشاً بالرمل فليس عليك إلاّ أن تنبئني بالذي أرغب في معرفته».

فقال: «حسن، إذن، سوف أذعن.. إن لم يكن لحماستك، فلمواظبتك. كالحجر تُبليه قطرات الماء المتساقطة على نحو متواصل. وإلى هذا فلا بد لك من أن تعرفي ذات يوم... عاجلاً كان ذلك اليوم أم آجلاً. إن اسمك جين ايير، أليس كذلك؟»

– «طبعاً. لقد حُسِمت هذه المسألة من قبل».

– «لعلّك لا تعلمين أني سَمِيُّكِ.. إن اسمي هو سانت جون ايير ريفرز؟»

– «لا، من غير ريب! أنا أتذكر الآن أني رأيت الحرف «أ» ضمن حروف اسمك الأولى المدوّنة على تلك الكتب التي أعرتني إيّاها في مناسبات مختلفة. ولكني لم أتساءل مرة واحدة أي اسم يمثِّل. ولكن ماذا بعد؟ لا ريب في...».

وأمسكت عن الكلام. ذلك بأني لم أكن واثقة من قدرتي على تقبُّل، بَلْه على التعبير عن، الفكرة التي خطرت لي على نحو مفاجئ... والتي تجسَّدت... وانتصبت – في ثانية واحدة – أمراً مرجحاً إلى أبعد حدود الترجيح. لقد تواءمت الأحداث، وتناغمت. وانتظمت في نَسقٍ. إن السلسلة التي كانت حتى تلك اللحظة كتلة من الحلقات لا شكل لها قد سُحِبت الآن على نحو قويم... فإذا كل حلقة فيها كاملة، وإذا الصلة بين الحلقات تامة. لقد عرفت بالغريزة – حتى قبل أن يقول سانت جون كلمة إضافية – حقيقة الوضع. ولكني لا أستطيع أن أتوقّع أن يكون لدى القارئ مثل هذا الإدراك الحدسي، وهكذا يتعيّن عليّ أن أكرر شرحه للمسألة:

– «كانت أمي من آل ايير. وكان لها إخوان اثنان، أحدهما قس تزوّج من مس جين ريد الغايتسهيدية، والآخر السيد جون ايير التاجر الراحل الذي كان يقيم في فونشال عاصمة ماديرا. وفي شهر آب (أغسطس) الماضي كتب إلينا مستر بريغز، بوصفه محامي مستر ايير، رسالة طواها على نعي خالنا، وأعلمنا فيها أنه ترك ثروته لابنة أخيه القسّ، اليتيمة، متجاهلاً إيّانا بسبب من نزاع – لم تستطع الأيام أن تسحب عليه ذيل النسيان – كان قد نشب بينه وبين أبي. ولقد عاود الكتابة منذ بضعة أسابيع ليعلمنا. بأن الوارثة لم يُعثر لها على أثر، وليسألنا ما إذا كنا نعرف

أيما شيء عنها. ثم إنني اهتديت إليها يفضل اسم كان قد كُتِب مصادفة على قصاصة من ورق. أما البقية فأنت تعرفينها».

ومرّة أخرى حاول أن يمضي لسبيله. ولكني أسندت ظهري إلى الباب حائلة بينه وبين ذلك، وقلت: «دعني أتكلّم. امنحني دقيقة واحدة حتى آخذ نفساً وأفكّر».

وأمسكت عن الكلام. وكان واقفاً تجاهي، رابط الجأش، وقبعته في يده. ولكني ما لبثت أن استطردت قائلة:

– «لقد كانت أمّك شقيقة أبي».

– «نعم».

– «وبالتالي فهي عمتي؟»

فحنى رأسه.

–«لقد كان عمي جون، إذن، هو خالك جون؟ وأنت، وديانا، وماري أبناء أخته، كما أنني ابنة أخيه؟»

– «هذا شيء لا مجال لإنكاره».

– «وإذن فأنتم ثلاثتكم أبناء عمتي؟ وإذن فنصف الدم الذي يجري في عروقي وفي عروقكم يتفجّر من ينبوع واحد؟»

– «أجل، إن رباط الخؤولة ليشدّنا إليك».

وسرِّحت بصري فيه. وبدا لي وكأنني عثرت على أخ.. أخ أستطيع أن أفخر به.. أستطيع أن أحبّه. وعلى أختين كانت سجاياهما من السمو بحيث أوقعت في نفسي – يوم كانتا عندي مجرّد غريبتين – محبة خالصة وإعجاباً أصيلاً. إن الفتاتين اللتين كنت قد حدّقت إليهما – إذ ركعت على الأرض الندية واختلست النظر من خلال نافذة مطبخ «مور هاوس» الخفيضة ذات الشعرية – تحديقاً

انطوى على مزيج مرير من الشوق واليأس لم تكونا غير نسيبتين من أقربائي الأدنين. وإن الفتى المهيب الذي وجدني شبه محتَضَرة عند عتبة داره لم يكن غير ابن عمتي. اكتشاف ماجد بالنسبة إلى بائسة متوحّدة! اكتشاف كان في الواقع بمثابة ثروة! ثروة للفؤاد! ومنجم للمحبة البهيجة الخالصة. كانت هذه نعمة ذات إشراق وحيوية وإبهاج – لا كمنحة الذهب الثقيل. إنها محببة إلى النفس، ولكنها تحرِّر من ثقلها. وهنا رحت أصفق في جذل مفاجئ – لقد تسارعت نبضات قلبي، واهتزت عروقي طرباً.

وهتفت: «أوه، أنا سعيدة!... أنا سعيدة!»

وابتسم سانت جون وسألني: «ألم أقل لك أنك أهملت النقاط الأساسية لكي تتعقبي توافه ليس لها كبير شأن؟ لقد غلبك عليك الوقار عندما أنبأتكِ بأنك ورثت ثروة. وها أنت ذي الآن يغلب عليك الاهتياج لمسألة أقلّ أهمية».

– «ما الذي يمكن أن تعنيه؟ قد لا تكون هذه المسألة أقلّ أهمية عندك. إن لك شقيقتين، فلست تبالي بابنة خال تكتشفها. أما أنا فلم يكن لي أحد، وها إن ثلاثة أنسباء – أونسيبتين، إذا آثرت أن لا تُعَدَّ معهما – قد ولدوا الآن في عالمي اليافع. أكرّر القول من جديد إني سعيدة!»

وأنشأت أذرع الحجرة في خطىً واسعة. ثم ما لبثت أن توقّفت نصف مختنقة بالأفكار التي راودتني بأسرع مما استطعت أن أستقبل وأفهم وأبتّ... وكانت أفكاراً تدور على ما قد يكون، وما يمكن أن يكون، وما ينبغي أن يكون، وذلك قبل انقضاء فترة من الوقت طويلة. ونظرت إلى الجدار العاري: لقد بدا في عينيّ سماء حافلة بالنجوم، كل نجم منها هداني إلى غرض أو مسرّة. إن في ميسوري الآن أن أفيد أولئك الذين أنقذوا حياتي، والذين أحببتهم – حتى تلك اللحظة – حباً عاقراً عقيماً. كانوا يرزحون تحت نير ثقيل، ففي طاقتي أن أحرّرهم. وكانوا مشتتين، ففي مستطاعي أن أجمع شملهم. إن الغنى والبحبوحة اللذين أفاءهما الله عليَّ ممكنٌ إسباغهما عليهم أيضاً. ألم نكن أربعة؟ إننا إذا قسّمنا العشرين ألف جنيه، في ما

بيننا جميعاً بالتساوي، لأصاب كلاّ منا خمسة آلاف جنيه – وهو مبلغ كاف وأكثر من كافٍ: إنّه يحقق العدالة للجميع، ويكفل السعادة المتبادلة. وعندئذ لم تعد تلك الثروة حملاً أنوء تحت ثقله. إنها ما عادت مجرِّد تركة من مال أوصي لي به... لقد غدت ميراث حياة، وأمل، وابتهاج.

أما كيفَ بَدَوْتُ فيما كانت هذه الأفكار تقتحم عقلي اقتحاماً فذلك ما لا أستطيع الجزم به. ولكني سرعان ما لاحظت أن مستر ريفرز كان قد وضع خلفي كرسياً، وكان يحاول – في تلطُّف ورفق – أن يجلسني عليه. ولقد نصح لي أيضاً بأن أحتفظ برباطة جأشي. ولكني سخرت من تلميحه إلى ضعفي وذهولي، فرددت يده عني، وعدت أذرع الحجرة من جديد.

وقلت له: «اكتب غداً إلى ديانا وماري، وقل لهما أن ترجعا إلى البيت في الحال. لقد قالت ديانا إنه خليق بهما أن تعتبرا نفسيهما من أهل الثراء لو فازت كلٌّ منهما من التركة بألف جنيه ليس غير. وهكذا فإن فوز كلٌّ منهما بخمسة آلاف جدير بأن يجعلهما تعيشان في سعة بالغة».

فقال سانت جون: «قولي لي من أين أستطيع أن آتيك بكوب ماء. إن عليك، في الحق، أن تبذلي جهداً لتهدئة مشاعرك».

– «هراء! وأي ضربٍ من التأثير سوف يخلفه الإرث في ذات نفسك؟ هل سيبقيك في إنكلترة، ويغريك بالزواج من مس أوليفر، وبالإخلاد إلى الاستقرار مثل أي بشري عادي؟»

– «إنك لتهذين. وإن الاضطراب ليغلب على تفكيرك. ويُخيّل إليّ أني تعجّلت في الإفضاء إليك بذلك النبأ تعجلاً ما كان ينبغي لي أن أصطنعه. فقد أثار اهتياجك إلى درجة عجزت قوّتك عن احتمالها».

– «مستر ريفرز! إنك لتخرجني عن طوري، فأنا مالكة زمام عقلي، وإنك أنت الذي تسيء فهمي، أو على الأصح تتظاهر بإساءة فهمي».

– «حاولي أن تشرحي رأيك على نحو أوسع بعض الشيء، فلعلي عندئذ أن أوفّق إلى فهمك فهماً أفضل».

– «أشرح؟ وهل ثمة ما يحتاج إلى شرح؟ إنك لن تعجز عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن عشرين ألف جنيه – المبلغ الذي هو موضوع البحث – إذا قُسِم بالتساوي بين ابنة أخ الفقيد وأولاد أخته الثلاثة تورّث كلاًّ منهم خمسة آلاف جنيه. وكل ما أريده منك هو أن تكتب إلى أختيك وتُبلغهما نبأ الثروة التي آلت إليهما».

– «تعنين.. التي آلت إليك».

– «لقد أدليت إليك برأيي في المسألة، وليس لي رأي آخر. أنا لست أنانية على نحو وحشي، ظالمة على نحو أعمى، منكرة للجميل إلى حدّ جهنمي . وإلى هذا، فقد عقدت العزم على أن يكون لي بيت وأنسباء. أنا أحب «مورهاوس»، ولسوف أقيم في «مورهاوس». أنا أحب ديانا وماري، ولسوف أشدّ نفسي – مدى الحياة – إلى ديانا وماري. إنه ليسعدني وينفعني أن أملك خمسة آلف جنيه، وإنه ليعذبني ويضايقني أن أملك عشرين ألف جنيه. وإلى هذا، فإن هذه العشرين ألف جنيه لا يمكن أن تكون ملكي في منطق العدل وأن تكن قد أمست ملكي في منطق القانون. وهكذا فإني أتخلّى لكم عن شيء فائض عن حاجتي بكل ما في الكلمة من معنى. ورجائي إليك أن تكفَّ عن كل معارضة لذلك، وعن كل مناقشة فيه. فلنتفاهم في ما بيننا، ولنحسم الأمر في الحال».

– «إنك تصدرين الآن عن حوافز آنية، على حين أن الواجب يقتضيك أن تنتظري أياماً متعددة تقلّبين الرأي في مسألة مثل هذه قبل أن يصبح في الإمكان أن تُعتبر كلمتك وجيهة».

– «أوه! إذا كان كل ما ترتاب فيه هو إخلاصي في ما أقول كنت بذلك راضية: هل ترى عدالة القضية؟»

- «الواقع إني أرى بعض العدالة، ولكنها عدالة منافية لكلّ عرف. وإلى هذا فإن الثروة بكاملها حقّ من حقوقك. لقد كسبها خالي بجهوده الخاصة، ولقد كان له ملء الحرية في تركها لمن يشاء: وإنما تركها لك أنت. وأيًّا ما كان، فإن العدالة تُجيز لك الاحتفاظ بها: إن في ميسورك، بضمير مرتاح، أن تعتبريها ملكاً خالصاً لك».

فقلت: «المسألة بالنسبة إليّ هي مسألة شعور بقدْر ما هي مسألة ضمير: إن عليّ أن أطيع أحاسيسي وأدلُّها، فنادراً ما أتيحت لي فرصة الإقدام على ذلك. ولو قد آثرتَ أن تجادلني، وتعارضني، وتضايقني سنة كاملة لما استطعت أن أتخلّى عن المتعة اللذيذة التي قدِّر لي أن ألمح منها وميضاً - متعة الوفاء، على نحو جزئي، بالتزام ضخم، واكتساب أصدقاء لي يقيمون على عهدي مدى الحياة».

فأجاب سانت جون: «هذا ما تخالينه الآن. لأنك لا تعرفين معنى التملُّك، وبالتالي معنى الاستمتاع بالثروة. أنت غير قادرة على تكوين المنزلة الرفيعة التي ستمكّنك من احتلالها في المجتمع، وعن المستقبل الباسم الذي ستفتح أبوابَهُ في وجهك. أنت غير قادرة... ».

فقاطعته: «وأنت أيضاً غير قادر، البتة، على تخيّل التوق الذي يعتمل في نفسي إلى حب الأخوة والأخوات. فلم يكن لي في أيما يوم من الأيام بيت، ولم يكن لي قط أخ أو أخوات. أما الآن فيتعيّن عليّ أن يكون لي ذلك، ولسوف يكون. أنت لن تأبى الاعتراف بي أختاً لك، أليس كذلك؟»

- «جين، إني سوف أكون أخاك... وإن شقيقتي سوف تكونان أختيك، ولكن من غير ما اشتراط لهذه التضحية بحقوقك المشروعة».

- «أخ؟ أجل، ولكن على مبعدة ألف فرسخ! اختان؟ أجل، ولكنهما تكدحان كدح العبيد الأرقاء في بيوت الغرباء، بينا أتْخَمُ أنا بذهب لم أتعب في كسبه قط ولست أستحقه! يا له من ثراء سخيف أنْعَمُ به، على حين تخلو جيوبكم أنتم من بنس واحد! ويا لها من مساواة وإخاء! ومن نسب وثيق وقربى حميمة! ».

– ولكن مطامحك إلى الصلات العائلية والسعادة البيتية يمكن أن تتحقق، يا جين، بوسائل غير تلك التي تفكرين فيها: في استطاعتك أن تتزوجي».

– «عدنا إلى الهراء، من جديد! الزواج؟ أنا لا أريد أن أتزوج، ولن أتزوج أبد الدهر».

– «هذا إرسال للكلام على عواهنه. ومثل هذه التوكيدات الخطرة دليلٌ على الاهتياج الذي ترزحين تحت عبئه».

– «لا، أنا لا أطلق الكلام على عواهنه: إني أعرف مشاعري الخاصة، ومبلغ ما يخامر ذاتي من مقت لمجرّد فكرة الزواج. إن أيما امرئ لن يتزوج مني بدافع من الحب، ولست أرضى لنفسي أن ينظر الناس نظرتهم إلى مضاربة تجارية. أنا لا أطمع في العيش مع رجل غريب.. رجل أجنبي لا يشبهني البتة ولا تشدّه إليّ أية مشاركة وجدانية. أنا أريد ذوي قرباي: أولئك الذين أستشعر نحوهم انعطافاً وميلاً بالِغَيْن. قل كرة أخرى إنك سوف تكون أخي، فقد أحسستُ، حين نطقتَ بتلك الكلمات، بالرضا والسعادة. أعِدْها على مسمعي، إذا استطعت، أعِدْها في صدق وإخلاص!»

– «أحسب أن في استطاعتي ذلك. أنا أعلم أني أحببت، دائماً أختيَّ. وأعلم على أي أساس تنهض محبتي: الاحترام لقيمتهما الذاتية والإعجاب بمواهبهما. وأنت أيضاً فتاة ذات مبادئ وعقل: إن أذواقك وعاداتك لتشبه أذواق ديانا وماري وعاداتهما، ولقد طالما أنِسْتُ بالاجتماع إليك، ووجدت في حديثك – منذ فترة بعينها – عزاء نافعاً. أنا أستشعر أن باستطاعتي، في يُسر وعلى نحو طبيعي، أن أفسح لك مجالاً في قلبي، بوصفك ثالثة أخواتي وأصغر هنّ سناً».

– «أشكرك: هذا يكفيني لهذه الليلة. والآن، من الخير لك أن تمضي لسبيلك. لأنك إذا لبثت مدة أطول كان من الجائز أن تثيرني من جديد ببعض وساوسك المرتابة».

- «والمدرسة، يا مس ايير؟ يجب أن نعمد الآن، في ما أحسب، إلى إغلاقها».

- «سوف أحتفظ بوظيفتي كمعلمة إلى أن تجد بديلاً عني».

فافتر ثغره عن ابتسامة راشحة بالموافقة. وصافحني، وانصرف.

ولست في حاجة إلى أن أروي، في إسهاب، ضروب النضال التالية التي خضتها والحجج التي اصطنعتها لكي أسوي المسائل المتّصلة بالإرث وفق ما أشاء. لقد كانت مهمتي شاقة جداً: ولكن لما كنت قد عقدت النية عقداً لا انفصام له... ولما كان أبناء عمتي قد رأوا آخر الأمر أني كنت مصممة تصميماً حقيقياً لا رجعة عنه على قسمة الثروة بيننا بالتساوي... ولما كانوا قد استشعروا في قرارة نفوسهم عدالة تلك القسمة... ولما كانوا إلى ذلك قد أدركوا أنهم لو كانوا مكاني إذن لفعلوا مثل الذي رغبت في فعله على وجه الضبط... فقد وافقوا آخر الأمر على عرض المسألة على هيئة المحكَّمين. وكان القاضيان اللذان اختيرا لهذه المهمة هما مستر أوليفر وأحد المحامين المقتدرين. وأقرَّني كلا الرجلين على رأيي، فوُفِّقت إلى تحقيق ما سعيت بسبيله. وأُعِدَّت وثائق التنازل. وأصبح كلٌّ منا نحن الأربعة، أنا وسانت جون وديانا وماري، يملك ثروة كافية.

[34]

ولم يكد كل شيء يُسَوَّى حتى كان عيد الميلاد قد دنا، وحتى كانت فترة العطلة العامة قد اقتربت. عندئذ أغلقت أبواب مدرسة مورتون، باذلة جهدي لكي أجعل الفراق غير عقيم، من ناحيتي. إن الحظ السعيد ليفتح اليد كما يفتح الفؤاد على نحو يدعو إلى الإعجاب. ونحن حين نعطي شيئاً ما من أصل ما تلقَّيناه بغير حساب إنما نتيح متَنفَّساً لغليان أحاسيسنا الاستثنائي. وكنت استشعرت، في ابتهاج، منذ فترة غير يسيرة، أن كثيراً من طالباتي الريفيات قد أحببنني، حتى إذا افترقنا استيقنت من حقيقة ذلك الشعور: لقد عبّرن عن محبتهن في بساطة وفي قوة. ولشد ما كان سروري عظيماً عندما وجدت أني أحتلّ، فعلاً، مكاناً رفيعاً في قلوبهن الطاهرة: لقد وعدتهن بأن لا يعبر بي في المستقبل، أسبوع واحد من غير أن أقوم بزيارة لهن في المدرسة، ومن غير أن أعطيهن درساً يستغرق ساعة كاملة.

ووفد مستر ريفرز علينا لحظة استعرضت الطالبات، اللواتي كان عددهن قد بلغ ستين، وقد انصرفن من المدرسة على نحو نظامي، ولحظة أوصدت الباب ووقفت والمفتاح في يدي أتبادل بضع كلمات وداعية خاصة مع نصف دزينة من أفضل طالباتي: فتيات لا يجد المرء في طول الريف البريطاني وعرضه نساء يَفُقْنَهُنَّ أدباً وقدْراً، وخفراً، وحُسن اطِّلاع. وليس بالقليل هذا المديح. لأن أهل الريف البريطاني أعلى ثقافة، وخير أخلاقاً، وأشد احتراماً للنفس من أبناء الريف في أيما بلد أوروبي آخر. فقد قُدِّر لي منذ تلك الأيام أن القى كثيراً من الريفيات فبدا لي أن خيرهن كُنّ جاهلات، جافيات، حمقاوات بالقياس إلى فتياتي المورتونيات.

وسألني مستر ريفرز عندما انصرفن: «هل تعتبرين أنك فزت بالثواب الذي تستحقينه لقاء شهور الكدح التي أنفقْتِها هنا؟ أليس في شعورك بأنك قد أسديت خدمة حقيقية ما لأبناء عصرك وجيلك ما يوقع في نسفك البهجة؟»

– «من غير ريب»

– «وأنت لم تكدحي إلا شهوراً قليلة جداً! أليس خليقاً بالحياة الموقوفة لخدمة أبناء جنسك أن تكون حياة قد أنفِقت على وجه صالح؟»

فقلت: «أجل، ولكني لا أستطيع أن أمضي العمر كله على هذا النحو. أنا أرغب في أن أستمتع بملكاتي الخاصة بقدْر رغبتي في تثقيف ملكات الآخرين. بل إن عليّ أن أستمتع بها الآن، فلا تَدْعُ عقلي أو جسدي للعودة إلى المدرسة. إني الآن خارج بابها، وإني لعلى أتمّ الاستعداد لولوج باب العطلة الكاملة».

عندئذ ران على وجهه الغم. وقال: «ثم ماذا؟ ما هذه اللهفة المفاجئة التي تتكشَّفين عنها؟ ما الذي تعتزمين أن تفعليه؟»

– «أن أنشط... أن أنشط ما وسعني ذلك. وقبل كل شيء يتعيّن عليّ أن أتوسّل إليك أن تحرّر حنة، وتعهد في أمر السهر على راحتك إلى شخص آخر».

– «وهل تريدينها؟»

– «أجل، أريد أن تصحبني إلى «مور هاوس». إن ديانا وماري سوف ترجعان إلى البيت بعد أسبوع، وأنا أريد أن يكون كل شيء مرتباً استعداداً لاستقبالهما».

– «الآن فهمت. ولقد ظننت بادئ الأمر أنّك تودين الابتعاد عن المنطقة في رحلة ما. إن ما وطّنت النية عليه يسعدني. وحنة سوف تذهب معك».

– «قل لها إذن أن تكون مستعدة غداً لمرافقتي. وهاك الآن مفتاح المدرسة. أما مفتاح كوخي فسوف أعطياك إيّاه في الصباح».

وتناوله مني وقال: «أنت تتخلين عنه في جذل بالغ. والواقع أني لا أفهم تماماً سرّ طربك. لأنني أجهل ماهية العمل الذي تعتزمين أن تتّخذي منه بديلاً عن ذلك الذي تهجرينه. تُرى أي هدف وأي غرض وأي مطمح لك في الحياة الآن؟»

– «إن هدفي الأول سوف يكون العمل على تنظيف مور هاوس تنظيفاً شاملاً (هل تدرك كامل القوة التي ينطوي عليها هذا التعبير؟) من الحجرات إلى القبو. ثم فركه بشمع العسل، والزيت، وبعدد لا يحصى من الخرق، حتى يعاود ائتلاقُهُ كرة أخرى. ثمّ ترتيب كل كرسي، ومائدة، وسرير، وسجادة، في دقة رياضية. وبعد ذلك سأمضي إلى حدّ دفعكم إلى شفير الإفلاس بسبب من الأموال الباهظة التي سأنفقها على الفحم الحجري والتراب النفطي ابتغاء إيقاد نارٍ شديد الضِّرام في كل حجرة. وأخيراً فإن اليومين اللذين يسبقان موعد وفود أختيكَ سوف يخصصان من جانبي وجانب حنة لخفق البيض، وتصنيف الزبيب، وسحق التوابل، وإعداد حلوى عيد الميلاد، وتهريم المواد الضرورية للفطائر، وإقامة بعض الشعائر الطبخية الأخرى على نحو لا تستطيع الكلمات أن تحمل عنه، إلى أمثالك من اللامطّلعين على أوليات الفن، إلا فكرة غير وافية. وبالاختصار، فإن غرضي هو أن تكون الأشياء كلها في أكمل حال من الاستعداد لوفود ديانا وماري، قبل يوم الخميس القادم. ومطمحي أن أستقبلهما، حين تفِدان، استقبالاً مثالياً».

فافترَّت شفتا سانت جون عن ابتسامة واهنة: كان لا يزال غير مقتنع.

وقال: «كل شيء حسن جداً بالنسبة إلى اللحظة الحاضرة. ولكني أرجو، جدياً، أن أجدك، حين تنحسر موجة الحماسة الأولى، تتطلعين إلى ما هو أسمى بعض الشيء من ضروب التودد العائلي والمباهج البيتية».

فقاطعته: «ولكن هذه هي خير ما يملكه العالم».

–«لا، يا جين، لا. هذا العالم ليس موطن ابتهاج، فلا تحاولي أن تجعليه كذلك. وليس موطن راحة، فلا تجعليه كسولاً».

– «إني أعتزم، على العكس، أن أعمل في همّة ونشاط».

– «إني أعذرك، مؤقتاً، يا جين. وأمنحك مهلة شهرين للاستمتاع الكامل بوضعك الجديد، ولإبهاج نفسك بسحر القربى هذا الذي لم تكتشفيه إلاّ مؤخراً. أما بعد انقضاء هذين الشهرين فأرجو أن تشرعي في التطلّع إلى ما وراء «مور هاوس» ومورتون ومجتمع الأخوات الضيّق، والسكون الأناني والرفه الحسّي الملازمين للبحبوحة المتمدنة. أرجو أن تعود طاقاتك إلى إزعاجك، كرة أخرى، بقوَّتها ونشاطيتها».

فنظرت إليه في دهش، وقلت: «سانت جون، يخيّل إليَّ أنك يجب أن تكون شريراً، تقريباً، حتى تتكلم على هذا النحو. أيراودني نزوع إلى التمتع بالطمأنينة، مثل ملكة من الملكات، وتحاول أنت أن تدفع بي إلى دنيا القلق؟! أيّة غاية تطمع في تحقيقها من وراء ذلك؟»

– «أنا أطمع في أن أرى الناس يفيدون من المواهب التي آثرك الله بها وجعلها أمانة لديك، والتي لا بدّ أن يسألك ذات يوم أن تقدُّمي إليه عنها حساباً دقيقاً. إني سوف أراقبك عن كثب وفي لهفة، يا جين، فخذي حِذرك. وحاولي أن تكبحي جماح الحماسة البالغة التي تندفعين بها نحو المباهج البيتية المبتذلة. لا تتشبثي بهذا الإصرار كله، بروابط الجسد. ادَّخري جَلَدك وحماستك لقضية لائقة. اجتنبي تبديدهما في أشياء تافهة زائلة. هل تسمعين ما أقوله، يا جين؟»

– «نعم، تماماً وكأنك تتكلم باللغة اليونانية. أنا أشعر أن التماسي السعادة نفسه قضية لائقة، ولسوف أنعم بالسعادة. إلى اللقاء!».

والواقع أني نعمْتُ في «مور هاوس» بالسعادة، وإني عملت في جد ونشاط. وكذلك كان شأن حنة: لقد فتنها ما رأت من عظيم ابتهاجي وسط صخب بيت قُلِب رأساً على عقب، وما تكشفتُ عنه من براعة في نفض الغبار، والفرك بالفرشاة وفي التنظيف والطهو. وكان مما أبهج نفسينا، في الواقع بعد يوم أو يومين من

الفوضى المـُبَلبَلة، إبهاجاً تدريجياً أن نستخرج من ذلك العماء الذي أحدثناه بأيدينا نظاماً وترتيباً. وكنت قد شخصت قبل ذلك إلى بلدة س... لأشتري بعض الأثاث الجديد، بعد أن فوّضني أبناء عمّتي بإجراء أيّة تعديلات تحلو لي، وبعد أن أفرد مبلغ من المال لهذا الغرض. لقد تركت حجرتي القعود والنوم العاديتين مثلما كانتا تقريباً، ذلك بأني أدركت أن ديانا وماري خليق بهما أن تسعدا بتكحيل طَرْفيهما من جديد برؤية الطاولات والكراسي والسرر القديمة الساذجة أكثر مما تسعدان بمشهد التجديدات الأشد إمعاناً في الأناقة. ومع ذلك فلم يكن من بعض التجديد بُد لكي أضفي على عودتهما تلك الروعة التي رغبتُ في أن تُجَلبَب بها. وإنما حققت هذه الغاية من طريق شرائي بعض البسط والستائر الجديدة الأنيقة الداكنة، ومجموعة من التحف العتيقة المصنوعة من الخزف والبرونز اختيرت في كثير من العناية، وأغطية ومرايا، وصناديق تجميل لموائد الزينة جديدة. لقد بدت كلّها ناضرة من غير أن تكون متوهّجة. وكان ثمة حجرة استقبال وحجرة نوم احتياطيتان فأعدت تأثيثهما إعادة كاملة برياش مصنوع من خشب الماهوغاني ومجلَّل بنسيج قرمزي. حتى إذا تمّ لي ذلك كله اعتبرت «مورهاوس» نموذجاً كاملاً للأناقة المشرقة المتواضعة، من داخل، بقدر ما كان، في هذا الفصل، نموذجاً للإقفار الشتوي وللوحشة الصحراوية من خارج.

وأخيراً أطل يوم الخميس المشهود. وكان وصولهم مرتَقَباً حوالي العتمة. وقبل الغسق أضرِمت النيران في مواقد الدورين الأعلى والأدنى. وكان المطبخ في ذروة النظام والترتيب. ورفلت أنا وحنة بحُلَل قشيبة، وكان كل شيء مُعدًّا.

وكان سانت جون أسبق الثلاثة إلى الوصول. وكنت قد رجوته أن ينأى بنفسه عن البيت ريثما يرتَّب كل شيء. والواقع أن مجرد التفكير في ذلك الهرج والمرج، الحقيرين التافهين، القائمين على قدم وساق ضمن جدرانه كان كافياً لترويعه حتى النفور. وألفاني، لدى وصوله، في المطبخ، أُشرِفُ على إعداد بعض الكعك المـُحَلَّى للشاي وخَبْزِهِ. فدنا من الموقد وسألني: «هل رضيَت نفسك، آخر الأمر، بأداء مهام الخدم هذه؟» فكان جوابي أن دعوته إلى مرافقتي لإلقاء نظرة عامة على

ثمرة أعمالي تلك. وفي شيء من العسر أقنعته بالقيام بجولة في البيت. فكان يكتفي بالوقوف لدى الأبواب التي فتحتها وبإلقاء نظرة على الحجرات من غير أن يدخلها. حتى إذا طاف بالدورين العلوي والسفلي قال إني لا بد أن أكون قد كلفتُ نفسي قدراً كبيراً من المشقة والبلاء لكي أجري هذه التغييرات الضخمة كلها في مثل تلك المدة الوجيزة. ولكنه لم ينطق بأية كلمة تنم عن ابتهاجه بمظهر بيته المحسَّن.

وأخمد صمته ذاك جذوة حماستي. وخُيّل إليّ أن التعديلات كانت قد عَدَت على بعض الذكريات القديمة العزيزة على قلبه فحرمتُهُ منها. وسألته هل صحيح ما خُيّل إليّ أم لا. فأجابني قائلاً:

– «لا، على الإطلاق. على العكس، لقد لاحظت أنكِ قد احترمت، في حرص بالغ، كل ذكرى من تلك الذكريات. والواقع أني أخشى أن تكوني قد أوليت المسألة من تفكيرك أكثر مما تستحق. فكم من دقيقة، مثلاً، كرّستها لدراسة ترتيب هذه الحجرة بالذات؟ وبالمناسبة، هل تستطيعين أن تقولي لي أين يوجد كتاب كذا وكذا؟

فأريته المجلد على الرف، فأنزله عنه، وانسحب إلى مجلسه المألوف عند فجوة النافذة، وأنشأ يطالعه.

والواقع أن ذلك لم يرق لي، أيها القارئ. كان سانت جون رجلاً صالحاً، ولكنني بدأت أشعر بأنه صدق في وصف نفسه عندما قال إنه صلب وبارد. فلم يكن لمسرات الحياة ولسِماتها البشرية أي سلطان عليه، ولم يكن يجد في مباهجها الوادعة أي فتنة. صحيح أنه لم يعش، بالمعنى الحرفي للتعبير،

إ
ﻟ
أّ
ﻟ
ﻟ
ﺗ

طلع والطموح لما هو صالح وعظيم،

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ولكنه كان يأبى أن يستريح أبدا ل

د
ه
ر
،
و
يُ
نكر على الآخرين أن يستريحوا من حوله. وفيما كنت أرنو إلى جبينه الشامخ، الساكن الشاحب مثل حجر أبيض، وإلى ملامحه الدِقاق المركّزة على صفحة كتابه – أدركت فجأة أنه لن يكون زوجاً ناجحاً إلاّ بشق النفس، وأن التي قد يقدَّر لها الزواج منه سوف تلقى عنتاً ورَهْقاً بالغين. وفهمت، وكأنما بمثل الإلهام، طبيعة حبه لمس أوليفر، ووافقتُهُ على أنه لم يكن غير حب حسي. لقد أدركت إلى أي مدى كان يزدري نفسه بسبب من ذلك السلطان المحموم الذي فرضه حبها عليه، ومدى توقِهِ إلى خنقه وتحطيمه، ومدى ارتيابه في قدرة ذلك الحب على إيقاع السعادة على نحو سرمدي في ذات نفسه أو ذات نفسها. لقد رأيت أنه كان من ذلك المعدن الذي تبدع الطبيعة منه إبطالها – المؤمنين والوثنيين – وواضعي شرائعها، وسياسييها، وقوّادها الفاتحين، وأنه كان حصناً منيعاً تعتصم فيه القضايا الكبرى. أما حين يُجالسك
على مقربة من المدفأة فكثيراً ما يكون أشبه بعمود ثقيل، بارد، كئيب، وفي غير محله.

وقلت في ما بيني وبين نفسي: «إن حجرة الاستقبال هذه ليست ميدانه. إن سلسلة جبال هيمالايا، أو دغل «قافر»، وحتى مستنقعات ساحل غينيا الموبوءة بالطواعين، أن تلائمه أكثر. إن في وسعه أن يجتنب هدوء الحياة البيتية، فهو لم يُخْلق لها: إن ملكاتِهِ لتصاب هناك بالركود – إنها لا تستطيع أن تنمو، أو تبرز على نحوٍ ينمُّ عن ميزاتها. لقد خلِق للكلام والحركة. في مواقف الكفاح والخطر – حيث تُمْـتَحن الشجاعة، وتصطنع الطاقة، وترهق القوة – فهناك يحظى

بالتفوّق وينهض بعبء القيادة. أما أمام هذا المستوقد فخليق بأيما طفل مرحٍ أن يبزّه. إنه لمصيب في اختياره حياة التبشير... هذا شيء أصبحت أدركه الآن».

وصاحت حنة، وهي تفتح باب حجرة الاستقبال فجأة: «إنهما مقبلتان! إنهما مقبلتان!» وفي تلك اللحظة نفسها نبح «كارلو» العجوز في ابتهاج. ووثبتُ مندفعةً إلى الخارج. كانت العتمة قد هبطت، ولكني استطعت أن أسمع قرقرة عجلات عربة. وفي الحال أضاءت حنة مصباحاً. وكانت العربة قد توقّفت عند البويْب: وفتح الحوذي الباب، فترجّل منها أولاً شكل مألوف لديّ، ثم شكل آخر. وما هي غير دقيقة واحدة حتى غاب وجهي تحت قبعتيهما، ملامساً أول الأمر وجنة ماري الناعمة ثم حُلَيقات شعر ديانا المنسدلة. وضحكتا، وقبّلتاني، ثم قبلتا حنة. وربّتتا على ظهر كارلو الذي استبدّت به البهجة حتى السُّعار، وسألتاني في لهفة ما إذا كان كل شيء جارياً وفق المرام. حتى إذا أكّدت لهما ذلك اندفعتا إلى داخل البيت.

كانت أوصالهما قد تصلَّبت بسبب من رحلة العربة الطويلة المـــُـتَخَضخِضَة من هويتكروس، وكانتا مقرورتين بهواء المساء المثلوج. بيد أن قسماتهما العذبة ما لبثت أن انبسطت أمام ضياء النار البهيجة. وفيما كان الحوذي وحنة يدخلان الحقائب إلى البيت سألتا أين سانت جون. وفي تلك اللحظة أقبل من حجرة الاستقبال، فطوّقت كلٌّ منهما، في آن معاً، عنقه بذراعيها. فقبّلهما قبلتين هادئتين، وفي صوت خفيض رحّب بهما ببضع كلمات، ثم اعتصم بالصمت لحظات ريثما تتحدثان هما إليه. حتى إذا ألمع آخر الأمر إلى اعتقاده بأنهما لا بدّ أن تلحقا به، وشيكاً، إلى حجرة الاستقبال، انسحب إلى هناك وكأنه يَفْزَع إلى ملاذ أو ملجأ.

وكنت قد أضأت شمعتيهما لكي تصعدا إلى الدور الأعلى، ولكن ديانا تريّثت بعض الشيء لكي تصدر أمرها بإكرام الحوذي. حتى إذا تمَّ لها ذلك مضت كلتاهما في أثري. لقد سرَّتا بما أدخلتُ على حجرتيهما من تجديد وزخرفة، وأُعجبتا بالستائر والبسط الجديدة، وبالزهريات الخزفية المصبَّغة على نحوٍ سخي. وعبَّرتا، بطِيْب نفس، عن تقديرهما لما فعلت. وابتهجتُ إذ شعرت أن

ترتيباتي تلك جاءت وفق رغباتهما تماماً، وأن ما قمت به قد أضاف إلى عودتهما البهيجة إلى البيت سحراً نابضاً بالحياة.

كانت تلك الليلة ليلة عذبة حقاً. وكانت بنتا عمتي، المفعمتان بالمسرة، تفيضان فصاحة في الرواية والتعليق على نحو حجَبَ جنوح سانت جون للصمت: كان سعيداً من غير ريب برؤية أختيه، ولكنه لم يستطع أن يشاركهما حماستهما وتدفُّقَ حبورهما. لقد سرَّه حدَثُ اليوم – أعني عودة ديانا وماري – ولكن ما رافق ذلك الحدث من صخبٍ جذلان، واستقبال طرِبٍ. مهذار، أثاره وأضجر: لقد لمحت أنه كان يتوق إلى انبلاج فجر الغد الأحفل بالهدوء. وفي أوج ابتهاجنا بتلك الليلة بالذات، بعد أن تناولنا الشاي بساعة أو نحوها، سمعنا الباب يُقرع قرعاً خفيفاً، ودخلت حنة علينا لتعلمنا أن ولداً بائساً قد أقبل، في تلك الساعة غير المناسبة، ليطلب إلى مستر ريفرز أن يمضي معه إلى حيث كانت أمه تحتضر.

– «أين تقيم هذه المرأة، يا حنة؟»

– «عند قنة هويتكروس، على مبعدة أربعة أميال تقريباً. إن الطريق إلى هناك كلها طحالب ومستنقعات».

– «قولي له إنني سوف أذهب».

– «من الخير لك أن لا تفعل، يا سيدي. فتلك الطريق هي أسوأ طريق يمكن للمرء أن يجتازها بعد هبوط الليل. والواقع أنك لن تجد عبر ذلك المستنقع كله أثراً لقدم. ثم إن الليلة قارسة، والريح عاتية إلى حدٌّ لم يسْبق إلى مثله. ولعله من الأفضل لك، يا سيدي، أن تُعلم القوم أنك سوف تفِد عليهم في الصباح».

ولكنه كان قد أمسى الآن في الرواق، حيث ارتدى معطفه، ومضى

لسبيله من غير اعتراض، أو همهمة. كانت الساعة قد بلغت التاسعة حين انطلق، وكان الليل قد انتصف عندما عاد. والواقع أنه كان جائعاً جداً، متعباً جداً،

ولكنه بدا أسعد مما كان عند انطلاقه. كان قد أدّى واجباً، وبذل جهداً، واستشعر قوّته على العمل وإنكار الذات، فهو الآن راضٍ عن نفسه أكثر من ذي قبل.

وطوال الأسبوع الذي تلا امتُحِن اصطبار سانت جون، في ما أحسب، بأشد البلاء وأقساه. كان هو أسبوع عيد الميلاد: إننا لم نعكف خلاله على أي عمل ثابت مستقر، بل أنفقناه في ضروب من العبث المنزلي المرح. وكان لهواء السباخ، والتحرر المنزلي، وفجر الرخاء مثل الإكسير المحيي في نفسي ديانا وماري، فهما ترفلان بالبهجة من الصباح حتى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى المساء. كان في ميسورهما أن تتحدثا على نحو موصول. ولقد وجدت في حديثهما الفكِهِ، الخصب، الأصيل مفاتن كثيرة أغرتني بأن أؤثر الاستماع إليه والمشاركة فيه على القيام بأيما عمل آخر. ولم ينتهرنا سانت جون على ما انغمسنا فيه من مرح، ولكنه نأى بنفسه عنه: كان نادراً ما يلبث في البيت. لقد كانت أبرشيته مترامية الأطراف، وكانت رعيته متناثرة في أرجائها، ولقد وجد في زيارة المرضى والفقراء في مختلف بقاعها عملاً يملأ وقته كل يوم على نحو متواصل.

وذات صباح، وكنا نتناول الفطور، سألته ديانا بعد أن استغرقت في التفكير بضع دقائق: «ألا تزال خططك على حالها لمــَّـا تتبدل؟»

فكان جوابه: «إنها لمــَّـا تتبدل، وإنها غير قابلة للتبديل». ومن ثم أنبأنا أن موعد مغادرته إنكلترة قد حُدِّد الآن، وأن ذلك سيتم في العام التالي.

فقالت ماري: «وروزاموند أوليفر؟» وقد بدا وكأن هاتين الكلمتين

ن
دّ
ت
ا
م
ن

ش
ف
ت
ي
ه
ا
ع
ل
ى
ن
ح
و
غ
ي
ر
إ
ر
ا
د
ي
،
إ
ذ
إ
ن

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ه
ا
م
ا
ك
ا
د
ت
ت
ن
ط
ق
ب
ه
م
ا
ح
ت
ى
أ
و
م
أ
ت
إ

ي
م
ا
ء
ة
خُ
يّل إليّ وكأنها إنّما قصدت بها إلى استردادهما. وكان في يد سانت جون كتاب – إذ كان من عاداته غير الاجتماعية أن يطالع خلال تناول الطعام – فطواه، ورفع بصره قائلاً:

– «روزاموند أوليفر على وشك أن تُزوَّج من مستر غرانبي، وهو واحد من أكرم أبناء بلدة س... محتداً وأشرفهم مكانة، وحفيد السير فريدريك غرانبي ووريثه. ذلك شيء أنبأني به أبوها، أمس».

نظرت كلٌّ من شقيقتيه إلى الأخرى، ثم نظرتا إليّ. ونظرنا ثلاثتنا بعد ذلك إليه: كان رائقاً بارداً كالبلور.

وقالت ديانا: «يجب أن تكون الخطبة قد تمّت على عجل. إذ ما كان في ميسور أحدهما أن يعرف الآخر معرفة طويلة».

– «لقد تعارفا منذ شهرين ليس غير. وإنما كان أول لقاء بينهما في شهر تشرين الأول (أكتوبر) في حفلة المقاطعة الراقصة في بلدة س... ولكن حيث لا عقبات تعترض الزواج، كما هي الحال في هذه القضية. وحيث يكون القران مرغوباً فيه كيفما نظرت إليه، فلا محل للتأخير. إن كل إرجاء خليق به أن يكون، ثمة، أمراً غير ضروري. وهكذا سيتمُّ زواجهما حالما ينجز إعداد «قصر س... » – الذي تخلّى السير فريدريك لهما عنه – لاستقبالهما».

وحين وُفّقت للمرة الأولى بعد إعلان هذا النبأ إلى الاجتماع بسانت جون على انفراد استشعرت رغبة ملحة في استطلاع أمره ومعرفة ما إذا كان الحدث قد أوقع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

في نفسي أسيً بالغاً، ولكنه بدا غير محتاج إلى العطف البتَّة، فلم أغامر بمؤاساته، بل خامرني شيء من الخجل إذ تذكرت ما كان قد سلف لي أن خاطرتُ به من ذلك. وإلى هذا، فإني لم أعد آلفُ عادة التحدث إليه: كان الجليد قد كسا تحفّظه كرة أخرى، وكانت صراحتي قد انجمدت تحته. ولم يف بوعده إيّاي أن يعاملني كما يعامل أختيه. فقد ظلّ يميّز بيني وبينهما، على نحو موصول، تمييزاً ضئيلاً أخمد جذوة المودّة ولم يتح لها مجال النماء البتّة. وبكلمة مختصرة، استشعرت الآن، بعد أن عرفت فيه نسيباً لي وعشت معه تحت سقف واحد، إن الشقة بيننا أمست أوسع بكثير ممّا كانت يوم لم يعرفني إلاّ كمعلمة في مدرسة قروية. وحين تذكرت إلى أي حدّ فتح لي قلبه، ذات مرة، استغلق عليَّ فهم برودته الحالية.

وإذ كان الأمر كذلك فقد استشعرت دهشاً غير يسير البتة عندما رفع رأسه فجأة عن منضدته التي كان منحنياً فوقها، وقال:

– «وهكذا ترين، يا جين، إني خضت غمار المعركة وخرجت منها منتصراً».

وإذا أجفلتُ لتوجيهه الخطاب إليّ على هذا النحو فإني لم أعمد إلى الردّ عليه في الحال. وبعد لحظة من التردّد قلت:

– «ولكن أواثق أنت من أنك لست في وضع كوضع أولئك الفاتحين الذين كلّفتهم انتصاراتهم ثمناً أغلى ممّا ينبغي؟ ألن يؤدي انتصار آخر مماثل إلى القضاء عليك؟»

– «لست أظن ذلك. وحتى لو كان هذا صحيحاً فإنه لن يعني شيئاً كثيراً. أنا لن أدعى أبد الدهر للكفاح من أجل انتصار آخر كهذا الانتصار. إن نتيجة الصراع كانت حاسمة: لقد أصبحت طريقي الآن لأحبّة واضحة، وإني لأحمد الله على ذلك».

قال هذا وارتدّ إلى أوراقه وصمته:

حتّى إذا استقرّت سعادتنا المتبادلة(أعني سعادتي وسعادة ديانا وماري) واستأنفنا عاداتنا المألوفة ودراساتنا النظامية شرع سانت جون يأنس إلى البيت ويمكث فيه أكثر من ذي قبل: أصبح يجلس معنا في حجرة واحدة طوال ساعات متعاقبة. وبينما كانت ماري ترسم، وديانا تواصل سلسلة من القراءات الآنسيكلوبيدية فرضت على نفسها (ولشدّ ما روّعني ذلك وأذهلني) القيام بها على نحو نظامي، وبينا كنت أنا أكدح في تعلّم الألمانية كدحاً، كان هو عاكفاً على التعمُّق في علم غامض خاص به: أعني التضلع من لسانٍ شرقي كان يعتبر أن تعلُّمه ضروري للنجاح في خططه ومشروعاته.

وكان يبدو، خلال عكوفه ذاك – في زاوية من الحجرة قصية – ساكناً مستغرقاً في الدرس إلى حد غير يسير. ولكن عينيه الزرقاوين كان من عادتهما أن تهجرا كتاب النحو الغريب وتطوّفا في الحجرة، لتتركزا في بعض الأحيان علينا نحن، زميلاته في طلب العلم، وتخضعانا لمراقبة فضولية بالغة. حتى إذا فاجأناهما تحدقان إلينا على هذا النحو لملمت كلٌّ منهما نفسها وانسحبت في الحال. ومع ذلك فإنهما كانتا لا تلبثان أن تحطّا من جديد، بين فينة وأخرى، على مائدتنا وكلهما فضول واستطلاع. وكنت أعجب لذلك وأتساءل عن مغزاه، كما عجبت أيضاً للارتياح الذي كان لا يفتأ يبديه، على نحو نظامي، كلما حلَّت مناسبة بدت لي ذات أهمية صغيرة – أعني زيارتي الأسبوعية لمدرسة مورتون. وكان عجبي هذا يتعاظم حتى الانشداه في الأيام التي تسوء فيها الأحوال الجوية، فيسقط الثلج، أو يهطل المطر، أو تهب ريحٌ عاتية... في تلك الأيام كانت أختاه تطلبان إليّ، في إلــحاح، أن لا أذهب إلى المدرسة وكان هو يستخف، في كل مرة، بقلقهما وجزعهما، ويشجّعني على أداء المهمة بصرف النظر عن عوامل الطبيعة،قائلا:«جين ليست على شيء من الوهن والخَوَر اللذين ترغبان في الإيــحاء بهما إليها. إن في ميسورها أن تحتمل ريحاً جبلية، أو وابلاً من مطر، أو بضع رقاقات من ثلج بقَدْر ما يتحملها أيُّ منا. والواقع أن بِنْيَتَها صحيحة ومرنة في

آن معاً، بل إنها مؤهّلة لاحتمال تقلّبات الأحوال الجوية أكثر من كثير ممّن يفوقونها قوة وبأساً».

وكنت إذا رجعت، متعَبةً حتى الإرهاق في بعض الأحيان، مجهدة بالصراع ضد الأحوال الجوية، لا أجرؤ على التشكي، لأني لمحت أن أقل تذمّر كان خليقاً به أن يغيظه ويسخطه. كان الجلَد يرضيه في جميع المناسبات، وكان التراخي يضايقه أشدّ ما تكون المضايقة.

بيد أنني أجزت لنفسي، ذات أصيل، أن ألزم البيت لأني كنت أشكو، في الواقع، زكاماً. وهكذا مضت أخته إلى مورتون بدلاً عني. لقد جلست أقرأ شيئاً من شعر شيلر، على حين راح هو يحل طلاسم أوراقه المشرقية المعقدة. حتى إذا انتقلت من الترجمة إلى أحد التمارين شاءت المصادفة أن أنظر ناحيته، فإذا بي ألفي نفسي تحت سلطان عينه الزرقاء الآخذة بأسباب المراقبة على نحو موصول. هل أَمْضَتْ فترة طويلة في التحديق إليّ وتفحُّصي مرة بعد مرة؟ لست أدري. لقد كانت تلك العين ثاقبة إلى حد بالغ، ولكنها مع ذلك باردة أكثر مما ينبغي، حتى لقد غلب عليّ في تلك اللحظة نوع من الإيمان بالخرافات - لكأنني كنت أجالس في تلك الحجرة كائناً غريباً يوقع في النفس ذعراً أسطورياً.

- «ما الذي تفعلينه، يا جين؟»

- «أدرس اللغة الألمانية».

- «أنا أريد منك أن تتخلّي عن الألمانية وتتعلمي الهندستانية».

- «أنت غير جاد في ما تقول...»

- «أنا جاد إلى درجة تجعل انصياعك لرغبتي أمراً واجباً. ولسوف أشرح لك سبب ذلك».

وراح يوضح أن الهندستانية كانت اللغة التي عكف هو نفسه على دراستها آنذاك، وأنه كان عرضة - كلّما أوغل في مجاهلها - لأن ينسى ما تعلَّمهُ منها بادئ

ذي بدء، وأن ظَفَره بطالبٍ يستعيد معه مبادئها مرةً ومرةً خليق به أن يعينهُ على مهمته، إذ يمكِّنهُ من تثبيت تلك المبادئ في ذهنه تثبيتاً راسخاً، وأنه تردّد فترة من الزمان بين أن يختارني لهذا الغرض وبين أن يختار إحدى أختيه، ولكن اختياره استقرّ آخر الأمر عليّ، لأنه لاحظ أن في ميسوري أن أنكبَّ على أداء أيما مهمة من المهام انكباباً جلْداً تقصِّر كلتاهما عن مثله. فهل أضنّ عليه بهذا الفضل؟ ثم إنه ختم حديثه بالقول إني لن أضطر، في أغلب الظن، إلى الاسترسال في التضحية برهة طويلة، إذ لم يعد يفصله الآن عن موعد الرحيل غير ثلاثة أشهر على أبعد تقدير.

ولم يكن سانت جون بالرجل الذي يُرْفض طلبه في استخفاف: كان المرء يستشعر أن كل انطباعه من انطباعات وجهه، سواء في حال الألم أو في حال السرور، كانت عميقة الخطوط ثابتة. وهكذا نزلت عند إرادته. حتى إذا عادت ديانا وماري وجدت أولاهما أن تلميذتها قد تحوّلت عنها وتتلمذت على أخيها. فضحكت. وأجمع رأيها ورأي ماري على أن سانت جون أحسن الاختيار وأنه لو حاول إقناعهما بالإقدام على مثل هذه الخطوة لما حالفه التوفيق. فأجاب في هدوء:

– «أعرف ذلك».

وألفَيْتُه أستاذاً طويل الأناة، بالغ الجَلد، ولكنه كثير المطاب: لقد توقَّع مني أن أبذل جهداً عظيماً. وحين حققت كلّ ما توقّعه مني عبَّر، بطريقته الخاصة، تعبيراً وافياً عن رضاه واستحسانه. وشيئاً بعد شيء، اكتسب سلطاناً ما عليَّ سلبني حرية التفكير: لقد كان إطراؤه والتفاتهُ أكثر تقييداً لي من لا مبالاته. فلم يبق في ميسوري أن أتكلَّم أو أضحك في حرية كلما وجدتني في حضرته، لأن غريزة ملحاحة مُضجرة كانت تذكرني بأن المرح، إذا ما صدر عني أنا على الأقل، أمرٌ بغيض إلى نفسه. كنت أعي أن المزاج الجاد والأعمال الجادة كانت وحدها مقبولة لديه، وكان وعيي هذا من القوة بحيث أمسى كل جهد يُبذل، في حضرته، لسلوك أيما سبيل آخر أو مواصلته عبثاً لا طائل تحته: لقد هيمن عليّ

سحر شلّ إرادتي. كان إذا قال لي «اذهبي» ذهبت، أو «أقبلي» أقبلت، أو «افعلي هذا» فعلت. ولكني لم أحب عبوديتي تلك: لقد تمنيت، مرات عديدة، لو أنه أقام على إهمالي و إغفالي.

وذات مساء. عندما تحلَّقت وأختيه حوله – بعد أن حان موعد إيوائنا إلى مضاجعنا – لنتمنى له ليلة طيبة طبع على جبين كلٌّ منهما قبلة، جرياً على مألوف عادته. وجرياً على مألوف عادته أيضاً بسط يده لي. وهنا هتفت ديانا، التي اتّفق أن جرفتها آنذاك موجة من المرح (إن إرادة سانت جون لم تستعبدها، إذ كانت ذات إرادة لا تقلّ عن إرادته، ولكن بطريقة أخرى، قوة وبأساً) قائلة:

– «سانت جون! لقد كان من دأبك أن تدعو جين أختك الثالثة. ولكنك لا تعاملها على هذا النحو: إن عليك أن تقبّلها أيضاً».

ودفعتني نحوه. وحسبت أن موقف ديانا هذا مثيرٌ للغيظ حقاً، واستشعرت ارتباكاً مزعجاً. وفيما كنت مستغرقة هكذا في الحسبان والشعور حنى سانت جون رأسه، وأنزل وجهه الإغريقي إلى مستوى وجهي، وراحت عيناه تسألان عينيّ على نحو ثاقب، وقبَّلني. والواقع أنه ليس ثمة شيء اسمه القبل الرخامية أو القبل الجليدية، وإلا لتعيّن عليّ أن أقول إن قبلة ابن عمتي الإكليركي كانت تنتسب إلى واحد من هذين النوعين. ولكن قد يكون ثمة قبلٌ تجريبية، ولقد كانت قبلته قبلةً تجريبية. ولم يكد يطبعها على جبيني حتى نظر إلي ليستطلع نتيجتها. فإذا هي نتيجة رائعة: فأنا واثقة من أن الدم لم يشع في وجهي، بل لعل لون وجهي امتقع بعض الشيء، ذلك بأني استشعرت وكأن القبلة كانت خَتْماً ثُبِّت على أصفادي. ومنذ ذلك الحين لم يُغفل هذا «التقليد» البتة، ولقد بدا وكأن الرزانة والسكون اللذين تلقيته بهما كانا يضفيان عليه، عنده، سحراً خاصاً.

أما أنا فقد ازددت، كل يوم، رغبة في إرضائه. ولكني استشعرت أكثر فأكثر، يوماً بعد يوم، أن عليّ لكي أوفّق إلى هذه الغاية أن أتنكّر لنصف طبيعتي، وأن أكظم نصف ملكاتي، وأحرِّف أذواقي عن مجراها الأصلي، وأُكرِه نفسي على

السعي في سبيل أغراض ومطالب لم أكن أؤانس في نفسي ميلاً طبيعياً إليها. لقد ودَّ أن يرتفع بي إلى السماء درجة ما كان في ميسوري أن أبلغها البتة، ولقد أنهكني التطلّع إلى المثل الأعلى الذي رفعه لي إنهاكاً موصولاً. فقد كان هذا المطلب متعذراً كتعذر إفراغ قسمات وجهي غير النظامية في قالب محيَّاه الكلاسيكي القويم، أو كتعذّر إعطاء عينيَّ الخضراوين المتحولتين زرقة البحر التي تصبغ عينيه وذلك البريق المهيب الذي يترقرق فيهما.

بيد أن سلطانه عليّ لم يكن هو وحده الذي استعبدني آنذاك. فقد كان من اليسير عليّ، في الفترة الأخيرة، أن أبدو محزونة النفس: كان بلاء مُقرِّح يجثم على فؤادي، ويصوِّح سعادتي من جذورها – أعني بلاء التردّد.

ولعلّك تحسب، أيها القارئ، أني قد نسيت مستر روتشيستر، في غمرة هذه التغيّرات في المواطن والحظوظ. ولكن لا، أنا لم أنسَهُ لحظة واحدة. كان ذكره لا يبرح ذهني، لأنه لم يكن بخاراً تستطيع أشعة الشمس أن تبدّده، أو صورة مرسومة على رمل تستطيع العواصف أن تطمسها: لقد كان اسماً منقوشاً على لوح، مقدَّراً له أن يبقى ما بقي الرخام الذي رُقِم عليه. وكان التوق إلى معرفة ما قد حلّ به قد لاحقني في كل مكان. فحين كنت في مورتون كان من دأبي كلما رجعت مساء إلى كوخي أن أفكر فيه، والآن وأنا في مور هاوس أراني لا آوي إلى مضجعي كل ليلة إلا لأطيل التفكير فيه.

وخلال تراسلي الضروري مع مستر بريغز في أمر الوصية كنت قد سألته ما إذا كان يعرف شيئاً عن مقرّ مستر روتشيستر الحالي وعن صحّته. ولكنه كان، كما حدس سانت جون من قبل، جاهلاً كل ما يتّصل به جهلاً مطبقاً. عندئذ كتبت إلى مسز فيرفاكس أتوسّل إليها أن تزوّدني بمعلوماتها عن الموضوع. وكنت أتوقّع أن تلك الخطوة سوف تفي بغرضي: لقد خامرتني ثقة بأن إقدامي عليها لابد سيعود عليّ بجواب عاجل. ولكني دهشت عندما تصرّم أسبوعان اثنان من غير أن أتلقّى

أي جواب. حتى إذا انسلخ شهران، والبريد يصل كل يوم ولا يحمل إليّ شيئاً، امسيت فريسة قلق ليس أعنف منه ولا أقسى.

وكتبت مرّة أخرى، فمن يدري؟ لعل رسالتي الأولى قد ضاعت وكان في هذا الجهد المجدَّد ما جدَّد الأمل في نفسي: لقد أشرق هذا الأمل، مثل سابقه، طوال بضعة أسابيع. ومثله أيضاً خبا، بعد ذلك، وخفق وكأنه يريد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. إذ لم يصلني سطرٌ واحد، بل لم تصلني كلمة واحدة. وحين تبدّدت شهور ستة في ترقّب لا طائل تحته تلاشى أملي، وغلبت عليَّ الكآبة حقاً.

ونوَّر من حولي ربيعٌ حلوٌ لم يكن في ميسوري أن أستمتع به. ودنا الصيف، وحاولت ديانا أن توقع البِشر في نفسي: لقد قالت إن علائم المرض تبدو على وجهي، وأعلنت عن رغبتها في اصطحابي إلى شاطئ البحر. ولكن سانت جون عارض ذلك: لقد قال إني في غير ما حاجة إلى لهو، وإن ما أحتاج إليه هو العمل، وأضاف قائلاً إن حياتي الحالية كانت خلواً من الغرض أكثر مما ينبغي، وإنني كنت في حاجة إلى هدف أعمل من أجله. وأحسب أنه أمعن في إطالة دروسي في الهندستانية ابتغاء سد هذا الفراغ وأنه أمسى أشد إلحافاً في حملي على إنجازها. وكنت أنا، مثل امرأة بلهاء، لا أفكّر البتة في مقاومته – لقد عجزت عن مقاومته.

وذات يوم استهللت دروسي وأنا أشد كآبة من مألوف عادتي. وإنما نشأت هذه الكآبة الاستثنائية عن شعوري بخيبة أمل موجعة: كانت حنة قد أنبأتني في الصبح أن رسالة قد وردتني، حتى إذا هبطت إلى الدور السفلي لكي أتسلَّمها، وأنا شبه واثقة من أن الزمان قد جاد عليّ، آخر الأمر، بالأنباء التي طالما تُقت إلى سماعها، لم أجد غير مذكرة تافهة من مستر بريغز حول قضية من قضايا العمل. وكانت الصدمة المريرة قد اعتصرت من عينيَّ بعض الدموع، وها أنا ذا الآن – وقد جلست أنعم النظر في أحد النصوص الهندية، بحروفه المعقدة وصوره. البلاغية المنمقة – أستشعر الخيبة المريرة فتفيض عيناي بالدمع

ودعاني سانت جون إلى الجلوس بجانبه والبدء في القراءة. حتى إذا حاولت أن أفعل خانني صوتي: لقد ضاعت الكلمات في غمرة التنهدات الناشجة. ولم يكن في حجرة الاستقبال أحدٌ غيري وغيره: كانت ديانا تتدرب على الأداء الموسيقي في حجرة القعود، وكانت ماري تعمل في الحديقة – إذ كان ذلك اليوم يوماً نوّارياً بالغ الجمال صافياً مشمساً ذا نسيم عليل إلى حد بعيد. ولم يعبِّر رفيقي عن أيما دهش لانفعالي ذاك، ولم يوجِّه إليّ أيما سؤال عن سببه. لقد اكتفى بالقول:

– «حسناً، سوف أنتظر بضع دقائق، ريثما تصبحين أكثر هدوءاً ورباطة جأش».

وبينما كنت أخمد نوبة الانفعال في عجلة بالغة ظلّ هو هادئاً صابراً، متكئاً على قمطره، وكأنه طبيب يراقب بعين العلم أزمة متوقعة وغير مستغربة في داء مريض من المرضى. حتى إذا خنقت تنهداتي، وكفكفت عبراتي، وغمغمت بكلام ما مفاده، أني كنت منحرفة الصحة ذلك الصباح، استأنفت عملي ووُفقت إلى إنجازه. وما لبث سانت جون أن نحّى كتبه وكتبي، وأغلق قمطره، وقال:

– «والآن، يا جين. سوف تقومين بنزهة على القدمين. وستقومين بهذه النزهة برفقتي».

– «سوف أدعو ديانا وماري للذهاب معنا».

– «لا، أنا لا أريد هذا الصباح غير رفيق واحد، هو أنت من دون الناس جميعاً. ارتدي فستانك، واخرجي من باب المطبخ. اسلكي الطريق المفضية إلى رأس «مارش غلين»، ولسوف ألحق بك».

أنا لا أعرف أي خطةٍ وسطٍ. بل لم أعرف طوال حياتي، في تعاملي مع ذوي الشخصيات العملية الصارمة المناقضة لشخصيتي، أية خطة وسط بين الإذعان المطلق وبين التمرُّد المصِرّ. ولقد لزمت دائماً إحدى الخطتين التزاماً أميناً حتى لحظة الانتقال نفسها – وفي بعض الأحيان في حُمَيًّا بركانية – إلى الخطة الأخرى.

وإذ كانت ظروفي الحاضرة لا تبيح التمرد وإذ كان مزاجي الحالي لا يميل إلى شيء من مثل ذلك فقد التزمت، في عناية، جانب الخضوع لأوامر سانت جون. وما هي غير دقائق عشر حتى وجدتني أسلك معه جنباً إلى جنب درب الوهدة المهجور الذي عيَّنه لي.

كان النسيم يهب من ناحية الغرب: لقد أقبل عبر الهضاب مضمخاً بعبير نبات الخلنج ونبات سَمار الحُصر. وكانت السماء زرقاء لا شائبة فيها، وكان الجدول المنحدر نحو الوادي، معززاً بأمطار الربيع المنصرم، يندفع صافياً موفوراً، متلقِّفاً من الشمس ومضات ذهبية، ومن القبّة السماوية أصباغاً ياقوتية زرقاء. حتى إذا تقدّمنا واجتزنا الدرب، وطئنا أرضاً معشوشبة دقيقة الحاشية طحلبية النعومة، زمردية الخضرة، مطليَّة الوجه بزهيرات بيضاء ومزركشة برياحين صفراء أشبه ما تكون بالنجوم. وفي غضون ذلك أطبقت الهضاب علينا، ذلك بأن الوهدة تعرّجت، عند قمتها، حتى صميم تلك الهضاب بالذات.

– «فلنسترح هنا!» كذلك قال سانت جون عندما بلغنا الشوارد الأولى من كتيبة صخور كانت تحرس شبه شعْب من الشعاب حيث تساقط الجدول على صورة شلال، وحيث نفض الجَبل – في نقطة أبعد بعض الشيء – عنه ضروب الأعشاب والرياحين، فليس يكسو جسمه غير نبات الخلنج، وليس يزيّن جيده غير الصخور، وحيث استفحل المهجور فأمسى وحشياً، وانقلبت النضارة إلى تجهم. هناك كان يعتصم أمل العزلة النهائي، وهناك كان يقوم آخر مفزع يلجأ إليه الصمت.

قعدت. ووقف سانت جون على مقربة مني، ورفع بصره إلى الشِعْب ثم خفضه نحو الغور. وتاهت نظراته مع الجدول، ثم ارتدَّت لتجتاز السماء الصافية التي لونتْهُ. لقد نزع قبعته، وأجاز للنسيم أن يداعب شعره ويقبّل جبينه. لقد بدا وكأنه يناجي جنيَّة تلك البقاع، وبدت عيناه وكأنهما تودعان مخلوقاً ما.

وقال في صوت مرتفع: «ولسوف أراها، مرّة أخرى، في الأحلام، عندما أنام على ضفاف الغانج، ولسوف أراها بعد ذلك أيضاً، في ساعة أكثر إمعاناً في البعد – عندما يقهرني رقاد من نوع آخر – على شاطئ نهر أشد قتاماً».

ألفاظ عجيبة لحب عجيب! عاطفة وطني صارم لأرض وطنه! وقعد، ومرّت علينا نصف ساعة لم ننطق فيها بكلمة البتة. فلا هو وجّه اليّ الخطاب، ولا أنا. حتى إذا تصرمت تلك الفترة قال لي:

– «جين، سوف أرحل بعد ستة أسابيع. لقد حجزت لنفسي سريراً في سفينة من سفن شركة الهند الشرقية سوف تبحر في العشرين من حزيران (يونيو)».

فقلت: «حماك الله. فأنت تعمل في سبيله».

– «أجل، ففي ذلك مجدي وبهجتي. أنا الخادم الأمين لسيد معصوم عن الخطأ. أنا لا أعتزم الضرب في الأرض تحت لواء قيادة إنسانية خاضعة لقوانين ناقصة من وضع حشرات ضعيفة مثلي، ولسيطرة ضالة تفرضها هذه الحشرات نفسها. إن مَلِكي، ومشرِّعي، وقائدي، هو الكليُّ الكمال. ومن دواعي عجبي أن لا يتحرق كل من حولي شوقاً إلى الانضواء تحت الراية نفسها – أن لا يشاركوا في المغامرة نفسها».

– «ليس للناس كلهم مثل الذي لك من القوة. وإنها لحماقة من جانب الضعفاء أن يتوقوا إلى الزحف مع الأقوياء».

– «أنا لا أتحدث إلى الضعفاء أو أفكر فيهم. إنما أوجِّه خطابي إلى من هم أهلٌ لذلك العمل، وإلى الذين تمكّنهم كفاءاتهم من إنجازه».

– «هؤلاء قليل. وعسيرٌ اكتشافهم».

– «حق ما تقولين. ولكن ما إن نكتشفهم حتى يصبح من حقنا أن ندعوهم إلى العمل.. أن نحثّهم

ونـد

ضّهم على بذل الجهد... أن ندلهم على مواهبهم ونشرح لهم السبب الذي من أجله مُ
نِحوها... أن نلقي في آذانهم رسالة السماء... أن نقدم إليهم، من لدُنِ الله مباشرة، مكاناً في صفوف أولئك الذين اصطفاهم واصطنعهم لنفسه».

– «أليس خليقاً بأفئدتهم ذاتها – إذا كانوا مؤهلين فعلاً لأداء المهمة – أن تكون أول من يُشعرهم بذلك؟»

لقد شعرت وكأن سحراً رهيباً يتكوّن منْ حولي وينعقد من فوق رأسي. وارتعدت خشية أن أسمع أية كلمة ملفوظة يكون من شأنها أن تُعلن ذلك السحر وتسمرِّه.

وسألني سانت جون: «وماذا يقول فؤادكِ أنت؟»

– «فأجبت مصعوقةً مروَّعةً: «إن فؤادي أبكم.. إن فؤادي أبكم..».

فتابع الصوت العميق الذي لا يلين: «إذن فيتعيّن عليّ أن أتكلم بالنيابة عنه. جين، امضي معي إلى الهند، امضي معي بوصفك زوجة ورفيقة نضال».

ودار بي الوادي، ودارت السماء. وجاشت الهضاب واضطربت! لقد بدا وكأني سمعت دعوة من السماء – وكأن بشيراً غير منظور، كبشير مقدونيا ذاك، قد أهاب بي: «تعالي إلينا وساعدينا!» ولكني لم أكن بالرسول الذي يُوحى إليه. فلم أستطع أن أرى البشير... ولم أستطع أن أتلقّى نداءه.

وصحت: «أوه، سانت جون! قليلاً من الرحمة!»

ولكني كنت أناشد امرءاً لا تأخذه، في أداء ما كان يعتقده واجبه، رحمة أو تبكيت ضمير. ومن ثم واصل حديثه قائلاً:

– «إنّ الله والطبيعة قد قيَّضا لك أن تكوني زوجة مبشّر. ومن هنا فإنهما جادا عليك بالمنح العقلية، لا بالمنح الجسدية: لقد خُلِقت للكدح، لا للحب. ويتعيّن عليك

أن تصبحي، ولسوف تصبحين، زوجة مبشر. إنك ستكونين رفيقة حياتي: أنا أدعوك – لا من أجل متعتي الشخصية، ولكن من أجل خدمة ربي».

فقلت: «أنا غير مؤهلة لهذا. أنا لا أؤانس في نفسي أي ميل إليه».

وكان قد توقّع هذه الاعتراضات الأولى، ومن أجل ذلك لم يثر ولم يسخط. والواقع أني استطعت – فيما أَسنَدَ ظهره إلى الصخرة الشامخة القائمة خلفه وطوى ذراعيه على صدره وثبَّت قسمات وجهه – أن أرى أنه كان قد أعدّ نفسه لمعارضة طويلة مرهقة، وأنه كان قد تزوّد بذخيرة تكفيه حتى تبلغ تلك المعارضة نهايتها، عاقداً العزم – أيًّا كانت الحال – على أن تحمل إليه تلك النهاية النصر والغلبة.

فقال: «التواضع، يا جين، هو أساس الفضائل المسيحية: لقد أصبت الحقيقة حين قلت إنك غير مؤهلة لأداء المهمة. ولكن قولي لي من هو المؤهل لأدائها؟ أو من هو الذي دُعي فعلاً لهذا العمل، في أيما يوم من الأيام، وآمن بأنه جدير بتلقّي النداء؟ فأنا، مثلاً، لست غير تراب ورماد. وإني لأقرُّ، مع القديس بولس، بأني أكبر الآثمين، ولكني لا أجيز لهذا الإحساس بالدناءة الذاتية أن يروّعني أو يثبط عزمي. أنا أعرف قائدي، وأعرف أنه عادل وجبّار في آن معاً. وإنه وقد اختار أداة ضعيفة للنهوض بمهمة عظمى سوف يمدّ تلك الأداة – من ذخائر عنايته اللانهائية – بما يجعلها أكثر ملاءمة للغاية المنشودة. فكري كما أفكر يا جين... ثقي كما أثق. إنما أسألك أن تستندي إلى «صخره الأجيال» لا إلى أي شيء آخر. فلا يداخلنَّكِ ريب في أنها لن تنوء بثقل ضَعْفك البشري!».

– «أنا لا أفهم الحياة التبشيرية. ولم يسبق لي قط أن درست أعمال المبشرين».

– «هنا أستطيع أنا، برغم حقارتي كلها، أن أقدّم إليك العون الذي تحتاجين إليه: في ميسوري أن أعيِّن لك مهمتك ساعة فساعة، أن أقف إلى جانبك على نحو موصول، أن أساعدك لحظة بعد لحظة. ذلك شيء في ميسوري أن أفعله في أول الأمر. ولن ينقضي طويل وقت (ذلك بأني أعرف ما تتمتعين به من طاقات) حتّى

يتمّ لك من القوة والكفاءة مثل الذي تمّ لي، وعندئذ لن تحتاجي إلى طلب العون مني».

– «ما أتمتّع به من طاقات؟.. ولكن أين هي الطاقات التي تؤهّلني للنهوض بهذه المهمة؟ أنا لا أحسّ بها. إن أيما شيء لا يهتف في باطني ولا يثيرني عندما تتحدث. أنا لا أستشعر ضياء يشعّ، أو حياة تتسارع، أو صوتاً يرشد أو يشجّع. أوه، لشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أريك. إلى أيّ حد يشبه عقلي، في هذه اللحظة، سجناً دامس الظلام ليس في أعماقه غير خوف واحد مكبّل بالأصفاد – هو الخوف من أن توفّق إلى إقناعي فأحاول القيام بمهمة لا أقوى على إنجازها!».

– «إن لدي رداً على هذا، فاسمعيه. لقد راقبتكِ منذ التقيتك أول مرة، طوال شهور عشرة. وخلال هذه المدة اختبرتك بضروب من الاختبار شتّى. فما الذي رأيته واستنتجته؟ لقد وجدت أنك استطعت أن تؤدّي في مدرسة القرية، في إحسان وضبط واستقامة، عملاً غير متناغم مع عاداتك وميولك، ورأيت أنك استطعت أن تؤدّيه في مقدرة ولباقة: لقد استطعت أن تستميلي قلوب القوم بينا كنت تفرضين سلطانك عليهم. ومن خلال الهدوء الذي تلقّيت به نبأ انتقالك المفاجئ من الفقر إلى الثروة، اكتشفت عقلاً متحرراً من رذيلة ديماس(1): إن الكسب المادي ليس له عليك سلطان مفرط. ففي السرعة المصمِّمة التي عمدتِ بها إلى قسمة ثروتك أقساماً أربعة، غير مبقية لنفسك سوى قسم واحد منها، متخليةً عن الأقسام الثلاثة الأخرى لدعوى العدل المجرّد، تبيَّنتُ نفساً تطرب في لهب الفداء واهتياجه. وفي وداعة تخليت، نزولاً عند رغبتي، عن دراسة كانت موضع اهتمامك وتبنّيت دراسة أخرى لأني كنت أنا مهتماً بها... وفي الكدِّ الدائب الذي اتّسمت به، منذ ذلك الحين، مواظبتك عليها... وفي الطاقة اللامتراخية والعزم اللا متزعزع اللذين واجهتِ بهما مصاعبها... في هذا كله عرفت ما يكمِّلُ الصفات التي أنشدها. جين، أنت لينة العريكة، دؤوب على العمل، منزَّهة عن الأغراض، مخلصة، وفية، شجاعة. وأنت بالغة اللطف، بطولية المنازع إلى حدّ بعيد، فكفِّي عن الارتياب في نفسك: إن في ميسوري أن أثق بك في غير احتياط ولا تحفّظ.

وخليق بمساعدتك لي، بوصفك مديرة مقبلة لبعض المدارس الهندية وزميلة تعينني على نشر الرسالة بين النسوة الهنديات، أن تكون مساعدة لا تقوَّم بمال».

(1) Demas حواري من حواريي بولس الرسول تخلّى عنه وخذله. (المعرب)

وانقبض الكفن الحديدي من حولي، وتقدّم الاقتناع في خطىً بطيئة ثابتة. وأغمضت عيني مرة ومرةً، ومع ذلك فقد وُفِّقت كلماته الأخيرة هذه إلى تذليل الطريق التي بدت من قبل مسدودة، وإلى جَعْلها سالكة نسبياً. والواقع أن المهمة التي عرضها عليّ والتي كانت قد بدت مبهمة جداً مائعة إلى حدّ مغالى فيه، ما لبثت أن كثَّفت نفسها تدريجياً، بعد كل كلمة من كلماته، واتّخذت – تحت يده الصَّناع – شكلاً محدداً. وانتظر مني جواباً. فسألته أن يمهلني ربع ساعة أقلِّب خلالها الرأي، قبل أن أخاطر بإعطاء جواب ما.

فقال: «بكل سرور، ونهض. وأوسع الخطى مصعِّداً في الشِّعب، مسافةً ما، ثم ارتمى على رابية يكسوها نبات الخلنج، ولزم موضعه هناك ثابتاً لا يريم.

وقلت في ذات نفسي: «في ميسوري أن أفعل ما يريدني أن أفعله: أنا مكرهة على أن أرى ذلك وأعترف به. أعني إذا ما مدَّت الأقدار في عمري. ولكني أستشعر أن حياتي لن تطول تحت الشمس الهندية. ثم ماذا؟ إنه لا يبالي بذلك: وما إن تدق ساعة منيَّتي حتى يُسلمني، في رصانة وبرِّ كاملين، إلى الله الذي منحه إيّاي. إن السبيل جد واضحة أمامي. ذلك بأني أغادر. يوم أهجر إنكلترة – أرضاً حبيبة ولكنها فارغة – فمستر روتشيستر ليس هنا. وحتى لو كان هنا فأي معنى لذلك بالنسبة إليّ؟ بل أي معنى يمكن أن يكون لذلك، في أيما يوم من الأيام، بالنسبة إليّ؟ إن الواجب يقتضيني الآن أن أحيا بدونه: وليس ثمة ما هو أسخف وأدلّ على العجز من أن أسلخ العمر، متحاملة على نفسي من يوم إلى يوم، وكأني أنتظر أن يطرأ على الأحوال والملابسات تغيُّر متعذرٌ ما، تغيُّر قد يوحّد ما بيني وبينه من جديد. ولا ريب (كما قال سانت جون مرة) في أنه يتعين علي أن أبحث في الحياة عن اهتمامات وأشواق جديدة أستعيض بها عن تلك التي فقدتُها، أليس العمل الذي

يعرضه الآن علي أسنى الأعمال التي يستطيع الإنسان أن يتولاّها أو يستطيع الله أن يعيِّنها؟ أليس ذلك العمل، بهمومه النبيلة وثمراته السامية، أجدر الأعمال بأن يملأ الفراغ الذي خلَّفته العواطف الممزقة والآمال المحطمة؟ أعتقد أن علي أن أقول نعم. ومع ذلك فإني أرتعد. وأسفاً! إني إذا التحقت بسانت جون فعندئذ أهجر نصف ذاتي: إذا مضيت إلى الهند مضيت إلى موت مُنْتَظَر. وكيف سأملأ تلك الفترة الفاصلة ما بين مغادرتي إنكلترة إلى الهند وبين مغادرتي الهند إلى القبر؟ أوه! أنا أعرف الجواب معرفة جيدة! إن هذا جد واضح، هو الآخر، أمام عيني. إني – من طريق الكدح في سبيل إرضاء سانت جون حتى يلمَّ الألم بكل وتر من أوتار عضلاتي – لابد أن أوفّق إلى إرضائه... وإلى إرضائه حتى أصغر نقطة مركزية من نقاط توقُّعِهِ وأقصى دائرة خارجية من دوائر أمله. وحين أوطد العزم على الذهاب... حين أقْدِم،.فعلاً، على التضحية التي يدعونني إليها في إلحاح، فإني سوف أفعل ذلك على نحو كامل غير منقوص: سوف أقذف إلى المذبح بكل شيء: بقلبي، وعقلي، وسائر أعضائي الحيوية – بالضحية برمتها. إنه لن يحبني البتة. ولكنه سوف يرضى عني إني سأريه طاقات لم يرها من قبل، وقُدْرات لم يتوقّعها في أيما يوم من الأيام. أجل، إن في ميسوري أن أعمل ما وسعني العمل، وبأقل قدر من التذمر والتشكّي.

«وإذن، فالاستجابة إلى مطلبه ممكنة: لولا شيء واحد.. شيء رهيب واحد. وهو أنه يسألني أن أكون زوجته، وليس يملك نحوي من قلب الزوج أكثر ممَّا تملكه تلك الصخرة الجبارة المتجهمة التي ينحدر الجدول نحوها، مزْبداً، في ذلك الشِّعب القائم هناك. إنه يقدّرني كما يقدر جندي سلاحاً صالحاً... هذا كل ما في الأمر. وعلى أية حال، فإن هذا لن يحزنني البتة ما دمت غير متزوجة، ولكن هل أستطيع أن أدعه يُتم حساباته وتخميناته.. أن أدعه يضع خططه – في برود – موضع التنفيذ ويمضي قُدُماً في إجراء مراسيم الزفاف؟ هل أستطيع أن أتلقى منه خاتم الزواج، وأتحمل جميع شكليات الحب (التي لا أشكّ في أنه سوف يحرص على احترامها في عناية بالغة) وأنا أعلم أن روحه غائبة عن ذلك كله غياباً كاملاً؟

هل أستطيع أن أحتمل مجرّد التفكير في أن كل تحبُّب يغدقه عليّ لا يعدو أن يكون تضحية يقوم بها من أجل المبدأ؟ لا. مثل هذا الاستشهاد خليق به أن يكون رهيباً. إني لن أقوى على احتمال ذلك البتّة. في ميسوري أن أرافقه كأخت، ولكن لا كزوجة. ولسوف أبلغه ذلك».

ووجّهت بصري نحو الرابية. كان منطرحاً هناك، جامداً مثل عمود. والتفت إليّ، وعيناه تشعّان ببريق يقظ ثاقب. ثم إنه وثب واقفاً على قدميه، وتقدّم نحوي.

– «أنا على استعداد للذهاب إلى الهند، إذا أجيز لي أن أذهب طليقة».

فقال: «إنّ جوابك ليحتاج إلى تفسير. إنه غير واضح».

– «لقد كنتَ، حتى هذه اللحظة، أخي بالتبني وكنت أنا أختك بالتبني. فلنستمر على هذه الحال: إن من الخير لك ولي أن لا يجمع الزواج ما بيننا».

فهزّ رأسه وقال: «إن أخوّة التبني لن تفيد هذه الحالة. ولو قد كنت أختي الحقيقية إذن لتغير الموقف، ولصحِبْتُكِ من غير أن أبحث عن زوجة. أما وحالنا هي ما هي فنحن بين أمرين لا ثالث لهما: أما أن يُكرُّس اتحادنا ويختم بخاتم الزواج، وأما أن لا يكون بيننا اتّحاد البتة. إن ثمّة عقبات عملية تحول دون اتخاذ أيما خطة أخرى. ألا ترين ذلك، يا جين؟ فكّري لحظة، ولابدَّ لعقلك الحصيف من أن يهديك سواء السبيل».

وفكرتُ. ولكن عقلي، سواء أكان حصيفاً أو غير حصيف، لم يرشدني إلاّ إلى حقيقة واحدة، وهي أن كلاًّ منّا لم يكن يحب الآخر كما ينبغي للزوج والزوجة أن يتحابا. ومن هنا خَلُص إلى القول بأن علينا أن لا نقدم على الزواج. وأبلغته نتيجة تفكيري، قائلة: «سانت جون، أنا أعتبرك أخاً لي... وأنت تعتبرني أختاً لك... فلنبق على هذه الحال».

فأجاب في جزم موجز حاد: «لا نستطيع... لا نستطيع. إن ذلك لن يفيد. لقد سبق لك أن قلت إنك سوف تذهبين معي إلى الهند: تذكري... لقد قلتِ ذلك».

- «ولكني قيّدته بشرط».

- «حسن... حسن... إنّك لا تعترضين على النقطة الأساسية - وهي مرافقتي في الهجرة من إنكلترة والتعاون معي في أعمالي المقبلة. لقد شرعتِ، أو كدتِ، في الإقدام على عمل عظيم، وإنّك لتتمتعين بحظ من الثبات والاستقامة يجعل من العسير عليك أن تتراجعي عن ذلك. إن ثمة غاية واحدة يجب أن تضعيها نصب عينك، وهي: ما السبيل إلى أداء العمل الذي أخذتِ على نفسك القيام به أحسن ما يكون الأداء؟ بسِّطي اهتماماتك، وأحاسيسك، وأفكارك، ورغباتك وأهدافك المعقدة امزجي كل الاعتبارات في غرض واحد: أعني أن تؤدّي، في فعالية، في قوة، رسالة سيدك الإلهي. ولكي توَفّقي إلى ذلك يتعيَّن أن يكون لك معاون - لا أخ، فرابطة الأخوة واهنة جداً، أن يكون لك زوج. وأنا أيضاً لا أحتاج إلى أخت، فالأخت قد تُنتزع مني في يوم من الأيام. أنا أريد زوجة، لأن الزوجة هي الرفيق الوحيد الذي أستطيع أن أفرض سلطاني الفعّال عليه، في الحياة، وأن أحتفظ به حتى الموت احتفاظاً مطلقاً.

وارتعدت فيما كان يتكلّم. لقد استشعرت إثر سلطانه في مخ عظمي، وإثر سيطرته في أوصالي.

وقلت: «ابحث إذن عن امرأة غيري، يا سانت جون. ابحث عن واحدة تلائمك».

- «تعنين امرأة تلائم غرضي... تلائم رسالتي. فاسمحي لي أن أقول لك كرة أخرى إني لا أطمع في الزواج من مجرد امرأة تافهة، مجرد امرأة ذات حواس أنانية. لا، إني أطمع في الزواج من مبشّرة».

- «ولسوف أهَبُ المبشرَ قواي وطاقاتي - فذلك كل ما يبتغيه، ولكن لن أهبَهُ نفسي. إن ذلك أشبه بإضافة القشور إلى اللباب. وليست به أيّة حاجة إلى القشور: من أجل ذلك سأحتفظ بها». - «ليس في ميسورك أن تفعلي ذلك... بل ليس ينبغي لك أن تفعلي ذلك. أتحسبين أن الله سوف يرضى بنصف قربان؟ هل يرضى

بتضحية بتراء؟ إنما ادعوكِ إلى الدفاع عن قضية الله... وإنما أريدك أن تنضوي تحت لوائه هو لا تحت أي لواء آخر. فليس في ميسوري أن أقبل، بالنيابة عنه، ولاءً جزئياً... إن ولاءك يجب أن يكون كاملاً».

فقلت: «سوف أقدم قلبي إلى الله. أما أنت فلست بحاجة إليه».

وليس في مستطاعي، أيها القارئ، أن أقسم يميناً على أنه لم يكن ثمة شيء من السخرية المكبوحة في كل من اللهجة التي قيلت بها هذه الجملة والإحساس الذي رافقها. فقد كنت، حتى ذلك الحين، أخشى سانت جون وأخافه على نحو صامت، لأني لم أكن قد فهمته. كان قد أبقاني في دوامة من الرعب، لأنه كان قد أبقاني في دوامة من الشك. وكنت حتى ذلك الحين عاجزة من معرفة مبلغ ما انطوت عليه نفسه من سجايا القديسين ومبلغ ما انطوت عليه من خصال الشر. ولكن هذه المحادثة كشفت لي عن أشياء كثيرة، وكنت قد شرعت أحلِّل طبيعته. لقد رأيت مواطن ضعفه، ووُفِّقت إلى فهمها. وأدركت أني، إذ جلست في مكاني ذاك عند ضفة المرج وأمامي ذلك الوجه الوسيم، إنما كنت أجلس عند قدمي رجل ضالٍّ مثلي. لقد سقط النقاب عن قسوته واستبداده. حتى إذا لمست فيه هاتين الخصلتين استشعرت بعده عن الكمال، فاستعدت شجاعتي. لقد كنت مع ندٍّ لي – مع شخص أستطيع أن أناقشه... شخص أستطيع، إذا استصوبت ذلك، أن أقاومه.

واعتصم بالصمت بعد أن نطقت بالجملة الأخيرة، وسرعان ما غامرت فرفعت بصري إلى محيّاه. كان قد خفض عينيه نحوي، وكانتا تعبران عن دهش متجهم وفضول حاد في آن معاً. لقد بدتا وكأنهما تقولان: «أهي تسخر، وتسخر مني أنا؟»
– «وما معنى هذا؟»

وما عتم أن قال: «لا تنسَي أننا نبحث مسألة مقدسة، مسألة لا نستطيع أن نفكّر فيها أو نتحدّث عنها في استخفاف من غير أن نأثم. أنا واثق، يا جين، من أنّك جادة عندما تقولين إنك سوف تقدمين قلبك إلى الله: إن هذا هو كل ما أبغي. والحق أنكِ ما إن تنأين بقلبك عن البشر لكي تمنحيه خالقك حتى يصبح تعزيزُ مملكة ذلك

الخالق الروحية على الأرض هو مَسْعاك الأساسي ومصدر بهجتك الرئيسي. إنك سوف تجدين نفسك مستعدة للقيام، على التوِّ، بأيما شيء يساعدك على تحقيق ذلك الهدف. ولسوف ترين أي زخم تمْنَحُهُ جهودك وجهودي من طريق اتّحادنا الجسدي والعقلي بالزواج، وهو الاتحاد الوحيد الذي يضفي صفة من التطابق السرمدي على مصائر الكائنات البشرية وخططها. ولن تلبثي أن تتغاضي عن جميع الأهواء الصغرى، وجميع المصاعب التافهة ولذاذات الشعور، وجميع الوساوس عن درجة الميل الشخصي ونوعه وقوّته أو لطفه، وتسارعي إلى الدخول في ذلك الاتحاد في الحال».

فقلت في اقتضاب: «أتظن ذلك؟» ونظرت إلى أساريره، الجميلة في تناغمها، ولكنِ الرهيبة إلى حدّ عجيب في صرامتها الجامدة. نظرت إلى جبينه الآمر ولكن غير الصريح، وإلى عينيه البراقتين، العميقتين، الثاقبتين ولكن غير الرفيقتين أبداً، وإلى قامته الفارعة المهيبة، وتصوَّرت نفسي زوجتهُ. أوه إن هذا لا يمكن أن يتمَّ إن في استطاعتي أن أصبح معاونة له، أو أن أصبح رفيقته. وإني لعلى استعداد لأن أعبُر معه، بوصفي ذاك، البحار والمحيطات، وأن أكدح تحت الشموس الشرقية في الصحاري الآسيوية، وأن أُعجب بشجاعته وتفانيه وعلوّ همّته وأقتدي بها، وأن أعوِّد نفسي – في هدوء – الخضوع لسلطانه، وأن أبتسم في غير ما قلق كلما رأيت إلى طموحه الذي لا يُقهر، وأن أميّز فيه بين المسيحي وبين الإنسان فأقدِّر الأول تقديراً عميقاً وأغفر للثاني في سخاء. ويمكنني من غير ريب، وقد اقتصرت صلتي به على هذا الوصف، أن أقاسي آلاماً كثيرة في معظم الأحيان: إن جسدي سوف يرزح تحت نير ثقيل، ولكن فؤادي وعقلي سيكونان حرَّين. ولسوف تبقي لي نفسي غير المصوَّحة ففي استطاعتي أن أفيء إليها، ومشاعري الطبيعية غير المستعبدة ففي استطاعتي أن أتحدث معها في لحظات الوحدة الموحشة. ولسوف تبقى فى ذهنى فجوات لن ينفذ إليها البتة لأنها وقفٌ عليَّ وحدي. كما ستبقى عواطف نامية هناك، عواطف ناضرة مظَلِّلة لا تستطيع

صرامته أن تصوّحها البتة ولا تستطيع خطواته العسكرية الموزونة أن تدوسها. أجل، في إمكاني أن أصبح معاونة له أو رفيقة، ولكن ليس في إمكاني أن أصبح له زوجة – زوجة مشدودة إلى جانبه دائماً، مقيَّدة دائماً، مكبوحة دائماً... مكرهة على إخماد جذوة طبيعتي على نحو موصول، وعلى إجبارها على الاحتراق داخلياً، من غير أن أطلق صرخة البتة، برغم اكتوائي باللهب الحبيس وإهلاكه إيّاي عضواً عضواً.

وهتفت عندما انتهيت في تأمّلاتي إلى ذلك المدى: «سانت جون!»

فأجابني على نحو مثلوج: «ماذا تريدين؟»

– «أريد أن أكرر: إني أوافق، بملء رضاي، على الذهاب معك كرفيقة في ميدان التبشير، ولكن لا كزوجة. أنا لا أستطيع أن أتزوجك وأن أصبح جزءاً منك».

فأجاب في حزم: «بل يتعيّن عليك أن تصبحي جزءاً مني. وإلاّ فإن الصفقة كلها تمسي باطلة. إذ كيف أستطيع، وأنا الرجل الذي لـــمَّــا يبلغ الثلاثين، أن أصطحب إلى الهند فتاة في التاسعة عشرة، ما لم تشدها إليّ رابطة الزواج؟ كيف يجوز لنا أن نكون معاً إلى الأبد – على انفراد أحياناً، ووسط قبائل متوحشة أحياناً – من غير أن يُزفَّ أحدنا إلى الآخر؟»

فقلت في شيء من الفظاظة: «حسن جداً. في إمكانك أن تحسب، في مثل هذه الحال، أني أختك الحقيقية، أو تنظر إليّ نظرتك إلى رجل أو قسيس مثلك».

– «القوم كلهم يعلمون أنك لست أختي، فليس في ميسوري أن أقدّمك إلى الناس بهذا الوصف: وكل محاولة إلى القيام بمثل هذا الصنيع خليق بها أن تثير حولي وحولك أخطر الرِّيَبِ وأشدّها أذى. وفي ما يتّصل بالأشياء الأخرى ألاحظ أن لك – برغم ما تتمتعين به من عقل رجالي حصيف – قلب امرأة... وهذا لا يساعد كثيراً على الأخذ بوجهة نظرك».

فأكّدت في شيء من الازدراء: «بل إنه ليساعد أفضل ما تكون المساعدة. صحيح أن لي قلب امرأة، ولكن ليس في ما يتّصل بك أنت. أنا لا أملك ما أقدّمه لك غير وفاء الصديق، أو غير صراحة رفيق السلاح وإخلاصه وإخائه إذا شئت. وإني لأحترمك كما يحترم المتنصّر حديثاً كاهنَهُ الذي يعلمه الدين، وأذعِنُ لك مثل إذعانه له. هذا كل ما عندي لك. فلا تجزع».

فقال كمن يخاطب نفسه: «ذلك كلَّ ما أبتغي. إنه عيْنُ ما أطلبه تماماً. إن ثمة عقبات تعترض السبيل، وهي عقبات يجب أن تذلل. جين، إنك لن تندمي على الزواج مني. كوني من ذلك على يقين. إن علينا أن نتزوج. وأنا أكرر قولي: ليس ثمة أي سبيل آخر. ولا ريب في أن قَدْراً من الحب كافياً لابد أن يَعْقب الزواج، فيجعل اتحادنا عملاً صائباً، حتى في عينيكِ أنت».

فلم أتمالك عن القول، وأنا أنهض وأقف تجاهه، مسندة ظهري إلى الصخرة: «أنا أزدري فكرتك عن الحب. أنا أزدري العاطفة الزائفة التي تعرضها. أجل، يا سانت جون، وأزدريك أنت عندما تعرضها».

عندئذ سمَّر عينيه عليّ، ضاغطاً إحدى شفتيه البديعتين على الأخرى. ولم يكن من اليسير عليَّ أن أقرر هل كان مغيظاً أم كان مندهشاً: لقد وفِّق إلى السيطرة على أسارير وجهه سيطرة كاملة.

وقال: «لم أكن أتوقّع أن أسمع منك هذا التعبير. وأحسب أني لم أفعل أو أقل أيما يشيء يستحق الازدراء».

ومسَّت نبرته الرقيقة وتراً في قلبي، وروّعني محيَّاه الهادئ المتشامخ، وقلت:

– «اغفر لي تلك الكلمات، يا سانت جون ولكن إذا كنت قد حُمِلت على الكلام بمثل ذلك التهور كله فالذنب ذنبك أنت. فقد أثرتَ موضوعاً تختلف في أمره طبيعتانا – موضوعاً كان يتعيّن علينا أن لا نناقشه البتّة: إن لفظة الحب نفسها هي مصدر شقاق بيننا... وإذا احتجنا إلى التزام الحقيقة فما الذي يتعيّن علينا أن نفعله؟

كيف يتعيّن علينا أن نشعر؟ دعْ، يا ابن عمي العزيز، مشروع الزواج ذاك... أجل تخلَّ عنه وانسَهُ».

فقال: «لا. إنه مشروع أثيرٌ لدي. فقد غَذَوْتُهُ منذ عهد غير يسير، وهو المشروع الوحيد القادر على تحقيق غايتي العظمى. ولكني لن ألح عليك في الوقت الحاضر، أكثر مما فعلت. وغداً سوف أرتحل إلى كايمبردج: إن لي هناك كثيراً من الأصدقاء الذين أرغب في توديعهم. ولسوف يطول غيابي أسبوعين اثنين، فأفيدي من هذه الفترة للتفكير في ما عرضته عليك، ولا تنسي أنك إذا ما رفضتِهِ لم يكن رفضك ذاك استخفافاً بي أنا، بل استخفاف بالله. إنه يفتح لك، من طريقي، أبواب رسالة نبيلة... رسالة لن توفَّقي إلى حملها إلاَّ إذا أمسيت لي زوجاً. ارفضي الزواج مني تحكمي على نفسك إلى الأبد بالسير في دروب الرفه الأناني والظلمة المجدبة. ارتعدي جزعاً، وإلا أمسيت في عداد أولئك الذين أنكروا العقيدة، والذين هم شرّ من الكافرين!».

وهكذا أتى على نهاية حديثه. وإذ أشاح بوجهه عني

«نظر إلى النهر، ونظر إلى الهضبة»

مرّة أخرى. ولكن مشاعره هذه المرة، كانت حبيسة كلها في فؤاده: أنا لم أكن أهلاً لسماعها ملفوظة. وفيما كنت أمشي إلى جانبه عائدين إلى البيت قرأت في صمته الحديدي ما استشعره نحوي: خيبة نفسٍ صارمة استبدادية لقِيَتْ مقاومة حيثما كانت تتوقّع إذعاناً، واستنكار عقل بارد عنيد اكتشف في عقل آخر مشاعر وآراء لا يستطيع أن يعطف عليها. كان يمكنه، كرجل، أن يتمنى لو يُكرهني على الخضوع. وهو لم يحتمل عنادي بمثل هذا الصبر كله ولم يمنحني هذه الفترة الطويلة للتفكير والتوبة إلاّ بوصفه مسيحياً صادقاً.

وتلك الليلة – بعد أن قبّل شقيقتيه – تناسى حتى مجرّد مصافحتي، وغادر الحجرة في صمت. والواقع أني تألمت – أنا التي كنت أكنّ له صداقة بالغة وإن لم

أكنَّ له شيئاً من حب – لهذا الإغفال الصارخ... وكان ألمي من القوة بحيث طفرت الدموع من عينيّ.

وقالت ديانا: «ألاحظ، يا جين، أنّك تشاجرت مع سانت جون في أثناء النزهة التي قمتما بها في الأرض السبخة. ومن الخير لك أن تلحقي به.. إنه الآن يجرر قدميه في المجاز، متوقعاً أن يراك إلى جانبه. ولا ريب في أنه سوف ينسى كل ما حدث».

وما كنت لأجيز للكبرياء أن تتحكّم بي في مثل هذه الظروف، ولقد كان من دأبي أن أؤثر السعادة على الوقار. وهكذا اندفعت لاحقة به، فألفيته واقفاً عند أدنى السلم.

وقلت: «طاب مساؤك، يا سانت جون».

فأجابني في هدوء: «طاب مساؤك، يا جين».

فأضفت: «صافحني، إذن».

أيّة لمسة باردة رخوة كانت تلك اللمسة التي طبعها على أصابعي! فقد حزَّ في نفسه ما حدث ذلك اليوم، فليس في ميسور المودّة أن توقع الدفء في قلبه وليس في ميسور العبرات أن تحرّك عواطفه. ولم يكن ثمة سبيل إلى عقد مصالحة سعيدة معه، أو إلى انتزاع بسمة مشجعة أو كلمة كريمة منه: ومع ذلك فقد ظل «المسيحي» صابراً وادعاً. وحين سألته هل غفر لي أجاب أنه لم يتعوّد دغدغة الذكريات المؤذية، وأنه ليس ثمة ما يحتاج إلى الغفران، باعتبار أن أيما إساءة لم توجَّه إليه.

قال ذلك وفارقني. ولقد كنت أؤثر، ألف مرة، لو أنه جندلني وطرحني أرضاً.

[35]

ولم يرحل إلى كايمبردج في اليوم التالي، كما كان قد أعلن. لقد أرجأ رحلته أسبوعاً كاملاً. وخلال تلك الفترة أشعرني أيَّ عقوبة قاسية يستطيع الرجل الصالح ولكن الصارم، الرجل ذو الضمير الحي ولكن العنيد، أن يُنزلها في من أساء إليه. ذلك بأنه سعى، من غير أن يصدر عنه أيما عمل عدائي صريح أو أية كلمة معنِّفة، إلى أن يوقع في نفسي – على نحو موصول – أني مُبْعَدةٌ عن حظيرة عطفه.

وليس معنى هذا أن سانت جون كان يضمر روحاً من الحقد غير المسيحي، وليس معناه أنه كان لا يرى حرجاً في أن يمسَّ شعرة من شعرات رأسي بأذى، لو كان في ميسوره – على نحو مطلق – أن يفعل ذلك. لا، فقد كان – بحكم الطبيعة والمبدأ على حد سواء – أرفع من أن يُغرَى بمتعة الانتقام الحقيرة: لقد غفر لي قولي إني أزدريه وأزدري حبّه، ولكنه لم يكن قد نسي الكلمات، وكان خليقاً به أن لا ينساها ما امتدّ الأجل بي وبه. ولقد كنت أرى في محيّاه، كلما التفت إلي، أن تلك الكلمات كانت أبداً مرسومة على صفحة الهواء الطائف بيني وبينه. وكلما تحدثتُ إليه ضجّ بها صوتي في أذنيه، وكيَّف صداها نبرةَ كل جواب من أجوبته.

لم يقلع عن التحدّث إليّ. بل إنه كان يدعوني كل صباح، جرياً على مألوف عادته، إلى القعود بجانبه أمام مكتبه. ويخيَّل إليَّ أن الرجل الفاسد الذي في برْدَيْه كان يجد متعة، لم يشاركه فيها المسيحي المحض(1)، في إظهار مدى البراعة التي استطاع بها – بينا هو يتصرّف ويتكلّم، ظاهرياً، كعادته – أن يجرّد كل عمل وكل جملة من روح الشوق والموافقة التي كانت، في ما مضى، تضفي شيئاً من السحر المتجهم على لغته وتصرفاته. والواقع أنه لم يعد، بالنسبة لي، لحماً ودماً. ولكن

رخاماً، لقد أمست عينه جوهرة زرقاء ساطعة باردة، وأمسى لسانه مجرد أداة ناطقة ليس غير.

(1) تقصد سانت جون أيضاً. (المعرب)

وعذَّبني ذلك كله – عذبني عذاباً مصقولاً متطاولاً. لقد أضرم في جوانحي نار سخط بطيئة وأثار في ذات نفسي قلقاً مرتعداً مشوّباً بالأسى. ولقد أضجرني هذا السخط وذلك القلق وسحقاني سحقاً. ذلك بأني أدركت بأية سرعة كان في ميسور هذا الرجل الصالح، الصافي كأعماق ينبوع لا يرى الشمس – ولو أمسيتُ زوجةً له – أن يقتلني.. أن يقتلني. من غير أن يهرق من عروقي قطرة دم واحدة أو يلوث ضميره النقي كالبلور بأقل لطخة من لطخات الإجرام. ولقد استشعرت هذا، أكثر ما استشعرته، عندما قمت بالمحاولة إثر المحاولة إلى استمالته واسترضائه. إنه لم يردَّ على حناني بأيما قَدْر من الحنان. ولم يورثه النفور أية غصَّة، ولم يأخذه أيما توق إلى المصالحة. وعلى الرغم من أن عبراتي المنهمرة بللت، غير مرة، صفحة الكتاب الذي كنا نتدارسه معاً، فإنها لم تخلِّف في نفسه أثراً أعظم من ذلك الذي كان يمكن أن تخلِّفه لو أن فؤاده كان مقدوداً، في الواقع، من صخر أو معدن. أما أختاه فكان من دأبه أن يتلطَّف في معاملتهما أكثر من ذي قبل، بعض الشيء، وكأنه خشي أن لا يكون مجرد البرود كافياً لإقناعي بأني مُبْعدة من دنياه إبعاداً كاملاً فعزَّزه بالمغايرة الصارخة بين موقفه مني وموقفه منهما. ولست أشكّ البتّة في أنه فعل ذلك، لا بدافع من خبث، ولكن انسجاماً مع مبدأ.

واتّفق لي أن رأيته، عشية رحيله إلى كايمبردج، يتمشَّى – قبيل غروب الشمس – في الحديقة. وتذكرت، فيما كنت أرنو إليه، أن هذا الرجل – على شدّة ما بيني وبينه الآن من نفرة وتباعد – كان قد أنقذ حياتي يوماً، وأنه من أقربائي الأدنَيْن. فنازعتني نفسي إلى القيام بمحاولة أخيرة لاستعادة صداقته. وهكذا خرجت إلى الحديقة ودنوت منه، فيما كان متكئاً على البوابة الخارجية الصغيرة. وفي الحال بادرته بالحديث في غير مداورة، فقلت:

– «سانت جون، أنا غير سعيدة، لأنك لا تزال غاضباً علي. فلنكن صديقين».

– «أحسب أننا صديقان، وأرجو أن نكون». ذلك كان جوابه الممتنع على التأثر، قاله وهو لا يزال، كما ألفيته حين دنوتُ منه، يراقب القمر البازغ.

– «لا، يا سانت جون. نحن لم نعد صديقين كما كنّا. وإنك لتعرف ذلك».

– «ألسنا صديقين؟ هذا غير صحيح. فأنا من ناحيتي لا أتمنى لك أي شر، بل أتمنى لك الخير كله».

– «أنا أصدقك، يا سانت جون، ذلك بأنني واثقة من أنك عاجز عن أن تتمنى لأيما امرئ شراً. ولكن لما كنت أنا نسيبتك فإني أطمع في قَدْر من المحبة أكثر، بعض الشيء، من ذلك العطف العام الذي تقدّمه إلى الغرباء أنفسهم».

فقال: «من غير ريب. إن مطمعكِ لمعقول. وأنا أبعد ما أكون عن اعتبارك غريبة».

وكان هذا الكلام، المقول في لهجة فاترة هادئة، مُذِلاًّ حقاً، مخيِّباً للأمل حقاً. ولو قد أصغيت لإيحاءات الكبرياء والغيظ إذن لكان عليّ أن أنأى عنه بجانبي في غير إبطاء. ولكن شيئاً اعتمل في ذات نفسي أقوى ممّا استطاع هذان الشعوران أن يعتملا. فقد كنت أكبِر مواهب ابن عمتي ومبادئه أعمق الإكبار، وكانت صداقته ذات قيمة عندي، فخسارتها بلاء أضناني على نحو قاسٍ. ومن هنا كان خليقاً بي أن لا أتخلى، في سرعة بالغة، عن السعي لاستردادها.

– «أيتعيّن علينا أن نفترق على هذه الصورة، يا سانت جون؟ وحين ترتحل إلى الهند هل ستتركني على هذا النحو، من غير أن تقول كلمة أرقّ مما نطقت به حتى الآن؟»

عندئذ حوَّل بصره عن القمر وواجهني.

وقال: «عندما أرتحل إلى الهند، يا جين، هل سأتركك؟ ماذا! ألن ترتحلي أنت إلى الهند؟»

– «لقد قلتَ إني لا أستطيع الارتحال إلى هناك ما لم أتزوّج منك».

– «وأنت لن تتزوجي مني؟ ألا تزالين مصرّة على هذا القرار؟»

هل تعرف، أيها القارئ، كما أنا أعرف أي هوْل يستطيع أولئك القوم الباردون أن يسكبوه في ثلج أسئلتهم؟ وأي قدْر من انهيار الجليد ينطوي عليه غضبهم؟ ومن تكسُّر البحر المتجمد يتمثّل في استيائهم؟»

– «لا، يا سانت جون، أنا لن أتزوج منك. إني ألتزم قراري».

كان التَّيْهور[1] قد زُحزِح عن موضعه وانزلق إلى الأمام بعض الشيء. ولكنه لم يكن قد انهار بعد.

(1) التيهور: كومة تنهار من جبل ثلجي.

فقال: «أترفضين كرة أخرى؟ وما الذي يدعوك إلى هذا الرفض؟»

فأجبته: «لقد رفضت، في المرة الأولى، لأنك كنت لا تحبني. أما الآن فإني أرفضك لأنك تبغضني أو تكاد. ولو قد تزوجتُ منك إذن لقتلتني. والواقع أنّك تقتلني الآن».

فشحبت شفتاه ووجناته – شحبت حتى لأمست بيضاء ناصعة.

– «لو تزوجت مني إذن لقتلتك؟... أنا أقتلك الآن؟ إن كلماتك هذه هي من ضرب ما كان يجوز لك أن تستعمليه: إنها عنيفة، خلوٌ من الأنوثة، وغير صحيحة. وهي تنمُّ عن حال عقلية تعيسة. إنها تستحق تعنيفاً قاسياً، ويخيّل إليّ أنه من المتعذّر على المرء أن يغتفرها لو لم يكن من واجب الإنسان أن يصفح عن أخيه سبعاً وسبعين مرة».

كنت قد أنجزت، الآن، مهمتي. والواقع أني، في تَوْقي الصادق إلى أن أمحو من ذهنه آثار إساءتي السابقة، كنت قد خلَّفت على ذلك السطح الكتيم انطباعة أخرى أعمق بكثير: كنت قد سفعْتُهُ بمثل النار.

وقلت: «الآن سوف تبغضني حقاً. وإنه لمن العبث أن أحاول استرضاءك. يُخيَّل إليّ أني جعلت منك عدواً سرمدياً لي».

وأنزلت هذه الكلمات في نفسه أذىً أشدّ وأعمق لأنه لامَس الحقيقة. فإذا بشفته التي غار منها الدم ترتعد في تشنج عابر. وأدركت أي غيظ قاسٍ أثَرْتُهُ بتلك الكلمات، فانقبض قلبي واعتصره الألم.

فقلت، وأنا أمسك بيده: «إنّك تسيء فهم كلماتي إساءة كاملة. أنا لا أقصد إلى إيلامك أو إحزانك... صدقني، أنا لا أقصد إلى ذلك»..

وابتسم ابتسامة ليس أحفل منها بالمرارة، وسحب يده من يدي في كثير من الإصرار. ثم قال بعد صمت غير يسير: «ولسوف تعمدين الآن إلى الرجوع عمّا وعدتني به، ولن تذهبي إلى الهند بأية حال، في ما أحسب؟»

فأجبته: «بل سأذهب، بوصفي مساعدة لك».

وتلا ذلك صمت طويل. ولست أدري أي صراع نشب في ذات نفسه بين الطبيعة وبين الفضيلة خلال تلك الفترة. ولكن إشراقات فذّة أو مضت في عينيه، وظلالاً عجيبة طافت بوجهه. وتكلّم أخيراً فقال:

– «لقد أثبتّ من قبل بطلان ما تعرضين: أن ترافق امرأة عزباء في مثل سنك رجلاً أعزب في مثل سني إلى ما وراء البحار. لقد أثبتُّه لك في تعابير كان من حقها، في ما حسبتُ، أن تمنعك من الإلماح إلى تلك الخطة مرّة أخرى. أما وقد فعلت، ذلك، الآن، فإني آسف... من أجلك».

وقاطعته، فقد كان أيما تعنيف صريح خليقاً به أن يمنحني الشجاعة في الحال: «الزم حدود المنطق، يا سانت جون، فأنت تنحرف نحو الهراء. إنك تتظاهر بأن ما

قلته لك قد أصابك بصدمة. في حين أنه، في الواقع لم يصدمك البتة. ذلك بأنك - بما تتمتع به من عقل متفوّق - لا يمكن أن تكون من البلادة أو الغرور بحيث تسيء فهم المعنى الذي قصدتُه. وها أنا ذا أكرر ثانية: إني سوف أكون مبشرة مساعدة لك، إذا شئت أنت ذلك، ولكني لن أكون زوجة لك بأية حال».

وشحب وجهه، مرّة أخرى، على نحو أزرق رصاصي، ولكنه سيطر على انفعاله - كشأنهِ من قبل - سيطرة كاملة، ثم أجابني، في جزم، ولكن في هدوء:

- «لن تلائمني أبداً مبشرةٌ مساعدة لا تشدّها إليّ رابطة الزواج. ومن هنا يبدو لي أنَّك لن تستطيعي الذهاب. أما إذا كنت مخلصة في عرضك فعندئذ أتحدث، خلال مُقامي في لندن، إلى مبشر متزوِّج تحتاج زوجته إلى مساعدة. إن ثروتك سوف تجعلك في غنى عن العون المادي الذي تقدَّمه الجمعية عادة، وهكذا تنْجين بنفسك من عار الحنث بوعدك، والتخلّي عن العصبة التي عاهدتني على الانضواء تحت لوائها».

والحق أني، كما يعرف القارئ، لم أعطِ أي وعد رسمي ولم آخذ على نفسي أي عهد. من أجل ذلك كانت لغته تلك قاسيه واستبدادية بأكثر مما تقتضيه المناسبة. فأجبته:

- «ليس في الأمر أيما عار، أو حنث بوعد، أو تخلٍّ عن عصبة. ولست مقيّدة بأي التزام يحتّم عليّ الذهاب إلى الهند، وبخاصة مع قوم غرباء. لقد كان عليّ، في حال الذهاب معك، أن أغامر بأشياء كثيرة لأني أعْجَب بك وأثق فيك ولأني أحببتك كأخت لك. ولكني - أياًّ من كان الأشخاص الذين سأذهب معهم وأيّاً كان الزمان الذي سأقدم فيه على هذه الخطوة - مقتنعة بأنني لن أحيا طويلاً في ذلك المناخ».

فقال وهو يزمّ شفته: «آه! أنت خائفة من نفسك».

– «أجل، أنا خائفة. إن الله لم يهبني حياتي لكي أبددها. ولقد بدأت أرى أن النزول عند رغبتك يَعْدِل الانتحار أو يكاد. وإلى هذا، فقبل أن أعقد العزم نهائياً على مغادرة إنكلترة يتعيّن عليّ أن أستيقن من أن بقائي فيها لا يتيح لي مجالاً للإفادة أكبر من ذلك الذي تتيحه لي الهجرة منها».

– «ماذا تعنين؟»

– «من العبث الذي لا طائل تحته أن أحاول الشرح. ولكن ثمة نقطة طالما أورثتني شكاً أليماً. وليس في مستطاعي أن أرحل إلى أيما مكان إلاّ بعد أن أتحرّر من ذلك الشك».

– «أنا أعرف إلى أين يهفو فؤادك وبأي شيء هو مولع. إن الشوق الذي تضمرينه ليس شرعياً ولا مقدساً. ولقد كان الواجب يقتضيك سحقه منذ زمن بعيد. وكان جديراً بالخجل أن يظهر على وجهك، الآن، لمجرد الإلماح إليه. أنت تفكرين بمستر روتشيستر، أليس كذلك؟»

وكان هذا صحيحاً. ولقد اعترفت به بصمتي.

– «أتعتزمين البحث عن مستر روتشيستر؟»

– «يتعيّن عليّ أن أعرف ما الذي حلَّ به».

فقال: «يبقى عليّ، إذن، أن أتذكرك في صلواتي، وأن أضرع إلى الله بكل إخلاص أن لا تصبحي ضالة أو منبوذة حقاً. لقد حسبتُ أني تبيَّنت فيك واحداً من أولئك اللواتي اصطفاهن الله. ولكن الرب يرى ما لا يراه الإنسان: إن إرادته لابدّ أن تتم».

وفتح البوابة الخارجية، وخرج منها، وراح يهيم على وجهه في الوادي الصغير. وسرعان ما غاب عن ناظري.

حتى إذا انقلبت إلى حجرة الاستقبال ألفيتُ ديانا واقفة عند النافذة، وإمارات الاستغراق في التفكير بادية عليها. وكانت ديانا أطول مني بكثير، فوضعتْ يدها على كتفي، وانحنت وراحت تنعم النظر في وجهي.

ثم قالت: «جين، أراك في هذه الأيام مهتاجة شاحبة طوال الوقت. وإني لواثقة من أن وراء ذلك أمراً. قولي لي أية مسألة كنت تدرسين مع سانت جون. فقد راقبتك، طوال نصف الساعة الماضية، من هذه النافذة: إن عليك أن تغفري لي مثل هذا التجسس، ولكني تصوّرت فترة من زمان شيئاً لا أكاد أعرف ما هو. سانت جون مخلوق عجيب..».

وكفّت عن الكلام. ولم أنطق أنا بحرف. وما هي إلاّ لحظات حتى استأنفت حديثها: «إن لأخي ذاك، في ما يتصل بك، آراء غريبة بعض الشيء. أنا واثقة من ذلك. ولقد آثرك، منذ عهد طويل، بعناية واهتمام لم يُظهر مثلهما نحو أي امرأة أخرى من قبل. فما الذي يستهدفه من وراء ذلك؟ أتمنى لو يكون مغرماً بك. هل يحبك، يا جين؟»

فوضعتُ يدها الفاترة على جبيني الحار. وقلت: «لا، يا ديانا، إنه لا يحبني مثقال ذرة».

– «وإذن فلماذا يلاحقك هكذا بعينيه، ويخلو بك على هذا النحو المكرور، ويبقيك إلى جانبه إلى هذا الحدّ كله؟ لقد انتهيت أنا وماري إلى أن نستنتج أنه سألك الزواج منه».

– «لقد فعل، لقد سألني أن أقبل به زوجاً».

فصفّقت ديانا بيديها، وقالت: «ذلك عين ما رجوناه وفكرنا فيه! ولسوف تتزوجين منه، يا جين، أليس كذلك؟ وعندئذ يبقى في إنكلترة».

– «ما أبعد ما تتوهمينه عن الصواب، يا ديانا. إن غرضه الوحيد من العرض الذي تقدّم به إليِّ هو الفوز بمساعدة ملائمة تشاركه النضال في بلاد الهند».

– «ماذا؟! أيريد منك أن تذهبي إلى الهند معه؟»

– «أجل!».

فصاحت: «جنون! إنك لن تستطيعي الحياة هناك أكثر من ثلاثة أشهر. أنا واثقة من ذلك. لا، إنك لن تذهبي بأية حال. وأنت لم توافقي على الذهاب طبعاً – هل وافقتِ، يا جين؟»

– «لقد رفضت أن أتزوجه».

– «وبذلك أغضبتِهِ...»

– «إلى أبعد مدى. وأخشى أن لا يغفر لي ذلك أبد الدهر. ومع هذا، فقد عرضت أن أرافقه بوصفي أخته».

– «لقد كان عرضك ذاك حماقة متهوسة، يا جين. فكري في المهمة التي أخذتِها على عاتقك – مهمة قوامها الإرهاق المتواصل... حيث الإرهاق يقتل حتى الأقوياء... وأنت ضعيفة. إن سانت جون – ولستِ تجهلينه – سوف يحضّك على القيام بكل متعذر مستحيل... وهو لن يجيز لك أن تنعمي بشيء من الراحة خلال ساعات النهار القائظة. ولقد لاحظت، لسوء الطالع، أنك تُكرهين نفسك على أداء أيما عمل يفرضه عليك. والواقع أني لأعجب كيف وجدت الشجاعة التي مكّنتك من رفض يده. أنت لا تحبينه، إذن، يا جين؟»

– «لست أحبه كزوج».

– «ولكنه شاب وسيم».

– «وأنا دميمة جداً، كما ترين، يا ديانا. إن أيًّا منا لن يلائم الآخر أبداً».

– «دميمة! أنت دميمة؟ معاذ الله! أنت أجمل وأطيب من أن تُشْوَيْ حية في كلكتا». وناشدتني، كرة أخرى، في حماسة، أن أتخلّى عن كل تفكير في الارتحال مع أخيها.

فقلت: «أجل، يتعيّن علي ذلك من غير ريب. لأني عندما كررت عليه، منذ لحظة، اقتراحي القاضي بأن أعمل في خدمته كشمَّاسة، عبَّر عن استيائه البالغ لقلة لياقتي وذوقي. ولقد بدا وكأنه يعتبر أني ارتكبت عملاً غير لائق عندما اقترحت أن أرافقه من غير زواج: كأني لم آمُلْ منذ البدء أن أجد فيه أخاً لي، ولم أعتبره دائماً أخاً لي».

– «ما الذي يجعلك تحسبين أنه لا يحبك، يا جين؟»

– «كان عليك أن تسمعي إليه هو كيف يتكلم في هذا الموضوع. لقد أوضح لي مرة ومرة أنه لا يريد رفيقة لنفسه ولكن رفيقة لوظيفته. ولقد قال لي إنِّي خلِقت للعمل – لا للحب، وهو شيء صحيح من غير ريب. ولكني إذا كنت لم أخلق للحب فيلزم عن ذلك، منطقاً، أني لم أخلق للزواج. ألن يكون عجيباً، يا ديانا، أن أكبِّل نفسي، مدى العمر، بقيود تشدّني إلى رجل لا يرى فيَّ غير أداة نافعة».

– «هذا أمرٌ غير محتمل... غير طبيعي... غير وارد!»

فتابعتُ قائلة: «وإلى هذا، فعلى الرغم من أني لا أكنّ له الآن غير حب أخوي ففي استطاعتي أن أتصوِّر – إذا ما أجبرت على الزواج منه – أن من الجائز أن أحس نحوه بضرب من الحب غريب، معذِّب، لا مفرّ منه. لأنه رجل موهوب إلى أبعد مدى، ولأن ثمة في كثير من الأحيان ضرباً من الجلال البطولي في سيمائه، وتصرفاته، وأحاديثه. وخليق بقدَري أن يصبح، في مثل هذه الحال، بائساً على نحو لا سبيل إلى وصفه. إنه لن يُقرَّ حبي إيَّاه. وإذا ما أفصحت عن عواطفي فعندئذ سوف يشعرني أن ذلك ترفٌ لا حاجة له به، فضلاً عن أنه لا يليق بي. أنا متأكدة من أنه سوف يعمد إلى ذلك».

فقالت ديانا: «ومع ذلك فسانت جون رجل طيب».

– «إنه رجل طيب ورجل عظيم. ولكنه ينسى، في غمرة من سعيه بسبيل تحقيق أفكاره السامية، مشاعر بسطاء الناس ومطالبهم، وينساها في غير ما رحمة.

من أجل ذلك، يَحسُن بالتافهين أن يبتعدوا عن طريقه خشية أن يدوسهم، خلال زحفه، بقدميه ا لاثنتين. هو ذا قد أقبل! سوف أتركك يا ديانا». وإذ رأيته يدخل الحديقة هرولتُ صاعدة السلم إلى الطابق الأعلى.

ولكني اضطررت إلى لقائه، كرة أخرى، عند العشاء. ولقد بدا، خلال هذه الوجبة، رابط الجأش كمألوف عادته. وكنت قد حسبت أنه لن يوجّه إليّ إلاّ كلمة أو كلمتين وأيقنت أنه عدل عن خطة الزواج، ولكن ما حدث بعد ذلك أظهر أن ما حسبته ليس في محلّه. فقد خاطبني بطريقته المعتادة تماماً، أو بما كان قد أصبح – في الفترة الأخيرة – طريقته المعتادة: أعني في كياسة حنبلية. وليس من ريب في أنه كان قد التمس معونة الروح القدس ابتغاء كظم الغضب الذي اثرتُهُ في ذات نفسه. وهكذا اعتقدت أنه غفر لي مرّة أخرى.

وللتلاوة المسائية التي تسبق أداء الصلاة اختار الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الرؤيا. ولقد كان مما يشرح صدري، في كل آنٍ، أن أصغي بينما تنطلق آيات الكتاب المقدس من بين شفتيه: إن صوته الرخيم لم يكن ليبدو بالغ العذوبة والامتلاء في وقت واحد، وإن سلوكه لم يكن ليغدو في بساطته النبيلة أشد ما يكون تأثيراً في النفس إلاّ حين ينطق بالوحي الإلهي. وتلك الليلة اكتسب ذلك الصوت نبرةً أكثر مهابة واكتسب ذلك السلوك مغزىً أخَذَ بمجامع القلوب، عندما توسَّط عقْد أسرتِهِ (وقد أشرق قمر نوار – مايو – من خلال النافذة غير المحجوبة بستار، جاعلاً ضياء الشمعة الموضوعة على المائدة غير ضروري تقريباً) وأكبّ ثمة على نسخة ضخمة عتيقة من الكتاب المقدس، وأنشأ يصف – نقلاً عن صفحاته – رؤيا السماء الجديدة والأرض الجديدة، ويروي كيف سيهبط الرب ليحيا بين البشر، وكيف سيكفكف الدموع كلها من أعينهم، واعداً إيّاهم بأن لا يبقى على الأرض، بعد ذلك، لا موت، ولا أسى، ولا بكاء، ولا ألم، لأن النواميس السابقة أمست في خبر كان.

وهزّتني الكلمات التالية هزاً عجيباً فيما كان ينطق بها: وبخاصة عندما استشعرت – من التغير الطفيف الذي ألمَّ بنبرة صوته – أن عينه تحوّلت إليّ بينا انطلقت تلك الكلمات من فمه:

«من يغلب يرث كل شيء وأكون له إلهاً وهو يكون لي ابناً، وأما»، وهنا أخذ يتلو في بطء ووضوح بالغ، «الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة عبدة الأثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتّقدة بنار وكبريت، وذلك هو الموت الثاني».

ومنذ ذلك الحين عرفت أي مصير كان سانت جون يخشى عليّ من الانتهاء إليه.

وإنما طُبِعت تلاوته هذه الآيات الأخيرة المجيدة من ذلك الإصحاح بطابع من الظَفَر المكبوح تخالطه حرارة توّاقة. كان واضحاً أن قارئ تلك الآيات مؤمن بأن اسمه قد سُطر في «سِفْر الحياة للسيد المسيح، وأنه كان متشوّقاً إلى تلك الساعة التي سوف تتيح له الدخول إلى المدينة التي يحمل إليها ملوك الأرض أمجادهم ومآثرهم والتي هي في غنى عن شمس أو قمر يشرقان فيها، لأن مجد الله ينيرها، ولأن المسيح هو ضياؤها.

وفي الصلاة التي عقبت تلاوة الإصحاح احتشدت قوّته كلها، واستيقظت حماسته المتجهمة كلها. كان يخوض معركة جدّية، وكان قد عقد العزم على الانتصار. لقد تضرّع إلى الله أن يهب ضعاف القلوب قوةً، والتائهين خارج الحظيرة هدايةً، وأولئك الذين أغرتهم مغريات العالم والجسد بالابتعاد عن الصراط المستقيم عودةً ولو في اللحظة الأخيرة. لقد رجا، وألحّ في الرجاء، وطالب لهم بنعمة الخلاص من هلاك محتوم. إن للحماسة المشبوبة جلالاً عميقاً في كل آنٍ. ولقد عجبت لحماسته، أولاً، وأنا أصغي لتلك الصلاة. حتى إذا استمرّت بعد ذلك واتّقدت مسَّت من قلبي وتراً، ثم روَّعتني. لقد استشعر عظمة غرضه استشعاراً

صادقاً إلى أبعد الحدود. ولم يكن في ميسور الآخرين الذين سمعوه يتضرع من أجل تحقيق هذا الغرض إلاّ أن يستشعروا مثل شعوره.

وحين خُتمت الصلاة استأذنّاه بالانصراف، فقد كان مزمعاً الرحيل في ساعة مبكرة جداً من صباح اليوم التالي. حتى إذا قبَّلته ديانا وماري غادرتا الحجرة، نزولاً عند رغبةٍ منه، في ما أظن، عبَّر عنها ببضع كلمات مهموسة. وبسطت أنا يدي إليه، وتمنيت له رحلة ممتعة.

– «شكراً، يا جين. إني سأعود من كايمبريدج، كما قلت من قبل، بعد أسبوعين اثنين. وإذن فلا يزال أمامك هذه المهلة تفرغين خلالها للتفكير. ولو قد أردتُ أن أصغي لنداء الغرور البشري إذن لتعيَّن عليّ أن لا أقول أية كلمة إضافية عن زواجك مني. ولكني أصغي إلى نداء واجبي، وأبقى نصب عينيَّ – على نحو موصول – هدفي الأول، وهو أن أفعل كل شيء لمجد الله. لقد صبر «معلِّمي»[1] على العذاب صبراً طويلاً، وكذلك سوف أفعل. إني لا أستطيع ان أتخلى عنك للهلاك الأبدي، بوصفك وعاءً مترعاً بغضب الله. توبي إلى خالقك، وسارعي إلى اتّخاذ قرارك قبل فوات الأوان. تذكري أننا أُمِرنا بأن نعمل ما بقيت الشمس ترسل أشعتها، وأننا حُذِّرنا من أنه «لا بد من هبوط الليل الذي يُحال فيه بين كل امرئ وبين العمل». تذكيري مصير «دايفيس»[2] الثريَّ الذي تمتع بكل مناعم الحياة ومتارفها. ولقد منحك الله القوة على اختيار الجزء الأفضل الذي لن يُنتزع منك!»

(1) المراد هو السيد المسيح. (المعرب)

(2) هو الغني الوارد ذكره في سفر لوقا، الإصحاح السادس عشر 19: 21. (المعرب)

ووضع يده على رأسي فيما كان ينطق بالكلمات الأخيرة. كان قد تكلّم في إخلاص وفي رفق. ولم تكن نظرته، في الواقع، نظرة عاشق يرنو إلى صاحبته ولكنها كانت نظرة قسّ يدعو خرافه الضالة للعودة إلى الحظيرة، بل كانت أكثر من ذلك: نظرة ملاك حارس يراقب النفس التي هو مسؤول عنها. إن لجميع

الموهوبين، سواء أكانوا عاطفيين أم لا، وسواء أكانوا متعصبين أم طموحين أم طغاة - شريطة أن يكونوا صادقين - لحظاتهم السامية التي يهيمنون فيها ويحكمون. وهكذا استشعرت احتراماً بالغاً لسانت جون - احتراماً كان من القوة بحيث ردَّني زخمه، في الحال، إلى النقطة التي طالما جهدتُ في سبيل اجتنابها. لقد أُغْرِيتُ بالكفّ عن مقاومته، وبالاندفاع مع تيار إرادته إلى دُوَّامة وجوده، حيث أفقد إرادتي الذاتية. كان الآن قد حاصرني حصاراً لا يقلّ عنفاً عن ذلك الذي ضربه عليَّ من قبل، ولكن بطريقة أخرى مختلفة. ولقد كنت حمقاء في كلتا المرتين. إن الاستسلام في المرة الأولى كان سيكون خروجاً على المبدأ. وإن الاستسلام الآن سيكون خطأ في التقدير. ذلك ما أعتقده في هذه اللحظة، التي التفتّ فيها إلى الأزمة عبر الزمان الملطِّف: لقد كنت آنذاك لا أعي حماقتي.

ووقفت جامدة تحت أنامل كاهني. كانت رفوضي[1] قد نُسِيَتْ وكانت مخاوفي قد ذُلِّلت، وكانت مقاومتي قد شُلَّت. وكان «المتعذر» أعني زواجي من سانت جون - يتحول سريعاً ليصبح هو «الممكن». كان كل شيء يتبدّل تبدلاً كاملاً مفاجئاً. لقد دعا الدين... وأشارت الملائكة... وأصدر الرب أمره.. لقد التفَّت الحياة مثل طومار[2] من الطوامير... وفُتِحت أبواب الموت، مُبْدية عن الأبدية القائمة خلفها: لقد بدا وكأن في الإمكان - التماساً للسلامة والسعادة هناك - أن يُضَحَّى بكل شيء هنا في ثانية واحدة. لقد امتلأت الحجرة القاتمة بضروب الرؤى.

(1) جمع رفض. كوعود جمع وعد.

(2) صحيفة يكتب عليها.

وسألني المبشر: «هل تستطيعين أن تقرري الآن؟» كان السؤال قد طُرِح بنبرات رقيقة، ولقد جذبني سانت جون إليه بالرقة نفسها. أوه، يا لتلك الرقة! لقدبدت لي أقوى من العنف بكثير! كان في ميسوري أن أقاوم غضب سانت جون، ولكنني أمسيت الآن مطواعة مثل قصبة تحت نسائم لطفه. ومع ذلك فقد كنت أعرف معرفة جيدة أني إذا استسلمت الآن فلن أُحْمَلُ في يوم من الأيام على الندم

على تمرّدي السابق. إن ساعة واحدة من الصلاة المهيبة لم تغيِّر، وليس في ميسورها أن تغير، طبيعته التي فُطِر عليها. لقد رفعت هذه الطبيعة وسمتْ بها فحسب.

وأجبت: «في استطاعتي أن أقرر.. شريطة أن أثق وأقتنع بأن إرادة الله هي التي تقضي بزواجي منك. وإذا وثقت من ذلك واقتنعت به أن أعاهدك على الزواج منك هنا وفي هذه اللحظة - وليحدث بعد ذلك ما يحدث!»

فهتف سانت جون: «لقد استجيبت دعواتي!» وضغط بيده على رأسي ضغطاً أشدّ. وطوَّقني بذراعه وكأنه يكاد يحبني. (أقول يكاد - فقد عرفت الفرق - ذلك بأنني كنت قد خَبَرْتُ ما معنى أن يكون المرء محبوباً. ولكني كنت، الآن، مثله هو، قد أخرجت الحب من الحساب ولم أفكر إلاّ بالواجب). وناضلت ضد ضعف بصيرتي وضبابيَّتها، تلك البصيرة التي كانت السحب لا تزال تَدْرُج أمامها. لقد تُقْتُ توقاً صادقاً، عميقاً، متّقداً، إلى أن أعمل ما هو خير، مكتفية بذلك. وتضرّعت إلى الله قائلة: «اهدِني.. اهدِني الصراط المستقيم!» كان الانفعال يعصف بي أكثر مما عصف بي في أيّ مناسبة ماضية، ولسوف يكون في ميسور القارئ ان يقرّر ما إذا كان ما حدث بعد ذلك هو ثمرة الاهتياج أم لا.

كان السكون يرين على المنزل كله، إذ كان الجميع، ما عداي وعدا سانت جون، قد آووا في ما أعتقد إلى مضاجعهم. كانت الشمعة الوحيدة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت الحجرة طافحة بضياء القمر. وخفق قلبي في سرعة وقوة: لقد استطعت أن أسمع وجيبه. وفجأةً كفَّ عن الخفقان تحت وطأة شعور لا سبيل إلى التعبير عنه - شعورٍ هزَّه هزاً عنيفاً ثم انتقل في الحال إلى رأسي وأطرافي. ولم يكن ذلك الشعور صدمة كهربائية، ولكنه كان حاداً وغريباً مثل إجفال: لقد أثَّر في حواسي وكأن نشاط هذه الحواس الأقصى كان حتى تلك اللحظة مجرَّد خدر وسبات، انتُزِعت منهما الآن وأُكرِهت على الاستيقاظ. لقد نهضت متوقّعة متطلعة: فأما العين والأذن فقد انتظرتا، وأما اللحم فقد ارتعد فوق عظامي.

وسألني سانت جون: «ما الذي سمعتِهِ؟ ما الذي تَرَيْنَه؟»

أنا لم أر شيئاً، ولكني سمعت صوتاً يصيح من مكان ما: «جين! جين! جين'» ليس غير.

وشهقت: «أوه، يا إلهي! ما هذا؟»

ولو قد قلت: «أين هو؟» لما كان قولي مستغرباً. فقد بدا أنه ليس في الحجرة، وليس في المنزل، وليس في الحديقة. إنه لم ينبعث من الهواء، ولم ينبثق من باطن الأرض، ولم ينطلق من فوق سَمْت الرأس. كنت قد سمعته... أما أين سمعته ومن أين فذلك ما لن أستطيع معرفته أبد الدهر! آه، لقد كان صوت كائن بشري - صوتاً معروفاً، محبوباً، لست أنساه البتّة - صوت إدوارد فيرفاكس روتشيستر. ولقد تكلّم في ألم وأسى وعلى نحو ضارٍ، راعب، ملحاح.

فصحت: «أنا آتية! انتظرني! أوه، سوف آتي!» واندفعت إلى الباب، وألقيت نظرة على الممرّ، فإذا به مظلم. وعدوْت إلى الحديقة، فإذا بها خاوية.

وهتفت: «أين أنت؟»

فما كان من الهضاب، القائمة وراء وادي «مارش غلين»، إلا أن أعادت إليَّ الجواب على نحو واهنٍ: «أين أنت؟» وأصغيت. وتنهدت الريح تنهداً رقيقاً وسط شجرات الشربين: كانت وحشة الأراضي السبخة وسكون منتصف الليل يهيمنان على كل شيء.

وقلت عندما برز ذلك الشبح أسود اللون إزاء شجرات السِّدر السوداء عند البوابة الخارجية: «اغرب أيها الوهم! هذا ليس خداعاً من خداعك، ولا سحراً من سحرك. إنه عمل الطبيعة. لقد أوقِظَتْ من سباتها، ولم تجترح أيَّ معجزة.. لا، لقد بذلت غاية جهدها ليس غير».

وأفلت من سانت جون، الذي كان قد لحق بي، والذي كان خليقاً به أن يحتجزني. لقد جاء دوري في السيطرة والتحكّم، وكانت قواي كلها محتشدة تعمل

في همّة ونشاط. فسألته أن يمتنع عن طرح أي سؤال أو إبداء أيما ملاحظة. ورغبت إليه أن يتركني، فقد كان يتعيّن عليَّ - وكنت أنا أودُّ أيضاً - أن أخلو إلى نفسي. فنزل عند رغبتي في الحال. فحيث تكون القدرة التي تمكِّن المرء من إصدار الأوامر فلا مفرَّ من الطاعة. وصعدت إلى حجرتي، وأوصدت الباب على نفسي، وركعت، وصليت على طريقتي - وهي مختلفة عن طريقة سانت جون، ولكنها فعَّالة على صورتها الخاصة. لقد بدا لي أني أمسيت على قرب شديد من روح جبارة، وأسرعت إلى السجود عند قدميها عرفاناً للجميل. ثم إنني نهضت من صلاة الشكر تلك... واتّخذت قراراً... واضطجعت وقد زايلني الرعب واتّضحت أمامي الطريق... وأخذني التوق إلى شيء واحد ليس غير، هو أن ينحسر الظلام وينبلج الفجر.

[36]

وتنفّس الصبح آخر الأمر. ونهضت مع الضحى. وشغلت نفسي طوال ساعة أو ساعتين بترتيب أمتعتي في حجرتي وأدراجي وخزانة ملابسي على النسق الذي أرغب في تركها عليه خلال غيبة وجيزة. وفي غضون ذلك سمعت سانت جون يغادر حجرته، ويقف لدى باب حجرتي. وخشيت أن يقرع الباب ولكنه لم يفعل: لقد أمرَّ من تحته قصاصة من ورق ليس غير. فرفعتها عن الأرض، فإذا هي تحمل هذه الكلمات:

«لقد فارقتني الليلة البارحة على نحو مفاجئ أكثر مما ينبغي. ولو أنك لبثتِ بضع دقائق إضافية إذن لوضعت يدك على صليب المسيحي وتاج الملاك. وإني لأتوقّع أن أسمع قرارك الواضح عندما أرجع بعد أسبوعين اثنين. وفي غضون ذلك احترسي من التردّي في مهاوي الإغراء وصلّي من أجل ذلك. أنا واثق من أن روحك راغبة، ولكن جسدك – في ما أرى – واهنٌ ضعيف. إني سوف أصلّي لأجلك ساعة بعد ساعة. – المخلص لك، سانت جون».

فأجبت في ما بيني وبين نفسي: «إن روحي راغبة في الإقدام على ما هو حق. وإن جسدي، في ما أرجو، هو من القوة بحيث ينفذ إرادة السماء، حالما تتجلّى لي تلك الإرادة على نحوٍ لا لبس فيه. وعلى أية حال، فسوف يكون من القوة بحيث يبحث ويسأل عن مخرج من ظلمات الشك هذه، ويتلمّس السبيل القويم ويسعى لبلوغ نور اليقين».

كنا الآن في مطلع حزيران (يونيو)، ومع ذلك فقد كان الصباح غائماً بارداً. وشرع المطر يقرع زجاج نافذتي في سرعة بالغة. وسمعت الباب الخارجي يُفتح، وسانت جون يغادر البيت. وإذ نظرت من خلال النافذة رأيته يجتاز الحديقة. لقد

سلك سبيل الأراضي السبخة التي كان الضباب يلفّها، متجهاً نحو هويتكروس – كان عليه أن يدرك العربة العمومية هناك.

وقلت في ذات نفسي: «لن تنقضي بضع ساعات حتى أحذو حذوك وأسلك ذلك الدرب، يا ابن عمتي. إن لديَّ، أنا أيضاً، عربة عمومية يتعيّن عليّ أن أدركها في هويتكروس. وإن لديَّ، أنا أيضاً، شخصاً يجب أن أراه وأطمئن على صحّته في إنكلترة، قبل أن أرحل إلى الأبد».

كانت ثمة ساعتان تفصلاننا عن فطور الصباح. ولكي أملأ هذه الفترة رحت أذرع الحجرة في رفق، جيئة وذهاباً، وأفكر في ذلك الطائف الذي ألمَّ بي فوجَّه خططي وجهتَها الحالية. لقد استحضرتُ ذلك الشعور الباطني الذي خامرني – ذلك بأنني كنت قادرة على استحضاره – بكل ما اتَّسم به من غرابة تعزُّ على الوصف. واستحضرت الصوت الذي كنت قد سمعته
ومرَّة أخرى تساءلت من أين أقبل، ولكني لم أحظ – كشأني من قبل – بأي جواب شاف: لقد بدا لي أنه انبعث من ذات نفسي، لا منَ العالم الخارجي. وتساءلت هل كان مجرد انفعال عصبي – مجرد وهم؟ ولم أستطع أن أفهم أو أن أؤمن: لقد كان أقرب إلى الإلهام منه إلى أي شيء آخر. وكانت هزّة الإحساس العجيبة التي اجتاحتني أشبه بالزلزلة التي زعزعت أساس سجن القديس بولس وسيلاس. لقد أشرعت أبواب زنزانة الروح وفكَّت قيودها.. لقد أيقظتها من رقادها، فوثبت من غمرته مرتعدة مصغية مشدوهة. ثم إن صيحة صارخة تردَّت في أذني المجفلة، وفي فؤادي المرتجف، وفي روحي التي لم توجس خيفةً ولم ترتعد، ولكنها تهلَّلت وكأنما ازدهاها وأبهجها نجاح ذلك الجهد الذي خُوِّلت حق القيام به بمعزل عن الجسد المعرقل المربِك.

وقلت، إذ ختمتُ تأملاتي: «لن تنقضي غير أيام معدودات حتى أعرف شيئاً عن صاحب ذلك الصوت الذي بدا، الليلة البارحة، وكأنه يناديني. لقد أثبتت التجربة أن الرسائل لا تجدي... من أجل ذلك سوف أستعيض عنها بالتحرّي الشخصي».

وخلال فطور الصباح أنبأت ديانا وماري أني أعتزم القيام برحلة، وأني سوف أغيب أربعة أيام على الأقل.

فسألتاني: «وحدك، يا جين؟»

- «أجل. إنما أبتغي أن أرى صديقاً ساورني القلق عليه فترة من الزمان، أو أن أستطلع نبأه».

ولقد كان خليقاً بهما أن تقولا - فليس عندي من ريب في أن ذلك كان هو اعتقادهما - إنهما حسبتا أن ليس لي من أصدقاء غيرهما. فالواقع أني كثيراً ما قلت ذلك على مسامعهما. ولكنهما أحجمتا - بما فُطرتا عليه من كياسة صادقة - عن التعليق على كلامي. وسألتني ديانا: «هل أنتِ واثقة من أن صحتك تساعدك على الرحلة؟» مضيفة إلى ذلك قولها إنها تراني شاحبة الوجه إلى حد بعيد. فأجبتها قائلة: إني لا أشكو غير قلق البال، وهو شيء أرجو أن أتحرر منه عمّا قريب.

وكان من اليسير عليَّ أن أتّخذ ترتيباتي الإضافية. ذلك بأني لم أزعَجْ بأيما أسئلة، أو بأيما ظنون. فما إن أوضحت لهما أني لا أستطيع الآن أن أفصح عن طبيعة خططي حتى تقبَّلتا الصمت الذي أحطتها به بقبول حسن. وبذلك أتاحتا لي فرصة التصرُّف الحر، التي كان خليقاً بي أن أتيحها لهما لو نشأت ظروف مماثلة.

وغادرت «مور هاوس» في الساعة الثالثة بعد الظهر. وما كادت الساعة تتجاوز الرابعة حتى وقفت عند مَعْلم طريق هويتكروس، في انتظار وصول المركبة المتوقَّع أن تقلَّني إلى ثورنفيلد القصية. وفي غمرة من صمت تلك الطرق المتوحدة والهضاب المقفرة سمعتها تدنو من مسافة بعيدة. كانت هي المركبة عينها التي ترجلتُ منها - قبل عام واحد وفي ذات ليلة من ليالي الخريف - في هذه البقعة نفسها وأنا في غاية من الكآبة، واليأس، وفقدان الهدف. وأومأت إليها، فتوقّفت. وامتطيت متنها، من غير أن أضطر الآن إلى دفع كل ما أملك من مال أجراً لها. وإذا وجدتُني أسلك الطريق إلى ثورنفيلد، كرة أخرى، استشعرت وكأنني حمام الزاجل يطير عائداً إلى موطنه.

واستغرقت الرحلة ستاً وثلاثين ساعة. كنت قد انطلقت من هويتكروس أصيل يوم الثلاثاء، وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس التالي كفَّت المركبة عن المسير لإطفاء ظمأ الخيل عند خانٍ قائم على جانب من الطريق في ريف طالعتني وشائعُهُ الخضر وحقوله الواسعة وهضابه المعشوشبة الخفيضة (لشدِّ ما كان مظهرها عذباً ولونها خضراً بالقياس إلى أراضي مورتون السبخة المتجهمة الواقعة في الجزء الأوسط الشمالي من البلاد!) وكأنها أسارير وجه كان في يوم من الأيام مألوفاً عندي. أجل، لقد عرفت طبيعة هذا الريف، وكنت أعرف أننا كدنا نبلغ المكان الذي كنت أقصد إليه.

وسألت سائس الخيل: «كم ميلاً تفصل قمر ثورنفيلد عن هذا المكان؟»

– «ميلان اثنان، تماماً، عبر الحقول، يا سيدتي».

فقلت في ذات نفسي: «لقد خُتِمت رحلتي». وترجلت من المركبة، فأودعت حقيبتي سائس الخيل ريثما أعود فأطلب إليه ردَّها إليَّ، ودفعت أجر المركبة، ودفعت إلى الحوذي إطراميّة، ومضيت لسبيلي. لقد التمعت أشعة الفجر على لافتة الخان، فقرأت عليها هذه الكلمات مسطورة بأحرف مذهَّبة: «نُزُل أسلحة روتشيستر» ووثب قلبي من مكانه: كنت الآن أطأ أراضي سيدي بالذات. ثم إنه عاد فهبط من جديد: لقد خطرت له هذه الفكرة:

– «إن سيدك نفسه قد يكون، بقَدْر ما تعرفين، وراء القناة البريطانية. ولنفرض أنه في قصر ثورنفيلد، الذي تغذِّين الخطى إليه، فمن ذا الذي يقيم إلى جانبه هناك؟ زوجته المجنونة! وإلى هذا فأنت لم تعد لك به علاقة ما. إنك لا تجرؤين على التحدِّث إليه أو السعي للمثول بين يديه. لقد فقدت وظيفتك... ومن الخير لك أن لا تذهبي إلى أبعد من هذا»... كذلك ألحَّ الناصح المنذر – «اسألي أصحاب الخان أن يزودوك ببعض المعلومات. إن في استطاعتهم أن يقدّموا إليك كل ما تتوقين إلى معرفته. وفي ميسورهم أن يبددوا شكوكك في الحال. امضي إلى ذلك الرجل، واسأليه عن مستر روتشيستر أيقيم في قصره الآن؟»

كان الاقتراح معقولاً، ومع ذلك فلم يكن في استطاعتي أن أكرِه نفسي على العمل وفقَهُ. فقد كنت أخشى، أشد ما تكون الخشية، أن ألقى جواباً يسحقني باليأس سحقاً. إن إطالة الشك كانت تعني إطالة الأمل. ومن الخير لي أن أرى القصر، مرّة أخرى، تحت أشعة نجمهِ. وها هي ذي سلّم السياج أمامي – الحقول نفسُها التي كنت قد هرولت عبرها عمياء، صماء، شاردة اللب تجتاحني وتدفعني سَوْرة غيظ حقود، صباح ذلك اليوم الذي فررت فيه من ثورنفيلد. وقبل أن أستيقن أيَّ اتجاه يتعيّن عليَّ أن أسلكه وجدت نفسي وسط تلك الحقول. ألا ما كان أسرع سيري! ولشدُّ ما عدوت في بعض الأحيان! وكم كان توقي إلى تكحيل الطرْف بأول نظرة ألقيها على الغابة المألوفة لديَّ! وبأي ابتهاج غامر استقبلتُ الشجرات المفردة الصديقة، والومضات المعهودة من المرج والهضبة القائمين بينها.

وأخيراً برزت الغابة. وتعندقت الغربان سوداء ساحمة. وعكَّر سكون الصباح نعيبٌ عالٍ وحثَّني على الإسراع ابتهاجٌ عجيب، فرحت أغذ الخطى. حتى إذا عبرتُ حقلاً آخر... وتلوَّيت في سيري حول درب من الدروب ألفيتني أمام أسوار الفِناء... أما الجناح الخلفي الأسود من القصر. أما القصر نفسه، وأما مسرح الغربان فكانا لا يزالان محجوبين عن ناظري. وقررتُ: «سوف تكون الواجهة أول ما سأراه من القصر، وهناك سوف تبدهني شُرفاته البارزة بجلالها ونبلها، ولسوف يكون في مستطاعي أن أميِّز نافذة سيدي نفسها من بين النوافذ جميعاً، ولعله أن يكون واقفاً هناك. إنه ينهض من رقاده باكراً، ولعلّه الآن يتمشى في الجنينة، أو في المجاز المعبّد أمام القصر. ليتني أوفَّق إلى أن أراه!.. لحظة واحدة ليس غير! وليس من ريب في أني، في هذه الحال، لن أكون من الخبل بحيث أهرول إلى لقائه! لا، لست أستطيع أن أقطع برأي في هذه المسألة... أنا لست واثقة. وإذا هرولت للقائه، أيُّ بأس من ذلك! فليباركه الله! أيُّ بأس في هذا أيضاً؟ من ذا الذي سوف يصاب بأذى إذا ما تذوقتُ مرّة أخرى تلك الحياة التي تستطيع نظرته أن تغدقها عليَّ؟ لا، أنا أهذي... لعله في هذه اللحظة يشهد الشمس وهي تشرق فوق جبال البرانس (البيرينيه)، أو على بحر الجنوب الساجي(1).

(1) تقصد البحر الأبيض المتوسط. (المعرب)

وكنت قد سرت في محاذاة جدار الجنينة الداخلي، واستدرت عند زاويته: كان في تلك النقطة بوابة خارجية، تفضي إلى المرج، بين عمودين حجريين تتوّجهما كرتان حجريتان. ومن وراء أحد العمودين كان في ميسوري أن أختلس النظر، في سكون، إلى واجهة القصر برمَّتها. وطاولت عنقي في احتراس، رغبةً في أن أستيقن هل رُفِع أي من أجفان النوافذ في حجرات النوم. فإذا بالشرفات، والنوافذ، والواجهة الطويلة – كلها تصبح، من هذا الموقع المحجَّب، في متناول بصري.

ولعل الغربان المقلعة فوق رأسي قد راقبتني وأنا أختلس تلك النظرات. وتساءلت: تُرى ما الذي خطر في بالها إذ رأتني؟ لا ريب في أنها لاحظت، بادئ الأمر، حذري وخجلي البالغين، ثم تبدَّى لها أني أمسيت، تدريجياً، شديدة الجرأة والتهور. ذلك بأن نظرتي المختلَسة سرعان ما استحالت تحديقاً طويلاً، وبأني ما لبثت أن فارقت مخبأي وهمت على وجهي في المرج. وفجأة وقفت أمام واجهة القصر مباشرة، ورحت أرنو إليها بنظرات متطاولة جسورة. وأغلب الظن أن الغربان قد تساءلت: «أيَّ تكلُّف للحياء كان هذا بادئ الأمر! وإلى أية لامبالاة بلهاء انقلب الآن!»

وإليك، أيها القارئ، هذه الصورة التمثيلية:

يجد عاشق محبوبته راقدة على ضفة معشوشبة. إنه يتمنى لو يلمح وجهها الجميل من غير أن يوقظها. فهو يمشي مترفقاً على العشب محاذراً أن يصدر عنه صوت ما. ثم إنه يقف، متوهماً أنها تحركت. وينسحب، مؤثراً الاحتجاب عن العيون على ثروات العالم كلها. إن كل شيء ساكن، وكرّة أخرى يتقدم العاشق نحو محبوبته، وينحني فوقها، فيجد على وجهها حجاباً رقيقاً، فيرفعه، ويغالي في الانحناء فوقها. عندئذ تتوقع عيناه. رؤية الجمال – دافئاً، منوِّراً، فاتناً في سكونه. لشد ما كانت نظرتهما الأولى عاجلة! ولكن ما أسرع ما تتسمَّران! ويجفل العاشق أيَ إجفال! وسرعان ما يضم بين ذراعيه، في قوة وعنف، ذلك الجسد الذي لم

يجرؤ، قبل لحظة واحدة، على أن يمسَّه بأصبعه! وفجأة يرفع عقيرته باسم ما، ويضع حمله على الأرض، ويحدّق إليه بنظرات ضارية. ويروح من ثم يعانقه، و يُعْول، ويرنو ، لأنه لم يع د ي خشى أن يوقظه بأيما صوت يمكن أن يصدر عنه، وبأيما حركة يمكن أن يقوم بها. لقد اعتقد أن محبوبته قد نامت نوماً هانئاً، فإذا به يجدها جثة هامدة!

ذلك كان مَثَلي أنا: لقد تطلَّعت في ابتهاج متهيِّب إلى قصر فخم، فإذا بي أرى أطلالاً جُلْبِبَت بالسواد.

لم تكن ثمة، في الواقع، حاجة إلى الجثوم وراء أحد الأعمدة.. واختلاس البصر إلى شَعريات حجرة. من الحجرات خشية إلى ألمح أي إمارة من إمارات الحياة خلفها! ولم تكن ثمة حاجة إلى الإصغاء إلى الأبواب رجاء أن تُفتح... وإلى تصوُّر وقع خطىّ على المجاز المعبَّد أو على الممشى المفروش بالحصى! كانت المرجة والحدائق مدوسة بالأقدام، مهملة. وكان الباب يتثاءب مؤذناً بالفراغ. أما واجهة القصر، فكانت كما رأيتها ذات مرة في ما يراه النائم، مجرد جدار هيكليّ أجرد، مرتفع جداً، هشّ المظهر جداً، تتخلَّله نوافذ لا ألواح زجاجية فيها. لم يكن ثمة سطح، ولا شرفات، ولا مداخن. كان كل ذلك قد انهار.

إن سكون الموت كان يخيم على القصر: وحشةُ مَجْهل من المجاهل المتوحدة. فلا عجب أن تكون الرسائل التي وُجِهت إلى هذا البيت لم تحظَ البتُّة بأي جواب: لكأنها رسائل وجِّهت إلى سراب. وأفصح سواد الحجارة الكالح عن الكارثة التي ألمَّت بالقصر – من طريق الحريق: ولكن كيف احترق؟ وما قصة هذه النكبة؟ وأيِّة خسارة – إلى جانب خسارة الملاط والرخام والأبواب والنوافذ – نشأت عن ذلك؟ هل حدث نقص في الأنفس كما حدث نقص في الأموال؟ وإذا صحَّ هذا، فأية نفسٍ قُدِّر لها أن تكون هي الضحية؟ سؤال رهيب لم يكن ههنا من يجيب عنه – بل لم يكن ثمة أية إمارة خرساء، أو أية علامة بكماء.

وبالتطواف حول الجدران المنهارة وخلال الأطلال الداخلية اجتمع لديّ من البيِّنات ما أكّد لي أن الكارثة لم تكن قريبة عهد بالحدوث وخيِّل إليّ أن ثلوج الشتاء كانت قد تسربت إلى داخل القصر من خلال تلك القنطرة الجوفاء، وأن أمطار الشتاء قد نفذت إليه من تلك النوافذ الفارغة. ذلك بأن الربيع كان قد أطلَعَ الحياة وسط أكوام القاذورات المطاولة هذه، فنما العشب وضروب النباتات الطفيلية ههنا وههناك بين الحجارة وروافد السقف الخشبية المنهارة. ولكن أين كان صاحب هذا الحطام السيئ الحظ؟ في أية أرض؟ وفي رعاية مَنْ؟ وعلى نحو غير إرادي وقع بصري على برج الكنيسة الأغبر، قرب البوابة الخارجية، فساءلت نفسي: «أيكون مع دامر دو روتشيستر، يقاسمه سقف مثواه الرخامي الضيق؟»

وكان لا بدّ لي من الحصول على جواب ما عن هذه الأسئلة. ولم يكن في ميسوري أن أقع عليه إلا في النُزُل، وهكذا فإني سرعان ما رجعت إلى هناك. وحمل صاحب النُزُل بنفسه. فطور الصباح إليَّ في حجرة الاستقبال. فسألته أن يُوصد الباب ويجلس قائلة له إنّ لديَّ بضعة أسئلة أحب أن أوجهها إليه. حتى إذا نزل عند إرادتي لم أكد أعرف كيف أستهلُّ الكلام. فقد استبدَّ بي من الأجوبة المحتملة ذعر عظيم. ومع ذلك فإن مشهد الخراب الذي فارقته منذ لحظات أعدَّني، إلى حدا ما، لقصة من قصص البؤس. وكان صاحب النُزُل رجلاً مهيباً في خريف العمر.

ووُفِّقت آخر الأمر إلى القول: «أنت تعرف قصر ثورنفيلد، من غريب ريب؟»

– «أجل، يا سيدتي. لقد عشت فيه زمناً».

– «صحيح؟» أما في ذات نفسي فقلت: لم يكن ذلك في أيامي طبعاً، فأنا لا أذكر أني عرفتك من قبل.

فأضاف: «لقد كنت كبير خدم مستر روتشيستر رحمه الله».

عندئذ قلت لاهثة: «رحمه الله؟ هل مات؟»

فأوضح قائلاً: «إنما عنيت أبا مستر إوارد مالك القصر الحالي».

فتنفست الصعداء، واستأنف دمي تدفقه. فقد استوثقت، بهذه الكلمات، أن مستر إدوارد – أن روتشيستري أنا (فليباركه الله، أيًّا كان مكانه!) حيٌّ يرزق، على الأقل، وأنه بكلمة موجزة «مالك القصر الحالي». يا لها من كلمات مبهجة! لقد بدا لي أنه قد أمسى في ميسوري الآن أن أتلقّى، في سكون نسبيٍّ، كل ما ينتظرني من أنباء، مهما تكن هذه الأنباء. إن في طوقي – كذلك قلت في ذات نفسي – أن أحتمل، بعد أن ثبت لديَّ أنه لا يرقد تحت الثرى، أيَّ نبأ عنه، حتى ولو قيل لي إنه يقيم في جزر الآنتيبوديز (1).

(1) Antiposdes مجموعة من الجزر الصغيرة غير الآهلة بالسكان وتقع على بعد (460) ميلاً تقريباً. جنوبي شرقي نيوزيلندة.(المعرب)

وسألته، وأنا أعلم طبعاً ما سيكون جوابه ولكني رغبت في أن أرجئ السؤال المباشر عن مستقرّه الفعلي:. «هل يقيم مستر روتشيستر، الآن، في ثورنفيلد؟»

– «لا، يا سيدتي... أوه، لا! إن أحداً من الناس لا يقيم هناك. وأنا أحسب أنك غريبة عن هذه الديار، وإلا لما فاتك أن تسمعي بالذي حدث في الخريف الماضي... لقد استحال قصر ثورنفيلد إلى خراب، وإنما التهمته النار قُبيل موسم الحصاد. يا لها من كارثة رهيبة! لقد أتى الحريق على مقدار هائل من الممتلكات النفيسة، فلم يكن في الإمكان استنقاذ أيما قطعة من قطع الأثاث. والواقع أن النار اندلعت في جوف الليل البهيم، وقبل أن تصل عربات الإطفاء من ميلكوت كان المبنى قد أصبح كتلةً من لهب. كان مشهداً فظيعاً: لقد رأيته بأم عيني».

فغمغمت: «في جوف الليل البهيم!» أجل، كانت هذه هي، دائماً، ساعة الشؤم في ثورنفيلد. ثم سألته: «وهل عُرِف شيء عن سبب الحريق؟»

– «لقد حدسوا، يا سيدتي، حدساً. لقد حدسوا حدساً. ومع ذلك ففي استطاعتي أن أقول إن الأمر ثابت لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه». وهنا أدنى

كرسيه بعض الشيء إلى الطاولة وتابع كلامه في صوت خفيض: «لعلك لا تعرفين أن جدران القصر كانت تشتمل على سيدة... سيدة مجـــــــــــ... مجنونة؟»

– «لقد سمعت بشيء من ذلك».

– «كانت محتجزة في مَحْبِسٍ حريز، يا سيدتي. ولقد ظلّ الناس، طوال سنوات بكاملها، غير واثقين من وجودها ثقة تامة. إن أحداً لم يرها: كل ما عرفه الناس من طريق الإشاعات أنه كان في القصر امرأة من هذا الضرب. أما من كانت تلك المرأة وما كانت فذلك أمرٌ لم يكن من اليسير عليهم أن يحزروه. لقد قالوا إن مستر إدوارد كان قد جاء بها من وراء البحار، وذهب بعضهم إلى القول إنها كانت خليلته. ولكن شيئاً عجيباً حدث منذ سنة... شيئاً عجيباً جداً».

وخشيت الآن أن أسمع قصتي نفسها. وحاولت أن اردّه إلى الواقعة الأساسية.

فقلت: «وتلك السيدة؟»

– «فأجاب: «لقد ظهر في ما بعد أن تلك السيدة كانت زوجة مستر روتشيستر! وإنما تمَّ اكتشاف ذلك بطريقة ليس أعجب منها. فقد كانت ثمة سيدة شابة، مربية خصوصية في القصر، وقع مستر روتشيستر

في...»

فحاولت ردّه إلى الموضوع الأساسي، كرة أخرى، فقلت: «والنار؟ حدّثني عن النار».

«سوف أحدثك عن ذلك بعد لحظة، يا سيدتي. قلت إنه كانت ثمة سيدة وقع مستر روتشيستر في غرامها. ويقول الخدم إنهم لم يعرفوا رجلاً تيّمه الحب أكثر مما تيَّم مستر روتشيستر، فقد كان يتبعها حيث ذهبت. كان من دأبهم أن يراقبوه – والخدم لا يتورعون عن ذلك، كما تعرفين، يا سيدتي – وكان هو معجباً بها أكثر من إعجابه بأيما امرأة أخرى، ومع ذلك، فإن أحداً من الناس لم يحسَبْها بارعة الجمال. لقد كانت مخلوقة صغيرة ضئيلة الجسم، كما قالوا، فهي تشبه – أو تكاد –

طفلاً من الأطفال. أنا لم أرها بعيني قط، ولكني سمعت «ليبا»، الخادمة، تتحدّث عنها. لقد أحبّتها «ليا» حباً غير يسير. وكان مستر روتشيستر في نحو الأربعين، وكانت تلك المربية دون العشرين من العمر. وأنت تعلمين أن الرجال في مثل تلك السن إذا أحبوا فتاة من الفتيات أحبوها، في أكثر الأحوال، وكأنهم مسحورون. حسناً، لقد أراد الزواج منها».

فقلت: «في إمكانك أن تقصَّ عليَّ هذا الجزء من الحكاية في فرصة أخرى، أما الآن فإن لديّ سبباً خاصاً يجعلني راغبة في سماع كل شيء عن مسألة الحريق هذه. هل ذهب الظن بالقوم إلى أن لهذه المرأة المخبولة السيدة روتشيستر، يداً ما في الأمر؟»

– «لقد أصبت الحقيقة، يا سيدتي. فمن الثابت الذي لا ريب فيه أن تلك السيدة، ولا أحد سواها، هي التي أضرمت النار في القصر. كانت لديها امرأة تُعنى بـــأمرها، هي مسز بول – وكانت امرأة بارعة في أداء وظيفتها الخاصة، جديرة بالثقة إلى أبعد حد، لولا عيب واحد – وهو عيب مألوف عند كثير من الممرضات والمدبرات: كانت تحتفظ إلى جانبها دائماً بزجاجة خاصة من «الجن»، فهي تكرع بين الفينة والفينة جرعة أكبر مما ينبغي بقليل. وهو أمرٌ يستطيع المرء أن يجد له مبرراً – لأن حياتها مع تلك المجنونة كانت جحيماً – ولكنه خطر جداً. إذ كثيراً ما كانت مسز بول تستغرق في نوم عميق، بعد إسراف في الشراب، فتعمد السيدة المجنونة – التي كانت ماكرة مثل عرافة من العرافات – إلى انتزاع المفاتيح من جيبها، وتنطلق إلى خارج حجرتها، وتهيم على وجهها في القصر، مُنزلة به أيما أذىً ضارٍ قد يخطر لها على بال. ويقولون إنها كادت تحرق زوجها في فراشه ذات يوم، ولكني لست واثقاً من ذلك. وعلى أية حال ففي الليلة التي احترق فيها القصر أضرمت النار أول ما أضرمتها في ستائر الحجرة المحاذية لحجرتها، ثم هبطت إلى طابق أدنى، واتّخذت سبيلها إلى الحجرة التي كانت حجرة المربية (لقد بدا وكأنها عرفت، بطريقة ما، صلتها بمستر روتشيستر، فحقدت عليها) وأضرمت النار في السرير، ولكن حسن الحظ شاء أن يكون ذلك السرير شاغراً لا يرقد فيه

أحد. كانت المربية قد لاذت بالفرار، قبل شهرين اثنين. وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها مستر روتشيستر في البحث عنها، وكأنما كانت أثمن ما يملكه في هذا العالم، فإنه لم يوفّق إلى سماع أيما كلمة عنها. وهكذا أحالته خيبة الأمل إلى وحش ضارٍ: إنه لم يكن في أيما يوم رجلاً شرساً،ولكنه أمسى خطِراً بعد أن فقدها. ثم إنه آثر الوحدة أيضاً. فرحَّل مسز فيرفاكس، مدبِّرة شؤون المنزل، إلى أصدقاء لها يقيمون على مسافة ما. ولكنه سرَّحها بإحسان، إذ أجرى لها راتباً سنوياً مدى الحياة. ولقد كانت بذلك جديرة، فهي امرأة صالحة جداً. أما مس آديل، وهي قاصرة كان يكفلها، فقد أُدخِلت إحدى المدارس. وبعد ذلك قطع علاقاته مع جميع الأعيان والأثرياء، واعتزل في القصر وكأنه ناسك من النساك».

– «ماذا؟ إنه لم يغادر إنكلترة؟»

– «يغادر إنكلترة؟ يا إلهي، لا! لقد أبى أن يتجاوز عتبة القصر، إلا تحت جنح الظلام، عندما كان من دأبه أن يتمشّى، مثل شبح من الأشباح، في الحديقة وفي البستان وكأنما قد أصابه مسٌّ. والواقع أني أذهب إلى القول إن مسّاً قد أصابه، لأن أحداً لم يرَ يا سيدتي – قبل أن يتعرّف إلى تلك المربية القزمة – رجلاً أرشق منه، ولا أجرأ، ولا أذكى كان رجلاً مولعاً بالخمر أو بورق اللعب أو بسباق الخيل، شأن بعض الناس، ولم يكن وسيم الوجه جداً، ولكنه كان ذا شجاعة بالغة، وإرادة قوية، إذا قُدِّر لامرئ أن تكون له إرادة قوية في أيما يوم من الأيام. لقد عرفتُهُ منذ أن كان طفلاً. ولكم وددتُ من ناحيتي لو أن مس ايير أُغرِقت في البحر قبل أن تفِدَ إلى قصر ثورنفيلد».

– «وإذن فقد كان مستر روتشيستر في القصر عندما اندلعت النار؟»

– «أجل لقد كان فيه من غير ريب. ولقد إرتقى السلَّم إلى العلِّية عندما كان كل شيء يحترق من فوقه ومن تحته، وأخرج الخدم من مضاجعهم وساعدهم بنفسه على النزول ثم رجع لكي يُخرج زوجته المخبولة من حجرتها. عندئذ صاح القوم قائلين له إنها كانت على السطح، حيث كانت واقفة، تلوِّح بذراعيها، فوق الشرفات،

وتصيح حتى لقد كان في الإمكان سماعها من على مسافة ميل. لقد رأيتها أنا بعينيّ وسمعتها بأذنيّ. كانت امرأة ضخمة الجثّة، وكانت ذات شعر أسود طويل: لقد كان في ميسورنا أن نراه يتماوج، وهي واقفة، بأزاء ألسنة اللهب. ولقد شهدت مستر روتشيستر، وشهده معي عدد من الناس كثير، يصعد من خلال الكوة إلى السطح: وسمعناه ينادي «بيرتا!» ورأيناه يدنو منها. وعندئذ صاحت هي، يا سيدتي، ووثبت. وما هي غير دقيقة واحدة حتى كانت منطرحة، مهشَّمة تهشيماً، على المجاز المعبَّد».

– «ميتة؟»

– «ميتة؟ أجل، ميتة كالحجارة التي انتثر عليها دماغها وسال دمها».

– «ياإلهي!».

– «من حقك أن تقولي هذا يا سيدتي. فقد كان ذلك رهيباً!» وإرتعدت أوصاله.

– »ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟»

– «حسناً، يا سيدتي، بعد ذلك احترق القصر من قمّته حتى أساسه. ولم يبق منه قائماً اليوم غير بقايا جدران».

– «هل فُقِدت أرواح أخرى؟»

– «لا ولعله كان من الخير لو فُقِدت».

– «ما تعني؟»

– «فصاح: «مسكين مستر إدوارد! لم يكن يقوم في وهمي أني سوف أشهد ذلك. وبعضهم يقولون إنها عقوبة له عادلة لإبقائه زواجه الأول طي الكتمان، ولمحاولته أن يتّخذ زوجة ثانية على حين أن في عصمته امرأة على قيد الحياة. أما أنا، فأرثي له حقاً».

فهتفت: «لقد قلت إنه لا يزال حياً؟»

– «أجل، أجل، إنه حيٌّ. ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن موته كان خليقاً به أن يكون خيراً له».

– «لماذا؟ كيف؟» وجمد دمي في عروقي، كرة أخرى.

وسألته: «أين هو؟ أهو في إنكلترة؟»

– «أجل، أجل، إنه في إنكلترة. هو لا يستطيع أن يغادر إنكلترة، في ما يخيَّل إليّ. إنه الآن مسمَّر إلى مكانه».

يا له من نكالٍ رهيب! ولقد بدا لي أن هذا الرجل كان مصمماً على إطالة ذلك النكال لتلويعي وتعذيبي.

وأخيراً قال: »لقد فقد بصره فقداناً كاملاً. أجل، إن مستر إدوارد قد فقد بصره فقداناً كاملاً».

والواقع أني كنت قد خشيت شيئاً أسوأ. كنت قد خشيت أن يكون قد جُنَّ. واستجمعت قوتي لأسأل عن السبب الذي أورثه هذا البلاء.

– «كان ذلك بسبب من شجاعته، في المقام الأول، وفي استطاعة المرء أن يقول بسبب من شفقته، بمعنى من المعاني، يا سيدتي. فقد أبى أن يغادر القصر إلاّ بعد أن يغادره سائر نزلائه. حتى إذا هبط درجات السلم الكبير، آخر الأمر، بعد أن قذفت مسز روتشيستر بنفسها من فوق الشرفات، حدثت قرقعة هائلة... وانهار كل شيء. ولقد انتُشِل من تحت الأنقاض، حياً، ولكنه مصاب بجراح بليغة. كانت إحدى الدعائم الخشبية قد سقطت على نحو صانَهُ صيانة جزئية، ولكن إحدى عينيه قُلِعت، وإحدى يديه سُحِقت سحقاً اضطر مستر كارتر، الطبيب الجراح، إلى بترها في الحال. وألمَّ بالعين الأخرى التهاب، فإذا به يفقد قدرته على الإبصار بها أيضاً. إنه الآن عاجز، عاجز حقاً – مكفوف البصر مُقعَد».

– »أين هو؟ أين يحيا الآن؟»

– »في فيرنديان، وهو بيت ريفي في مزرعة يملكها، وتقع على مبعدة ثلاثين ميلاً. إنها بقعة موحشة حقاً».

– «ومن يقيم معه؟»

– «جو العجوز وزوجته. إنه لا يريد أحداً غيرهما. ويقولون إن صحته منهارة تماماً».

– «هل لديك أيّة وسيلة من وسائل المواصلات؟»

– «لدينا عربة خفيفة ذات دولابين وجواد واحد. إنها عربة أنيقة جداً».

– «دَعهم يُعِدُّونها في الحال. وإذا كان في ميسور حوذيك أن يقلَّني إلى فيرنديان قبل أن يهبط الظلام دفعت إليك وإليه ضِعف الأجر الذي تتقاضيانه عادة».

[37]

كان منزل فيرنديان الريفي مبنى بالغ العتق، معتدل الحجم، مبرّءاً من أيما مظهر من مظاهر التكلّف المعماري، دفيناً في جوف غابة. وكنت قد سمعت شيئاً عنه من قبل. فكثيراً ما تحدث مستر روتشيستر عنه. ولقد كان يقصده في بعض الأحيان. وكان والده قد اشترى ذلك العقار رغبة في الغابة التي تكتنفه والتي تزخر بطيور الصيد والطَّرَد. وكان لو يؤجِّر المنزل ولكنه لم يوفِّق إلى العثور على من يستأجره، بسبب موقعه غير الملائم وغير الصحّي. ومن أجل ذلك ظلّ منزل فيرنديان غير آهل وغير مؤثَّث ما عدا غرفتين أو ثلاث غرف أعِدَّت لاستقبال ربّ البيت كلما قصد المكان في موسم الصيد.

إلى هذا المنزل ذهبت، قبل سقوط العتمة مباشرة، في أمسية مُتَّسِمة بسماء كئيبة، وريح باردة، ومطر موصول ثاقب صغير الحبات. وقد اجتزت الميل الأخير سعياً على القدمين، بعد أن صرفت العربة وسرُّحت الحوذي دافعة إليه المكافأة المضاعفة التي كنت قد وعدت بها. وحتى حين أمسيت على مسافة قصيرة جداً من المنزل الريفي لم يكن في ميسوري أن أرى منه شيئاً، فقد كانت شجرات الغابة المظلمة المحيطة به قاتمة جداً، ملتفة إلى أبعد الحدود. وهدتني بوابة خارجية حديدية، قائمة بين عمودين من حجر الصوان، إلى المدخل. حتى إذا اجتزتهما ألفيت نفسي، في الحال، في غسقٍ من الأشجار الملتفُّة. وكان ثمة طريق معشوشبة تهبط عبر الغابة، بين جذوع شائبة كثيرة العقَد وتحت أقواس من أغصان الشجر. فسلكتها، متوقعة أن أبلغ المنزل بعد لحظات. ولكنها تطاولت وتطاولت، وتلوَّت أبعد فأبعد. إن عيني لم تقع على أيما أثر من آثار الحياة البشرية أو الحياة الزراعية.

وحسبت أني اتَّخذت اتجاهاً خاطئاً وأني ضللت السبيل. واجتمعت عليَّ ظلمة الغروب وظلمة الغابة. وأجلت الطرف في ما حولي بحثاً عن طريق أخرى. ولكني لم أهتدِ إلى شيء من ذلك. كان كل ما وقعت عليه عيناي أغصاناً متشابكة، وجذوعاً أسطوانية الشكل، وأوراقاً كثيفة صيفية السِّمات – لم يكن ثمة أيما ثغرة أو فرجة.

وتقدمتُ. وأخيراً تبَيَّنَتُ طريقي، وخفَّت كثافة الغابة بعض الشيء. وسرعان ما لمحت درابزوناً، ثم لمحت المنزل.. كان التمييز ما بينه وبين أشجار الغابة، بذلك الضياء الباهت، أمراً عسيراً. فقد كانت جدرانه العفنة رطبة خضراء إلى مدىّ بعيد. ودخلت باباً لم يوصد إلاَّ بمزلاج، فوجدتُني وسط قطعة من الأرض مسيَّجة انحرفت الغابة منها على شكل نصف دائرة. لم يكن ثمة رياحين ولا مزاهر(1). ولكن مجرد ممشى عريض مفروش بالحصى تكتنفه من كل جانب أرض خضِرة منبسطة في الجزء الأكثف من الغابة. وكانت واجهة المنزل تزدان بسطحين هرميين مستدقَّين، وكانت النوافذ ضيقة مشعَّرة(2)، وكان الباب الأمامي ضيقاً أيضاً، تقضي إليه درجةٌ واحدةً ليس غير. ولقد بدا البيت كله، كما كان صاحب «نُزُل أسلحة روتشيستر» قد قال: «بقعة موحشة حقاً».كان ساكناً سكون كنيسة في يوم من أيام الأسبوع العادية، وكان المطر المدمدم على أوراق الغابة هو الصوت الوحيد المسموع في جواره.

(1) جمع مزهر: وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور.

(2) ذات شعريات.

وتساءلت: «أيمكن أن تكون ههنا حياة؟»

أجل، كان ثمة حياة من ضرب ما. ذلك بأني سمعت حركة – كان ذلك الباب الأمامي الضيق يُفتح، وكان شكلٌ ما على وشك الخروج من البيت الريفي.

وانفتح الباب في تؤدة. وأطلّ منه، في غمرة الغسق، شخص ما، ووقف على العتبة. كان رجلاً غير معتمر بقبعة: رجلاً بسط يده وكأنه يريد أن يتحسّس ما إذا كان المطر ينهمر أم لا. وعرفته، على الرغم من الظلام الدامس. كان هو سيدي، إدوارد فيرفاكس روتشيستر، وليس أحداً غيره.

وحبستُ خطوتي، وكدت أحبس أنفاسي، ووقفت لأراقبه... لأتأمله، من غير أن يكون في وسعه، وأأسفاه! أن يراني. كان لقاءً مفاجئاً – لقاء كبح الألم فرحتَهُ كبحاً شديداً. ولم أجد أي عسر في صدِّ صوتي عن الهتاف، وصد خطوتي عن التقدم المتعجّل.

كانت القوة تطبع جسمه كله كعهده من قبل، وكانت قامته منتصبة ما تزال، وكان شعره أسود غُدافياً أيضاً، ولم تكن قسمات وجهه قد تغيَّرت أو غارت: إن قوَّته الرياضية ما كان ممكناً أن يخمدها أيما أسى مهما يكن، خلال عام واحد ليس غير. وإن شبابه العزوم ما كان ممكناً أن يصوِّحه شيء من مثل ذلك. أما أساريره فقد لمحت فيها تغيراً – تغيّراً بدا لي قانطاً مستغرقاً في التفكير.. وذكَّرني بوحش ضار أو بطير كاسر أوْذِيَ وكُبِّل بالأصفاد، فليس من الحكمة أن يدنو منه المرء في محنته الكالحة تلك. إن النسر الحبيس في قفص، والذي أطفأت يدٌ وحشية عينيه المطوقتين بالذهب، لا يمكن أن يبدو للناظر مثلما بدا ذلك «الشمشون» الكفيف البصر.

وهل تحسب، أيها القارئ، أني خشيتُهُ في شراسته المكفوفة؟ – إذا حسبتَ ذلك كان من حقي أن أقول إنك لا تعرفني إلاّ قليلاً. ومازجَ أساي أملٌ عذب في أن أجرؤ، وشيكاً، على طبع قبلة على ذلك الجبين المقدود من صخر، وعلى تينك الشفتين المطبقتين تحته بهذا التجهم كله. ولكن الأوان لم يحن بعد، فليست بي رغبة، الآن، في مبادرته بالكلام.

وهبط الدرجة المفردة، وتقدّم في تؤدة وعلى نحو متلمِّس نحو الأرض الخضِرة. إلى أين كانت تتجه خطواته الجريئة الآن؟ ثم إنه كفِّ عن المسير، وكأنه

تردَّد ولم يدرِ أية سبيل يسلك. ورفع يده، وفتح جفنيه، وحدّق تحديقاً أجوف – في جهد جاهد – إلى السماء ونحو صفوف الأشجار المدرَّجة، فكان في ميسور المرء أن يُدرك أن كل شيء كان عنده ظلاماً خاوياً. وبسط ذراعه اليمنى (أما ذراعه اليسرى، الذراع البتراء، فأبقاها محجوبة في صدره)، وبدا وكأنه يريد أن يكوِّن – من طريق اللمس – فكرة عمّا يحيط به. ولكنه لم يجد أمامه غير الفراغ، ذلك بأن الأشجار كانت تقوم على مبعدة بضع ياردات من موقفه. فتخلَّى عن المحاولة، وطوى ذراعيه، ووقف ساكناً أبكم تحت المطر، الهاطل غزيراً على رأسه الحاسر. وفي هذه اللحظة تقدَّم جون نحوه من ناحية ما.

وقال: «هل لك آن تمسك بيدي، يا سيدي؟ إن الجو ينذر بانهمار وابل عنيف. أليس. من الأفضل أن تعود إلى داخل البيت؟»

– «فكان الجواب: «دعني».

وانسحب جون، من غير أن يلمحني. وحاول مستر روتشيستر، الآن، أن يتمشَّى، ولكن على غير طائل. فقد كان كل شيء موضع إرتياب. وهكذا تلمَّس سبيله عائداً إلى المنزل، فدخله، وأوصد الباب.

عندئذ دنوت من الباب وطرقته. ففتحت لي زوجة جون، فقلت:

– «ماري! كيف حالك؟»

فحدّقت إليَّ وكأن بصرها وقع على شبح. فهدّأت من روعها. وحين وجهت إليَّ سؤالها المعجَّل: «أهذه أنت حقاً، يا آنسة، وقد وفدت في هذه الساعة المتأخرة إلى هذا المكان المنعزل؟» أجبتها بأن أمسكت بيدها. ثم إني تبعتها إلى المطبخ حيث قعد جون يصطلي بنار حسنة الضِرام. وأوضحت لهما، في بضع كلمات، أني سمعت بكل ما حدث منذ مغادرتي ثورنفيلد، وأني وفدت لأرى مستر روتشيستر. وسألت جون أن يمضي إلى «بوابة المكوس» التي سرحت، عندها، العربة وأن يحمل إليّ حقيبتي التي خلَّفتها هناك. وعندئذ سألت ماري، وأنا أنزع قلنسوتي

وشالي، ما إذا كان في إمكاني أن أبيت تلك الليلة في المنزل الريفي. حتى إذا وجدتُ أن أسباب مبيتي غير متعذرة – وإن تكن عسيرة – أعلمتُها أني وطّنت العزم على البقاء. وفي تلك اللحظة بالذات رن جرس حجرة القعود.

فقلت: «عندما تدخلين حجرة القعود قولي لسيدك إن ثمة شخصاً يودّ أن يتحدّث إليه، ولكن لا تُدلي إليه باسمي».

فأجابت: «لست أظن أنه سوف يوافق على استقبالك. فمن دأبه أن يرفض الاجتماع إلى الناس جميعاً.

وحين رجعتْ سألتُها: «ماذا قال لك؟»

. «قال إنّ عليك أن تبعثي إليه باسمك وبالغرض الذي من أجله جئت».

ثم إنها عمدت إلى كوب فملأته ماء، ووضعَتْه هو وبضع شموع على صينية.

وسألتها: «من أجل هذا دقّ الجرس؟»

– «أجل. إنه يودّ دائماً أن تحمل إليه الشموع عندما يهبط الليل، على الرغم من أنه كفيف».

– «هاتي الصينية. سوف أدخلها أنا بنفسي».

وأخذتها من يدها. فدلّتنى على باب حجرة القعود. واضطربت الصينية في يدي، وأريق بعض الماء من الكأس، وخفق قلبي خفقاناً سريعاً داوياً، وفتحت ماري الباب لي، ثم أوصدته خلفي.

كانت الكآبة ترين على حجرة القعود تلك. وكانت بضع جمرات تتّقد – وما تكاد – في المدفأة. وبدا نزيل الحجرة الأعمى منحنياً فوق.المدفأة وقد أسند رأسه إلى رفِّها العالي ذي الطراز العتيق. وكان كلبه العجوز، بايلوت، مضطجعاً على أحد جنبيه، منتحياً إحدى الزوايا، ملتفاً على نفسه وكأنه خشي أن تطأه قدما سيده عن غير ما قصد. ورفع بايلوت أذنيه وارهفهما عندما دخلت الحجرة، ثم إنه وثب

نحوي وهو ينبح ويئن، وكاد يوقع الصينية من يديَّ. فوضعتها على المائدة، ثم أخذت أربِّت علىظهره، وقلت في رفق: «ارقد!» فاستدار مستر روتشيتر على نحو آليّ لكي يرى علام كان ذلك اللغط والاضطراب. ولكنة لم ير شيئاً. فارتدّ إلى وضعه الأول وتنهّد، وقال:

– «ناوليني الماء، يا ماري».

فقدّمت إليه الكأس التي كانت ند أمست الآن نصف مملوءة. وتبعني بايلوت والاهتياج لا يزال غالباً عليه.

وتساءل مستر روتشيستر «ما المسألة؟»

فقلت كرة أخرى: «أرقد، يا بايلوت!» فصدَّ الماء عن شفتيه، وكان في سبيله إليهما، وبدا وكأنه يصغي. ثم إنه شرب، ووضع الكوب على المائدة، وقال:

– «أنت ماري؟ ألست أنت ماري؟»

فأجبت: «ماري في المطبخ».

وبسط يده في حركة سريعة، ولنكه لم يسمَّنى، لأنه لم يَر أين كنت أقف، وتساءل: «من أنت؟» محاولاً، في ما بدا لي أن يرى بتينك العينين المطفأتين.. ويا لها من محاولة باطلة توقع الأسى في النفس!

ثم أضاف في لهجةٍ آمرةٍ عالية: «أجيبيني!.. تكلّمي مرة أخرى!»

فقلت: «هل تريد مزيداً من الماء، يا سيدي؟ لقد أرقْتُ نصف ما كان. في الكأس».

– «من هذه؟ ما هذه؟ من التي تتكلم؟»

فأجبت: «بايلوت يعرفني. وجون وماري يعرفان أني هنا. لقد وصلت هذا المساء».

– «يا إلهي العظيم! أيَّ وهم قد استحوذ علي؟ أيَّ خَبَلٍ.عذبٍ استبدَّ بي؟»

– «لا وهم... ولا خبل. إن عقلك يا سيدي أقوى من أن يستحوذ عليه الوهم، وإن صحّتك أسلم من أن يستبدّ بها الخبل».

– «وأين المتكلمة؟ أهي مجرد صوت ليس غير؟ أوه! أنا لا أستطيع أن أرى، ولكن عليَّ أن ألمس، وإلاّ كفَّ قلبي عن الخفقان وانفجر دماغي كوني من شئت... كوني ما شئتِ. – ولكن كوني شيئاً قابلاً للمَّس، وإلا فقدتُ القدرة على الحياة!».

وبسط يده متلمساً، فقبضت على يده التائهة، واحتبستُها بين يديَّ الاثنتين.

فصاح: «إنها أصابعها نفسُها! الصغيرة النحيلة! فإذا صحّ ذلك فلا بدَّ أن يكون ههنا مزيدٌ منها أيضاً».

وأفلتت اليد القوية من مَحْبِسي. وأمسك مستر روتشيستر بذراعي... وكتفي... وعنقي... وخصري. لقد هصرني وشدَّني إليه.

– «أهي جين؟ أيٍّ شيئ تكون؟ هذا هر شكلها... هذا هو حجمها...»

فأضفت: «وهذا هو صوتها. إنها كلها هنا، وقلبها معها أيضاً. فليباركك الله يا سيدي! إني لسعيدة بأن أمسي، كرة أخرى، على مقربة دانية منك».

فكان كل ما قاله: «جين ايير... جين ايير»

فأجبت: «نعم، يا سيدي العزيز. أنا جين ايير. لقد وجدتك.. لقد رجعت إليك!»

– «رجعت إليَّ فعلاً؟ بلحمك ودمك؟ رجعتْ إليَّ حبيبتي جين وعروقها ما تزال تنبض بالحياة؟»

– «أنت تلمسني يا سيدي... أنت تضمَّني إليك، وبقوّة: أنا لست باردة مثل جثة، ولست خاوية كالهواء. هل أنا كذلك؟»

– «يا حبيبتي النابضة بالحياة! هذه هي أوصالها من غير ريب، وهذه هي قسمات وجهها. ولكن من المتعذّر أن أنعم بهذه السعادة الغامرة بعد كل ما لقيته من شقاء. إنه مجرد حلم. حلم من تلك الأحلام التي سعدتُ بها في الليل عندما شددتها إلى فؤادي كرة أخرى كما أشدّها الآن، وعندما قبّلتها كما أقبّلها الآن... واستشعرت أنها تحبني، وأيقنت أنها لن تفارقني».

– «أنا لن أفارقك، منذاليوم، يا سيدي، مدى الحياة».

لن تفارقني مدى الحياة، أهذا ما يقوله الطيف؟ ولكني كنت دائماً أفيق فأجد أن ذلك الوعد لم يكن غير سخرية فارغة، وأني كئيب مهجور – إن حياتي قاتمة موحشة يائسة، وإن روحي ظمأى محظورٌ عليها أن تشرب، وإن فؤادي جائع ولن يُقَدَّر له أبد الدهر أن يفوز بما يُقيته، أيها الحلم اللطيف العذب المستكنّ الآن بين ذراعيّ، إنك أنت سوف تفرّ أيضاً، كما فرَّ جميع إخواتك من قبلك. ولكن قبليني قبل أن ترحلي... عانقيني يا جين!»

– »هدئ من روعك، يا سيدي، هدئ من روعك!»

وضغطت شفتيّ على عينيه اللتين كانتا في يوم مضى متألقتين واللتين أمستا الآن مظلمتين... وأزحت شعره عن جبينه، وقبَّلت ذلك الجبين أيضاً. وفجأة بدا وكأنه استيقظ من حلمه: كان الاقتناع بواقعية ذلك كله قد هيمن عليه.

– «هذا أنت... أليس كذلك، يا جين؟ لقد رجعتِ إليَّ إذن؟»

– «أجل، لقد رجعت».

– «وأنت لا ترقدين ميتة في حفرة من الحفر تحت جدول من الجداول؟ وأنت لست منبوذة يهدُّها الضنى بين قوم أغراب عنك؟»

– «لا، يا سيدي. أنا الآن امرأة ذات يسار».

– «ذات يسار! ماذا تعنين، يا جين؟»

– «إن عمي الذي كان يقيم في ماديرا قد مات، ولقد ترك لي خمسة آلاف.جنيه».

.فصاح: «آه، هذا شيء عمليٌّ... هذا شيء واقعي! يتعيَّن عليَّ أن لا أشك في ذلك البتة. وإلى هذا، فهناك صوتها الفذ، صوتها المحيي الِحرِّيف، والرقيق في آن معاً : إنه يُبهج فؤادي الذاوي. إنه يبثُّ الحياة فيه. ماذا، يا جانيت! أأنت امرأة ذات يسار؟ امرأة غنية؟»

– «غنية جداً، يا سيدي. فإذا أبيت ان تجيز لي العيش معك كان في استطاعتي أن أشيد بيتاً خاصاً بي على مقربة دانية من باب دارك. وفي ميسورك في هذه الحال ان تفِد عليَّ وتستريح في حجرة استقبالي كلما احتجت إلى من يؤنسك في الأمسيات».

– «ولكن أما وقد اصبحت ثرية، يا جين، فليس من ريب في أن لك الآن اصدقاء سوف يُعْنون بأمرك، ولن يجيزوا لكِ أن تقفي حياتك على مكفوف أعرج مثلي..».

– «ولكني، بالإضافة إلى غناي، سيدة نفسي».

– «ولسوف تبقين بقربي؟»

– «من غير ريب... إلاّ إذا اعترضت أنت على ذلك. سوف أكون جارتك، وممرضتك، ومدبِّرة شؤون منزلك. إني أراك متوحداً: من أجل ذلك سأكون رفيقتك – لكي أقرأ لك، لكي أمشي معك، لكي اجلس إلى جانبك، لكي أقوم على خدمتك، لكي أكون لك عينين ويَدَيْن. اِخلع عنك ثوب الكآبة الكالح، يا سيدي العزيز فلن تُترك وحيداً منذ اليوم ما امتدَّت بي الحياة».

فلم يُجب: لقد بدا مغتمًّا شارد اللب. وتنهد. وفتح شفتيه نصف فتحة وكأنه يريد أن يتكلّم، ثم عاد فأطبقهما من جديد. واستشعرت شيئاً من الارتباك. ومن يدري، فلعلّي تجاوزت الأعراف والتقاليد في طيشٍ بالغٍ، ولعلّه قد رأى في تهوُّري – مثل

القديس يوحنا – ضرباً من قلّة اللياقة. والحق أني تقدَّمت إليه باقتراحي ذاك بناءً على اقتناعي بأنه راغب في الزواج مني وبأنه لا بد أن يسألني أن أرضى به بعلاً. وكان قد حفزني أمل – أمل لم ينتقص من يقينيّتِهِ كونُهُ مُضْمَراً غير ملفوظ – بأنه سوف يسارع إلى اعتباري مِلْكه من دون كل الناس. حتى إذا لاحظت أن أيما إشارة بهذا المعنى لم تَبِدَّ من شفتيه وأن أساريره ازدادت تجهماً، أدركت فجأة أني قد أكون على خطأ فاضح، وأني آذيته على غير قصد مني. وهكذا شرعت أنسلّ من بين ذراعيه في تلطُّف... ولكنه شدَّني إليه في لهفة شداً أكثر إحكاماً.

– «لا، لا،يا جين. يجب أن لا ترحلي. لا... لقد لمستك، لقد استشعرت سلوى وجودك... عذوبة مؤاساتك: أنا لا أستطيع أن أتخلّي عن هذ، المباهج كلها. إن الأقدار لم تُبْق مني غير القليل... فلا بدَّ لي من الفوز بك. إن الناس قد يسخرون مني... قد يعتبرونني سخيفاً وأنانياً ولكني لا أبالي بذلك. إن روحي ذاتها لتصبو إليك، فإما أن تجاوب إلى سُؤْلها، وإما أن تنتقم انتقاماً مميتاً من الجسد الذي يحتويها».

– «حسناً، يا سيدي، سوف أبقى بقربك. لقد قلت لك ذلك».

– «أجل... ولكنكِ تفهمين من البقاء بقربي شيئاً، وأفهم أنا منه شيئاً آخر. لعلّك تستطيعين أن توطّني النية على السعي بين يديَّ وحول مقعدي... على السهر على راحتي مثل ممرضة صغيرة لطيفة (ذلك بأن لكِ قلباً عطوفاً وروحاً سخية يغريانك بالتضحية في سبيل من ترثين لهم)،

وخليق بهذا أن يكفيني،.من غير ريب. وأحسب أني لن أكنَّ لك الآن غير مشاعر أبوية: ألا ترين رأيي هذا؟ تعالي... أجيبيني».

– «سوف أرى الرأي الذي يحلو لك، يا سيدي. وإني لأرضى بأن أكون ممرضتك ليس غير، إذا بدا لك أن ذلك أفضل».

– «ولكنك لا تستطيعين أن تكوني ممرضتي إلى ما لا نهاية له، يا جانيت. أنت فتاة غضّة العود... ولا بدّ لك أن تتزوجي في يوم من الأيام».

– «أنا لا أبالي بأمر الزواج.»

– «يجب أن تبالي، يا جانيت: لو أني كنتُ ما كنـــتُ من قبل إذن لحاولت أن أحملك على المبالاة... ولكني كتلة عمياء!»

وغلبت عليه الكآبة كرة أخرى. أما أنا فأمسيت، على العكس، أكثر بِشراً، واستعدت شجاعتي: لقد بصّرتني هذه الكلمات الأخيرة بموطن الصعوبة. وإذ كانت العقبة غير ناشئة عن أمرٍ ذي صلة بي أنا، فقد سُرَّي عني وزايلني الارتباك السابق مزايلة كاملة. ومن هنا استأنفت الحديث متخيّرة موضوعاً أنضر وأبهج.

فقلت، وأنا أفرق خصل شعره الأثيثة التي لم تُقَصَّ منذ عهد بعيد. «لقد آن لك أن ينهض شخص ما بعبء إعادتك إلى الحظيرة البشرية. ذلك بأني أرى أنك في سبيلك إلى أن تُمْسَخَ أسداً، أو شيئاً من هذا القبيل. إنك لتبدو أشبه بنبوخذ نصر زائف، هذا أمر راهن: وإن شعرك ليذكُرني بريش النسر. أما ماإذا كانت أظافرك قدنمت حتى امبحت كبراثن الطير أم لا فذلك ما لم أتبيَّنه حتى الآن».

فقال وهو يسحب ذراعه البتراء من صدره ويريني إياها: «أنا لا أملك في هذه الذراع لا يداً ولا.أظافر. إنها مجرد جذعٍ يابس... مشهدٍ مروِّع! ألاتظنين ذلك، يا جين؟»

– «يعزُّ عليَّ أن أراها، ويعزُّ عليّ أن أرى عينيك، والنَّدبة التى خلَّفتها النار في جبينك. وأسوأ ما في الأمر أن المرء معَرَّض بسبب من هذا كله إلى خطر الهيام بحبك أكثر مما ينبغي».

– «لقد حسبت أن التقزز سوف يستبدّ بك إذا ما رأيت إلى ذراعي وإلى وجهي النديب(1)».

– «حقاً؟ لا تقل لي ذلك. وإلاّ اضطررت إلى أن اقول كلاماً فيه تسفيه لرأيك. والآن، دعني افارقك لحظة، لكي أؤجج النار وأكنس المستوقد. أقادر أنت على التمييز ما بين نارٍ مستعرة ونارٍ خامدة؟»

– «أجل. إني لألمح بعيني اليمنى وهجاً... ألمح ضباباً ضارباً إلى الحمرة الحمرة».

– «وهل ترى الشموع؟»

– «على نحو باهت جداً... إن كلاًّ منها تشبه سحابة نيرِّة».

– «هل تستطيع أن تراني؟»

– «لا، يا جنِّيتي! ولكني عاجز عن شكر الأقدار التي لم تحرمني متعة لمسك والاستماع إليك».

– «متى تتناول طعام العشاء؟»

– «أنا لا اتعشى البتة».

«ولكنك سوف تَطْعَم شيئاً الليلة. أنا جائعة، وكذلك أنت من غير ريب. ولكنك تنسى ذلك».

واستدعيت ماري. وسرعان ما رتبتُ الغرفة ترتيباً أكثر بِشراً وبهجة. وأعددت له، ايضاً، عشاء شهياً. كنتُ في نشوة غامرة، وخلال الطعام – وطوال فترة غير قصيرة بعده – تحدّثت إليه في حبور وانطلاق. أنا لم أستشعر في حضرته أيما كبح مضائق أو أيما كبتٍ للجذل والحيوية. إذ كنت أنعم في مجلسه بارتياح كامل، لأني وعيت مدى ملاءمتي له. لقد بدا وكأن كل ما قلته له كان يُوقع في نفسه السلوان أو يحيي في صدره ميت الأمل. ويا له من وعي بهيج! لقد ردَّ كياني كله إلى الحياة والنور–

كنت أحيا في وجوده. حياة كاملة، وكان هو يحيا في وجودي حياة مثلها. وعلى الرغم من انطفاء عينيه، خطرت البسمات على سياء، وأشرق الحبور على جبينه : لقد انبسطت أساريره. وسرى الدفء فيها.

(1) الوجه النديب: الوجه الذي صلبته ندبته. والندية هي أثر الجرح.

وبعد العشاء شرع يسألني أسئلة كثيرة: أين كنت؟ وما الذي كنت أفعله؟ وكيف اهتديت إليه؟ ولكني لم أعطه غير أجوبة مقتضبة جداً، فقد كنا في ساعة متأخرة لا تساعد على الخوض، تلك الليلة، في التفاصيل المسهبة. وإلى هذا، فقد حرصت على أن لا أمسّ أي وتر يثير شجونه إثارة عميقة، وأن لا أفجِّر في قلبه ينبوعاً جديداً من ينابيع العاطفة. كانت غايتي الحالية الوحيدة هي إيقاع البهجة في نفسه. ولقد غلبت عليه البهجة كما قلت: ولكن غلبتها تلك كانت على نحو متقطع. فما إن يتعطَّل الحديث لحظةُ صمت حتى يعاوده القلق، فيمسَّنى، ثم يقول: «جين!»

– «جين، هل أنت كائنة بشرية حقاً؟ أواثقة أنت من ذلك؟»

– «أنا أحسب ذلك، بكل إخلاص، يا مستر روتشيستر».

– «ومع هذا، فكيف تأتّي لك – في مثل هذه الليلة المظلمة الكئيبة أن تبرزي على هذا النحو المفاجئ كله أمام مستوقدي الموحش؟ لقد بسطت يدي لأتناول كأس ماء من خادم ما، فإذا بك أنت تقدّمين إليَّ تلك الكأس. وطرحتُ سؤالاً وأنا أتوقع أن تجيبني. عنه زوجة جون، فإذا بصوتك أنت يتناهى إلى مسمعي».

– «لأني دخلت حجرتك، بدلاً من ماري، حاملة الصينية إليك».

– «ولكن هذه الساعة نفسها التي أنفقتها الآن معك هي ساعة مسحورة أيضاً. من ذا الذي يستطيع أن يحزر
أيّة حياة قاتمة، موحشة، يائسة كنت أحياها طوال أشهر خلت، غير آت عملاً ما، غير متوقِّع شيئاً ما، مولجاً الليل في النهار، غير شاعر بشيء سوى البرد حين أترك النار تخمد، والجوع حين أنسى أن أتناول طعاماً، ثم بضربٍ من الأسى

موصول، وفي بعض الأحيان بشوق عارم إلى أن أحتضن جين من جديد. أجل لقدتُقْت إلى أن أصدِّق أن جين إلى جانبي وأنها تقول لي: «أحبك!؟» ألن تفارقني بمثل الفُجاءة التي وفدتْ بها عليَّ؟ إني لأخشى أن أبحث عنها، في ضحى الغد، فلا أجدها».

وكنت على مثل اليقين من أن الجواب العادي العملي، الخارج عن سياق أفكاره المضطربة، خليق به أن يكون هو الجواب الأفضل والأدعى إلى طمأنته وتهدئة روعه في تلك الأزمة النفسيه التي كانت تعصف به. فأمْرَرْت إصبعي على حاجبيه، وقلت إن النار قد سفعتهما، وإني سوف أعالجهما بشيء يُنبتهما من جديد كثيفين أسودين كعهدهما في الأيام الخالية.

– «أية فائدة ترتجى من الإحسان إليَّ بأية طريقة، أيتها الروح الخيِّرة، ما دمت ستعمدين في أية لحظة مشؤومة إلى هجري من جديد.. فتمضين مثلما يمضي خيال، من غير أن أدري إلى أين وكيف، ومن غير أن أوفِّق بعد ذلك إلى العثور عليك؟»

– «هل عندك مشط من أمشاط الجيب، يا سيدي؟»

– «لماذا، يا جين؟»

– «لمجرد تسريح هذه العُفْرة(1) المنفوشة السوداء. إني لأجدك راعباً بعض الشيء حين أتأملك عن كثب: أنت تزعم أني أشبه بجنِّيَّة من الجنيات، ولكني واثقة من أنك أنت أشبه شيء بعفريت من العفاريت».

(1) شعر القفا من الأسد والديك وغيرهما.

– «هل أنا بشع، يا جين؟»

– «جداً، يا سيدي. ولقد كنت دائماً بشعاً كما تعرف».

– «صه! إن الخبْث لم يفارقك، أيًّا ما كان الموطن الذي قضيت فيه فترة غيابك الأخيرة».

– «أجل، لقد قضيت تلك الفترة مع قوم صالحين: أناس أفضل منك بكثير... أفضل منك مئة مرة. أناس تستحوذ عليهم أفكار وآراء لم تراودك في أيما يوم من أيام حياتك، فهي أصفى وأسمى من أفكارك وآرائك بما لا يقاس».

– «ولكن قولي لي، بحق الشيطان، مع من كنت تقيمين؟»

– «إذا تحدَّثت بهذه اللهجة الماكرة فعندئذ تكرهني على أن أقتلع شعر رأسك من جذوره. وعندئذ تكفُّ، في ما أحسب، عن الشك في وجودي الواقعي».

– «مع من كنت تقيمين، يا جين؟»

– «إنك لن تنتزع مني، الليلة أيَّ جواب، يا سيدي: يتعيَّن عليك أن تنتظر إلى غد. ذلك بأن اعتصامي بالصمت، تاركة قصتي نصف مَرْويَّة سوف يكون – كما تعلم – ضرباً من الضمان الذي يكفل لي مفاجأتك وأنت تتناول طعام الصباح ابتغاء إكمالها. وبالمناسبة، يتعيَّن عليّ أن أحرص على أن لا أبرز آنئذ، أمام مستوقدك، وليس في يدي غير كأس ماء. يجب أن أحمل إليك بيضة على الأقل، هذا إذا لم أحمل إليك قطعة من لحم الخنزير».

– «يا لك من جنيَّة مُنَشَّأة بين البشر! جنيَّة ساخرة متحدِّية! إنكِ توقعين في روعي أني لم أعش هذه الشهور الاثني عشر الأخيرة، ولو قُدِّرَ لشاوول أن يستعيض بك عن داود إذن لكان في الإمكان طرد الروح الشريرة من غير استعانة بالقيثارة».

– «ها أنت ذا قد أصبحت أنيقاً حسن المظهر. إن في ميسوري أن أفارقك الآن. فقد سلخت أيامي الثلاثة الماضيات في سفر متواصل، وأحسب أني متعبة. طاب مساؤك».

– «كلمة أخرى واحدة، فحسب، يا جين. ألم يكن في ذلك البيت الذي عشتِ فيه أحدٌ غير أولئك السيدات؟»

– «فضحكت، ووليت فراراً، موصلة ضحكي وأنا أصعد إلى الطابق العلوي. وقلت في ذات نفسي، بطرب وجذل: «فكرة حسنة! يخيَّل إليَّ أني أملك الوسيلة إلى تبديد كآبته، من طريق المناكدة، طوال فترة من الزمان غير يسيرة».

وفي ساعة جد مبكرة من صباح اليوم التالي سمعته يغادر سريره ويتنقّل من حجرة إلى حجرة. ولم تكد ماري تهبط إلى الدور الأسفل حتى سمعتُ هذا السؤال: «هل مس ايير هنا؟» في أية حجرة من الحجرات أنزلتِها؟ هل كانت حجرة جافة غير رطبة؟ هل أفاقت من نومها؟ اذهبي واسأليها ما إذا كانت تريد شيئاً ومتى ستهبط إلى الدور السفلي».

وهبطت حالما بدا لي أنه أضحى على وشك تناول طعام الصباح. وإذ دخلت الغرفة في رفق بالغ فقد وُفِّقتُ إلى رؤيته قبل أن يفطن لوجودي. والحق أنه كان من الفاجع أن أشهد إخضاع تلك الروح الجبارة لعجز جسماني. لقد جلس في كرسيه – ساكناً ولكنه غير مطمئن، متوقعاً من غير ريب شيئاً ما، وقد طبع الأسى قسمات وجهه الناضحة بالقوة. كان محياه يذكِّر المرء بمصباح مطفأ، ينتظر من يُشعله من جديد. وأسفاه! إنه لم يعد هو نفسُهُ قادراً على إلهاب رونق الأسارير المشبوبة. لقد أمسى في ذلك عالة على شخص آخر. وكنت قد عقدت العزم على الأخذ بأسباب البهجة واللامبالاة، ولكن عجز الرجل القوي مسَّ شغاف قلبي. ومع ذلك خاطبته بأكبر قدر من المرح وُفِّقت إليه.

فقلت: «إنه صباح رائع مشمس، يا سيدي! لقد كفَّ المطر عن التهطال، وحلّ محله إشراق رقيق. وعمّا قريب سوف تخرج للنزهة».

كنت قد أذكيت الألق، فإذا بأساريره تضيء.

– «أوه، أنت هنا حقاً، يا قُبَّرتي! تعالي إليَّ! أنتِ لم ترحلي، لم تتلاشي؟ لقد سمعتُ واحدة من فصيلتك ترفع صوتها بالغناء، قبل ساعة واحدة، في الغابة، ولكن أنشودتها خلت – في مسمعيَّ – من الموسيقى بقدر ما خلت الشمس البازغة من الأشعة. إن كل ما في الأرض من ألحان ليتركَّز، عندي، في لسان محبوبتي جين. (وأنا سعيد بأنه ليس لساناً صموتاً بالفطرة): إن في استطاعتي أن أستشعر دفء أشعة الشمس كلها حين تكون هي بقربي».

ووقفت العبرات في مقلتيَّ لتسمع هذا الإقرار بتبعيته: لكأنه نسرٌ ملكيٌّ مُقيَّد في مجثمه فهو مضطر إلى أن يتوسل إلى عصفور من عصافير الدوري أن يصبح مَيَّارَهُ[1]. ولكني لا أريد أن أكون بكَّاءة، فكفكفت القطرات المالحة وشغلتُ نفسي بإعداد طعام الصباح. [1] الميار: متعهد توريد المؤونة.

وأنفقنا الشطر الأعظم من الصباح في الهواء الطلق، لقد قُدْته بعيداً عن الغابة النديَّة الآبدة إلى بعض الحقول البهيجة. ولقد وصفت له اخضرارها المتألق، ونضارة الرياحين والوشائع، وزرقة السماء المتلألئة. والتمست له مقعداً في بقعة محجوبة فاتنة، عند جذع شجرة يابس. وحين أجلسني على ركبته أجزت له ذلك في غير ممانعة. ولماذا أمانع وأنا أعلم أن سعادتنا خليق بها أن تكون في الاتصال أعظم منها في الانفصال؟ وبسط «بايلوت» ذراعيه على مقربة ما، وكان كل شيء ساكناً. وفجأة صاح وهو يضمني بين ذراعيه:

– «أيتها الهاجرة القاسية! أيتها الهاجرة القاسية؟ أوه، جين، إنك لا تستطيعين أن تتصوّري أيَّ شعور عصف بي عندما هربتِ من ثورنفيلد، وعندما تعذَّر عليّ الاهتداء إليك في أيما مكان، وعندما استيقنت – بعد أن تحرّيت حجرتك – أنّك لم تأخذي معك أي مبلغ من المال، أو أيما شيء يمكن أن يغنيك عن المال! كان عقد من اللؤلؤ سبق لي أن قدَّمته إليك مُنطرحاً في علبته الصغيرة سليماً لم يُمَسّ، وكانت حقائبك مقفلة مطوَّقة بالحبال كما أعددتِها لشهر العسل. وتساءلتُ ما الذي

سوف تفعله محبوبتي في تلك الحال من العوز والعُدْم؟ وما الذي فعلَتْهُ. ألا قصّي عليَّ الآن حكاية ذلك».

حتى إذا ألحَّ عليَّ في الطلب شرعت أروي له قصة تجاربي في السنة المنصرمة. ولطَّفت أحداث الأيام الثلاثة الأولى. أيام التيه والجوع، تلطيفاً كبيراً، لأن إنباءه بكل شيء كان خليقاً به أن يورثه آلاماً لا ضرورة لها. وعلى أية حال، فإن القليل الذي رويتُهُ له فطَّر قلبه الوفي على نحو أعمق ممّا أردت.

وقال إنه ما كان ينبغي لي أن أفارقه من غير أن أتزوّد بشيء أستعين به على العيش، وإنه كان من واجبي أن أكاشفه بما عزمت عليه. كان يتعين عليَّ أن أثق به، ولو قد فعلت إذن لما أكرهني بأية حال على أن أكون خليلته. فقد كان في الواقع يحبني - على الرغم من كل ما بدا لي من العنف الذي استبدّ به في يأسه - حباً أعمق وأرقّ من أن يجعل من نفسه طاغية يتحكّم في مصيري: لقد كان يؤثر أن يهبني نصف ثروته، من غير أن يسألني لقاء ذلك ولو قبلة واحدة، على أن يدعني أهيم على وجهي في أرض الله الواسعة وحيدة لا صديق لي ولا نصير. ثم أضاف قائلاً إنه واثق من أنني تحمَّلت من ضروب البلاء أكثر مما بُحت له به.

فأجبت: «حسناً، أيّاً ما كانت آلامي فإنها لم تستمر إلاّ برهة قصيرة جداً». ثم رحت أحدِّثه كيف استُقبلت في «مور هاوس»، وكيف عُيِّنْتُ معلِّمة، وكيف هبطت الثروة عليَّ، واكتشفت أنسبائي. وورد اسم سانت جون ريفرز، طبعاً، وروداً متواتراً في سياق قصّتي. حتى إذا انتهيت إلى خاتمتها جعل من هذا الاسم، في الحال، موضوع حديث جديد.

- «إن سانت جون هذا هو، إذن، ابن عمتك؟»

- «نعم».

- «لقد أكثرتِ من الحديث عنه، فهل أحببتِهِ؟»

- «لقد كان رجلاً صالحاً، يا سيدي. فلم يكن لي مناصٌ من حبه».

– «رجل صالح؟ هل يعني ذلك أنه كان رجلاً وقوراً، حسن السيرة، في الخمسين من عمره، أم ماذا يعني؟»

– «لم تكن سنُّ سانت جون تعدو التاسعة والعشرين، يا سيدي».

– «كان لا يزال غضَّ الأهاب jeune encore، كما يقول الفرنسيون.

أهو رجل قصير القامة، فاتر، بشع؟ رجل يقوم صلاحه على براءته من الرذيلة أكثر ممّا يقوم على بسالته في الفضيلة؟»

– «إنه عارم النشاط على نحو لا يعرف الكلل. إن الأعمال العظيمة السامية هي ما يعيش لأجل تحقيقه».

– «وعقله؟ إنه في أغلب الظن مهلهل العقل؟ إن نياته حسنة، ولكنك تهزين كتفيك حين تسمعين إليه يتحدّث، أليس كذلك؟»

– «إنه نَزْرُ الكلام، يا سيدي. وما ينطق به يتَّسم بالسَّداد دائماً. إن عقله لمن الطراز الأول. هو لين العريكة ولكنه ذو قوة وبأس».

– «أهو، إذن، رجل بارع؟»

– «إنه بارع حقاً».

– «ويتمتع بثقافة عميقة؟»

– «إن سانت جون عالم متبحّر واسع الثقافة».

– «أما أخلاقه فأحسب أنك قلت إنها لا تتناغم مع ذوقك... إنها متزمتة وإكليركية؟»

– «أنا لم أشر إلى أخلاقه قط. ولكنها أخلاق جديرة بأن تلائم ذوقي، إلا إذا كان ذوقي سقيماً جداً. إنهّا تتسم بالكياسة والوداعة والنبل».

– «ومظهره، – لقد نسيت أيَّ وصف خلعتِه على مظهره – إنه ضرب من كاهن مبتدئ، نصف مختنق بربطة عنقه البيضاء، ومنتصب كالعمود فوق حذائه الغليظ النعل، أليس كذلك؟»

– «أجل، إن سانت جون حريص على حُسن البزة. إنه رجل وسيم: فارع الطول، أشقر، ذو عينين زرقاوين، ووجهٍ مظهرُهُ الجانبي[1] إغريقيِّ السمات».

(1) عبرنا بـــ «المظهر الجانبي» من الوجه عما يعرف في اللغات الأجنبية بالبروفيل profile. (المعرب)

فأشاح بوجهه وقال في صوت خفيض «عليه اللعنة!» ثم التفت إليَّ وسألني: «هل أحببتِهِ، يا جين؟»

– «أجل، يامستر روتشيستر، لقد أحببته. ولكنك وجهت إليَّ هذا السؤال من قبل».

وأدركت، طبعاً، الغرض الذي رمى إليه. كانت الغيرة قد استحوذت عليه: لقد لسَعَتْهُ، ولكن لسعتها كانت نافعة. فقد أراحته، مؤقتاً، من ناب الكآبة القاضم. من أجل ذلك لم أشأ أن أسحر الأفعى في الحال.

فكانت ملاحظته التالية، غير المتوقعة: «ربما كنت تؤثرين أن لا تقعدي، بعدُ، على ركبتي، يا مس ايير؟»

– «ولم لا، يا مستر روتشيستر».

– «إن الصورة التي رسمتِها، اللحظة، لتوحي بمقارنة أكثر مما ينبغي. فقد أخرجت كلماتك صورة رائعة جداً لـــ «أبولو» فاتن. إنه لماثلٌ في مخيلتك: فهو فارع الطول، أشقر، ذو عينين زرقاوين ووجه مظهره الجانبي إغريقي السمات... أما عيناك الآن فتقعان، مقابل ذلك، على شبه «فولكان»[1]. على حداد حقيقي، أسمر، عريض المنكبين... ثم هو فوق هذا مكفوف البصر أعرج».

(1) Vulcan إله النار والمعادن عند الرومان. (المعرب)

– «إن ذلك لم يخطر ببالي من قبل قط. ولكنك من غير ريب أشبه ما تكون بفولكان، يا سيدي».

– «حسناً، في استطاعتك أن تفارقيني، يا سيدتي. ولكن قبل أن ترحلي (وضمّني إليه في إحكام كما لم يضمَّني في أيما يوم من الأيام) سوف يسركِ أن تجيبيني عن سؤال أو سؤالين».

وكفَّ عن الكلام.

– «عن أية أسئلة، يا مستر روتشيستر».

وتلا ذلك هذا الاستجواب:

– «هل عهد إليك سانت جون بمهمة التعليم في مورتون قبل أن يعرف أنّك بنت خاله؟»

– «نعم».

– «وكنت ترينه كثيراً؟ هل كان يزور المدرسة أحياناً؟»

– «كل يوم».

– «وكان يقرُّ خططك، يا جين؟ أنا أعرف أن خططك لا بدَّ أن تكون بارعة، فأنت مخلوقة موهوبة».

– «لقد أقرَّها.. أجل، لقد أقرّها».

– «وهل اكتشف فيك أشياء كثيرة ما كان يتوقّع أن يكتشفها؟ إن بعض براعاتك غير عادية».

– «لست أدري شيئاً عن ذلك».

– «تقولين إنه كان لك كوخ صغير على مقربة من المدرسة: هل وفد إلى هناك، في أيما يوم من الأيام، لكي يراك؟»

- «بين الفينة والفينة».

- «بعد أن يهبط الليل؟»

- «لقد فعل ذلك مرة أو مرتين».

وأمسك عن الكلام.

ثم استأنف: «ما المدة التي قضيتِها معه ومع أختيه بعد اكتشاف ما بينكم من قرابة؟»

- «خمسة أشهر».

- «هل كان ريفرز يقضي وقتاً طويلاً مع سيدات أسرته؟»

- «نعم، كانت حجرة القعود هي في الوقت نفسه مكتبه ومكتبنا. كان هو يجلس قرب النافذة، وكنا نحن نجلس قرب المائدة».

- «هل كان يُسرف في الدراسة؟»

- «إسرافاً كثيراً».

- «ماذا كان يدرس؟»

- «الهندستانية».

- «وماذا كنت تفعلين في غضون ذلك؟»

- «لقد تعلّمت الألمانية، بادئ الأمر».

- «وهل علَّمك هو الألمانية؟»

- «إنه لا يعرفها».

- «ألم يعلِّمك شيئاً؟»

- «قليلاً من الهندستانية».

- «ريفرز علَّمك الهندستانية؟»

- «نعم، يا سيدي..»

- «وعلَّم أختيه أيضاً؟»

- «لا».

- «علَّمك أنت فقط؟»

- «أجل،أنا فقط».

- «هل سألتِه أن يعلِّمك؟»

- «لا».

- «هل أبدى هو رغبته في تعليمك؟»

- «نعم».

وأمسك عن الكلام كرة أخرى.

ثم أضاف: «لماذا رغب في ذلك؟ أي نفع كان يمكن أن تجنيه من تعلُّم الهندستانية؟

- «كان يريدني أن أذهب معه إلى الهند».

- «آه، ها قد وصلت إلى لبّ القضية. لقدأرادك أن تتزوجي منه؟»

- «لقد سألني أن أتزوّج منه».

- «هذا حديث خرافة. إنه اختلاق وقع تقصدين به إلى إغاظتي».

– «أسألك المعذرة، إنه الحقيقة الخالصة. لقد سألني الزواج منه غير مرة. وبإلحاح لا يقلُّ عناداً عن أقصى ما قدِّر لك أن تُظهره، في أيما يوم، من عناد».

– «أكرر، يا مس ايير، ما سبق أن قلته: إن في إمكانك أن تفارقيني.

كم مرة يتعين علي أن أكرر الشيء نفسه؟ لماذا تظلّين جاثمة على ركبتي في إصرار بعد أن أجزت لك أن تمضي لسبيلك؟»

– «لأني مرتاحة هنا».

– «لا، يا جين، أنت غير مرتاحة هنا، لأن قلبك ليس معي. إنه مع ابن عمتك ذاك، مع هذا السانت جون. أوه، حتى هذه اللحظة كنت أحسب أن «جَيْنتي» الصغيرة كانت مِلكاً خالصاً لي! كنت أعتقد أنها أحبتني حتى عندما هجرتني، ولقد كان ذلك عندي بمثابة ذرة من حلاوة في قنطار من مرارة. وعلى الرغم من طول فراقنا، وعلى الرغم من العبرات الحارة التي سفحتها بعد انفصالنا فلم يخطر ببالي قطّ أنها، فيما كنت أندبها، كانت هي تحب رجلاً آخر! ولكن لا جدوى من الحسرة والأسى. جين، اتركيني! اذهبي وتزوجي من ريفرز!

– «ردَّني عنك رداً، إذن، يا سيدي. ادفعني عنك دفعاً. لأنني لن أفارقك بطَوعي».

– «جين، إني لأحب صوتك أبد الدهر: إنه لا يزال يجدِّد فيَّ ذابل الأمل، وإن له في أذني رنة صدق ووفاء. فما إن أسمعه حتى يردَّني سنة إلى الوراء. لقد نسيت أنك أنشأت صلة جديدة. ولكني لست أبله... امضي!..»

– «إلى أين يجب أن أمضي، ياسيدي؟»

– «اِمضي في طريقك الخاصة...مع الزوج الذي اخترتِهِ».

– «ومن هو ذاك؟»

– «أنت تعرفينه... هذا السانت جون ريفرز».

– «إنه ليس زوجي، ولن يكون زوجي أبداً. فهولا يحبني، وأنا لا أحبه. إنه يحب (لأن في ميسوره. أن يحب، ولكن حبه من ضرب مختلف عن حبك) فتاة جميلة غضّة العود تدعى روزاموند. لقد أراد أن يتزوجني لمجرّد اعتقادي بأني أستطيع أن أكون زوجة مبشّر ناجحة، في حين أنها هي لا تصلح لهذه المهمة. إنه رجل طيب وعظيم، ولكنه قاس. وهو، في ما يتّصل بي، بارد مثل جليد. إنه ليس مثلك، يا سيدي: أنا لا أستشعر السعادة لا حين أكون بجنبه، ولا حين أكون بقربه، ولا حين أكون معه. وهو لا يتكشَّف نحوي عن أي تسامح... عن أي ولوع. وهو لا يرى فَّي أيما جاذبية... بل لا يرى فيَّ أي فتاة شابة. لقد أجبَتْهُ مني بضع خصائص عقلية نافعة ليس غير.. ومع ذلك تريدني، يا سيدي، أن أتركك وأمضي إليه؟»

وارتعدت على نحو غير إرادي. وتشبَّثتُ بسيدي الأعمى، ولكنِ المحبوب، تشبثاً أشد وأقوى. وافترَّ ثغره عن ابتسامة.

– «ماذا، يا جين! أحق ما تقولين؟ أهذه هي في الواقع حقيقة الصلة بينك وبين ريفرز؟»

– «على وجه الضبط، يا سيدي. أوه، لا داعي للغَيْرة! لقد أردت أن أغيظك قليلاً لكي أجلوعن صدرك بعض الحزن: ذلك بأني اعتبرت أن الغضب خليقٌ به أن يكون خيراً من الأسى. ولكن إذا كنت راغباً في حبي فليس عليك إلا أن ترى إلى أي مدى أحبك فعلاً، وعندئذ لا بدَّ أن يفتنك الزهو يخامرك الرضا. إن قلبي كله لك، يا سيدي. إنه مِلْكك. ومعك أنت سوف يبقى، حتى ولو شاء القدر أن يُقْضى سائر جسمي عنك إلى الأبد».

وكرة أخرى راودته، وهو يقبّلني' أفكار أليمة اكفهرَّ لها وجهه.

وغمغم في حسرة: «لَهْف نفسي على بصري المتحجِّرا لهف نفسي على قوّتي العرجاء».

وعانقته لكي أهدئ من روعه. لغد أدركت فيمَ كان يفكر، وأردت أن أتحدث بلسانه، ولكني لم أجرؤ على ذلك. وأشاح عني بوجهه بضع لحظات رأيت خلالها عبرة تنزلق من تحت جفنه المختوم، وتتحدّر على خده الناضح بالرجولة. ففاض قلبي بالحزن والأسى.

وسرعان ما لاحظ قائلاً: «أنا. لستُ خيراً من تلك الشهبلُّوطة العجوز التي فلقتها الصاعقة في بستان ثورنفيلد.
وأيُّ حق لذلك الحطام في أن يطلب إلى ياسمينة مبَرعِمة أن تحجب خرابَه بالنضارة والطراوة؟»

– «أنت لست حطاماً يا سيدي... لا، ولست شهبلوطة انقضَّت عليها صاعقة. أنت غضٌّ وقوي. وإن النباتات سوف تنمو حول جذورك، سواء سألتها ذلك أم لم تسألها، لأنها تبتهج بالتفيؤ بظلك السابغ. ولسوف تنعطف، فيما هي تنمو، نحوك وتلتف حولك، لأن قوّتك تزوِّدها بسِناد وطيد إلى أبعد الحدود».

وتبسَّم من جديد فقد سَرَّى كلامي عنه.

وسألني: «أنت تتحدثين عن الأصدقاء، أليس كذلك يا جين؟»

– «أجل، عن الأصدقاء» كذلك أجبت في شيء من التردد. إذ عرفتُ أنني عَنيت شيئاً أكثر من الأصدقاء، ولكني لم أوفّق إلى أيّة كلمة أخرى أعبِّر بها عن مرادي. فهرع هو لمساعدتي فقال:

– «آه، جين! ولكني أريد زوجة».

– «حقاً، يا سيدي؟»

– «نعم. وهل كنت تجهلين ذلك؟»

– «طبعاً. أنت لم تشر إليه من قبل».

– «وهل هو نبأ غير سارّ؟»

– «ذلك رهنٌ بالظروف والملابسات، يا سيدي. إنه رهنٌ بمن ستختارها زوجة لك».

– «إنَّك. أنتِ التي ستختارينها لي، يا جين. ولسوف أ خضع لقرارك».

– «اختَرْ، إذن، يا سيدي، تلك التي تحبك أعظم الحب».

– «سوف أختار، على الأقل، تلك التي أحبُّها أنا أعظم الحب. جين، هل ترضَيْن بي بعلاً؟»

– «نعم، ياسيدي».

– «أتتزوجين من رجل بائس مكفوف البصر سوف يتعيَّن عليك أن تأخذي بيده كلما أراد أن يخطو بضع خطوات؟»

– «نعم، يا سيدي».

– «أحق ما تقولين، يا جين؟»

– «إنه الحق الذي لا ريب فيه البتة، يا سيدي».

– «أوه يا مُنية النفس! فليبا ركك الله وليَجْزكِ خير الجزاء».

– «مستر روتشيستر، إذا كنت قد عملتُ في أيما يوم من أيام حياتي عملاً صالحاً... إذا كنت قد راودتني في أيما يوم من أيام حياتي صالحة... إذا كنت قد صلَّيت ذات مرة صلاة صادقة بريئة.. إذا كنتُ قد تمنَّيتُ أية أمنية فاضلة فإني أعتبر أني فُزْتُ الآن بثواب ذلك كله فلأن أكون زوجتك يعني، عندي، أن أنعم بأوفر قسط من السعادة أستطيع بلوغه في هذه الدنيا».

– «لأنك تجدين في التضحية متعة وبهجة».

– «التضحية؟ وبماذا أضحي؟ أنا أضحي بالجوع لأحظى بالغذاء، وبالترقُّب لأفوز بالرضا. أتسمَّى إيثار الأقدار لي وإنعامها عليَّ بحق احتضان من أقدِّره

وأبجله، وتقبيل من أحبُّه، والسكون إلى من أثق به... أتسمي هذا كله تضحية؟! إذا كان ذلك كذلك، فلا ريب في أني أجد متعة في التضحية وبهجة».

– «وتجدين مثل ذلك في الصبر على عاهاتي، يا جين. وفي التغاضي عن ضروب عجزي».

– «التي لا وجود لها، يا سيدي، في نظري. أنا أحبك الآن، بعد أن أمسى في مستطاعي أن أسدي إليك نفعاً حقيقياً، أكثر مما أحببتك يوم كنتَ في حال من الاستقلال الفخور، يومَ احتقرت الأدوار كلها ما خلا دَوْر الواهب والحامي».

– «لقد كرهتُ، حتى هذه اللحظة، أن يعمد أحدٌ إلى مساعدتي.. أن ياخذ أحدٌ بيدي. ولكني أستشعر، منذ اليوم، أني لن أكره ذلك البتة. أنا لم أحب أن أضع يدي في يد خادم من الخدم، ولكن من العذب أن أحسَّ بها مطوَّقة بأصابع جين الصغيرة. لقد آثرت العزلة المطلقة على رعاية الخدم الموصولة، ولكن خدمات جين الرقيقة سوف تبعث في نفسي بهجة سرمدية. إن جين تلائمني، فهل أنا ألائمها؟»

– «حتى أدق خيط من خيوط كياني، يا سيدي».

– «ما دام الأمر كذلك، فليس ثمة ما يدعونا إلى الانتظار. إن علينا أن نتزوج في الحال».

لقد «حدَّق» وتحدّث في حرارة: كان اندفاعه القديم قد عاوده.

– «يجب أن نصبح جسداً واحداً في غير إبطاء البتة، يا جين. وليس علينا إلاّ أن نستصدر الإجازة الشرعية... ثم نتزوج».

– «مستر روتشيستر، لقد اكتشفت اللحظة أن الشمس انحدرت عن خط الهاجرة انحداراً بعيداً، وقد مضى «بايلوت» فعلاً إلى البيت التماساً للغداء. دعني ألقي نظرة على ساعتك».

– «علَقيها في حزامك، يا جانيت، واحتفظي بها منذ اليوم: أنا في غير ما حاجة إليها».

– «كادت الساعة أن تصبح الرابعة بعد الظهر، يا سيدي. ألا تحسّ بالجوع؟»

– «إن عرسنا يجب أن يُقام بعد ثلاثة أيام، يا جين. وفي ميسورنا أن نستغني عن الحلل القشيبة والجواهر النفيسة هذه المرة. إن هذه كلها لا تساوي قلامة ظفر».

– «لقد جفَّفت الشمس قطرات المطر كلها، يا سيدي. ولقد سكنت الريح، وأمسى الجو حاراً جداً».

– «هل تعلمين، يا جين، أن عقدك اللؤلؤي الصغير يطوِّق، في هذه اللحظة، عنقي البرونزي تحت رباط الرقبة الذي أرتديه؟ ولقد طوَّقهُ منذ ذلك اليوم الذي خسرت فيه كنزي الوحيد، لكي يذكِّرني أبد الدهر بها».

– «سوف نعود إلى البيت من خلال الغابة: تلك هي الطريق التي سننعم فيها بأوفر قدْر من الظل الظليل».

ولكنه واصل الاستغراق في تأملاته من غير أن يلقي إليَّ بالاً:

– «جين، أستطيع أن أقول إنك تحسبنني كلباً ملحداً. ولكن الواقع أن قلبي يفيض في هذه اللحظة بالشكر والعرفان لإله هذه الأرض الخيِّر. إنه يرى، لا كما يرى الإنسان ولكن على نحو أوضح وأبعد نظراً. وهو يقضي، لا كما يقضي الإنسان، ولكن على نحو أحفل بالحكمة بكثير. لقد ارتكبت إثماً: كنت على وشك أن أدنِّس ريحانتى البريئة.. إن ألوِّث بالخطيئة طهارتها، ولكن الله الكلِّي القدرة انتزعها مني. وكدت، في ثورتى العنيدة، أن ألعن هذا القضاء الآلهى: وبدلاً منذ أن أنحنى للقرار، تحدَّيته. وواصلت العدالة الإلهية سبيلها. وتوارت المصائب عليَّ. لقد أكرِهت على عبور وادي ظلال الموت. إن عقوبات الجبَّارة، وقد نزلت بي إحداها فأذلَّتني مدى الحياة. أنت تعلمين أني كنت معتزاً بقوتي: ولكن ما الذي

بقي لي منها الآن بعد أن أمسيت مضطراً إلى من يأخذ بيدي، كشأن الطفل في ضعفه؟ وفي الفترة الأخيرة، يا جين، في الفترة الأخيرة ليس غير، شرعت أرى يد الله وألمس أثرها في مصيري. لقد بدأت أستشعر الندامة والتوبة والرغبة في الإذعان لمشيئة خالقي. وأنشأت أصلي في بعض الأحيان: لقد كانت صلوات موجزة، جد موجزة، ولكنها جد صادقة.

«ومنذ بضعة أيام – لا، إن في ميسوري أن أحصيها – منذ أربعة أيام، وكان ذلك مساء الاثنين الماضي، غلب عليَّ مزاج فريد، مزاج حلَّت فيه الكآبة محل الحنق، والأسى محل التجهم. وكان قد رسخ في نفسي، منذ عهد بعيد، أن إخفاقي في العثور عليك في أيما مكان ليس له غير معنى واحد، هو أنكِ فارقت الحياة. وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة – ولعل ذلك كان بين الحادية عشرة والثانية عشرة – قبل أن آوي إلى مضجعي الموحش ابتهلت إلى الله أن يتوفاني إليه وشيكاً، إذا ما بدا له أن ذلك خير، وأن يُدخلني إلى رحاب ذلك العالم الآخر، حيث لا يزال ثمةأمل في أن ألقى جين.

«كنت في حجرتي الخاصة، جالساً على مقربة من النافذة التي كانت مفتوحة : لقد كان يهدئ أعصابي أن أستَشْعِرَ نسيم الليل العليل،برغم أنه لم يكن في ميسوري أن أرى أي نجم من النجوم وبرغم أني لم أدرك وجود القمر إلاّ من طريق ضباب.غامض نيِّر. فإذا بالشوق إليك يعصف بي، يا جانيت! أوه، لا تقتُ إليك روحاً وجسداً! فسألت الله، في كرب وفي اتضاع، ألم يتطاول حزني وبلائي وتعذيبي أكثر مما ينبغي..؟ أما آن لي أن أذوق طعم السعادة والطمأنينة مرَّة أخرى؟ لقد أقررت بأني أستحق كل ما احتملته من رزايا، ولكني تضرّعت قائلاً إني أكاد أنوء تحت أثقالي وإنه لم يعد في طوقي أن أحتمل أكثر مما فعلت. وعلى نحو غير إرادي تفجَّرت ألِف رغبات قلبي وياؤها، من بين شفتيَّ، في هذه الكلمات: جين! جين! جين!»

– «هل نطقتَ بهذه الكلمات في صوت عال؟»

– «أجل، يا جين. ولو قدِّر لامرئ أن يسمعني إذ لحسبني مخبولاً: لقد نطقت بها في حماسة مسعورة».

– «وكان ذلك مساء الاثنين الماضي.. حوالي منتصف الليل؟»

– «أجل، ولكن الزمان ليس ذا أهمية: إن ما تلا ذلك هوموضع العجب في الأمر كله. أنا أدري أنك سوف تحسبينني رجلاً يؤمن بالخرافات – والواقع أن في دمي لشيئاً من خرافة، ولقد كان في دمي مثل ذلك دائماً – ومع ذلك فهذا الذي حدث صحيح. صحيح على الأقل أني سمعت ما أريد أن أقصّه عليك الآن.

«فلم أكد أهتف: جين! جين! جين! حتى أجابني صوت لا أدري من اين أقبل ولكني أدري صوت مَنْ كان: «أنا آتية: انتظرني!» وبعد لحظة تناهت إليَّ هاتان الكلمتان وقد همست بهما الريح: «أين أنت؟»

سوف أرسم لكِ، إذا استطعتُ، المعنى والصورة اللذين أوقعتهما هاتان الكلمتان في روعي: ومع ذلك فمن العسير عليَّ أن أعبّر عمّا أريد التعبيرعنه. إن «فيرنديان» مدفون، كما ترين، في غابة كثيفة تتكسُّر فيها حدة الصوت ثم يموت غير مرجَّع. لقد بدا وكأن لفظتي «أين أنت» قد لونُطِق بهما بين الجبال، ذلك بأني سمعت صديّ، منعكساً عن هضاب، يكرر تينك الكلمتين. وبدا لي وكأن النسيم الذي صافح جبيني أمسى في تلك اللحظة. أشدَّ برداً واعتلالاً: كان في ميسوري أن أحسب أني اجتمعت و«جَيْن» في موضع من الأرض آبدٍ موحش. وأنا أعتقد أن روحينا قد التقتا من غير ريب. لقد كنتِ في تلك الساعة مستغرقة، حتماً، في نوم عميق يا جين. ومن يدري فلعلَ روحك فارقت زنزانتها وهامت على وجهها لكي تُسعد روحي. لأن ذلك الصوت كان صوتك... أنا واثق من ذلك وثوقي من نفسي...»

والواقع أني تلقيت، أيها القارئ، في مساء الاثنين نفسه – حوالي منتصف اليل – ذلك النداء العجيب، وكانت تانك الكلمتان هما عين الكلمتين اللتين استعملتهما في الردّ عليه. لقد أصغيت لحكاية مستر روتشيستر، ولكني لم أكاشفه بذلك. فقد

راعتني تلك المصادفة ووجدت فيها شيئاً هو من الرهبة ومن الامتناع على التعليل بحيث لا يَحسُنْ التعبير عنه أو مناقشته. ولو قد كاشفتُهُ بالذي وقع لي إذن لكان خليقاً بقصَّتي أن تخلف من غير ريب انطباعه عميقة في نفس سامعي. ولم تكن تلك النفس – الشديدة النزوع، بحكم آلامها الطويلة، الى الاكتئاب – في حاجة إلى ما يعمِّق عندها ظِلَّ الأحداث الخارقة للطبيعة. وهكذا احتفظت بتلك الأشياء، ورحت أتأملها في ما بيني وبين نفسي.

وتابع سيدي حديثه فقال: «لم يعد في استطاعتك الآن أن تعجبي لماذا تعذر عليَّ، أو كاد – حين انبثقتِ أمامي على ذلك النحو غير المرتقَب البتة، الليلة البارحة أن أحسبك غير مجرد هاتفٍ أو رؤيا، غير شيء سوف يتلاشى في الصمت والعدم، كما تلاشى همس منتصف الليل وصدى الجبل من قبله. والآن، حمداً لله! لقد استيقنت أنه كان شيئاً غير ذلك. أجل، حمداً لله!»

وأنزلني عن ركبته، ونهض، رافعاً قبّعته عن جبينه في احترام بالغ، خافضاً عينيه المطفأتين نحو الأرض، ووقف في خشوع أبكم. ولم أوفَّق إلى غير سماع الكلمات الأخيرة من صلاته:

– «أنا أحمد خالقى إذ تذكَّر، فى غمرة إنفاذ قضائه فيَّ، الرحمة والرأفة. وإني لأضرع إلى مُخَلِّصي، في ضعة، أن يهبني القوة التي تمكنني من أن أحيا، منذ اليوم، حياة أطهر من التي عشتها!»

ثم إنه بسط يده إليَّ لكي أقوده. فأخذت بتلك اليد العزيزة، وأدنيتُها لحظة من شفتيُّ، ثم تركتها تطوّق كتفي: إن الفارق الكبير بين قامته الفارعة وبين قامتي جعل مني – في آن معاً – سناداً له وهادياً. ودخلنا الغابة، واتّخذنا سبيلنا نحو البيت.

[38]

خاتمة

وتزوجت منه، أيها القارئ. وكان عُرسنا. هادئاً لم يشهده أحد غيرنا وغير الكاهن والقندلفت. حتى إذا عدنا من الكنيسة مضيت إلى مطبخ البيت الريفي حيث كانت ماري تُعِدّ طعام الغداء، في حين كان جون ينظف السكاكين، وقلت:

– «ماري، لقد زُفِفْتُ إلى مستر روتشيستر هذا الصباح».

كانت مدبِّرة شؤون المنزل وزوجها كلاهما من ذلك الطراز الفاتر المحتشم من الناس الذين يستطيع المرء أن يُبلغهم، في أيما وقت، أيَّ نبأ رائع من غير أن يعرِّض أذنيه لخطر الانثقاب من جرّاء صيحة مجلجلة ما، وبالتالي لخطر الانصعاق بسيل جارف من التعابير الدالّة على الدهش. فرفعت ماري بصرها نحوي وأنشأت تحدّق إليّ، فإذا با لمغرفة التي كانت تنضح بها، بالزبدة، دجاجتين محمَّرتين على النار – تظلّ معلّقة في الهواء نحواً من ثلاث دقائق. وطوال المدة نفسها حظيت سكاكين جون أيضاً براحة من عملية التنظيف والصقل. بيد أن ماري ما لبثت أن عادت إلى طهو دجاجتيها، واكتفت بالقول:

– «أحق ما تقولين يا آنسة؟ ذلك حسن، من غير ريب!»

واعتصمت بالصمت بضع لحظات ثم قالت: «لقد رأيتك تذهبين مع سيدنا، ولكني لم أعرف أنكما ذهبتما إلى الكنيسة لتتزوجا». وواصلت نضح دجاجتيها بالزبدة. وحين التفتُّ إلى جون ألفيتُهُ يضحك ضحكة عريضة امتدت من شحمة أذنه الأولى إلى شحمة أذنه الثانية.

وقال: «لقد قلت لماري إلام سينتهي الأمر. لقد عرفت ما الذي يجدر بمستر إدوار... (كان جون خادماً عتيقاً، وقد سبق له أن عرف سيده منذ كان الابن الأصغر في القصر، ومن أجل ذلك كان كثيراً ما يشير إليه باسمه الأول)... أجل لقد عرفتُ ما الذي يجدر بمستر إدوارد أن يفعله، وكنت واثقاً من أنه لن ينتظر طويلاً أيضاً. ولقد أحسن صنعاً، على قدر ما أعرف. إني أتمنى لك السعادة، أيتها الآنسة». ومسَّ ناصيته تأدباً.

– «أشكرك، يا جون. لقد سألني مستر روتشيستر أن أقدم إليك وإلى ماري هذه الورقة».

ووضعت في يده ورقة نقدية من فئة الخمسة الجنيهات. ومن غير أن أنتظر حتى أسمع شيئاً إضافياً غادرت المطبخ. وفيما كنت أجتاز بباب ذلك «المَقْدِس»، بعد فترة يسيرة، طرقت الكلمات التالية سمعي:

– «في ميسورها من غير ريب أن تنفعه أكثر من أية سيدة عجوز»... «وإذا لم تكن واحدة من أجمل النساء فإنها ليست دميمة، وهي من غير شك دمثة الأخلاق. ثم إنه يراها جميلة.. وفي استطاعة كل امرئ أن يلاحظ ذلك».

وكتبت إلى مورهاوس وإلى كايمبريدج في الحال، لكي أروي ما أقدمت عليه. وقد شرحت في الرسالتين أيضاً السبب الذي من أجله فعلت ما فعلت شرحاً وافياً. فأقرَّت ديانا وماري خطوتي في غير تحفُّظ. وأعلنت ديانا أنها ستُمهلني ريثما أنعم بشهر العسل ثم تفد لزيارتي».

وقال روتشيستر عندما تلوت رسالتها عليه: «من الخير لها أن لا تنتظر حتى ذلك الحين، يا جين. وإنها لو فعلت إذن لوفدت علينا بعد فوات الأوان، لأن شهر عسلنا سوف يستمر ما بقينا على قيد الحياة. إن أشعته لن تبهت إلاّ فوق ضريحك أو ضريحي».

أما كيف تلقى سانت جون النبأ فذلك ما لا أدريه. إنه لم يُجب قط عن الرسالة التي أرسلتها له. ومع ذلك فقد كتب إليَّ بعد ستة أشهر، ولكن من غير أن يذكر اسم مستر روتشيستر، أو يُلمح إلى زواجي. كانت رسالته تلك هادئة برغم ما اتَّسمت به من جدٍ بالغ ولطف عظيم. ومنذ ذلك الحين واصل الكتابة اليَّ على نحو منتظم ولكن في فترات متباعدة. لقد رجا أن أكون سعيدة، وأعلن أنه واثق من أنني لست من أولئك الذين لا يسترشدون في أعمالهم بالتعاليم الإلهية والذين لا يبالون بغير عَرَض الحياة الدنيا.

إنك لم تَنْسَ آديل الصغيرة، أيها القارئ، نسياناً كاملاً، وكذلك أنا. وسرعان ما سألت مستر روتشيستر أن يأذن لي بالذهاب لرؤيتها في المدرسة التي كان قد ألحَقها بها. فأذِن. والواقع أن البهجة الغامرة التي اجتاحتها عندما وقعت عيناها عليَّ من جديد هزت مشاعري. لقد بدت شاحبة الوجه مهزولة الجسم، وقالت لي إنها لم تكن سعيدة. وإنما وجدتُ أنظمة المؤسسة صارمة أكثر مما ينبغي وبرنامج دروسها مثقلاً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى طفلة في مثل سنها، فصحبتُها معي إلى البيت. لقد اعتزمت أن أنهض بنفسي مرّة أخرى بعبء تثقيفها. ولكن سرعان ما وجدت أن ذلك غير عملي. فقد كنت مضطرة الآن إلى إنفاق وقتي وجهودي على شخص آخر –كان زوجي محتاجاً إليها كلها. وهكذا بحثت لآديل عن مدرسة ذات نظام أشدَّ رفقاً وتساهلاً، مدرسة هي من القرب بحيث أستطيع أن أزورها بين الفينة والفينة وأصْحَبَها إلى البيت في بعض الأحيان. وحرصتُ على أن لا يُعْوِزها أيما شيء قد يعزِّز رفاهيتها. وما هي إلاّ فترة يسيرة حتى استقرَّت في مثواها الجديد، وغدَت جدَّ سعيدة هناك، وأحرزت تقدماً حسناً في دروسها. وفيما هي تتَّخذ سبيلها نحو النضج الجسماني أصلحت ثقافة إنكليزيةٌ سليمةٌ عيوبها الفرنسية إصلاحاً بعيداً، حتى إذا غادرت المدرسة وجدتُ فيها رفيقة مُرْضية كريمة، فهي وادعة دمثة الخلق، ذات مبادئ قويمة. والواقع أنها كافأتني منذ عهد طويل – بما أظهرت نحوي ونحو زوجي من اهتمامٍ مشكورٍ – على أيما قدر من الفضل ضئيل قُدِّر لي في أيما يوم من الأيام أن أسديه إليها.

إن قصَّتي لتشارفُ نهايتَها، ولم يبق عليَّ حتى أطرح القلم إلا أن أقول كلمة صغيرة عن حياتي الزوجية، وألقي نظرة خاطفة على مصائر أولئك الذين تردَّدت أسماؤهم، أكثر ما تردّدت، في هذه القصة.

لقد انقضى على زواجي، الآن، سنوات عشر، فأنا أعرف ما معنى أن يعيش المرء بكليَّته من أجل من يؤثره بالحب أكثر من أيَّ كائن آخر في هذه الأرض، ومع هذا الحبيب الأثير لديه. إني لأعتبرُ نفسي سعيدةً أقصى ما تكون السعادة... سعيدة على نحو يعجز البيان عن وصفه. لأني أنا حياةُ زوجي بقَدْر ما هو حياتي. إن أيما امرأة لم يُقَدَّر لها قط من قبل أن تكون أدنى إلى قرينها مما قُدِّر لي: لا، لم يقدَّر لأيما امرأة أن تكون عظماً من عظم زوجها ولحماً من لحمِهِ أكثر مما كنت أنا. إني لا أمل عِشرة إدوارد، وهو لا يملّ عشرتي أكثر مما يملُّ كلٌّ منا وجيب الفؤاد الذي ينبض في صدرَيْنا المستقلين، وبالتالي فنحن أبداً معاً. ولأن نكون معاً هو بالنسبة إلينا أن ننعم – في آنٍ واحد – بمثل الحرية التي تتيحها الوحدة، وبمثل البهجة التي تتيحها العِشرة. إننا نتحدث، في ما أحسب، ساعات النهار بطولها. وليس تجاذبنا أطراف الأحاديث غير تفكير مسموع هو أكثر حرارةً وحيوية. إني لأمنحه كامل ثقتي، وإنه ليقِفُ عليَّ كامل ثقته. إن خُلُقَيْنا لمتناغمان أحسن تناغمٍ، وما ثمرة ذلك غير الوفاق المطلق.

وظل مستر روتشيستر مكفوف البصر طوال السنتين الأوليين من زواجنا: ولعلّ هذه الواقعة هي التي أبقت أحدنا على مثل هذا القرب كله من الآخر، والتي وحَّدت ما بيننا ذلك التوحيد كله! ذلك بأنني كنت آنذاك عينه المبصرة، كما لا أزال حتى اليوم يده اليمنى. لقد كنت، بالمعنى الحرفي (كما كان يدعوني في كثير من الأحيان) بؤبؤ عينيه. لقد رأى الطبيعة... ورأى الكتب، من خلالي. ولم أتعب أنا، في أيما يوم، من التحديق بالنيابة عنه، ومن التعبير في كلمات عن أثر الحقل، والشجرة، والمدينة، والنهر، والسحاب، وشعاع الشمس، في نفسي... وعن أثر الريف المنبسط أمامنا، والجو المحيط بنا... وبكلمة، لقد حرصتُ على أن أطبع في أذنِهِ، من طريق الصوت، ما كان النور قد أمسى عاجزاً عن طبعِهِ في عينيه. ولم

أكلّ قط من القراءة له، ومن قيادته إلى حيث كان يودُّ أن يمضي، ولم أحجم البتة عن عمل أيما شيء كان ينبغي أن يعمل. ولقد كان في خدماتي هذه مُتعة بالغة إلى أبعد حدّ، عذبة إلى أقصى مدى، برغم ما اتّسمت به من كآبة – لأنه كان يطالبني بأداء تلك الخدمات من غير أن يستشعر أيَّ خجل أليم أو ذلٍّ مُثَبِّط. لقد كان حبه لي من العمق بحيث لا يجد حرجاً في الإفادة من رعايتي. ولقد استشعر أني أحبه حباً صادقاً إلى درجة تجعل إحاطتي إيّاه بتلك الرعاية نوعاً من الإرضاء لأعذب رغباتي.

وذات صباح، في نهاية السنتين الاثنتين، وفيما كنت أكتب رسالة إملائه مال عليَّ وقال:

– «جين، هل تطوّق جيدك حليةٌ متألقة؟»

وكانت تطوق جيدي سلسلة ذهبية، فأجبت:

–«نعم».

– «وهل ترتدين ثوباً أزرق شاحباً؟»

وقد كان ذلك هو لون ثوبي في الواقع. وأنبأني، عندئذ، أنه يستشعر، منذ فترة يسيرة، أن الظلمة التي تغشى إحدى عينيه أخذت تشفّ بعض الشيء، وأنه أمسى الآن موقناً من ذلك.

وارتحلت أنا وهو إلى لندن، حيث راجع طبيباً من أطباء العيون البارزين، وبذلك استردَّ قوة تلك العين على الأبصار. إنه لا يستطيع الآن أن يرى في وضوح بالغ... إنه لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب كثيراً، ولكنه أمسى قادراً على أن يتبيَّن سبيله، من غير أن يأخذ أحدٌ بيده: إن السماء لم تعد، عنده، خَواءً، وإن الأرض لم تعد عنده فراغاً. وحين وُضِع وليدُهُ الأول بين ذراعيه استطاع أن يرى أن الطفل قد ورث عينيه، كما كانتا في عهد مضى – عينيه النجلاوين، البراقتين، السوداوين. وفي تلك المناسبة أيضاً أدرك، في تأثر بالغٍ، أن الله قد لطَّف بالرحمة قضاءه.

وإذن فأنا وإدوارد سعيدان، وبخاصة لأن أولئك الذين نؤثرهم بأعظم الحب سعداء مثلنا. لقد تزوجتْ كل من ديانا وماري ريفرز، فهما تفدان لزيارتنا ونحن نمضي لزيارتهما، بالتناوب، مرة كل عام. إن زوج ديانا رئيس (كابتن) في البحرية – ضابطٌ شهم ورجل طيب. وإن زوج ماري قسيس كان صديق أخيها في الكلِّية فهو – بفضل ثقافته ومبادئه – أهلٌ لها وكفوء. وكل من الرئيس فيتزجايمس ومستر وارتون مُحِبٌّ زوجته. حبيبٌ إلى قلبها. أما سانت جون ريفرز فقد غادر إنكلترة مرتحلاً إلى الهند. لقد اتّخذ السبيل التي كان قد رسمها لنفسه، وهو لا يزال ماضياً فيها حتى الآن. ولعل الأيام لم تعرف رائداً مناضلاً وسط الصخور والمخاطر أشدَّ عزيمةً منه وأبعد عن الكلل. كان حازماً، مخلصاً، متفانياً، وكان يناضل، مفعماً بالطاقة والحماسة والحق، في سبيل أبناء جنسه، فهو يمهِّد لهم سبيل التقدم الوعرة، وهو يذلّل – مثل عملاق من العمالقة – أحقاد المعتقد والطبقة الاجتماعية المقفلة التي تعوق تلك السبيل. إنه قد يكون متجهماً، وقد يكون متعنِّتاً بل قد يكون طَموحاً أيضاً، ولكن تجهُّمه هو تجهُّم المحارب «ذي القلب الكبير» الذي يحمي قافلة حجَّابه من غارات أبوليون[1]. وتعنُّته هو تعنُّت الرسول الذي يتكلم باسم المسيح عندما يقول: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني». وطموحه هو طموح الروح السامية التي تهدف إلى أن تحتلّ مكاناً لها في الصف الأول من صفوف أولئك الذين فازوا بالخلاص، والذين يقفون مبرَّأين من الخطيئة أمام عرش الله، والذين يشاركون «الحَمَل»[1]انتصاراتِهِ الجبارة الأخيرة والذين ناداهم الله واصطفاهم والذين هم مخلصون.

(1) Apollyon. وقد ورد ذكره في الإصحاح التاسع من سفر الرؤيا. (المعرب)

ولا يزال سانت جون أعزب، وهو لن يتزوج بعدُ أبد الدهر. فقد استطاع أن ينهض بعبء النضال بمفرده، وهذا النضال يُوشك اليوم أن يصل إلى غايته: إن شمسه المجيدة لتجنحُ مسرعةً إلى الغروب. ولقد استطاعت آخر رسالة تلقّيتها منه أن تنتزع من عينيَّ عبرات بشرية، ولكنها مع ذلك ملأت قلبي ببهجة إلهية: لقد

توقّع أن يفوز بثوابه الأكيد، وتاجه الخالد. وأدركت أن يداً غريبة سوف تكتب إليَّ في المرة التالية لتقول إن الخادم الصالح الوفي قد دُعي آخر الأمر لدخول جنة ربه البهيجة. ولمَ أذرف العبرات حزناً ولوعة؟ إن أيما خوف من الموت لن يعكّر لحظات سانت جون الأخيرة: إن عقله سوف يكون صافياً، وإن قلبه سوف يكون باسلاً، وإن رجاءه سوف يكون يقيناً، وإن إيمانه سوف يكون راسخاً. وكلماته نفسها ضمانٌ كفيلٌ بذلك، قال:

– «إن ربي قد نبّهني. وهو كل يوم يبشرني، قائلاً في وضوح متعاظم أبداً: «إني لآتٍ، من غير ريب، على جناح السرعة!» وكل ساعة أجيبه في لهفة متعاظمة أبداً: «فلتكن إرادتك. ولتأتِ، كما تقول، أيها السيد المسيح!».

(1) يسوع المسيح. (المعرب)

الفـــــهــــــرس

مقدمة
[1]
[2]
[3]
[4]
[5]
[6]
[7]
[8]
[9]
[10]
[11]
[12]
[13]
[14]
[15]
[16]
[17]
[18]
[19]
[20]
[21]

[22]
[23]
[24]
[25]
[26]
[27]
[28]
[29]
[30]
[31]
[32]
[33]
[34]
[35]
[36]
[37]
[38] - خاتمة